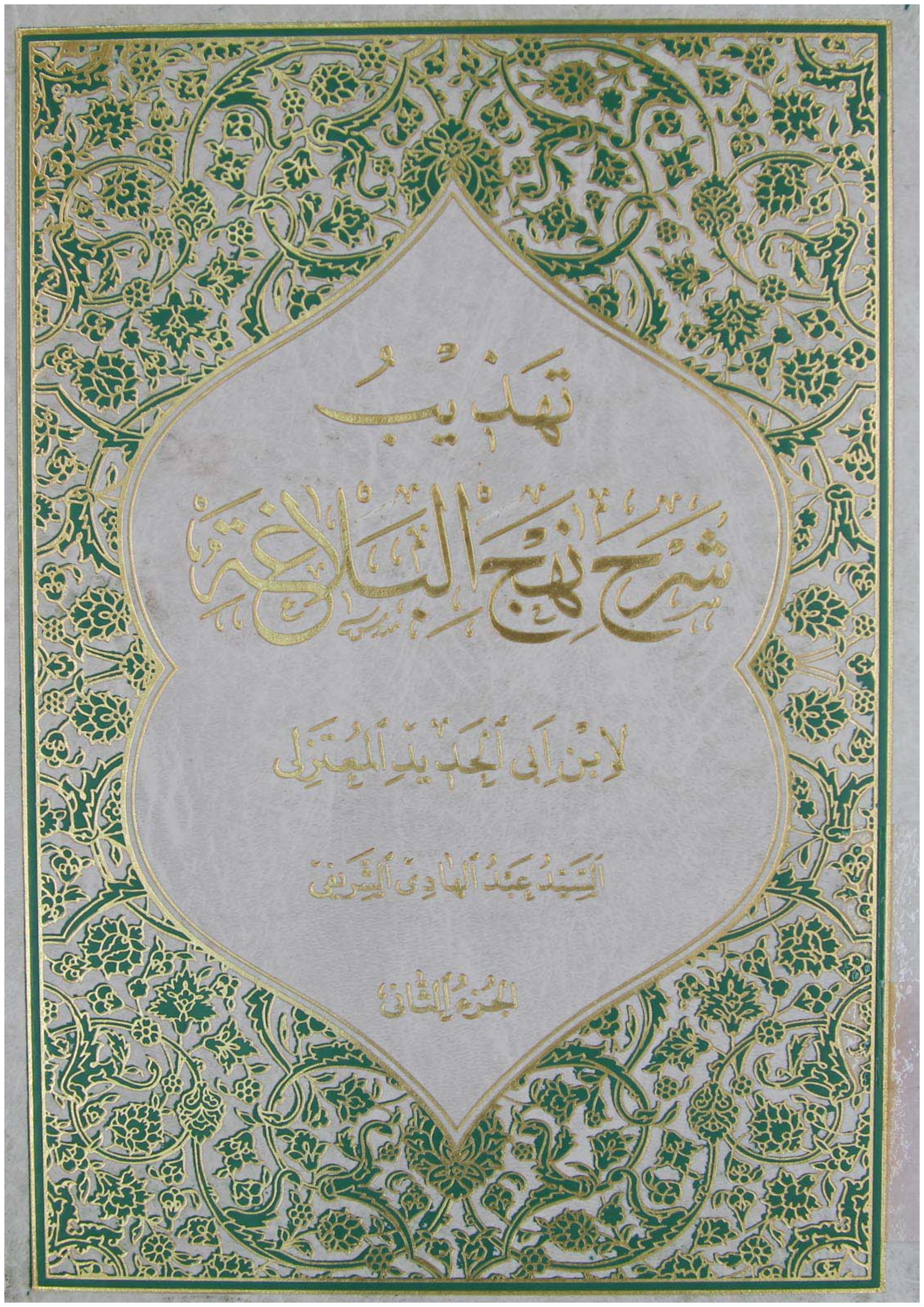
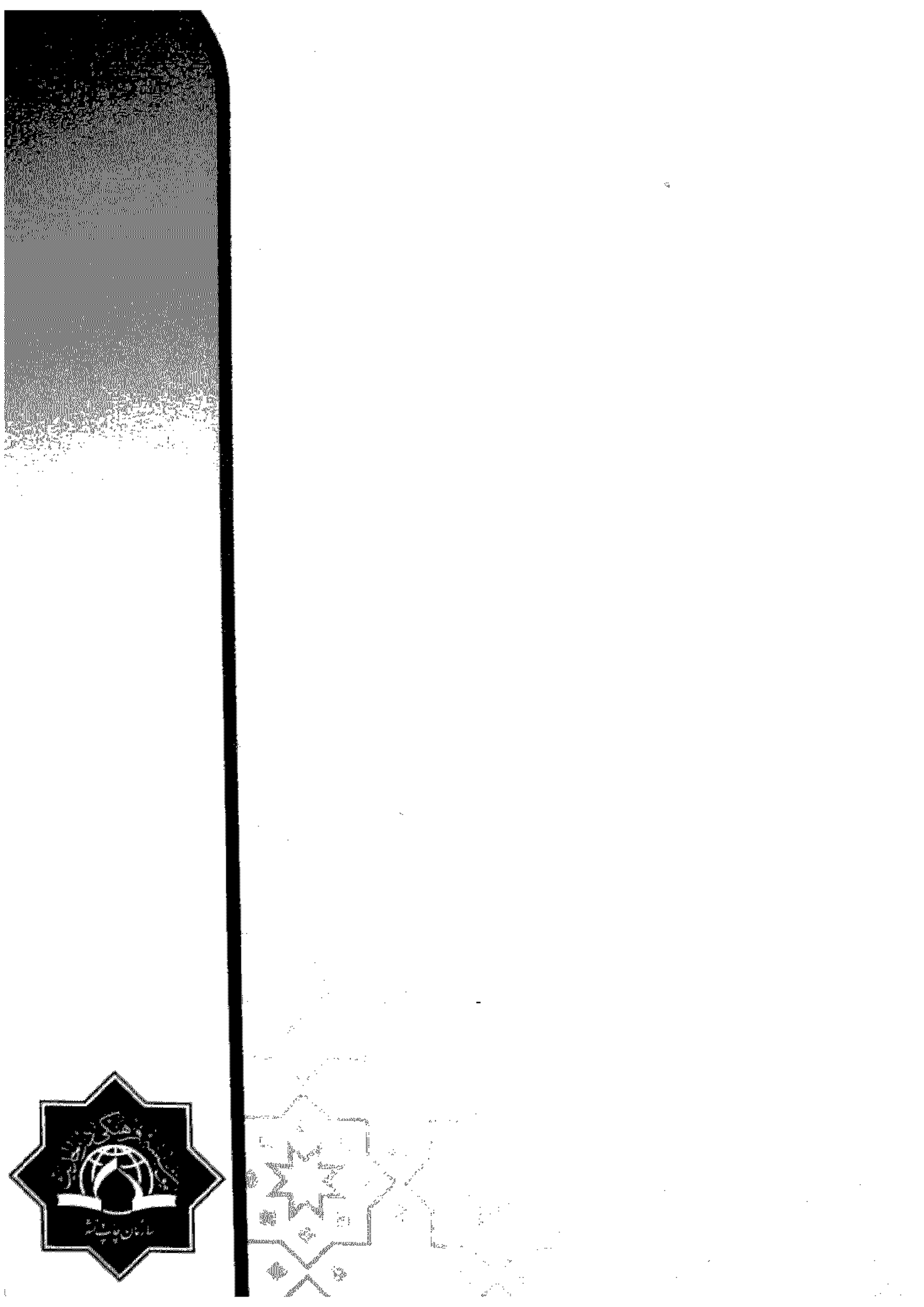

تهذيب
شرح نهج البلاغة
لابن أبي الحديد المعتزلي
السيد عبد الهادي الشريفي
الجزء الثاني






سازمان چاپ و نشر







مركز بحوث دارالحديث: ١٠١

ابن ابی الحدید، عبد الحمید بن هبة الله، ٥٨٦ ـ ٦٥٥ق.

[شرح نهج البلاغة ابن ابی الحدید، خلاصه]

تهذیب «شرح نهج البلاغة» لابن أبی الحدید المعتزلی / المهذّب: السیّد عبد الهادی الشریفی. ــ قم: دار الحدیث، ١٤٢٦ق = ١٣٨٤.

٢ج. ــ (مرکز بحوث دار الحدیث: ١٠١)

ISBN(set): 964 - 493 - 100 - 9 ٨٠٠٠٠ریال (الدورة)

ISBN: 964 - 493 - 102 - 5

١. علی بن ابی طالب(ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ٤٠ق. نهج البلاغة ـ نقد و تفسیر. الف. علی بن ابی طالب(ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ٤٠ق. نهج البلاغة. شرح. ب. شریفی، سیّد عبد الهادی، ١٣٣٧ ــ ج. عنوان. د. عنوان: نهج البلاغة.

BP١٣٠/ ٠٤ش/ ٩٠٢١١٣٨٤

فهرست‌نویسی پیش از انتشار، در کتاب‌خانهٔ تخصصی حدیث / قم

تهذيب

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد المعتزلي

السيد عبد الهادي الشريفي

الجزء الثاني

تهذيب «شرح نهج البلاغة» لابن ابي الحديد المعتزلي / ج٢
المهذّب : السيّد عبد الهادي الشريفي

استخراج الفهارس : رعد البهبهاني
المقابلة المطبعية: حيدر الوائلي
الإخراج الفنّي: محمّد باقر النجفي
الناشر: دار الحديث للطباعة والنشر
الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ ق / ١٣٨٤ ش
المطبعة: دارالحديث
الكمية: ٥٠٠ دورة
ثمن الدورة: ٨٠٠٠ تومان



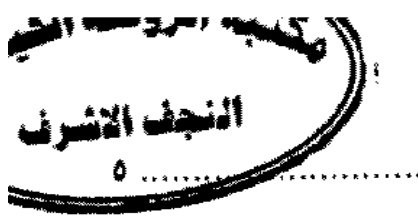
ايران: قم المقدسة، شارع معلّم، الرقم، ١٢٥ هاتف: ٧٧٤٠٥٤٥ ـ ٧٧٤٠٥٢٣ ٠٢٥١

لبنان: بيروت، حارة حريک، شارع دكاش؛ هاتف: ٠٣/٥٥٣٨٩٢ ـ ٠١/٢٧٢٦٦٤

E-mail: hadith@hadith.net

Internet:http://www.hadith.net

ISBN(set): 964 – 493 – 100 – 9
ISBN: 964 – 493 – 102 – 5



٢٠٩

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام خطبها بصفين

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً بِوِلاَيَةِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ ٱلْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، والحقُّ أَوْسَعُ ٱلْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لاَ يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَىٰ عَلَيْهِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَىٰ لَهُ. وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذٰلِكَ خَالِصاً لِلهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ، وَلٰكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَىٰ ٱلْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ. وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلاً مِنْهُ، وَتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ ٱلْمَزِيدِ أَهْلُهُ.

الشّرْحُ :

الذي له عليهم من الحقّ هو وجوب طاعته، والذي لهم عليه من الحقّ هو وجوب معدلته فيهم. والحقّ أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقُها في التناصف، معناه أنّ كلّ أحدٍ يصف الحقّ والعدل، ويذكر حسنه ووجوبه، ويقول: لو وُلّيت لعدلت، فهو بالوصف باللسان وسيع، وبالفعل ضيّق؛ لأنّ ذلك العالَم العظيم الذين كانوا يتواصفون حسنه، ويعِدُون أنْ لو وُلّوا باعتماده وفعله، لا تجدُ في الألف منهم واحداً لو ولِّيَ لعدل، ولكنه قول بغير عمل.

ثم عاد إلى تقرير الكلام الأول، وهو وجوب الحقّ له وعليه، فقال: إنّه لا يجري لأحدٍ إلّا وجرى عليه، وكذلك لا يجري عليه إلّا وجرى له، أي ليس ولا واحد من الموجودين بمرتفع عن أن يجري الحقّ عليه، ولو كان أحدٌ من الموجودين كذلك لكان أحقّهم بذلك الباري سبحانه؛ لأنَّه غايةُ الشرف، بل هو فوق الشرف وفوق الكمال والتّمام، وهو مالك الكلّ، وسيّد الكلّ، فلو كان لجواز هذه القضية وجه، ولصحّتها مساغ، لكان الباري تعالى أوْلَى بها، وهي ألّا يُستحقّ عليه شيء، وتقدير الكلام: لكنّه يُستحقّ عليه أُمور، فهو في هذا

الباب كالواحد منّا يَستحقّ ويُستحقّ عليه، ولكنّه عليه السلام حذف هذا الكلام المقدّر، أدباً وإجلالاً لله تعالى أن يقول: إنه يُستحقّ عليه شيء.

فإن قلت: فما هذه الأُمور التي زعمتَ أنها تُستحقّ على الباري سبحانه، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام حذفها من اللفظ، واللفظ يقتضيها؟

قلت: الثواب، والعوض، وقبول التوبة، واللّطف، والوفاء بالوعد، والوعيد، وغير ذلك مما يذكُره أهلُ العدل.

فإن قلت: أليس يُشعر قوله عليه السلام: «وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضّلاً منه» بمذهب البغداديين من أصحابكم، وهو قولهم: إن الثواب تفضّل من الله سبحانه، وليس بواجب!

قلت: لا، وذلك لأنّه جعل المتفضَّل به، هو مضاعفة الثواب، لا أصل الثواب، وليس ذلك بمستنكَر عندنا.

فإن قلت: أيجوز عندكم أن يستحقّ المكلّف عشرة أجزاء من الثّواب فيعطى عشرين جزءاً منه؟ أليس من مذهبكم أنّ التعظيم والتّبجيل لا يجوز من الباريُ سبحانه أن يفعلهما في الجنّة إلّا على قدر الاستحقاق، والثواب عندكم هو النفع المقارن للتعظيم والتبجيل؟ فكيف قلت: إن مضاعفة الثواب عندنا جائزة؟

قلت: مراده عليه السلام بمضاعفة الثواب هنا زيادة غير مستحقّة من النعيم واللذة الجسمانية خاصة في الجنّة، فسمَّى تلك اللذة الجسمانية ثواباً؛ لأنَّها جزء من الثواب، فأمّا اللذة العقلية فلا يجوز مضاعفتها.

قوله عليه السلام: «بما هو من المزيد أهله»، أي بما هو أهله من المزيد، فقدّم الجار والمجرور وموضعه نصب على الحال.

الأَصْلُ:

ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً ٱفْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَىٰ بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَلَا يُسْتَوْجَبُ بعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ.

وَأَعْظَمُ مَا ٱفْتَرَضَ ـ سُبْحَانَهُ ـ مِنْ تِلْكَ ٱلْحُقُوقِ حَقُّ ٱلْوَالِي عَلَىٰ الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ

الرَّعِيَّةِ عَلَىٰ ٱلْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ لِكُلٍّ عَلَىٰ كُلٍّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لأُلْفَتِهِمْ، وَعِزّاً لِدِينِهِمْ. فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ ٱلْوُلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ ٱلْوُلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ. فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَىٰ ٱلْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّىٰ ٱلْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ ٱلْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَٱعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ ٱلْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَىٰ أَذْلَالِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذٰلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ ٱلأَعْدَاءِ.

وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ ٱلْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، ٱخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ ٱلْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ ٱلْجَوْرِ، وَكَثُرَ ٱلإِدْغَالُ فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ، فَعُمِلَ بِالْهَوَىٰ، وَعُطِّلَتِ ٱلأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ! فَهُنَالِكَ تَذِلُّ ٱلأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ ٱلأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ ٱلْعِبَادِ.

فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذٰلِكَ، وَحُسْنِ ٱلتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ فَلَيْسَ أَحَدٌ ـ وَإِنِ ٱشْتَدَّ عَلَىٰ رِضَىٰ اللهِ حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي ٱلْعَمَلِ ٱجْتِهَادُهُ ـ بِبَالِغٍ حَقِيقَةَ مَا اللهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ. وَلٰكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلنَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَٱلتَّعَاوُنُ عَلَىٰ إِقَامَةِ ٱلْحَقِّ بَيْنَهُمْ. وَلَيْسَ ٱمْرُؤٌ ـ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي ٱلْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ ـ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَىٰ مَا حَمَّلَهُ اللهُ مِنْ حَقِّهِ. وَلَا ٱمْرُؤٌ ـ وَإِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ، وَٱقْتَحَمَتْهُ ٱلْعُيُونُ ـ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَىٰ ذٰلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ.

الشَّرْحُ:

تتكافأ في وجوهها: تتساوى وهي حقّ الوالي على الرعيّة، وحق الرعيّة على الوالي. وفريضة، قد روي بالنصب وبالرفع، فمن رفع فخبر مبتدأ محذوف، ومن نصب فبإضمار فعل، أو على الحال. وجرت على أذلالها السّنن، بفتح الهمزة، أي على مجاريها وطرقها. وأجحف الوالي برعيّته: ظلمهم. والإدغال في الدين: الفساد. ومحاجّ السنن: جمع محجّة، وهي جادّة الطريق. قوله: «وكثرت عِلَل النفوس»، أي تعلّلها بالباطل. واقتحمته العُيون:

احتقرته وازدرته.

ومثل قولهعليه السلام: «وليس امرؤ وإن عظمت في الحقّ منزلته»، قولُ زيد بن عليعليه السلام لهشام بن عبد الملك: إنه ليس أحدٌ وإنْ عظمت منزلته بفوقٍ أن يُذَكّر بالله، ويحذّر من سطوته، وليس أحدٌ وإن صغُر بدونٍ أن يذكَّر بالله ويخوّف من نقمته.

ومثل قولهعليه السلام: «وإذا غلبت الرعيّة واليها»، قولُ الحكماء: إذا علا صوت بعض الرعيّة على الملك فالملك مخلوع، فإن قال: نعم، فقال أحدٌ من الرعيّة: لا، فالملك مقتول.



٢١٠

الأصْلُ:

فأجابهعليه السلام رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه، ويذكر سمعه وطاعته له، فقالعليه السلام:

إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَ جَلَالُ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ ـ لِعِظَمِ ذٰلِكَ ـ كُلُّ مَا سِوَاهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذٰلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ إِلَّا ٱزْدَادَ حَقُّ اللهِ عَلَيْهِ عِظَماً. وَإِنَّ مِنْ اَسْخَفِ حَالَاتِ ٱلْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ ٱلْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَىٰ ٱلْكِبْرِ، وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ ٱلْإِطْرَاءَ، وَٱسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ؛ وَلَسْتُ ـ بِحَمْدِ اللهِ ـ كَذٰلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذٰلِكَ لَتَرَكْتُهُ ٱنْحِطَاطاً للهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ ٱلْعَظَمَةِ وَٱلْكِبْرِيَاءِ.

وَرُبَّمَا ٱسْتَحْلَىٰ النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ ٱلْبَلَاءِ، فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ البقيّة فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَا بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا، فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ ٱلْجَبَابِرَةُ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلَا تَظُنُّوا بِيَ ٱسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ

لِي، وَلَا آلْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ آسْتَثْقَلَ آلْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ آلْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ آلْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ. فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ، وَلَا آمَنُ ذٰلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ؛ يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَىٰ مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَىٰ، وَأَعْطَانَا آلْبَصِيرَةَ بَعْدَ آلْعَمَىٰ.

الشّرْحُ:

هذا الفصل وإن لم يكن فيه ألفاظ غريبة سبيلُها أن تشرَح، ففيه معان مختلفة سبيلها أن تذكر وتوضّح، وتذكر نظائرها وما يناسبها:

فمنها قوله عليه السلام: إنّ من حقّ مَنْ عَظُمت نعمة الله عليه أن تعظُم عليه حقوق الله تعالى، وأنْ يعظُم جلال الله تعالى في نفسه، ومن حقّ مَنْ كان كذلك، أن يصغُر عنده كلُّ ما سوى الله. وهذا مقام جليل من مقامات العارفين، وهو استحقار كلّ ما سوى الله تعالى، وذلك أنّ مَنْ عرف الله تعالى فقد عرف ما هو أعظمُ من كلّ عظيم، بل لا نسبة لشيء من الأشياء أصلاً إليه سبحانه، فلا يظهر عند العارف عظمةُ غيره البتّة، كما أنّ مَنْ شاهد الشّمس المنيرة يستحقر ضوء القمر والسراج الموضوع في ضوء الشمس، حال مشاهدته جرْم الشمس.

ومنها قوله عليه السلام: منْ أسخَف حالات الولاة أن يظنّ بهم حبّ الفخر ويُوضع أمرهم على الكِبْر. قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يدخل الجنّةَ مَنْ كان في قلبه مثقال حبّة من كِبْر».

ومنها قوله عليه السلام: قد كرهتُ أن تظنّوا بي حبّ الإطراء واستماع الثناء، قد روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «احثُوا في وجوه المدّاحين التراب». وكان يقال: إذا سمعتَ الرّجُل يقول فيك من الخير ماليس فيك، فلا تأمن أن يقول فيك من الشرّ ما ليس فيك.

ومنها قوله عليه السلام: لو كنت كذلك لتركته انحطاطاً لله تعالى عن تناول ما هو أحقّ به من الكبرياء. في الحديث المرفوع: «مَنْ تواضع لله رفعه الله، ومَنْ تكبّر خفضه الله». وفيه أيضاً: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما قصمتُه.

ومنها قوله عليه السلام: لا تظنّوا بي استثقالَ رفع الحقّ إليّ، فإنه مَن استثقل الحق أن يقال له، كان

العملُ به عليه أثقلَ. هذا معنى لطيف، ولم أسمع فيه شيئاً منثوراً ولا منظوماً.

ومنها قوله: ولا تكفّوا عن قولٍ بحقّ، أو مشورة بعدل. قد ورد في المشورة شيء كثير: قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[١]. وكان يقال: إذا استشرت إنساناً صار عقله لك. وقال أعرابي: ما غُبِنت قطّ حتى يُغْبَن قومِي، قيل: وكيف ذاك؟ قال: لا أفعل شيئاً حتى أُشاورَهم.

ومنها أن يقال: ما معنى قوله: «وربّما استحلَى النّاسُ الثّناء بعد البلاء ...» إلى قوله: «لابد من إمْضائها»؟ فنقول: إنّ معناه أنّ بعض مَنْ يكره الإطراء والثناء، قد يحبّ ذلك بعد البلاء والاختبار، كما قال مرْدَاس بن أديّة لزياد: إنّما الثناء بعد البلاء، وإنما يثنى بعد أن يبتلى؛ فقال: لو فرضنا أنّ ذلك سائغ وجائز وغير قبيح، لم يجزْ لكم أن تثنوا عليّ في وجهي، ولا جاز لي أن أسمَعه منكم؛ لأنّه قد بقيتْ عليّ بقيّة لم أفرُغ من أدائها، وفرائض لم أمْضِها بعد، ولابدّ لي من إمضائها؛ وإذا لم يتمّ البلاء الذي قد فرضنا أن الثناء يحسن بعده، لم يحسن الثناء.

ومعنى قوله: «لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم» أي لاعترافي بين يدي الله وبمحضر منكم أنّ عليّ حقوقاً في إيالتكم، ورئاستي عليكم لم أقم بها بعد، وأرجو من الله القيام بها.

ومنها أن يقال: ما معنى قوله: «فلا تخالطوني بالمصانعة»؟ فنقول: إنّ معناه لا تصانعوني بالمدح والإطراء عن عمل الحق، كما يصانَع به كثير من الولاة الذين يستفزّهم المدح ويستخفّهم الإطراء والثناء، فيغمضون عن اعتماد كثير من الحقّ مكافأة لما صونعوا به من التقريظ والتزكية والنفاق.

ومنها قوله: «فإنّي لست [في نفسي] بفوْقِ أنْ أخطئ»، هذا اعتراف منه بعَدم العصمة، فإمّا أن يكون الكلام على ظاهره، أو يكون قاله على سبيل هضم النفس[٢]، كما

---

١. سورة آل عمران ١٥٩.

٢. بل هذا من قبيل هضم النفس ـ دون أدنىٰ شك ـ وليس بنفي العصمة، والاستثناء يؤيد ذلك. لا أدفع ذلك إلّا بكفاية الله لي ما هو أملك له، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ (الإسراء ٧٤) ونحوها من آيات القرآن الدالة علىٰ أنّ العصمة تكون بتأييد الله سبحانه. وقال المجلسي: هذا من الانقطاع إلى الله والتواضع الباعث لهم علىٰ الانبساط معه بقول الحق، وعدّ نفسه من المقصّرين في مقام

قال رسول الله ﷺ: «ولا أنا إلّا أن يتداركني الله برحمته».

ومنها قوله ﷺ: «أخرجنا مما كنا فيه، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدىٰ، وأعطانا البصيرة بعد العمى»، ليس هذا إشارة إلى خاصّ نفسه ﷺ؛ لأنّه لم يكن كافراً فأسلم، ولكنه كلام يقوله ويشير به إلى القوم الذين يخاطبهم من أفْناء الناس، فيأتي بصِيغة الجمع الداخلة فيها نفسه توسُّعاً، ويجوز أن يكون معناه: لولا ألطافُ الله تعالى ببعثة محمد ﷺ لكنتُ أنا وغيري علىٰ أصلِ مذهب الأسلاف من عبادة الأصنام، كما قال تعالى لنبيه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَىٰ﴾[1]، ليس معناه أنّه كان كافراً، بل معناه: لولا اصطفاء الله تعالى لك لكنت كواحدٍ من قومك. ومعنى «ووجدك ضالاًّ»، أي ووجدك بعُرْضة للضلال، فكأنه ضالٌّ بالقوّة لا بالفعل.



الأصْلُ:

ومن كلام له ﷺ

آللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَىٰ قُرَيْش وَمَنْ أَعَانَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وَأَكْفَؤُوا إِنَائِي، وَأَجْمَعُوا عَلَىٰ مُنَازَعَتِي حَقّاً كُنْتُ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ غَيْرِي، وَقَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي آلْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي آلْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ، فَاصْبِرْ مَغْمُوماً، أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً. فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ، وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي؛ فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ آلْمَنِيَّةِ، فَأَغْضَيْتُ عَلَىٰ آلْقَذَىٰ، وَجَرِعْتُ رِيقِي عَلَىٰ آلشَّجَا، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ آلْغَيْظِ عَلَىٰ أَمَرَّ مِنَ آلْعَلْقَمِ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ آلشِّفَارِ.

← العبودية، والإقرار بأنّ عصمته من نعمه تعالىٰ عليه فلا يدل كلامه ﷺ علىٰ اعترافه بعدم العصمة. انظر: شرح النهج المقتطف من بحار الأنوار ٢: ٤٥٣.

١. سورة الضحى ٧.

قالَ الرَّضيّ ؓ:

وَقَدْ مَضَى هذا الكلامُ في أثْناءِ خُطْبَةٍ متقدمة، إلّا أنّي ذَكَرْتُهُ ها هنا لاختِلافِ الرِّوايَتَينْ[١].

الشَّرْحُ:

العدوى: طلبك إلى والٍ ليُعدِيك على مَنْ ظلمك، أي ينتقم لك منه، يقال: استعديتُ الأميرَ على فلان فأعداني، أي استعنت به عليه فأعانني. وقطعوا رحمي: وقطعوا قرابتي، أي أجروْني مجرى الأجانب. ويجوز أن يُريد أنّهم عدّوني كالأجنبيّ من رسول الله ﷺ. ويجوز أن يريد أنّهم جعلوني كالأجنبيّ منهم؛ لا ينصرونه، ولا يقومون بأمره. وأكفؤوا إنائي: قلبوه وكبّوه، وحذْف الهمزة من أوّل الكلمة أفصح وأكثر، وقد روي كذلك، ويقال لمن قد أُضيعت حقوقه: قد [أُكفئ إناؤهُ][٢] تشبيها بإضاعة اللبن من الإناء.

وقد اختلفت الرواية في قوله: «ألا إنّ في الحقّ أن تأخذه»، فرواها قوم بالنون، وقوم بالتاء. وقال الراوندي: إنها في خطّ الرضيّ بالتاء. ومعنى ذلك أنك إن وليت أنت كانت ولايتُك حقّاً، وإن وُلّي غيرُك كانت ولايته حقاً، على مذهب أهل الاجتهاد[٣]. ومن رواها بالنون، فالمعنى ظاهر.

والرافد: المعين. والذابّ الناصر. وضننت بهم: بخلت بهم. وأغضيت على كذا: صَبَرت. وجرِعت بالكسر. والشّجا: ما يعترض في الحلْق. والوخز: الطعن الخفيف، وروي «من حزّ الشفار» والحزّ: القطع. والشِّفار: جمع شفْرة، وهي حدّ السيف والسكّين.

واعلم أنّ هذا الكلام قد نُقل عن أمير المؤمنين ؑ ما يناسبه، ويجري مجراه، ولم يؤرّخ الوقت الذي قاله فيه، ولا الحال التي عَناها به، وأصحابنا يحملون ذلك على أنّه ؑ قاله عَقِيب الشّورى وبيعة عثمان، فإنه ليس يرتاب أحدٌ من أصحابنا عَلَى أنّه تظلّم وتألّم حينئذٍ، ويكره أكثر أصحابنا حمل أمثال هذا الكلام علىٰ التألم من يوم السقيفة.

---

١. مرّ ذلك في الخطبة (١٧٣).

٢. في الأصل: أكفأ إناءَهُ.

٣. وأمّا علىٰ مذهب الإمامية، فيكون المعنى: إن وليتَ أنت كانت ولايتك حقاً، وإن ولي غيرك، فعليك الاستسلام والخضوع ومجاراة الظروف. وهو يتضمن اعترافهم بحقه، ولكنهم طلبوا منه الاستسلام مجاراة للظروف.

وقد روى كثير من المحدّثين أنّه عقيب يوم السّقيفة تألّم وتظلّم، واستنجد واستصرخ، حيث ساموه الحضور والبيْعة، وأنّه قال وهو يشير إلى القبر: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾[1]، وأنّه قال: واجعفراه! ولا جعفر لي اليوم! واحمزتاه ولا حمزة لي اليوم!



الأصْلُ:

ومن كلام له عليه السلام في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه عليه السلام

فَقَدِمُوا عَلَىٰ عُمَّالِي وَخُزَّانِ بَيْتِ مالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيَّ، وَعَلَىٰ أَهْلِ مِصْرٍ، كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَعَلَىٰ بَيْعَتِي؛ فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَمَاعَتَهُمْ، وَوَثَبُوا عَلَىٰ شِيعَتِي، فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْراً؛ وَطَائِفَةٌ عَضُّوا عَلَىٰ أَسْيَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّىٰ لَقُوا اللهَ صَادِقِينَ.

الشّرْحُ:

عضّوا على أسيافهم، كناية عن الصّبْر في الحرب وترك الاستسلام، وهي كناية فصيحة، شبّه قبضَهم على السيوف بالعضّ، وقد قدمنا ذكر ما جرى، وأنّ عسكر الجمل قتلوا طائفة من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام بالبصرة بعد أن أمّنوهم غدراً، وأنّ بعض الشيعة صبر في الحرب ولم يستسلم، وقاتل حتى قتل، مثل حكيم بن جبلة العبديّ وغيره، وروي: «وطائفةٌ عضّوا علىٰ أسيافهم» بالرفع، تقديره: ومنهم طائفة.

١. سورة الأعراف ١٥٠.

قرأت في كتاب «غريب الحديث» لأبي محمد عبد الله بن قتيبة في حديث حُذَيفة بن اليمان، أنّه ذكر خروج عائشة، فقال: «تقاتل معها مُضَر، مضّرها الله في النار[١]، وأزد عُمان سلَت الله أقدامها[٢]، وإنّ قيساً لن تنفكّ تبغي دين الله شرّاً، حتى يركبها الله بالملائكة، فلا يمنعوا ذَنَب تَلْعة[٣]».

قلت: هذا الحديث من أعلام نبوّة سيدنا محمدﷺ؛ لأنّه إخبار عن غيب تلقّاه حُذيفة عن النبيﷺ؛ وحُذَيفة أجمع أهل السيرة على أنه مات في الأيّام التي قتل عثمان فيها أتاه نعيُه وهو مريض، فمات وعليٌّ عليه السلام لم يتكامل بيعة الناس، ولم يدرك الجمل.

وهذا الحديث يؤكّد مذهب أصحابنا في فسق أصحاب الجمل، إلّا مَنْ ثبتت توبتُه منهم، وهم الثلاثة[٤].

---

١. قال ابن الأثير في شرحه للحديث: «أي جعلها في النار، فاشتق لذلك لفظاً من اسمها؛ يقال: مضّرنا فلاناً فتمضر، أي صيرناه كذلك، أي نسبناه إليها. النهاية ٤:٩٨.

٢. قال ابن الأثير في شرحه للحديث: «أي جعلها في النار، فاشتق لذلك لفظاً من اسمها؛ يقال: مضّرنا فلاناً فتمضر، أي صيرناه كذلك، أي نسبناه إليها. النهاية ٤:٩٨.

٣. التلاع: مسايل الماء، من علوّ إلى سفل، واحدها تلعة، وذنب التلعة: أسفلها، قال الزمخشري: «أي يذلّها الله حتى لا تقدر على أن تمنع ذنب تلعة. الفائق ٣: ٣٢.

٤. صريح مذهب الإمامية، أنّ الخارج على أمير المؤمنين عليه السلام والمقاتل له كافر؛ بدليل إجماع الفرقة المحقّة علىٰ ذلك. وأن المحاربين له كانوا منكرين لإمامته، ومنكر الإمامة كمنكر النبوة سواء؛ لقولهﷺ: « من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية». وأمّا حديث توبتهم فباطل؛ لانّ الفسق معلوم ضرورة، وما يدّعونه من التوبة طريقه الآحاد، ولا نرجع عن المعلوم إلى المظنون.

وما روي أنّه لما جاء ابن جرموز برأس الزّبير وسيفه، تناول سيفه، وقال عليه السلام: « سيف طال ما جلىٰ به الكرب عن وجه رسول الله، ولكن الحين ومصارع السوء». ومن كان تائباً لا يوصف مصرعه بأنه مصرع سوء.

وروىٰ حبة العرني قال: سمعت علياً يقول: «والله لقد علِمتْ صاحبةُ الهودج أنّ أصحاب الجمل ملعونون علىٰ لسان النبي الأُميّ».

وأمّا طلحة فقد قتل بين الصفين، فمتىٰ تاب؟ وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه مرّ عليه وهو مقتول، فقال: «أقعدوه، فأقعدوه، فقال: «كانت سابقة ولكن الشيطان دخل منخرك وأوردك النار».

وأمّا إصرار عائشة، فإنّ ما روي من المحاورة بين عبد الله بن العباس رضي الله عنه وبينها، وامتناعها عن تسميته بإمرة المؤمنين؛ دليل واضح علىٰ إصرارها. ولمّا انتهىٰ قتل أمير المؤمنين عليه السلام إلىٰ عائشة تهلّل وجهها،



الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لمّا مر بطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وهما قتيلان يوم الجمل:

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهٰذَا ٱلْمَكَانِ غَرِيباً ! أَمَا وَٱللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتْلَىٰ تَحْتَ بُطُونِ ٱلْكَوَاكِبِ ! أَدْرَكْتُ وِتْرِي مِنْ بَنِي عَبْدِمَنَافٍ، وَأَفْلَتَتْنِي أَعْيَانُ بَنِي جُمَحَ ، لَقَدْ أَتْلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَىٰ أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوُقِصُوا دُونَهُ !

الشّرْحُ :

هو عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد بن أبي العيص بن أُميّة بن عبد شمس. ليس بصحابيّ، ولكنّه من التابعين.

واعلم أنّه عليه السلام أخرج هذا الكلام مخرج الذمّ لمن حضر الجمل مع عائشة زوجة النبيّ صلى الله عليه وآله من بني جُمَح، فقال: «وأفلتتْنِي أعيارُ بني جُمَح»، جمع عَيْر وهو الحمار، وقد كان معها منهم يوم الجمل جماعة هربوا، ولم يقتل منهم إلّا اثنان، فإنْ صحّت الرواية: «وأفلتني أعيان بني جُمح»، بالنون، فالمراد رؤساؤهم وساداتهم.

وأتلعوا أعناقهم: رفعوها، ورجل أتْلَع بيّن التَلع، أي طويل العنق، وجِيدٌ تلِيع أي طويل.

⟸ وقالت:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى ... كما قرّ عيناً بالإياب المسافرُ

فأيّ توبة مع هذه الشماتة الواضحة.

وأمّا حديث العشرة المبشّرة بالجنّة، فلا يدلّ على توبتهم؛ لأنّه خبر واحد ضعيف مقدوح في سنده، وأول دليل على فساده، هو أن النبي صلى الله عليه وآله لا يجوز أن يقول لمن ليس بمعصوم: (أنت في الجنة)؛ لأنّ ذلك إغراء بالقبيح. والرواية عن سعيد بن زيد، وهو أحد العشرة، فلا يقبل خبره؛ لأنّه يشهد لنفسه. أُنظر: كتاب الاقتصاد للشيخ الطوسي: ص ٢٣٠، والشافي للسيد المرتضى ٤: ٣٢٢ وما بعدها.

ووُقِص الرّجل، إذا اندقّت عنُقه، فهو موقوص، ووَقصتُ عنقَ الرّجل أقِصُها وَقْصاً، أي كسرتها، ولا يجوز وقصت العنق نفسها.

والضمير في قوله ﷺ: «لقد أتلعوا» يرجع إلى قريش، أي راموا الخلافة فقتِلُوا دونها.



٢١٤

الأصْلُ:

ومن كلام له ﷺ

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّىٰ دَقَّ جَلِيلُهُ، وَلَطُفَ غَلِيظُهُ، وَبَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرُ ٱلْبَرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَتَدَافَعَتْهُ ٱلْأَبْوَابُ إِلَىٰ بَابِ السَّلَامَةِ، وَدَارِ ٱلْإِقَامَةِ، وَثَبَتَتْ رِجْلَاهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ ٱلْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا ٱسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَىٰ رَبَّهُ.

الشّرْحُ:

يصف العارفَ، يقول: قد أحيا قلبه بمعرفة الحقّ سبحانه، وأمات نفسه بالمجاهدة ورياضة القوّة البدنية ببالجوع والعطش، والسهر، والصّبْر عَلَى مشاقّ السفر، والسياحة. «حتى دقّ جليلُه»، أي حتى نَحَل بدنُه الكثيف. «ولطف غليظُه»، تلطفت أخلاقه وصفتْ نفسه، فإن كَدر النفس في الأكثر إنّما يكون من كَدَر الجسد، والبطنة ـ كما قيل ـ تذهب الفطنة.

واعلم أن قوله ﷺ: «وبرق له لامعٌ كثير البرق»، هو حقيقة مذهبِ الحكماء، وحقيقة قول الصوفيّة أصحاب الطريقة والحقيقة؛ وقد صرّح به الرئيس أبو عليّ ابن سينا في كتاب «الإشارات»، فقال في ذكر السالك إلى مرتبة العرفان: ثم إنّه إذا بلغت به الإرادة والرياضة حدّاً ما عَنَّتْ له خُلْسات من اطّلاع نور الحق إليه لذيذة كأنها بروقٌ تُومِض إليه ثم تخمَد عنه، وهي التي تسمّى عندهم أوقاتاً، وكلّ وقتٍ يكتنفه وجْدٌ إليه، ووجد عليه ...

وقال القشيريّ في الرّسالة لمّا ذكر الحال والأُمور الواردة على العارفين، قال: هي بروق تلمع ثم تخمد، وأنوار تبدو ثم تخفى، ما أحلاها لو بقيت مع صاحبها.

فهو كما تراه يذكر البروق اللامعة حَسْبما ذكره الحكيم، وكلاهما يتّبع ألفاظ أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنّه حكيم الحكماء وعارف العارفين، ومعلّم الصوفيّة، ولولا أخلاقه وكلامه وتعليمُه للناس هذا الفن تارةً بقوله، وتارة بفعله، لما اهتدى أحد من هذه الطائفة، ولا عِلم كيف يُورد، ولا كيف يصدِر.

ثم قال عليه السلام: «وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة»، أي لم يزل ينتقل من مقام من مقامات القوم إلى مقام فوقه، حتّى وصل، وتلك المقامات معروفة عند أهلها، ومَنْ له أنس بها.

ثم قال: «وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمين والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه»، أي كانت الراحة الكليّة والسعادة الأبديّة مستثمرة من ذلك التعب الذي تحمّله لما استعمل قلبه، وراض جوارحه ونفسه، حتى وصل، كما قيل:

عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى   وَتَنْجَلِي عَنَّا غَيَابَاتُ الْكَرَى



الأصْلُ:

ومن كلام له عليه السلام يحث فيه أصحابه على الجهاد

وَٱللهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ، وَمُوَرِّثُكُمْ أَمْرَهُ، وَمُمْهِلُكُمْ فِي مِضْمَارٍ مَمْدُودٍ، لِتَتَنَازَعُوا سَبَقَهُ، فَشُدُّوا عُقَدَ ٱلْمَآزِرِ، وَٱطْوُوا فُضُولَ ٱلْخَوَاصِرِ، لَاتَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ. مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ ٱلْيَوْمِ، وَأَمْحَىٰ الظُّلَمَ لِتَذَاكِيرِ ٱلْهِمَمِ!

الشّرْحُ:

مستأديكم شكره، أي طالبٌ منكم أداء ذلك والقيام به، استأديت دَيْني عند فلان، أي طلبته. وقوله: ومورّثكم أمره»، أي سيرجع أمر الدولة إليكم، ويزول أمر بني أُميّة. ثم شبه

الآجال الّتي ضُرِبَتْ للمكلّفين ليقوموا فيها بالواجبات، ويتسابقوا فيها إلى الخيرات، بالمضْمار الممدود لخيل تتنازع فيه السبق.

ثم قال: «فشدّوا عُقَد المآزر»، أي شمّروا عن ساق الاجتهاد، ويقال لمن يوصَى بالجدّ والتشمير: اشدد عُقْدة إزارك؛ لأنّه إذا شدّها كان أبعَد عن العثار، وأسرع للمشي. «واطووا فُضُول الخواصر»، نهى عن كثرة الأكل؛ لأنّ الكثير الأكل لا يطوي فضول خواصره لامتلائها، والقليل الأكل يأكل في بعضها ويطوي بعضها.

ثم أتى عليه السلام بثلاثة أمثال مخترعة له لم يسبق بها، وإن كان قد سبق بمعناها، وهي قوله: «لا تجتمع عزيمة ووليمة». وقوله: «ما أنقض النوم لعزائم اليوم»! وقوله: «وأمْحَى الظلم لتذاكير الهمم»!

فمما جاء من ذلك، قول رجل لولده:

ما للمطيع هواهُ ... من الملامِ ملاذُ
فاختر لنفسك هَذَا ... مَجْدٌ، وهذا التِذَاذُ

ومثل قوله: «ما أنقَضَ النّوم لعزائم اليوم» قولُ الشاعر:

فَتىً لا ينامُ على عزمِه ... ومَن صَمَّمَ العزم لم يرقدِ

وقوله: «وأمحى الظّلم لتذاكير الهمم»، أي الظُّلَم التي ينام فيها، لا كلّ الظلم، ألا ترى أنه إذا لم ينم في الظلمة بل كان عنده من شدّة العزم وقوة التصميم ما لا ينام معه، فإنّ الظلمة لا تمحو تذاكير همه. والتذاكير: جمع تَذْكار.

والمثلان الأوّلان أحسن من الثالث، وكأن الثالث من تتمة الثاني.

وقد قالت العرب في الجاهلية هذا المعنى، وجاء في القرآن العزيز: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾**[1].

وهذا مثل قوله: «لا تجتمع عزيمة ووليمة»، أي لا يجتمع لكم دخول الجنة والدّعة، والقعود عن مشقّة الحرب.

---

١. سورة البقرة ٢١٤.



الأَصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام قاله بعد تلاوته

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾(١)

يَا لَهُ مَرَاماً مَا أَبْعَدَهُ! وَزَوْراً مَا أَغْفَلَهُ! وَخطراً مَا أَفْظَعَهُ! لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ. أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَىٰ يَتَكَاثَرُونَ!

الشَّرْحُ :

قد اختلف المفسرون في تأويل هاتين الآيتين، فقال قوم: المعنى أنّكم قطعتم أيّام عمركم في التكاثُر بالأموال والأولاد، حتى أتاكم الموت، فكنَى عن حلول الموت بهم بزيارة المقابر. وقال قوم: بل كانوا يتفاخرون بأنفسهم، وتعدّى ذلك إلى أن تفاخروا بأسلافهم الأموات، فقالوا: منّا فلان وفلان ـ لقوم كانوا وانقرضوا. وهذا هُو التّفسير الذي يدلّ عليه كلام أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «يا له مراماً!»، منصوب على التمييز. ما أبعده! أي لا فخر في ذلك، وطلب الفخر من هذا الباب بعيد؛ وإنّما الفخر بتقوى الله وطاعته. وزوراً ما أغفله! إشارة إلى القوم الذين افتخروا؛ جعلهم بتذكّر الأموات السالفين كالزائرين لقبورهم. والزوْر: اسم للواحد والجمع، كالخَصْم والضَّيْف. قال: ما أغفلهم عمّا يراد منهم! لأنهم تركوا العبادة والطاعة، وصرموا الأوقات بالمفاخرة بالموتى. ثم قال: «وخطراً ما أفظعه!» إشارة إلى الموت: ما أشدّه! فَظُع الشيء بالضمّ، فهو فظيع، أي شديد شنيع مجاوز للمقدار.

قوله: «لقد استخلَوْا منهم أي مدّكر»، أراد بـ«استخلَوْا» ذكر منْ خلا من آبائهم، أي مَنْ مضى، يقال: هذا الأمر من الأُمور الخالية، وهذا القرن من القرون الخالية، أي الماضية. واستخلى فلان في حديثه، أي حدّث عن أُمور خالية، والمعنى أنّه استعظم ما يوجبه حديثُهم عمّا خلا وعمّن خلا من أسلافهم وآثار أسلافهم من التذكير، فقال: أيّ مدّكر وواعظ في ذلك! وروي أيّ مذكَر بمعنى المصدر، كالمعتقد بمعنى الاعتقاد، والمعتبر بمعنى

---

١. سورة التكاثر ١ و ٢.

الاعتبار. « وتناوشوهم من مكان بعيد»، أي تناولوهم، والمراد ذكروهم وتحدّثوا عنهم؛ فكأنّهم تناولوهم، وهذه اللفظة من ألفاظ القرآن العزيز: ﴿وَقَالُوا آمنَّا بِهِ وَأنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[1]؛ وأنّى لهم تناولُ الإيمان حينئذٍ بعد فوات الأمر!

الأصْلُ:

يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ. وَلأَنْ يَكُونُوا عِبَراً، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً، وَلأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ، أَحْجَىٰ مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ. لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ ٱلْعَشْوَةِ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ. وَلَوِ ٱسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ ٱلْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ ٱلْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي ٱلْأَرْضِ ضُلَّالاً، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالاً، تَطَؤُونَ فِي هَامِهِمْ، وَتَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا؛ وَإِنَّمَا ٱلْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ. أُولٰئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ، وَفُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمْ، الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ ٱلْعِزِّ، وَحَلَبَاتُ ٱلْفَخْرِ، مُلُوكاً وَسُوَقاً.

الشّرْحُ:

«يرتجعون منهم أجساداً»، أي يذكرون آباءهم، فكأنّهم ردّوهم إلى الدنيا، وارتجعوهم من القبور. وخَوَتْ: خلت. قال: وهؤلاء الموتى أحقُّ بأن يكونوا عبرة وعظةً من أن يكونوا فخراً وشرفاً، والمفتخرون بهم أولى بالهبوط إلى جانب الذلّة منهم بالقيام مقام العزّ. وتقول: هذا أحْجَى من فلان، أي أوْلَى وأجدر. والجناب: الفِناء.

ثم قال: «لقد نظروا إليهم بأبصار العَشْوة»، أي لم ينظروا النّظر المفضيَ إلى الرؤية؛ لأنّ أبصارَهم ذات عَشْوة، وهو مرض في العين ينقص به الإبصار، وفي عين فلان عَشَاءٌ وعَشْوة بمعنىً، ومنه قيل لكلّ أمرٍ ملتبس يركبه الرّاكب على غير بيان: أمر عَشْوة، ومنه أوطأتني

---

١. سورة سبأ ٥٢.

غُشْوة، ويجوز بالضمّ والفَتْح. «وضربوا بهم في غَمْرة جهالة»، أي وضربوا من ذكر هؤلاء الموتى في بحر جهل، والضرب هاهنا: استعارة، أو يكون من الضَّرب بمعنى السير، كقوله تعالى: ﴿وإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ﴾[1]، أي خاضوا وسبحوا من ذكرهم في غمرة جهالة، وكلُّ هذا يرجع إلى معنى واحد، وهو تسفيه رأي المفتخرين بالموتى، والقاطعين الوقت بالتكاثر بهم؛ إعراضاً عمّا يجب إنفاقه من العمر في الطاعة والعبادة.

ثم قال: لو سألوا عنهم ديارهم التي خلت منهم، ويمكن أن يريد بالديار والربوع القبور. «لقالت: ذهبوا في الأرض ضُلّالاً»، أي هالكين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[2]. «وذهبتم في أعقابهم»، أي بعدهم جهالاً؛ لغفلتكم وغروركم.

قوله ﷺ: «تَطؤون في هامهم»، أخذ هذا المعنى أبو العلاء المعرّي، فقال:

خَفِّفِ الوطْء ما أظنّ أديمَ الـ ... أرْضِ إلّا مِنْ هَذِه الأجْسَادِ
رُبّ لحدٍ قَد صار لحداً مِراراً ... ضَاحكٍ من تزاحُم الأضْدَادِ

قوله: «وتستنبتون في أجسادهم»، أي تزرعون النَّبات في أجسادهم؛ وذلك لأنّ أديم الأرض الظاهر إذا كان من أبدان الموتى، فالزّرع لا محالة يكون نابتاً في الأجزاء التّرابية التي هي أبدان الحيوانات. وروي: «وتستثبتون»، بالثاء، أي وتنصبون الأشياء الثابتة كالعَمد والأساطين للأوطان في أجساد الموتى.

ثم قال: «وترتعون فيما لفظوا»، لفَظتُ الشيء بالفتح: رميتُه من فمي، ألفِظه بالكسر، ويجوز أن يريد بذلك أنّكم تأكلون ما خلّفوه وتركوه. ويجوز أن يريد أنّكم تأكلون الفواكه التي تنبت في أجزاء ترابيّة خالطها الصديد الجاري من أفواههم.

ثم قال: «وتسكنون فيما خرّبوا»، أي تسكنون في المساكن التي لم يعمروها بالذكر والعبادة، فكأنهم أخربوها في المعنى، ثم سكنتم أنتم فيها بعدهم. ويجوز أن يريد أنّ كلّ دار عامرة قد كانت من قبل خرِبة، وإنّما أخربها قوم بادوا وماتوا. ويجوز أن يريد بقوله: «وتسكنون فيما خربوا»، وتسكنون في دورٍ فارقوها وأخلوْها، فأطلقَ على الخلوّ والفراغ لفظ «الخراب» مجازاً. قوله: «وإنّما الأيّام بينكم وبينهم بواكٍ ونوائحُ عليكم»، يريد أنّ

---

١. سورة النساء ١٠١.

٢. سورة السجدة ١٠.

الأيام والليالي تشيّع رائحاً إلى المقابر، وتبكي وتنوح على الباقين الذين سيلتحقون به عن قريب. «أولئكم سلف غايتِكم»، السلف: المقدّمون. والغاية: الحدّ الذي ينتهي إليه، إمّا حسّياً أو معنوياً، والمراد هاهنا الموت. والفرُط: القوم يسبقون الحيّ إلى المنهل. ومقاوم العزّ: دعائمه، جمع مقوم، وأصلها الخشبة التي يمسكها الحرّاث. وحلَبات الفخر: جمع حَلْبة، وهي الخيل تجمع للسباق. والسُّوَق، بفتح الواو: جمع سُوقة؛ وهو مَنْ دون الملِك.

الأصْلُ:

سَلَكُوا فِي بُطُونِ ٱلْبَرْزَخِ سَبِيلاً سُلِّطَتِ ٱلْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ؛ فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَاداً لَا يَنْمُونَ، وَضِمَاراً لَايُوجَدُونَ؛ لَايُفْزِعُهُمْ وُرُودُ ٱلْأَهْوَالِ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ ٱلْأَحْوَالِ، وَلَايَحْفِلُونَ بِالرَّوَاجِفِ، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ. غُيَّباً لَا يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُوداً لَا يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا، وَأُلَّافاً فَافْتَرَقُوا، وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ، وَلٰكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً، وَبِالسَّمْعِ صَمَماً، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُوناً، فَكَأَنَّهُمْ فِي ٱرْتِجَالِ الصِّفَةِ صَرْعَىٰ سُبَاتٍ. جِيرَانٌ لَا يَتَأَنَّسُونَ، وَأَحِبَّاءٌ لَايَتَزَاوَرُونَ. بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ، وَٱنْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ ٱلْإِخَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ ٱلْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَّاءُ. لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَبَاحاً، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً.

أَيُّ ٱلْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَداً، شَاهَدُوا مِنْ أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكِلْتَا ٱلْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَىٰ مَبَاءَةٍ، فَأَتَتْ مَبَالِغَ ٱلْخَوْفِ وَٱلرَّجَاءِ. فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا.

وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ، وَٱنْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ ٱلْعِبَرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ ٱلْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ، فَقَالُوا: كَلَحَتِ ٱلْوُجُوهُ

ٱلنَّوَاضِرُ ، وَخَوَتِ ٱلْأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ ٱلْبِلَىٰ ، وَتَكَاءَدَنَا ضِيقُ ٱلْمَضْجَعِ ، وَتَوَارَثْنَا ٱلْوَحْشَةَ ، وَتَهَكَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ. فَانْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُوَرِنَا ، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ ٱلْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا ؛ وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً ، وَلَا مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً. فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ ٱلْغِطَاءِ لَكَ ، وَقَدِ ٱرْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ ، وَٱكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ ، وَتَقَطَّعَتِ ٱلْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَاقَتِهَا ، وَهَمَدَتِ ٱلْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا ، وعَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلىً سَمَّجَهَا ، وَسَهَّلَ طُرُقَ ٱلآفَةِ إِلَيْهَا ، مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ ، وَلَا قُلُوبٌ تَجْزَعُ ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ ، وَأَقْذَاءَ عُيُونٍ ، لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةُ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ ، وَغَمْرَةٌ لَا تَنْجَلِي.

فَكَمْ أَكَلَتِ ٱلْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ ، وَأَنِيقِ لَوْنٍ ، كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيَّ تَرَفٍ ، وَرَبِيبَ شَرَفٍ ! يَتَعَلَّلُ بالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ ، وَيَفْزَعُ إِلَىٰ السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ ، ضَنّاً بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ ، وَشَحَاحَةً بَلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ ! فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَىٰ الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ الدُّنيا إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ ، إِذْ وَطِىءَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ وَنَقَضَتِ ٱلْأَيَّامُ قُوَاهُ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ ٱلْحُتُوفُ مِنْ كَثَبٍ ، فَخَالَطَهُ بَثٌّ لَا يَعْرِفُهُ ، وَنَجِيُّ هَمٍّ مَا كَانَ يَجِدُهُ ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ عِلَلٍ ، آنَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ ، فَفَزِعَ إِلَىٰ مَا كَانَ عَوَّدَهُ ٱلْأَطِبَّاءُ مِنْ تَسْكِينِ ٱلْحَارِّ بِالْقَارِّ ، وَتَحْرِيكِ ٱلْبَارِدِ بِالْحَارِّ ، فَلَمْ يُطْفِىءْ بِبَارِدٍ إِلَّا ثَوَّرَ حَرَارَةً ، وَلَا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيَّجَ بُرُودَةً ، وَلَا ٱعْتَدَلَ بِمُمَازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ ؛ حَتَّىٰ فَتَرَ مُعَلِّلُهُ ، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجَى خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ ، فَقَائِلٌ : هُوَ لِمَا بِهِ ، وَمُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَىٰ فَقْدِهِ ، يُذَكِّرُهُمْ أُسَىٰ ٱلْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ.

فَبَيْنَا هُوَ كَذٰلِكَ عَلَىٰ جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا ، وَتَرْكِ ٱلْأَحِبَّةِ ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ ، وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ. فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ

عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ، وَدُعَاءِ مُؤْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ.

وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَىٰ عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا.

الشّرْحُ:

هذا موضع المثل: «ملْعاً يا ظليم وإلّا فالتَخْوِيَةُ» مَنْ أراد أن يعظَ ويخوّف، ويقرع صَفَاةَ القلب، ويعرّف الناس قدر الدنيا وتصرّفها بأهلها، فليأتِ بمثل هذه الموعظة في مثل هذا الكلام الفصيح وإلّا فليمسِك، فإنّ السكوت أستر، والعيّ خير من منطق يفضح صاحبه. وَمَنْ تأمّل هذا الفصل، علم صدق معاوية في قوله فيه: « والله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره ».

وأُقسم بمن تُقسِم الأُمم كلّها به؛ لقد قرأتُ هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة، ما قرأتها قطّ إلّا وأحدثتْ عندي روعة وخوفاً وعظة، وأثّرت في قلبي وجيباً، وفي أعضائي رِعْدة، ولا تأمّلتُها إلّا وذكرت الموتى من أهلي وأقاربي، وأرباب ودّي وخيّلت في نفسي أني أنا ذلك الشخص الذي وصفعليه السلام حالَه.

وكم قد قال الواعظون والخطباء والفصحاء في هذا المعنى! وكم وقفت على ما قالوه وتكرّر وقوفي عليه! فلم أجد لشيء منه مثل تأثير هذا الكلام في نفسي؛ فإمّا أن يكون ذلك لعقيدتي في قائله، أو كانت نيّة القائل صالحة، ويقينه كان ثابتاً، وإخلاصه كان محضاً خالصاً، فكان تأثير قوله في النّفوس أعظم، وسريان موعظته في القلوب أبلغ.

ثم نعود إلى تفسير الفصل:

فالبرزخ: الحاجز بين الشيئين، والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، فيجوز أن يكون البرزخ في هذا الموضع القبْر؛ لأنّه حاجز بين الميّت وبين أهل الدنيا، كالحائط المبنيّ بين اثنين، فإنّه برزخ بينهما، ويجوز أن يريد به الوقت الذي بين حال الموت إلى حال النّشور، والأول أقرب إلى مرادهعليه السلام؛ لأنّه قال: «في بطون البرزخ» ولفظة «البطون» تدلّ على التفسير الأوّل. ولفظتا «أكلت الأرض من لحومهم وشربت من دمائهم» مستعارتان. والفَجَوات: جمع فَجْوة وهي الفُرْجة المتّسعة بين الشيئين، قال

سبحانه: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾[1]، وقد تفاجّى الشيء؛ إذا صارت له فجوة. «وجماد لا ينمون»، أي خرجوا عن صورة الحيوانية إلى صورة الجماد الذي لا ينمي ولا يزيد. ويروى: «لا ينِمّون» بتشديد الميم، من النميمة وهي الهمس والحركة، ومنه قولهم: أسكت الله نامّته، في قول من شدّد ولم يهمز. وضِماراً، يقال لكلّ ما لا يرجى من الدَّيْن والوعد، وكلّ ما لا تكون منه على ثقة: ضِمَار.

ثم ذكر أنّ الأهوال الحادثة في الدنيا لا تُفزِعهم، وأنّ تنكّر الأحوال بهم وبأهل الدنيا لا يحزنهم. ويروى «تُحْزِنهم» على أنّ الماضي رباعيّ. ومثله قوله: «لا يحفِلُون بالرواجف»، أي لا يكترثون بالزلازل. «ولا يأذنُون للقواصف»، أي لا يسمعون الأصوات الشديدة، أذنت لكذا، أي سمعته. وجمع الغائب غُيّب وغَيَب، وكلاهما مرويٌّ هاهنا، وأراد أنهم شهود في الصورة، وغير حاضرين في المعنى. وأُلّاف، على فُعّال: جمع آلف؛ كالطُّرّاق جمع طارق، والسُّمّار: جمع سامر، والكُفّار جمع كافر.

ثم ذكر أنه لم تَعْمَ أخبارهم، أي لم تستبهِم أخبارهم وتنقطع عن بعد عهد بهم، ولا عن بعد منزل لهم، وإنّما سُقوا كأسَ المنون التي أخرستهم بعد النطق، وأصَمَّتْهُمْ بعد السمع، وأسكنتهم بعد الحركة. وقوله: «وبالسَّمع صمماً»، أي لم يسمعوا فيها نداء المنادي، ولا نوح النائح، أو لم يسمع في قبورهم صوت منهم. «فكأنهم في ارتجال الصِّفة»، أي إذا وصفهم الواصف مرتجلاً غير متروٍّ في الصفة، ولا متهيئ للقول، كأنهم «صرعى سُبات»، وهو نوم؛ لأنّه لا فرق في الصورة بين الميِّت حال موته والنائم المسبوت.

ثم وصفهم، بأنّه جيران إلّا أنهم لا مؤانسة بينهم كجيران الدنيا، وأنّهم أحبّاء إلّا أنهم لا يتزاورون كالأحباب من أهل الدنيا. وقوله: «أحبّاء» جمع حبيب، كخليل وأخلّاء، وصديق وأصدقاء. ثم ذكر أنّ عُرا التعارف قد بليَتْ منهم وانقطعت بينهم أسباب الإخاء؛ وهذه كلها استعارات لطيفة مستحسنة.

ثم وصفهم بصفة أُخرىٰ، فقال: كلّ واحدٍ منهم موصوف بالوحْدة؛ وهم مع ذلك مجتمعون، بخلاف الأحياء الذين إذا انضمّ بعضهم إلى بعض انتفى عنه وصف الوحدة. ثم قال: «وبجانب الهجر وهم أخلّاء»، أي وكلّ منهم في جانب الهجر وهم مع ذلك أهل خُلّة ومودّة، أي كانوا كذلك. وهذا كله من باب الصناعة المعنوية، والمجاز الرشيق. ثم قال: إنّهم

---

١. سورة الكهف ١٧.

لا يعرفون للنهار ليلاً ولا للّيل نهاراً، وذلك لأنّ الواحد من البَشَر إذا مات نـهاراً لم يـعرف لذلك النهار ليلاً أبداً، وإن مات ليلاً لم يعرف لذلك الليل صباحة أبداً. وقال الشاعر:

لابد من يومٍ بلا ليلةٍ　　أو ليلةٍ تأتي بلا يـوم

وليس المراد بقوله: «أيّ الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً»، أنـهم وهـم مـوتى يشعرون بالوقت الذي ماتُوا فيه، ولا يشعرون بما يتعقّبه من الأوقات، بل المراد أن صورةَ ذلك الوقت لو بقيتْ عندهمْ؛ لبقيت أبداً من غير أن يزيلها وقتٌ آخر يطرأ عليها. ويجوز أن يفسّر على مذهب من قال ببقاء الأنفس، فيقال: إنّ النفس التي تفارق ليلاً تـبقى الصـورة الليلية والظلمة حاصلة عندها أبداً لا تزول بطرآنِ نهار عليها؛ لأنها قد فارقت الحواسّ فلا سبيل لها إلى أن يرتسم فيها شيء من المحسوسات بعد المفارقة، وإنّما حصل ماحصل من غير زيادة عليه، وكذلك الأنفس التي تفارق نهاراً.

فإن قلت: ما معنى قولهﷺ «وبجانب الهجر»؟ وأي فائدة في لفظة «جانب» فـي هـذا الموضع؟

قلت: لأنّهم يقولون: فلان في جانب الهجر، وفي جانب القـطيعة، ولا يـقولون: «فـي جانب الوصل»، وفي «جانب المصافاة»، وذلك أنّ لفظة «جنب» فـي الأصـل مـوضوعة للمباعدة، ومنه قولهم: «الجار الجُنب»، وهو جارك من قوم غرباء. يقال: جنبت الرجل، وأجنبته، وتجنّبته، وتجانبته، كلّه بمعنىً، ورجل أجنبيّ، وأجنب، وجُنب، وجانب، كـلّه بمعنى.

قولهﷺ: «شاهدوا من أخطار دارهم»، المعنى أنّه شاهد المـتقون مـن آثـار الرحـمة وأماراتها، وشاهد المجرمون من آثار النقمة وأماراتها عند الموت، والحـصول فـي القـبر أعظم مما كانوا يسمعون ويظنّون أيّام كونهم في الدنيا. ثم قال: «فكلا الغايتين مدّت لهم»، المعنى مدّت الغايتان: غاية الشقيّ منهم وغاية السعيد. إلى مباءة، أي إلى منزل يعظم حاله عن أن يبلغه خوف خائف، أو رجاء راج؛ وتلك المباءة هي النّار أو الجـنة. وتـقول: قـد استباء الرجل أي اتّخذ مباءة، وأبأت الإبل: رددتها إلى مباءتها؛ وهي معاطنها. ثم قـال: «فلو كانوا ينطقون بها لعيُّوا» بتشديد الياء. وروي «لَعَيُوا» بالتخفيف، كما تقول: «حَيُوا»، قالوا: ذهبت الياء الثانية لالتقاء الساكنين؛ لأنّ الواو ساكنة، وضمّت اليـاء الأُولى لأجـل الواو، قال الشاعر:

وَكُنَّا حَسِبْناهم فَوَارسَ كَهْمَسٍ   حَيُوا بعد ما ماتوا من الدهر أعصرا

قوله: «لقد رَجَعَتْ فيهم» يقال: رجع البصر نفسُه، ورجع زيد بصره؛ يتعدّى ولا يتعدى، يقول: تكلّموا معنىً لا صورة، فأدركت حالهم بالأبصار والأسماع العقلية لا الحسيّة. وكَلَحت الوجوه كلُوحاً وكُلاحاً، وهو تكشّر في عُبوس. والنواضِر: النواعم، والنّضرة: الحسن والرونق. وخوت الأجساد النواعم: خلت من دمِها ورطوبتها وحشوتها. ويجوز أن يكون خوتْ أي سقطت. قال تعالى: ﴿فهيَ خَاويةٌ عَلَى عُروشها﴾[1]. والأهدام: جمع هِدْم، وهو الثوب البالي. وتكاءدَنا: شقّ علينا، ومنه: عقبة كؤود ويجوز تكادّنا، جاءت هذه الكلمة في أخوات لها «تفعّل وتفاعَل» بمعنىً، ومثله تعهّد الضيعة، وتعاهدها. ويقال: قوله: « وتوارثْنا الوحشة»، كأنّه لما مات الأب فاستوحش أهله منه، ثم مات الابن فاستوحش منه أهله أيضاً، صارت كأنّ الابن ورث تلك الوحشة من أبيه كما تُورث الأموال، وهذا من باب الاستعارة. قوله: «وتهدّمت علينا الربوع»، يقال: تهدّم فلان على فلان غضباً؛ إذا اشتدّ غضبه، ويجوز أن يكون تهدمت أي تساقطت. وروي «وتهكمت» بالكاف، وهو كقولك: « تهدمت» بالتفسيرين جميعاً، ويعني بالرّبوع الصّمُوت القبور، وجعلها صموتاً؛ لأنّه لا نطق فيها، كما تقول: ليل قائم ونهار صائم، أي يقام ويصام فيهما، وهذا كلّه على طريق الهزّ والتحريك وإخراج الكلام في معرِض غير المعرِض المعهود، جعلهم لو كانوا ناطقين مخبرين عن أنفسهم [لأتَوْا] بما وصفه من أحوالهم.

قولهﷺ: «فلو مثّلتَهم بعقلك، أو كشف عنهم محجوبُ الغطاء لك» إلى آخر جواب « لو». هذا الكلام أخذه ابن نباتة بعينه فقال: فلو كشفتم عنهم أغطيةَ الأجداث، بعد ليلتين أو ثلاث، لوجدتم الأحداق على الخدود سائلة، والألوانَ من ضيق اللُّحود حائلة، وهوامّ الأرض في نواعم الأبدان جائلة، والرؤوس الموسّدة على الأيمان زائلة، ينكِرُها مَنْ كان لها عارفاً، ويفرّ عنها مَنْ لم يزل لها آلفاً.

قولهﷺ: «ارتسخت أسماعهم» أنّه من رسخ الغدير إذا نشّ ماؤه ونضب، ويقال: قد ارتسخت الأرض بالمطر إذا ابتلعته حتى يلتقي الثريان. واستكّت، أي ضاقت وانسدّت. « واكتحلتْ أبصارهم بالتراب فخسفت»، أي غارت وذهبت في الرأس. وذَلاقة الألسن: حدّتُها، ذَلِق اللسان والسّنان يذلَق ذَلَقاً، أي ذرِبَ؛ فهو ذلِق، وأذلق. وهَمَدت، بالفتح:

---

١. سورة الحج ٤٥.

سكنتْ وخمدتْ. وعاث: أفسد. وقوله: «جديد بليّ»، من فنّ البديع؛ لأنّ الجدّة ضدّ البلى. وسَمّجها: قبّح صورتها، وقد سَمُج الشيء بالضمّ فهو سَمْج، بالسكون، مثل ضَخُم فهو ضَخْم، ويجوز فهو سَمِج، بالكسر، مثل خَشُن فهو خشِن.

قوله: «وسهّل طرق الآفة إليها»؛ وذلك أنّه إذا استولى العنصر الترابيّ على الأعضاء، قوى استعدادها للاستحالة من صورتها الأُولى إلى غيرها. ومستسلمات، أي منقادة طائعة غير عاصية، فليس لها أيدٍ تدفع عنها، ولا لها قلوب تجزع وتحزن لما نزل بها. والأشجان: جمع شَجَن، وهو الحزن. والأقْذاء: جمع قَذى، وهو ما يسقط في العين فيؤذيها. قوله: «صفة حال لا تنتقل»، أي لا تنتقل إلى حسن وصلاح، وليس يريد: لا تنتقل مطلقاً؛ لأنها تنتقل إلى فساد واضمحلال. ورجل عزيز، أي حدث، وعزيز الجسد، أي طريّ. وأنيق اللون: معجب اللون. وغَذِيّ تَرَف: قد غُذِي بالترف، وهو التنعّم المطغِي. وربيبُ شَرَف، أي قد ربِّيَ في الشرف والعزّ. ويقال: ربّ فلان ولدَه يَرُبّه ربّاً، وربّاه يربّيه تربيةً. ويتعلّل بالسرور: يتلهّى به عن غيره. ويفزع إلى السَّلْوة: يلتجيء إليها. وضِنّاً، أي بخلاً. وغضارة العيش: نعيمه ولينه. وشحاحة، أي بخلاً، شحِحْتُ بالكسر أشِحّ. وشحَحْت أيضاً بالفتح، أشُحّ وأشِحُّ؛ بالضم والكسر، شُحّاً وشَحاحةً. ورجل شحيح وشَحَاح بالفتح. وقوم شِحاحٌ وأشِحّة. ويضحك إلى الدنيا وتضحكُ إليه؛ كناية عن الفَرَح بالعمر والعيشة، وكذا كلّ واحدٍ منهما يضحك إلى صاحبه لشدّة الصفاء، كأنّ الدّنيا تحبّه وهو يحبّها. وعيش غَفول: قد غفل عن صاحبه، فهو مستغرق في العيش لم ينتبه له الدّهر، فيكدّر عليه وقته، قال الشاعر:

وكان المرءُ في غفلاتِ عيشٍ ... كأنّ الدّهْر عَنْها في وَثاق

قوله: «إذا وَطئَ الدهر به حَسَكه»، أي إذا أوطأه الدهر حَسَكه[1]. والهاء في «حَسَكه» ترجع إلى الدّهر، عدّى الفعل بحرف الجرّ، كما تقول: قام زيد بعمرٍو، أي أقامه.

وقُواه: جمع قوّة، وهي المِرّة من مرائر الحبل؛ وهذا الكلام استعارة. ومن كَثَب: من قرب. والبثّ: الحزن. والبث أيضاً: الأمر الباطن الدخيل. ونجيّ الهمّ: ما يناجيك ويسارّك. والفَتَرات: أوائل المرض. وآنس ما كان بصحّته، منصوب على الحال، العامل في الحال: «تولّدت». والقارّ: البارد.

---

١. الحسك: نبات شائك تعلق قشرته بصوف الغنم، والكلام على الاستعارة.

فإن قلت: لم قال: «من تسكين الحارّ بالقارّ، وتحريك البارد بالحارّ»؟ ولأيّ معنى جعل الأول التسكين والثاني التحريك؟

قلت: لأنّ من شأن الحرارة التهييج والتّثوير، فاستعمل في قهرها بالبارد لفظة «التسكين»، ومن شأن البرودة التخدير والتجميد، فاستعمل في قهرها بالحارّ لفظة «التحريك».

قوله: «ولا اعتدل بممازجٍ لتلك الطبائع إلّا أمدّ منها كل ذات داء»، أي ولا استعمل دواء مفرداً معتدل المزاج أو مركّباً كذلك إلّا وأمدّ كل طبيعة منها ذات مرض بمرض زائد على الأول. وينبغي أن يكون قولُه: «ولا اعتدل بمُمازجٍ»، أي ولا رام الاعتدال لممتزج؛ لأنّه لو حصل له الاعدال لكانَ قد بَرِئَ من مرضه، فَسمّى محاولة الاعتدال اعتدالاً؛ لأنّه باستدلال المعتدلات قدْ تهيّأ للاعتدال، فكان قد اعتدل بالقوّة. وينبغي أيضاً أن يكون قد حذف مفعول «أمدّ»، وتقديره «بمرضٍ» كما قدّرناه نحن، وحذف المفعولات كثير واسع.

قوله: «حَتّى فَتَر معلّله»؛ لأنّ معلّلي المرض في أوائل المرض يكون عندهم نشاط؛ لأنّهم يرجُون البُرْء، فإذا رأوْا أمارات الهلاك فترت همتهم. «وذَهَل ممرّضُه»، ذَهَل بالفتح، وهذا كالأوّل؛ لأنّ الممرّض إذا أعيا عليه المرض، وانسدّت عليه أبواب التدبير يذهَل. «وتعايا أهله بصفة دائه»، أي تعاطوا العِيّ وتساكتوا إذا سُئِلوا عنه، وهذه عادة أهل المريض المُثقل؛ يجمْجِمون إذا سئلوا عن حاله. «وتنازعوا دونه شَجَى خبرٍ يكتمونه»، أي تخاصموا في خبرٍ ذي شجَى، أي خبر ذي غُصّةٍ يتنازعونه وهم حول المريض ستراً دونه، وهو لا يعلم بنجواهم، وبما يُفيضون فيه من أمره. فقائل منهم: هو لما به، أي قد أشفى على الموت. وآخر يمنّيهم إياب عافيته، أي عَوْدَها، آب فلان إلى أهله، أي عاد. وآخر يقول: قد رأينا مثل هذا، ومَنْ بلغ إلى أعظِم من هذا ثمّ عوفِيَ، فيمنّي أهلَه عَوْد عافيته. وآخر يصبّر أهله على فقده، ويذكر فضيلة الصّبْر، وينهاهم عن الجزع، ويروِي لهم أخبار الماضين. وأُسي أهليهم، والأُسَى. جمع أُسْوة، وهو ما يتأسّى به الإنسان.

قوله: «على جناح من فراقِ الدنيا»، أي سَرْعان ما يفارقها؛ لأنّ مَنْ كان على جناح طائر، فأوشِكْ به أن يسقط! قوله: «إذْ عَرَض له عارض» يعني الموت. ومن غُصصه: جمع غُصّة. وهو ما يعترض مَجْرى الأنفاس. «فتحيّرت نوافذ فطنته»، أي تلك الفطنة النافذة الثاقبة تحيّرت عند الموت، وتبلّدت. «ويبست رطوبةُ لسانِه»؛ لأنّ الرّطوبة اللّعابيّة الّتي بها يكون الذوق تنشف حينئذٍ، ويبطل الإحساس باللسان تبعداً لسقوط القوة.

قوله: «فكم من مهمٍّ من جوابه عرفه فعيَّ عن ردّه!»، نحو أن يكون له مالٌ مدفونٌ يُسأل عن حال ما يكون محتَضراً، فيحاول أن يعرِّف أهلَه به فلا يستطيع، ويعجز عن ردّ جَوابِهم، وقد رأينا مَنْ عَجزَ عن الكلام فأشار إشارةً فهموا معناها، وهي الدّواة والكاغَد، فلمّا حضر ذلك أخذ القلم وكتب في الكاغد ما لم يُفْهَم، ويده تُرْعَد. ثم مات.

قوله: «ودعاءٍ مؤلمٍ لقلبه سمعه فتصامّ عنه»، أظهر الصّمم؛ لأنّه لا حيلة له. ثم وصف ذلك الدعاء فقال: «من كبيرٍ كان يعظّمه»، نحو صُراخ الوالد على الولد والولد يسمع ولا يستطيع الكلام. «وصغير كان يرحمه»، نحو صراخ الولد على الوالد، وهو يسمع ولا قدرة له على جوابه.

ثم ذكر غمرات الدنيا فقال: إنها أفظَع من أن تحيط الصفاتُ بها. وتستغرقُها، أي تأتي على كُنْهِها، وتُعبّر عن حقائقها.

قوله: «أو تعتدل على عقول أهل الدنيا»، هذا كلام لطيف فصيح غامض، ومعناه أنّ غمرات الموت وأهواله عظيمة جدّاً لا تستقيم على العقول ولا تقبلها إذا شرحت لها ووصفت كما هي على الحقيقة، بل تنبو عنها، ولا تصدق بما يقال فيها، فعبّر عن عدم استقامتها على العقول بقوله: «أو يعتدل»، كأنه جعلها كالشيء المعوجّ عند العقل، فهو غير مصدّق به.



الأصْلُ:

ومن كلام له عليه السلام قاله عند تلاوته:

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لَاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[1]:

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ الذِّكْرَ جِلَاءً لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتُبْصِرُ بِهِ

١. سورة النور ٣٦، ٣٧.

بَعْدَ ٱلْعَشْوَةِ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ ٱلْمُعَانَدَةِ، وَمَا بَرِحَ لله ـ عَزَّتْ آلاؤهُ فِي ٱلْبُرْهَةِ بَعْدَ ٱلْبُرْهَةِ، وَفِي أَزْمَانِ ٱلْفَتَرَاتِ ـ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقَظَةٍ فِي ٱلْأَسْمَاعِ وَٱلْأَبْصَارِ وَٱلْأَفْئِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ ٱلْأَدِلَّةِ فِي ٱلْفَلَوَاتِ. مَنْ أَخَذَ ٱلْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَشِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ ٱلْهَلَكَةِ، وَكَانُوا كَذٰلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ ٱلظُّلُمَاتِ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ.

وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَأَهْلاً أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلاً، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ ٱلْحَيَاةِ، وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، فِي أَسْمَاعِ ٱلْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ، فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَىٰ ٱلآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذٰلِكَ، فَكَأَنَّمَا ٱطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ ٱلْبَرْزَخِ فِي طُولِ ٱلْإِقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ ٱلْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذٰلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّىٰ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا يَرَىٰ النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ.

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ ٱلْمَحْمُودَةِ، وَمَجَالِسِهِمُ ٱلْمَشْهُودَةِ ـ وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ، وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلَىٰ كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا، أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا، وَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ ٱلاسْتِقْلَالِ بِهَا، فَنَشَجُوا نَشِيجاً، وَتَجَاوَبُوا نَحِيباً، يَعِجُّونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَٱعْتِرَافٍ ـ لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدىً، وَمَصَابِيحَ دُجىً، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّكِينَةُ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ ٱلْكَرَامَاتِ، فِي مَقْعَدٍ ٱطَّلَعَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ. يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ. رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَىٰ فَضْلِهِ، وَأُسَارَىٰ ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ ٱلْأَسَىٰ قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ ٱلْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ. لِكُلِّ بَابِ رَغْبَةٍ إِلَىٰ الله مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ ٱلْمَنَادِحُ، وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ.

فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ ٱلْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ.

الشّرْحُ:

من قرأ: ﴿**يسبَّح له فيها**﴾ بفتح الباء ارتفع «رجال» عنده بوجهين:

أحدهما: أنْ يضمَر له فعل يكون هو فاعله، تقديره «يسبحه رجال»، ودلّ على «يسبَّحه» يسبّح.

والثاني: أن يكونَ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: «المسبّحون رجال».

ومن قرأ: «يسبِّح له فيها» بكسر الباء، فـ«رجال» فاعل، والذكْر يكون تارةً باللسان، وتارةً بالقلب، فالّذي باللسان نحو التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والدعاء، والذي بالقلْب؛ فهو التعظيم والتبجيل والاعتراف والطاعة.

وجلوت السيف والقلْب جِلاء، بالكسر، وجلوت اليهودَ عن المدينةِ جَلاء بالفتح[١].

والوَقْرة: الثقل في الأذن. والعَشْوة، بالفتح: فَعْلة، من العشا في العين. وآلاؤه: نعمه.

فإن قلت: أيّ معنى تحت قوله: «عزت آلاؤه» وعزّت بمعنى: «قلّت»؟ وهل يجوز مثل ذلك في تعظيم الله؟

قلت: عَزّت هاهنا ليس بمعنى «قلّت»، ولكن بمعنى: «كرمت وعظمت»، تقول منه: عَزَزتُ على فلان بالفتح، أي كرُمْت عليه، وعظُمت عنده، وفلان عزيز علينا، أي كريم معظّم.

والبُرهة من الدهر: المدّة الطويلة، ويجوز فتح الباء. وأزمان الفترات: ما يكون منها بين النَّوْبتين. وناجاهم في فكرهم: ألهمهم، بخلاف مناجاة الرّسل ببعث الملائكة إليهم، وكذلك «وكلّمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة»: صار ذلك النور مصباحاً لهم يستضيئون به.

قوله: «مَنْ أخذ القصد حَمِدوا إليهم طريقه»، إلى هاهنا هي التي في قولهم: أحمَد الله إليك، أي مُنهياً ذلك إليك، أو مفضياً به إليك ونحو ذلك، وطريقة العرب في الحذف في مثل هذا معلومة، قال سبحانه: ﴿**وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً**﴾[٢]، أي لجعلنا بدلاً

---

١. والجِلَاء: الصقل وكشف الصدأ. والجَلَاء: الإخراج عن الوطن، أو من الدار ونحوه.

٢. سورة الزخرف ٦٠.

منكم ملائكة.

قوله: «ومن أخذ يميناً وشمالاً»، أي ضلّ عن الجادّة. و «إلى» في قوله: «ذمّوا إليه الطريق» مثل «إلى» الأُولى. ويهتفون بالزواجر: يصوّتون بها، هتفت الحمامة تهتِف هتْفاً، وهتف زيد بالغنم هِتافاً بالكسر، وقوس هتافة وهتفى، أي ذات صوت. والقسْط: العدل. ويأتمرون به: يمتثلون الأمر.

وقوله: «فكأنّما قطعوا الدّنيا إلى الآخرة»، إلى قوله: «ويسمعون ما لا يسمعون»؛ هو شرح قوله عن نفسه ﷺ: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً». والأوْزار: الذنوب. والنشيج: صوت البكاء. والمقعد: موضع القعود. ويد قارعة: تطرق باب الرحمة، وهذا الكلام مجاز. والمنادح: المواضع الواسعة. و «على» في قوله: «ولا يخيب عليه الراغبون» متعلّقة بمحذوف مثل «إلى» المتقدّم ذكرها، والتقدير «نادمين عليه». والحسيب: المحاسب.

واعلم أنَّ هذا الكلام في الظاهر صفة حال القصّاص والمتصدّين لإنكار المنكَرات، ألا تراه يقول: «يذكّرون بأيام الله»! أي بالأيام التي كانت فيها النقمة بالعصاة، ويخوّفون مقامه من قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[1] ثم قال: فمن سلك القَصْد حمِدُوه، ومَنْ عدل عن الطريق ذمُّوا طريقه، وخوّفوه الهلاك. ثم قال: يهتفون بالزواجر عن المحارم في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط وينهون عن المنكر.

وهذا كلّه إيضاح لما قلنا أولاً؛ أنّ ظاهرَ الكلام شرحُ حالِ القصّاص وأرباب المواعظ في المجامع والطرقات، والمتصدّين لإنكار القبائح؛ وباطن الكلام شرح حال العارفين، الذين هم صَفْوة الله تعالى من خلقه، وهو ﷺ دائماً يكني عنهم، ويرمز إليهم، على أنه في هذا الموضع قد صرّح بهم في قوله: «حتّى كأنّهم يروْن ما لا يَرى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون».

وقد ذكر من مقامات العارفين في هذا الفصل: الذّكْر، ومحاسبة النفس، والبكاء والنحيب، والنّدم والتّوبة، والدعاء والفاقة، والذلّة، والحزن، وهو الأسى الذي ذكر أنه جرح قلوبهم بطوله.

---

١. سورة الرحمن ٤٦.



الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام قاله عند تلاوته :

﴿يا أَيُّهَا ٱلْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ﴾[1].

أَدْحَضُ مَسْؤولٍ حُجَّةً، وَأَقْطَعُ مُغْتَرٍّ مَعْذِرَةً، لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ. يَا أَيُّهَا ٱلْإِنْسَانُ، مَا جَرَّأَكَ عَلَىٰ ذَنبِكَ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ، وَمَا أَنَّسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ! أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقَظَةٌ؟ أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ؟ فَلَرُبَّمَا تَرَىٰ الضَّاحِيَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ، أَوْ تَرَىٰ ٱلْمُبْتَلَىٰ بِأَلَمٍ يُمِضُّ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ! فَمَا صَبَّرَكَ عَلَىٰ دَائِكَ، وَجَلَّدَكَ عَلَىٰ مُصَابِكَ، وَعَزَّاكَ عَنِ ٱلْبُكَاءِ عَلَىٰ نَفْسِكَ وَهِيَ أَعَزُّ ٱلأَنْفُسِ عَلَيْكَ! وَكَيْفَ لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ؟! فَتَدَاوَ مِنْ دَاءِ ٱلْفَتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ، وَمِنْ كَرَىٰ ٱلْغَفْلَةِ فِي نَاظِرِكَ بِيَقَظَةٍ، وَكُنْ لِلّٰهِ مُطِيعاً، وَبِذِكْرِهِ آنِساً. وَتَمَثَّلْ فِي حَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ، يَدْعُوكَ إِلَىٰ عَفْوِهِ، وَيَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ، وَأَنْتَ مُتَوَلٍّ عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ. فَتَعَالَىٰ مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ! وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ! وَأَنْتَ فِي كَنَفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ. فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلَهُ، وَلَمْ يَهْتِكْ عَنْكَ سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخْلُ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ. فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ!

وَٱيْمُ ٱللهِ لَوْ أَنَّ هٰذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفِقَيْنِ فِي ٱلْقُوَّةِ، مُتَوَازِيَيْنِ فِي ٱلْقُدْرَةِ، لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَىٰ نَفْسِكَ بِذَمِيمِ ٱلأَخْلَاقِ، وَمَسَاوِئِ ٱلأَعْمَالِ. وَحَقّاً أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا

---

١. سورة الانفطار ٦.

غَرَّتْكَ، وَلٰكِنْ بِهَا ٱغْتَرَرْتَ، وَلَقَدْ كَاشَفَتْكَ ٱلْعِظَاتِ، وَآذَنَتْكَ عَلَىٰ سَوَاءٍ. وَلَهِيَ بِمَا تَعِدُكَ مِنْ نُزُولِ ٱلْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ، وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ، أَصْدَقُ وَأَوْفَىٰ مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ، أَوْ تَغُرَّكَ. وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ، وَصَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكَذَّبٌ. وَلَئِنْ تَعَرَّفْتَهَا فِي الدِّيَارِ ٱلْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ ٱلْخَالِيَةِ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ، وَبَلَاغِ مَوْعِظَتِكَ، بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ، وَالشَّحِيحِ بِكَ! وَلَنِعْمَ دَارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً، وَمَحَلُّ مَنْ لَمْ يُوَطِّنْهَا مَحَلّاً!

وَإِنَّ السُّعَدَاءَ بالدُّنْيَا غَداً هُمُ ٱلْهَارِبُونَ مِنْهَا ٱلْيَوْم. إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ، وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا ٱلْقِيَامَةُ، وَلَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبَدَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يَجْرِ فِي عَدْلِهِ وَقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرْقُ بَصَرٍ فِي ٱلْهَوَاءِ، وَلَا هَمْسُ قَدَمٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةٌ، وَعَلَائِقِ عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٌ! فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُذْرُكَ، وَتَثْبُتُ بِهِ حُجَّتُكَ، وَخُذْ مَا يَبْقَىٰ لَكَ مِمَّا لَا تَبْقَىٰ لَهُ؛ وَتَيَسَّرْ لِسَفَرِكَ؛ وَشِمْ بَرْقَ النَّجَاةِ؛ وَٱرْحَلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ.

الشّرْحُ :

لقائل أن يقول: لو قال: «ما غرك بربك العزيز أو المنتقم» أو نحو ذلك، لكان أوْلَى؛ لأنّ للإنسان المعاتب أن يقول: غرّني كرمُك الّذي وصفتَ به نفسك!

وجواب هذا أنْ يقال: إنّ مجموع الصفات صار كشيء واحد، وهو الكريم الذي خَلقك فسوّاك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركّبك. والمعنى: ما غرّك بربٍّ هذه صفته، وهذا شأنه، وهو قادر على أن يجعلك في أي صورة شاء! فما الذي يؤمّنك من أن يمسخك في صورة القِرَدة والخنازير ونحوها من الحيوانات العجم؟ ومعنى الكريم هاهنا: الفيّاض على المواد بالصور، ومَنْ هذه صفته ينبغي أن يُخاف منه تبديل الصورة.

قال ﷺ: «أدحض مسئول حُجّة» المبتدأ محذوف، والحجة الداحضة: الباطلة.

والمعذِرة بكسر الذال: العذر. ويقال: لقد أبرح فلان جهالةً، وأبرح لؤماً، وأبرح شجاعة، وأتى بالبرْح من ذلك، أي بالشّديد العظيم. ويقال: هذا الأمر أبرحُ من هذا، أي أشدّ، وقتلُوه أبْرَح قَتْل. وجهالةً منصوب على التمييز.

قوله: «ما جرّأك» بالهمزة، وفلان جريء القوم، أي مقدّمهم. وما أنَّسك بالتشديد، وروي: «ما آنسك» بالمدّ؛ وكلاهما من أصل واحد، وتأنّست بفلان واستأنستُ بمعنىً، وفلان أنيسي ومؤانسي، وقد أنّسني وآنسني كلّه بمعنى، أي كيف لم تستوحش من الأُمور الّتي تؤدي إلى هلكة نفسك؟ والبُلُول: مصدر بلّ الرجل من مرضه، إذا برئ. والضّاحي لحرّ الشمس: البارز. وهذا داء ممضّ، أي مؤلم، أمضنى الجرح إمضاضاً، ويجوز «مَضّنِي». وروي: «وجلّدك عَلَى مَصَائبك»، بصيغة الجمع. وبَيَات نقْمة بفتح الباء، طروقُها ليلاً، وهي من ألفاظ القرآن العزيز[1]. وتورّط: وقع في الورْطة، بتسكين الرّاء، وهي الهلاك، وأصل الورْطة أرضٌ مطمئنّة لا طريق فيها، وقد أورَطَه، وورّطه توريطاً، أي أوقعه فيها. والمدارج: الطرق والمسالك، ويجوز انتصاب «مدارج» هاهنا؛ لأنها مفعول به صريح، ويجوز أن ينتصب على تقدير حرف الخفض وحذفه، أي في مدارج سطواته.

قوله: و «تَمثّل» أي وتصوّر. ويتغمّدك بفضله، أي بسترك بعفوه، وسمِّيَ العفو والصفح فضلاً؛ تسمية للنّوع بالجنس. قوله: «مَطْرَف عين» بفتح الراء، أي زمان طرف العين، وطرْفها: إطباق أحدِ جفنيها على الآخر، وانتصابُ «مطرف» هاهنا على الظرفية، كقولك: وردت مقدمَ الحاجّ، أي وقت قدومهم.

قوله: «متوازِيَيْن في القُدرة»، أي متساويين، وروي: «متوازنين» بالنون. والعظات: جمع عِظَة، وهو منصوب على نزع الخافض، أي كاشفتك بالعظات، وروي «العظاتُ» بالرفع على أنّه فاعل. وروي: «كاشفتك الغطاء». وآذنْتك، أي أعلمتك. وعلى سواء، أي على عَدْل وإنصاف، وهذا من الألفاظ القرآنية[2]. والراجفة: الصيحة الأُولى، وحقّتْ بجلائلها القيامة، أي بأُمورها العظام. والمنسِك: الموضع الذي تذبح فيه النسائك، وهي ذبائح القربان ويجوز فتح السين، وقد قرئ بهما في قوله تعالى: **﴿لِكُلّ أُمّةٍ جَعَلْنَا مَنْسِكاً﴾**[3].

---

١. منه قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ سورة الأعراف ٤.

٢. منه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ سورة الأنفال ٥٨.

٣. سورة الحج ٦٧.

فإن قلت: إذا كان يلحَق بكلِّ معبود عَبَدته؛ فالنصارى إذن تلحق بعيسى، والغلاة من المسلمين بعليّ، وكذلك الملائكة، فما القول في ذلك؟

قلت: لا ضرر في التحاق هؤلاء بمعبوديهم، ومعنى الالتحاق أن يؤمَر الأتباع في الموقف بالتحيّز إلى الجهة التي فيها الرؤساء، ثم يقال للرؤساء: أهؤلاء أتباعكم وعبدتكم؟ فحينئذٍ يتبرؤون منهم، فينجو الرؤساء، وتهلك الأتباع، كما قال سبحانه: ﴿أَهؤلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنّ أَكْثَرُهُم بِهِمْ مؤمِنُون﴾[1]، أي إنّما كانوا يطيعون الشياطين المضلّة لهم، فعبادتهم في الحقيقة للشياطين لا لنا، وإنهم ما أطاعونا، ولو أطاعونا لكانوا مهتدين، وإنما أطاعوا شياطينهم.

ولا حاجة في هذا الجواب إلى أن يقال ما قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[2] من تخصيص العموم بالآية الأُخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى أُولئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[3].

فإن قلت: فما قولك في اعتراض ابن الزِّبعْرَى على الآية، هل هو وارد؟

قلت: لا؛ لأنّه قال تعالى: ﴿إِنَّكمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ و «ما» لما لا يعقل، فلا يردُ عليه الاعتراض بالمسيح والملائكة، والذي قاله المفسرون من تخصيص العموم بالآية الثانية تكلّف غير محتاج إليه.

فإن قلت: فما الفائدة في أن قَرَن القوم بأصنامهم في النّار؟ وأي معنى لذلك في زيادة التعذيب والسخط؟

قلت: لأنّ النظر إلى وجه العدوّ باب من أبواب العذاب، وإنّما أصاب هؤلاء ما أصابهم بسبب الأصنام التي ضلّوا بها، فكلّما رأوها معهم زاد غمّهم وحسرتهم. وأيضاً فإنهم قدّروا أن يستشفعوا بها في الآخرة، فإذا صادفوا الأمر على عكس ذلك لم يكن شيء أبغضَ إليهم منها.

قوله: «فلم يَجْر» قد اختلف الرّواة في هذه اللفظة، فرواها قوم «فلم يَجْر» وهو مضارع «جَرى يجري»، تقول: ما الذي جرى القوم؟ فيقول مَنْ سألته: قَدِم الأمير من السفر، فيكون المعنى على هذا: فلم يكن ولم يتجدّد في ديوان حسابه ذلك اليوم صغير ولا حقير إلّا بالحقّ

---

١. سورة سبأ ٤٠ و ٤١.

٢. سورة الأنبياء ٩٨.

٣. سورة الأنبياء ١٠١.

والإنصاف. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1]، ورواها قوم «فلم يجز»، مضارع «جازَ يجوز»، أي لم يسغ ولم يرخص ذلك اليوم لأحد من المكلّفين في حركة من الحركات المحقرات المستصغرات؛ إلّا إذا كانت قد فعلها بحق، وعلى هذا يجوز فعلها مثلها. ورواها قوم: «فلم يَجُرْ» من «جار»، أي عدل عن الطريق، أي لم يذهب عنه سبحانه، ولم يضلّ ولم يشذّ عن حسابه شيء من أمر محقّرات الأُمور إلّا بحقه، أي إلّا ما لا فائدة في إثباته والمحاسبة عليه، نحو الحركات المباحة والعبثيّة التي لا تدخل تحت التكليف. والهمس: الصوت الخفيّ.

قوله: «فتحرّ من أمرك»، تحرّيت كذا، أي توخّيته وقصدته واعتمدته. «وتيسّر لسفرك»، أي هيئ أسباب السّفر، ولا تترك لذاك عائقا. والشّيْم: النظر إلى البرق. ورحلت مطيتي، إذا شددت على ظهرها الرّحل. والتّشْمير: الجدّ والانكماش في الأمر.

ومعاني الفصل ظاهرة، وألفاظه الفصيحة تعطيها وتدلّ عليها بما لو أراد المفسّر أن يعبّر عنه بعبارة غير عبارته عليه السلام لكان لفظه عليه السلام أوْلَى أن يكون تفسيراً لكلام ذلك المفسّر.


٢١٩

الأصْلُ:

ومن كلام له عليه السلام

وَاللهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلَىٰ حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ فِي ٱلْأَغْلَالِ مُصَفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَىٰ ٱللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ ٱلْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ ٱلْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَىٰ ٱلْبِلَىٰ قُفُولُهَا، وَيَطُولُ فِي ٱلثَّرَىٰ حُلُولُهَا؟!

وَٱللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّىٰ ٱسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ

---
١. سورة غافر ١٧.

شُعْثَ الشُّعُورِ، غُبْرَ ٱلأَلْوَانِ، مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وَجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وَكَرَّرَ عَلَيَّ ٱلْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً طَرِيقَتِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أدنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ، يَا عَقِيلُ أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَىٰ نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ مِنَ ٱلأَذَىٰ وَلَا أَئِنُّ مِنْ لَظىً؟!

وَأَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذٰلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ ٱلْبَيْتِ! فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلٰكِنَّهَا هَدِيَّةٌ. فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ ٱلْهَبُولُ! أَعَنْ دِينِ ٱللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟ أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ؟ وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ ٱلأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا، عَلَىٰ أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا.

مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَىٰ، وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَىٰ! نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ ٱلْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ. وَبِهِ نَسْتَعِينُ.

الشّرْحُ:

السَّعْدان: نبتٌ ذو شوك؛ يقال له: حَسَك السّعْدان وحَسَكة السعْدان؛ وتشبّه به حلَمة الثّدي، فيقال: سَعْدانة الثّنْدُوَة، وهذا النّبت من أفضل مراعي الإبل، وفي المثل: «مَرْعىً ولا كالسَّعْدان»؛ ونونه زائدة؛ لأنّه ليس في الكلام «فَعْلال» غير مضاعف، إلّا «خَزْعالٍ»، وهو ظلْع يلحق الناقة، «وقهقار»، وهو الحجر الصلب، و«قَسْطال» وهو الغبار. والمسهّد: الممنوع النوم، وهو السهاد. والأغلال: القيود. والمصفّد: المقيّد. والحُطَام: عروض الدنيا ومتاعها، شبّه لزواله وسرعة فنائه بما يتحطّم من العيدان ويتكسّر. ثم قال: كيف أظلم النّاس لأجل نَفْسٍ تموت سريعاً ـ يعني نَفْسه؛ وأملق: افتقر، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا**

أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾[١] . واستماحني: طلب منّي أن أعطيَه صاعاً من الحنطة، والصاع أربعة أمداد، والمُدّ رطل وثلث، فمجموع ذلك خمسة أرطال، وثلث رطل، وجمع الصاع أصوُع، وإن شئت همزت. والصُّواع لغة في الصاع، ويقال: هو إناء يشرَب فيه. والعِظْلِم، بالكسرة في الحرفين: نَبْت يصبغ به ما يراد اسوداده، ويقال: هو الوَسمة. وشعث الألوان، أي غُبْر. وأصغيت إليه: أملْتُ سمعي نحوه. وأتّبع قياده: أطيعه وأنقاد له. وأحميت الحديدة في النار، فهي محماة، ولا يقال حَمِيت الحديدة. وذي دَنَف، أي ذي سقم مؤلم. ومن ميسمها: من أثرها في يده. وثكلتك الثّواكلُ، دعا عليه، وهو جمع ثاكلة، وفواعل لا يجيء إلّا جمع المؤنث إلّا فيما شذّ، نحو فوارس، أي ثكلتك نساؤك.

قوله: «أحماها إنسانُها»، أي صاحبها، ولم يقل «إنسان»؛ لأنّه يريد أن يقابل هذه اللّفظة بقوله: «جبّارها». وسَجَرها، بالتخفيف، أوقدها وأحماها، والسَّجور: ما يسجر به التنّور.

قوله: «بملفوفة في وعائها»، كان أهدى له الأشعث بن قيس نوعاً من الحَلْواء تأنّق فيه، وكانﷺ يبغض الأشعث؛ لأنّ الأشعث كان يُبغِضه، وظنّ الأشعث أنّه يستميله بالمهاداة لغرض دنيويّ كان في نفس الأشعث، وكان أمير المؤمنينﷺ يفطِن لذلك ويعلمه، ولذلك ردّ هديّة الأشعث، ولولا ذلك لقبلها؛ لأنّ النبيﷺ قبل الهديّة، وقد قبل عليّﷺ هدايا جماعةٍ من أصحابه، ودعاه بعضُ مَنْ كان يأنس إليه إلى حَلْوَاء عملها يوم نوروز فأكل وقال: لم عَمِلْتَ هذا؟ فقال: لأنّه يوم نوروز، فضحك: وقال: نَوْرِزُوا لنَا في كلّ يوم إن استطعتم. وكانﷺ من لطافة الأخلاق وسجاحة الشيَم على قاعدة عجيبة جميلة، ولكنه كان ينفر عن قومٍ كان يعلم من حالهم الشنآن له، وعمّن يحاول أن يصانعه بذلك عن مال المسلمين، وهيهات حتى يلين لِضرْس الماضغ الحجر!

وقال: بملفوفة في وعائها، لأنّه كان في طبق مغطًّى. ثم قال: «ومعجونة شَنِئتُها»، أي أبغضتها ونفرت عنها. كأنها عجنت بريق الحيّة أو بقيئها، وذلك أعظم الأسباب للنّفرة من المأكول.

قوله: «أصِلَةٌ، أم زكاة أم صدقة؛ فذلك محرم علينا أهل البيت؟»، الصّلة: العطيّة لا يراد بها الأجر، بل يراد بها وصلة التّقرب إلى الموصول، وأكثر ما تُفْعَل للذِّكْر والصّيت. والزّكاة:

---

١. سورة الأنعام ١٥١.

هي ما تجب في النّصاب من المال. والصدقة هاهنا: هي صدقة التّطوّع، وقد تسمّى الزكاة الواجبة صدَقة، إلّا أنها هنا هي النافلة.

فإن قلت: كيف قال: «فذلك محرّم علينا أهل البيت»، وإنما يحرم عليهم الزكاة الواجبة خاصة، ولا يحرم عليهم صدقة التطوّع، ولا قبول الصِّلات؟

قلت: أراد بقوله: «أهل البيت» الأشخاصَ الخمسة: محمّد، وعليّ، وفاطمة، وحسن، وحسين عليهم السلام، فهؤلاء خاصّة دون غيرهم من بني هاشم، محرّم عليهم الصلة وقبول الصدقة، وأمّا غيرهم من بني هاشم فلا يحرُم عليهم إلّا الزكاة الواجبة خاصّة.

فإن قلت: كيف قلت: إنّ هؤلاء الخمسة يحرُم عليهم قبول الصِّلات، وقد كان حسن وحسين عليهما السلام يقبلان صِلَة معاوية؟

قلت: كلّا لم يقبلا صلته، ومعاذ الله أن يقبلاها! وإنما قبِلا منه ما كان يدفعه إليهما من جملة حقهما من بيت المال، فإنّ سهم ذوي القربى منصوص عليه في الكتاب العزيز، ولهما غير سهم ذوي القربى سهم آخر للإسلام من الغنائم.

قوله: «هبلتك الهَبُول» أي ثكلتك أُمّك، والهَبُول التي لها عادة بثكْل الولد.

فإن قلت: ما الفرق بين مختبِط، وذي جنّة، ويهجُر؟

قلت: المختبط: المصروع من غَلَبة الأخلاط السوداويّة أو غيرها عليه، وذو الجِنّة مَنْ به مسٌّ من الشيطان. والذي يهجُر هو الذي يهذِي في مرض ليس بصرَع كالمحموم والمبرسَم ونحوهما.

وجُلب الشّعيرة، بضم الجيم: قشرها، والجُلب والجُلبة أيضاً جليدة تعلو الجرح عند البرء، يقال منه: جلب الجرح يجلِب ويجلُب وأجلب الجرح أيضاً. ويقال للجليدة التي تجعل على القتب جُلْبة أيضاً. وتقضَمها بفتح الضاد، والماضي قَضِم بالكسر.

وعَقيل، هو عَقِيل بن أبي طالب عليه السلام بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف، أخو أمير المؤمنين عليه السلام لأُمّه وأبيه. وكان عَقِيل يكنَى أبا يزيد، قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أبا يزيد، إنّي أحبّك حُبّيْن: حبّاً لقرابتك منّي، وحبّاً لما كنت أعلم من حبّ عَمّي إياك». توفي في سنة خمسين وعمره ست وتسعون سنة.



الأَصْلُ:

ومن دعاء له عليه السلام

اَللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ، وَلَا تَبْذُلْ جَاهِيَ بِالْإِقْتَارِ، فَأَسْتَرْزِقَ طَالِبِي رِزْقِكَ، وَأَسْتَعْطِفَ شِرَارَ خَلْقِكَ، وَأُبْتَلَىٰ بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُفْتَتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي، وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ ٱلْإِعْطَاءِ وَٱلْمَنْعِ؛ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الشَّرْحُ:

صُنْ وجهي باليسار، أي استره بأن ترزقني يَساراً وثروة، أستغني بهما عن مسألة الناس. ولا تبذل جاهي بالإقتار، أي لا تسقط مروءتي وحرْمتي بين النّاس بالفقر الذي أحتاج معه إلى تكفّف الناس.

قوله: «فأسترزقَ» منصوب؛ لأنّه جواب الدعاء، كقولهم: ارزقني بعيراً فأحجَّ عليه. بيّن عليه السلام كيفية تبذّل جاهه بالإقتار، وفسّره فقال: بأن أطلب الرزق ممّن يطلب منك الرزق. واستعطف الأشرار من النّاس، أي أطلب عاطفتهم وإفضالهم، ويلزم من ذلك أمران محذوران:

أحدهما أن أبتلي بحمد المعطي. والآخر أن أُفتتن بذمّ المانع.

قوله عليه السلام: «وأنت من وراء ذلك كلّه» مثل يقال للمحيط بالأمر، القاهر له، القادر عليه، كما نقول للملك العظيم: هو من وراء وزرائه وكتّابه، أي مستعدّ متهيّئ لتتبّعهم وتعقّبهم، واعتبار حركاتهم، لإحاطته بها وإشرافه عليها. وولّي، مرفوع بأنّه خبر المبتدأ، ويكون خبراً بعد خبَر، ويجوز أن يكون «وليّ» هو الخبر، ويكون «من وراء ذلك»، جملة مركّبة من جار ومجرور منصوبة الموضع؛ لأنّه حال.



الأَصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام

دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ، لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا، وَلَا يَسْلَمُ نُزَّالُهَا. أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ، ٱلْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، وَٱلْأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ، وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ، تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا.

وَٱعْلَمُوا عِبَادَ ٱللهِ أَنَّكُم وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هٰذِهِ الدُّنْيَا عَلَىٰ سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَىٰ قَبْلَكُمْ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَاراً، وَأَعْمَرَ دِيَاراً، وَأَبْعَدَ آثَاراً؛ أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً، وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً. فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ ٱلْمُشَيَّدَةِ، وَالنَمَارِقِ ٱلْمُمَهَّدَةِ، الصُّخُورَ وَٱلْأَحْجَارَ ٱلْمُسَنَّدَةَ، وَٱلْقُبُورَ اللَّاطِئَةَ ٱلْمُلْحَدَةَ، الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَىٰ ٱلْخَرَابِ فِنَاؤُهَا، وَشُيِّدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤُهَا؛ فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ، وَسَاكِنُهَا مُغْتَرِبٌ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ، وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ، لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ، وَلَا يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ ٱلْجِيرَانِ، عَلَىٰ مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ ٱلْجِوَارِ، وَدُنُوِّ ٱلدَّارِ. وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ ٱلْبِلَىٰ، وَأَكَلَتْهُمُ ٱلْجَنَادِلُ وَالثَّرَىٰ!

وَكَأَنْ قَدْ صِرْتُمْ إِلَىٰ مَا صَاروا إِلَيْهِ، وَٱرْتَهَنَكُمْ ذٰلِكَ ٱلْمَضْجَعُ، وَضَمَّكُمْ ذٰلِكَ ٱلْمُسْتَوْدَعُ. فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمُ ٱلْأُمُورُ، وَبُعْثِرَتِ ٱلْقُبُورُ: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَىٰ ٱللهِ مَوْلَاهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1].

---

١. سورة يونس ٣٠.

الشَّرْحُ :

بالبلى محفوفة، قد أحاط بها من كلِّ جانب. وتارات: جمع تارة، وهي المرّة الواحدة. ومتصرّفة: منتقلة متحوّلة. ومستهدِفة بكسر الدال: منتصبة مهيّأة للرمي، وروي: «مستهدَفة» بفتح الدال على المفعولية، كأنها قد استهدفها غيرُها، أي جعلها أهدافاً. ورياحهم راكدة: ساكنة. وآثارهم عافية: مندرسة. والقصور المشيّدة: العالية، ومن روى: «المشِيدة» بالتخفيف وكسر الشين، فمعناه المعمولة بالشِّيد، وهو الجِصّ. والنمارق: الوسائد. والقبور المُلْحَدَة: ذوات اللحود. وروي: «والأحجار المسنّدة» بالتشديد.

قوله ﷺ: «قد بُنِيَ على الخراب فناؤها»، أي بنيت لا لتسكن الأحياء فيها كما تبنى منازل أهل الدنيا. والكلكل: الصدر؛ وهو هاهنا استعارة. والجنادل: الحجارة. وبعثرت القبور: أُثيرت. وتبلو كلّ نفس ما أسلفت: تخبر وتعلم جزاء أعمالها، وفيه حذف مضاف، ومن قرأ: «تتلو» بالتاء بنقطتين، أي تقرأ كلّ نفس كتابها. وضلّ عنهم ما كانوا يفترون: بطل عنهم ما كانوا يدّعونه ويكذبون فيه من القول بالشركاء وأنهم شفعاء.



الأَصْلُ :

ومن دعاء له ﷺ

اَللَّهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ آلآنِسِينَ لِأَوْلِيَائِكَ، وَأَحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ. تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ. فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ. إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ ٱلْغُرْبَةُ آنَسَهُمْ ذِكْرُكَ، وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَصَائِبُ لَجَؤُوا إِلَىٰ ٱلاسْتِجَارَةِ بِكَ، عِلْماً بِأَنَّ أَزِمَّةَ ٱلْأُمُورِ بِيَدِكَ، وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِكَ.

اَللَّهُمَّ إِنْ فَهِهْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طِلْبَتِي، فَدُلَّنِي عَلَىٰ مَصَالِحِي، وَخُذْ

بِقَلْبِي إِلَىٰ مَرَاشِدِي، فَلَيْسَ ذٰلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَلَا بِبِدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِكَ.
اَللَّهُمَّ آحْمِلْنِي عَلَىٰ عَفْوِكَ، وَلَا تَحْمِلْنِي عَلَىٰ عَدْلِكَ.

الشّرْحُ:

أَنِست: ضدّ وحشت، والإيناس: ضدّ الإيحاش، وكان القياس أن يقول: إنّك آنس المؤنسين؛ لأنّ الماضي «أفعل» وإنما الآنسون جمع آنس، وهو الفاعل من أنست بكذا، لا من «آنست»؛ فالرواية الصحيحة إذن «بأوليائك»، أي أنت أكثرهم أُنساً بأوليائك وعطفاً وتحنُّناً عليهم. وأحضرهم بالكفاية، أي أبلغهم إحضاراً لكفاية المتوكّلين عليهم، وأقومُهم بذلك. تشاهدهم في سرائرهم، أي تطلع على غيبهم، والبصائر: العزائم، نفذت بصيرته في كذا، أي حقّ عزمه. وقلوبهم إليك ملهوفة، أي صارخة مستغيثة. وفهِهت عن مسألتي، بالكسر: عَيِيت، والفهَّة والفَهاهةُ: العيّ رجل أفِهٌ، ورجل فَهّ أيضاً، وامرأة فَهِهة. وقد فَهِهْتَ يا رجل فَهَهاً، أي عييت، ويقال سفيه فهيه، وفهّهه الله، وخرجت لحاجة فأفهَّني عنها فلان، أي أنسانيها.

ويروى: «أو عمهت» بالهاء والميم المكسورة، والعَمَة: التحيّر والتردّد، عَمِه الرّجل، فهو عَمِه وعَامِهٌ والجمع عُمْهٌ، وأرض عَمْهاء: لا أعلام بها. والنّكر: العجب. والبِدْع: المتبدع، ومنه قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ**﴾[1]، أي لم آت بما لم أسبق إليه.

ومثل قولهﷺ: «اللهم إحملْني على عفوِك، ولا تحملني على عَدْلك» قولُ المروانية للهاشميّة لما قُتل مروان في خبرٍ قد اقتصصناه قديماً: ليسعنا عدْلُكم، قالت الهاشمية: إذنْ لا نُبقي منكم أحداً، لأنكم حاربتم علياًﷺ، وسَممتم الحسنﷺ، وقتلتم الحسينﷺ وزيداً وابنه، وضربتم عليّ بن عبد الله، وخنقتم إبراهيم الإمام في جراب النّورة.

قالت: قد يسعنا عفوكم، قالت: أمّا هذا فنعم.

---

١. سورة الأحقاف ٩.



الأصْلُ:

ومن كلام له عليه السلام[1]:

لله بِلادُ فُلَانٍ، فَلَقَدْ قَوَّمَ ٱلْأَوَدَ، وَدَاوَىٰ ٱلْعَمَدَ، وَأَقَامَ السُّنَّةَ، وَخَلَّفَ ٱلْفِتْنَةَ! ذَهَبَ نَقِيَّ الثَّوْبِ، قَلِيلَ ٱلْعَيْبِ. أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا.

أَدَّىٰ إِلَىٰ ٱللهِ طَاعَتَهُ، وَٱتَّقَاهُ بِحَقِّهِ. رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ، لَا يَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّ، وَلَا يَسْتَيْقِنُ ٱلْمُهْتَدِي.

الشَّرْحُ:

العرب تقول: لله بلادُ فلان، ولله دَرُّ فُلان، ولِلّهِ نادي فُلَانٍ، ولِلّهِ نائحُ فُلَانٍ! والمراد بالأول: لِلّهِ البِلَادُ الَّتِي أنشأتهُ وأنبتَتْهُ، وبالثّاني: لِلّهِ الثَّدْي الذي أرْضَعَهُ، وبالثالثِ: لِلّهِ المجْلِسُ الَّذي رُبِّيَ فيهِ، وبالرابع: لِلّهِ النَّائِحَةُ الَّتي تَنُوحُ عَلَيْهِ وَتنْدبُه! ماذا تَعْهَدُ من مَحَاسِنِهِ! ويُروى: «لله بلاءُ فلان!»، أي لِلّهِ ما صنع! وفلان المكنىٰ عنه عمر بن الخطّاب.

وسألتُ عنه النّقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد العَلوِيّ، فقال لي: هو عمر، فقلت له: أيُثنِي عليه أميرُ المؤمنين عليه السلام هذا الثناء؟ فقال: نعم؛ أمّا الإماميّة فيقولون: إنّ ذلك من التَّقيّة واستصلاح أصحابه. وأمّا الصّالحيّون من الزيْديّة فيقولون: إنّه أثنى عليه حقّ الثناء، ولم يضع المدح إلّا في موضعه ونصابه. وأمّا الجاروديَّة من الزيديّة فيقولون: إنّه كلام قاله في أمر عثمان أخرجه مُخرَجَ الذمِّ له، والتنقّص لأعماله، كما يُمدَحُ الآن الأميرُ الميّت في أيام الأمير الحيّ بعده، فيكون ذلك تعريضاً به.

فأمّا الراونديّ، فإنه قال في الشرح: إنّه عليه السلام مدح بعض أصحابه بحسن السيرة، وأنّ الفتنة هي التي وقعت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من الاختيار والأثَرة.

---

١. ورد في كثير من نسخ نهج البلاغة (الخطيّة والمطبوعة) عبارة: (من كلام له عليه السلام يريد بعض أصحابه) فحذف منها ابن أبي الحديد عبارة: (يريد به بعض أصحابه)؛ ليسجّل فيما بعد أنّ الخطبة وردت في مدح (عمر) لحاجة في نفسه، واستدل لما ذهب إليه بخبر الطبري وتأييد أبي جعفر النقيب.

قال الطبريّ: فروى صالح بن كيسان، عن المغيرة بن شعبة، قال: لمّا دفن عمر أتيتُ عليّاً ﷺ، وأنا أحبّ أن أسمعَ منه في عمر شيئاً، فخرج ينفُض رأسه ولحيته، وقد اغتسَل، وهو ملتحِفٌ بثوب لا يشكّ أنّ الأمر يصير إليه، فقال: رحم الله ابن الخطاب! لقد صدقت ابنةُ أبي حَثْمة: «ذهب بخيرها، ونجا من شرها»، أما والله ما قالت، ولكن قُوّلت!

وهذا كما ترىٰ يقوّى الظنّ؛ أن المراد والمعنيّ بالكلام إنّما هو عمر بن الخطاب.

قوله: «فلقد قَوّم الأوَد»، أي العِوَج، أوِد الشيء بالكسر يأوَدُ أوَداً، أي اعوجّ، وتأوّد العود، يتأوّد. والعَمَد: انفضاخُ سنام البعير، ومنه يقال للعاشق: عَمِيد القلب ومعموده. قوله: «أصَاب خيرَها» أي خير الولاية، وجاء بضميرها ولم يجرِ ذكرها لعادة العرب في أمثال ذلك، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[١]. وسبق شرّها، أي مات أو قتل قبل الأحداث والاختلاط الذي جرى بين المسلمين. قوله: «واتّقاه بحقّه»، أي بإداء حقه والقيام به.

فإن قلت: وأيّ معنى في قوله: «واتقاه بأداء حقّه»؟ وهل يتقي الإنسان الله بأداء الحق! إنما قد تكون التقوى علّة في أداء الحقّ، فأما أن يتّقي بأدائه فهو غير معقول؟

قلت: أراد ﷺ أنّه اتّقى الله، ودلّنا على أنه اتّقى الله بأدائه حقه، فأداء الحقّ علّة في علمنا بأنه قد اتّقى الله سبحانه.

ثم ذكر أنّه رَحَل وترك النّاس في طرق متشعّبة متفرّقة، فالضالّ لا يهتدى فيها، والمهتدي لا يعلم أنه على المنهج القويم. وهذه الصفات إذا تأملها المنصف، وأماط عن نفسه الهوى، علم أن أمير المؤمنين ﷺ لم يَعْنِ بها إلّا عمر[٢].

---

١. سورة ص ٣٢.

٢. قال الحجاف الزيدي: لا يبعد عندي أنه ﷺ عنىٰ به بعض أصحابه كالأشتر، وقد ثبت أنّ الفساد في أصحابه إنّما استشرىٰ بعد موت الأشتر وظهر فيهم الخلاف والخذلان والالتواء.

وأقرب من ذلك عندي أن يكون ﷺ عنىٰ بذلك نفسه، وحدّث عما قام به من الحق، وعما يقع بعده من الفتن، ولم يلتبس الحق حتىٰ لم يستيقن المهتدي إلّا بعد فقده، أمّا في حياته فقد كان أتباعه المهتدون مستيقنين، أمّا عمر فلم تقع الفتنة عقيب فقده بل تراخت زماناً، فما نسبة انتفائها إليه بأولىٰ من نسبته إلىٰ من تقدّمه، والله أعلم. (إرشاد المؤمنين، السيد يحيىٰ الحجاف من أعلام الزيدية ج٢:٦٤٨ تحقيق محمد جواد

⇐ الجلالي). وذهب السرخسي في كتابه (أعلام نهج البلاغة: ص١٩٢ ط ١٤١٥٠ بتحقيق العطاردي): إلىٰ أنّ الإمامﷺ مدح بعض أصحابه بحسن السيرة، وأنّه مات قبل الفتنة التي وقعت بعد رسول اللهﷺ.

كما أنّ الحكيم ابن ميثم البحراني (٦٧٩ ﻫ) في شرحه، شكّك في إرادتهﷺ لعمر أو عثمان، فقال: «بل إرادته لأبي بكر أشبه من إرادته لعمر، لما ذكره في خلافة عمر وذمّها به في خطبته المعروفة بالشقشقية» كما جوّز أن يكون مدحه ذاك لأحدهما (عمر أو أبي بكر) في معرض توبيخ عثمان بوقوع الفتنة في خلافته.

أقول: وكذلك، فإن الإمامﷺ ذم أبابكر وخلافته في شقشقيته، وأشركه مع عمر في ظلمه له ونهب تراثه واستبعاده، بقوله (لشدّ ما تشطّرا ضرعيها) أي اقتسما الخلافة فأخذ كلّ منهما شطراً، (فصيّرها في حوزة خشناء...) كما أن أبا بكر لم يخلّف الفتنة وعليه فلا يمكن أن يكون المراد أبابكر.

وكلام الإمامﷺ لبني عبد المطلب بعد حادثة الشورىٰ يشكف بصراحهه عن طعنه عليهما معاً وزرايته لهما، ذكره ابن أبي الحديد في شرحه ٩: ٥٤، قالﷺ لبني أبيه: «يا بني عبد المطّلب، إنّ قومكم عادوكم بعد وفاة النبيّ كعداوتهم النبيّ في حياته، وإن يطِع قومُكم لا تـؤمَّروا أبداً؛ ووالله لا ينيب هؤلاء إلىٰ الحقّ إلّا بالسيف». قال: وعبد الله بن عمر بن الخطاب، داخلٌ إليهم، قد سمع الكلام كلَّه فدخل، وقال: يا أبا الحسن، أتريد أن تضرب بعضهم ببعض! فقال: اسكت ويحك! فو الله لو لا أبوك وما ركب منّي قديماً وحديثاً، ما نازعني ابنُ عفّان ولا ابنُ عوف. فقام عبد الله فخرج.

وغيرها في مواطن كثيرة، أظهر شكواه وتبرّمه منهما ومن قريش جميعاً. وأمّا ما نقله الشارح عن الطبري، فالطبري متحيّز بل مخالف، والمتحيّز لا ينظر بعين الحق، ورواية المخالف لنفسه غير مقبولة.

وأصل الكلام فيه، حكاه الإمامﷺ: «أما والله ما قالت، ولكن قوّلت» بمعنىٰ أنّها ما قالته من نفسها، ولكن أُجبرت وحمّلت علىٰ قوله. وليس فيه من المدح الشيء المهم، وفي العبارة الأخيرة ذمّ وشكوى في صورة المدح والثناء «رحل وتركهم في طرق متشعبة، لا يهتدي فيها الضال ولا يستيقن المهتدي».

ويظهر من الطبري أيضاً أنه ليس من كلام الإمامﷺ، بل هو من كلام «ابنة أبي حثمة»، وأنّ الإمامﷺ صدّقها في كلمتين «ذهب بخيرها ونجا من شرّها».

ورویٰ ابن شبّة النميري القضية بهذه الصورة: بلغنا أنّ عبد الله بن عيينة الأزدي حليف بني المطلب، قال: لما انصرفنا مع عليّﷺ من جنازة عمر، دخل فاغتسل، ثمّ خرج إلينا، فَصَمَتَ ساعة، ثم قال: «لله بلاء نادبة عمر، قالت: واعمراه أقام الأود، واعمراه، ذهب نقي الثوب، قليل العيب واعمراه، أقام السنة وخلّف الفتنة. ثم قال: «والله، مادرتْ هذا، ولكنها قوّلته، وصدقت والله، أصاب عمر خيرها وخلّف شرّها...» تاريخ المدينة المنورة، ابن شبة النميري ٣: ٩٤١ ـ ٩٤٢، تحقيق فهيم محمد شلتوت.

أقول: فهل يصحّ الاستدلال بكلامٍ مجهول قائله؟ قد أُلقي إلىٰ النادبة، وقوّلته، وما قالته من نفسها، وواضح ⇐



الأَصْلُ :

ومن كلام لهﷺ في وصف بيعته بالخلافة
وقد تقدم مثله بألفاظ مختلفة

وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَيَّ تَدَاكَّ ٱلْإِبِلِ ٱلْهِيمِ عَلَىٰ حِيَاضِهَا يَوْمَ وِرْدِهَا؛ حَتَّىٰ ٱنْقَطَعَتِ النَّعْلُ، وَسَقَطَ الرِّدَاءُ، وَوُطِىءَ الضَّعِيفُ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنِ ٱبْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا ٱلْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا ٱلْعَلِيلُ، وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا ٱلْكِعَابُ.

الشّرْحُ :

التّداكّ: الازدحام الشديد. والإبل الهِيم: العِطاش. وهَدَج إليها الكبير: مشى مشياً ضعيفاً مرتعشاً، والمضارع يهدِج، بالكسر. وتحامل نحوها العليل: تكلّف المشي على مشقّة. وحَسَرتْ إليها الكَعاب: كشفتْ عن وجهها حِرْصاً على حضور البيعة، والكَعاب: الجارية التي قد نَهَد ثديُها، كعَبت تكعُب، بالضمّ.

قوله: «حتى انقطع النّعل وسقط الرّداء»، شبيه بقوله في الخطبة الشّقشقيّة: «حتى لقد وُطئَ الحَسَنَان وشُقّ عِطْفايَ».

وقد تقدّم ذكر بيعتِهﷺ بعد قَتْلِ عثمان وإطباق الناس عليها، وكيفيّة الحال فيها، وشُرِح شرحاً يُستغنى عن إعادته.

⇐ أنّ الإمامﷺ كرر كلام النادية متعجباً منه، متهكماً به ومستغرباً؛ لأنّه تقويل لا صحة له.

وأخيراً يرجّح كثير مِن المحققين أنّ هذا الكلام موضوع مختلق جملة وتفصيلاً، مخالف لكثير من أُصول ومواضعات مذهب الحق، وهو خلاف الأخبار المتواترة والسيرة المحفوفة بالقرائن والشواهد من أنّ الإمامﷺ كان كثير الاستياء والتشكّي من رجال الخلافة؛ ليؤكد مظلوميته، وحقانيته كوصي للنبيﷺ وحجة لله تعالى في أرضه.



الأَصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام

فَإِنَّ تَقْوَىٰ اللهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ، وَعِتْقٌ مِنْ كلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجاةٌ مِنْ كلِّ هَلَكَةٍ؛ بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ، وَيَنْجُو ٱلْهَارِبُ، وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ.

فَاعْمَلُوا وَٱلْعَمَلُ يُرْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالدُّعَاءُ يُسْمَعُ، وَٱلْحَالُ هَادِئَةٌ، وَٱلْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ.

وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمْراً نَاكِساً، أَوْ مَرَضاً حَابِساً، أَوْ مَوْتاً خَالِساً؛ فَإِنَّ ٱلْمَوْتَ هَادِمُ لَذَّاتِكُمْ، وَمُكَدِّرُ شَهَوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدُ طِيَّاتِكُمْ. زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ، وَقِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ. قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ حَبَائِلُهُ، وَتَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ، وَأَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ، وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ، وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ، فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلَلِهِ، وَٱحْتِدَامُ عِلَلِهِ، وَحَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ، وَأَلِيمُ إِرْهَاقِهِ، وَدُجُوُّ أَطْبَاقِهِ، وَخشُونَةُ مَذَاقِهِ. فَكَأَنْ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّكُمْ، وَفَرَّقَ نَدِيَّكُمْ، وَعَفَّىٰ آثَارَكُمْ وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ، وَبَعَثَ وُرَّاثَكُمْ، يَقْتَسِمُونَ تُرَاثَكُمْ، بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍ لَمْ يَنْفَعْ، وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ، وَآخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ.

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَٱلاجْتِهَادِ، وَٱلتَّأَهُّبِ وَٱلاسْتِعْدَادِ، وَالتَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ، وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْمَاضِيَةِ، وَٱلْقُرُونِ ٱلْخَالِيَةِ، الَّذِينَ ٱحْتَلَبُوا دِرَّتَهَا، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا، وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا، وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَاثاً، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثاً، لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ، وَلَا يَحْفِلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ، وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ.

فَاحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَّارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ، لَا يَدُومُ رَخَاؤُهَا، وَلَا يَنْقَضِي عَنَاؤُهَا، وَلَا يَرْكُدُ بَلَاؤُهَا.

الشّرْحُ:

عِتْقٌ من كلِّ مَلكة، هو مثل قوله ﷺ: «التوبة تجبُّ ما قبلها»، أيْ كلّ ذنب موبِق يملك الشيطان فاعله ويستحوذ عليه، فإنّ تقوى الله تعتِق منه، وتكفّر عقابه، ومثله قوله: «ونَجَاةٌ من كلّ هَلَكة».

قوله ﷺ: «والعمل ينفع»، أي اعملوا في دارِ التَّكْليف، فإنّ العمل يوم القيامة غير نافع. «والحال هادئة»، أي ساكنة ليس فيها ما في أحوال الموقف من تلك الحركات الفظيعة، نحو تطاير الصحف، ونطق الجوارح، وعنف السياق إلى النار. «والأقلام جارية»، يعني أنّ التكليف باقٍ، وأنّ الملائكة الحفَظة تكتب أعمال العباد، بخلاف يوم القيامة، فإنه يبطل ذلك، ويُستغنى عن الحفظة لسقوط التكليف. قوله: «عمراً ناكساً»، يعني الهرَم، من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾[1]، لرجوع الشيخ الهرِم إلى مثل حال الصبيّ الصغير في ضعف العقل والبنية.

والموت الخالس: المختطِف. والطِّيّات: جمع طِيّة بالكسر، وهي منزل السفر. والواتر: القاتل، والوِتْر، بالكسر: الذَّحْل. وأعلقتكم حبائله: جعلتكم معتلقين فيها، ويروى: «قد عَلِقَتْكم» بغير همز. وتكنّفتكم غوائله: أحاطت بكم دواهيه ومصائبه. وأقصدتكم: أصابتكم. والمعابل: نصال عِرَاض، الواحدة مِعْبَلة، بالكسر. وعَدْوته، بالفتح: ظُلْمه. ونَبْوَته: مصدر نَبَا السَّيف، إذا لم يؤثِّر في الضريبة. ويوشِك، بالكسر: يقرب. وتَغْشاكم: تحيط بكم. والدّواجي: الظُّلَم، الواحدة داجية. والظُّلل: جمع ظُلّة، وهي السحاب. والاحتدام: الاضطرام. والحنادس: الظلمات. وإرهاقه: مصدر أرهقته، أي أعجلته، ويروى: «إزهاقه» بالزاي. والأطباق: جمع طَبَق، وهذا من باب الاستعارة، أي تكاثف ظلماتِها طبق فوق طبق. ويروى: «وجُشوبة مذاقه» بالجيم والباء، وهي غلظ الطعام. والنَّجِيّ: القوم يتناجوْن. والنديّ: القوم يجتمعون في النادي. واحتلبوا دِرّتها: فازوا بمنافعها، كما يحتلب الإنسان اللَّبَن.

---

١. سورة يس ٦٨.

وهذه الخطبة من محاسن خطبه عليه السلام، وفيها من صناعة البديع ما هو ظاهر للمتأمّل.

الأصْلُ:

منها في صفة الزهاد:

كَانُوا قَوْماً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا. فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا، عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ، تَقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِ الآخِرَةِ، وَيَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ، وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ.

الشّرْحُ:

بين ظهرانَيْ أهل الآخرة، بفتح النون، ولا يجوز كسرها، ويجوز «بين ظهرَيْ أهل الآخرة»، لو رُوي، والمعنى في وسطهم.

قوله عليه السلام: «كانوا قوماً من أهل الدنيا وليسوا من أهلها»، أي همْ من أهلها في ظاهر الأمر وفي مرأى العيْن وليسوا من أهلها؛ لأنّه لا رغبة عندهم في ملاذّها ونعيمها، فكأنّهم خارجون عنها. قوله: «عملوا فيها بما يبصرون»، أي بما يروْنه أصلح لهم، ويجوز أن يريد أنّهم لشدّة اجتهادهم قد أبصروا المآل، فعملوا فيها على حسب ما يشاهدونه من دار الجزَاء، وهذا كقوله عليه السلام: «لو كُشِف الغطاء ما ازددت يقيناً». «وبادروا فيها ما يحذرون»، أي سابقوه، يعني الموت. قوله عليه السلام: «تُقلّب أبدانهم»، هذا محمول تارة على الحقيقة، وتارة على المجاز، أمّا الأول فلأنّهم لا يخالطون إلّا أهلَ الدين ولا يجالسون أهل الدنيا، وأمّا الثاني فلأنّهم لما استحقُّوا الثواب كان الاستحقاق بمنزلة وصولهم إليه، فأبدانُهم تتقلّب بين ظهرانَيْ أهل الآخرة، أي بين ظهرانَيْ قوم هم بمنزلة أهل الآخرة؛ لأنّ المستحقّ للشيء نظيرٌ لمن فعل به ذلك الشيء.

ثم قال: هؤلاء الزّهّاد يرون أهل الدنيا إنما يستعظمون موت الأبدان، وهم أشدُّ استعظاماً لموت القلوب.



الأَصْلُ :

ومن خطبة لهﷺ خطبها بذي قار

وهو متوجّه إلى البصرة ذكرها الواقديّ في كتاب «الجمل» :

فَصَدَعَ بِمَا أُمِرَ بِهِ، وَبَلَّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، فَلَمَّ ٱللَّهُ بِهِ الصَّدْعَ، وَرَتَقَ بِهِ ٱلْفَتْقَ، وَأَلَّفَ بِهِ الشَّمْلَ بَيْنَ ذَوِي ٱلْأَرْحَامِ، بَعْدَ ٱلْعَدَاوَةِ ٱلْوَاغِرَةِ فِي الصُّدُورِ، والضَّغَائِنِ ٱلْقَادِحَةِ فِي ٱلْقُلُوبِ.

الشّرْحُ :

ذو قارٍ: اسم موضع قريب من البصرة، وفيه كانت وقْعة للعرب مع الفرس قبل الإسلام. وصدَع بما أمر به: أي جهر، وأصل الصَّدْع الشق. لمّ به: جمع. ورتق: خاط وألحم. العداوة الواغرة: ذات الوغْرة، وهي شدة الحرّ. الضغائن: الأحقاد. القادحة في القلوب: كأنها تقدح النار فيها كما تقدح النّار بالمِقْدَحة.



الأَصْلُ :

ومن كلام لهﷺ كلّم به عبدالله بن زمعة

وهو من شيعته وذلك أنه قدم عليه في خلافته يطلب منه مالاً، فقالﷺ :

إِنَّ هٰذَا ٱلْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ، وَإِنَّمَا هُوَ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلْبُ أَسْيَافِهِمْ، فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلَّا فَجَنَاةُ أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ.

الشّرْحُ :

هو عبدُ الله بن زَمَعَة بن الأسود بن المطّلب بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ. كان الأسود من المستهزئين الّذين كفى الله رسوله أمرهم بالموت والقتل، وابنه زَمَعَة ابن الأسود، قُتِل يوم بدر كافراً.

وكان عبد الله بن زَمَعَة شيعةً لعليّ عليه السلام. ومن أصحابه؛ ومن ولد عبد الله هذا أبو البختريّ القاضي؛ وكان منحرفاً عن عليّ عليه السلام، وهو الذي أفتى الرشيد ببطلان الأمان الذي كتبه ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأخذه بيده فمزّقه.

قوله عليه السلام: «وجَلْب أسيافهم»، أي ما جلبتْه أسيافهم وساقته إليهم، والجلَب: المال المجلوب. وجَناة الثمر ما يُجْنَى منه. وهذه استعارة فصيحة[1].



الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام

أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ ٱلْقَوْلُ إِذَا ٱمْتَنَعَ، وَلَا يُمْهِلُهُ ٱلنُّطْقُ إِذَا ٱتَّسَعَ، وَإِنَّا لَأُمَرَاءُ ٱلْكَلَامِ، وَفِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ.

وَٱعْلَمُوا رَحِمَكُمُ ٱللهُ أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ ٱلْقَائِلُ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ، أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى ٱلْعِصْيَانِ، مُصْطَلِحُونَ عَلَى ٱلْإِدْهَانِ، فَتَاهُمْ عَارِمٌ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِؤُهُمْ مُمَاذِقٌ، لَا يُعَظِّمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرَهُمْ، وَلَا يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ.

---

١. الفيء: في اللغة الرجوع، وعند الفقهاء الخراج، والغنيمة التي حازها المسلمون بالجهاد. شَركتهم: شاركتهم.

الشّرْحُ :

بَضْعة من الإنسان: قطعة منه. والهاء في «يسعده» ترجع إلى اللسان. والضمير في « امتنع» يرجع إلى الإنسان، وكذلك الهاء في «لا يمهله» يرجع إلى اللّسان. والضمير في « اتسع» يرجع إلى الإنسان، وتقديره: فلا يُسعِد اللسان القول إذا امتنع الإنسان عن أن يقول، ولا يمهل اللسان النطق إذا اتّسع للإنسان القول، والمعنى: إن اللسان آلةٌ للإنسان، فإذا صرفه صارفٌ عن الكلام، لم يكن اللسان ناطقاً، وإذا دعاه داعٍ إلى الكلام نطق اللّسان بما في ضمير صاحبه.

وتنشّبت عروقه، أي علِقت، وروي: «انتَشبت»، والرواية الأُولى أدخل في صناعة الكلام؛ لأنّها بإزاء تهدّلت، والتهدّل: التدلّي[1]، وقد أخذ هذه الألفاظ بعينها أبو مسلم الخراساني، فخطب بها في خطبةٍ مشهورة من خطبه.

واعلم أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في واقعة اقتضت أن يقوله، وذلك أنّه أمر ابن أخته جَعْدة بن هُبيرة المخزوميّ أن يخطب الناس يوماً؛ فصعد المنبر، فحصِر ولم يستطع الكلام، فقام أمير المؤمنين عليه السلام فتسنّم ذرْوة المنبر، وخطب خطبة طويلة، ذكر الرضيّ رحمه الله منها هذه الكلمات.



الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام

روى ذُعْلب اليماني، عن أحمد بن قتيبة، عن عبدالله بن يزيد، عن مالك بن دِحْية، قال: كنّا عند أمير المؤمنين عليه السلام، فقال وقد ذكر عنده اختلاف الناس:

إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبادِئُ طِينِهِمْ، وَذلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلْقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وَعَذْبِهَا، وَحَزْنِ

---

١. كلّ اللّسان: نبا عن الغرض. عارم: شرِس الخلُق. المماذق: من يخرج الودّ بالغش، فلا يخلص في ودّه شأن المنافقين.

تُرْبَةٍ وَسَهْلِهَا، فَهُمْ عَلَىٰ حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ، وَعَلَىٰ قَدْرِ آخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ، فَتَامُّ الرُّوَاءِ نَاقِصُ آلْعَقْلِ، وَمَادُّ آلْقَامَةِ قَصِيرُ آلْهِمَّةِ، وَزَاكِي آلْعَمَلِ قَبِيحُ آلْمَنْظَرِ، وَقَرِيبُ آلْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ، وَمَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ آلْجَلِيبَةِ، وَتَائِهُ آلْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللُّبِّ، وَطَلِيقُ اللِّسَانِ حَدِيدُ آلْجَنَانِ.

الشّرْحُ:

ذعلب وأحمد وعبد الله ومالك، رجال من رجال الشِّيعة ومحدّثيهم. وهذا الفصل عندي لا يجوز أن يحمَل على ظاهره، وما يتسارع إلى أفهام العامّة منه وذلك لأنّ قوله: «أنّهم كانوا فِلقة من سَبَخ أرض وعَذبها»؛ إمّا أن يريد به أنّ كلّ واحد من النّاس ركّب من طين، وجعل صورة بشرية طينيّة برأس وبطن ويدين ورجلين، ثم نفخت فيه الروح كما فعل بآدم، أو يريد به أنّ الطّين الذي ركِّبت منه صورة آدم فقط كان مختلطاً من سَبَخ وعَذْب. والذي أراه أنّ لكلامه عليه السلام تأويلاً باطناً، وهو أن يريد به اختلاف النّفوس المدبّرة للأبدان، وكنى عنها بقوله: «مبادئ طينهم».

وقوله: «كانوا فِلْقة من سبخ أرض وعذبها، وحَزْن تربة وسهلها» تفسيره أنّ الباريَ جلّ جلاله لمّا خلق النّفوس، خَلَقها مختلفة في ماهيّتها، فمنها الزكيّة ومنها الخبيثة، ومنها العفيفة ومنها الفاجرة، ومنها القويّة ومنها الضعيفة، ومنها الجريئة المقدِمة، ومنها الفَشْلة الذليلة، إلى غير ذلك من أخلاق النفوس المختلفة المتضادّة.

ثم فسّر عليه السلام وعلّل تساوي قوم في الأخلاق وتفاوت آخرين فيها، فقال: إنّ نفس زيد قد تكون مشابهةً أو قريبة من المشابهة لنفس عمرو، فإذا هما في الأخلاق متساويتان، أو متقاربتان، ونفس خالد قد تكون مضادّة لنفس بكْر أو قريبة من المضادّة، فإذا هما في الأخلاق متباينتان أو قريبتان من المباينة. ثمّ بيّن عليه السلام اختلاف آحاد الناس، فقال: منهم من هو تام الرّواء، لكنه ناقص العقل. والرّواء بالهمز والمد: المنظر الجميل.

قوله عليه السلام: «ومادّ القامة قصير الهِمّة»؛ قريب من المعنى الأول، إلّا أنه خالف بين الألفاظ، فجعل الناقص بإزاء التامّ، والقَصِير بإزاء المادّ. ويمكن أن يجعل المعنيان مختلفين، وذلك لأنّه قد يكون الإنسان تامّ العقل، إلّا أنّ همته قصيرة، وقد رأينا كثيراً من النّاس كذلك، فإذَنْ

هذا قسم آخر من الاختلاف غير الأوّل. قولهﷺ: «وزاكي العمل قبيح المنظر» يريد بزكاء أعماله حسنَها وطهارتَها، فيكون قد أوقع الحَسن بإزاء القبيح، وهذا القسم موجود فاش بين الناس. «وقريب القعر بعيد السَّبْر»، أي قد يكون الإنسان قصير القامة، وهو مع ذلك داهية باقعة، والمراد بقربِ قعره تقارب ما بين طرفيْه، فليست بطنه بمديدة ولا مستطيلة، وإذا سبرته واختبرت ما عنده وجدتَه لبيباً فَطِناً، لا يوقَف على أسراره، ولا يدرك باطنه. «ومعروف الضريبة، منكر الجليبة»، الجليبة هي الخلقُ الَّذي يتكلّفه الإنسان ويستجلبه، مثل أن يكون جباناً بالطبع فيتكلّف الشجاعة، أو شحيحاً بالطبع فيتكلف الجود، وهذا القسم أيضاً عام في النّاس.

ثم لما فرغ من الأخلاق المتضادة ذكر بعدها ذوِي الأخلاق والطباع المتناسبة المتلائمة، فقال: «وتائه القلب متفرق اللّب»، وهذان الوصفان متناسبان لا متضادّان. ثم قال: « وطليق اللّسان حديد الجَنان»، وهذان الوصفان أيضاً متناسبان، وهما متضادان للوصفين قبلهما، فالأوّلان ذمٌّ، والآخران مدح.



٢٣٠

الأصْلُ:

ومن كلام لهﷺ قاله وهو يلي غسل رسول اللهﷺ وتجهيزه

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ ٱللهِ! لَقَدِ ٱنْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَٱلأَنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ. خَصَّصْتَ حَتَّىٰ صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ، وَعَمَّمْتَ حَتَّىٰ صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً. وَلَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ ٱلْجَزَعِ، لأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ[١] وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً، وَٱلْكَمَدُ مُحَالِفاً، وَقَـلَّا لَكَ! وَلٰكِنَّهُ مَا لَا يُمْلَكُ رَدُّهُ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ!

١. الشؤون: منابع الدمع من الرأس. المماطل: المسوف. المحالف: الملازم.

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ! ٱذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَٱجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ!

الشّرْحُ :

بأبي أنت وأمّي ! أي بأبي أنت مفدىً وأُمّي. والإنباء: الإخبار، مصدر أنبأ ينبئ، وروي: «والأنباء» بفتح الهمزة جمع نَبَأ، وهو الخبر. وأخبار السماء: الوحي.

قوله عليه السلام: «خصّصت وعمّمت»، أي خصّت مصيبتك أهل بيتك حتى إنهم لا يكترثون بما يصيبهم بعدك من المصائب، ولا بما أصابهم من قَبْل، وعمّت هذه المصيبة أيضاً النّاس، حتى استوى الخلائق كلُّهم فيها، فهي مصيبة خاصّة بالنسبة، وعامّة بالنسبة.

قوله عليه السلام: « ولكان الداء مماطلاً»، أي مماطلاً بالبرء أي لا يجيب إلىٰ الإقلاع. والإبلال: الإفاقة.



٢٣١

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام

ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ ٱلْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاظِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ ٱلسَّوَاتِرُ، ٱلدَّالِّ عَلَىٰ قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَىٰ وَجُودِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَىٰ أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ. الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ، وَٱرْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ، مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ ٱلْأَشْيَاءِ عَلَىٰ أَزَلِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ ٱلْعَجْزِ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ، وَبِمَا ٱضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ ٱلْفَنَاءِ عَلَىٰ دَوَامِهِ.

وَاحِدٌ لَا بِعَدَدٍ، وَدَائِمٌ لَا بِأَمَدٍ، وَقَائِمٌ لَا بِعَمَدٍ. تَتَلَقَّاهُ ٱلْأَذْهَانُ لَا بِمُشَاعَرَةٍ، وَتَشْهَدُ لَهُ

ٱلْمَرَائِي لَا بِمُحَاضَرَةٍ. لَمْ تُحِطْ بِهِ ٱلْأَوْهَامُ، بَلْ تَجَلَّىٰ لَهَا بِهَا، وَبِهَا ٱمْتَنَعَ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا. لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ ٱمْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً، وَلَا بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ ٱلْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً؛ بَلْ كَبُرَ شَأْناً، وَعَظُمَ سُلْطَاناً.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ، -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ ٱلْحُجَجِ، وَظُهُورِ ٱلْفَلَجِ، وَإِيضَاحِ ٱلْمَنْهَجِ؛ فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعاً بِهَا، وَحَمَلَ عَلَىٰ ٱلْمَحَجَّةِ دالاًّ عَلَيْهَا، وَأَقَامَ أَعْلَامَ ٱلِاهْتِدَاءِ، وَمَنَارَ الضِّيَاءِ، وَجَعَلَ أَمْرَاسَ ٱلْإِسْلَامِ مَتِينَةً، وَعُرَىٰ ٱلْإِيمَانِ وَثِيقَةً.

الشّرْحُ:

الشواهد هاهنا، يريد بها الحواسّ وسمّاها «شواهد»، إمّا لحضورها؛ شهد فلان كذا أي حضره، أو لأنها تشهد على ما تدركه وتثبته عند العقل، كما يشهد الشاهد بالشيء ويثبته عند الحاكم. والمشاهد هاهنا: المجالس والنوادي، يقال: حضرت مشهد بني فلان، أي ناديهم ومجتمعهم. ثم فسّر اللفظة الأُولى وأبان عن مراده بها، بقوله: «ولا تراه النواظر»، وفسّر اللفظة الثانية وأبان عن مرادها، فقال: «ولا تحجبه السواتر». والمراد بقولهﷺ: «الدالّ بحدوث الأشياء على قدمه»، أي على كونه ذاتاً لم يجعلها جاعل، وليس المراد بالقدم هاهنا الوجود لم يزل، بل مجرد الذاتيّة لم يزل.

ثم يستدلّ بعد ذلك بحدوث الأشياء على أنّ له صفة أُخرىٰ لم تزل زائدة على مجرّد الذاتيّة، وتلك الصفة هي وجوده فقد اتّضح المراد الآن.

فإن قلت: فهل لهذا الكلام مساغٌ على مذهب البغداديين؟

قلت: نعم، إذا حمل على منهج التأويل بأن يريد بقوله: «وبحدوث خلقه على وجوده»، أي على صحّة إيجاده له فيما بعد، أي إعادته بعد العدَم يوم القيامة؛ لأنّه إذا صحّ منه تعالى إحداثه ابتداءً صحّ منه إيجاده ثانياً على وجه الإعادة؛ لأنّ الماهيّة قابلة للوجود والعدم، والقادر قادرٌ لذاته، فأمّا من روى بحدوث خلقه على وجوده، فإنه قد سقطت عنه هذه الكلف كلّها، والمعنى على هذا ظاهر؛ لأنّه تعالى دلّ المكلفين بحدوث خلقه على أنه جواد منعم، ومذهب أكثر المتكلّمين أنه خلق العالم جوداً وإنعاماً وإحساناً إليهم.

قوله: «وباشتباههم على أن لا شبه له» هذا دليل صحيح، وذلك لأنّه إذا ثبت أن جسماً ما محدَث، ثبت أنّ سائر الأجسام محدَثة؛ لأنّ الأجسام متماثلة، وكلّ ما صحّ على الشيء صحّ على مثله، وكذلك إذا ثبت أنّ سواداً ما أو بياضاً ما محدَث، ثبت أن سائر السوادات والبياضات محدَثة؛ لأنّ حكم الشيء حكم مثله، والسّواد في معنى كونه سواداً غير مختلف، وكذلك البياض، فصارت الدلالة هكذا الذوات التي عندنا يُشبِه بعضها بعضاً، وهي محدَثة؛ فلو كان الباريء سبحانه يشبه شيئاً منها لكان مثلها، ولكان محدَثاً؛ لأنّ حكم الشيء حكم مثله، لكنه تعالى ليس بمحدَث، فليس بمشابه لشيء منها، فقد صحّ إذاً قوله: «وباشتباههم على أن لا شبه له».

قوله: «الّذي صدق في ميعاده»، لا يجوز ألّا يصدق؛ لأنّ الكذب قبيحٌ عقلاً، والباريءُ تعالى يستحيل منه من جهة الدّاعي والصارف أن يفعل القبيح. «وارتفع عن ظلم عباده»، هذا هو مذهب أصحابنا المعتزلة، وعن أمير المؤمنين أخذوه.

ثم أعاد الكلام الأول في التوحيد تأكيداً، فقال: حدوث الأشياء دليل على قدمه، وكونها عاجزة عن كثير من الأفعال دليل على قدرته، وكونها فانية دليل على بقائه.

ثم قال: «واحد لا بعدد» لأنّ وحدته ذاتيّة، وليست صفة زائدة عليه، وهذا من الأبحاث الدقيقة في علم الحكمة. ثم قال. «دائم لا بأمَد»؛ لأنهُ تعالى ليس بزمانيّ ولا داخل تحت الحركة والزمان، وهذا أيضاً من دقائق العلم الإلهيّ، والعرب دون أن تفهم هذا أو تنطق به، ولكن هذا الرجل كان ممنوحاً من الله تعالى بالفَيْض المقدّس والأنوار الربانيّة. «وقائم لا بِعَمَد»؛ لأنّه لما كان في الشاهد كلّ قائم فله عماد يعتمِد عليه، أبان تنزيهه تعالى عن المكان، وعمّا يتوهمه الجهلاء من أنه مستقرٌّ على عرشه بهذه اللفظة. ومعنى القائم هاهنا ليس ما يسبق إلى الذهن من أنه المنتصب. بل، ما تفهمه من قولك: فلان قائم بتدبير البلد، وقائم بالقسط. «تتلقاه الأذهان لا بمشاعرة»، أي تتلقاه تلقّياً عقلياً، ليس كما يتلقى الجسم الجسمَ بمشاعره وحواسّه وجوارحه، وذلك لأنّ تعقّل الأشياء وهو حصول صورها في العقل بريئة من المادة، والمراد بتلقّيه سبحانه هاهنا تلقى صفاته، لا تلقى ذاته تعالى؛ لأنّ ذاته تعالى لا تتصوّرها العقول. ثم قال: «وتشهد له المرائي لا بمُحاضرة»، المرائي: جمع مرئيّ، وهو الشيء المدرَك بالبَصر، يقول: المرئيّات تشهدُ بوجود الباريءِ؛ لأنّه لولا وجوده لما وُجدت، ولو لم توجد لم تكن مرئيّات، وهي شاهدة بوجوده لا كشهادتها بوجود

الأبصار؛ لأنّها شهدت بوجود الأبصار لحضورها فيها. وأمّا شهادتها بوجود الباري فليستْ بهذه الطريق، بل بما ذكرناه. والأولى أن يكون «المرائي» هاهنا جمع «مَرْآة» بفتح الميم، من قولهم: هو حسن في مَرآة عيني، يقول: إنّ جنس الرؤية يشهد بوجود الباريَ من غير محاضرة منه للحواس.

قوله ﷺ: «لم تُحط به الأوهام» إلى قوله ﷺ «وإليها حاكَمَها»، هذا الكلام دقيق ولطيف، والأوهام هاهنا هي العقول، يقول: إنّه سبحانه لم تحط به العقول، أي لم تتصوّر كنهَ ذاته، ولكنه تجلّى للعقول بالعقول، وتجلّيه هاهنا هو كشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من صفاته الإضافية والسلبيّة لا غير، وكشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من أسرار مخلوقاته، فأمّا غير ذلك فلا؛ وذلك لأنّ البحث النظريّ قد دلّ على أنّا لم نعلم منه سبحانه إلّا الإضافة والسلب، أما الإضافة فكقولنا: عالم قادر، وأمّا السّلب فكقولنا: ليس بجسم ولا عرَض ولا يُرى، فأمّا حقيقة الذات المقدسة المخصوصة من حيث هي هي، فإنّ العقل لا يتصوّرها، وهذا مذهب الحكماء وبعض المتكلّمين من أصحابنا ومن غيرهم.

ثم قال: «وبالعقول امتنع من العقول»، أي وبالعقول وبالنظر، علمنا أنه تعالى يمتنع أن تدركه العقول. ثم قال: «وإلى العقول حاكَم العقول»، أي جعل العقول المدعية أنها أحاطت به وأدركته كالخصم له سبحانه، ثم حاكمها إلى العقول السليمة الصحيحة النظر، فحكمت له سبحانه على العقول المدّعية لما ليست أهلاً له.

واعلم أنّ القول بالحيرة في جلال ذات الباريَ والوقوف عند حدٍّ محدود لا يتجاوزه العقل قولٌ ما زال فضلاء العقلاء قائلين به.

قوله ﷺ: «ليس بذي كِبَرٍ» إلى قوله «وعظُم سلطاناً»، معناه أنه تعالى يطلق عليه من أسمائه الكبير والعظيم، وقد ورد بهما القرآن العزيز، وليس المراد بهما ما يستعمله الجمهور من قولهم: هذا الجسم أعظم وأكبر مقداراً من هذا الجسم، بل المراد عِظَمُ شأنه وجلالة سلطانه.

والفَلَج: النُّصرة، وأصله سكون العين، وإنّما حرّكه ليوازن بين الألفاظ، وذلك لأنّ الماضي منه فَلَج الرجلُ على خَصمه بالفتح، ومصدره الفَلْج بالسكون، فأما من روى: «وظهور الفُلُج» بضمتين فقد سقط عنه التأويل؛ لأنّ الاسم من هذا اللفظ: «الفُلج» بضم أول الكلمة، فإذا استعملها الكاتب أو الخطيب جاز له ضمّ الحرف الثاني. وصادعاً بهما: مظهراً مجاهداً، وأصله الشقّ. والأمراس: الحِبال، والواحد مَرَس؛ بفتح الميم والراء.

الأَصْلُ :

منها في صفة عجيب خلق الله من أصناف الحيوان :

وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ ٱلْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَىٰ الطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ، وَلٰكِنِ ٱلْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ، وَٱلْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ! أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ صَغِيرِ مَا خَلَقَ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ، وَسَوَّىٰ لَهُ ٱلْعَظْمَ وَٱلْبَشَرَ!

ٱنْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ ٱلْبَصَرِ، وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ ٱلْفِكَرِ: كَيْفَ دَبَّتْ عَلَىٰ أَرْضِهَا، وَصُبَّتْ عَلَىٰ رِزْقِهَا، تَنْقُلُ ٱلْحَبَّةَ إِلَىٰ جُحْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وِرْدِهَا لِصَدَرِهَا؛ مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا؛ لَا يُغْفِلُهَا ٱلْمَنَّانُ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا ٱلْيَابِسِ، وَٱلْحَجَرِ ٱلْجَامِسِ! وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، فِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي ٱلْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً!

فَتَعَالَىٰ الَّذِي أَقَامَهَا عَلَىٰ قَوَائِمِهَا؛ وَبَنَاهَا عَلَىٰ دَعَائِمِهَا! لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعِنْهُ عَلَىٰ خَلْقِهَا قَادِرٌ. وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ ٱلدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَىٰ أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ؛ لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ ٱخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ.

وَمَا ٱلْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَٱلْخَفِيفُ، وَٱلْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءٌ.

وَكَذٰلِكَ السَّمَاءُ وَٱلْهَوَاءُ، وَالرِّيَاحُ وَٱلْمَاءُ. فَٱنْظُرْ إِلَىٰ الشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَٱلْمَاءِ وَٱلْحَجَرِ، وَٱخْتِلَافِ هٰذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هٰذِهِ ٱلْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هٰذِهِ ٱلْجِبَالِ، وَطُولِ هٰذِهِ ٱلْقِلَالِ، وَتَفَرُّقِ هٰذِهِ اللُّغَاتِ، وَٱلْأَلْسُنِ ٱلْمُخْتَلِفَاتِ.

فَالوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ ٱلْمُقَدِّرَ، وَجَحَدَ ٱلْمُدَبِّرَ! زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ؛ وَلَمْ يَلْجَؤُوا إِلَىٰ حُجَّةٍ فِيمَا ٱدَّعَوا، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا أَدْعَوْا، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ!

الشّرْحُ:

مدخولة: معيبة. وفَلَق: شقَّ وخلق. والبَشَر: ظاهر الجلد.

قولهﷺ: «وصُبّت على رزقها»، قيل: هو على العكس، أي وصبّ رزقُها عليها، والكلام صحيح ولا حاجة فيه إلى هذا، والمراد: كيف همّت حتى انصبّت على رزقها انصباباً؛ أي انحطت عليه. ويروى: «وضنّت على رزقها» بالضاد المعجمة والنون، أي بخلت. وجُحْرها: بيتها. «وفي وِرْدِها لصَدَرها»، أي تجمع في أيام التمكّن من الحركة لأيام العجز عنها، وذلك لأنّ النمل يظهر صيفاً ويخفى في شدّة الشتاء لعجزه عن ملاقاة البرد.

قولهﷺ: «رزْقُها وفْقها» أي بقدر كفايتها، ويروى «مكفول برزقها مرزوقة بوفقها». والمنّان: من أسماء الله تعالى العائد إلى صفاته الفعلية، أي هو كثير المنّ والإنعام على عباده. والديّان: المجازي للعباد على أفعالهم، قال تعالى: ﴿أإنّا لمَدِينُونَ﴾[1] أي مجزيّون. والحجَر الجامس: الجامد. والشراسيف: أطراف الأضلاع المشرفة على البطن.

فأما الحكماء، فإنهم لا يثبتون للنّمل شَراسيف ولا أضلاعاً، ويجب إن صحّ قولهم أن يحمَل كلامُ أمير المؤمنينﷺ عَلَى اعتقاد الجمهور ومخاطبة العرب بما تتخيّله وتتوهّمه حقّاً، وكذلك لا يثبت الحكماء للنّمل آذاناً بارزة عن سطوح رؤوسها، ويجب إنْ صحّ ذلك أن نحمل كلام أمير المؤمنينﷺ عَلَى قوّة الإحساس بالأصوات، فإنه لا يمكن الحكماء إنكار وجود هذه القوّة للنمل.

قولهﷺ: «ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته»، أي غايات فكرك. وضربت بمعنى سرت. والمذاهب: الطرق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ﴾[2]، وهذا الكلام استعارة.

---

١. سورة الصافات ٥٣.

٢. سورة النساء ١٠١.

قال: لو أمعنتَ النّظرَ لعلمتَ أنّ خالق النملة الحقيرَة هو خالق النّخلة الطويلة؛ لأنّ كلّ شيء من الأشياء تفصيل جسمه وهيئته تفصيل دقيق، واختلاف تلك الأجسام في أشكالها وألوانها ومقاديرها اختلافٌ غامض السبب. فلا بدّ للكلّ من مدبّر يحكم بذلك الاختلاف ويفعله، على حسب ما يعلمه من المصلحة.

ثم قال: وما الجليل والدقيق في خلْقه إلّا سواء! لأنّه تعالى قادر لذاته، لا يعجزه شيء من الممكنات. ثم قال: «فانظر إلى الشمس والقمر» إلى قوله: «والألسن المختلفات»، هذا هو الاستدلال بإمكان الأعراض على ثبوت الصانع.

ثم سفّه آراء المعطِّلة، وقال: «إنهم لم يعتصموا بحجّة، ولم يحقّقوا ما وعوْه»، أي لم يرتّبوا العلوم الضرورية ترتيباً صحيحاً يفضي بهم إلى النتيجة الّتي هي حقّ. ثم أخذ في الردّ عليهم من طريق أُخرىٰ، وهي دعوى الضَّرُورة، وقد اعتمد عليها كثيرٌ من المتكلّمين، فقال: نعلم ضرورة أنّ البناء لابدّ له من بانٍ. ثم قال: «والجناية لابدّ لها من جانٍ»، وهذه كلمة ساقتْه إليها القرينة، والمراد عموم الفعليّة لا خصوص الجناية، أي مستحيل أن يكون الفعلُ من غير فاعل.

الأصْلُ:

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي ٱلْجَرَادَةِ، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ ٱلْخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا ٱلْفَمَ السَّوِيَّ، وَجَعَلَ لَهَا ٱلْحِسَّ ٱلْقَوِيَّ، وَنَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ، وَمِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ. يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّىٰ تَرِدَ ٱلْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا، وَتَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِهَا. وَخَلْقُهَا كُلُّهُ لَا يُكَوِّنُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً.

فَتَبَارَكَ ٱللّٰهُ ٱلَّذِي يَسْجُدُ لَهُ ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾، وَيُعَفِّرُ لَهُ خَدّاً وَوَجْهاً، وَيُلْقِي إِلَيْهِ بِالْطَّاعَةِ سِلْماً وَضَعْفاً، وَيُعْطِي لَهُ ٱلْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفاً!

فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ: أَحْصَىٰ عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَالنَّفَسَ، وَأَرْسَىٰ قَوَائِمَهَا عَلَىٰ النَّدَىٰ وَٱلْيَبَسِ؛ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَحْصَىٰ أَجْنَاسَهَا؛ فَهٰذَا غُرَابٌ وَهٰذَا عُقَابٌ، وَهٰذَا

حَمَامٌ وَهٰذَا نَعَامٌ؛ دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بَاسْمِهِ، وَكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ.

وَأَنْشَأَ السَّحَابَ الثِّقَالَ فَأَهْطَلَ دِيَمَهَا، وَعَدَّدَ قِسَمَهَا؛ فَبَلَّ الْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا[١].

الشّرْحُ:

قوله: «وأسْرَج لها حَدقتين»، أي جعلهما مضيئتين كما يضيء السراج، ويقال: حدقة قمراء أي منيرة، كما يقال: ليلة قمراء أي نيّرة بضوء القمر. و «بهما تـقْرِض» أي تـقطَع، والراء مكسورة. والمِنْجلان: رجلاها؛ شبّههما بالمناجل لعوجهما وخشونتهما. ويَرْهبها: يخافها. ونزواتها: وثباتها. والجدْب: المحل.



الأصْلُ:

ومن خطبة لهﷺ في التوحيد

وتجمع هذه الخطبة من أُصول العلم ما لا تجمعه خطبة غيرها:

مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَىٰ مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ.

فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ، مُقَدِّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ، غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ. لَا تَصْحَبُهُ ٱلْأَوْقَاتُ، وَلَا تَرْفِدُهُ ٱلْأَدَوَاتُ؛ سَبَقَ ٱلْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَٱلْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَٱلِابْتِدَاءَ أَوَّلُهُ.

---

١. الجرادة: دويبة من مستقيمات الأجنحة أنواعها عديدة. الحدقة: سواد العين. النابين: مفردة ناب: وهو من الأسنان خلف الرباعية. منجلين: مفردها منجل: حديدة ملتوية يجتث بها الزرع. الذبّ: الدفع. أجلبوا: أجمعوا. أُرسىٰ: أثبت. الندىٰ: مقابل اليبس. الهطل: تتابع المطر. الجدوب: المحْل.

الشَّرْحُ:

هذا الفصل يشتمل على مباحث متعدِّدة:

أولها: قوله: «ما وحَّدَهُ مَنْ كَيَّفه»، وهذا حقّ؛ لأنّه إذا جعله مكيَّفاً جعله ذا هيئة وشكل، أو ذا لونٍ وضوء، إلى غيرهما من أقسام الكَيْف، ومتى كان كذلك كان جسماً ولم يكن واحداً؛ لأنّ كلّ جسم قابل للانقسام، والواحد حقاً لا يقبل الانقسام، فقد ثبت أنه ما وحّده مَنْ كيّفه.

وثانيها: قوله: «ولا حقيقته أصاب مَنْ مثّله»، وهذا حقّ؛ لأنّه تعالى لا مثل له، وقد دلّت الأدلّة الكلاميّة والحُكْميّة على ذلك، فَمنْ أثبت له مثلاً، فإنه لم يصب حقيقته تعالى، والسّجعة الأُخرىٰ تعطي هذا المعنى أيضاً من غير زيادة عليه، وهي قوله ﷺ: «ولا إيّاه عَنَى مَنْ شبّهه» ولهذا قال شيوخنا: إنّ المشبّه لا يعرف الله، ولا تتوجّه عباداته وصلواته إلى الله تعالى؛ لأنّه يعبد شيئاً يعتقده جسماً، أو يعتقده مشابها لبعض هذه الذوات المحدَثة، والعبادة تنصرف إلى المعبود بالقصد، فإذا قُصِد بها غيرُ الله تعالى لم يكن قد عبدَ الله سبحانه ولا عرفه، وإنّما يتخيّل ويتوهّم أنه قد عرفه وعبده، وليس الأمر كما تخيّل وتوهّم.

وثالثها: قوله ﷺ: «ولا صَمَده مَنْ أشار إليه» أي أثبته في جهة. الصَّمَد في اللغة العربيّة: السيّد. والصمَد أيضاً الذي لا جوف له، وصار التّصميد في الاصطلاح العرفيّ عبارة عن التنزيه، والذي قال ﷺ حقّ؛ لأنّ مَنْ أشار إليه ـ أي أثبته في جهة ـ فإنه ما صَمَده؛ لأنّه ما نزّهه عن الجهات، بل حكم عليه بما هو من خواصّ الأجسام، وكذلك مَنْ توهّمه سبحانه، أي مَنْ تخَيّل له في نفسه صورة أو هيئة أو شكلاً، فإنّه لم ينزهه عَمّا يجب تنزيهه عنه.

ورابعها: قوله: «كلّ معروف بنفسه مصنوع»، هذا الكلام يجب أن يتأوّل، ويحمل على أنّ كلّ معروف بالمشاهدة والحسّ فهو مصنوع، وذلك لأنّ البارئ سبحانه معروف من طريقين: إحداهما من أفعاله، والأُخرىٰ بنفسه؛ وهي طريقة الحكماء الّذين بحثُوا في الوجود من حيث هو وجود، فعلموا أنّه لابدّ من موجودٍ واجبِ الوجود، فلم يستدلّوا عليه بأفعاله، بل أخرج لهم البحث في الوجود أنه لابدّ من ذات يستحيل عدمها من حيث هي هي.

يريد ﷺ بالفقرة الأُولى كلّ معروف بنفسه من طريق المشاهدة مستقلاً بذاته، غير مفتقر في تقوّمه إلى غيره فهو مصنوع، وهذا يختصّ بالأجسام خاصّة، ولا يدخل الألوان وغيرها من الأعراض فيه؛ لأنّها متقوّمة بمحالها.

وخامسها: قوله: «وكلّ قائم في سواه معلول»، أي وكلّ شيء يتقوّم بغيره فهو معلول، وهذا حقٌّ لا محالة، كالأعراض؛ لأنها لو كانت واجبةً لاستغنت في تقوّمها عن سواها، لكنّها مفتقرة إلى المحلّ الذي يتقوّم به ذواتها؛ فإذا هي معلولة؛ لأنّ كل مفتقر إلى الغير فهو ممكن فلا بدّ له من مؤثر.

وسادسها: قوله: «فاعل لا باضطراب آلة» هذا لبيان الفرق بينه وبيننا، فإنّنا نفعل بالآلات وهو سبحانه قادر لذاته فاستغنى عن الآلة.

وسابعها: قوله: «مقدّر لا بجوْل فكرة»، هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه؛ لأنّا إذا قدّرنا أجَلْنا أفكارنا، وتردّدت بنا الدواعي، وهو سبحانه يقدّر الأشياء على خلاف ذلك.

وثامنها: قوله: «غنيّ لا باستفادة»، هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه؛ لأنّ الغنيّ منّا مَنْ يستفيد الغنى بسبب خارجي، وهو سبحانه غني بذاته من غير استفادة أمر يصير به غنياً، والمراد بكونه غنيّاً أنّ كل شيء من الأشياء يحتاج إليه، وأنّه سبحانه لا يحتاج إلى شيء من الأشياء أصلاً.

وتاسعها: قوله: «لا تصحبه الأوقات»، هذا بحث شريف جداً؛ وذلك لأنّه سبحانه ليس بزمان ولا قابل للحركة، فذاته فوق الزمان والدهر.

وعاشرها: قوله: «ولا تَرْفِدُه الأدوات»، رفدت فلاناً إذا أعنتَه؛ والمراد الفرق بيننا وبينه؛ لأنّنا مرفودون بالأدوات، ولولاها لم يصح منا الفعل، وهو سبحانه بخلاف ذلك.

وحادي عشرها: قوله: «سبق الأوقات كونُه ...» إلى آخر الفصل، هذا تصريح بحدوث العالم.

فإن قلت: ما معنى قوله: «والعدم وجوده»؟ وهل يسبق وجوده العدم مع كون عدم العالم في الأزَل لا أوّلَ له؟

قلت: ليس يعني بالعدم هاهنا عدم العالم. بل، عدم ذاته سبحانه، أي غلب وجود ذاته عدمها وسبقها، فوجب له وجود يستحيل تطرّق العدم إليه أزلاً وأبداً بخلاف الممكنات، فإنّ عَدمها سابق بالذّات على وجودها، وهذا دقيق!

الأصْلُ:

بِتَشْعِيرِهِ ٱلْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ ٱلْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ ٱلْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ. ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ؛ وَٱلْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ،

وَٱلْجُمُودَ بِالْبَلَلِ، وَٱلْحَرُورَ بِالصَّرَدِ. مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا. لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ، وَلَا يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ ٱلْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا؛ وَتُشِيرُ ٱلْآلَاتُ إِلَىٰ نَظَائِرِهَا.

الشّرْحُ:

المشاعر: الحواسّ، قال بَلْعاء بن قَيس:

والرّأسُ مُـرْتَفِعٌ فـيهِ مشـاعِرُهُ   يَهْدِي السّبيلَ له سَـمعٌ وعَـيْنَانِ

قال: بجعله تعالى المشاعر عُرِف أن لا مشعرَ له؛ وذلك لأنّ الجسم لا يصحّ مـنه فـعل الأجسام، وهذا هو الدليل الذي يعوِّل عليه المتكلّمون في أنّه تعالى ليس بجسم.

ثم قال: «وبمضادّته بين الأُمور عرف أن لا ضدّ له»؛ وذلك لأنّه تعالى لما دلّنا بـالعقل على أن الأُمور المتضادة إنّما تتضادّ على موضوع تقوم به وتحلّه كان قد دلّنا على أنّه تعالى لاضد له؛ لأنّه يستحيل أن يكون قائماً بموضوع يحلّه كما تقوم المتضادّات بموضوعاتها.

ثم قال: «وبمقارنته بين الأشياء عُرِف أن لا قرين له»؛ وذلك لأنّه تعالى قَرن بين العَـرض والجوْهر، بمعنى استحالة انفكاك أَحدهما عن الآخر، وقَـرَن بـين كـثير مـن الأعـراض، واستحالة انفكاك أحد الأمرين عن الآخر، علمنا أنه لا قرينَ له سبحانه؛ لأنّه لو قارن شيئاً على حسب هذه المقارنة لاستحالة انفكاكه عنه، فكان محتاجاً في تحقق ذاته تعالى إليه، وكلّ محتاج ممكن، فواجب الوجود ممكن! هذا محال.

ثم شرع في تفصيل المتضادات، فقال: «ضاد النّورَ بالظُّلْمة»، وهما عَرَضان عند كثير من النّاس، وفيهم مَنْ يجعل الظلمة عدميّة. قال: «والوضـوحَ بـالبُهْمة»، يـعني البـياض والسواد. قال: «والجمودَ بالبَلَل»، يعني اليبوسة والرطوبة. قال: «والحَرورَ بالصَّرْد»، يعني الحرارة والبرودة، والحرور هاهنا مفتوح الحاء، يـقال: إنـي لأجـد لهـذا الطـعام حَـروراً وحَرورة في فمي، أي حرارة، ويجوز أن يكون في الكلام مضاف محذوف، أي وحَـرارة الحَرور بالصَّرْد؛ والحرور هاهنا يكون الريـح الحـارّة، وهـي بـالليل كـالسَّموم بـالنهار، والصَّرْد: البرْد.

ثم قال: وإنّه تعالى مؤلِّف بين هذه المتباعدات. المتعاديات: المتباينات، وليس المراد من تأليفه بينهما جمعه إيّاها في مكان واحد، كيف وذلك مستحيل في نفسِه، بل هو سبحانه

مؤلف لها في الأجسام المركّبة حتى خلع منها صورة مفردة، هي المزاج، ألا ترى أنّه جمع الحارّ والبارد والرطب واليابس، فمزجه مَزْجاً مخصوصاً حتى انتزع منه طبيعة مفردة، ليست حارّة مطلقة، ولا باردة مطلقة، ولا رطبة مطلقة، ولا يابسة مطلقة، وهي المِزاج، وهو محدود عند الحكماء بأنّه كيفيّة حاصلة من كيفيّات متضادة، وهذا هو محصول كلامهﷺ بعينه.

والعَجب من فصاحته في ضمْن حكمته، كيف أعطى كلّ لفظةٍ من هذه اللّفظات ما يناسبُها ويليق بها، فأعطى المتباعدات لفظة «مقرّب»؛ لأنّ البعد بإزاء القرب، وأعطى المتباينات لفظة «مقارن»؛ لأنّ البينونة بإزاء المقارنة، وأعطى المتعاديات لفظة «مؤلّف»؛ لأنّ الائتلاف بإزاء التعادي.

ثم عادﷺ فعكس المعنى، فقال: «مفرّق بين متدانياتِها»، فجعل الفساد بإزاء الكوْن، وهذا من دقيق حكمتهﷺ؛ وذلك لأنّ كلّ كائن فاسد، فلما أوضح ما أوضح في الكَوْن والتركيب والإيجاد، أعقبه بذكر الفساد والعدم، فقال: «مفرّق بين متدانياتها»؛ وذلك لأنّ كلّ جسم مركّبٌ من العناصر المختلفة الكيفيّات المتضادّة الطبائع، فإنه سيؤول إلى الانحلال والتفرّق. ثم قال: «لا يُشمَل بحدّ»؛ وذلك لأنّ الحدّ الشامل ما كان مركّباً من جنس وفصل، والباريُ تعالى منزّه عن ذلك؛ لأنّه لو شمِله الحدّ على هذا الوجه يكون مركّباً، فلم يكن واجب الوجود، وقد ثبت أنّه واجب الوجود، ويجوز أن يعني به أنّه ليس بذي نهاية، فتحويه الأقطار وتحدّه. «ولا يحسب بعدّ»، يحتمل أن يريد: لا تحسب أزليّته بعدّ، أي لا يقال له: منذ وُجد كذا وكذا، كما يقال للأشياء المتقاربة العهد، ويحتمل أن يريد به أنّه ليس مماثلاً للأشياء فيدخل تحت العدد، كما تعدّ الجواهر، وكما تعدّ الأُمور المحسوسة. «وإنّما تحدّ الأدوات أنفسها، وتشير الآلات إلى نظائرها»، هذا يؤكّد معنى التفسير الثاني؛ وذلك لأنّ الأدواتِ كالجوارح، إنّما تحدّ وتقدر ما كان مثلها من ذوات المقادير، وكذلك إنّما تشير الآلات ـ وهي الحواسّ ـ إلى ما كان نظيراً لها في الجسمية ولوازمها، والباريُ تعالى ليس بذي مقدار ولا جسم، ولا حالّ في جسم، فاستحال أن تحدّه الأدوات وتشير إليه الآلات.

الأصْلُ:

مَنَعتْهَا مُنْذُ ٱلْقِدْمَةَ، وَحَمَتْهَا قَدُ ٱلْأَزَلِيَّةَ، وَجَنَّبَتْهَا لَوْلَا ٱلتَّكْمِلَةَ! بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا ٱمْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ ٱلْعُيُونِ، وَلَا تَجْرِي عَلَيْهِ ٱلْحَرَكَةُ وَٱلسُّكُونُ، وَكَيْفَ

يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ! إذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ، وَلَتجزَّأَ كُنْهُهُ، وَلاَمْتَنَعَ مِنَ ٱلْأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ، وَلاَلْتَمَسَ التَّمامَ إِذْ لَزِمَهُ ٱلنُّقْصَانُ؛ وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ ٱلْمَصْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ ٱلاِمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ.

الشّرْحُ:

قد اختلف الرواة في هذا الموضع من وجهين:

أحدهما: قول مَنْ نصب «القِدمة» و «الأزليّة» و «التكملة» فيكون نصبها عنده على أنّها مفعول ثانٍ، والمفعول الأوّل الضمائر المتصلة بالأفعال، وتكون «منذ» و «قد» و «لولا» في موضع رفع بأنّها فاعلة، وتقدير الكلام: إنّ إطلاق لفظة «منذ» على الآلات والأدوات يمنعها عن كونها قديمة؛ لأنّ لفظة «منذ» وضعت لابتداء الزمان كلفظة «من» لابتداء المكان، والقديم لا ابتداء له، وكذلك إطلاق لفظة «قد» على الآلات، والأدوات تحميها وتمنعها من كونها أزليّة؛ لأنّ «قد» لتقريب الماضي من الحال، تقول: قد قام زيد، فقد دلّ على أن قيامه قريب من الحال التي أخبرت فيها بقيامه، والأزليّ لا يصحّ ذلك فيه، وكذلك إطلاق لفظة «لولا» على الأدوات والآلات يجنّبها التكملة، ويمنعها من التمام المطلق؛ لأنّ لفظة «لولا» وضعت لامتناع الشيء لوجود غيره، كقولك: لولا زيد لقام عمرو، فامتناع قيام عمرو إنّما هو لوجود زيد، وأنت تقول في الأدوات والآلات وكلّ جسم: ما أحسنه لولا أنه فانٍ! وما أتمّه لولا كذا! فيكون المقصد والمنحَى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان أنّ الأدوات والآلات محدَثة ناقصة، والمراد بالآلات والأدوات أربابُها.

الوجه الثاني: قول مَنْ رفع «القِدمة» و «الأزلية» و «التكملة» فيكون كلّ واحد منها عنده فاعلا، وتكون الضمائر المتّصلة بالأفعال مفعولاً أوّلاً، و «منذ» و «قد» و «لولا» مفعولاً ثانياً، ويكون المعنى أنّ قِدَم الباري وأزليّته وكماله منعت الأدوات والآلات من إطلاق لفظة «منذ» و «قد» و «لولا» عليه سبحانه؛ لأنّه تعالى قديم كامل، ولفظتا «منذ» و «قد» لا يطلقان إلّا على محدَث؛ لأنّ إحداهما لابتداء الزمان والأُخرىٰ لتقريب الماضي من

الحَال، ولفظة «لولا» لا تطلق إلّا على ناقص، فيكون المقصد والمنحَى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان قِدَم الباري تعالى وكماله، وأنّه لا يصحّ أن يطلق عليه ألفاظ تدلّ على الحدوث والنَّقص.

قولهﷺ: «بها تجلّى صانعُها للعقول، وبها امتنع عن نظر العيون»، أي بهذه الآلات والأدوات التي هي حواسّنا ومشاعرنا، وبخلْقِه إياها، وتصويرِه لها، تجلّى للعقول وعُرِف؛ لأنّه لو لم يخلقها لم يعرف، وبها امتنع عن نظر العيون، أي بها استنبطنا استحالة كونه مرئيّاً بالعيون؛ لأنّا بالمشاعر والحواسّ كملت عقولنا، وبعقولنا استخرجنا الدلالة على أنّه لا تصحّ رؤيته، فإذن بخلقه الآلات والأدوات لنا عرفناه عقلاً، وبذلك أيضاً عرفنا أنّه يستحيل أن يعرَف بغير العقل، وأنّ قول من قال: إنا سنعرفه رؤيةً ومشافهة بالحاسّة، باطل.

قولهﷺ: «لا تجرى عليه الحركة والسكون»، هذا دليلٌ أخذَه المتكلّمون عنهﷺ فنظموه في كتبهم وقرروه، وهو أنّ الحركة والسكون معانٍ محدَثة، فلو حلّت فيه لم يخلُ منها، وما لم يخل من المحدَث فهو محدث. ثم قالﷺ: «إذاً لتفاوتت ذاتُه، ولتجزّأ كُنهه، ولامتنع من الأزَل معناه»، هذا تأكيد لبيان استحالة جَرَيان الحركة والسّكون عليه، تقول: لو صحّ عليه ذلك لكان محدَثاً، وهو معنى قوله: «لامتنع من الأزَل معناه»، وأيضاً كان ينبغي أن تكون ذاته منقسمة؛ لأنّ المتحرّك الساكن لابدّ أن يكون متحيّزاً، وكلّ متحيّز جسم، وكلّ جسم منقسم أبداً، وفي هذا إشارة إلى نفي الجوْهر الفرد.

ثم قالﷺ: «ولكان له وراء إذ وُجِد له أمام»، هذا يؤكّد ما قلناه إنه إشارة إلى نفي الجوْهر الفرْد، يقول: لو حلّته الحَركة لكان جرْماً وحَجْماً؛ ولكان أحدُ وجهيه غيرَ الوجه الآخر لا محالة، فكان منقسماً، وهذا الكلام لا يستقيم إلّا مع نفي الجوهر الفرد، لأنّ مَنْ أثبته يقول: يصحّ أن تحلّه الحركة، ولا يكون أحد وجهيْه غير الآخر، فلا يلزم أن يكون له وراء وأمام.

ثم قالﷺ: «ولا التمس التمام إذ لزمه النقصان»، هذا إشارة إلى ما يقوله الحكماء، منْ أنّ الكوْن عدم ونقْص، والحركة وجود وكمال، فلو كان سبحانه يتحرّك ويسكن لكان حال السكون ناقصاً قد عدم عنه كماله، فكان ملتَمساً كمالُه بالحرَكة الطارئة على السّكون، وواجب الوجود، يستحيل أن يكون له حالة نقصان، وأن يكون له حالة بالقوّة وأُخرىٰ بالفعل.

قولهﷺ: «إذاً لقامت آية المصنوع فيه»، وذلك لأنّ آية المصنوع كونه متغيّراً منتقلاً من حال إلى حال، لأنّا بذلك استدللنا على حدوث الأجسام، فلو كان تعالى متغيراً متحرّكاً

منتقلاً من حال إلى حال لتحقّق فيه دليل الحدوث، فكان مصنوعاً، وقد ثبت أنّه الصّانع المطلق سبحانه. قولهﷺ: «ولتحوّل دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه»، يقول: إنا وجدنا دليلنا على الباريء سبحانه، إنما هو الأجسام المتحرّكة، فلو كان الباريء متحرّكاً لكان دليلاً على غيره، وكان فوقه صانع آخر صنعه وأحدثه، لكنه سبحانه لا صانعَ له ولا ذات فوق ذاته، فهو المدلول عليه والمنتهى إليه. قولهﷺ: «وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما أثر في غيره»، في هذا الكلام يتوهّم سامعه أنه عطف على قوله: «لتفاوتت»، و «لتجزأ»، و «لامتنع»، و «لكان له»، «ولالتمس»، و «لقامت»، و «لتحوّل» وليس كذلك؛ لأنّه لو كان معطوفاً عليها لاختلّ الكلام وفسد؛ لأنها كلها مستحيلات عليه تعالى، والمراد لو تحرّك لزم هذه المحالات كلّها. «وخرج بسلطان الامتناع» ليس من المستحيلات عليه، بل هو واجب له، ومن الأُمور الصادقة عليه، فإذا فسد أن يكون معطوفاً عليها وجب أن يكون معطوفاً على ما كان مدلولاً عليه، وتقدير الكلام: كان يلزم أن يتحوّل الباريء دليلاً على غيره، بعد أن كان مدلولاً عليه، وبعد أن خرج بسلطان الامتناع من أن يؤثّر فيه ما أثّر في غيره، وخروجه بسلطان الامتناع المراد به وجوب الوجود والتجريد وكونه ليس بمتحيّز ولا حالّ في المتحيّز، فهذا هو سلطان الامتناع الذي به خرج عن أن يؤثّر فيه ما أثّر في غيره من الأجسام والممكنات.

الأَصْلُ:

الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ ٱلْأُفُولُ. لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً. جَلَّ عَنِ ٱتِّخَاذِ ٱلْأَبْنَاءِ، وَطَهُرَ عَنْ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ؛ لَا تَنَالُهُ ٱلْأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ ٱلْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ ٱلْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلَا تَلْمِسُهُ ٱلْأَيْدِي فَتَمَسَّهُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِي ٱلْأَحْوَالِ، وَلَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَٱلْأَيَّامُ، وَلَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَٱلظَّلَامُ.

الشَّرْحُ:

هذا الفصل كلّه واضح مستغنٍ عن الشرح، إلّا قولهﷺ: «لم يلد فيكون مولوداً»؛ لأنّ لقائل أن يقول: كيف يلزم من فرض كونه والداً أن يكون مولوداً؟ في جوابه: إنه ليس معنى الكلام

أنه يلزم من فرض وقوع أحدهما وقوع الآخر، وكيف وآدم والد وليس بمولود! وإنّما المراد أنه يلزم من فرض صحّة كونه والداً صحّةُ كونه مولوداً، وبالتالي محال والمقدّم محال. وأمّا بيان أنّه لا يصح كونه مولوداً، فلأنّ كلّ مولود متأخّر عن والده بالزّمان، وكلّ متأخر عن غيره بالزّمان محدَث، فالمولود محدَث والباريْ تعالى قد ثبت أنه قديم، وأنّ الحدوث عليه محال، فاستحال أن يكون مولوداً، وتمّ الدليل.

الأصْلُ:

وَلَا يُوصَفُ بِشَيءٍ مِنَ ٱلْأَجْزَاءِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَٱلْأَعْضَاءِ، وَلَا بِعَرَضٍ مِنَ ٱلْأَعْرَاضِ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ وَٱلْأَبْعَاضِ، وَلَا يُقَالُ: لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَايَةٌ، وَلَا ٱنقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ؛ وَلَا أَنَّ ٱلْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ؛ فَتُقِلَّهُ أَوْ تُهْوِيَهُ، أَوْ أَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ فَيُمِيلَهُ أَوْ يُعَدِّلَهُ. لَيْسَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ، وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٍ. يُخْبِرُ لَا بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ، وَيَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ وَأَدَوَاتٍ. يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ، وَيُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ. يُحِبُّ وَيَرْضَىٰ مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ، يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: كُنْ فَيَكُونُ. لَا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، وَلَا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ؛ وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذٰلِكَ كَائِناً، وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلٰهاً ثَانِياً.

الشّرْحُ:

في هذا الفصل مباحث:

أولها: أنّ الباريْ سُبْحانه لا يوصَف بشيء من الأجزاء، أي ليس بمركّب؛ لأنّه لو كان مركّباً لافتقر إلى أجزائه، وأجزاؤه ليست نفس هويّته، وكلّ ذاتٍ تفتقر هويّتها إلى أمر من الأُمور فهي ممكنة؛ لكنّه واجب الوجود، فاستحال أن يوصَف بشيء من الأجزاء.

وثانيها: أنّه لا يوصَف بالجوارح والأعضاء كما يقول مثبتو الصورة، وذلك لأنّه لو كان كذلك لكان جسماً، وكلّ جسم ممكن، وواجب الوجود غير ممكن.

وثالثها: أنّه لا يوصَفُ بعرَض من الأعراض كما يقوله الكرّاميّة؛ لأنّه لو حلّه العَرَض

لكان ذلك العَرض ليس بأنْ يُحلّ فيه أوْلى من أن يَحُلّ هو في العرَض.

ورابعها: أنّه لا يوصف بالغيريّة والأبعاض، أي ليس له بَعْض، ولا هو ذو أقسام بعضها غيراً للبعض الآخر.

وخامسها: أنّه لا حدّ له ولا نهاية، أي ليس ذا مقدار، ولذلك المقدار طرَف ونهاية؛ لأنّه لو كان ذا مقدار لكان جسماً.

وسادسها: أنّه لا انقطاع لوجوده، ولا غاية؛ لأنّه لو جاز عليه العدم في المستقبَل لكان وجوده الآن متوقّفاً على عدم سبب عدمه، وكلّ متوقف على الغير فهو ممكن في ذاته، والباريُ تعالى واجب الوجوب، فاستحال عليه العدَم.

وسابعها: أنّ الأشياء لا تحويه فتقلّه، أي ترفعه، أو تهويه، أي تجعله هاوياً إلى جهة تحت؛ لأنّه لو كان كذلك لكان ذا مقدار أصغر من مقدار الشيء الحاوي له، لكنْ قد بينّا أنه يستحيل عليه المقادير، فاستحال كونه محويّاً.

وثامنها: أنّه ليس يحمله شيء فيميله إلى جانب، أو يعد له بالنسبة إلى جميع الجوانب؛ لأنّ كلّ محمول مقدّر، وكلّ مُقدّر جسم، وقد ثبت أنّه ليس بجسم.

وتاسعها: أنّه ليس في الأشياء بوالج، أي داخل. ولا عنها بخارج، هذا مذهب الموحدين.

وعاشرها: أنّه تعالى يخبر بلا لسان ولهَوات؛ وذلك لأنّ كونه تعالى مخبراً هو كونه فاعلاً للخبر، فلا يحتاج في كونه مخبراً إلى لسان ولهَوات يخبر بها.

وحادي عشرها: أنه تعالى يسمع بلا حروف وأدوات؛ وذلك لأنّ الباريُ سبحانه حيٌّ لا آفة به؛ وكلّ حيٍّ لا آفة به؛ فواجب أن يَسمع المسموعات، ويبصر المبصرات، ولا حاجة به سبحانه إلى حروف وأدوات، كما نحتاج نحن إلى ذلك، لأنّا أحياء بحياة تحلّنا، والباريُ تعالى حيٌّ لذاته.

وثاني عشرها: أنّه يقول ولا يتلفّظ. هذا بحث لفظيّ؛ وذلك لأنّه قد ورد السمع بتسميته قائلاً، وقد تكرر في الكتاب العزيز ذكر هذه اللفظة، نحو قوله: ﴿**إذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى**﴾[١] ﴿**وَقَالَ اللهُ إنّي مَعَكُم**﴾[٢]، ولم يرد في السمع إطلاق كونه متلفّظاً عليه، وفي إطلاقه إيهام

١. سورة المائدة ١١٠.

٢. سورة المائدة ١٢.

كونه ذا جارحة، فوجب الاقتصار على ماورد، وتركُ ما لم يرِد.

وثالث عشرها: أنّه تعالى يحفظُ ولا يتحفّظ؛ أمّا كونه يحفظ فيطلَق على وجهين: أحدهما أنه يحفظ بمعنى أنه يحصِي أعمال عباده ويعلمها، والثاني كونه يحفظُهم ويحرسهم من الآفات والدّواهي. وأمّا كونه لا يتحفّظ فيحتمل معنيين. أحدهما أنّه لا يجوز أن يطلق عليه أنه يتحفّظ الكلام، أي يتكلّف كونه حافظاً له، ومحيطاً وعالماً به، كالواحد منا يتحفّظ الدرس ليحفَظه، فهو سبحانه حافظٌ غير متحفّظ. والثاني أنه ليس بمتحرّز ولا مشفق على نفسه خوفاً أن تبدر إليه بادرة من غيره.

ورابع عشرها: أنّه يريد ولا يضمر، أمّا كونه مريداً فقد ثبت بالسّمع نحو قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾[1]، وبالعقل لاختصاص أفعاله بأوقات مخصوصة، وكيفيّات مخصوصة، جاز أن تقع على خلافها، فلا بدّ من مخصّص لها بما اختصّت به؛ وذلك كونه مريداً، وأمّا كونه لا يضمر فهو إطلاق لفظيّ لم يأذن فيه الشّرع، وفيه إيهام كونه ذا قلب؛ لأنّ الضمير في العرْف اللغويّ ما استكنّ في القلب، والباريُ ليس بجسم.

وخامس عشرها: أنّه يحبّ ويرضى من غير رقّة، ويبغِض ويغضب من غير مشقّة؛ وذلك لأنّ محبته للعبد إرادته أن يثيبه، ورضاه عنه أن يحمَد فعله، وهذا يصحّ ويطلق على الباريُ، لا كإطلاقه علينا؛ لأنّ هذه الأوصاف يقتضي إطلاقها علينا رِقّة القلب، والباريُ ليس بجسم، وأمّا بغضه للعبد فإرادة عقابه وغضبِهِ كراهية فعله ووعيده بإنزال العقاب به.

وسادس عشرها: أنّه يقول لمن أراد كونه: كن، فيكون من غير صوت يقرع، ولا نداء يسمع، والظّاهر أنّ أمير المؤمنينؑ أطلَقه حملاً على ظاهر لفظ القرآن في مخاطبة الناس بما قد سمعوه وأنسوا به، وتكرّر على أسماعهم وأذهانهم.

وسابع عشرها: أنّ كلامه سبحانه فعل منه أنشأه، ومثّله، لم يكن من قبل ذلك كائناً، ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً، هذا هو دليل المعتزلة على نفي المعاني القديمة الّتي منها القرآن؛ وذلك لأنّ القِدَم عندهم أخصّ صفات الباريُ تعالى، أو موجب عن الأخصّ، فلو أنّ في الوجود معنىً قديماً قائماً بذات الباريُ؛ لكان ذلك المعنى مشاركاً للباريُ في أخصّ صفاته، وكان يجب لذلك المعنى جميع ما وجب للباريُ من الصّفات، نحو العالميّة والقادريّة وغيرهما، فكان إلهاً ثانياً.

---

١. سورة البقرة ١٨٥.

فإن قلت: ما معنى قوله ﷺ «ومثّله»؟

قلت: يقال: مثّلت له كذا تمثيلاً، إذا صوّرتَ له مثاله بالكتابة أو بغيرها، فالباريُ مثّل القرآنَ لجبريل ﷺ بالكتابة في اللّوح المحفوظ فأنزله على محمّد ﷺ. وأيضاً يقال: مثل زيد بحضرتي إذا حضر قائماً، ومثّلته بين يدي زيد أي أحضرته منتصباً، فلمّا كان الله تعالى فعل القرآن واضحاً بيّناً كان قد مثّله للمكلّفين.

الأصْلُ:

لَا يُقَالُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجْرِيَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ ٱلْمُحْدَثَاتُ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَصْلٌ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِيَ الصَّانِعُ وَٱلْمَصْنُوعُ، وَيَتَكَافَأَ ٱلْمُبْتَدَعُ وَٱلْبَدِيعُ.

خَلَقَ ٱلْخَلَائِقَ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَىٰ خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنْشَأَ ٱلْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ ٱشْتِغَالٍ، وَأَرْسَاهَا عَلَىٰ غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ، وَحَصَّنَهَا مِنَ ٱلْأَوَدِ وَٱلِاعْوِجَاجِ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَٱلِانْفِرَاجِ. أَرْسَىٰ أَوْتَادَهَا، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا، وَٱسْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وَخَدَّ أَوْدِيَتَهَا؛ فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ.

الشّرْحُ:

عاد ﷺ إلى تنزيه الباريُ تعالى عن الحدُوث، فقال: لا يجوز أن يوصَف به فتجري عليه الصّفات المحدَثات كما تجري على كلّ محدَث، وروي: «فتجري عليه صفات المحدَثات» وهو أليَق، ليعود إلى المحدَثات ذوات الصفات ما بعده؛ وهو قوله ﷺ: «ولا يكون بينه وبينها فصل»، لأنّه لا يحسن أن يعود الضمير في قوله: «وبينها» إلى «الصفات» بل إلى «ذوات الصفات». قال: لو كان محدَثاً لجرت عليه صفات الأجسام المحدَثة، فلم يكن بينه وبين الأجسام المحدَثة فرْق، فكان يستوي الصانع والمصنوع، وهذا محال. ثم ذكر أنّه خلق الخلْق غير محتذٍ لمثال، ولا مستفيد من غيره كيفيّة الصنعة، بخلاف الواحد منّا، فإنّ الواحد

منّا لابدّ أن يحتذِيَ في الصّنعة، كالبنّاء والنّجّار والصّانع وغيرها.

قالﷺ: «ولم يستعنْ على خلْقها بأحدٍ من خلقه»؛ لأنّه تعالى قادر لذاته لا يُعجِزه شيء. ثم ذكر إنشاءه تعالى الأرض، وأنه أمسكها من غير اشتغال منه بإمساكها، وغير ذلك من أفعاله ومخلوقاته، ليس كالواحد منّا يمسك الثقيل فيشتغل بإمساكه عن كثير من أُموره. قال: «وأرساها»، جعلها راسية على غير قرار تتمكّن عليه، بل واقفة بإرادته التي اقتضت وقوفها. والأَوَد: الاعوجاج، وكرّر لاختلاف اللفظ. والتّهافت: التساقط. والأُسداد: جمع سَدّ، وهو الجبل، ويجوز ضمّ السين. واستفاض عيونَها، بمعنى أفاض، أي جعلها فائضة. وخدّ أودَيتها، أي شقّها. فلم يَهُنْ ما بناه، أي لم يضعف.

الأصْلُ:

هُوَ ٱلظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهُوَ ٱلْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَٱلْعَالِي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ. لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبَهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ، وَلَا يَفُوتُهُ ٱلسَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ ذِي مَالٍ فَيَرْزُقَهُ.

خَضَعَتِ ٱلْأَشْيَاءُ لَهُ، وذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لَا تَسْتَطِيعُ ٱلْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضُرِّهِ، وَلَا كُفْءَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ. هُوَ ٱلْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّىٰ يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا.

وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ٱبْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَٱخْتِرَاعِهَا. وَكَيْفَ وَلَوِ ٱجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا ـ مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا، وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا ـ عَلَىٰ إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ، مَا قَدَرَتْ عَلَىٰ إِحْدَاثِهَا، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَىٰ إِيجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذٰلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجِزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا!

الشّرْحُ :

الظاهر : الغالب القاهر . والباطن : العالم الخبير . والمُراح بضم الميم : النَّعم تُردُّ إلى المُراح ، بالضمّ أيضاً ؛ وهو الموضع الذي تأوي إليه النّعم ، وليس المُراح ضدّ السائم على ما يظنّه بعضهم . وأسناخها : جمع سِنْخ بالكسر ، وهو الأصل .

وقوله : «ولو اجتمع جميع حيوانها على إحداث بعوضة» ، هو معنى قوله سبحانه : **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾**[1] .

فإن قلت: ما معنى قوله: «لا تستطيع الهربَ من سُلْطانه إلى غيره فتمتنع مِنْ نَفْعِه وضرّه»؟ وهلّا قال : «من ضرّه» ؟ ولم يذكر النفع ، فإنه لا معنى لذكره هاهنا!

قلت : هذا كما يقول المعتصم بمعقِل حصين عن غيره : ما يقدر اليوم فلان لي على نفع ولا ضرّ، وليس غرضه إلّا ذكر الضّرر ، وإنما يأتي بذكر النّفع على سبيل سلْب القدرة عن فلان على كلّ ما يتعلق بذلك المعتصم ، وأيضاً فإنّ العفو عن المجرم نفعٌ له ، فهوﷺ يقول : إنه ليس شيء من الأشياء يستطيع أن يخرج إذا أجرم من سلطان الله تعالى إلى غيره فيمتنع من بأس الله تعالى ، ويستغني عن أن يعفو عنه لعدم اقتداره عليه .

الأصْلُ :

وَإِنّه سُبْحَانَهُ يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لَا شَيْءَ مَعَهُ . كَمَا كَانَ قَبْلَ آبْتِدَائِهَا ، كَذٰلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا ، بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ ، وَلَا حِينٍ وَلَا زَمَانٍ . عُدِمَتْ عِنْدَ ذٰلِكَ آلآجَالُ وَٱلْأَوْقَاتُ ، وَزَالَتِ السِّنُونَ وَالسَّاعَاتُ ، فَلَا شَيْءَ إِلَّا ٱللّٰهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَارُ ؛ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ ٱلْأُمُورِ . بِلَا قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ آبْتِدَاءُ خَلْقِهَا ، وَبِغَيْرِ آمْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا ، وَلَوْ قَدَرَتْ عَلَىٰ آلامْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا .

لَمْ يَتَكَاءَدْهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ ، وَلَمْ يَؤُدْهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا بَرأه وخَلَقَهُ ، وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ ، وَلَا لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ ، وَلَا لِلاِسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَىٰ نِدٍّ مُكَاثِرٍ ، وَلَا لِلاِحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ ، وَلَا لِلاِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ ، وَلَا لِمُكَاثَرَةِ

---

١. سورة الحج ٧٣.

شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ، وَلَا لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا. ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا؛ لَا لِسَأَمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلَا لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ، وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ. لَا يُمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوهُ إِلَىٰ سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا، وَلٰكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ ٱلْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلَا لِانْصِرَافٍ مِنْ حَالِ وَحْشَةٍ إِلَىٰ حَالِ ٱسْتِئْنَاسٍ، وَلَا مِنْ حَالِ جَهْلٍ وَعَمىً إِلَىٰ عِلْمٍ وَٱلْتِمَاسٍ، وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَىٰ غِنىً وَكَثْرَةٍ، وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ إِلَىٰ عِزٍّ وَقُدْرَةٍ.

الشَّرْحُ:

شرع أوّلاً في ذكر إعدام الله سبحانه الجواهر وما يتبعها، ويقوم بها من الأعراض قبل القيامة، وذلك لأنّ الكتاب العزيز قد ورد به، نحو قوله تعالى: **﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾**[1]؛ ومعلوم أنه بدأه عن عدم، فوجب أن تكون الإعادة عن عدم أيضاً. وقال تعالى: **﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾**[2]؛ وإنّما كان أوّلاً لأنّه كان موجوداً، ولا شيء من الأشياء بموجود، فوجب أن يكون آخراً كذلك، هذا هو مذهب جمهور أصحابنا وجمهور المسلمين.

ثم ذكر أنّه يكون وحده سبحانه بلا وقت ولا مكان، ولا حين ولا زمان؛ وذلك لأنّ المكان إمّا الجسم الذي يتمكّن عليه جسم آخر، أو الجهة، وكلاهما لا وجودَ له بتقدير عدم الأفلاك وما في حشوها من الأجسام، أما الأوّل فظاهر، وأمّا الثاني فلأنّ الجهة لا تتحقّق إلّا بتقدير وجود الفلَك؛ لأنها أمرٌ إضافيٌّ بالنسبة إليه، فبتقدير عدمه لا يبقى للجهة تحقّق أصلاً. وأمّا الزّمان والوقت والحين فكلّ هذه الألفاظ تعطي معنىً واحداً، ولا وجود لذلك المعنى بتقدير عدم الفلك؛ لأنّ الزمان هو مقدار حركة الفلك، فإذا قدّرنا عدم الفلك فلا حركة ولا زمان. ثم أوضح ﷺ ذلك وأكّده، فقال: «عُدمت عند ذلك الآجال والأوقات،

---

١. سورة الأنبياء ١٠٤.

٢. سورة الحديد ٣.

وزالت السنون والساعات» ؛ لأنّ الأجل هو الوقت الذي يحلّ فيه الدَّيْن أو تبطل فيه الحياة ، وإذا ثبتَ أنّه لا وقت ، ثبت أنه لا أجل ، وكذلك لا سنَة ولا ساعة ؛ لأنها أوقات مخصوصة .

ثم عادﷺ إلى ذكر الدنيا ، فقال : «بلا قدرة منها كان ابتداء خلْقها ، وبغير امتناع منها كان فناؤها» ؛ يعني أنّها مسخّرة تحت الأمر الإلهي . «ولو قَدَرت على الامتناع لدام بقاؤها» ؛ لأنها كانت تكون ممانعة للقديم سبحانه في مراده ، وإنّما تمانعه في مراده لو كانت قادرة لذاتها ، ولو كانت قادرة لذاتها وأرادت البقاء لبقيت . قولهﷺ : «لم يتكاءده» بالمدّ ، أي لم يشقّ عليه ؛ ويجوز «لم يتكأّده» بالتشديد والهمزة ، وأصله من العقبة الكؤود ، وهي الشّاقة . قال : « ولم يؤده» أي لم يثقله .

ثم ذكر أنّه تعالى لم يخلق الدنيا ليشدّ بها سلطانه ، ولا لخوفه من زوال أو نقص يلحقه ، ولا ليستعين بها على ندٍّ مماثل له ، أو يحترز بها عن ضدٍّ محارب له ، أو ليزداد بها ملكه ملكاً ، أو لِيُكاثر بها شريكاً في شركته له ، أو لأنّه كان قبل خلقها مستوحشاً فأراد أن يستأنس بمَنْ خلَق . ثم ذكر أنه تعالى : «سيُفنيها بعد إيجادها» لا لضجرٍ لحقه في تدبيرها ، ولا لراحة تصلُه في إعدامها ، ولا لثقل شيء منها عليه حال وجودها ، ولا لملل أصابه فبعثه على إعدامها . ثم عادﷺ ، فقال : إنّه سبحانه سيعيدها إلى الوجود بعد الفناء ، لا لحاجة إليها ولا ليستعين ببعضها على بعض ، ولا لأنّه استوحش حال عدمها فأحبّ أن يستأنس بإعادتها ، ولا لأنّه فقد علْماً عند إعدامها فأراد بإعادتها استجداد ذلك العلم ، ولا لأنّه صار فقيراً عند إعدامها فأحبّ أن يتكثّر ويُثرِي بإعادتها ، ولا لذلٍّ أصابه بإفنائها فأراد العزّ بإعادتها .

فإن قلت : إذا كان يفنيها لا لكذا ولا لكذا ، وكان من قبْلُ أوجدها لا لكذا ولا لكذا ، ثم قلتم : إنه يعيدها لا لكذا ولا لكذا ، فلأيّ حال أوجدها أوّلاً ؟ ولأيّ حال أفناها ثانياً ؟ ولأيّ حال أعادها ثالثاً ؟ خَبّرُونا عن ذلك ، فإنكم قد حكيتم عنهﷺ الحكْم ولم تحكُوا عنه العلّة !

قلت : إنما أوجدها أولاً للإحسان إلى البشر ليعرفوه ، فإنّه لو لم يوجدهم لبقي مجهولاً لا يعرف ، ثم كلّف البشر ليعرّضهم للمنزلة الجليلة التي لا يمكن وصولهم إليها إلّا بالتكليف وهي الثواب ، ثم يفنيهم لأنّه لابدّ من انقطاع التكليف ليخلص الثواب من مشاقّ التكاليف ؛ وإذا كان لابدّ من انقطاعه فلا فرقَ بين انقطاعه بالعدم المطلق ، أو بتفريق الأجزاء ، وانقطاعه بالعدم المطلق قد ورد به الشرع ، وفيه لطف زائد للمكلّفين ؛ لأنّه أردع وأهيَب في صدورهم

من بقاء أجزائهم، واستمرار وجودها غير معدومة. ثم إنه سبحانه يبعثهم ويعيدُهم ليوصّل إلى كلّ إنسان ما يستحقّه من ثواب أو عقاب، ولا يمكن إيصال هذا المستحقّ إلّا بالإعادة، وإنّما لم يذكر أمير المؤمنين عليه السلام هذه التعليلات؛ لأنّه قد أشار إليها فيما تقدّم من كلامه، وهي موجودة في فرش خُطَبه، ولأنّ مقام الموعظة غير مقام التعليل، وأمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة يسلُك مسلك الموعظة في ضمْن تمجيد الباريء سبحانه وتعظيمه، وليس ذلك بمظنّة التعليل والحِجاج.



الأصْلُ:

ومن خطبة له عليه السلام تختص بذكر الملاحم

أَلَا بِأَبِي وَأُمِّي، هُمْ مِنْ عِدَّةٍ أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ. أَلَا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ، وَٱنْقِطَاعِ وُصَلِكُمْ، وَٱسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ. ذَاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدِّرْهَمِ مِنْ حِلِّهِ! ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ ٱلْمُعْطَى أَعْظَمَ أَجْراً مِنَ ٱلْمُعْطِي؛ ذَاكَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ، بَلْ مِنَ النِّعْمَةِ والنَّعِيمِ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ ٱضْطِرَارٍ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاجٍ. ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمُ ٱلْبَلَاءُ كَمَا يَعَضُّ ٱلْقَتَبُ غَارِبَ ٱلْبَعِيرِ. مَا أَطْوَلَ هٰذَا ٱلْعَنَاءَ! وَأَبْعَدَ هٰذَا الرَّجَاءَ!

أَيُّهَا النَّاسُ، أَلْقُوا هٰذِهِ ٱلْأَزِمَّةَ الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورُهَا ٱلْأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ، وَلَا تَصَدَّعُوا عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَذُمُّوا غِبَّ فِعَالِكُمْ، وَلَا تَقْتَحِمُوا مَا ٱسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نَارِ ٱلْفِتْنَةِ، وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا؛ فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا ٱلْمُؤْمِنُ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ ٱلْمُسْلِمِ. إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السِّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ

مَنْ وَلَجَهَا.

فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا، وَأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا.

الشّرْحُ:

الإمامية تقول: هذه العدّة هم الأئمة الأحد عشر من ولده‌عليهم السلام. وغيرهم يقول: إنه عَنَى الأبدال الذين هم أولياء الله في الأرض، وقد تقدّم منّا ذكر القطب والأبدال[1].

قوله‌عليه السلام: «أسماؤهم في السماء معروفة»، أي تعرفها الملائكة المعصومين، أعلمهم الله تعالى بأسمائهم. وفي الأرض مجهولة، أي عند الأكثرين لاستيلاء الضلال على أكثر البشر.

ثم خرج إلى مخاطبة أصحابه على عادته في ذكر الملاحم والفتن الكائنة في آخر زمان الدنيا، فقال لهم: توقّعوا ما يكون من إدبار أُموركم، وانقطاع وُصَلكم ـ جمع وُصْلة ـ واستعمال صغاركم، أي يتقدّم الصغار على الكبار، وهو من علامات الساعة. قال: ذاك حيث يكون احتمال ضربة السيف على المؤمن أقلَّ مشقة من احتمال المشقة في اكتساب درهم حلال، وذلك لأنّ المكاسب تكون قد فسدت واختلطت، وغلَب الحرام الحلال فيها.

قوله: «ذاك حيث يكون المعطَى أعظم أجراً من المعطِي»، معناه أن أكثر من يعطي ويتصدّق في ذلك الزمان يكون ماله حراماً فلا أجرَ له في التصدّق به، ثم أكثرهم يقصِد الرّياء والسُّمعة بالصدقة أو لهوَى نفسه، أو لخطرة من خطراته، وأمّا المعطَى فإنه يكون فقيراً

---

١. ما قاله الشارح في معنى العدة، أنّهم الأبدال، إنّما هو من تخرصات المتصوفة وخرافاتهم ومما لا دليل عليه، من آية أو رواية؛ بل في رواية عن الإمام الرضاعليه السلام: الأبدال هم الأئمة عليهم السلام؛ لأنهم بدل الأنبياءعليهم السلام. الاحتجاج للطبرسي: ص٤٣٧.

والإمامية لم تقل إنّ المراد من هذه العدة الأئمة عليهم السلام. بل، كلامه عليه السلام محتمل لهم ولأصحاب القائم‌عليه السلام. بل، هو الظاهر؛ لأنّ الخطبة في ذكر الملاحم، وما يصيب الناس من شدائد ومحن، وهذا واضح بخاصة عند الرجوع إلى رواية المدائني التي ذكرها ابن أبي الحديد في شرح الخطبة ٧٠، ج٦: ١٣٤: «فيا ابن خيرة الإماء متى تنتظر! أبْشر بنصر قريب من ربٍّ رحيم...» نجد أنّه يخبر عن خروج أصحابه دفعة واحدة بقوله‌عليه السلام: «قد دنا حينئذٍ ظهورهم...»، والأئمة عليهم السلام إنّما كان ظهورهم تدريجياً، وفيها إخبار عن حوادث تقع قبل الظهور «دنا خسوف البيداء»، وخسف البيداء من علامات قيام القائم. ثمّ أن الأئمة عليهم السلام لم تكن اسماؤهم في الأرض مجهولة؛ لأنهم حجج الله سبحانه، وأوصياء الرسول‌صلى الله عليه وآله، ومفترضو الطاعة كالنبي‌صلى الله عليه وآله، بخاصة الإمامين الحسنيين‌عليهما السلام. وإنما أسماء أصحاب القائم‌عليه السلام اسماؤهم مجهولة في الأرض معروفة في السماء.

ذا عيال، لا يلزمه أن يبحث عن المال أحرام هو أم حلال ؟! فإذا أخـذه ليسـدّ بـه خـلّته، ويصرفه في قوت عياله، كان أعظم أجراً ممن أعطاه.

قوله ﷺ : «ذاك حيث تَسْكَرُونَ من غير شراب، بل من النَّعمة»، بفتح النون، وهي غَضارة العيش.

«وتحلفون من غير اضطرار»، أي تتهاونون باليمين وبذكر الله عزّ وجلّ. «وتكذبون من غير إحراج»، أي يصير الكذب لكم عادة ودُرْبة، لا تفعلونه لأنّ آخر منكم قد أحرجكـم واضطركم بالغيظ إلى الحلف. وروي من غير «إحواج» بالواو، أي من غير أن يُحوجكم إليه أحد.

قال: ذلك إذا عَضّكم البلاء كما يعضّ القَتَبُ غاربَ البعير. هذا الكلام غير متصل بـما قبله، وهذه عادة الرضيّ ﷺ يلتقط الكلام التقاطاً، ولا يتلو بعضه بعضاً، وقـد ذكـرنا هـذه الخطبة أو أكثرها فيما تقدّم من الأجزاء الأُول، وقبل هذا الكلام ذكر ما يناله شـيعتُه مـن البؤس والقنُوط ومشقّة انتظار الفرج[1].

قوله ﷺ : «ما أطوَلَ هذا العناء، وأبعد هذا الرجاء» ! هذا حكاية كلام شيعتِه وأصحابه. ثم قال مخاطبا أصحابه الموجودين حوله: أيّها الناس، ألقُـوا هـذه الأزمّـة التـي تَـحمل ظهورُها الأثقَال [من] أيديكم. هذه كناية عن النَّهْي عن ارتكاب القبيح وما يوجب الإثـم والعقاب. والظُّهور هاهنا: هي الإبل أنفسها. والأثقال: المآثم. وإلقاء الأزمّة: ترك اعتماد القبيح، فهذا عمومه، وأمّا خصوصه فتعريضٌ بما كان عليه أصحابه من الغدْر ومخامرة العدوّ عليه، وإضمار الغِلّ والغشّ له، وعصيانه والتلوّي عليه، وقد فسّره بما بـعده فـقال: «ولا تصدّعوا عن سلطانكم» أي لا تفرّقوا، «فتذمّوا غِبّ فعالكم»، أي عاقبته. ثم نـهاهم عـن اقتحام ما استقبلوه من فَوْر نارِ الفتنة، وفَوْر النـار: غـلَيانها واحـتدامُـها، ويـروى: «مـا استقبَلكم».

ثم قال: «وأمِيطوا عن سَنَنها» أي تنحَّوْا عن طريقها، وخلّوا قصْد السبيل لها، أي دعوها تسلك طريقها ولا تقفوا لها فيه فتكونوا حطباً لنارها. ثم ذكر أنّه قد يهلك المؤمن في لَهبها، ويسلَم فيه الكافر، كما قيل: المؤمن ملقّىً والكافر موقّىً. ثم ذكر أن مثله فـيهم كـالسُّرُج

---

١. انظر: الخطبة (١٠١، ١٠٧، ١٥٠، ١٥١).

يستضيء بها من وَلَجها، أي دخل في ضوئها. وآذانُ قلوبكم: كلمة مستعارة، جعل للقلب آذاناً.



الأَصْلُ:

ومن خطبة له عليه السلام

أُوصِيكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ، بِتَقْوَىٰ اللّٰهِ وَكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَىٰ آلَائِهِ إِلَيْكُمْ، وَنَعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ، وَبَلَائِهِ لَدَيْكُمْ. فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمَةٍ، وَتَدَارَكَكُمْ بِرَحْمَةٍ! أَعْوَرْتُمْ لَهُ فَسَتَرَكُمْ، وَتَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ فَأَمْهَلَكُمْ!

وَأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ وَإِقْلَالِ ٱلْغَفْلَةِ عَنْهُ، وَكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ، وَطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ! فَكَفَىٰ وَاعِظاً بِمَوْتَىٰ عَايَنْتُمُوهُمْ؛ حُمِلُوا إِلَىٰ قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً، وَكَأَنَّ ٱلآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً. أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ، وَأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ، وَٱشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ ٱنْتَقَلُوا، لَا عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ ٱنْتِقَالاً، وَلَا فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ٱزْدِيَاداً، أَنِسُوا بِالدُّنْيَا فَغَرَّتْهُمْ، وَوَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ.

فَسَابِقُوا - رَحِمَكُمُ ٱللّٰهُ - إِلَىٰ مَنَازِلِكُمُ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، وَالَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا، وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا. وَٱسْتَتِمُّوا نِعَمَ ٱللّٰهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، وَٱلْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ غَداً مِنَ ٱلْيَوْمِ قَرِيبٌ. مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي ٱلْيَوْمِ، وَأَسْرَعَ ٱلْأَيَّامَ فِي الشَّهْرِ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي ٱلْعُمْرِ![1]

---

١. البلاء: الإحسان، وأصله للخير والشر، ولكنّه هنا بمعنى الخير. لأخذه: أي أن يأخذكم بالعقاب. أغفله: سها عنه وتركه. أوطن المكان: اتخذه وطناً. أوحشه: هجره حتىٰ لا أنيس منه به.

الشّرْحُ :

أعورتم، أي انكشفتم وبدتْ عوراتكم، وهي المَقاتِل، تقول: أعور الفارس، إذا بدت مَقاتلُه، وأعورك الصَّيْدُ إذا أمكنك منه.

قولهﷺ: أوْحَشوا ما كانوا يوطِنون، أي أوطنوا قبورهم التي كانوا يوحشونها. «واشتغلوا بما فارقوا»، أي اشتغلوا وهم في القبور بما فارقوه من الأموال والقيْنات، لأنها أذىً وعقاب عليهم في قبورهم، ولولاها لكانوا في راحة. ويجوز أن يكون حكاية حالهم وهم بعد في الدنيا، أي اشتغلوا أيام حياتهم من الأموال والمنازل بما فارقوه، وأضاعوا من أمر آخرتهم ما انتقلوا إليه.

ثم ذكر أنّهم لا يستطيعون فعل حسنة، ولا توبةً من قبيح؛ لأنّ التكليف سقط، والمنازل التي أمروا بعمارتها، والمقابر، وعمارتها الأعمال الصالحة. وقولهﷺ: «إن غداً من اليوم قريب» كلام يجري مجرى المثل، قال:

* غدٌ ما غدٌ ما أقرب اليوم من غدِ *

والأصل فيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[1]. وقولهﷺ: «ما أسرع الساعات في اليوم ...» إلى آخر الفصل، كلام شريف وجيز بالغ في معناه، والفصل كلّه نادر لا نظير له.



الأصْلُ :

ومن خطبة لهﷺ

فَمِنَ ٱلْإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتاً مُسْتَقِرّاً فِي ٱلْقُلُوبِ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِيَ بَيْنَ ٱلْقُلُوبِ وَٱلصُّدُورِ، إِلَىٰ أَجَلٍ مَعْلُومٍ. فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُوهُ حَتَّىٰ يَحْضُرَهُ

---

١. سورة هود ٨١.

ٱلْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَقَعُ حَدُّ ٱلْبَرَاءَةِ.

وَٱلْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَىٰ حَدِّهَا ٱلْأَوَّلِ، مَا كَانَ لِلّٰهِ فِي أَهْلِ ٱلْأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرِّ ٱلْإِمَّةِ وَمُعْلِنِهَا. لَا يَقَعُ ٱسْمُ ٱلْهِجْرَةِ عَلَىٰ أَحَدٍ الّا بِمَعْرِفَةِ ٱلْحُجَّةِ فِي ٱلْأَرْضِ، فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقَرَّ بِهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ، وَلَا يَقَعُ ٱسْمُ ٱلِاسْتِضْعَافِ عَلَىٰ مَنْ بَلَغَتْهُ ٱلْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ وَوَعَاهَا قَلْبُهُ.

إِنَّ أَمْرَنا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ، لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ ٱمْتَحَنَ ٱللّٰهُ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ، وَلَا يَعِي حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وَأَحْلَامٌ رَزِينَةٌ.

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَلَأَنَا بِطُرُقِ السَّماءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ ٱلْأَرْضِ؛ قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ بِرِجْلِهَا فِتْنَةٌ تَطَأُ فِي خِطَامِهَا وَتَذْهَبُ بِأَحْلَامِ قَوْمِهَا[1].

الشّرْحُ:

هذا الفصل يُحمَل على عدّة مباحث:

أوّلها: قولهﷺ: فمن الإيمان ما يكون كذا. فنقول: إنه قسّم الإيمان إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: الإيمان الحقيقيّ، وهو الثابت المستقرّ في القلوب بالبرهان اليقينيّ.

الثاني: ما ليس ثابتاً بالبرهان اليقينيّ بل بالدليل الجدَليّ، كإيمان كثير ممن لم يحقّق العلوم العقلية، ويعتقد ما يعتقده عن أقيسة جدليّة لا تبلغ إلى درجة البرهان، وقد سمّىﷺ هذا القسم باسم مفرد، فقال: إنه عواري في القلوب، والعواري: جمع عاريّة، أي هو وإن كان في القلب وفي محل الايمان الحقيقيّ، إلّا أنّ حكمه حكم العارية في البيت، فإنها بعرضة الخروج منه؛ لأنّها ليست أصلية كائنة في بيت صاحبها.

والثالث: ما ليس مستنداً إلىٰ برهان ولا إلى قياس جدلي، بل على سبيل التقليد، وحسن الظن بالأسلاف، وبمن يحسن ظنّ الإنسان فيه من عابد أو زاهد أو ذي ورع، وقد

---

١. عواري: جمع عارية. أي ما تعطيه غيرك شرط أن يردّه لك. فقفوه: أوقفوا الحكم عليه. المستسر: من استسرّ الأمر إذا كتمه. الإِمة، بكسر الهمزة: الحالة. الأحلام: هنا العقول. الرزينة: الوقرة. الرزين: أصيل الرأي. شغر برجله: رفعها. الخطام: مقود البعير. الخطم: الأنف وما يليه.

جعلهﷺ عواري بين القلوب والصدور؛ لأنهُ دون الثاني، فلم يجعلهُ حالاً في القلب، وجعلهُ مع كونه عارية حالاً بين القلب والصدر. فيكون أضعف مما قبله.

فإن قلت: فما معنى قوله: «إلى أجل معلوم»؟

قلت: إنه يرجع إلى القسمين الأخيرين؛ لأنّ من لا يكون إيمانُه ثابتاً بالبرهان القطعيّ قد ينتقل إيمانه إلى أن يصير قطعياً، بأن ينعم النّظر ويرتّب البرهان ترتيباً مخصوصاً، فينتج له النتيجة اليقينيّة، وقد يصير إيمان المقلّد إيماناً جدليّاً فيرتقي إلى ما فوقه مرتبته، وقد يصير إيمان الجدليّ إيماناً تقليدياً بأن يضعف في نظره ذلك القياس الجدليّ، ولا يكون عالماً بالبرهان، فيؤول حالُ إيمانه إلى أن يصير تقليديّاً، فهذا هو فائدة قوله: «إلى أجل معلوم» في هذين القسمين.

فأمّا صاحب القسم الأوّل فلا يمكن أن يكون إيمانه إلى أجل معلوم؛ لأنّ مَنْ ظفر بالبرهان استحال أن ينتقل عن اعتقاده، لا صاعداً ولا هابطاً؛ أمّا لا صاعداً، فلأنّه ليس فوق البرهان مقام آخر، وأمّا لا هابطاً، فلأنّ مادّة البرهان هي المقدّمات البديهيّة والمقدّمات البديهيّة يستحيل أن تضعف عند الإنسان حتى يصير إيمانه جدليّاً أو تقليدياً.

وثانيها: قولهﷺ: «فإذا كانت لكم براءة»، فنقول: إنّهﷺ نهى عن البراءة من أحدٍ ما دام حيّاً، لأنّه وإن كان مخطئاً في اعتقاده، لكن يجوز أن يعتقد الحقّ فيما بعد، وإن كان مخطئاً في أفعاله، لكن يجوز أن يتوبَ. فلا تحلّ البراءة من أحد حتى يموت على أمرٍ؛ فإذا مات على اعتقادٍ قبيح أو فعل قبيح جازت البراءة منه.

وثالثها: قوله: «والهجرة قائمة على حدّها الأوّل»، فنقول: هذا كلام يختصّ به أمير المؤمنينﷺ، وهو من أسرار الوصيّة، لأنّ الناس يروُون عن النبيﷺ أنه قال: «لا هجرة بعد الفتح»[1]، فشفع عمّه العباس في نعيم بن مسعود الأشجعيّ أن يستثنيَه، فاستثناه، وهذه الهجرة التي يشيرُ إليها أمير المؤمنينﷺ ليست تلك الهجرة، بل هي الهجرة إلى الإمام، قال: إنها قائمة على حدها الأوّل مادام التكليف باقياً[2]، وهو معنى قوله: «ما

١. صحيح البخاري ٢:١٣٤، ومسلم ٣:١٤٨٩ ح ٨٥. وسنن الترمذي ٤:١٤٨، ح ١٥٩٠ وغيرهم ووسائل الشيعة، الحرّ العاملي ٥:١٠٢. وقيل: إن المراد منه، لا هجرة بعد فتح مكّة لأنها صارت دار الإسلام أبداً.

٢. صرّح كثير من فقهائنا؛ بأنّ الهجرة باقية مادام الكفر باقياً، أو الشرك قائماً، واستدلّ له بعدة أدلة منها قولهﷺ:

↔

كان لله تعالى في أهل الأرض حاجة».

ثم ذكر أنّه لا يصحّ أن يعدَّ الإنسان من المهاجرين إلّا بمعرفة إمام زمانه، وهو معنى قوله: «إلّا بمعرفة الحجّة في الأرض». قال: «فمن عرف الإمام وأقرّ به فهو مهاجر». ولا يجوز أن يسمّى مَنْ عرف الإمام مستضعفاً.

فإن قلت: فما معنى قوله: «من مستسرّ الإمّة ومعلنها»، وبماذا يتعلّق حرف الجر؟

قلت: معناه: ما دام لله في أهل الأرض المستسرّ منهم باعتقادهِ والمعلن حاجة، فـ«من» على هذا زائدة، فلو حذفت لجر المستسر بدلاً من أهل الأرض، ومن إذا كانت زائدة لا تتعلّق، نحو قولك: ما جاءني من أحد.

ورابعها: قولهﷺ: «إن أمرَنا هذا صعب مستصعَب»، ويروى: «مستصعِب ـ بكسر العين ـ لا يحتمله إلّا عبد امتحن الله تعالى قلبَه للإيمان»، هذه من ألفاظ القرآن العزيز، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾[1]، وهو من قولك: امتُحِن فلان لأمر كذا وجُرّب ودُرّب للنهوض به، فهو مضطلع به غير وانٍ عنه، والمعنى أنهم صُبَّرٌ على التقوى، أقوياء على احتمال مشاقّها، ويجوز أن يكون وضع الامتحان موضع المعرفة؛ لأنّ تحققك الشيء إنما يكون باختباره كما يوضع الخبر موضع المعرفة، فكأنه قيل: عرف الله قلوبَهم للتّقوى، فتتعلّق اللام بمحذوف، أي كائنة له، وهي اللام التي في قولك: أنت لهذا الأمر، أي مختصٌّ به. ويجوز أن يكون المعنى: ضرب الله قلوبَهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى، أي لتثبت فيظهر تقواها، ويعلم أنهم متّقون، لأنّ حقيقة التّقوى لا تعلَم إلّا عند المحن والشدائد والاصطبار عليها. ويجوز أن يكون المعنى أنه أخلصَ قلوبهم للتقوى، من قولهم: امتحن الذّهب، إذا أذابه فخلّص إبريزه من خَبَثه ونَقّاه.

وهذه الكلمة قد قالهاﷺ مراراً، ووقفت في بعض الكتب على خُطبة من جملتها: «إنّ قريشاً طلبت السعادة فشقِيتْ، وطلبت النجاة فهلكَت، وطلبت الهدَى فضلّت، ألم يسمعوا ـ ويحهم ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[2]؟ فأين المعدَل والمنزع عن ذريّة الرسول، الذين شيّد الله

↩ «لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها». انظر: شرايع الإسلام، للمحقق الحلي ١: ٢٣٤، والمبسوط، للطوسي ٣: ٤، مجمع الفائدة ٧: ٤٤٧، مسند أحمد ١: ١٩٢.

١. سورة الحجرات ٣.

٢. سورة الطور ٢١.

بنيانهم فوق بنيانهم، وأعلى رؤوسهم فوق رؤوسهم، واختارهم عليهم! ألا إنّ الذريّة أفنانٌ أنا شجرتها، ودوحةٌ أنا ساقها، وإنّي مِن أحمدَ بمنزلة الضّوء من الضّوء، كنّا ضلالاً تحت العرش قبل خلق البشر، وقبل خلق الطّينة التي كان منها البشر، أشباحاً عالية، لا أجساماً نامية، إنّ أمرنا صعب مستصعَب، لا يعرف كنهه إلّا ثلاثة: ملَك مقرّب، أو نبيٌّ مرسَل، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، فإذا انكشف لكم سرٌّ أو وضح لكم أمر فاقبلوه، وإلّا فاسكُتوا تسلموا، وردُّوا علمَنا إلى الله فإنّكم في أوسع مما بين السماء والأرض».

وخامسها: قوله: «سلُوني قبل أن تفقِدوني»، أجمع النّاس كلُّهم على أنه لم يقلْ أحد من الصحابة، ولا أحد من العلماء: «سلوني» غير عليّ بن أبي طالب ﷺ، ذكر ذلك ابن عبد البر المحدّث في كتاب «الاستيعاب»[1].

والمراد بقوله: «فلأنا أعلم بطرُق السماء منّي بطرق الأرض»، ما اختصّ به من العلم بمستقبل الأُمور، ولا سيّما في الملاحم والدّول، وقد صدّق هذا القولَ عنه ما تواتر عنه من الإخبار بالْغيوب المتكرّرة، لا مرة ولا مئة مرة، حتى زال الشكّ والرّيب في أنه إخبار عن علم، وأنه ليس على طريق الاتفاق.



الأصْلُ:

ومن خطبة له ﷺ

أَحْمَدُهُ شُكْراً لِإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَىٰ وَظَائِفِ حُقُوقِهِ، عَزِيزَ ٱلْجُنْدِ، عَظِيمَ ٱلْمَجْدِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، دَعَا إِلَىٰ طَاعَتِهِ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَاداً عَنْ دِينِهِ، لَا يَثْنِيهِ عَنْ ذٰلِكَ ٱجْتِمَاعٌ عَلَىٰ تَكْذِيبِهِ، وَٱلْتِمَاسٌ لِإِطْفَاءِ نُورِهِ.

---

١. الاستيعاب في معرفة الأصحاب: القسم الثالث.

فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَىٰ ٱللّٰهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ. وَبَادِرُوا ٱلْمَوْتَ وَغَمَرَاتِهِ، وَآمْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ؛ فَإِنَّ ٱلْغَايَةَ ٱلْقِيَامَةُ؛ وَكَفَىٰ بِذٰلِكَ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ، وَمُعْتَبَراً لِمَنْ جَهِلَ! وَقَبْلَ بُلُوغِ ٱلْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضِيقِ ٱلْأَرْمَاسِ، وَشِدَّةِ ٱلْإِبْلَاسِ، وَهَوْلِ ٱلْمُطَّلَعِ، وَرَوْعَاتِ ٱلْفَزَعِ، وَآخْتِلَافِ ٱلْأَضْلَاعِ، وَآسْتِكَاكِ ٱلْأَسْمَاعِ، وَظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وَخِيفَةِ ٱلْوَعْدِ، وغَمِّ الضَّرِيحِ، وَرَدْمِ الصَّفِيحِ.

فَاللّٰهَ ٱللّٰهَ عِبَادَ ٱللّٰهِ! فَإِنَّ ٱلدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَىٰ سَنَنٍ، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرَنٍ، وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا، وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَىٰ صِرَاطِهَا. وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلَازِلِهَا، وَأَنَاخَتْ بِكَلَاكِلِهَا، وَآنْصَرَفَتِ ٱلدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا، فَكَانَتْ كَيَوْمٍ مَضَىٰ، وشَهْرٍ آنْقَضَىٰ، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثّاً، وَسَمِينُهَا غَثّاً.

فِي مَوْقِفٍ ضَنْكِ ٱلْمَقَامِ، وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ، وَنَارٍ شَدِيدٍ كَلَبُهَا، عَالٍ لَجَبُهَا، سَاطِعٍ لَهَبُهَا، مُتَغَيِّظٍ زَفِيرُهَا، مُتَأَجِّجٍ سَعِيرُهَا، بَعِيدٍ خُمُودُهَا، ذَاكٍ وُقُودُهَا، مَخُوفٍ وَعِيدُهَا، عَمٍ قَرَارُهَا، مُظْلِمَةٍ أَقْطَارُهَا، حَامِيَةٍ قُدُورُهَا، فَظِيعَةٍ أُمُورُهَا. ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ آتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَراً﴾. قَدْ أُمِنَ ٱلْعَذَابُ، وَٱنْقَطَعَ ٱلْعِتَابُ؛ وَزُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ، وَآطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدَّارُ، وَرَضُوا ٱلْمَثْوَىٰ وَٱلْقَرَارَ، الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَاراً، تَخَشُّعاً وَآسْتِغْفَاراً؛ وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلاً؛ تَوَحُّشاً وَٱنْقِطَاعاً، فَجَعَلَ ٱللّٰهُ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ مَآباً، وَٱلْجَزَاءَ ثَوَاباً، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا، فِي مُلْكٍ دَائِمٍ، وَنَعِيمٍ قَائِمٍ.

فَارْعَوْا عِبَادَ ٱللّٰهِ مَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وَبِإِضَاعَتِهِ يَخْسَرُ مُبْطِلُكُمْ. وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ، وَكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ ٱلْمَخُوفُ، فَلَا رَجْعَةً تَنَالُونَ، وَلَا عَثْرَةً تُقَالُونَ. آسْتَعْمَلَنَا ٱللّٰهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ.

ٱلْزَمُوا ٱلْأَرْضَ، وَٱصْبِرُوا عَلَىٰ ٱلْبَلَاءِ، وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَىٰ ٱلْسِنَتِكُمْ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ ٱللّٰهُ لَكُمْ، فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَىٰ فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيداً، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَىٰ ٱللّٰهِ، وَٱسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَىٰ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَقَامَتِ ٱلنِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلَاتِهِ لِسَيْفِهِ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلاً.

الشّرْحُ:

وظائف حقوقه: الواجبات المؤقّتة، كالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان، والوظيفة ما يُجعل للإنسان في كلّ يوم، أو في كل شهر، أو في كلّ سنة، من طعام، أو رزق. وعزيز منصوب؛ لأنّه حال من الضمير في «أستعينه»، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير المجرور في «حقوقه». وقاهَر أعداءه: حاربهم، وروي «وقهر أعداءه». والمعقل: ما يعتَصم به. وذروته: أعلاه. وأمهدوا له: اتخذوا مهاداً، وهو الفراش، وهذه استعارة.

قوله ﷺ: «فإنّ الغاية القيامة»، أي فإنّ منتهى كلّ البشر إليها، ولابدّ منها. والأرماس: جمع رَمْس وهو القبر. والإبلاس مصدر «أبلس»، أي خاب ويئس، والإبلاس أيضاً: الانكسار والحزْن. واستكاك الأسماع: صممها. وغمّ الضريح: ضيق القبر وكَرْبه. والصفيح: الحجَر، وردمُه: سدّه. والسَّنَن: الطريق. والقرَن: الحبلُ. وأشراط الساعة: علاماتها. وأزفت: قربت. وأفراطها: جمع فَرط، وهم المتقدّمون السابقون من الموتى، ومن روى «بإفراطها» فهو مصدر أفرط في الشيء، أي قربت الساعة بشدّة غُلَوَائها وبلوغها غاية الهول والفظاعة، ويجوز أن تفسّر الرواية الأُولى بمقدماتها وما يظهر قبلها من خوارق العادات المزعجة، كالدّجال ودابّة الأرض ونحوهما، ويرجع ذلك إلى اللفظة الأُولى، وهي أشراطها. وإنما يختلف اللفظ. والكلاكل: جمع كلكل، وهو الصدر، ويقال للأمر الثقيل: «قد أناخ عليهم بكلكله»، أي هدّهم ورضّهم كما يهدّ البعير البارك من تحته إذا أنحى عليه بصدره.

قوله ﷺ: «وانصرفت الدنيا بأهلها»، أي ولّت، ويروى: «وانصرمت»، أي انقضت. والحِضْن، بكسر الحاء: ما دون الإبط إلى الكَشْح. والرّثّ: الخَلق، والغثّ: الهزيل. ومقام

ضنْك، أي ضيّق. وشديد كلَبها، أي شرّها وأذاها. واللجَب: الصوت. ووُقودها هاهنا، بضم الواو؛ وهو الحدَث، ولا يجوز الفتح؛ لأنّه ما يوقد به كالحطب ونحوه، وذاك لا يوصف بأنه ذاكٍ.

قولهﷺ: «عَم قرارُها»، أي لا يُهتدَى فيه لظلمته، ولأنّه عميق جداً، ويروى: «وكأنّ ليلهم نهار» وكذلك أُختها على التشبيه. والمآب: المرجع، ومدينون: مجزيّون. قولهﷺ: «فلا رجعة تُنالون» الرّواية بضم التاء، أي تعطوْن، يقال: أنلت فلاناً مالا، أي منحته، وقد روي: «تَنَالون» بفتح التاء.

ثم أمر أصحابه أن يثبتوا ولا يعجلوا في محاربةِ مَنْ كان مخالطاً لهم من ذوِي العقائد الفاسدة كالخوارج، ومَنْ كان يُبطِنُ هَوى معاوية، وليس خطابه هذا تثبيطاً لهم عن حرب أهل الشام، كيف وهو لا يزال يقرّعهم ويوبِّخُهم عن التقاعد والإبطاء في ذلك! ولكنّ قوماً من خاصّته كانوا يطّلعون على ما عند قوم من أهل الكوفة، ويعرفون نفاقهم وفسادهم، ويرومون قتلهم وقتالهم، فنهاهم عن ذلك، وكان يخاف فرقة جُنْده وانتشار حَبْل عسكره، فأمرهم بلزوم الأرض، والصبر على البلاء.

وروي بإسقاط الباء من قوله: «بأيديكم»، ومَنْ رَوى الكلمة بالباء جعلها زائدة، ويكون المعنى: ولا تحرّكوا الفتنة بأيديكم وسيوفكم في هوى ألسنتكم، فحذف المفعول. والإصلات بالسيف: مصدر أصلت، أي سلّ.

واعلم أنّ هذه الخطبة من أعيان خُطَبهﷺ، ومن ناصع كلامه ونادره، وفيها من صناعة البديع الرائقة المستحسَنة البريئة من التكلّف ما لا يخفى.



الأصْلُ:

ومن خطبة لهﷺ

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلْفَاشِي فِي اَلْخَلْقِ حَمْدُهُ، وَاَلْغَالِبِ جُنْدُهُ، وَاَلْمُتَعَالِي جَدُّهُ؛ أَحْمَدُهُ

عَلَىٰ نِعَمِهِ التُّؤَامِ، وَآلَائِهِ الْعِظَامِ؛ الَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَىٰ، وَعَلِمَ بِمَا يَمْضِي وَمَا مَضَىٰ، مُبْتَدِعِ الْخَلَائِقِ بِعِلْمِهِ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ، بِلَا اقْتِدَاءٍ وَلَا تَعْلِيمٍ، وَلَا احْتِذَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعٍ حَكِيمٍ، وَلَا إِصَابَةِ خَطَأٍ، وَلَا حَضْرَةِ مَلَأٍ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ابْتَعَثَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ، وَيَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ، قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ الْحَيْنِ، وَاسْتَغْلَقَتْ عَلَىٰ أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ.

عِبَادَ اللّٰهِ! أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللّٰهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ، وَالْمُوجِبَةُ عَلَىٰ اللّٰهِ حَقَّكُمْ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللّٰهِ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَىٰ اللّٰهِ؛ فَإِنَّ التَّقْوَىٰ فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ وَالْجُنَّةُ، وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ. مَسْلَكُهَا وَاضِحٌ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ. لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَىٰ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ، وَالْغَابِرِينَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَداً، إِذَا أَعَادَ اللّٰهُ مَا أَبْدَىٰ، وَأَخَذَ مَا أَعْطَىٰ، وَسَأَلَ عَمَّا أَسْدَىٰ، فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أُولٰئِكَ الْأَقَلُّونَ عَدَداً، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللّٰهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1]. فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا، وَأَلِظُّوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا، وَاعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَفٍ خَلَفاً، وَمِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقاً. أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ، وَاقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وَأَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ، وَارْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ، وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ، وَبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ، وَاعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا.

أَلَا فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا، وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَّاهاً، وَإِلَىٰ الْآخِرَةِ وُلَّاهاً، وَلَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَىٰ، وَلَا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا، وَلَا تَشِيمُوا بَارِقَهَا، وَلَا تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلَا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا، وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَلَا تُفْتَنُوا بِأَعْلَاقِهَا، فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ، وَنُطْقَهَا كَاذِبٌ، وَأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ، وَأَعْلَاقَهَا مَسْلُوبَةٌ.

أَلَا وَهِيَ الْمُتَصَدِّيَةُ الْعَنُونُ، وَالْجَامِحَةُ الْحَرُونُ، وَالْمَائِنَةُ الْخَؤُونُ، وَالْجَحُودُ

---

١. سورة سبأ ١٣.

ٱلْكَنُودُ، وَٱلْعَنُودُ الصَّدُودُ، وَٱلْحَيُودُ ٱلْمَيُودُ! حَالُهَا ٱنْتِقَالٌ، وَوَطْأَتُهَا زِلْزَالٌ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وَعُلْوُهَا سُفْلٌ. دَارُ حَرَبٍ وَسَلَبٍ، وَنَهْبٍ وَعَطَبٍ. أَهْلُهَا عَلَىٰ سَاقٍ وَسِيَاقٍ، وَلَحَاقٍ وَفِرَاقٍ، قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا: فَأَسْلَمَتْهُمُ ٱلْمَعَاقِلُ، وَلَفَظَتْهُمُ ٱلْمَنَازِلُ، وَأَعْيَتْهُمُ ٱلْمَحَاوِلُ: فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ، وَلَحْمٍ مَجْزُورٍ، وَشِلْوٍ مَذْبُوحٍ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ، وَعَاضٍّ عَلَىٰ يَدَيْهِ، وَصَافِقٍ بِكَفَّيْهِ، وَمُرْتَفِقٍ بِخَدَّيْهِ، وَزَارٍ عَلَىٰ رَأْيِهِ، وَرَاجِعٍ عَنْ عَزْمِهِ. وَقَدْ أَدْبَرَتِ ٱلْحِيلَةُ، وَأَقْبَلَتِ ٱلْغِيلَةُ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ! هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ، وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ، وَمَضَتِ ٱلدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا، ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾[١].

الشَّرْحُ:

الفاشي: الذائع، فشا الخبرُ يفشو فشوّاً، أي ذَاعَ، وأفشاه غيرُه. وتفشّى الشيءُ، أي اتّسع، والفواشي: كلُّ منتشر من المال مثل الغنم السائمة والإبل وغيرهما، فيجوز أن يكون عَنَى بفشوّه حمده إطباق الأُمم قاطبةً على الاعتراف بنعمته، ويجوز أن يريد بالفاشي سبب حمده، وهو النّعم التي لا يقدر قدرها، فحذف المضاف.

قوله: «والغالب جنده»، فيه معنى قوله تعالى: **﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾**[٢].

قوله: «والمتعالى جَدّه»، فيه معنى قوله تعالى: **﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾**[٣]، والجَدّ في هذا الموضع وفي الآية: العظمة. والتؤام: جمع توأم على فَوْعل، وهو الولد المقارن أخاه في بطن واحد، وقد أتأمت المرأة إذا وضعت اثنين كذلك، فهي متئِم، فإن كان ذلك عادتها فهي مِتْآم، وكلّ واحد من الولدين توأم، وهما توأمان، وهذا توأم هذا، وهذه توأمته، والجمع توائم، مثل قشعم وقشاعم، وجاء في جمعه «تُؤام» على فُعال، وهي اللفظة التي وردت في

---

١. سورة الدخان ٢٩.

٢. سورة المائدة ٥٦.

٣. سورة الجن ٣.

هذه الخطبة، وهو جمع غريب لم يأت نظيره إلّا في مواضع معدودة.

قوله ﷺ: «مبدِع الخلائق بعلْمه»، ليس يريد أنّ العلم علة في الإبداع، كما تقول: هوى الحجَر بثقله، بل المراد: أبدع الخلق وهو عالم، كما تقول: خرج زيد بسلاحه، أي خرج متسلِّحاً، فموضع الجار والمجرور على هذا نصب بالحاليّة، وكذلك القول في: «ومنشئهم بحُكْمِه» والحُكْم هاهنا: الحِكْمة. ومنه قوله ﷺ: «إنّ من الشعر لحكمة».

قوله: «بلا اقتداء، ولا تعليم ولا احتذاء»، قد تكرّر منه ﷺ أمثاله مراراً. قوله: «ولا إصابة خطأ»، تحته معنى لطيف؛ وذلك لأنّ المتكلّمين يورِدون على أنفسهم سؤالاً في باب كونه عالماً بكل معلوم إذا استدلّوا على ذلك فإنه علم بعض الأشياء لا من طريق أصلاً، لا من إحساس ولا من نظر واستدلال، فوجب أن يعلم سائرها؛ لأنّه لا مخصّص. قوله ﷺ: «ولا حَضرة مَلأ»، الملأ: الجماعة مِنَ النّاس، وفيه معنى قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾[1].

قوله: «يضربون في غَمْرة»، أي يسيرون في جَهْل وضلالة، والضرب: السير السريع. والحَيْن: الهلاك. والرَّين: الذنب عَلَى الذنب حتى يسودّ القلب، وقيل: الرَّيْن: الطَّبَع والدنس، يقال. رانَ عَلَى قلبه ذنبُه، يرِين رَيْناً، أي دنّسه ووسّخه، واستغلقت أقفالُ الرَّيْن عَلَى قلوبهم: تعسّر فتحها.

قوله: «فإنّها حقُّ الله عليكم، والموجِبة عَلَى الله حقَّكم»، يريدُ أنّها واجبة عليكم، فإن فعلتموها وجبَ عَلَى الله أن يجازيَكم عنها بالثّواب. قوله: «وأنْ تستعينوا عليها بالله، وتستعينوا بها عَلَى الله»، يريد: أُوصيكم بأنْ تستعينوا بالله عَلَى التقوى بأن تدْعوه وتبتهلوا إليه أن يعينكم عليها، ويوفّقكم لها وييسّرها ويقوّي دواعيَكم إلى القيام بها، وأُوصيكم أن تستعينوا بالتقوى عَلَى لقاء الله ومحاكمته وحسابه، فإنّه تعالى يوم البعث والحساب كالحاكم بين المتخاصمين: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾[2]، فالسعيدُ مَن استعان عَلَى ذلك الحساب وتلك الحكومة والخصومة بالتقوى في دار التكليف، فإنّها نعم المعونة ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[3]. والجُنّة: ما يستتر به.

---

١. سورة الكهف ٥١.

٢. سورة الجاثية ٢٨.

٣. سورة البقرة ١٩٧.

قوله: «ومستودَعها حافظ»، يعني الله سبحانه؛ لأنّه مستودع الأعمال، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عملاً﴾[1].

قوله: «لم تبرح عارضةً نفسها»، كلام فصيح لطيف، يقول: إنّ التقوى لم تزل عارضةً نفسها عَلَى مَنْ سلف من القرون، فقبلها القليل منهم، شبّهها بالمرأة العارضة نفسها نكاحاً على قوم، فرغب فيها مَنْ رغب، وزَهِد مَنْ زهد، وعلى الحقيقة ليست هي العارضة نفسَها، ولكنّ المكلّفين ممكّنون من فعلها ومرغَّبون فيها، فصارت كالعارضة. والغابر هاهنا: الباقي، وهو من الأضداد يستعمل بمعنى الباقي، وبمعنى الماضي.

قولهﷺ: «إذا أعاد الله ما أبدى»، يعني أنشر الموتى. «وأخذ ما أعطى»، ورث الأرض مالك الملوك، فلم يبقَ في الوجود مَنْ له تصرُّف في شيء غيره، كما قال: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[2]. «وسأل عمّا أسدى»، أي سأل أرباب الثروة عمّا أسدىٰ إليهم من النّعم فيم صرفوها؟ وفيم أنفقوها؟ قولهﷺ: «فما أقلّ مَنْ قبلها!»، يعني ما أقلّ مَنْ قبل التقوى العارضة نفسها على الناس.

و «إذا» في قوله: «إذا أعاد الله»، ظرف لحاجتهم إليها؛ لأنّ المعنى يقتضيه، أي لأنهم يحتاجون إليها وقت إعادة الله الخلق. قوله: «فأهطِعوا بأسماعكم»، أي أسرعوا. أهطع في عَدْوه أي أسرع. ويروى: «فانقطعوا بأسماعكم إليها»، أي فانقطعوا إليها مصغين بأسماعكم. «وألِظُّوا بجدّكم»، أي ألحّوا، والإلظاظ: الإلحاح في الأمر. «بجدّكم»، أي باجتهادكم، جددتُ في الأمر جدّاً بالغت واجتهدت، ويروى: «وأكظّوا بحدّكم» والمواكظة: المداومة على الأمر.

قوله: «وأشعروا بها قلوبكم»، يجوز أن يريد: اجعلوها شعاراً لقلوبكم، وهو ما دون الدّثار وألصق بالجسد منه، ويجوز أن يريد: اجعلوها علامةً يُعرَف بها القلب التقيّ من القلب المذنب، كالشّعار في الحرب يُعرَف به قوم من قوم، ويجوز أن يريد: أخرِجوا قلوبَكم بها من أشعار البدن، أي طهروا القلوب بها، وصفُّوها من دَنَس الذنوب، كما يصفّى البدن بالفصاد من غَلَبة الدم الفاسد؛ ويجوز أن يريد: الإشعار بمعنى الإعلام، من أشعرت زيداً بكذا، أي عرّفته إياه، أي اجعلوها عالمة بجلالة موقعها وشرف محلها. «وارحَضُوا بها»،

---

١. سورة الكهف ٣٠.

٢. سورة غافر ١٦.

أي اغسلوا، وثوب رَحِيض ومَرْحوض، أي مغسول. «وداووا بها الأسقام»، يعني أسقام الذّنوب .وبادروا بها الحِمام: عجّلوا واسبقوا الموت أن يدرككم وأنتم غير متّقين. واعتَبروا بمن أضاع التقوى فهلك شقيّاً، ولا يعتبرنّ بكم أهلُ التقوى، أي لا تكونوا أنتم لهم معتبراً بشقاوتكم وسعادتهم. ثم قال: وصونوا التّقوى عن أن تمازجها المعاصي، وتصوّنوا أنتم بها عن الدناءة وما ينافي العدالة. والنُّزّه: جمع نَزيه، وهو المتباعد عمّا يوجب الذمّ. والولّاه: جمع وَالهٍ، وهو المشتاق ذو الوجْد حتى يكاد يذهب عقله.

ثم شرع في ذكر الدّنيا، فقال: «ولا تشيموا بارقَها»، الشيْم: النظر إلى البرق انتظاراً للمطر. ولا تسمعوا ناطقها: لا تصغوا إليها سامعين، ولا تجيبوا مناديَها. والأعلاق: جمع عِلْق وهو الشيء النفيس. وبرقٌ خالب وخُلّب: لا مطرَ فيه. وأموالها محروبة، أي مسلوبة.

قوله ﷺ: «ألَا وهي المتصدّية العَنُون»، شبّهها بالمرأة المومِس تتصدّى للرجال تريد الفجور. وتتصدّى لهم: تتعرّض. والعَنُون: المتعرّضة أيضاً، عنَّ لي كذا، أي عرض. ثم قال: «والجامحة الحَرُون»، شبهها بالدّابة ذات الجِماح، وهي التي لا يُستطاع ركوبها؛ لأنّها تعثرُ بفارسها وتغلبُه، وجعلها مع ذلك حَرُوناً وهي التي لا تنقاد. «والمائنة الخَؤُون»، مان، أي كذب، شبّهها بامرأة كاذبة خائنة. والجَحود الكَنُود، جحد الشيء أنكره، وكَنَد النّعمة: كفرها، جعلها كامرأة تجحد الصنيعة ولا تعترف بها وتكفر النعمة. ويجوز أن يكون الجَحُود من قولك: رجل جَحِد وجَحْد، أي قليل الخير، وعام جَحْد، أي قليل المطر، وقد جحد النَّبْت، إذا لم يَطُل. «والعَنُود: الصَّدُود»، العَنُود: الناقة تعدل عن مرعى الإبل وترعى ناحية، والصَّدُود: المعرضة، صدّ عنه، أي أعرض؛ شبَّهها في انحرافها وميلها عن القصد بتلك. «والحَيُود المَيُود»، حادت الناقة عن كذا تَحِيد فهي حَيُود، إذا مالت عنه. ومادت تميد فهي مَيُود، أي مالت، فإن كانت عادتها ذلك سُمّيت الحَيُود المَيُود في كلّ حال.

قال: «حالها انتقال»، يجوز أن يعني به أنّ شيمتَها وسجيّتها الانتقال والتغيّر، ويروى: «وحالُها افتعال»، أي كذوب وزور، وهي رواية شاذّة. «ووطأتها زلزال»، الوطأة كالضَّغْطة، ومنه قوله ﷺ: «اللهمّ اشدُدْ وطأتَك على مُضَر»، وأصلها موضع القدم. والزلزال: الشدّة العظيمة، والجمع زَلَازِل. «وعُلوها سُفْل»، يجوز ضمّ أوّلهما وكسره.

قال: «دار حَرْب»، الأحسن في صناعة البديع أن تكون الرّاء هاهنا ساكنة ليوازي السكون هاء «نهْب»، ومن فتح الراء، أراد السلب، حربْتُه، أي سلبت ماله. قال: «أهلها على

ساق وسياق»، يقال: قامت الحرب على ساق، أي على شدّة، ومنه قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾[1] والسِّياق: نَزْع الروح، يقال: رأيت فلاناً يسوق، أي ينزع عند الموت، أو يكون مصدر ساق الماشية سوقاً وسياقاً. «ولَحاق وفراق»، اللام مفتوحة، مصدر لَحق به، وهذا كقولهم: «الدّنيا مولود يولَد، ومفقود يفقَد». قال ﷺ: «قد تحيّرت مذاهبها»، أي تحيّر أهلها في مذاهبهم، وليس يعني بالمذاهب هاهنا الاعتقادات، بل المسالك. وأعجزت مهاربها: أي أعجزتهم جعلتهم عاجزين، فحذف المفعول. وأسلمتهم المعاقل: لم تحصّنهم. ولفَظَتهم، بفتح الفاء: رَمَتْ بهم وقذفتهم. وأعيتهم المحاول، أي المطالب.

ثم وصف أحوال الدنيا فقال: «هم فمِن ناجٍ معقور»، أي مجروح كالهارب من الحرب بحشاشة نفسه، وقد جرح بدنه. ولحم مجزور، أي قتيل قد صار جَزَراً للسباع. وشِلْوٍ مذبوح: الشِّلْو، العضو من أعضاء الحيوان المذبوح أو الميّت. ودم مفسوح، أي مسفوك. وعاضٍّ عَلَى يديه، أي ندماً. وصافقٍ بكفَّيْه، أي تعسفاً أو تعجباً. ومرتفق بخدّيه: جاعل لهما عَلَى مرفقيه فكراً وهمّاً. وزارٍ على رأيه، أي عائب، أي يرى الواحد منهم رأياً ويرجع عنه ويعيبه، وهو البَداء الذي يذكره المتكلّمون. ثم فسّره بقوله: «وراجع عن عزمه».

ثم قال ﷺ: «وقد أدبرت الحيلة»، أي ولّت، وأقبلت الغِيلة، أي الشرّ، ومنه قولهم: فلان قليل الغائلة. أو يكون بمعنى الاغتيال، يقال: قتله غيلة، أي خديعة. يذهب به إلى مكان يوهمه أنه لحاجة ثم يقتله. «ولاتَ حين مناص»، هذه من ألفاظ الكتاب العزيز[2]، قال الأخفش: شبّهوا «لات» بليس، وأضمروا فيها اسم الفاعل. والمناص: المهرب، ناص عن قرْنه يَنُوص نَوْصاً ومناصاً، أي ليس هذا وقت الهرب والفرار. ويكون المناص أيضاً بمعنى الملجأ والمفزع، أي ليس هذا حين تجد مفزعاً ومعقلاً تعتصم به. هيهات: اسم للفعل ومعناه بَعُد.

قوله ﷺ: «ومضت الدنيا لحال بالِهَا»، كلمة تقال فيما انقضى وفرط أمره، ومعناه مضى بما فيه إن كان خيراً، وإن كان شرّاً. قوله ﷺ: «فما بكت عليهم السماء»، هو من كلام الله تعالى؛ والمراد أهل السماء وهم الملائكة وأهل الأرض وهم البشر، والمعنى أنّهم

---

١. سورة القلم ٤٢.

٢. وهو قوله تعالى في سورة ص ٣: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

لا يستحقون أن يُتأسّف عليهم، وقيل: أراد المبالغة في تحقير شأنهم؛ لأنّ العرب كانت تقول في العظيم القدر يموت: بكته السماء، وبكته النجوم.



الأصْلُ:

ومن خطبة له عليه السلام

ومن الناس مَنْ يسمّي هذه الخطبة بالقاصِعة، وهي تتضمّن ذمَّ إبليس لعنه الله، على استكباره وتركه السجود لآدم عليه السلام وأنّه أوّل من أظهر العصبية وتبع الحمية. وتحذيرَ الناس من سلوك طريقته:

ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي لَبِسَ ٱلْعِزَّ وَٱلْكِبْرِيَاءَ، وَٱخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمىً وَحَرَماً عَلَىٰ غَيْرِهِ، وَٱصْطَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ، وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَىٰ مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ.

ثُمَّ ٱخْتَبَرَ بِذٰلِكَ مَلَائِكَتَهُ ٱلْمُقَرَّبِينَ، لِيَمِيزَ ٱلْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ ٱلْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ ٱلْقُلُوبِ، وَمَحْجُوبَاتِ ٱلْغُيُوبِ: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ﴾[1]؛ ٱعْتَرَضَتْهُ ٱلْحَمِيَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَىٰ آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ، فَعَدُوُّ ٱللّٰهِ إِمَامُ ٱلْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ؛ الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ ٱلْعَصَبِيَّةِ، وَنَازَعَ ٱللّٰهَ رِدَاءَ ٱلْجَبْرِيَّةِ، وَٱدَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ.

---

١. سورة ص ٧١ ـ ٧٤.

أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ آللّٰهُ بِتَكَبُّرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُوراً، وَأَعَدَّ لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ سَعِيراً[١].

الشّرْحُ:

يجوز أن تسمّى هذه الخطبة «القاصعة» من قولهم: قَصَعت الناقة بجِرّتها، وهو أن تردّها إلى جوفها، أو تخرجها من جوفها فتملأ فاها، فلمّا كانت الزواجر والمواعظ في هذه الخطبة مردّدة من أولها إلى آخرها، شبّهها بالناقة التي تقصع الجِرَّة. ويجوز أن تسمىٰ القاصعة لأنها كالقاتلة لإبليس وأتباعِهِ من أهل العصبيّة، من قولهم: قَصَعت القملة، إذا هشمتَها وقتلتها. ويجوز أن تسمَّى القاصعة، لأنّ المستمع لها المعتبر بها يذهب كبْره ونخوته، فيكون من قولهم: قصع الماءُ عطشه، أي أذهبه وسكنه؛ ويجوز أن تسمَّى القاصعة، لأنها تتضمّن تحقير إبليس وأتباعَه وتصغيرَهم، من قولهم: قصعت الرجل إذا امتهنتَه وحقّرتَه، وغلام مقصوع، أي قميء لا يشِبّ ولا يزداد.

والعصبيّة على قسمين: عصبيّة في الله وهي محمودة، وعصبيّة في الباطل وهي مذمومة؛ وهي الّتي نهى أمير المؤمنين عليه السلام عنها، وكذلك الحميّة. وجاء في الخبر: «العصبيّة في الله تورث الجنة، والعصبية في الشيطان تورث النار». وجاء في الخبر: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما قصمته»؛ وهذا معنى قوله عليه السلام: «اختارهما لنفسه دون خلْقه ...» إلى آخر قوله: «من عباده».

قال عليه السلام: «ثم اختبر بذلك ملائكته المقرّبين» مع علمه بمضمراتهم؛ وذلك لأنّ اختباره سبحانه ليس ليعلَم، بل ليعلم غيره من خلقه طاعة مَنْ يطيع وعصيان من يعصي.

قوله تعالى: ﴿فإذا سَوَّيتُه﴾، أي إذا أكملت خلقه. فقعوا له ساجدين: أمرهم بالسجود له. وقد اختلف في ذلك فقال قوم: كان قبلة، كما الكعبة اليوم قبلة، ولا يجوز السّجود إلّا لله. وقال آخرون: بل كان السُّجود له تكرمةً ومحنة، والسجود لغير الله غير قبيح في العقل إذا لم يكن عبادة ولم يكن فيه مفسدة.

---

١. الحَرَم: ما يحميه الإنسان ويدافع عنه. اصطفاهما: اختارهما. نازعه: خاصمه. الحميّة: الأنفة. السلف: المتقدِّم. الجبرية: العلو والعظمة. المدحور: المطرود.

وقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، أي أحللتُ فيه الحياة، وأجريت الرُّوح إليه في عروقه، وأضاف الروح إليه تبجيلاً لها، وسمّى ذلك نفخاً على وجه الاستعارة؛ لأنّ العرب تتصوّر من الروح معنى الريح، والنّفخ يصدق على الريح، فاستعار لفظة «النفخ» توسُّعاً.

قوله: «فافتخر على آدم بخلْقه، وتعصّب عليه لأصله»، كانت خلقتُه أهونَ من خلقة آدم ﷺ، وكان أصلُه من نار وأصل آدم ﷺ من طين.

قوله ﷺ: «رداء الجَبريّة» الباءُ مفتوحة، يقال: فيه جبريّة، وجبروّة، وجَبَروت، وجَبُّورة، كفرُّوجة، أي كِبْر. وجعله مدحوراً، أي مطروداً مبعداً، دحره الله دُحوراً، أي أقصاه وطرده.

الأصْلُ:

وَلَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ ٱلْأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ، وَيَبْهَرُ ٱلْعُقُولَ رُوَاؤُهُ، وَطِيبٍ يَأْخُذُ ٱلْأَنْفَاسَ عَرْفُهُ، لَفَعَلَ؛ وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ ٱلْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، وَلَخَفَّتِ ٱلْبَلْوَىٰ فِيهِ عَلَىٰ ٱلمَلائِكَةِ. وَلٰكِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ، تَمْيِيزاً بِالِاخْتِبَارِ لَهُمْ، وَنَفْياً لِلاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَإِبْعَاداً لِلْخُيَلَاءِ مِنْهُمْ. فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ ٱللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ ٱلْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ ٱللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ، لَا يُدْرَىٰ أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي ٱلْآخِرَةِ، عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَىٰ ٱللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ!

كَلَّا، مَا كَانَ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً؛ إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّماءِ وَٱلْأَرْضِ لَوَاحِدٌ. وَمَا بَيْنَ ٱللَّهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحَةِ حِمىً حَرَّمَهُ عَلَىٰ ٱلْعَالَمِينَ.

الشّرْحُ:

خَطِفت الشيء بكسر الطاء، أخطَفه، إذا أخذته بسرعة استلاباً، وفيه لغة أُخرىٰ: خَطَف بالفتح، ويخطِف بالكسر، وهي لغة رديئة قليلة لا تكاد تعرف. والرُّواء، بالهمزة والمد:

المنظر الحسن. والعَرْف: الريح الطيبة. والخُيلاء، بضم الخاء وكسرها: الكِبْر، وكذلك الخالُ والمخيلة، تقول: اختال الرجل وخال أيضاً، أي تكبّر. وأحبط عمله: أبطل ثوابه، وقد حبط العمل حَبْطاً بالتسكين وحُبوطاً. والمتكلّمون يسمُّون إبطال الثواب إحباطاً، وإبطال العقاب تكفيراً. وجَهْده بفتح الجيم: اجتهاده وجِدّه، ووصفه بقوله: «الجَهيد» أي المستقصى، من قولهم: مرعى جَهيد، أي قد جَهده المال الراعي واستقصى رَعْيه.

وكلامه‌ عليه السلام يدلّ على أنّه كان يذهب إلى أنّ إبليس من الملائكة لقوله: «أخرج منها مَلكاً». والهوادة: الموادعة والمصالحة، يقول: إن الله تعالى خلق آدم من طين، ولو شاء أن يخلقه من النور الذي يخطف أو من الطيب الذي يعبق لَفَعل، ولو فعل لهال الملائكة أمرُه وخضعوا له، فصار الابتلاء والامتحان والتكليف بالسّجود له خفيفاً عليهم، لعظمته في نفوسهم، فلم يستحقُّوا ثواب العمل الشاقّ، وهذا يدلُّ على أنّ الملائكة تشمّ الرائحة كما نشمّها نحن، ولكنّ الله تعالى يبتلي عباده بأُمور يجهلون أصلها اختباراً لهم.

فإن قلت: ما معنى قوله‌ عليه السلام: «تمييزاً بالاختبار لهم».

قلت: لأنّه ميّزهم عن غيرهم من مخلوقاته، كالحيوانات العُجْم، وأبانهم عنهم، وفَضّلهم عليهم بالتّكليف والامتحان.

قال: «ونفياً للاستكبار عنهم»؛ لأنّ العبادات خضوع وخشوع وذلّة، ففيها نفي الخُيَلاء والتكبّر عن فاعليها، فأمرهم بالاعتبار بحال إبليس الذي عَبَد الله ستة آلاف سنَة؛ لا يُدْرَى أمِنْ سِنِي الدنيا أم من سني الآخرة! وهذا يدلّ على أنه قد سمع فيه نصّاً من رسول الله صلى الله عليه وآله مجملاً لم يفسّره له، أو فسَّره له خاصة، ولم يفسّره أميرُ المؤمنين‌ عليه السلام للناس لما يعلمه في كتمانه عنهم من المصلحة.

فإن قلت: قوله: «لا يُدْرَى» على ما لم يسمّ فاعله يقتضي أنه هو لا يدري!

قلت: إنه لا يقتضي ذلك، ويكفي في صدق الخبر إذا ورد بهذه الصيغة أن يجهله الأكثرون.

واعلم أنّ كلام أمير المؤمنين في هذا الفصل يطابقُ مذهبَ أصحابنا في أنّ الجنّة لا يدخلها ذو معصية، ألا تسمع قوله: «فمن بَعْد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته! كَلّا، ما كان الله ليُدخِل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها ملَكاً، إنّ حكمه في أهل السماء والأرض لواحد».

«بأمر أخرج به منها ملَكاً»، معناه أنّ الله تعالى لا يدخِل الجنة بشراً يصحبه أمر أخرج الله به مَلَكاً منها.

الأصْلُ:

فَاحْذَرُوا ـعِبَادَ ٱللّٰهِ ـ عَدُوَّ ٱللّٰهِ أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ. فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ ٱلْوَعِيدِ، وَأَغْرَقَ إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]، قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ، وَرَجْماً بِظَنٍّ غَيْرِ مُصِيبٍ؛ صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ ٱلْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ ٱلْعَصَبِيَّةِ، وَفُرْسَانُ ٱلْكِبْرِ وَٱلْجَاهِلِيَّةِ. حَتَّىٰ إِذَا ٱنْقَادَتْ لَهُ ٱلْجَامِحَةُ مِنْكُمْ، وَٱسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَةُ مِنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتِ فيه ٱلْحَالُ مِنَ السِّرِّ ٱلْخَفِيِّ إِلَىٰ ٱلْأَمْرِ ٱلْجَلِيِّ، ٱسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الذُّلِّ، وَأَحَلُّوكُمْ وَرَطَاتِ ٱلْقَتْلِ، وَأَوْطَؤُوكُمْ إِثْخَانَ ٱلْجِرَاحَةِ، طَعْناً فِي عُيُونِكُمْ، وَحَزّاً فِي حُلُوقِكُمْ، وَدَقّاً لِمَنَاخِرِكُمْ، وَقَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسَوْقاً بِخَزَائِمِ ٱلْقَهْرِ إِلَىٰ النَّارِ ٱلْمُعَدَّةِ لَكُمْ؛ فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ حَرْجاً، وَأَوْرَىٰ فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحاً، مِنَ الَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ، وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ.

فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ، وَلَهُ جِدَّكُمْ، فَلَعَمْرُ ٱللّٰهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَىٰ أَصْلِكُمْ، وَوَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ، وَدَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ، وَقَصَدَ بِرَجِلِهِ سَبِيلَكُمْ. يَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ، لَا تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ، فِي حَوْمَةِ ذُلٍّ، وَحَلْقَةِ ضِيقٍ، وَعَرْصَةِ مَوْتٍ، وَجَوْلَةِ بَلَاءٍ.

فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ ٱلْعَصَبِيَّةِ، وَأَحْقَادِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ ٱلْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي ٱلْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ، وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ.

---

١. سورة الحجر: ٣٩.

وَٱعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَىٰ رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحتْ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ؛ وَٱتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ؛ فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وَأَعْوَاناً، وَرَجِلاً وَفُرْسَاناً، وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَىٰ ٱبْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ ٱللَّهُ فِيهِ سِوَىٰ مَا أَلْحَقَتِ ٱلْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الحَسَبِ، وَقَدَحَتِ ٱلْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ ٱلْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ ٱلْكِبْرِ؛ الَّذِي أَعْقَبَهُ ٱللَّهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثَامَ ٱلْقَاتِلِينَ إِلَىٰ يوْمِ ٱلْقِيَامَةِ.

الشّرْحُ:

موضع «أن يُعدِيَكم» نصب على البدَل من «عدوّ الله». والعَدْوَى: ما يُعدِي من جَرَب أو غيره، أعدى فلانٌ فلاناً من خُلُقه أو من علّته، وهو مجاوزته من صاحبه إلى غيره. وأمير المؤمنينﷺ حذّر المكلّفين من أن يتعلّموا من إبليس الكِبْرَ والحميّة، وشبّه تعلّمهم ذلك منه بالعَدْوَى لاشتراك الأمرين في الانتقال من أحدِ الشّخصين إلى الآخر.

قولهﷺ: «يستفزّكم» أي يستخفّكم، وهو من ألفاظ القرآن: ﴿**وَاستَفْزِزْ مَنِ استَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ**﴾[١]، أي أزعجه واستخفّه وأطِرْ قلبَه. والخيل: الخيّالة، ومنه الحديث: «يا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي». والرَّجْل: اسم جَمْع لراجل، كَرَكْب اسم جمع لراكِبٍ، وصَحْب: اسم جمع لصاحبٍ، وهذه أيضاً من ألفاظ القرآن العزيز: ﴿**وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ**﴾ وقرئ ﴿**ورَجِلِك**﴾[٢] بكسر الجيم على أنّ «فِعلاً» بالكسر بمعنى فاعل نحو تَعِب وتَاعِب.

فإن قلت: فهل لإبليس خيل تركبها جنده؟

قلت: يجوز أن يكون ذلك، وقد فسّره قوم بهذا. والصحيح أنه كلام خرج مخرج المثَل، شبّهت حاله في تسلّطه على بني آدم بمن يُغِير على قوم بخيله ورجله فيستأصلهم. وقيل: بصوتك، أي بدعائك إلى القبيح. وخيله ورجله: كلّ ماش وراكب من أهل الفساد من بني آدم.

وفوّقت السهم، جعلت له فُوقاً، وهو موضع الوَتر، وهذا كناية عن الاستعداد. وقوله: «وأغرق إليكُم بالنَّزْع»، أي استوفىٰ مدّ القوس وبالغ في نَزْعِها ليكون مرماه أبعدَ، ووقعُ

---

١. سورة الإسراء ٦٤.

٢. سورة الإسراء ٦٤.

سهامِه أشدّ. قوله: «ورماكم من مكان قريب»؛ لأنّه كما جاء في الحديث: «يجري من ابن آدم مجرى الدم، ويخالط القلب»، ولا شيء أقرب من ذلك. والباء في قوله: «بما أغويتَنِي» متعلّق بفعل محذوف تقديره: أجازيك بما أغويتَني تزييني لهم القبيح، فـ«ما» على هذا مصدريّة، أي أجازيك بإغوائك لي تزييني لهم القبيح، فحذف المفعول. ويجوز أن تكون الباء قَسماً، كأنّه أقسم بإغوائه إياه ليزيِّنَنّ لهم.

فإن قلت: وأيّ معنى في أن يقسم بإغوائه؟ وهل هذا مما يقسم به!

قلت: نعم، لأنّه ليس إغواء الله تعالى إيّاه خلْق الغَيّ والضلال في قلبه، بل تكليفه إيّاه السّجود الذي وقع الغيّ عنده من الشيطان، لامن الله، فصار حيث وقع عنده، كأنه موجب عنه، فنسب إلى البارئ، والتّكليف تعريض للثّواب ولذّة الأبد، فكان جديراً أن يقسم به.

قولهﷺ: «قَذْفاً بغيْبٍ بعيد»، أي قال إبليس هذا القول قَذْفاً بغيب بعيد، والعرب تقول للشيء المتوهّم على بعد: هَذَا قَذْفٌ بغيب بعيد، والقذفُ في الأصل: رَمْي الحجر وأشباهه، والغيْب الأمر الغائب، وهذه اللفظة من الألفاظ القرآنية، قال الله تعالى في كفّار قريش: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[1]، أي يقولون: هذا سِحْر، أو هذا من تعليم أهل الكتاب، أو هذه كهانة، وغير ذلك ممّا كانوا يرمُونه عليه الصلاة والسلام به. وانتصب «قَذْفاً» على المصدر الواقع موقع الحال، وكذلك «رَجْماً».

قوله: «صدّقه به أبناء الحميّة»، موضع «صدّقه» جرّ؛ لأنّه صفة «ظنّ»، وقد روي: «صدّقه أبناءُ الحميّة» من غير ذكر الجارّ والمجرور، ومَنْ رواه بالجارّ والمجرور كان معناه: صدقه في ذلك الظن أبناء الحميّة، فأقام الباء مقام «في». «حتى إذا انقادت له الجامِحة منكم»، أي الأنفس الجامحة أو الأخلاق الجامحة. «فنَجمت فيه الحال»، أي ظهرت، وقد روي: «فنجمت الحال من السرّ الخفيّ» من غير ذكر الجار والمجرور، ومن رواه بالجارّ والمجرور فالمعنى: فنجمت الحال في هذا الشأن المذكور بينه وبينكم من الخفاء إلى الجَلاء. واستفحل سلطانه: قويَ واشتدّ وصار فَحْلاً، واستفحل جواب قوله: «حتى إذا». دلف بجنوده: تقدّم بهم. والوَلجات: جمع ولَجَة بالتحريك، وهي موضع، أو كهف يستتِر فيه المارّة من مطر أو غيره. وأقحموكم: أدخلوكم. والورْطة: الهلَكة.

---

١. سورة سبأ ٥٣.

وَٱعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَىٰ رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ؛ وَٱتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ؛ فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وَأَعْوَاناً، وَرَجِلاً وَفُرْسَاناً، وَلَا تَكُونُوا كالْمُتَكَبِّرِ عَلَىٰ ٱبْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ ٱللَّهُ فِيهِ سِوَىٰ مَا أَلْحَقَتِ ٱلْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الحَسَبِ، وَقَدَحَتِ ٱلْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ ٱلْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ ٱلْكِبْرِ؛ الَّذِي أَعْقَبَهُ ٱللَّهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثَامَ ٱلْقَاتِلِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ.

الشّرْحُ:

موضع «أن يُعدِيَكم» نصب على البدَل من «عدوّ الله». والعَدْوَى: ما يُعدِي من جَرَب أو غيره، أعدى فلانٌ فلاناً من خُلُقه أو من علّته، وهو مجاوزته من صاحبه إلى غيره. وأمير المؤمنين عليه السلام حذّر المكلّفين من أن يتعلّموا من إبليس الكِبْرَ والحميّة، وشبّه تعلّمهم ذلك منه بالعَدْوَى لاشتراك الأمريْن في الانتقال من أحدِ الشّخْصين إلى الآخر.

قوله عليه السلام: «يستفزّكم» أي يستخفّكم، وهو من ألفاظ القرآن: ﴿**وَاستَفْزِزْ مَنِ استَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ**﴾[١]، أي أزعجه واستخفّه وأطِرْ قلبَه. والخيل: الخيّالة، ومنه الحديث: «يا خَيْلَ اللهِ اركَبِي». والرَّجْل: اسم جَمْع لراجل، كَرَكْب اسم جمع لراكِب، وصَحْب: اسم جمع لصاحبٍ، وهذه أيضاً من ألفاظ القرآن العزيز: ﴿**وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ**﴾ وقرئ ﴿**ورَجِلِكَ**﴾[٢] بكسر الجيم على أن «فِعلاً» بالكسر بمعنى فاعل نحو تَعِب وتَاعِب.

فإن قلت: فهل لإبليس خيل تركبها جنده؟

قلت: يجوز أن يكون ذلك، وقد فسّره قوم بهذا. والصحيح أنه كلام خرج مخرج المثَل، شبّهت حاله في تسلّطه على بني آدم بمن يُغِير على قوم بخيله ورجله فيستأصلهم. وقيل: بصوتك، أي بدعائك إلى القبيح. وخيله ورجله: كلّ ماش وراكب من أهل الفساد من بني آدم.

وفوّقت السهم، جعلت له فُوقاً، وهو موضع الوَتر، وهذا كناية عن الاستعداد. وقوله: «وأغرق إليكُمْ بالنَّزْع»، أي استوفىٰ مدّ القوس وبالغ في نَزْعِها ليكون مرماه أبعدَ، ووقعُ

---

١. سورة الإسراء ٦٤.

٢. سورة الإسراء ٦٤.

سهامِه أشدّ. قوله: «ورماكم من مكان قريب»؛ لأنّه كما جاء في الحديث: «يجري من ابن آدم مجرى الدم، ويخالط القلب»، ولا شيء أقرب من ذلك. والباء في قوله: «بما أغويتَنِي» متعلّق بفعل محذوف تقديره: أجازيك بما أغويتَني تزييني لهم القبيح، فـ«ما» على هذا مصدريّة، أي أجازيك بإغوائك لي تزييني لهم القبيح، فحذف المفعول. ويجوز أن تكون الباء قَسماً، كأنّه أقسم بإغوائه إياه ليزيِّنَنّ لهم.

فإن قلت: وأيّ معنى في أن يقسم بإغوائه؟ وهل هذا مما يقسم به!

قلت: نعم، لأنّه ليس إغواء الله تعالى إيّاه خلْق الغَيّ والضلال في قلبه، بل تكليفه إيّاه السّجود الذي وقع الغيّ عنده من الشيطان، لا من الله، فصار حيث وقع عنده، كأنه موجب عنه، فنسب إلى الباريء، والتّكليف تعريض للثّواب ولذّة الأبد، فكان جديراً أن يقسم به.

قوله ﷺ: «قَذْفاً بغيْبٍ بعيد»، أي قال إبليس هذا القول قَذْفاً بغيب بعيد، والعرب تقول للشيء المتوهّم على بعد: هَذَا قَذْفٌ بغيب بعيد، والقذفُ في الأصل: رَمْي الحجر وأشباهه، والغيْب الأمر الغائب، وهذه اللفظة من الألفاظ القرآنية، قال الله تعالى في كفّار قريش: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[1]، أي يقولون: هذا سِحْر، أو هذا من تعليم أهل الكتاب، أو هذه كهانة، وغير ذلك ممّا كانوا يرمُونه عليه الصلاة والسلام به. وانتصب «قَذْفاً» على المصدر الواقع موقع الحال، وكذلك «رَجْماً».

قوله: «صدّقه به أبناء الحميّة»، موضع «صدّقه» جرّ؛ لأنّه صفة «ظنّ»، وقد روي: «صدّقه أبناءُ الحميّة» من غير ذكر الجارّ والمجرور، ومَنْ رواه بالجارّ والمجرور كان معناه: صدقه في ذلك الظن أبناء الحميّة، فأقام الباء مقام «في». «حتى إذا انقادت له الجامِحة منكم»، أي الأنفس الجامحة أو الأخلاق الجامحة. «فنَجمت فيه الحال»، أي ظهرت، وقد روي: «فنجمت الحال من السرّ الخفيّ» من غير ذكر الجار والمجرور، ومن رواه بالجارّ والمجرور فالمعنى: فنجمت الحال في هذا الشأن المذكور بينه وبينكم من الخفاء إلى الجَلاء. واستفحل سلطانه: قويَ واشتدّ وصار فَحْلاً، واستفحل جواب قوله: «حتى إذا». دلف بجنوده: تقدّم بهم. والوَلجات: جمع ولَجَة بالتحريك، وهي موضع، أو كهف يستتر فيه المارّة من مطر أو غيره. وأقحموكم: أدخلوكم. والورْطة: الهلَكة.

---

١. سورة سبأ ٥٣.

قوله: «وأوطَؤوكم إثخان الجراحة»، أي جعلوكم واطئين لذلك، والإثخان: مصدر أثخَن في القتل، أي أكثر منه وبالغ حتى كثف شأنه، وصار كالشيء الثَّخِين، ومعنى إيطاء الشيطان ببني آدم ذلك إلقاؤه إيّاهم فيه، وتوريطهم وحمله لهم عليه. فالإثخان على هذا منصوب؛ لأنّه مفعول ثانٍ. قولهعليه السلام: «طَعْناً في عيونكم»، انتصب «طعناً» على المصدر، وفعله محذوف، أي فعلوا بكم هذه الأفعال فطعنوكم في عيونكم طعناً.

واعلم أنّه لمّا ذكر الطعنَ نسبه إلى العيون، ولمّا ذكر الحزّ، وهو الذبح نسبه إلى الحلوق، ولما ذكر الدّقّ، وهو الصدم الشديد أضافه إلى المناخر، وهذا من صناعة الخطابة التي علّمه الله إيّاها بلا تعليم، وتعلّمها الناس كلّهم بعده منه.

والخزائم: جمع خزامة، وهي حلقة من شعر تجعل في وَتَرة أنف البعير فيشدّ فيها الزّمام. وتقول: قد وَرَى الزّند، أي خرجت ناره، وهذا الزند أوْرَى من هذا، أي أكثر إخراجاً للنار. يقول: فأصبح الشيطان أضرَّ عليكم وأفسد لحالكم من أعدائكم الّذين أصبحتم مناصبين لهم، أي معادين، وعليهم متألبين، أي مجتمعين.

قولهعليه السلام: «فاجعلوا عليه حَدّكُمْ»، أي شَبَاتكم وبأسكم. وله جِدّكم: من جددت في الأمر جدّاً، أي اجتهدت فيه وبالغت. ثم ذكر أنّه فَخَر على أصلِ بني آدم، يعني أباهم آدمعليه السلام حيث امتنع من السجود له، وقال: «أنا خير منه». ووقع في حَسَبِكم، أي عاب حَسَبَكم وهو الطين، فقال: إنّ النّار أفضلُ منه. ودفع في نسبكم مثله. وأجلب بخيله عليكم، أي جمع خَيَّالته وفُرْسانه وألّبها. ويقتنصونكم: يتصيّدونكم. والبَنان: أطراف الأصابع، وهو جمع، واحدته بَنَانة، ويجمع في القلة علىٰ بَنانَات، ويقال: بنان مخضَّب؛ لأنّ كلّ جمع ليس بينه وبين واحده إلّا الهاء فإنه يذكّر ويوحّد. والحَوْمة: معظم الماء والحرب وغيرهما، وموضع هذا الجارّ والمجرور نصب على الحال، أي يقتنصونكم في حومة ذلّ. والجَولة: الموضع الّذي تجول فيه. وكَمَن في قلوبكم: استتر، ومنه الكمين في الحرْب. ونزغات الشيطان: وساوسه الّتي يفسد بها. ونفثاته مثله.

قوله: «واعتمدوا وضع التذلّل على رؤوسكم، وإلقاء التعزّز تحت أقدامكم»، كلامٌ شريف جليل المحلّ، وكذلك قولهعليه السلام: «واتّخذوا التّواضع مسلحةً بينكم وبين عدوّكم إبليس وجنوده»، والمسلحة: خيلٌ معدّة للحماية والدفاع.

ثم نهاهم أن يكونوا كقابيل الّذِي حَسَد أخاه هابيل فقتَله، وهما أخَوانِ لأب وأُمّ، وإنما

قال: «ابن أُمّه»، فذكر الأُمّ دون الأب؛ لأنّ الأخَوين من الأُمّ أشدّ حُنُوّاً ومحبة والتصاقاً من الأخوين من الأب؛ لأنّ الأُمّ هي ذات الحضانة والتّربية.

وقوله: «من غير ما فضل»؛ ما هاهنا زائدة، وتعطي معنى التأكيد؛ نهاهمﷺ أن يحسدوا النّعم، وأن يبغوا ويفسدوا في الأرض. قولهﷺ: «وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة»؛ لأنّه كان ابتدأ بالقتل، ومَنْ سنّ سنّة شرٍّ كان عليه وزرها ووِزْر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة، كما أنّ مَنْ سَنّ سنّة خير كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

الأَصْلُ:

أَلَا وَقَدْ أَمْعَنْتُمْ فِي ٱلْبَغْيِ، وَأَفْسَدْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ، مُصَارَحَةً لِلّٰهِ بِالمُنَاصَبَةِ، وَمُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالمُحَارَبَةِ. فَٱللّٰهَ ٱللّٰهَ فِي كِبْرِ ٱلْحَمِيَّةِ، وَفَخْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ! فَإِنَّهُ مَلَاقِحُ الشَّنَآنِ، وَمَنَافِخُ الشَّيْطَانِ؛ الَّتِي خَدَعَ بِهَا ٱلْأُمَمَ ٱلْمَاضِيَةَ، وَٱلْقُرُونَ ٱلْخَالِيَةَ؛ حَتَّىٰ أَعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ، وَمَهَاوِي ضَلَالَتِهِ، ذُلُلاً عَنْ سِيَاقِهِ، سُلُساً فِي قِيَادِهِ. أَمْراً تَشَابَهَتِ ٱلْقُلُوبُ فِيهِ، وَتَتَابَعَتِ ٱلْقُرُونُ عَلَيْهِ؛ وَكِبْراً تَضَايَقَتِ الصُّدُورُ بِهِ.

أَلَا فَالْحَذَرَ ٱلْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكُبَرَائِكُمْ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَأَلْقَوُا ٱلْهَجِينَةَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ، وَجَاحَدُوا ٱللّٰهَ عَلَىٰ مَا صَنَعَ بِهِمْ؛ مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ، وَمُغَالَبَةً لِآلَائِهِ، فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ آسَاسِ ٱلْعَصَبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ ٱلْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ ٱعْتِزَاءِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ.

فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ وَلَا تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْدَاداً، وَلَا لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَّاداً، وَلَا تُطِيعُوا ٱلْأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ، وَهُمْ آسَاسُ ٱلْفُسُوقِ، وَأَحْلَاسُ ٱلْعُقُوقِ؛ ٱتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلَالٍ، وَجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَىٰ النَّاسِ، وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ، ٱسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ، وَدُخُولاً فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْثاً فِي أَسْمَاعِكُمْ. فَجَعَلَكُمْ مَرْمَىٰ نَبْلِهِ، وَمَوْطِئَ قَدَمِهِ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ.

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ ٱلْأُمَمَ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ ٱللّٰهِ وَصَوْلَاتِهِ، وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلَاتِهِ، وَٱتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، وَٱسْتَعِيذُوا بِاللّٰهِ مِنْ لَوَاقِحِ ٱلْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ.

الشّرْحُ:

أمعنتُم في البغي: بالغتم فيه، من أمعن في الأرض، أي ذهب فيها بعيداً. ومصارحة لله، أي مكاشفة. والمناصبة: المعاداة. وملاقح الشنآن، أن ملاقح هاهنا جمع مَلْقح وهو المصدر، من لَقَحت كضربت مضرباً وشربت مشربا. ويجوز فتح النون من الشنآن وتسكينها؛ وهو البغض. ومنافخ الشيطان: جمع مَنْفَخ، وهو مصدر أيضاً، من نفخ، ونَفْخ الشيطان ونَفْثه واحد، وهو وسوسته وتسويله، ويقال للمتطاول إلى ما ليس له: قد نفخ الشيطان في أنفه.

قوله: وأعنقوا: أصرعوا، وفرس مِعْناق، والسَّيْر العَنَق. والحنادس: الظُلَم. والمهاوي: جمع مَهْواة بالفتح؛ وهي الهُوَّة يتردّى الصيد فيها، وقد تهاوَى الصَّيْد في المهواة، إذا سقط بعضه في أثر بعض.

قوله عليه السلام: «ذللاً عن سياقه»، انتصب على الحال، جمع ذَلُول، وهو السهل المقادة، وهو حال من الضمير في «أعنقوا»، أي أسرعوا منقادين لسوْقه إياهم. وسُلُساً: جمع سَلِس، وهو السَّهْل أيضاً.

قوله عليه السلام: «أمراً» منصوب بتقدير فعل، أي اعتمدوا أمراً، «وكبراً»، معطوف عليه، أو ينصب «كبراً» على المصدر بأن يكون اسماً واقعاً موقعه، كالعطاء موضع الإعطاء.

قوله عليه السلام: «تشابهت القلوب فيه»، أي أنّ الحمية والفخر والكبر والعصبيّة ما زالت القلوب متشابهة متماثلة فيها. وتتابعت القُرون عليه: جمع قَرْن بالفَتْح؛ وهي الأُمّة من الناس. وكِبْراً تضايقت الصدور به، أي كبر في الصدور حتى امتلأت به وضاقت عنه لكثرته. ثم أمر

بالحذر من طاعة الرؤساء أرباب الحمية، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: **﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾**[1]. وقد كان أَمَرَ في الفصل الأوّل بالتّواضع لله، ونهى

---

١. سورة الأحزاب ٦٧.

هاهنا عن التواضع للرؤساء، الذين تكبّروا عن حسبهم، أي جهلوا أنفسهم، ولم يفكّروا في أصلهم من النُّطَف المستقذَرة من الطين المنتن، قال الشاعر:

ما بال من أوّله نُطْفَةٌ وجيفةٌ آخِرهُ يَفْخَرُ

قولهﷺ: «وألقوا الْهَجِينةَ على ربهم» روي «الهَجِينة» على «فَعِيلة»، كالطبيعة والخليقة، وروي «الهُجْنَة» على «فُعْلة» كالمضغة واللُّقمة، والمراد بهما الاستهجان، من قولك: هو يهجّن كذا، أي يقبّحه، ويستهجنه أي يستقبحه. أن نسبوا ما في الأنساب من القبح بزعمهم إلى ربّهم، مثل أن يقولوا للرجل: أنت عجميّ ونحن عرب، فإنّ هذا ليس إلى الإنسان، بل هو إلى الله تعالى، فأيّ ذنب له فيه! «وجاحدوا الله»، أي كابروه وأنكروا صنعَه إليهم. وآساس بالمد: جمع أساس. واعتزاء الجاهلية: قولهم: يا لَفلان! فلا تكونوا لنعمة الله أضداداً؛ لأنّ البغيَ والكبْر يقتضيان زوالَ النعمة وتبدّلها بالنقمة. قوله: «ولا تطيعوا الأدعياء»، مراده هاهنا بالأدعياء الذين ينتحلون الإسلام ويبطنون النفاق. ثم وصفهم فقال: «الذين شربتم بصفوِكم كدَرَهم»، أي شربتم كدَرَهم مستبدلين ذلك بصفوكم. ويروى: «الذين ضربتم»، أي مزجتم. ويروى: « شَرَيْتُم»، أي بعتم واستبدلتم. والأحلاس: جمع حِلْس، وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له، فقيل لكل ملازم أمر: هو حِلْس ذلك الأمر. والتَّرجمان، بفتح التاء: هو الّذي يفسّر لساناً بلسان غيره، وقد تُضَمّ التاء. ويروى: « ونثّاً في أسماعكم » من نَثّ الحديث، أي أفشاه.

الأصْلُ:

فَلَوْ رَخَّصَ ٱللَّهُ فِي ٱلْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ؛ وَلٰكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ ٱلتَّكَابُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ ٱلتَّوَاضُعَ، فَأَلْصَقُوا بِٱلْأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا فِي ٱلتُّرَابِ وُجُوهَهُمْ، وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ، قَدِ ٱخْتَبَرَهُمُ ٱللَّهُ بِٱلْمَخْمَصَةِ، وَٱبْتَلَاهُمْ بِٱلْمَجْهَدَةِ، وَٱمْتَحَنَهُمْ بِٱلْمَخَاوِفِ، وَمَحَّصَهُمْ بِٱلْمَكَارِهِ.

فَلَا تَعْتَبِرُوا ٱلرِّضَىٰ وَٱلسُّخْطَ بِٱلمَالِ وَٱلْوَلَدِ جَهْلاً بِمَوَاقِعِ ٱلْفِتْنَةِ، وَٱلِاخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ ٱلْغِنَىٰ وَٱلِاقْتَارِ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ

مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[١].

الشّرْحُ :

التكابر : التعاظُم، والغرض مقابلة لفظة «التواضع» لتكون الألفاظ مزدوجةً. وعفّر وجهَه : ألصقه بالعَفَر. وخَفَضُوا أجنحتهم : ألانُوا جانبَهم. والمخمصَة : الجوع. والمجهدة : المشقّة، وأمير المؤمنينﷺ كثير الاستعمال لمفعل ومَفْعَلة بمعنى المصدر، إذا تصفّحت كلامه عرفت ذلك. ومحّصهم، أي طهّرهم، وروي «مخضهم» بالخاء والضاد المعجمة، أي حرّكهم وزلزلهم. ثم نهى أن يعتبر رضا الله وسخطه بما نراه من إعطائه الإنسان مالاً وولداً؛ فإن ذلك جهل بمواقع الفتنة والاختبار.

وقوله تعالى : ﴿أيحسبون...﴾، الآية دليل على ما قالهﷺ، والأدلة العقلية أيضاً دلّت على أنّ كثيراً من الآلام والغموم والبلوى إنما يفعله الله تعالى للألطاف والمصالح. وما الموصولة في الآية يعود إليها محذوف ومقدّر لابدّ منه؛ وإلّا كان الكلام غير منتظم، وغير مرتبط بعضه ببعض، وتقديره : نسارع لهم به في الخيرات.

الأَصْلُ :

فَإِنَّ ٱللّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ؛ بِأَوْلِيَائِهِ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ؛ وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَىٰ بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ ـ صلىٰ الله عَلَيْهِمَا ـ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ، وَبِأَيْدِيهِمَا ٱلْعِصِيُّ، فَشَرَطَا لَهُ ـ إِنْ أَسْلَمَ ـ بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَدَوَامَ عِزِّهِ؛ فَقَالَ : «أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هٰذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ ٱلْعِزِّ، وَبَقَاءَ ٱلْمُلْكِ؛ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ ٱلْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ»؟! إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَٱحْتِقَاراً لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ!

وَلَوْ أَرَادَ ٱللّهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ ٱلذِّهْبَانِ، وَمَعَادِنَ ٱلْعِقْيَانِ، وَمَغَارِسَ ٱلْجِنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ، وَوُحُوشَ ٱلْأَرَضِينَ

١. سورة المؤمنون ٥٥، ٥٦.

لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ ٱلْبَلَاءُ، وَبَطَلَ ٱلْجَزَاءُ، وَٱضْمَحَلَّتِ ٱلْأَنْبَاءُ، وَلَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ ٱلْمُبْتَلَينَ، وَلَا ٱسْتَحَقَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ ٱلْمُحْسِنِينَ، وَلَا لَزِمَتِ ٱلْأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا؛ وَلٰكِنَّ ٱللّٰهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ، وَضَعَفَةً فِيمَا تَرَىٰ ٱلْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلَأُ ٱلْقُلُوبَ وَٱلْعُيُونَ غِنىً، وَخَصَاصَةٍ تَمْلَأُ ٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَسْمَاعَ أَذىً.

الشّرْحُ:

مدارع الصوف: جمع مِدْرَعة، بكسر الميم، وهي كالكساء، وتدرّع الرجل وتمدْرع إذا لبسها. والعصيّ: جمع عصا. وتقول: هذا سِوار المرأة، والجمع أسورة، وجمع الجمع أساورة، وقرئ: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾[1]. وقد يكون جمع أساور، قال سبحانه: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾[2]، قال أبو عمرو بن العلاء: أساور هاهنا جمع إسوار وهو السِّوار. والذِّهْبان، بكسر الذال: جمع ذهب، كَخَرب لذكر الحُبارى وخِرْبان. والعِقْيان: الذهب أيضاً.

قوله ﷺ: «واضمحلّت الأنباء»، أي تلاشت وفنِيت. والأنْباء: جمع نَبأ، وهو الخبر، أي لسقط الوعد والوعيد وبطلا. قوله ﷺ: «ولا لزمت الأسماءَ معانيها»، أي مَنْ يسمّى مؤمناً أو مسلماً حينئذٍ، فإنّ تسمِيتَه مجاز لا حقيقة؛ لأنّه ليس بمؤمن إيماناً مِنْ فِعله وكَسْبه، بل يكون ملجأ إلى الإيمان بما يشاهده من الآيات العظيمة. والمبتَلِيْن، بفتح اللّام: جمع مبتليً، كالمعطَيْن والمرتَضَيْن، جمع معطيً ومرتضى. والخصاصة: الفقر.

الأصْلُ:

وَلَوْ كَانَتِ ٱلْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَا تُرَامُ، وَعِزَّةٍ لَا تُضَامُ، وَمُلْكٍ تُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ ٱلرِّحَالِ؛ لَكَانَ ذٰلِكَ أَهْوَنَ عَلَىٰ ٱلْخَلْقِ فِي ٱلِاعْتِبَارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ مِنَ

---

١. سورة الزخرف ٥٣.

٢. سورة الحج ٢٣.

ٱلاسْتِكْبَارِ، وَلآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ، أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ، فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَٱلْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً؛ وَلٰكِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ ٱلاتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ، وَٱلتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ، وَٱلْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ، وَٱلاِسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ، وَٱلاِسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ؛ أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً، لَا يَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ.

الشّرْحُ:

تمدّ نحوه أعناق الرجال، أي لعظمته؛ أي يؤمّله المؤمّلون ويرجوه الراجون، وكلّ مَنْ أمّل شيئاً فقد طَمح ببصره إليه معنىً لا صورة، فكنَى عن ذلك بمدّ العنق. وتُشدّ إليه عُقَد الرحال: يسافر أربابُ الرغبات إليه، يقول: لو كانَ الأنبياء ملوكاً ذوي بأس وقَهْر لم يمكن إيمان الخلق وانقيادهم إليهم؛ لأنّ الإيمان في نفسه واجب عقلاً، بل كان لرهبة لهم أو رغبة فيهم، فكانت النيّات مشتركة.

وكذلك تفسير قوله: «والحسنات مقتسمة»، قال: ولا يجوز أن تكون طاعة الله تعالى تعلو إلّا لكونها طاعة له لا غير، ولا يجوز أن يشوبها ويخالطها من غيرها شائبة.

فإن قلت: ما معنى قوله: «لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم من الاستكبار»؟

قلت: أي لو كان الأنبياء كالملوك في السَّطْوة والبطش؛ لكان المكلّف لا يشقّ عليه الاعتبار والانزجار عن القبائح مشقّته عليه إذا تركه لقبحه لا لخوف السيف، وكان بُعدُ المكلفين عن الاستكبار والبغي لخوف السّيف والتأديب أعظمَ من بعدهم عنها إذا تركوهما لوجه قبحهما، فكان يكون ثواب المكلّف؛ إمّا ساقطاً، وإمّا ناقصاً.

الأصْلُ:

وَكُلَّمَا كَانَتِ ٱلْبَلْوَىٰ وٱلاخْتِبَارُ أَعْظَمَ، كَانَتِ ٱلْمَثُوبَةُ وَٱلْجَزَاءُ أَجْزَلَ؛ أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ ٱللّٰهَ سُبْحَانَهُ ٱخْتَبَرَ ٱلْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ -صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِ- إِلَىٰ ٱلآخِرِينَ مِنْ هٰذَا ٱلْعَالَمِ؛ بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ ٱلْحَرَامَ ٱلَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً، ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ ٱلْأَرْضِ حَجَراً، وَأَقَلِّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَراً،

وَأَضْيَقِ بُطُونِ ٱلْأَوْدِيَةِ قُطْراً؛ بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةٍ، وَرِمَالٍ دَمِثَةٍ، وَعُيُونٍ وَشِلَةٍ، وَقُرىً مُنْقَطِعَةٍ؛ لا يَزْكُو بِهَا خُفٌّ، وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظِلْفٌ. ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ؛ فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةً لِمُلْقَىٰ رِحَالِهِمْ، تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ ٱلْأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ، وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ، وَجَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ، حَتَّىٰ يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلاً يُهَلِّلُونَ لِلّٰهِ حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُونَ عَلَىٰ أَقْدَامِهِمْ، شُعْثاً غُبْراً لَهُ، قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ ٱلشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمُ، ٱبْتِلَاءً عَظِيماً، وَٱمْتِحَاناً شَدِيداً، وَٱخْتِبَاراً مُبِيناً، وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً. جَعَلَهُ ٱللّٰهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَوُصْلَةً إِلَىٰ جَنَّتِهِ.

وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ ٱلْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ ٱلْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ ٱلْأَشْجَارِ، دَانِيَ الثِّمارِ، مُلْتَفَّ ٱلْبُنَىٰ، مُتَّصِلَ ٱلْقُرَىٰ، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، وَزُرُوعٍ نَاضِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ ٱلْجَزَاءِ عَلَىٰ حَسَبِ ضَعْفِ ٱلْبَلَاءِ.

وَلَوْ كَانَ ٱلإِسَاسُ ٱلْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَٱلْأَحْجَارُ ٱلْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءٍ، لَخَفَّفَ ذٰلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ ٱلْقُلُوبِ، وَلَنَفَىٰ مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ ٱلنَّاسِ.

وَلٰكِنَّ ٱللّٰهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ ٱلْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ ٱلْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذٰلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَىٰ فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلُلاً لِعَفْوِهِ.

الشّرْحُ:

كانت المثوبة، أي الثواب. وأجزل: أكثر. والجزيل: العظيم، وعطاء جَزْل وجَزِيل، والجمع جزال، وقد أجزلت له من العطاء، أي أكثرت. وجعله للناس قياماً، أي عماداً، وفلان قيام

أهله، أي يقيم شؤونهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾[1]. وأوعرُ بقاع الأرض حجراً، أي أصعبها، ومكانٌ وعْر، بالتسكين: صعب المسلك أو المقام. وأقلّ نتائق الدُّنيا مدَاراً؛ أصل هذه اللفظة من قولهم: «امرأة مِنْتاق»، أي كثيرة الحَبل والوِلادة، ويقال: ضيْعة مِنْتاق أي كثيرة الرّيع، فجعلﷺ الضّياع ذوات المدَر التي تثار للحرْث نتائق، وقال: إنّ مكّة أقلها صلاحاً للزرع؛ لأنّ أرضها حجرية. والقُطْر: الجانب. ورمالٌ دمِثة: سهلة، وكلّما كان الرَّمْل أسهَل؛ كان أبعد عن أن ينبت. وعيون وشِلة، أي قليلة الماء، والوَشَل، بفتح الشين: الماء القليل، ويقال: وشَل الماء وَشَلاناً، أي قطر.

قوله: «لا يزكُو بها خُفّ»، أي لا تزيد الإبل فيها أي لا تسمن، والخُفّ هاهنا هو الإبل، والحافر: الخيل والحمير، والظِّلْف: الشاة، أي ليس حولها مرعىً يرعاه الغنم فتسمَن. وأن يَثْنوا أعطافهم نحوه، أي يقصِدُوه ويحجّوه، وعِطْفا الرَّجل: جانباه. وصار مثابة، أي يُثاب إليه ويُرْجَع نحوه مرّة بعد أُخرىٰ، وهذه من ألفاظ الكتاب العزيز[2]. قولهﷺ: «لمنتجَع أسفارِهم»، أي لنُجْعتها، والنُجعَة، طلب الكلأ في الأصل، ثم سمي كلّ مَنْ قصد أمراً يروم النفع منه منتجِعاً. «وغاية لمُلقى رحالهم»، أي صار البيت هو الغاية التي هي الغرض والمقصد، وعنده تلقى الرِّحال، أي تحطّ رحال الإبل عن ظهورها، ويبطل السفر؛ لأنهم قد انتهوا إلى الغاية المقصودة.

قوله: «تَهْوِي إليه ثمار الأفئدة»، ثمرة الفؤاد: هو سويداء القلْب، ومنه قولهم للولد: هو ثمرة الفؤاد، ومعنى «تهوِي إليه»، أي تتشوّقه وتحنّ نحوه. والمفاوز: هي جمع مَفَازة، الفلاة سُمِّيَتْ مَفَازة، إمَّا لأنها مهلَكة، من قولهم: فَوّز الرَّجُل، أي هلك، وإمّا تفاؤلاً بالسلامة والفوز، والرّواية المشهورة. «من مفاوزِ قفار» بالإضافة. وقد روى قوم: «من مفاوزَ» بفتح الزاء؛ لأنّه لا ينصرف، ولم يضيفوا، جعلوا «قفار» صفة. والسحيقة: البعيدة. والمهاوِي: المساقط. والفِجاج: جمع فَجّ، وهو الطريق بين الجَبَلين.

قولهﷺ: «حتّى يهزّوا مناكبهم»، أي يحرّكهم الشوق نحوه إلى أن يسافروا إليه، فكنَى عن السَّفر بهزّ المناكب. وذُللاً، حال إمّا منهم وإمّا من المناكب، وواحد المناكب، منكِب بكسر الكاف، وهو مجمع عظم العَضُد والكتف. و «يهلّلون»، يقولون: لا إله إلّا الله، وروي:

---

١. سورة النساء ٥.

٢. وهو قوله تعالى في سورة البقرة آية ١٢٥: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً ...﴾.

«يُهِلُّون لله»، أي يرفعون أصواتهم بالتلبية ونحوها. ويرمُلون، الرَّمَل: السعي فوق المشي قليلاً. شُعْثا غُبْراً؛ لا يتعهدون شعورهم ولا ثيابهم ولا أبدانهم، قد نبذوا السرابيل، ورموا ثيابهم وقمصانهم المخيطة. وشوّهوا بإعفاء الشعور، أي غيّروا وقبحوا محاسن صورهم، بأنْ أعفَوْا شعورهم فلم يَحلِقوا ما فضل منها وسقط على الوجه ونبت في غيره من الأعضاء التي جرت العادة بإزالتها عنها. والتمحيص: التَّطْهير، من محّصت الذهب بالنار إذا صفّيتَه مما يشوبه، والتمحيص أيضاً: الامتحان والاختبار. والمشاعر: معالم النُّسُك.

قوله: «وسهل وقرار»، أي في مكان سهل يستقرّ فيه الناس ولا ينالهم من المقام به مشقّة. وجمّ الأشجار: كثيرها. وداني الثمار: قريبها. وملتفّ البنَى: مشتبك العمارة. والبُرَّة: الواحدة من البُرّ، وهو الحنطة. والأرياف. جمع ريف وهو الخِصْبِ والمرعى في الأصل، وهو هاهنا السّواد والمزارع. ومحدِقة: محيطة. ومغدِقة: غزيرة، والغَدَق: الماء الكثير. وناضرة: ذات نضارة وَروْنق وحُسْن.

قوله: «ولو كانت الإساس»، يقول: لو كانت إساس البيت الّتي حمل البيت عليها وأحجاره التي رفع بها من زمردة وياقوتة فالمحمول والمرفوع كلاهما مرفوعان؛ لأنهما صفة اسم كان والخبر «من زمردة»، وروي: «بين زمردة». وروي: «مضارعة الشّكّ» بالضاد المعجمة، ومعناه مقارنة الشك ودنوّه من النفس، وأصله من مضارعة القِدْر إذا حان إدراكها، ومن مضارعة الشمس إذا دنت للمغيب.

قوله ﷺ: «ولَنَفَى معتلج الرّيب»، أي اعتلاجه، أي ولنفى اضطراب الشك في القلوب. وروي «يستعبدهم» و «يتعبّدهم»، والثانية أحسن. والمجَاهد: جمع مَجْهدة، وهي المشقة. وأبواباً فُتُحاً، أي مفتوحة. وأسباباً ذُلُلاً، أي سهلة.

واعلم أنّ محصول هذا الفصل أنّه كلّما كانت العبادة أشقّ كان الثواب عليها أعظم، ولو أنّ الله تعالى جعل العبادات سهلة على المكلّفين لما استحقُّوا عليها من الثواب إلّا قدراً يسيراً، بحسب ما يكون فيها من المشقّة اليسيرة.

الأصْلُ:

فاللّٰهَ اللّٰهَ فِي عَاجِلِ ٱلْبَغْيِ، وَآجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْم، وَسُوءِ عَاقِبَةِ ٱلْكِبْرِ، فَإِنَّهَا مَصْيَدَةُ إِبْلِيسَ ٱلْعُظْمَىٰ، وَمَكِيدَتُهُ ٱلْكُبْرَىٰ، الَّتِي تُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوَرَةَ ٱلسُّمُومِ

ٱلْقَاتِلَةِ، فَمَا تُكْدِي أَبَداً، وَلَا تُشْوِي أَحَداً، لَا عَالِماً لِعِلْمِهِ، وَلَا مُقِلّاً فِي طِمْرِهِ.
وَعَنْ ذٰلِكَ مَا حَرَسَ ٱللّٰهُ عِبَادَهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَالزَّكَوَاتِ، وَمُجَاهَدَةِ الصِّيَامِ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْمَفْرُوضَاتِ، تسْكِيناً لِأَطْرَافِهِمْ، وَتَخْشِيعاً لِأَبْصَارِهِمْ، وَتَذْلِيلاً لِنُفُوسِهِمْ، وَتَخْفِيضاً لِقُلُوبِهِمْ، وَإِذْهَاباً لِلْخُيَلَاءِ عَنْهُمْ، وَلِمَا فِي ذٰلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ عِتَاقِ ٱلْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ تَوَاضُعاً، وَٱلْتِصَاقِ كَرَائِمِ ٱلْجَوَارِحِ بِالْأَرْضِ تَصَاغُراً، وَلُحُوقِ ٱلْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلاً؛ مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ ٱلْأَرْضِ، وَغَيْرِ ذٰلِكَ إِلَىٰ أَهْلِ ٱلْمَسْكَنَةِ وَٱلْفَقْرِ.
ٱنْظُرُوا إِلَىٰ مَا فِي هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ مِنْ قَمْعِ نَوَاجِمِ ٱلْفَخْرِ، وَقَدْعِ طَوَالِعِ ٱلْكِبْرِ!

الشّرْحُ:

بلدة وخِمة ووخيمة: بيّنة الوخامة، أي وبيئة. مصْيَدَة إبليس، بسكون الصاد وفتح الياء: آلته الّتي يصطاد بها. وتُساور قلوب الرجال: تواثُبها، وسار إليه يَسُور، أي وثب، والمصدَر السَّوْر، ومصدر «تَساور» المساورة، ويقال: إنّ لغضبه سَوْرة، وهو سَوّار، أيْ وثّاب معربد، وسَوْرة الشراب: وثوبه في الرأس، وكذلك مساورة السموم التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام.
وما تكدِي: ما تردّ عن تأْثيرها، من قولك: أكدى حافر الفرس، إذا بلغ الكُدْية وهي الأرض الصُّلْبة، فلا يمكنه أنْ يحفر. ولا تُشوِي أحداً: لا تخطئ المَقْتل وتصيب غيره؛ وهو الشَّوَى، والشوى: الأطراف، كاليد والرجل. قال: لا تردّ مكيدته عن أحد لا عن عالم لأجل علمه، ولا عن فقير لطمره، والطِّمْر: الثوب الخَلَق.

و «ما» في قوله: «وعن ذلك ما حرس الله» زائدة مؤكدة، أي عن هذا المكايد الّتي هي البغْي والظّلم والكِبر حَرَس الله عباده، فـ«عن» متعلقة بـ« حرس».

ثم بيّن عليه السلام الحكمة في العبادات، فقال: إنه تعالى حَرَس عباده بالصلوات التي افترضها عليهم من تلك المكايد، وكذلك بالزكاة والصَّوم ليسكِّن أطرافهم، ويخشّع أبصارهم، فجعل التسكين والتخشيع عذراً وعلّة للحراسة، ونصب اللفظات على أنّها مفعول له. ثم علل السكُون والخشوع الذي هو علّة الحراسة لما في الصلاة من تعفير الوجه على التراب، فصار ذلك علّة العلة. قال: وذلك لأنّ تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً يوجب هَضْم النفس

وكسرها وتذليلها. وعتاق الوجوه: كرائمها. وإلصاق كرائم الجوارح بالأرض كاليدين والساقين تصاغراً يوجب الخشوع والاستسلام، والجوع في الصوم الذي يلحق البطن في المتن يقتضي زوال الأَشَر والبطَر، ويوجب مذلّة النفس وقمْعها عن الانهماك في الشهوات، وما في الزكاة من صَرْف فواضل المكاسب إلى أهل الفقر والمسكنة يوجبُ تطهيرَ النّفوس والأموال ومواساة أرباب الحاجات بما تسمحُ به النفوس من الأموال، وعاصم لهم من السرقات وارتكاب المنكرات، ففي ذلك كلّه دفع مكايد الشيطان.

وتخفيض القلوب: حطها عن الاعتلاء والتّيه. والخُيَلاء: التكبّر. والمسكنة: أشدّ الفقر في أظهر الرّأيين. والقَمْع: القهر. والنَّوَاجم: جمع ناجمة، وهي ما يظهر ويطلع من الكبر وغيره. والقَدْع، بالدال المهملة: الكفّ، قدعت الفرس وكبحته باللجام، أي كففته. والطوالع، كالنواجم.

الأَصْلُ:

وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ ٱلْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِلَّا عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ ٱلْجُهَلَاءِ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيطُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ. أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَىٰ آدَمَ لِأَصْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ. وَأَمَّا ٱلْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ ٱلْأُمَمِ، فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ، فَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ.

فَإِنْ كَانَ لَابُدَّ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ ٱلْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ ٱلْأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ ٱلْأُمُورِ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا ٱلْمُجَدَاءُ وَالنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ ٱلْعَرَبِ وَيَعَاسِيبِ ٱلْقَبَائِلِ؛ بِالْأَخْلَاقِ ٱلرَّغِيبَةِ، وَٱلْأَحْلَامِ ٱلْعَظِيمَةِ، وَٱلْأَخْطَارِ ٱلْجَلِيلَةِ، وَٱلْآثَارِ ٱلْمَحْمُودَةِ.

فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ ٱلْحَمْدِ: مِنَ ٱلْحِفْظِ لِلْجِوَارِ، وَٱلْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، وَٱلْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ، وَٱلْأَخْذِ بِالْفَضْلِ، وَٱلْكَفِّ عَنِ ٱلْبَغْيِ، وَٱلْإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ، وَٱلْإِنْصَافِ لِلْخَلْقِ، وَٱلْكَظْمِ لِلْغَيْظِ، وَٱجْتِنَابِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ.

الشّرْحُ :

قد روي : « تحتمل » بالتاء ، وروي «تحمل»، والمعنى واحد . والتمويه : التلبيس من مَوَّهت النّحَاس ، إذا طليتَه بالذهب ليخفى . ولاط الشيء بقلبي يلوط ويليط ، أي التصق . والمترَف : الذي أطغته النعمة . وتفاضلت فيها : أي تزايدت . والمُجداء : جمع ماجد ، والمجْد الشرف في الآباء ، والحسب والكرم يكونان في الرَّجل وإن لم يكونا في آبائه . والنُّجداء : الشجعان ، واحدهم نَجيد ، وأمّا نَجِد ونَجُد ، بالكسر والضم ، فجمعه أنجاد ، مثل يَقِظ وأيقاظ . وبيوتات العرب : قبائلها . ويعاسيب القبائل : رؤساؤها ، واليَعسوب في الأصل : ذكَرَ النحل وأميرها . والرغيبة: الخَصْلة يُرغَب فيها. والأحلام: العقول. والأخطار: الأقدار. ثم أمرهم بأن يتعصّبُوا لخلال الحمد وعددها ، وينبغي أن يحمل قوله ﷺ : «فإنكم تتعصّبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علّة»، على أنّه لا يعرف له سبب مُناسب ، فكيف يمكن أن يتعصّبوا لغير سبب أصلاً!

وقيل : إنّ أصل هذه العصبية ؛ وهذه الخطبة ؛ أنّ أهلَ الكوفة كانوا قد فسدُوا في آخر خلافة أمير المؤمنين ، وكانوا قبائلَ في الكوفة ، فكان الرَّجل يخرج من منازل قبيلته فيمرّ بمنازل قبيلة أُخرىٰ ، فينادِي باسم قبيلته : يا للنَّخَع ! مثلاً ، أو يا لَكِندة ! نداءً عالياً يقصد به الفتنة وإثارة الشرّ ، فيتألَّب عليه فتْيان القبيلة التي مر بها فينادون : يا لَتميم ! ويا لَربيعة ! ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه ، فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها ، فتُسلّ السيوف وتثور الفِتَن ، ولا يكون لها أصل في الحقيقة إلّا تعرُّض الفِتْيان بعضهم ببعض .

الأصْلُ :

وَٱحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ ٱلْمَثُلَاتِ بِسُوءِ ٱلْأَفْعَالِ ، وَذَمِيمِ ٱلْأَعْمَالِ فَتَذَكَّرُوا فِي ٱلْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ ؛ فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ ٱلْعِزَّةُ بِهِ حَالَهُم ، وَزَاحَتِ ٱلْأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ ، وَمُدَّتِ ٱلْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَٱنْقَادَتِ ٱلنِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ ، وَوَصَلَتِ ٱلْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ ؛ مِنَ ٱلاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ ، وَاللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ ، وَالتَّحَاضِّ عَلَيْهَا ، وَالتَّوَاصِي بِهَا .

وَٱجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ ، وَأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ ؛ مِنْ تَضَاغُنِ ٱلْقُلُوبِ ، وَتَشَاحُنِ

الصُّدُورِ، وتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ ٱلْأَيْدِي.

الشَّرْحُ:

المثُلات: العُقوبات. وذميم الأفعال: ما يذمّ منها. وتفاوت حاليْهم: اختلافهما. وزاحت الأعداء: بعدت. وله، أي لأجله. والتحاضّ عليها: تفاعل يستدعي وقوعَ الحضّ، وهو الحثّ من الجهتين، أي يحثّ بعضهم بعضاً. والفِقْرة: واحدة فِقَر الظّهر، ويقال لمن قد أصابته مصيبة شديدة: قد كُسِرت فِقرته. والمُنّة: القوّة. وتضاغُن القلوب وتشاحنها واحد. وتخاذل لأيدي: ألّا ينصُر النّاس بعضهم بعضاً.

الأصْلُ:

وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ ٱلْمَاضِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ؛ كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ وَٱلْبَلَاءِ؛ أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ ٱلْخَلَائِقِ أَعْبَاءً، وَأَجْهَدَ ٱلْعِبَادِ بَلَاءً، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالاً؟ ٱتَّخَذَتْهُمُ ٱلفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ، وَجَرَّعُوهُمُ ٱلْمُرَارَ، فَلَمْ تَبْرَحِ ٱلْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ ٱلْهَلَكَةِ وَقَهْرِ ٱلْغَلَبَةِ، لَا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي ٱمْتِنَاعٍ، وَلَا سَبِيلاً إِلَىٰ دِفَاعٍ، حَتَّىٰ إِذَا رَأَىٰ ٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَىٰ ٱلْأَذَىٰ فِي مَحَبَّتِهِ، وَٱلِاحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ ٱلْبَلَاءِ فَرَجاً، فَأَبْدَلَهُمُ ٱلْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَٱلْأَمْنَ مَكَانَ ٱلْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً، وأَئِمَّةً أَعْلَاماً، وَقَدْ بَلَغَتِ ٱلْكَرَامَةُ مِنَ ٱللّٰهِ لَهُمْ؛ مَا لَمْ تَذْهَبِ ٱلْآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ.

الشَّرْحُ:

تدبّروا، أي تأمّلوا. والتّمحيص: التطهير والتصفية. والأعباء: الأثقال: واحدها عبْء. وأجهد العباد: أتعبهم. والفراعنة: العُتاة، وكلّ عاتٍ فرعون. وساموهم سوء العذاب: ألزموهم إيّاه، وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ**

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[1].

والمُرار: بضمّ الميم: شجر مُرٌّ في الأصل، واستعير شرب المُرار لكلّ مَنْ يلقَى شديد المشقّة. ورأى الله منهم جدّ الصبر، أي أشدّه. وأئمة أعلاماً، أي يُهتدَى بهم، كالعَلم في الفَلَاة.

الأَصْلُ:

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ ٱلْأَمْلَاءُ مُجْتَمِعَةً، وَٱلْأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً، وَٱلْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَٱلْأَيْدِي مُتَرَادِفَةً، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، وَٱلْبَصَائِرُ نَافِذَةً، وَٱلْعَزَائِمُ وَاحِدَةً. أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِي أَقْطَارِ ٱلْأَرَضِينَ، وَمُلُوكاً عَلَىٰ رِقَابِ ٱلْعَالَمِينَ!

فَانْظُرُوا إِلَىٰ مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ ٱلْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتَتِ ٱلْأُلْفَةُ، وَٱخْتَلَفَتِ ٱلْكَلِمَةُ وَٱلْأَفْئِدَةُ؛ وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنْكُمْ.

الشَّرْحُ:

الأملاء: الجماعات، الواحد ملأ. ومترادفة: متعاونة. البصائر نافذة، يقال: نفذت بصيرتي في هذا الخَبر، أي اجتمع همّي عليه، ولم يبق عندي تردّد فيه، لعلمي به وتحقيقي إياه. وأقطار الأرَضين: نواحيها، وتشتّتت: تفرّقت. وتشعّبوا: صاروا شُعوباً وقبائل مختلفين. وتفرّقوا متحزّبين: اختلفوا أحزابا، وروي: «متحازبين». وغضارة النّعمة: الطيّب اللّيّن منها. والقَصَصُ: الحديث.

يقول: انظروا في أخبار مَنْ قبلكم من الأُمم، كيف كانت حالهم في العزّ والمُلْك لمّا كانت كلمتُهم واحدة، وإلى ماذا آلتْ حالهم حين اختلفت كلمتُهم! فاحذروا أن تكونوا مثلَهم، وأن يحلّ بكم إن اختلفتم مثل ما حلّ بهم.

---

١. سورة البقرة ٤٩.

الأَصْلُ :

فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ؛ فَمَا أَشَدَّ ٱعْتِدَالَ ٱلْأَحْوَالِ، وَأَقْرَبَ ٱشْتِبَاهَ ٱلْأَمْثَالِ!
تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ، وَتَفَرُّقِهِمْ، لَيَالِيَ كَانَتِ ٱلْأَكَاسِرَةُ وَٱلْقَيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ، يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ ٱلْآفَاقِ، وَبَحْرِ ٱلْعِرَاقِ، وَخُضْرَةِ ٱلدُّنْيَا، إِلَىٰ مَنَابِتِ ٱلشِّيحِ، وَمَهَافِي ٱلرِّيحِ، وَنَكَدِ ٱلْمَعَاشِ، فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ، إِخْوَانَ دَبَرٍ وَوَبَرٍ. أَذَلَّ ٱلْأُمَمِ دَاراً، وَأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً، لَا يَأْوُونَ إِلَىٰ جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا، وَلَا إِلَىٰ ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ عِزِّهَا ؛ فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَٱلْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَٱلْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ، فِي بَلَاءِ أَزْلٍ، وَأَطْبَاقِ جَهْلٍ، مِنْ بَنَاتٍ مَوْءُودَةٍ، وَأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ، وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ، وَغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ.

الشَّرْحُ :

قوله ﷺ : «فما أشدّ اعتدال الأحوال !»، أي ما أشبه الأشياء بعضها ببعض ! وإنّ حالكم لشبيهة بحال أولئك فاعتبروا بهم. قوله : «يحتازونهم عن الريف» يبعدونهم عنه، والريف : الأرض ذات الخِصْب والزّرع، والجمع أرياف ؛ ورافت الماشية أي رعت الرِّيف، وقد أرفنا أيْ صرنا إلى الريف، وأرافت الأرض أي أخصبت، وهي أرض ريِّفة، بتشديد الياء.

وبحر العِراق : دجلة والفرات، أمّا الأكاسرة فطردُوهم عن بَحْر العراق، وأمّا القياصرة فطردُوهم عن ريف الآفاق، أي عن الشام وما فيه من المرعىٰ والمنتجَع.

قوله ﷺ : «أرباباً لهم»، أي ملوكاً، وكانت العرب تسمِّي الأكاسرة أرباباً، ولمّا عظم أمر حُذَيفة بن بدر عندهم سمّوه ربَّ مَعَدّ.

ومنابت الشِّيح : أرض العرب، والشِّيحُ : نَبْت معروف. ومَهافِي الريح : المواضع التي تهفو فيها، أي تهِبّ وهي الفيافي والصحاري. ونكَد المعاش : ضيقه وقلّته. وتركوهم عالَةً، أي فقراء، جمع عائل، والعائل ذو العَيْلة والعَيْلة : الفقر، قال تعالى : **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾**[1]، نظيره قائد وقادة، وسائس وساسة.

---

١. سورة التوبة ٢٨.

وقوله: «إِخْوانَ دَبَر ووَبَر»، الدّبر مصدر دَبِر البعيرُ، أي عقره القَتَب. والوبَر للبعير بمنزلة الصوف للضأن والشعر للمعز. قوله: «أذلّ الأمم دارا»؛ لعدَم المعاقل والحصون المنيعة فيها. وأجدبهم قراراً، لعدم الزَّرع والشجر والنخل بها. والجدْب: المحْل. ولا يأوون: لا يلتجئون ولا ينضمّون. والأزْل: الضِّيق. وأطباق جهل: جمع طَبَق، أي جَهْل متراكم بعضُه فوق بعض، وغارات مشنونة: مفرّقة، وهي أصعب الغارات.

الأصْلُ:

فَانْظُرُوا إِلَىٰ مَوَاقِعِ نِعَمِ ٱللّٰهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَىٰ دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ؛ كَيْفَ نَشَرَتِ ٱلنِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا. وَٱلْتَفَّتِ ٱلْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ، وَفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَاكِهِينَ؛ قَدْ تَرَبَّعَتِ ٱلْأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ، وَآوَتْهُمُ ٱلْحَالُ إِلَىٰ كَنَفِ عِزٍّ غَالِبٍ، وَتَعَطَّفَتِ ٱلْأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَىٰ مُلْكٍ ثَابِتٍ؛ فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَىٰ ٱلْعَالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ ٱلْأَرَضِينَ، يَمْلِكُونَ ٱلْأُمُورَ عَلَىٰ مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، وَيُمْضُونَ ٱلْأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ، لَا تُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاةٌ، وَلَا تُقْرَعُ لَهُمْ صَفَاةٌ.

الشّرْحُ:

لمّا ذكر ما كانت العرب عليه من الذلّ والضَّيْم والجهل، عاد فذكر ما أبدل الله به حالهم، حين بعث إليهم محمداً ﷺ، فعقد عليهم طاعتهم كالشيء المنتشر المحلول، فعقدها بملّة محمد ﷺ.

والجداول: الأنهرُ. والتفّت الملة بهم، أي كانوا متفرّقين فالتفّت ملّة محمّد بهم، أي جمعتهم، ويقال: التفّ الحبل بالحَطَب، أي جمعه، والتفّ الحطب بالحبل، أي اجتمع به.

و «في» في قوله: «في عوائد بركتها» متعلّقة بمحذوف؛ وموضع الجار والمجرور نصب على الحال، أي جمعتهم الملة كائنةً في عوائد بركتها، والعوائد: جمع عائدة، وهي المنفعة.

تقول: هذا أعْوَدُ عليك، أي أنفع لك. وروي: «والتقت الملة» بالقاف، أي اجتمعت بهم، من اللقاء. والرواية الأُولىٰ أصحّ.

وأصبحوا في نعمتها غرِقين، مبالغة في وصف ما هم فيه من النعمة. وفاكهين: ناعمين. وروي «فكهين» أي أشِرين وقد قرئ بهما في قوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كانوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾[1]، وقال الأصمعيّ: فاكهين: مازحين، والمفاكهة: الممازحة، ومن أمثالهم: «لا تفاكِهْ أمَة، ولا تَبُلْ عَلَى أكمة»؛ فأما قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُون﴾[2]، فقيل: تندمون، وقيل: تعجبون.

و «عن» في قوله: «وعن خضرة عيشها»، متعلّقة بمحذوف، تقديره: فأصبَحوا فاكهين فكاهة صادرة عن خضرة عيشها، أي خضرة عيش النعمة سبب لصدور الفكاهة والمُـزاح عنه. وتربّعت الأُمور بهم، أي أقامت، من قولك. رَبَع بالمكان، أي أقام به. وآوتهم الحال؛ بالمدّ أي ضمتهم وأنزلتهم، قال تعالى: ﴿آوَىٰ إليه أخَاهُ﴾[3]، أي ضمّه إليه وأنزله، ويجوز «أوتهم» بغير مدّ. أفعلت في هذا المعنى وفعلت واحد؛ عن أبي زيد. والكنَف: الجـانب. وتعطّفت الأُمور عليهم: كناية عن السيادة والإقبال، يقال: قد تعطّف الدّهر على فلان، أي أقبل حظُّه وسعادته، بعد أنْ لم يكن كذلك.

وفي ذُرَى مُلْكٍ: بضم الذال أي في أعاليه، جمع ذروة، ويكنى عن العزيز الذي لا يُضام، فيقال: لا يغمز له قناة، أي هو صلب. والقناة إذا لم تلِن في يد الغامز كانتْ أبعدَ عن الحطم والكَسْر. ولا تُقْرع لهم صفاة؛ مثَل يضرب لمن لا يطمع في جانبه لعزّته وقوّته.

الأصْلُ:

أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ ٱلطَّاعَةِ، وَثَلَمْتُمْ حِصْنَ ٱللّٰهِ ٱلْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ، بِأَحْكَامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّ ٱللّٰهَ سُبْحَانَهُ قَدْ ٱمْتَنَّ عَلَىٰ جَمَاعَةِ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ؛ فِيما عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هٰذِهِ ٱلْأُلْفَةِ ٱلَّتِي يَنْقَلِبُونَ فِي ظِلِّهَا، وَيَأْوُونَ إِلَىٰ كَنَفِهَا، بِنِعْمَةٍ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيمَةً، لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ.

---

١. سورة الدخان ٢٧.

٢. سورة الواقعة ٦٥.

٣. سورة يوسف ٦٩.

وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ ٱلْهِجْرَةِ أَعْرَاباً، وَبَعْدَ ٱلْمُوَالاةِ أَحْزَاباً، مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ ٱلْإِسْلَامِ إِلَّا بِاسْمِهِ، وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ ٱلْإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ، تَقُولُونَ: ٱلنَّارَ وَلَا ٱلْعَارَ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا ٱلْإِسْلَامَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ٱنْتِهَاكاً لِحَرِيمِهِ، وَنَقْضاً لِمِيثَاقِهِ ٱلَّذِي وَضَعَهُ ٱللّٰهُ لَكُمْ حَرَماً فِي أَرْضِهِ، وَأَمْناً بَيْنَ خَلْقِهِ.

وإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَىٰ غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ ٱلْكُفْرِ، ثُمَّ لَا جَبْرَائِيلُ وَلَا مِيكَائِيلُ وَلَا مُهَاجِرُونَ وَلَا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَكُمْ، إِلَّا ٱلْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللّٰهُ بَيْنَكُمْ.

وَإِنَّ عِنْدَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ ٱللّٰهِ وَقَوَارِعِهِ، وَأَيَّامِهِ وَوَقَائِعِهِ، فَلَا تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلاً بِأَخْذِهِ، وَتَهَاوُناً بِبَطْشِهِ، وَيَأْساً مِنْ بَأْسِهِ؛ فَإِنَّ ٱللّٰهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ ٱلْقَرْنَ ٱلْمَاضِيَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِتَرْكِهِمُ ٱلْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ، فَلَعَنَ ٱللّٰهُ ٱلسُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ ٱلْمَعَاصِي وَٱلْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ ٱلتَّنَاهِي!

الشّرْحُ:

نفضتم أيديكم: كلمة تقال في اطّراح الشيء وتركه، وهي أبلغ من أن تقول: تركتم حبلَ الطاعة؛ لأنّ مَنْ يخلي الشيء من يده ثم ينفض يده منه يكون أشدّ تخلية له ممّن لا ينفضها. بل، يقتصر على تخليته فقط؛ لأنّ نفضها إشعار وإيذان بشدّة الاطّراح والإعراض.

والباء في قوله. «بأحكام الجاهليّة» متعلقة بـ «ثلمتُم»، أي ثلمتم حصن الله بأحكام الجاهلية التي حكمتم بها في ملّة الإسلام.

والباء في قوله: «بنعمة لا يَعْرِف»، متعلقة بـ «امتنّ». و «في» من قوله « فيما عقد» متعلّقة بمحذوف، وموضعها نصب على الحال. وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾[1]. وقوله: ﴿**فأَصْبَحْتُمْ بِنِعمَتِهِ إِخْوَاناً**﴾[2]. وروي: «تتقلّبون في ظلها».

---

١. سورة الأنفال ٦٣.

٢. سورة آل عمران ١٠٣.

قوله: «صرتم بعد الهجرة أعراباً»؛ الأعراب على عهد رسول الله ﷺ مَنْ آمن به من أهل البادية، ولم يهاجر إليه، وهم ناقصوا المرتبة عن المهاجرين لجفائهم وقسوتهم وتوحّشهم، ونشئهم في بُعْدٍ من مخالطة العلماء، وسماع كلام الرسول ﷺ، وفيهم أُنزل: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ**﴾[1].

وروي: «ولا يعقلون من الإيمان». وقولهم: «النارَ ولا العارَ»، منصوبتان بإضمار فعل، أي ادخلوا النار ولا تلتزموا العار، وهي كلمة جارية مجرى المثل أيضاً، يقولها أرباب الحميّة والإباء، فإذا قيلت في حقٍّ كانت صواباً، وإذا قيلت في باطل كانت خطأً.

وأكفأت الإناء وكفأته: لغتان، أي كببتُه. قوله: «ثم لا جبرائيلَ ولا ميكائيلَ ولا مهاجرين»، الرواية المشهورة هكذا بالنصب، وهو جائز على التشبيه بالنّكرة، كقولهم: معضلة ولا أبا حسن لها. وقد روي بالرفع في الجميع. والمقارعة منصوبة على المصدر، وقد روي: «إلّا المقارعةُ» بالرفع، تقديره: ولا نصير لكم بوجه من الوجوه إلّا المقارعة.

والأمثال التي أشار إليها أمير المؤمنين ﷺ هي ما تضمّنه القرآن من أيام الله ونقماته على أعدائه، وقال تعالى: ﴿**وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ**﴾[2]. والتناهي: مصدر تناهي القوم عن كذا، أي نهى بعضهم بعضاً، يقول: لعن الله الماضين من قبلكم؛ لأنّ سُفَهاءهم ارتكبُوا المعصية، وحلماءهم لم ينهوهم عنها، وهذا من قوله تعالى: ﴿**كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾[3].

الأصْلُ:

أَلَا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ ٱلْإِسْلَامِ، وَعَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ، وَأَمَتُّمْ أَحْكَامَهُ.

أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِي ٱللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ ٱلْبَغْيِ وَٱلنَّكْثِ وَٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ، وَأَمَّا ٱلْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ، وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ فَقَدْ كُفِيتُهُ بِصَعْقَةٍ سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِهِ، وَرَجَّةُ صَدْرِهِ، وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ

---

١. سورة التوبة ٩٧.

٢. سورة إبراهيم ٤٥.

٣. سورة المائدة ٧٩.

ٱلْبَغْيِ؛ وَلَئِنْ أَذِنَ ٱللّهُ فِي ٱلْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ، لَأُدِيلَنَّ مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَذَّرُ فِي أَطْرَافِ ٱلْبِلَادِ تَشَذُّراً.

الشَّرْحُ:

قد ثبت عن النبيّ ﷺ أنه قال له ﷺ: «ستقاتلُ بعدِي النَّاكِثين والقاسطين والمارقين»، فكان النّاكثون أصحابَ الجمل، لأنّهم نكثوا بيعته ﷺ، وكان القاسطون أهلَ الشام بصفّين، وكان المارقون الخوارج في النَّهروان، وفي الفرق الثلاث قال الله تعالى: ﴿**فَمَنْ نَكَثَ فإنَّما يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ**﴾[1]، وقال: ﴿**وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكانُوا لجَهنَّمَ حَطَباً**﴾[2]، وقال النبي ﷺ: «يخرج من ضِئْضِئِ هذا قوم يمرُقون من الدين كما يمرق السَّهْم من الرميّة، ينظر أحدكم في النَّصل فلا يجد شيئاً، فينظر في الفُوق[3]، فلا يجد شيئاً، سبق الفرث والدم». وهذا الخبر من أعلام نبوّته ﷺ ومن أخباره المفصلة بالغيوب.

وأمّا شيطانُ الرَّدْهة، فقد قال قوم: إنّه ذُو الثُّدَيَّة صاحب النَّهروان، ورووْا في ذلك خبراً عن النبيّ ﷺ، وممّن ذكر ذلك واختاره الجوْهريّ صاحب «الصحاح»[4] وهؤلاء يقولون: إن ذا الثُّدَيَّة لم يقتَلْ بسيف، ولكنّ الله رماه يوم النّهروان بصاعِقة، وإليها أشار ﷺ بقوله: «فقد كُفِيته بصَعْقة سمُعت لها وَجْبَة قلبه»، والرَّدْهة: شبه نُقْرة في الجَبَل يجتمع فيها الماء، وهذا مثل قوله ﷺ: «هذا أزبّ العقبة»، أيْ شيطانُها، ولعلّ أزبّ العَقَبة هو شيطان الردْهة بعينه، فتارة يردُ بهذا اللّفظ، وتارة يردُ بذلك اللفظ.

قوله: «ويتشذّر في أطراف الأرض»، يتمزّق ويتبدّد، ومنه قولهم: ذهبوا شَذَرَ مَذَر. والبقيّة التي بقيَتْ من أهل البغي: مُعاوية وأصحابه؛ لأنّه ﷺ لم يكن أتى عليهم بأجمعهم، وإنما وقفت الحربُ بينه وبينهم بمكيدة التحكيم. «ولئن أذنَ الله في الكرَّة عليهم»، أي إن مُدّ لي في العمر لأديلنّ منهم، أي لتكونن الدَّوْلة لي عليهم، أدلت من فلان أي غلبته وقهرته، وصرت ذَا دولةٍ عليه.

---

١. سورة الفتح ١٠.

٢. سورة الجن ١٥.

٣. الفوق: مشق رأس السهم حيث يقع الوتر.

٤. الصحاح ٨: ٢٢٣٢.

الأَصْلُ:

أَنَا وَضَعْتُ بِكَلَاكِلِ ٱلْعَرَبِ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ ٱللّٰهِ ﷺ بِالْقَرَابَةِ ٱلْقَرِيبَةِ، وَٱلْمَنْزِلَةِ ٱلْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وليدٌ يَضُمُّنِي إِلَىٰ صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ؛ وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ.

وَلَقَدْ قَرَنَ ٱللّٰهُ بِهِ ﷺ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ ٱلْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ ٱلْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ.

وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ ٱتِّبَاعَ ٱلْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ ٱللّٰهِ ﷺ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا. أَرَىٰ نُورَ ٱلْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ ٱلْوَحْيُ عَلَيْهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ ٱللّٰهِ، مَا هٰذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: هٰذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ. إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَىٰ مَا أَرَىٰ، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلٰكِنَّكَ لَوَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَيْرٍ.

الشَّرْحُ:

الباء في قوله: «بكلا كل العرب» زائدة. والكلا كل: الصُّدور، الواحد كَلْكل، والمعنى أنّي أذللتهم وصرعتهم إلى الأرض. ونواجم قرون ربيعة ومضر: مَنْ نجم منهم وظهر، وعلا قدرُه، وطار صيته.

فإن قلت: أمّا قهره لِمُضرَ فمعلوم، فما حال ربيعة، ولم نعرف أنه قتل منهم أحدا؟

قلت: بَلى قد قتل بيده وبجيشه كثيراً من رؤسائهم في صِفّين والجمل، فقد تقدم ذكر أسمائهم من قبل، وهذه الخطبة خطب بها بعد انقضاء أمر النهروان.

والعَرْف بالفتح: الرّيح الطيّبة، ومضَغ الشيء يمضَغه بفتح الضاد. والخطْلة في الفعل: الخطأ فيه، وإيقاعه على غير وجهه. وحِراء: اسم جبل بمكّة معروف. والرّنّة: الصوت. والقرابة القريبة بينه وبين رسول الله ﷺ دون غيره من الأعمام، كونه ربّاه في حِجْره، ثم حامَى عنه ونصَره عند إظهار الدّعوة دونَ غيره من بني هاشم، ثمّ ما كان بينهما من المُصاهرة التي أفضتْ إلى النّسل الأطْهر دون غيره من الأصهار.

وأمّا حديثُ مجاورته عليه الصلاة والسلام بحِراء فمشهور، وقد ورد في الكتب الصحاح أنه كان يجاور في حِراء من كلّ سنة شهراً.

وأمّا حديث أنّ الإسلام لم يجتمع عليه بيت واحدٌ يومئذٍ إلّا النبيّ وهو ﷺ وخديجة، فخبر عفيف الكنديّ مشهور، وأنّ أبا طالب قال له: أتدرِي من هذا؟ قال: لا، قال: هذا ابنُ أخي محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب؛ وهذا ابني عليّ بن أبي طالب، وهذه المرأة خَلْفهما خديجة بنت خويلد؛ زوجة محمد ابن أخي، وايمُ الله ما أعلم على الأرض كلِّها أحداً على هذا الدّين غير هؤلاء الثلاثة.

وروي عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال: كان عليٌّ عليه السلام يَرَى مع رسول الله ﷺ قبلَ الرسالة الضَّوْء ويسمع الصوت، وقال له ﷺ: «لولا أني خاتم الأنبياء لكنتَ شريكاً في النبوّة، فإن لا تكن نبيّاً فإنّك وصيّ نبيّ ووارثه، بل أنت سيّد الأوصياء وإمامُ الأتقياء».

الأَصْلُ:

وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ ﷺ لَمَّا أَتاهُ ٱلمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدِ ٱدَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ، وَلَا أَحَدٌ مِن بَيْتِكَ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَاهُ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ.

فَقَالَ ﷺ: وَمَا تَسْأَلُونَ؟ قَالُوا: تَدْعُو لَنَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ؛ حَتَّىٰ تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا، وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ. فَقَالَ صَلَّىٰ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِنَّ ٱللّٰهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ فَإِنْ فَعَلَ ٱللّٰهُ لَكُمْ ذٰلِكَ، أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ! قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيئُونَ إِلَىٰ خَيْرٍ، وَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي ٱلْقَلِيبِ، وَمَنْ يُحزِّبُ

ٱلْأَحْزَابَ. ثُمَّ قَالَ ﷺ: يَا أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ، إِنْ كُنْتِ تُؤمِنِينَ بِـاللّٰهِ وَٱلْـيَوْمِ ٱلآخِـرِ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ ٱللّٰهِ، فَانْقَلِعِي بعُرُوقِكِ حَتَّىٰ تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ ٱللّٰهِ؛ وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَانْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا، وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ، وَقَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ ٱلطَّيْرِ؛ حَتَّىٰ وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ ٱللّٰهِ ﷺ، مُرَفْرِفَةً، وَأَلْقَتْ بِغُصْنِهَا ٱلأَعْلَىٰ عَلَىٰ رَسُولِ ٱللّٰهِ ﷺ، وَبِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَىٰ مَنْكِبِي، وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ ﷺ، فَلَمَّا نَـظَرَ ٱلْقَوْمُ إِلَىٰ ذٰلِكَ قَالُوا ـعُلُوّاً وَٱسْتِكْبَاراً ـ: فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِـصْفُهَا؛ وَيَـبْقَىٰ نِـصْفُهَا، فَأَمَرَهَا بِذٰلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيّاً، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ ٱللّٰهِ ﷺ، فَقَالُوا ـكُفْراً وَعُتُوّاً ـ: فَمُرْ هٰذَا النِّصْفَ فَـلْيَرْجِعْ إِلَـىٰ نِـصْفِهِ كَـمَا كَـانَ. فَأَمَرَهُ ﷺ فَرَجَعَ؛ فَقُلْتُ أَنَا: لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللّٰهُ؛ إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ ٱللّٰهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ ٱللّٰهِ تَـعَالَىٰ تَـصْدِيقاً بِـنُبُوَّتِكَ؛ وإِجْـلَالاً لِكَلِمَتِكَ. فَقَالَ ٱلْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السِّحْرِ خَـفِيفٌ فِـيهِ، وَهَـلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هٰذَا! يَعْنُونَنِي؛ وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لَا تَأْخُذُهُمْ فِي ٱللّٰهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، سِيمَاهُمْ سِيمَا الصِّدِّيقِينَ، وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ ٱلأَبْرَارِ؛ عُمَّارُ ٱللَّيْلِ، وَمَنَارُ ٱلنَّهَارِ، مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ ٱلْقُرْآنِ، يُحْيُونَ سُنَنَ ٱللّٰهِ وسُنَنَ رَسُولِهِ، لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَعْلُونَ؛ وَلَا يَغُلُّونَ وَلَا يُفْسِدُونَ، قُلُوبُهُمْ فِي ٱلْجِنَانِ، وَأَجْسَادُهُمْ فِي ٱلْعَمَلِ!

الشّرْحُ:

الملأ الجماعة. ولا تفيئون: لا ترجعون. ومن يُطْرح في القَليب، كُعتْبة وشَيْبة ابني ربيعة ابن عبد شمس وعمرو بن هشام بن المغيرة، المكنّى أبا جهل وغيرهم، طُرِحوا في قليب بدْر بَعد انقضاء الحرْب، ومن يحزّب الأحزاب، أبو سفيان صخر بن حرب بن أُميّة. والقَصْف والقصيف: الصوت. وسيماهم: علامتهم، ومثله «سيمياء». ومعنى قوله ﷺ: «قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل»، أنّ قلوبهم ملتذّة بمعرفة الله تعالى وأجسادهم نصِبة بالعبادةِ.

وأمّا أمرُ الشجرة التي دعاها رسول الله ﷺ ؛ فالحديث الوارد فيها كثيرٌ مستفيض، قد ذكره المحدّثون في كتبهم، وذكره المتكلّمون في معجزات الرسول ﷺ، والأكثرون رووا الخبر فيها على الوَضْع الّذي جاء في خطبه أمير المؤمنين، ومنهم من يروي ذلك مختصراً أنّه دعا شجرة فأقبلت تخُدّ إليه الأرض خَدّاً. وقد ذكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة» حديث الشجرة، ورواه أيضاً محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة والمغازي على وجْه آخر.



الأصْلُ:

ومن كلام له عليه السلام

قالهُ لعبدالله بن عباسٍ، وقد جاءهُ برسالةٍ من عثمانَ وهو محصورٌ يسألهُ فيها الخروجَ إلى مالِهِ بيَنبُع، ليقلَّ هتفُ الناسِ باسمِهِ للخلافةِ، بعد أن كان سأله مثل ذلك من قبل.

فقال عليه السلام:

يَا بْنَ عَبَّاس، مَا يُرِيدُ عُثْمانُ إلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلاً نَاضِحاً بِالْغَرْبِ، أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ! بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ، ثُمَّ هُوَ الآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ! وَاللهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّىٰ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً.

الشّرْحُ:

ينبُع على «يفعُلُ» مثل يحلُم ويحكم: اسم موضع، كان فيه نخلٌ لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، وينبُع الآن بلد صغير من أعمال المدينة. وهتْف الناس باسمه: نداؤهم ودعاؤهم، وأصله الصوت، يقال: هَتف الحمامُ يهتفِ هَتْفاً، وهَتَف زيد بعمرو هُتافاً، أي صاح به، وقوس هتّافة وهَتْفَى، أي ذات صوت. والناضح: البعير يستقى عليه، وقال معاوية لقيس بن سعد ـ وقد

دخل عليه في رَهْطٍ من الأنصار ـ: ما فعلت نواضحكم ! يهزأ به، فقال: أنصبناها في طلب أبيك يوم بدر. والغَرْب: الدلو العظيمة.

قوله: «أقبلْ وأدبر»، أي يقول لي ذلك، كما يقال: للناضح. قوله: «لقد دفعتُ عنه حتّى خشيتُ أن أكونَ آثماً»، يحتمل أن يريدَ بالغثّ واجتهدت في الدّفاع عنه، حتى خشيت أن أكون آثماً في كثرة مبالغتي واجتهادي في ذلك، وإنّه لا يستحقّ الدفاع عنه لجرائمه وأحداثه.

[هذا أحد تأويلات ثلاثة ذكرها ابن أبي الحديد، وهذا هو الصحيح؛ لأنّه الظاهر من كلامه عليه السلام والمنسجم مع عقيدته في عثمان].



الأصْلُ:

ومن كلام له عليه السلام

اقتص فيه ذكر ما كان منه بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله ثمّ لحاقه به

فَجَعَلْتُ أَتْبَعُ مَأْخَذَ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ، فَأَطَأُ ذِكْرَهُ، حَتَّىٰ ٱنْتَهَيْتُ إِلَىٰ ٱلعَرَجِ.

في كلام طويل.

قَالَ الرّضِيّ رحمه الله:

قوله عليه السلام: «فَأَطَأُ ذِكْرَهُ»، من الكلام الذي رمى به إلى غايتي الإيجاز والفصاحة، أراد أني كنت أُغَطِّي خبره صلى الله عليه وآله من بدء خروجي إلى أن انتهيت إلى هذا الموضع، فكنى عن ذلك بهذه الكناية العجيبة.

الشّرْحُ :

العَرْج: منزل بين مكّة والمدينة، إليه ينسب العَرْجيّ الشاعر، وهو عبد الله بن عمرو.

قال محمد بن إسحاق في كتاب «المغازي»: لم يُعلِمْ رسولُ الله ﷺ أحداً من المسلمين ما كان عزم عليه من الهِجْرة إلّا عليّ بن أبي طالب وأبا بكرِ بن أبي قحافة، أمّا عليّ، فإنّ رسولَ الله ﷺ أخبرَه بخروجه، وأمره أن يبيتَ على فراشه، يُخادِع المشركين عنه ليروْا أنه لم يبرحْ فلا يطلبوه، حتى تبعُد المسافة بينهم وبينه، وأنْ يتخلّف بعده بمكّة حتّى يؤدِّيَ عن رسول الله ﷺ الودائع الّتي عنده للناس، وكان رسولُ الله ﷺ استودَعه رجالٌ من مكّة ودائعَ لهم، لما يعرفونه من أمانته، وأمّا أبو بكر فخرج معه.



الأَصْلُ :

ومن خطبة له ﷺ

فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفَس ٱلْبَقَاءِ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ، وَالْمُدْبِرُ يُدْعَىٰ، وَٱلْمُسِيءُ يُرْجَىٰ، قَبْلَ أَنْ يَجْمُدَ ٱلْعَمَلُ، وَيَنْقَطِعَ ٱلْمَهَلُ وَتَنْقَضِيَ ٱلْمُدَّةُ، وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ. وَتَصْعَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ. فَأَخَذَ ٱمْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَأَخَذَ مِنْ حَيٍّ لِمَيِّتٍ، وَمِنْ فَانٍ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ، ٱمْرُؤٌ خَافَ ٱللهَ. وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَىٰ أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ إِلَىٰ عَمَلِهِ، ٱمْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِي ٱللهِ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَىٰ طَاعَةِ ٱللهِ.

الشّرْحُ :

في نَفَس البقاء، بفتح الفاء، أي في سعته، تقول: أنت في نَفَسٍ من أمرك، أي في سَعَة. والصحف منشورة، أي وأنتم بعد أحياء؛ لأنّه لا تطوى صحيفة الإنسان إلّا إذا مات. والتوبة

مبسوطة لكم غير مقبوضة عنكم، ولا مردودة عليكم إن فعلتم، كما تردّ على الإنسان توبته إذا احتُضر. والمدبِر يدعَى، أي مَنْ يدبِر منكم، ويولّي عن الخير يُدعَى إليه، وينادى: يا فلان أقبل على ما يُصلِحك! والمسيء يُرجَى، أي يرجَى عوده وإقلاعه.

قبل أن يجمد العمل، استعارة مليحة؛ لأنّ الميت يجمد عمله ويقف، ويروى: «يخمد» بالخاء، من خمدت النار، والأول أحسن. وينقطع المهَل، أي العمر الذي أمهلتم فيه. وتصعد الملائكة؛ لأنّ الإنسان عند موته تصعد حفَظته إلى السماء؛ لأنّه لم يبق لهم شغل في الأرض.

قوله: «فأخذ امرؤ» ماض يقوم مقام الأمر، وقد تقدّم شرحُ ذلك، والمعنى أنّ مَنْ يصوم ويصلّي فإنّما يأخذ بعض قوّة نفسه مما يلقَى من المشقة. لنفسه، أي عُدّة وذخيرة لنفسه يوم القيامة، وكذلك مَنْ يتصدّق، فإنه يأخذ من ماله، وهو جار مجرى نفسه لنفسه.

وأخذ من حيّ لميت، أي من حال الحياة لحال الموت، ولو قال: من ميت لحيّ، كان جيّداً أيضاً؛ لأنّ الحيّ في الدّنيا ليس بحيّ على الحقيقة، وإنّما الحياة حياة الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوانُ﴾[1]. وروي: «أمسكها بلجامها» بغير فاء.



الأصْلُ:

ومن خطبة لهعليه السلام في شأن الحكمين وذم أهل الشام

جُفَاةٌ طَغَامٌ، عَبِيدٌ أَقْزَامٌ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ، وَيُوَلَّىٰ عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَىٰ يَدَيْهِ. لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ.

أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا يُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمُ اخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ. وَإِنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ، بِالْأَمْسِ يَقُولُ: إِنَّهَا فِتْنَةٌ،

---

١. سورة العنكبوت ٦٤.

فَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَشِيمُوا سُيُوفَكُمْ، فَإِنْ كَانَ صَادِقاً فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ، وَإِنْ كَانَ كَاذِباً فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهَمَةُ. فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ، وَخُذُوا مَهَلَ ٱلْأَيَّامِ، وَحُوطُوا قَوَاصِيَ ٱلْإِسْلَامِ. أَلَا تَرَوْنَ إِلَىٰ بِلَادِكُمْ تُغْزَىٰ، وَإِلَىٰ صَفَاتِكُمْ تُرْمَىٰ!

الشَّرْحُ:

جفاة: جمع جافٍ، أي هم أعراب أجْلاف. والطّغام: أوغاد الناس، الواحد والجمع فيه سواء. ويقال للأشرار واللئام: عبيد، وإن كانوا أحراراً. والأقزام، بالزاي: رُذال الناس وسِفْلتهم، والمسموع قَزَم، الذكر والأنثى والواحد والجمع فيه سواء؛ ولكنه‌عليه‌السلام قال: «أقزام» ليوازن بها قوله: «طغام»، وقد روي: «قِزَام»، وهي رواية جيدة، وقد نطقت العرب بهذه اللفظة. وجُمعوا من كلّ أوب، أيْ من كلّ ناحية. وتُلُقِّطُوا من كلِّ شوب، أي من فِرَقٍ مختلطة.

ثم وصف جهلهم وبعدَهم عن العِلْم والدّين، فقال: ممّن ينبغي أن يفقّه ويؤدّب، أي يعلّم الفقه والأدب. ويدرّب، أي يعوّد اعتماد الأفعال الحَسنة والأخلاق الجميلة. ويولَّى عليه، أي لا يستحقُّون أن يولَّوْا أمراً، بل ينبغي أن يحجَر عليهم كما يحجر على الصبيّ والسّفيه لعدم رُشْده. وروي: «ويولَى عليه»، بالتّخفيف. ويؤخذ على يديه، أي يمنع من التصرّف.

قوله‌عليه‌السلام: «ولا الذين تبوءوا الدّار والإيمان»، ظاهر اللفظ يشعر بأن الأقسام ثلاثة وليست إلّا اثنين؛ لأنّ الّذين تبوءوا الدّار والإيمان الأنصار، ولكنه‌عليه‌السلام كرّر ذكرهم تأكيداً، وأيضا فإن لفظة «الأنصار» واقعة على كلِّ مَنْ كان من الأوس والخزرج، الذين أسلَمُوا على عهدِ رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله والذين تبوءوا الدار والإيمان في الآية، قوم مخصوصون منهم، وهم أهل الإخلاص والإيمان التّام فصار ذكرُ الخاصّ بعد العام، كذكره تعالى جبريل وميكائيل؛ ثم قال: ﴿**وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ**﴾[1]، وهما من الملائكة. ومعنى قوله: «تبوءوا الدار والإيمان» سكنوهما، وإن كان الإيمان لا يسكن كما تسكن المنازل، لكنّهم لما ثبتوا عليها، واطمأنّوا سمّاه منزِلاً لهم ومتبوَّأً.

---

١. سورة التحريم ٤.

ثم ذكر عليه السلام أنّ أهل الشام اختارُوا لأنفسهم أقربَ القوم مما يحبّونه، وهو عمرو بن العاص، وكرّر لفظة «القوم»، وكان الأصل أن يقول: ألا وإنّ القومَ اختاروا لأنفسهم أقربَهم مما يحبُّون، فأخرجه مخرج قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1].

والذي يحبّه أهل الشام هو الانتصار على أهلِ العراقِ والظَّفَر بهم، وكان عمرو بن العاص أقربَهم إلى بلوغ ذلك، والوصول إليه بمكْره وحيلته وخدائِعه. والقوم في قوله ثانياً: «أقربُ القوم»، بمعنى النّاس كأنّه قال: واخترتم لأنفسكم أقرب الناس، ممّا تكرهونه، وهو أبو موسى الأشعري، واسمه عبد الله بن قيس، والذي يكرهه أهلُ العراق هو ما يحبّه أهل الشام، وهو خذلان عسكر العراق وانكسارهم، واستيلاء أهل الشام عليهم، وكان أبو موسى أقرَب النّاس إلى وقوع ذلك، وهكذا وقع لِبلَهِه وغفْلته وفساد رأيه، وبغضه عليّاً عليه السلام من قبل.

ثم قال: أنتم بالأمس، يعني في واقعة الجمل، قد سمعتم أبا موسى ينهى أهل الكوفة عن نُصْرَتي، ويقول لهم: هذه هي الفتنة التي وعدنا بها، فقطّعوا أوتار قِسيِّكم. وشيموا سيوفكم، أي أغمدوها فإن كان صادقاً فما باله سَار إليّ، وصار معي في الصفّ، وحضر حرب صِفّين، وكثّر سواد أهل العراق وإن لم يحارب، ولم يسلّ السيف، فإنّ مَنْ حضَر في إحدى الجهتين وإن لم يحارب كمن حارب، وإن كان كاذباً فيما رواه من خَبَر الفتنة فقد لزمتهُ التُّهمة وقُبْح الاختلاف إليه في الحكومة.

قوله عليه السلام: «فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن العباس»، يقال لمن يرام كفّه عن أمر يتطاول له: ادفع في صدره؛ وذلك لأنّ من يقدم على أمر ببدنه فيدفع دافع في صدره حقيقة، فإنه يردّه أو يكاد، فنقِل ذلك إلى الدفع المعنويّ. «وخذوا مَهَل الأيّام»، أي اغتنموا سَعَة الوقت. وخذوه مناهَبَةً قبل أن يضيق بكم أو يفوت. «وحوطوا قواصِيَ الإسلام»، ما بَعُدَ من الأطراف والنواحي.

ثم قال لهم: «ألا ترون إلى بلادِكم تُغْزَى!»، هذا يدلّ عَلَى أن هذه الخطبة بعد انقضاء أمرِ التحكيم؛ لأنّ معاوية بعد أن تمّ عَلَى أبي موسى من الخديعة ما تمّ استعجل أمرَه، وبعث السّرايا إلى أعمال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

وتقول: قد رمى فلان صَفاة فلان، إذا دهاه بداهية، قال الشاعر:

والدَّهْـرُ يُـوتر قـوسَه ... يرمي صَفاتك بالمعابِلْ

---

١. سورة المائدة ٧.

وأصل ذلك الصخرة الملساء، لا يؤثّر فيها السهام ولا يرميها الرامي، إلّا بعد أن نَبَلَ غيرها، يقول: قد بلغت غاراتُ أهل الشام حدودَ الكوفة التي هي دار الملك وسرير الخلافة، وذلك لا يكون إلّا بعد الإثخان في غيرها من الأطراف.

أبو موسىٰ الأشعري، هو عبد الله بن قيس الأشعري، قدم إلىٰ المدينة مع جماعة الأشعرين يوم فتح خيبر. ولّاه عمر البصرة، ثمّ ولاه عثمان الكوفة. ثمّ عزله الإمامﷺ عنها، فلم يزل واجداً عليه لذلك. وروي أن عماراً سئل عن أبي موسى، فقال: لقد سمعتُ فيه من حُذَيفة قولاً عظيماً، سمعته يقول: صاحب البُرْنس الأسود، ثم كلَح كُلُوحاً علمت منه أنّه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط.

وروي عن سويد بن غفلة: قال: كنت مع أبي موسى على شاطئ الفرات في خلافة عثمان، فروى لي خبراً عن رسول الله ﷺ، قال: سمعته يقول: «إن بني إسرائيل اختلفوا؛ فلم يزل الاختلاف بينهم، حتىٰ بعثوا حَكمين يَضلّان ويُضلّان من تبعهما»، فقلت له: احذر يا أبا موسى أن تكون أحدَهما.



الأصْلُ:

ومن خطبة لهﷺ يذكر فيها آل محمدﷺ

هُمْ عَيْشُ ٱلْعِلْمِ، وَمَوْتُ ٱلْجَهْلِ. يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حِكَمِ مَنْطِقِهِمْ. لَا يُخَالِفُونَ ٱلْحَقَّ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ. وَهُمْ دَعَائِمُ ٱلْإِسْلَامِ، وَوَلَائِجُ ٱلِاعْتِصَامِ. بِهِمْ عَادَ ٱلْحَقُّ إِلَىٰ نِصَابِهِ، وَٱنْزَاحَ ٱلْبَاطِلُ عَنْ مُقَامِهِ، وَٱنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ. عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ؛ فَإِنَّ رُوَاةَ ٱلْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ.

الشّرْحُ :

يقول: بهم يحيا العلم ويموت الجهل؛ فسمّاهم حياة ذاك، وموت هذا، نظراً إلىٰ السببيّة؛ يدلّكم حلمهم وصفحهم عن الذنوب على علمهم وفضائلهم، ويدلّكُمْ ما ظهر منهم من الأفعال الحسنة على ما بطن من إخلاصهم، ويدلّكم صمتهم وسكوتُهم عمّا لا يعنيهم، عن حكمة منطقهم.

ويروى: «ويدلّكم صمتُهم على منطقهم»؛ وليس في هذه الرواية لفظة «حكم».
لا يخالفون الحقّ: لا يعدلون عنه، ولا يختلفون فيه كما يختلف غيرهم من الفرق وأرباب المذاهب؛ فمنهم من له في المسألة قولان وأكثر، ومنهم من يقول قولاً ثم يرجع عنه، ومنهم من يرى في أُصول الدين رأياً ثم ينفيه ويتركه.

ودعائم الإسلام: أركانه. والولائج: جمع وَليجة، وهي الموضع يدخل إليه ويستَتر فيه، ويعتصم به. وعاد الحق إلى نصابه: رجع إلى مستقرّه وموضعه. وانزاح الباطل: زال. وانقطع لسانه: انقطعت حجّته. عقلوا الدين عقل رعاية، أي عرفوا الدين وعلموه معرفة مَن وعى الشيء وفهمه وأتقنه. ووعاية، أي وعوا الدين وحفظوه وحاطوه، ليس كما يعقله غيرهم عن سماع وروايةٍ، فإن من يروي العلم ويسنده إلى الرجال ويأخذه من أفواه الناس كثير، ومن يحفظ العلم حفظ فهم وإدْرَاكٍ، أصالَةً لا تقليداً قليل.



باب الكتب والرسائل



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

الأَصْلُ :

باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله إلىٰ أعدائه وأولياء بلاده، ويدخل في ذلك ما اختير من عهوده إلىٰ عماله ووصاياه لأهله وأصحابه.

الشَّرْحُ :

لمّا فَرَغ من إيراد المختار من خطَب أمير المؤمنين عليه السلام وكلامه الجاري مَجْرَى الخُطب من المواعظ والزواجر، شرع في إيراد بابٍ من مختار كلامه عليه السلام، وهو ما كان جارياً مَجْرَى الرّسائل والكُتب، ويدخل في ذلك العهود والوصايا. وقد أورد في هذا الباب ما هو بالباب الأوَّل أشبَه، نحو كلامه عليه السلام لشُرَيح القاضي لمّا اشترى داراً، وكلامه لشريح بن هانئ لمّا جعله على مقدّمته إلى الشام.

وسمّي ما يكتب للولاة عهداً اشتقاقاً من قولهم: عهدت إلى فلان، أي أوصيته.



الأَصْلُ :

من كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة

مِنْ عَبْدِ ٱللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ أَهْلِ ٱلْكُوفَةِ ، جَبْهَةِ ٱلأَنْصَارِ وَسَنَامِ ٱلْعَرَبِ.
أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمانَ حَتَّىٰ يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ.
إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ ، فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ أُكْثِرُ ٱسْتِعْتَابَهُ ، وَأُقِلُّ عِتَابَهُ ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ ٱلْوَجِيفُ ، وَأَرْفَقُ حِدَائِهِمَا ٱلْعَنِيفُ . وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةُ غَضَبٍ ، فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ ، وَبَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ ، وَلَا مُجْبَرِينَ ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ.
وَٱعْلَمُوا أَنَّ دَارَ ٱلْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا ، وَجَاشَتْ جَيْشَ ٱلْمِرْجَلِ ، وَقَامَتِ ٱلْفِتْنَةُ عَلَىٰ ٱلْقُطْبِ ، فَأَسْرِعُوا إِلَىٰ أَمِيرِكُمْ ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ . إِنْ شَاءَ ٱللهُ.

الشَّرْحُ :

قوله : «جبهة الأنصار» ؛ يمكن أن يريدَ جماعة الأنصار ، فإنّ الجبهة في اللغة الجماعة ويمكن أن يريد به سادة الأنصار وأشرافهم ، لأنّ جبهة الإنسان أعلَى أعضائه ، وليس يريد بالأنصار هاهنا بني قَيْلة ، بل الأنصار هاهنا الأعوان.

قوله عليه السلام : «وسَنام العرب» ، أي أهل الرفعة والعلوّ منهم ؛ لأنّ السنام أعلى أعضاء البعير.
قوله عليه السلام : «أُكثِر استعتابه وأُقلُّ عتابه» ، الاستعتاب : طلب العُتْبى ، وهي الرّضا ، قال : كنت أكثر طلبَ رضاه ، وأقل عتابه وتعنيفه على الأُمور ، وأمّا طلحة والزبير فكانا شديديْن عليه.
والوجيف : سير سريع ، وهذا مَثَلٌ للمشمرين في الطعن عليه ، حتى إنّ السّير السريع أبطأ ما يسيران في أمره ، والحُداء العنيف أرفق ما يحرّضان به عليه . ودار الهجرة : المدينة . وقوله :

«قد قلعت بأهلها وقلعوا بها»، الباء هاهنا زائدة في أحد الموضعين، وهو الأول، وبمعنى «من» في الثاني، يقول: فارقت أهلها وفارقوها، ومنه قولهم: «هذا منزل قُلْعة»، أي ليس بمستوطن. وجاشت: اضطربت. والمِرْجل: القِدْر.

ومن لطيف الكلام قولهﷺ: «فكنتُ رجلاً من المهاجرين»، فإن في ذلك من التخلّص والتبرّي ما لا يخفى على المتأمّل، ألا ترى أنه لم يبق عليه في ذلك حجّة لطاعن، حيث كان قد جعل نفسه كواحدٍ من عُرْض المهاجرين[1].

ومن لطيف الكلام أيضاً قوله: «فأتيحَ له قوم قتلوه»، ولم يقل: «أتاح الله له قوماً»، ولا قال: «أتاحَ له الشيطان قوماً»، وجعل الأمر مبهماً.

وقد ذكر أنّ خط الرضيّﷺ «مستكرهين» بكسر الراء، والفتح أحسن وأصوب، وإن كان قد جاء: استكرهتُ الشيء بمعنى كرهته.



الأصْلُ:

ومن كتاب لهﷺ إليهم بعد فتح البصرة

وَجَزَاكُمُ ٱللهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي ٱلْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ[2].

---

١. نعم إنّ كلامهﷺ من لطيف الكلام، لكن لا لما قاله. بل، إن كلامه دلّ على أن الطاعنين على عثمان والمنكرين عليه كان فيهم من المهاجرين الثابتين على الحقّ كعمّار، وأبي ذر، والمقداد، وحذيفة ونظرائهم. كما أنّ فيهم من الثوار من مسلمي مصر والكوفة وغيرهما.

٢. جزاكم: من جزى الرجل بكذا وعلى كذا: كافأه. والخطاب لأهل الكوفة بعد الانتهاء من حرب الجمل، ولا سبيل إلى التوهم بأنّه يعود لأهل البصرة، لأنهم هم الذين حاربوه ونصروا أعداءه. المصر: القطر.

الشَّرْحُ :

موضع قوله : «من أهل مصر» نصب على التمييز، ويجوز أن يكون حالاً. «وما» يجوز أن تكون مصدرية، أي أحسن جزاء العاملين، ويجوز أن تكون بمعنى الذي، ويكون قد حذف العائد إلى الموصول، وتقديره أحسن الذي يجزي به العاملين.



الأَصْلُ :

ومن كتاب لهعليه السلام كتبه لشريح بن الحارث قاضيه

روي أن شريح بن الحارث قاضي أمير المؤمنينعليه السلام، اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً، فبلغه ذلك، فاستدعىٰ شريحاً، وقال له:

بَلَغَنِي أَنَّكَ ٱبْتَعْتَ دَاراً بِثَمانِينَ دِينَاراً، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً، وَأَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُوداً.

فقال له شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين. قال: فنظر إليه نظر المغضب ثمّ قال له:

يَا شُرَيْحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ، حَتَّىٰ يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَيُسْلِمَكَ إِلَىٰ قَبْرِكَ خَالِصاً. فَانْظُرْ يَا شُرَيْحُ لَا تَكُونُ ٱبْتَعْتَ هٰذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ! فَإِذَا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ ٱلْآخِرَةِ.

أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا اشْتَرَيْتَ، لَكَتَبْتُ لَكَ كِتاباً عَلَىٰ هٰذِهِ النُّسْخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هٰذِهِ الدَّارِ بِالدِّرْهَمِ فَمَا فَوْقُ. والنسخةُ هذِهِ:

«هٰذَا مَا ٱشْتَرَىٰ عَبْدٌ ذَلِيلٌ، مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُزْعِجَ لِلرَّحِيلِ، ٱشْتَرَىٰ مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ ٱلْغُرُورِ، مِنْ جَانِبِ ٱلْفَانِينَ، وَخِطَّةِ ٱلْهَالِكِينَ. وَتَجْمَعُ هٰذِهِ الدَّارَ حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ:

الْحَدُّ ٱلْأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَىٰ دَوَاعِي ٱلآفَاتِ، وَٱلْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَىٰ دَوَاعِي ٱلْمُصِيبَاتِ؛ وَٱلْحَدُّ ٱلثَّالِثُ يَنْتَهِي إِلَىٰ ٱلْهَوَىٰ ٱلْمُرْدِي، وَٱلْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَىٰ الشَّيْطَانِ ٱلْمُغْوِي، وَفِيهِ يُشْرَعُ بَابُ هٰذِهِ الدَّارِ. ٱشْتَرَىٰ هٰذَا ٱلْمُغْتَرُّ بِالْأَمَلِ، مِنْ هٰذَا ٱلْمُزْعَجِ بِالْأَجَلِ، هٰذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ ٱلْقَنَاعَةِ، وَالدُّخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ، فَمَا أَدْرَكَ هٰذَا ٱلْمُشْتَرِي فِيما ٱشْتَرَىٰ مِنْ دَرَكٍ، فَعَلَىٰ مُبَلْبِلِ أَجْسَامِ ٱلْمُلُوكِ، وَسَالِبِ نُفُوسِ ٱلْجَبَابِرَةِ، وَمُزِيلِ مُلْكِ ٱلْفَرَاعِنَةِ، مِثْلِ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرَ، وَتُبَّعٍ وَحِمْيَرَ، وَمَنْ جَمَعَ ٱلْمَالَ عَلَىٰ ٱلْمَالِ فَأَكْثَرَ، وَمَنْ بَنَىٰ وَشَيَّدَ، وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ، وَٱدَّخَرَ وَٱعْتَقَدَ، وَنَظَرَ بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ، إِشْخَاصُهُمْ جَمِيعاً إِلَىٰ مَوْقِفِ ٱلْعَرْضِ وَٱلْحِسَابِ، وَمَوْضِعِ الثَّوَابِ وَٱلْعِقَابِ، إِذَا وَقَعَ ٱلْأَمْرُ بِفَصْلِ ٱلْقَضَاءِ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.
شَهِدَ عَلَىٰ ذٰلِكَ ٱلْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ ٱلْهَوَىٰ، وَسَلِمَ مِنْ عَلَائِقِ الدُّنْيَا»[١].

الشّرْحُ:

هو شُرَيح بن الحارث. استعمله عمر بن الخطاب على القضاء بالكوفة، فلم يزل قاضياً ستّين سنة، لم يتعطّل فيها إلّا ثلاث سنين في فِتْنة ابن الزّبير سخط عليه عليّ ﷺ مرّة فطرده عن الكوفة ولم يعزله عن القضاء، توفي سنة سبع وثمانين.

قوله ﷺ: «وخِطّة الهالكين» بكسر الخاء، وهي الأرض التي يختطّها الإنسان، أي يُعْلِم عليها علامة بالخَطّ ليعمرها؛ ومنه خطط الكوفة والبصرة. وزخرف البناء: أي ذهّب جدرانه بالزّخرف، وهو الذهب. ونجّد: فرش المنزل بالوسائد، والنّجّاد الذي يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما، والتنجيد: التزيين بذلك، ويجوز أن يريد بقوله: «نجّد» رفع وعلا، من النَّجْد، وهو المرتفع من الأرض. واعتقد: جعل لنفسه عُقدة كالضّيْعة أو الذّخيرة من المال الصامت. و «إشخاصهم» مرفوع بالابتداء وخبره الجار المجرور المقدّم، وهو قوله: «فعلى

---

١. ابتعت: اشتريت. شاخصاً: ذاهباً. خالصاً: مجرّداً. وأُزعج: سيق. الضراعة: الذلة. أدرك: لحق. الآفات: جمع آفة وهي الداء الذي يصيب الشيء. المردي: المهلك. المغوي: المضلّ. مبلبل الأجسام: المثير لأدوائها وأسقامها. تبّع وحمير: من ملوك اليمن. اعتقد مالاً: جمعه. والعقدة: الضيعة والعقار. يوم الفصل: القيامة.

مبلبل أجسام الملوك». وموضع الاستحسان من هذا الفصل ـ وإن كان كله حسناً ـ أمران:

أحدُهما: أنّه عليه السلام نظر إليه نظر مغضَب؛ إنكاراً لابتياعه داراً بثمانين ديناراً، وهذا يدلّ على زهد شديدٍ في الدنيا واستكثار للقليل منها، ونسبه هذا المشتري إلى الإسراف، وخوف من أن يكون ابتاعها بمال حرام.

الثاني: أنه أملى عليه كتاباً زهديّاً وعظياً، مماثلاً لكتب الشُّروط التي تكتب في ابتياع الأملاك، فإنهم يكتبون: «هذا ما اشترى فلان من فلان، اشترى منه داراً من شارع كذا وخطة كذا، ويجمع هذه الدار حدود أربعة». ثم تكتب الشهود في آخر الكتاب. شهد فلان ابن فلان بذلك، وشهد فلان بن فلان به أيضاً؛ وهذا يدلُّ على أنّ الشروط المكتوبة الآن قد كانت في زمن الصحابة تكتب مثلها أو نحوها؛ إلّا أنّا ما سمعنا عن أحد منهم أنه نقل صيغة الشرط الفقهيّ إلى معنى آخر كما قد نظمه هو عليه السلام، ولا غرْو فما زال سبّاقاً إلى العجائب والغرائب!

فإن قلت: لم جعل الشيطان المغوي في الحدّ الرابع؟

قلت: ليقول: وفيه يشرع باب هذه الدار؛ لأنّه إذا كان الحدّ إليه ينتهي كان أسهل لدخوله إليها ودخول أتباعه وأوليائه من أهل الشيْطنة والضلال.



الأصْلُ:

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض أمراء جيشه

فَإِنْ عَادُوا إِلَىٰ ظِلِّ الطَّاعَةِ، فَذَاكَ الَّذي نُحِبُّ، وَإِنْ تَوافَتِ ٱلْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَىٰ الشِّقَاقِ وَٱلْعِصْيَانِ فَانْهَدْ بِمَنْ أَطاعَكَ إِلَىٰ مَنْ عَصَاكَ، وَٱسْتَغْنِ بِمَنِ ٱنْقَادَ مَعَكَ عَمَّنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ، فَإِنَّ ٱلْمُتَكَارِهَ مَغِيبُهُ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ، وَقُعُودُهُ أَغْنَىٰ مِنْ نُهُوضِهِ.

الشّرْحُ:

انْهدَ: أي انهض. وتقاعس، أي أبطأ وتأخر. والمتكارِه: الذي يخرج إلى الجهاد من غير نيّة وبصيرة، وإنما يخرج كارهاً مرتاباً.

ومثل قولهعليه السلام: «فإنّ المتكارِه مغيبه خير من مشهده، وقعوده أغنى من نهوضه» قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زَادُوكُمْ إلّا خَبَالاً﴾[1].



الأصْلُ:

ومن كتاب لهعليه السلام إلىٰ الأشعث بن قيس، وهو عامل أذربيجان

وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ، وَلٰكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعىً لِمَنْ فَوْقَكَ، لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ، وَلَا تُخَاطِرَ إِلَّا بِوَثِيقَةٍ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّىٰ تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَلَعَلِّي أَلَّا أَكُونَ شَرَّ وُلَاتِكَ لَكَ، وَالسَّلَامُ.

الشّرْحُ:

وأذربيجان: اسم أعجميٌّ غير مصروف، الألف مقصورة، والذال ساكنة. والنّسبة إليه أذْرِيّ بسكون الذال، هكذا القياس. والطُّعمة بضم الطاء المهملة: المأكلة، ويقال: فلان خبيث الطُّعمة، أي رديء الكسب. والطِّعمة بالكسر لهيئة التطعّم، يقول: إنّ عملَك لم يسوّغه الشرع والوالي من قِبَلي إياه؛ ولا جعله لك أكلاً؛ ولكنه أمانة في يدك وعنقك للمسلمين، وفوقك سلطان أنتَ له رعيّة فليس لك أن تفتاتَ في الرعيّة الذين تحت يدك، يقال: افتاتَ

---

١. سورة التوبة ٤٧.

فلان على فلان، إذا فعل بغير إذنِهِ ما سبيلُه أن يستأذنَه فيه، وأصلُه من الفَوْت وهو السَّبْق، كأنّه سبقه إلى ذلك الأمر.

وقوله: «ولا تخاطرْ إلّا بوثيقةٍ»، أي لا تُقدِم على أمرٍ مَخوفٍ فيما يتعلّق بالمال الذي تتولّاه إلّا بعد أن تتوثّق لنفسك، يقال: أخذ فلان بالوثيقة في أمره، أي احتاط. ثم قال له: «ولعلّي لا أكون شرَّ ولاتِك»، وهو كلام يطيِّب به نفسَه ويسكِّن به جأشَه؛ لأنّ في أوّل الكلام إيحاشاً له، إذ كانت ألفاظه تدلّ على أنّه لم يره أميناً على المال، فاستدرك ذلك بالكلمة الأخيرة، أي ربّما تحمد خلافتي وولايتي عليك، وتصادف منّي إحساناً إليك، أي عسى ألّا يكون شكرُك لعثمان ومَنْ قبله أكثَر من شكرك لي، وهذا من باب وعدك الخفيّ، وتسمّيه العرب المَلْث.

وأول هذا الكتاب:

«من عبد الله عليٍّ أميرِ المؤمنين إلى الأشعث بن قيس. أمّا بعدُ، فلولا هَنات وهَنات كانت منك، كنتَ المقدَّم في هذا الأمر قبل الناس، ولعلّ أمراً كان يحمل بعضه بعضاً إن اتّقيت الله عزّ وجلّ، وقد كان من بيعة النّاس إيّاي ما قد علمت، وكان من أمر طلحة والزبير ما قد بلغكَ، فخرجت إليهما، فأبلغت في الدّعاء، وأحسنت في البقيّة، وإن عملك ليس لك بطعمة ...»، إلىٰ آخر الكلام، وهذا الكتاب كتبه إلى الأشعث بن قيس بعد انقضاء الجمل.

وقد ذكرنا نسب الأشعث فيما مضىٰ.



الأصْلُ:

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

إِنَّهُ بَايَعَنِي ٱلْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمانَ عَلَىٰ مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلَا لِلغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَىٰ لِلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ، فَإِنِ

ٱجْتَمَعُوا عَلَىٰ رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذٰلِكَ للهِ رِضىً، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَىٰ مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَىٰ قَاتَلُوهُ عَلَىٰ ٱتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَّاهُ ٱللهُ مَا تَوَلَّىٰ.

وَلَعَمْرِي، يَا مُعَاوِيَةُ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ، لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّىٰ؛ فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَكَ! وَالسَّلَامُ.

الشَّرْحُ:

قد تقدّم ذكرُ هذا الكلام في أثناء اقتصاص مراسلة أمير المؤمنين عليه السلام معاوية بجرير بن عبد الله البَجَلِيّ، وقد ذكره أرباب السّيرة كلُّهم[1]، وأول الكتاب:

«أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لزمتْك وأنت بالشام؛ لأنّه بايعني القومُ الّذين بايعوا..» إلى آخر الفصل.

والمشهور المرويّ: «فإن خرج من أمرهم خارجٌ بطعن أو رغبة»، أي رغبة عن ذلك الإمام الذي وقع الاختيار له.

والمرويّ بعد قوله: **«ولّاه الله بعدما تولّى»، «وأصلاه جهنّمَ وساءت مصيراً، وإنّ طلحةَ والزُّبَيرَ بايعاني ثم نَقَضَا بَيْعتي، فكان نقضُهما كرِدّتهما، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحقُّ وظهر أمر الله وهم كارهون. فادخل فيما دخلَ فيه المسلمون، فإنّ أحبّ الأُمور إليّ فيك العافية، إلّا أن تتعرّض للبلاء، فإن تعرّضْتَ له قاتلتك، واستعنت بالله عليك، وقد أكثرتَ في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل النّاسُ فيه، ثم حاكم القوم إليّ أَحمِلْك وإيّاهم على كتاب الله، فأمّا تلك الّتي تريدها فخدْعة الصبيّ عن اللّبن، ولعمري يا معاوية إن نظرت بعقلك ...»** إلى آخر الكلام. وبعده: **« واعلم أنّك من الطُّلقاء الّذين لا تحلّ لهم الخلافة، ولا تعترض بهم الشورى، وقد أرسلتُ إليك جريرَ بن عبد الله البَجَليّ، وهو من أهل الإيمان والهجرة، فبايع ولا قوة إلّا بالله».**

---

١. ذكره ابن أبي الحديد في شرحه: ٣: ٧٥.

واعلم أن هذا الفصلَ دالّ بصريحه على كون الاختيار طريقاً إلىٰ الإمـامة كـما يـذكره أصحابنا المتكلّمون؛ لأنّه احتجّ علىٰ معاوية ببيعة أهل الحلّ والعَقْد له، ولم يراعِ في ذلك اجماعَ المسلمين كلّهم، وقياسه على بيعة أهل الحلّ والعقد لأبي بكر، فإنه ما رُوعِيَ فيها إجماعُ المسلمين؛ لأنّ سعد بن عُبادة لم يبايعْ، ولا أحدٌ من أهل بيته وولده، ولأنّ عليّاً وبني هاشم ومَنِ انضوَىٰ إليهم لم يبايعوا في مبدأ الأمر، وامتنعوا؛ ولم يـتوقّف المسـلمون فـي تصحيح إمامة أبي بكر وتنفيذ أحكامه علىٰ بيعتهم، وهذا دليل على صحة الاختيار وكونه طريقاً إلى الإمامة، وأنه لا يقدح في إمامته‌ﷺ امتناعُ معاوية من البيعة وأهل الشام؛ فأمـا الإماميّة فتحملُ هذا الكتابَ منه‌ﷺ على التقيّة، وتقول: إنه مـا كـان يـمكنه، أن يـصرّح لمعاوية في مكتوبه بباطن الحال، ويقول له: أنا منصوص عليّ من رسول الله ﷺ ومعهود إلىٰ المسلمين أن أكون خليفة فيهم بلا فصل، فيكون في ذلك طعن علىٰ الأئمة المتقدمين، وتفسد حاله مع الذين بايعوه من أهل المدينة، وهذا القول من الإمامية دعوىٰ، لو عضّدها دليل، لوجب أن يقال بها، ويصار إليها؛ ولكن لا دليل لهم علىٰ ما يذهبون إليه من الأُصول التي تسوقهم إلىٰ حمل هذا الكلام علىٰ التقية[1].

---

١. أقول: أراد الإمام علي‌ﷺ باحتجاجه (بالإجماع) إلزام الخصم به؛ لأنّهم أثـبتوا بـه خـلافة أبـي بكـر وعـمر وعثمان. والإمام‌ﷺ إنّما لم يتمسّك بالنّص ـ مع ثبوته بالتواتر ـ اعتقاداً منه‌ﷺ أن سوف يكذّب، أو يؤول النصّ وفق نظرية قريش في الخلافة فيكون ذريعة بيد المتخلفين عن اللحاق بالإمام‌ﷺ والذين سايروا الوضع القائم في مخالفة النص في يوم الغدير، وسيجد أولئك فسحة من محاسبة الضمير بمخالفة النبي‌ﷺ بسبب التأويل بما ينسجم وخطة قريش، فأهمله ولم يحتج به، فهُجر الاحتجاج بالنصّ منذ أيام السقيفة، فكيف يلتفتون إليه بعد تقادم العهد وتطاول الأيام، ولما ملك الإمام‌ﷺ قياد الأمر، واستتب له الوضع، قام فاحتجّ بحديث الغدير في أكثر من مناسبة، كان أشهرها في رحبة مسجد الكوفة بعد عودته من حرب الجمل.

وأمّا معاوية فقد كتب إلىٰ الإمام‌ﷺ: أنّه ليس لك علينا بـيعة؛ لأنّـا لم نـبايعك، وليس لك عـلينا ولايـة ولا طاعة، ولكنّنا نقتاد من قتلة عثمان ثمّ نردّ الأمر شورىٰ بين المسلمين فكان جواب الإمام‌ﷺ جدلياً محضاً، لا يريد به إلّا إلزام ما يلتزم به الخصم، ليقطع تشنيعه ومزاعمه، ولذا قال له‌ﷺ: إنّ البيعة التي أوجبت لأبي بكر وعمر وعثمان الولاية علىٰ من حضر وغاب ـ علىٰ معتقدكم ـ هي حاصلة لي؛ فإنّه بايعني القوم الذين بايعوهم. (والشورىٰ) التي تعتقدونها وتحتجون بها طريقاً للإمامة للمهاجرين والأنصار فقط؛ وليس لغيرهم ـ من أمثالك من الطلقاء والمؤلفة قلوبهم ـ حق الردّ أو النظر فيما أبرموا. وحينئذٍ فلا حاجة لحمل كلام أمير المؤمنين علىٰ التقيّة كما ذكر الشارح الذي يؤوّل النصوص بما يهوى أو بما ينسجم ومذهب أصحابه.

فأمّا قولهعليه السلام: «وقد أكثرتَ في قَتَلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، ثمّ حاكم القوم إليَّ أحملك وإيّاهم علىٰ كتاب الله»، فيجب أنْ يُذكر في شرحه ما يقول المتكلمون في هذه الوقعة. قال أصحابنا المعتزلة رحمهم الله: هذا الكلام حقّ وصواب؛ لأنّ أولياء الدّم يجب أن يبايعوا الإمام ويدخلوا تحت طاعته، ثم يرفعوا خصومهم إليه، فإنْ حَكَم بالحقّ استديمت إمامته، وإن حادَ عن الحق انقضت خلافته، وأولياءُ عثمان الذين هم بنُوه لم يبايعوا عليّاًعليه السلام، ولا دَخَلوا تحت طاعته ثَمّ، وكذلك معاويةُ ابنُ عمّ عثمان لم يبايع ولا أطاع؛ فمطالبتهم له بأن يقتصّ لهم من قاتلي عثمان قبل بيعتهم إياه وطاعتهم له ظلم منهم وعدوان.

فإن قلت: هب أنّ القصاص من قتلة عثمان موقوفٌ علىٰ ما ذكرهعليه السلام؛ أما كان يجبُ عليه لا من طريق القصاص أن ينهىٰ عن المنكر؟ وأنتم تذهبون إلى أنّ النّهي عن المنكر واجب علىٰ مَنْ هو سُوقة، فكيف على الإمام الأعظم؟

قلت: هذا غير وارد هاهنا؛ لأنّ النهي عن المنكر إنّما يجب قبل وقوع المنكَر، لكيلا يقع، فإذا وقع المنكر، فأيّ نهي يكونُ عنه! وقد نهى عليّعليه السلام أهلَ مصر وغيرَهم عن قتلِ عثمان قبل قتلِه مراراً، ونابذهم بيده ولسانه وبأولاده فلم يغنِ شيئاً، وتفاقم الأمر حتى قُتِل[1]؛ ولا يجب بعد القتل إلّا القصاص، فإذا امتنع أولياءُ الدم من طاعة الإمام لم يجبْ عليه أن يقتصَّ من القاتلين؛ لأنّ القصاص حقّهم وقد سقط ببغيهم على الإمام وخروجهم عن طاعته. وقد قلنا نحن فيما تقدّم: إنّ القصاص إنّما يجب علىٰ مَنْ باشر القتل؛ والذين باشروا قتل عثمان قُتِلوا يوم قتل عثمان في دار عثمان، والذين كان معاوية يطالبُهم بدم عثمان لم يباشروا القتل، وإنّما كثّروا السّواد وحَصَروا عثمان في الدار، وأجلبوا عليه وشتموه وتوعّدوه، ومنهم مَنْ تسوّر عليه داره ولم ينزل إليه، ومنهم منْ نزل فحضر محضر

---

١. عجباً لابن أبي الحديد، فان الامامعليه السلام يقول: «ولتعلمنّ أنّي كنت في عزلة عنه»، وهو يقول: نهىٰ عليعليه السلام أهلَ مصر وغيرهم عن قتل عثمان ... ونابذهم بيده ولسانه وبأولاده ...» وقد تقدّم قول الإمامعليه السلام في خطبة (٣٠) في قضية قتل عثمان: «لو أمرت به (القتل) لكنتُ قاتلاً، أو نهيت عنه لكنت ناصراً...» ولماذا لم يجبه الامامعليه السلام معاوية بذلك إذا كان قد نابذ ودافع ليدفع عن نفسه التهمة بقتل عثمان؟ ولكن اليد الأموية هي وضعت أخبار الدفاع عن عثمان حتىٰ لا يكون خليفتهم مهدور الدم بعد أن استأثر فأساء الأثرة، ووضعت أخباراً في الطعن بالإمامعليه السلام حتىٰ يستقيم لهم الأمر.

قتله ولم يشرك فيه، وكلّ هؤلاء لا يجب عليهم القصاص في الشّرع.



الأصْلُ:

ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضاً

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَتْنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ، وَرِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ، نَمَّقْتَهَا بِضَلَالِكَ، وَأَمْضَيْتَهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ، وَكِتَابُ آمْرِئٍ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ، وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ، قَدْ دَعَاهُ آلْهَوَىٰ فَأَجَابَهُ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ لَاغِطاً، وَضَلَّ خَابِطاً.

الشّرْحُ:

موعظة موصّلة، أي مجموعة الألفاظ من هاهنا وهاهنا، وذلك عيب في الكتابة والخطابة، وإنما الكاتب من يرتجل فيقول قولاً فصلاً، أو يَروِي فيأتي بالبديع المستحسَن، وهو في الحالَيْن كليهما يُنفِق من كِيسه، ولا يستعير كلامَ غيره.

والرسالة المحبّرة: المزيّنة الألفاظ؛ كأنه عليه السلام يشير إلى أنه قد كان يظهر عليها أثر التكلّف والتصنّع. والتّنميق: التزيين أيضاً. وهَجَر الرّجل، أي هَذَى، ومنه قوله تعالى في أحد التفسيرين: ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القُرْآنَ مَهْجُوراً﴾[1]. واللّاغط: ذو اللغط، وهو الصوت والجلبة. وخَبَط البعير فهو خابط، إذا مشى ضالاً فخبط بيديْه كلَّ ما يَلْقاه، ولا يتوقّى شيئاً.

---

١. سورة الفرقان ٣٠.

أقول: ومنه أيضاً قول الخليفة عمر بن الخطاب، يوم طلب النبي صلى الله عليه وآله في مرض وفاته كتفاً أو قرطاساً ودواة ليكتب للمسلمين كتاباً، وقد ردّ على رسول الله صلى الله عليه وآله: ما شأنه أهجر؟ أو إن الرجل ليهجر! أو كما في لفظ صحيح مسلم: إن رسول الله يهجر. صحيح البخاري ٥: ٥١١ كتاب المغازي ـ باب مرض النبي ووفاته، صحيح مسلم ٤: ١٧٥ كتاب الوصية ـ باب ترك الوصية.

وهذا الكتاب كتبه عليٌّ عليه السلام جواباً عن كتاب كتبه معاويةُ إليه في أثناء حرب صِفِّينَ بل في أواخرها.

الأَصْلُ:

ومن هذا الكتاب:

لِأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لَا يُثَنَّىٰ فِيهَا ٱلنَّظَرُ، وَلَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا ٱلْخِيَارُ، ٱلْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَٱلْمُرَوِّي فِيهَا مُدَاهِنٌ.

الشَّرْحُ:

لا يثنّى فيها النظر، أي لا يعاود ولا يراجع ثانية. ولا يستأنف فيها الخيار: ليس بعد عقدها خيار لمن عقدها ولا لغيرهم؛ لأنها تلزم غير العاقدين كما تلزم العاقدين، فيسقط الخيار فيها. الخارج منها طاعن على الأُمّة.

«والمروّي فيها مداهن»، أي الذي يرتئي ويبطئ عن الطاعة ويفكّر، وأصله من الرويّة. والمداهن: المنافق.



الأَصْلُ:

ومن كتاب له عليه السلام إلى جرير بن عبدالله البَجَليّ لما أرسله إلى معاوية

أَمَّا بَعْدُ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَاحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَىٰ ٱلْفَصْلِ، وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ ٱلْجَزْمِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجْلِيَةٍ، أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَةٍ فَإِنِ ٱخْتَارَ ٱلْحَرْبَ فَانْبِذْ إِلَيْهِ، وَإِنِ ٱخْتَارَ السِّلْمَ فَخُذْ بَيْعَتَهُ. وَالسَّلَامُ.

الشَّرْحُ :

قوله عليه السلام : «فاحمل معاوية على الفَصْل» ، أي لا تتركه متلكّئاً متردّداً ، يُطْمِعُك تارة ويؤيسك أُخرىٰ ، بل احمله على أمر فَيْصَلٍ ، إمّا البَيْعة ، أو أن يأذَن بالحرب . وكذلك قوله : « وخذه بالأمر الجزم» ، أي الأمر المقطوع به ، لا تكنْ ممّن يُقدِّم رِجْلاً ويؤخّر أُخرىٰ ، وأصل الجزْم القطع . وحرب مُجْلِيَة : تَجْلِي المقهورين فيها عن ديارهم ، أي تُخرِجهم . وسِلْم مخزية ، أي فاضحة ؛ وإنما جعلها مخزية لأنّ معاوية امتنع أولا من البَيْعة ؛ فإذا دخل في السلّمْ فإنما يدخل فيها بالبيعة ، وإذا بايع بعد الامتناع ؛ فقد دخل تحت الهَضْم ورَضيَ بالضَّيم ؛ وذلك هو الخِزْي .

قوله «فانبذ إليه» من قوله تعالى : ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَواءٍ﴾[1] وأصله العهد والهدنة وعقد الحِلف يكون بين الرجلين أو بين القبيلتين ، ثم يبدو لهما في ذلك فينتقلان إلى الحرب فينبذ أحدُهما إلى الآخر عهده ، كأنه كتاب مكتوب بينهما قد نبذه أحدُهما يوم الحرب وأبطله ، فاستعير ذلك للمجاهرة بالعداوة والمكاشفة ، ونسخ شريعة السلام السابقة بالحرب المعاقبة لها .



الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا ، وَٱجْتِيَاحَ أَصْلِنَا ، وَهَمُّوا بِنَا ٱلْهُمُومَ ، وَفَعَلُوا بِنَا ٱلْأَفَاعِيلَ ، وَمَنَعُونَا ٱلْعَذْبَ ، وَأَحْلَسُونَا ٱلْخَوْفَ ، وَٱضْطَرُّونَا إِلَىٰ جَبَلٍ وَعْرٍ ، وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ ٱلْحَرْبِ . فَعَزَمَ ٱللهُ لَنَا عَلَىٰ الذَّبِّ عَنْ حَوْزَتِهِ ، وَالرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حَوْمَتِهِ ، مُؤْمِنُنَا يَبْغِي بِذٰلِكَ ٱلْأَجْرَ ، وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ ٱلْأَصْلِ ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْش خِلْوٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ

---

١. سورة الأنفال ٥٨.

بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ، فَهُوَ مِنَ ٱلْقَتْلِ بِمَكَانِ أَمْنٍ.

وَكَانَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ إِذَا ٱحْمَرَّ ٱلْبَأْسُ، وَأَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوَقَىٰ بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَٱلْأَسِنَّةِ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ ٱلحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ جَعْفَرٌ يَوْمَ مُؤْتَةَ. وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ ٱسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ، وَلٰكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ، وَمَنِيَّتُهُ أُخِّرَتْ. فَيَاعَجَباً لِلدَّهرِ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لَا يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا، إِلَّا أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا لَا أَعْرِفُهُ، وَلَا أَظُنُّ ٱللهَ يَعْرِفُهُ. وَٱلْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ.

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هٰذَا ٱلْأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلَا إِلَىٰ غَيْرِكَ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيِّكَ وَشِقَاقِكَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ، لَا يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ، وَلَا جَبَلٍ وَلَا سَهْلٍ، إِلَّا أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوؤُكَ وِجْدَانُهُ، وَزَوْرٌ لَا يَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ.

الشّرْحُ:

قوله ﷺ: «فأراد قومنا»، يعني قريشاً. والاجتياح: الاستئصال، ومنه الجائحة وهي السَّنَة، أو الفتنة التي تجتاح المال أو الأنفس.

قوله: «ومنعونا العذب»، أي العيش العذب، لا أنّهم منعوهم الماء العَذْب، على أنه قد نقل أنّهم منعوا أيام الحصار في شِعْب بني هاشم من الماء العذب. «وأحلسونا الخوف»، أي ألزموناه. والحِلْس: كساء رقيق يكون تحت برذعة البعير. وأحلاس البيوت: ما يُبسَط تحت حُرِّ الثياب، وفي الحديث: «كن حِلْس بيتك»، أي لا تخالط النّاس واعتزلْ عنهم، فلما كان الحِلْس ملازماً ظهرَ البعير، وأحلاس البيوت ملازمة لها، قال: «وأحلسونا الخوف»؛ أي جعلوه لنا كالحِلْس الملازم. «واضطرونا إلى جبل وعر»، مَثَل ضربه ﷺ لخشونة مُقامِهم وشَظَف منزلهم، أي كانت حالنا فيه كحال من اضطر إلى ركوب جبل وَعْر، ويجوز أن يكون حقيقة لا مثلاً؛ لأنّ الشّعب الذي حصروهم فيه مَضِيق بين جبلين.

قوله: «فعزم الله لنا»، أي قضى الله لنا، ووفّقنا لذلك، وجعلنا عازمين عليه. والحَوْزة:

الناحية وحوزة الملك: بَيْضته. وحومة الماء والرمل: معظمه. والرمي عنها: المناضلة والمحاماة، ويروى: «والرمي من وراء حرمته»، والضمير في «حوزته» و «حومته» راجع إلى النبي ﷺ، وقد سبق ذكره، وهو قوله: «نبينا» و يروى: «والرّميّا».

وقال الراونديّ: «وهمُّوا بنا الهمومَ»، «الهموم» منصوب هاهنا على المصدر، أي همّوا بنا هموماً كثيرة، وهمّوا بنا أي أرادوا نهبَنا، وإنما أدخل لام التعريف في الهموم، أي هموا بنا تلك الهموم التي تعرفونها، فأتى باللام ليكون أعظم وأكبر في الصدور من تنكيرها، أي تلك الهموم معروفة مشهورة بين الناس لتكرّر عزم المشركين في أوقات كثيرة مختلفة على الإيقاع. «وفعلوا بنا الأفاعيل»، يقال لمن أثروا آثاراً منكرة: فعلوا بنا الأفاعيل، وقلّ أن يقالَ ذلك في غير الضرر والأذى.

قوله: «يحامي عن الأصل»، أي يدافع عن محمد ويذبُّ عنه حميّةً ومحافظة على النسب. قوله: «خِلْو مِمّا نحن فيه»، أي خالٍ. الحِلْف: العهد. واحمرّ البأس، كلمة مستعارة، أي اشتدّت الحرب حتى احمرّت الأرض من الدم، فجعل البأس هو الأحمر مجازاً، كقولهم: الموت الأحمر. «وأحجم الناس»، أي كَفُّوا عن الحرب وجَبُنوا عن الإقدام، يقال: حجمت فلاناً عن كذا أحجُمه بالضمّ، فأحجم هُوَ، وهذه اللفظة من النوادر، كقولهم: «كببته فأكبّ». ويوم مؤتة بالهمز، ومؤتة: أرض معروفة. «وأرادَ مَنْ لو شئتُ لذكرت اسمَه»، يعني به نفسَه.

قوله: «إذ صرتُ يقرَنُ بي مَنْ لم يَسْعَ بقدمي» إشارة إلى معاوية في الظّاهر، وإلى مَنْ تقدّم عليه من الخلفاء في الباطن، والدليل عليه قوله: «التي لا يُدْلِي أحد بمثلها»، فأطلق القول إطلاقاً عامّاً مستغرقاً لكلّ الناس أجمعين. ثم قال: «إلّا أنْ يدّعِي مدّعٍ ما لا أعرفه، ولا أظن الله يعرفه»، أي كلّ من ادّعى خلاف ما ذكرته فهو كاذب؛ لأنّه لو كانَ صادقاً لكان عليّ ﷺ يعرفه لا محالة، فإذا قال عن نفسه: إنّ كل دعوة تخالف ما ذكرت فإنّي لا أعرف صحّتها، فمعناه أنها باطلة.

وقوله: «ولا أظنّ الله يعرفه»، فالظنّ هاهنا بمعنى العلم، كقوله تعالى: **﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾**، وأخرج هذه الكلمة مخرج قوله تعالى: **﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**، وليس المراده ﷺ سَلْبَ الظّن الذي هو بمعنى العلم، بل ظن السلب، أي علم السلب، أي

وأعلم أن الله سبحانه يعرف انتفاءه، وكلّ ما يعلم الله انتفاءه فليس بثابت.

وتقول: أدلَى فلان بحجّته، أي احتجّ بها، وفلان مُدْلٍ برَحِمِه، أي مَتَّ بها، وأدْلَى بماله إلى الحاكم: دفعه إليه ليجعله وسيلة إلى قضاء حاجته منه. فأمّا الشّفاعة فلا يقال فيها: «أدليت»، ولكن «دلوت بفلان» أي استشفعت به.

قوله: «فلم أره يسعُني»، أي لم أرَ أنه يحلّ لي دفعهم إليك. والضمير في «أرَهُ» ضمير الشأن والقصّة، و«أره» من الرأي لا من من الرؤية، كقولك: لم أرَ الرّأي الفلاني. ونزع فلان عن كذا، أي فارقه وتركه، ينزِع بالكسر. والغيّ: الجهل والضلال. والشّقاق: الخلاف. الوجْدان: مصدر وجدت كذا، أي أصبته. والزّور: الزائر. واللُّقيان: مصدر لقيت، تقول: لقيته لقاءً ولقياناً.

ثم قال: «والسلام لأهله» لم يستجز في الدين أن يقول له: «والسلام عليك»؛ لأنّه عنده فاسق لا يجوز إكرامه، فقال: «والسلام لأهله»، أي على أهله.

واعلم أنّ هذه الكلمات التي ذكرها الرضيُّ رحمة الله عليه ملتقَطة من كتابه الّذي كتبه جواباً عن كتاب معاوية النافذ إليه مع أبي مسلم الخوْلانيّ، وقد ذكره أهلُ السِّيرة في كتبهم.

وفي تفسير قوله: «مؤمننا يبغي بذلك الأجر، وكافرنا يحامي عن الأصل، ومن أسلم من قريش خلوٌ ممّا نحن فيه يحلف يمنعُه، أو عشيرة تقوم دونه فهو من القتل بمكان أمن».

فنقول: إنّ بني هاشم لما حُصِروا في الشِّعب بعد أن مَنَعُوا رسول الله من قُريش، كانوا صِنْفين: مسلمين وكفاراً، فكان عليٌّ وحمزة بن عبد المطلب مسلمين. واختُلف في جعفر بن أبي طالب: هل حُصِر في الشِّعب معهم أم لا؟ فقيل: حُصِر في الشِّعب معهم، وقيل: بل كان قد هاجر إلى الحبشة، ولم يشهد حِصَار الشِّعب، وهذا هو القول الأصح. وكان العبّاس في حِصَار الشِّعب معهم إلّا أنّه كان على دين قومه، وكذلك عَقِيل بن أبي طالب، وطالب بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطّلب، وأبو سفيان بن الحارث بن بعد المطلب، وابنه الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ـ وكان شديداً على رسول الله، يُبغضه ويَهْجوه بالأشعار، إلّا أنه كان لا يرضى بقتله، ولا يقارّ قريشاً في دمه؛ محافظةً على النسب ـ وكان سَيّد المحصورين في الشّعب ورئيسهم وشيخهم أبو طالب بن عبد المطّلب، وهو الكافل والمحامي.

واختلف الناس في إيمان أبي طالب، فقالت الإمامية وأكثر الزّيدية: ما مات إلّا مسلماً.

وقال بعض شيوخنا المعتزلة بذلك، منهم الشيخ أبو القاسم البلخيّ وأبو جعفر الإسكافيّ وغيرهما. وقال أكثر أهل الحديث والعامّة من شيوخنا البصريين وغيرهم: مات علىٰ دين قومه. واحتجُّوا في إسلام الآباء بما روي عن جعفر بن محمدعليه السلام أنه قال: يبعث الله عبدَ المطّلب يوم القِيامة وعليه سِيما الأنبياء وبهاء الملوك.

وروي أنّ العبّاس بن عبد المطلب قال لرسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة: يا رسولَ الله، ما ترجو لأبي طالب؟ فقال: أرجو له كلّ خير من الله عزّ وجلّ. وروى أنّ رجلاً من رجال الشّيعة، وهو أبان بن محمود كتب إلى عليّ بن موسى الرّضاعليه السلام: جُعلتُ فداك! إني قد شككتُ في إسلام أبي طالب! فكتب إليه: ﴿**وَمَنْ يُشَاقق الرَّسُولَ مِنْ بعْدِ مَا تَبيّنَ له الهدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سبيل المؤمنين..**﴾ الآية، وبعدها: إنك إن لم تقرّ بإيمان أبي طالب كان مصيرُك إلى النار.

وقد روي عن محمد بن عليّ الباقرعليه السلام أنه سئل عمّا يقول الناس: إنّ أبا طالب في ضَحْضاح من نار؛ فقال: لو وضع إيمان أبي طالب في كفّة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأُخرىٰ لرجح إيمانه. ثم قال: ألم تعلموا أنّ أمير المؤمنين علياًعليه السلام كان يأمر أن يحَجّ عن عبد الله وأبيه أبي طالب في حياته، ثم أوصى في وصيته بالحجّ عنهم!

وروي عن عليٍّعليه السلام أنه قال: ما مات أبو طالب حتّى أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله من نفسه الرّضا. قالوا: وأشعار أبي طالب تدلّ على أنه كان مسلماً، ولا فرق بين الكلام المنظوم والمنثور إذا تضمنا إقراراً بالإسلام. قالوا: وروي عن عليّعليه السلام أنه قال: قال لي أبي: يا بنيّ الزم ابنَ عَمِّك، فإنك تسلم به من كلّ بأس عاجل وآجل، ثم قال لي:

إن علياً وجعفرا ثقتي ... عند ملمّ الزّمانِ والنُّوَبِ
لا تخذلا وانصرا ابنَ عمّكما ... أخي لأُمّي من بينهمْ وأبي
والله لا أخذل النبيّ ولا ... يخذله من بنيّ ذو حَسَب

ومن ذلك قوله:

لقد أكرم الله النبيَّ محمدا ... فأكرمُ خلق الله في النّاس أحمدُ
وشقّ له مِنْ اسمِه ليُجلَّه ... فذُو العرش محمود وهذا محمّد

قالوا: وإنّما لم يظهِر أبو طالب الإسلامَ ويجاهر به؛ لأنّه لو أظهره لم يتهيّأ له من نصْرة النبيّ صلى الله عليه وآله ما تهيّأ له، وكان كواحدٍ من المسلمين الّذين اتّبعوه، ولم يتمكّن من نصْرته والقيام

دونه حينئذٍ، وإنّما تمكّن أبو طالب من المحاماة عنه بالثبات في الظاهر على دين قريش وإن أبطن الإسلام[١].



الأصْلُ:

ومن كتاب لهﷺ إليه أيضاً

وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مَنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا، وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا؛ دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا، وَقَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا، وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا، وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقِفَكَ وَاقِفٌ عَلَىٰ مَا لَا يُنْجِيكَ مِنْهُ مُنْجٍ، فَاقْعَسْ عَنْ هٰذَا ٱلْأَمْرِ، وَخُذْ أُهْبَةَ ٱلْحِسَابِ، وَشَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ، وَلَا تُمَكِّنِ ٱلْغُوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ، وَجَرَىٰ مِنْكَ مَجْرَىٰ الرُّوحِ وَالدَّمِ.

وَمَتَىٰ كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ، وَوُلَاةَ أَمْرِ ٱلْأُمَّةِ؟ بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ، وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ. وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً فِي غِرَّةِ

---

١. ثمّ انّ ابن أبي الحديد يورد روايات كثيرة تؤيد إيمانه، وأشعاراً كثيرة أيضاً في تمجيد النبيﷺ ورسالته تدل علىٰ إيمانه وإخلاصه. كما يورد أخباراً مكذوبة صنعتها يد الغدر الأموي والحقد العباسي، تطعن في إيمانه؛ الغاية النهائية منها هو إرادة تسقيط الطالبين، والعلويين والثوار الحسنيين. ثم إن هذا الشارح المتمرس في الانتهازية زعم أنّ الجرح والتعديل تعارضا لديه، ووفق قواعد الفن، يقتضي التوقف، ولذا فهو في أمر إسلام أبي طالبﷺ من المتوقفين وهو يعلم أنّ الشك في إيمانه يشكل خدشة في نبوة النبيﷺ لأنّه كان حاميه وناصره ومفديه بأولاده ونفسه، ولا أدلّ علىٰ معاندة (ابن أبي الحديد) لمذهب الحق، هو مصانعته لمذهب أصحابه. وخشيته من الله سبحانه ومن رسوله، ومن مخالفة الوجدان والايمان!! أولىٰ من خشيته من مخالفة القاعدة الرجالية في الجرح والتعديل.

ٱلْأُمْنِيَّةِ، مُخْتَلِفَ ٱلْعَلَانِيَةِ والسَّرِيرَةِ.

وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَىٰ ٱلْحَرْبِ، فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً وَٱخْرُجْ إِلَيَّ، وَأَعْفِ ٱلْفَرِيقَيْنِ مِنَ ٱلْقِتَالِ لِتَعْلَمَ أَيُّنَا ٱلْمَرِينُ عَلَىٰ قَلْبِهِ، وَٱلْمُغَطَّىٰ عَلَىٰ بصَرِهِ! فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ قَاتِلُ جَدِّكَ وَأخيكَ وَخَالِكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ، وَذٰلكَ السَّيْفُ مَعِي، وَبِذٰلِكَ ٱلْقَلْبِ أَلْقَىٰ عَدُوِّي؛ مَا ٱسْتَبْدَلْتُ دِيناً، وَلَا ٱسْتَحْدَثْتُ نَبِيّاً. وَإِنِّي لَعَلَىٰ ٱلْمِنْهَاجِ الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ، وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ.

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِراً بِدَمِ عُثمانَ! وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثمانَ فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِباً، فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُّ مِنَ ٱلْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ ضَجِيجَ ٱلْجِمَالِ بِالْأَثْقَالِ، وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي جَزَعاً مِنَ الضَّرْبِ ٱلْمُتَتَابِعِ، وَٱلْقَضَاءِ ٱلْوَاقِعِ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ، إِلَىٰ كِتَابِ ٱللهِ، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ، أَوْ مُبَايِعَةٌ حَائِدَةٌ.

الشّرْحُ:

الجلابيب: جمعُ جلْباب، وهي المِلْحفة في الأصل؛ واستُعير لغيرها من الثّياب، وتجلبَب الرجلُ جلببةً، ولم تُدغم لأنّها ملحقة بـ «دَحْرَجة».

قوله: «وتبهّجتْ بزينتها»: صارت ذاتَ بهجة، أي زينة وحُسْن، وقد بَهُج الرجلُ بالضم. ويُوشِك: يسرع. ويقفك واقف، يعني الموتَ؛ ويُروَى: «ولا ينجيك مِجَنّ»، وهو التُّرْس، والرواية الأُولىٰ أصحّ. قوله: «فاقعَسْ عن هذا الأمر»، أي تأخّر عنه، والماضي قَعَس بالفتح، ومثلهُ تقَاعَس واقعَنْسَس. وأهْبة الحساب: عُدّته، وتأهّب: استعدّ، وجمع الأهْبة أُهَب. وشمِّر لما قد نزل بك، أي جِدَّ واجتهد وخِفَّ، ومنه رجل شَمَّرِيّ بفتح الشين، وتُكسر. والغُواةُ: جمع غاوٍ، وهو الضالّ. «وإلّا تفعل» يقول: وإن كنت لا تفعل ما قد أمرتُك ووعظتُك به فإنّي أُعرِّفك من نفسك ما أغفلتَ معرفته. إنّك مترَف، والمترفُ الّذي قد أترفَته النِّعمة، أي أطغته. «قد أخذ الشيطان منك مأخذه»؛ ويُروَى «مآخذه» بالجمع، أي تناوَل الشيطانُ منك لُبَّك وعقلك، ومأخذه مصدر، أي تناولك الشيطان تناولَه المعروف، وحذف مفعول «أخذ» لدلالة الكلام عليه، ولأنّ اللفظةَ تَجرِي مَجرَى المَثَل. «وجرَى منك مجرَى

الرّوح والدم»، هذه كلمةُ رسولِ الله ﷺ: «إنّ الشيطانَ ليَجري من ابن آدمَ مَجرَى الدّم».

ثم خرج ﷺ إلىٰ أمر آخَر، فقال لمعاوية: «ومتى كنتمْ ساسَةَ الرعيّة، ووُلاة أمرِ الأُمّة ؟!»، ينبغي أن يُحمَل هذا الكلامُ على نفي كونِهم سادة وولاة في الإسلام، وإلّا ففي الجاهليّة لا يُنكَر رياسة بني عبدِ شَمْس. ولست أقولُ برياستهم علىٰ بني هاشم؛ وأيضاً فإنّ في لفظة أمير المؤمنين ﷺ ما يُشعِر بما قلناه، وهو قوله: «ووُلاةُ أمرِ الأُمّة»؛ فإنّ الأُمّة في العرب هم المسلمون، أمّة محمّد ﷺ. «بغيرِ قدمٍ سابق»، يقال: لفلانٍ قدمُ صِدْق، أي سابقة وأثرةٌ حَسَنة. «ولا شرف باسق»، أي عالٍ.

وتَمادَى: تَفاعَل، من المدى، وهو الغاية، أي لم يَقِف بل مَضَى قُدُماً. والغِرّة: الغَفْلة. والأُمْنيّة: طمعُ النّفس. ومختلف السّريرة والعلانِيَة: منافق.

قوله ﷺ: «فدَع الناسَ جانباً»، منصوب على الظَّرْف. والمرين على قلبه: المغلوبُ عليه، من قولِه تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]. وقيل: الرَّيْن: الذنب على القريب. وإنّما قال أميرُ المؤمنين ﷺ لمعاوية هذه الكَلِمَة؛ لأنّ معاوية قالها في رسالةٍ كتبَها، ووقفتُ عليها من كتاب أبي العبّاس يعقوب بن أبي أحمد الصَّيْمَريّ الذي جَمعَه في كلام عليٍّ ﷺ وخطبه، وأوّلها:

أمّا بعد، فإنَّك المطبوعُ عَلَى قلبِك، المغطَّى علىٰ بَصرِك؛ الشرّ من شيمتك، والعُتوّ من خَليقتك، فشمِّر للحرب، واصبرْ للضَّرب، فوالله ليرجعنّ الأمرُ إلى ما علمت، والعاقبة للمتّقين. هيهاتَ هيهات! أخطأك ما تمنّى، وهَوَى قلبك فيما هَوَى، فاربَعْ عَلَى ظَلْعِك، وقِسْ شبْرَك بِفترِك، تَعلم أين حالُك من حالِ من يَزِن الجبالَ حِلمُه، ويَفصِل بين أهل الشّكّ عِلمُه؛ والسلام.

فكتب إليه أميرُ المؤمنين ﷺ: «**أمّا بعد، يابن صَخْر، يابن اللَّعين؛ يَزِنُ الجبالَ فيما زعمتَ حِلمُك، ويَفصِل بين أهلِ الشّك عِلمُك؛ وأنتَ الجاهلُ القليلُ الفِقْه، المتفاوتُ العقل، الشاردُ عن الدين. وقلتَ: (فشمِّر للحرب، واصبر)، فإن كنتَ صادقاً فيما تَزعُم، ويُعينُك عليه ابن النّابغة فدَع الناسَ جانباً، وأَعفِ الفَريقين من القِتال، وابرُزْ إليّ لتَعلَم أيّنا المرينُ عَلَى قلبه، المغطّى على بصره، فأنا أبو الحَسَن**

---

١. سورة المطففين ١٤.

حقّاً، قاتلَ أخيك وخالِك وجدِّك؛ شَدْخاً يومَ بدر، وذلك السّيف معي، وبذلك القلبِ ألقَى عدوّي».

قولُهﷺ «شَدْخاً»؛ الشّدخ: كَسرُ الشيء الأجْوف، شَدخْت رأسَه فانشَدَخ، وهؤلاء الثلاثةُ: حنظلةُ بنُ أبي سُفيان، والوليد بنُ عتبة، وأبوه عتبةُ بن ربيعة، فحنظلة أخوه، والوليد خالُه؛ وعتبةُ جدُّه، وقد تقدَّم ذكرُ قَتْلِه إيّاهم في غَزاةِ بَدْر. والثائر: طالب الثأر. وقوله: «قد علمتَ حيث وقعَ دمُ عثمانَ فاطلبْه من هناك»، يريد به إن كنتَ تطلُب ثأرَك من عند من أجْلَب وحاصَرَ، فالّذي فَعَل ذلك طلحةُ والزبير. فاطلب ثأرَك من بني تميم ومن بني أسَد بن عبدِ العُزّى، وإن كنت تطلبه ممّن خَذَل فاطلبْه من نَفسِك فإنّك خَذَلْته، وكنتَ قادراً علىٰ أن تَرفِده وتُمِدّه بالرجال، فخذلتَه وقعدتَ عنه بعد أن استنجَدَك واستغاثَ بك. وتضجّ: تصوّت. والجاحِدة: المنكرة، والحائدة: العادلة عن الحقّ.

واعلم أنّ قوله: وكأنّي بجماعتك يدعونَني جَزَعاً من السّيف إلى كتاب الله تعالى، إمّا أن يكون فِراسةً نبويّة صادقة، وهذا عظيم، وإمّا أن يكون إخباراً عن غَيْب مفصّل، وهو أعظمُ وأعجب، وعلى كلا الأمرين فهو غاية العَجَب، وقد رأيتُ له ذِكرَ هذا المعنىٰ في كتاب غيرِ هذا، وهو: «**أمّا بعدُ، فما أعجب ما يأتيني منك، وما أعلَمَني بمنزلتك الّتي أنت إليها صائر، ونحوها سائر؛ وليس إبطائي عنكَ إلّا لوقت أنا به مصدِّق، وأنتَ به مكذِّب؛ وكأنّي أراك وأنتَ تضجّ من الحرب، وإخوانُك يدعونني خوفاً من السّيف، إلى كتابٍ هم به كافرون، وله جاحدون**».

ووقفت لهﷺ على كتاب آخر إلى معاوية يذكر فيه هذا المعنى، أوّله: «أمّا بعد، فطالَمَا دعوتَ أنتَ وأولياؤك أولياءُ الشّيطان الحقَّ أساطير، ونبذتموه وراء ظهوركم، وحاولتم إطفاءَه بأفواهكم، ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1]. ولَعَمري لينفذنّ العلمُ فيك، وليتمّنّ النورُ بصِغرك وقماءتك، ولتخسأنّ طريداً مَدْحوراً، أو قتيلاً مَثْبوراً[2]؛ ولتُجْزَينّ بعَملك حيث لا ناصرَ لك، ولا مُصرِّخَ[3] عندك. وقد أسهَبْتَ في ذكر عثمان، ولَعمري ما قَتَله غيرُك، ولا خَذَله

---

١. سورة التوبة ٣٢.

٢. مثبوراً: هالكاً؛ أو مصروفاً عن الخير.

٣. المصرخ: المستغيث.

سواك، ولقد تربَّصْتَ به الدوائر، وتمنّيت له الأمانيّ، طمعاً فيما ظهر منك، ودلّ عليهِ فعلُك، وإنّي لأرجو أن أُلحِقَك به علىٰ أعظمَ من ذنبِهِ، وأكبر من خطيئتِه.

فأنا ابن عبد المطّلب صاحبُ السّيف، وإنّ قائمه لفي يدي، وقد علمتَ من قتلتُ به من صناديد بني عبد شَمْس، وفراعنة بني سَهْم وجُمح وبني مخزوم؛ وأيتمتُ أبناءَهم، وأيَّمتُ نساءهم[١]. وأُذكِّرك ما لستَ له ناسياً؛ يومَ قتلتُ أخاك حنْظلة، وجررتُ برجْله إلى القَليب[٢]، وأسرتُ أخاك عمراً؛ فجعلتُ عنقَه بين ساقيه رباطاً، وطلبتُك ففررتَ ولك حُصاص[٣]؛ فلولا أني لا أتبَع فارّاً، لجعلتك ثالثهما، وأنا أولِي لك بالله ألْيَة بَرّة غير فاجرة؛ لئن جمعتني وإيّاك جوامع الأقدار، لأتركنّك مثلاً يتمثّل به الناس أبداً، ولأجعْجِعنّ بك في مناخِك حتّى يحكم الله بيني وبينك، وهو خيرُ الحاكمين.

ولئن أنسأ[٤] الله في أجلي قليلاً لأغزينّك سَرايا المسلمين، ولأنهدنّ إليك في جحْفل من المهاجرين والأنصار، ثم لا أَقبَل لك معذرة ولا شفاعة، ولا أجيبُك إلى طلب وسؤال، ولترجعنّ إلى تحيُّرك وتردُّدك وتلدُّدك، فقد شاهدتَ وأبصرتَ ورأيتَ سُحُب الموتِ كيف هطلتْ عليك بصيِّبها[٥] حتى اعتصمت بكتاب أنت وأبوك أوّل من كَفر وكذّب بنزُوله. ولقد كنتُ تفرّستُها، وآذنتْك أنّك فاعِلُها، وقد مضى منها ما مَضَى، وانقضى من كَيْدك فيها ما انقضى، وأنا سائرٌ نحوك على أثر هذا الكتاب، فاخترْ لنفسك، وانظرْ لها، وتداركْها، فإنّك إن فطرت واستمررْت على غيِّك وغُلَوائك[٦] حتى ينهد إليك عبادُ الله، أُرْتُجَت عليك الأُمور، ومُنعت أمراً هو اليوم منك مقبول.

يابن حرب، إنّ لجاجك في منازعة الأمر أهله من سفاه الرّأي، فلا يطمعنّك

---

١. أيمت نساءهم؛ أي تركتهن بلا أزواج.

٢. القليب: البئر.

٣. الحصاص: شدة العدو.

٤. أنسأ الله في أجلي؛ أي أخره قليلاً.

٥. الصيب: المطر المنصب.

٦. الغلواء: الكبر.

أهلُ الضلال ، ولا يوبقنّك سفهُ رأي الجهال ، فوالّذي نفسُ عليٍّ بيده لئن برقتْ في وجهك بارقة من ذي الفقار لتُصعَقَنّ صعْقةً لا تُفيق منها حتى يُنفخ في الصُور النّفخة الّتي يئست منها ﴿كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ﴾[1] » .

واعلم أنّ هذه الخُطْبة قد ذكرها نصر بنُ مُزاحِم في كتاب «صِفّين» على وجه يقتضي أنّ ماذكره الرضيُّ رحمه الله منها قد ضمّ إليه بعضَ خطبة أخرى ، وهذه عادتُه ؛ لأنّ غرَضه الْتِقاط الفصيح والبليغ من كلامه .

قلتُ : سألتُ النقيب أبا زيد عن معاوية : هل شهد بدراً مع المشركين ؟ فقال : نَعم شهدها ثلاثة من أولاد أبي سفيان : حنْظلة وعَمرو ومعاوية ، قُتِل أحدهم ، وأُسِر الآخر ، وأفْلت معاويةُ هارباً على رجْليْه ، فقدِم مكّة ، وقد انتفخَ قدماه ، وَوَرمتْ ساقاه ، فعالج نفسَه شهرين حتى برأ .



الأصْلُ :

ومن وصية له عليه السلام وصّى بها جيشاً بعثه إلى العدوّ

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ ، فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبُلِ ٱلْأَشْرَافِ ، أَوْ سِفَاحِ ٱلْجِبَالِ ، أَوْ أَثْنَاءِ ٱلْأَنْهَارِ ، كَيما يَكُونَ لَكُمْ رِدْءاً ، وَدُونَكُمْ مَرَدّاً . وَلْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَوِ ٱثْنَيْنِ ، وَٱجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي ٱلْجِبَالِ ، وَمَنَاكِبِ ٱلْهِضَابِ ، لِئَلَّا يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَدُوُّ مِنْ مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ .

وَٱعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ ٱلْقَوْمِ عُيُونُهُمْ ، وَعُيُونَ ٱلْمُقَدِّمَةِ طَلَائِعُهُمْ . وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ ؛ فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعاً ، وَإِذَا ٱرْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعاً ، وَإِذَا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا

---

١. الممتحنة ١٣.

الرِّمَاحَ كِفَّةً، وَلَا تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غِرَاراً أَوْ مَضْمَضَةً.

الشّرْحُ:

المُعسكَر، بفتح الكاف: موضعُ العسْكَر، وحيث ينزِل. الأشراف: الأماكن العالية، وقُبُلها: ما استقْبَلَك منها، وضدّه الدُّبر. وسفاح الجبال: أسافلُها حيث يَسفَح منها الماء. وأثناء الأنهار: ما انعَطف منها، واحدُها ثِنْي. والمعنى أنّه أمرهم أن ينزِلوا مسندين ظهورَهم إلى مكانٍ عالٍ كالهِضاب العَظِيمة، أو الجبالِ، أو مُنعطَف الأنهار الّتي تجرِي مجرَى الخنادق على العسكر ليأمنوا بذلك من البيات، وليأمَنوا أيضاً من إتيان العدوِّ لهم من خَلْفِهم، وقد فسّر ذلك بقوله: كيما يكون لكم رِدْءاً، والرِّدء: العَوْن، قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْأً يُصَدِّقُنِي﴾[1]. ودونَكم مَرَدّاً، أي حاجزاً بينكم وبين العدوّ.

ثمَّ أمرَهم بأن يكونَ مُقاتَلتهم ـ بفتح التاء، وهي مَصدَر «قاتل» ـ من وجهٍ واحدٍ أو اثنين، أي لا تتفرَّقوا؛ ولا يكن قتالُكم العدوَّ في جهاتٍ متشعِّبة، فإنَّ ذلك أدعى إلى الوَهَن، واجتماعُكم أدعَى إلى الظّفر، ثم أمرهم أن يجعلوا رقباءَ في صَياصِي الجبال. وصَياصِي الجبال: أعاليها وما جرى مجرَى الحصون منها، وأصل الصياصي القُرون، ثم استُعير ذلك للحصون لأنَّه يُمتنَع بها كما يمتنع ذو القَرْن بقَرْنه. ومناكب الهضاب: أعاليها؛ لئلّا يأتيَكم العدوّ إمَّا من حيث تأمَنون، أو من حيث تخافون.

قوله ﷺ: «مقدِّمة القوم عُيونُهم»، المقدِّمة، بكسر الدال، وهم الّذين يتقدّمون الجيش، أصله مقدِّمة القوم، أي الفِرْقة المتقدِّمة. والطّلائع: طائفة من الجيش تُبعَث ليُعلم منها أحوال العدوّ. وقال ﷺ: المقدِّمة عيون الجَيْش. والطلائع عيون المقدِّمة، فالطّلائع إذاً عُيونُ الجَيْش.

ثم نهاهم عن التفرّق، وأمَرهم أن ينزلوا جميعاً ويَرحلوا جميعاً، لئلّا يفْجَأَهم العدوّ بغتة على غير تعبيةٍ واجتماعٍ، فيَستأصلهم؛ ثم أمرَهم أن يجعلوا الرِّماح كِفَّة إذا غشيَهم الليل، والكاف مكسورة، أي اجعلوها مُستَدِيرة حوْلكم كالدّائرة، وكلّ ما استدار كِفّة بالكسر، نحو كِفّة الميزان، وكلّ ما استطال كُفّة بالضم نحو: كُفّة الثوب وهي حاشيته، وكُفة الرّمل، وهو ما

---

[1] ـ سورة القصص ٣٤.

كان منه كالحَبل.

ثم نهاهم عن النّوم إلّا غراراً أو مضمضةً، وكلا اللّفظتين ما قلّ من النوم.



الأَصْلُ:

ومن وصية له عليه السلام وصّى بها
معقل بن قيس الرياحيَّ حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدمة له

آتَّقِ آللهَ الَّذِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ، وَلامُنْتَهَىٰ لَكَ دُونَهُ، وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ، وَسِرِ آلْبَرْدَيْنِ، وَغَوِّرْ بِالنَّاس، وَرَفِّهْ فِي السَّيْرِ، وَلَا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ آللهَ جَعَلَهُ سَكَناً، وَقَدَّرَهُ مُقَاماً لَا ظَعْناً، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ، وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ. فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ آلْفَجْرُ، فَسِرْ عَلَىٰ بَرَكَةِ آللهِ. فَإِذَا لَقِيتَ آلْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً، وَلَا تَدْنُ مِنَ آلْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ آلْحَرْبَ.

وَلَا تَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ آلْبَأْسَ، حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ أَمْرِي، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ عَلَىٰ قِتَالِهِمْ قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَآلْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ.

الشّرْحُ:

معقِل بن قَيس، كان من رجال الكُوفة وأبطالِها، وله رئاسة وقَدَم، أوفَده عمّار بنُ ياسر إلى عمرَ بن الخطّاب مع الهُرْمُزان لفَتْح تُسْتَر وكان من شيعة عليّ عليه السلام، وجّهه إلى بني ساقَةَ فقتَل منهم وسَبى، وحارَب المستَوْردَ بنَ عُلفة الخارجيّ من تميم الرّباب، فقتَل كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه بدِجْلة.

قوله عليه السلام: «ولا تُقاتلَن إلّا من قاتَلك»، نهى عن البغْي. وسِرِ البَرْدَين: هما الغَداة والعَشِيّ،

وهما الأبرَدان أيضاً. ووصّاه أن يَرفُق بالنّاس ولا يكلّفهم السيرَ في الحرّ. «وغوِّر بالناس»: انزِل بهم القائلة، والمَصدَر التّغويرُ، ويقال للقائلة: الغائرة. «وَرفِّه في السّير»، أي دَعِ الإبلَ تَردُ رِفْهاً، وهو أن ترِد الماءَ كلّ يوم متى شاءت ولا تُرهِقها وتجشّمها السَّير. ويجوز أن يكون قوله: «ورفِّه في السَّير»، مِن قولك: رَفَّهْتُ عن الغرِيم، أي نفّست عنه. قولهﷺ: «ولا تسر أول الليل»، قد وَرَد في ذلك خبرٌ مرفوع؛ وقد علل أميرُ المؤمنينﷺ النهي بقوله: «فإن الله تعالى جعله سكناً، وقدّره مُقاماً لا ظعناً»، يقول: لما امتنّ الله تعالى على عباده بأن جعل لهم الليل ليسكنوا فيه[1] كره أن يخالفوا ذلك.

ثم أمرهﷺ بأن يريح في الليل بَدَنه وظَهرَه، وهي الإبل، وبنو فلان مُظهرون، أي لهم ظَهْر يُنقَلون عليه، كما تقول: منجِبون، أي لهم نجائب. قولهﷺ: «فإذا وقفتَ»، أي فإذا وقفتَ ثَقَلك ورَحلك لتسير، فليكن ذلك حين ينبطح السحر. قولهﷺ: «حين ينبطح السحر»، أي حين يتّسع ويمتدّ، أي لا يكون السحر الأول، أي ما بين السحر الأول وبين الفَجْر الأول، وأصل الانبطاح السَّعة، ومنه الأبطح بمكة، ومنه البطيحة، وتبطّح السيل، أي اتّسع في البطحاء؛ والفجر انفجر انشقّ.

ثم أَمرهﷺ إذا لقي العدوّ أن يقفَ بين أصحابه وسطاً لأنّه الرئيس، والواجب أن يكون الرئيس في قلب الجيش، كما أنّ قلب الإنسان في وسط جسده، ولأنّه إذا كان وسطاً كانت نسبته إلى كلّ الجوانب واحدة، وإذا كان في أحد الطرفين بعد من الطَّرف الآخر، فربما يختلّ نظامه ويضطرب. ثم نهاهﷺ أن يدنو من العدوّ دنوَّ من يريد أن يُنشِب الحربَ، ونهاه أن يبعدُ منهم بُعْدَ من يهاب الحربَ، وهي البأس، قال الله تعالى: **﴿وحينَ البَأسِ﴾**[2]، أي حين الحَرْب، بل يكون على حالٍ متوسّطة بين هذين حتى يأتيه الأمر من أمير المؤمنينﷺ؛ لأنّه أعرف بما تقتضيه المصلحة.

ثم قال له: لا يحملنّكم بغضكم لهم على أن تبدؤوهم بالقتال قبل أن تدعُوهم إلى الطاعة وتعتذروا إليهم، أي تصيروا ذوي عذر في حربهم. والشَّنآن: البغض، بسكون النون وتحريكها.

---

١. وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ يونس: ٦٧.

٢. سورة البقرة ١٧٧.



الأَصْلُ :

ومن كتاب لهﷺ إلى أميرين من أُمراء جيشه

وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلَىٰ مَنْ فِي حَيِّزِكُمَا مَالِكَ بْنَ ٱلْحَارِثِ ٱلْأَشْتَرَ، فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا، وَٱجْعَلَاهُ دِرْعاً وَمِجَنّاً فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَا يُخَافُ وَهْنُهُ وَلَا سَقْطَتُهُ وَلَا بُطْؤُهُ عَمَّا ٱلإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَىٰ مَا ٱلْبُطءُ عَنْهُ أَمْثَلُ.

الشّرْحُ :

هو مالك بنُ الحارث بن عبد يغوث ابن النَّخَع. وكان فارساً شجاعاً رئيساً من أكابر الشِّيعة وعُظمائها، شديدَ التحقّق بوَلاء أميرِ المؤمنينﷺ ونصرِه، وقال فيه بعد موته: رحم الله مالِكاً، فلقد كان لي كما كنتُ لرَسول اللهﷺ!

فأما ثناءُ أمير المؤمنينﷺ عليه في هذا الفَصْل فقد بلغ مع اختصاره ما لا يبلغ بالكلام الطويل، ولَعمري لقد كان الأشتر أهلاً لذلك، كان شديد البأس، جواداً رئيساً حليماً فصيحاً شاعراً، وكان يَجمَع بين اللِّين والعُنْف، فيَسطُو في موضع السَّطْوة، ويَرفُق في موضع الرِّفق. ومات الأشتر في سنة ٣٩ متوجّهاً إلىٰ مصر والياً عليها لعليﷺ. قيل: سُقي سُمّاً. دسّه إليه معاوية. وقد جمع أميرُ المؤمنينﷺ من أصناف الثّناء والمدْح، وهي قوله: «لا يخاف بُطْؤُهُ عمّا الإسراعُ إليه أحزَم، ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثَل.

قولهﷺ: «وعلى من في حيِّزِكما»، أي في ناحيتكما. والمِجَنّ: التّرس. والوَهْن: الضعف. والسَقْطة: الغَلْطة والخطأ. وهذا الرأي أحْزَم من هذا، أي أدخل في باب الحزْم والاحتياط، وهذا أمثل من هذا، أي أفضَل.



الأَصْلُ :

ومن وصية لهﷺ لعسكره بصفّين قبل لقاء العدوّ

لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ يَبْدَؤُكُمْ ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ ٱللهِ عَلَىٰ حُجَّةٍ ، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّىٰ يَبْدَؤُكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَىٰ لَكُمْ عَلَيْهِمْ . فَإِذَا كَانَتِ ٱلْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ ٱللهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِراً ، وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِراً ، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَىٰ جَرِيحٍ ، وَلَا تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذىً ، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ ، وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ ٱلْقُوَىٰ وَٱلْأَنْفُسِ وَٱلْعُقُولِ ؛ إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ ؛ وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ ٱلْمَرْأَةَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ بِالْفِهْرِ أَوِ ٱلْهِرَاوَةِ فَيُعَيَّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ .

الشَّرْحُ :

نَهى أصحابه عن البغي والابتداء بالحرب، وقد رُوي عنه أنه قال: ما نُصِرت على الأقْران الّذين قتلتهم إلّا لأنّي ما ابتدأتُ بالمبارزة. ونَهى ـ إذا وقعت الهزيمة ـ عن قَتْل المدبر والإجهاز على الجريح، وهو إتمام قتله.

قولهﷺ: «ولا تصيبوا مُعوراً»، هو من يعتصم منك في الحَرْب بإظهار عوْرته؛ لتكفّ عنه، ويجوز أن يكون المُعور هاهنا المريب الذي يظنّ أنه من القوم وأنّه حَضَر للحرب وليس منهم؛ لأنّه حضر لأمرٍ آخر. «ولا تُهيجوا النّساء بأذىً»، أي لا تحرّكوهنّ. والفِهْر: الحجَر: والهِراوة: العصا. وعَطَف «وعقبه» على الضمير المستكنّ المرفوع في «فيُعَيَّرُ» ولم يؤكّد للفَصْل بقوله: بها، كقوله تعالى **﴿ما أشرَكْنا ولا آباؤنا﴾**[1]؛ لما فَصَل بلا عطف ولم يحتجْ إلى تأكيد.

---

١. سورة الأنعام ١٤٨.



الأصْلُ :

وكان عليه السلام يقول إذا لقي العدو محارباً

اَللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ ٱلْقُلُوبُ، وَمُدَّتِ ٱلْأَعْنَاقُ، وَشَخَصَتِ ٱلْأَبْصَارُ، وَنُقِلَتِ ٱلْأَقْدَامُ، وَأُنْضِيَتِ ٱلْأَبْدَانُ.
اَللَّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْنُونُ الشَّنَآنِ، وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ ٱلْأَضْغَانِ.
اَللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا، وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا.
رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ، وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ.

الشّرْحُ :

أفضت القلوب، أي دَنَت وقَرُبَت، ومنه أفضَى الرّجلُ إلى امرأته أي غشيَها، ويجوز أن يكون «أفضت»، أي بسرّها، فحذف المفعول. وأُنضيت الأبدان: هَزُلت، ومنه النِّضو، وهو البَعير المهزُول. وصَرَّح: انكشَف. والشنآن: البغْضة. وجاشت: تحرّكت واضطربَتْ. والمَراجل: جمع مِرْجل، وهي القِدْر. والأضغان: الأحقاد، واحدُها ضغن.



الأصْلُ :

وكان يقول عليه السلام لأصحابه عند الحرب

لَا تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ، وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمْلَةٌ، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا،

وَوطِّنوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا، وَٱذْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَىٰ الطَّعْنِ ٱلدَّعْسِيِّ، وَالضَّرْبِ ٱلطِّلَحْفِيِّ، وَأَمِيتُوا ٱلْأَصْوَاتَ فإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ.

وَالَّذِي فَلَقَ ٱلْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَسْلَموا وَلٰكِنِ ٱسْتَسْلَمُوا، وَأَسَرُّوا ٱلْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَاناً عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ.

الشَّرْحُ:

قال: لا تستصعبوا فَرَّةً تفِرّونها بعدها كَرَّة، تجبُرون بها مَا تكسّر من حالكم، وإنّما الّذي ينبغي لكم أن تستَصْعبوه فَرّة لا كَرّةَ بعدَها؛ وهذا حَضٌّ لهم على أن يكرّوا ويعودُوا إلى الحرب إن وقعتْ عليهم كسرةٌ. ومثله قولُه: «ولا جَوْلةٌ بعدَهَا حمْلة»، والجوْلة: هزيمة قريبة ليست بالممعنة. واذمُرُوا أنفسَكم، مِن ذمَره على كذا، أي حضّه عليه. والطّعْن الدَّعْسيّ: الذي يُحْشى به أجواف الأعداء، وأصل الدَّعْس الحشْو، دَعسْتُ الوعَاءَ حشوْته.

وضرب طِلَحْفي بكسر الطاء وفتح اللام، أي شديد، واللام زائدة.

ثم أمَرَهم بإماتة الأصوات؛ لأنّ شِدّة الضّوْضاء في الحرب أمارة الخوف والوَجَل.

ثمّ أقسَم أنّ معاوية وعَمْراً ومَن والاهما من قريش ما أسلَموا ولكن استَسلَموا خوفاً من السّيف ونافَقُوا؛ فلمّا قَدَروا علىٰ إظهار ما في أنفسهم أظهَروه؛ وهذا يدلُّ علىٰ أنّه ﷺ جعل محاربتَهم له كُفراً.

وقد تقدّم في شرح حالِ معاويةَ وما يَذكره كثيرٌ من أصحابنا من فساد عقيدتِه ما فيه كفاية[1].

---

١. ذكر ابن أبي الحديد، أحوال معاوية وعمرو بن العاص، في الجزء الأول من شرحه، ص٣٢٤ وما بعدها، وج٢، ص٦٠ وما بعدها ومما قاله في معاوية، ص٣٤٠: (ومعاوية مطعون في دينه عند شيوخنا (رحمهم الله) يُرمَىٰ بالزندقة. وروىٰ أصحابنا في كتبهم الكلامية عنه من الإلحاد، والتعرّض لرسول الله ﷺ، وما تظاهر به من الجبر والإرجاء، ولو لم يكن شيء من ذلك، لكان في محاربته الإمام ما يكفي في فساد حاله) وفي ج٢، ص٦٥. قال عن عمرو بن العاص: قال شيخنا أبو القاسم البلخي: «وما زال عمرو بن العاص مُلْحِداً، ما تردد قط في الإلحاد والزندقة، وكان معاوية مثله ...».



الأَصْلُ :

ومن كتاب لهعليه السلام إلى معاوية جواباً عن كتابٍ منه إليه

وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ، فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لأُعْطِيَكَ ٱلْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْس. وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ ٱلْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ ٱلْعَرَبَ إِلَّا حُشَاشَاتِ أَنْفُس بَقِيَتْ، أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ ٱلْحَقُّ فَإِلَىٰ ٱلْجَنَّةِ، وَمَنْ أَكَلَهُ ٱلْبَاطِلُ فَإِلَىٰ النَّارِ.

وَأَمَّا ٱسْتِوَاؤُنَا فِي ٱلْحَرْبِ والرِّجَالِ فَلَسْتَ، بِأَمْضَىٰ عَلَىٰ الشَّكِّ مِنِّي عَلَىٰ ٱلْيَقِينِ، وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَىٰ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ عَلَىٰ ٱلْآخِرَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ! فَكَذٰلِكَ نَحْنُ، وَلٰكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِم، وَلَا حَرْبٌ كَعَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ، وَلَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ، وَلَا ٱلْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ، وَلَا الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ، وَلَا ٱلْمحِقُّ كَالْمُبْطِلِ، وَلَا ٱلْمُؤْمِنُ كَالمُدْغِلِ. وَلَبِئْسَ ٱلْخَلَفُ خَلَفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَىٰ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَذْلَلْنَا بِهَا ٱلْعَزِيزَ، وَنَعَشْنَا بِهَا الذَّلِيلَ. وَلَمَّا أَدْخَلَ ٱللهُ ٱلْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ؛ إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً، عَلَىٰ حِينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وَذَهَبَ ٱلْمُهَاجِرُونَ ٱلْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ؛ فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً، وَلَا عَلَىٰ نَفْسِكَ سَبِيلاً، وَالسَّلَامُ.

الشَّرْحُ :

يقال: طلبتُ إلى فلان كذا، والتقدير طلبتُ كذا راغباً إلى فلان، كما قال تعالى: ﴿**فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ**﴾[1] أي مُرسلاً.

---

١. سورة النمل ١٢.

ويُروي: «إلّا حُشاشةَ نفسٍ»، بالإفراد، وهو بقيّة الرُّوح في بَدَن المريض. ورُوِي: «ألا ومَن أكله الحقّ فإلىٰ النار»، وهذه الرواية أليَق من الرّواية المذكورة في أكثر الكُتُب؛ لأنّ الحق يأكل أهلَ الباطل، ومَن رَوَى تلك الرواية أضمَر مُضافاً تقديرُه «أعداءَ الحق»، ومضافاً آخَر تقديرُه «أعداءَ الباطل». ويجوز أن يكون مَنْ أكله الحقّ فإلى الجنّة، أي من أفضَى به الحقّ ونُصرتُه والقيامُ دونَه إلى القتل؛ فإنّ مصيرَه إلى الجنّة، فيسمّي الحقّ لما كانت نُصرتُه كالسبب إلى القَتْل أَكْلاً لذلك المقتول، وكذلك القولُ في الجانب الآخَر.

وكان الترتيب يقتضي أن يجعل هاشماً بإزاءِ عبدِ شمس؛ لأنّه أخوه في قُعدد، وكِلاهُما ولَدُ عبدِ منَاف لصُلْبه، وأن يكون أُميّة بإزاء عبد المطلب، وأن يكون حَرْبٌ بإزاء أبي طالب، وأن يكون أبو سُفيانَ بإزاء أميرِ المؤمنينعليه السلام؛ لأنّ كلّ واحد من هؤلاء في قُعْدُدِ صاحبه، إلّا أنّ أمير المؤمنينعليه السلام لمّا كان في صِفّين بإزاء معاويةَ اضطُرّ إلى أن جَعَل هاشماً بإزاء أُميّة بن عبد شمس.

فإن قلت: فهلّا قال: «ولا أنا كأنت»؟

قلتُ: قبيحٌ أن يقال ذلك، كما لا يقال: السّيفُ أمضَى من العصا، بل قبيحٌ به أن يقولها مع أحدٍ من المسلمين كافّةً، نعم قد يقولها لا تَصريحاً، بل تَعريضاً؛ لأنّه يرفع نفسَه على أن يقيسَها بأَحَد. وهاهنا قد عرّض بذلك في قوله: «ولا المهاجِرُ كالطَّليق».

فإن قلتَ: فهل معاويةُ من الطُّلَقاء؟

قلت: نعم، كلُّ من دَخل عليه رسولُ اللهصلى الله عليه وآله مَكّةَ عَنْوةً بالسّيف فملكه ثم مَنَّ عليه عن إسلامٍ أو غيرِ إسلام فهو من الطُّلَقاء ممّن لم يُسلم كصَفْوان بن أُميّة، ومَن أسلَم كمعاوية بن أبي سُفْيان، وكذلك كلُّ من أُسِرَ في حَرْب رسولِ اللهصلى الله عليه وآله، ثم امتَنّ عليه بِفداءٍ أو بغير فِداء فهو طَلِيق، فممّن أُمتنّ عليه بفداءٍ كسُهيلِ بن عمرو، وممّن امتنّ عليه بغير فداء أبو عَزّة الجُمَحيّ، وممن امتنّ عليه مُعاوَضة أي أُطلِق لأنّه بإزاءِ أسيرٍ من المسلمين عَمْرو بن أبي سُفْيان بن حَرْب، كلّ هؤلاء معدودون من الطُّلقاء.

قوله: «ولا الصريح كاللَّصِيق»، إنّما أراد الصريحَ بالإسلام واللَّصيق في الإسلام، فالصريح فيه هو من أسلَم اعتقاداً وإخلاصاً، واللَّصيق فيه مَنْ أسلَم تحتَ السيف أو رغبةً في الدنيا، وقد صَرّح بذلك فقال: «كنتم ممّن دخل في هذا الدِّين إمّا رَغبةً وإمّا رَهْبةً».

فإن قلت: فما معنى قوله: «ولَبِئس الخَلَف خَلَفاً يَتبَع سَلَفاً هَوَى في نار جهنّم»؟ وهل

يُعابُ المسلم بأنّ سَلَفه كانوا كُفّاراً ؟

قلتُ : نعم ، إذا تَبِع آثارَ سَلفِه واحتَذَى حذوَهم ، وأميرُ المؤمنينﷺ ما عابَ معاويةَ بأنّ سَلَفه كُفّار فقط ، بل بكَوْنه متّبعاً لهم .

قولُهﷺ : «وفي أيدِينا بعدُ فَضْل النبوّة» ، أي إذا فَرَضْنا تَساوِي الأقدام في مآثر أسْلافكم ، كان في أيدينا بعدُ الفَضلُ عليكم بالنبوّة التي نَعَشْنا بها الخاملُ ، وأخْمَلْنا بها النّبيه .

قولهﷺ : «على حينَ فازَ أهلُ السَّبْق» ، قال قوم من النُّحاة : «حينَ» مبنيٌّ هاهنا عَلَى الفَتْح . وقال قوم : بل مَنْصوبٌ لإضافته إلى الفعل . قولهﷺ : «فلا تجعَلنّ للشيطان فيكَ نصيباً» ، أي لا تستَلْزِم من أفعالك ما يدوم به كونُ الشيطان ضارِباً فيك بنَصيب ؛ لأنّه ما كتب إليه هذه الرسالةَ إلّا بعد أن صار للشيطان فيه أوفرُ نصيب ، وإنّما المراد نهيُه عن دوام ذلك واستمرارِه .

وذكر نصرُ بنُ مُزاحم بن بشّار العُقَيليّ في كتاب «صِفّين» أنّ هذا الكتاب كتبه عليّﷺ إلى معاوية قبل ليلة الهرير بيومين أو ثلاثة .



الأَصْلُ :

ومن كتاب لهﷺ إلى عبد الله بن عباس وهو عامله على البصرة

وَآعْلَمْ أَنَّ آلْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ ، وَمَغْرِسُ آلْفِتَنِ ، فَحَادِثْ أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَآحْلُلْ عُقْدَةَ آلْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ .

وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ ، وَغِلْظَتُكَ عَلَيْهِمْ ؛ وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ ، وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً ، وَقَرَابَةً خَاصَّةً ، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَىٰ صِلَتِهَا ، وَمَأْزُورُونَ عَلَىٰ قَطِيعَتِهَا . فَارْبَعْ

أَبَا ٱلْعَبَّاس، رَحِمَكَ ٱللهُ، فِيما جَرَىٰ عَلَىٰ لِسَانِكَ وَيَدِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ا فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذٰلِكَ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ، وَلَا يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ، وَالسَّلَامُ.

الشّرْحُ :

قوله عليه السلام : مَهْبط إبليس : موضع هُبوطه. ومغرس الفِتَن : موضع غَرْسِها، ويـروَى «ومُـغْرِسِ الفتن»، وهو الموضع الّذي ينزِل في القومُ آخر اللّيل للاستراحة، يقال: غَرَسوا وأغرَسوا. وقولهُ عليه السلام : «فحادِثْ أهلَها»، أي تعهّدْهم بالإحسان، من قولِك: حادثتُ السيفَ بـالصِّقال. والتنمُّر للقوم: الغلْظة عليهم، والمعامَلة لهم بأخلاق النَّـمِرِ، من الجرْأة والوثوب. والوَغْم: التِّرة، والأوْغام: التِّرات، أي لم يُهدَر لهمْ دمٌ في جاهليّة ولا إسـلام، يـصفُهم بـالشّجاعة والحَميّة. ومأزُورون، كان أصـله «مَـوْزورُون»، ولكـنّه جـاء بـالألف لـيُحاذِي بـه ألفَ « مأجُورُون»، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله مثل ذلك.

قوله عليه السلام : «فاربَعْ أبا العباس»، أي قِفْ وتثبَّت في جميع ما تعتمدُه فِعلاً وقَوْلاً من خَـيْر وشر، ولا تَعجَل به فإنّي شريكُك فيه إذ أنتَ عاملي والنائبُ عنّي. ويعني بالشرّ هاهنا الضررَ فقط، لا الظّلم والفِعل القبيح. «وكن عند صالح ظَنّي فيك»، أي كن واقفاً عندَه كأنّك تشاهِدُه فتَمنَعك مشاهَدَته عن فعلِ ما لا يجوز. فال الرأيُ يَفيل، أي ضَعُف وأخطأ.



الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً، وَٱحْتِقَاراً وَجَفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلاً لَأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ، وَلَا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ، فَٱلْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ، وَدَاوِلْ لَهُمْ بَيْنَ ٱلْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ،

وَٱمْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَٱلْإِدْنَاءِ، وَٱلْإِبْعَادِ وَٱلْإِقْصَاءِ. إِنْ شَاءَ ٱللهُ[1].

الشَّرْحُ :

الدَّهاقين: الزعماء أربابُ الأملاك بالسّواد، واحدُهم دِهقان بكسر الدال، ولفظُه معرَّب. وداوِلْ بينهم، أي مرّة هكذا ومرّة هكذا، أمره أن يَسلك معهم مَنهَجاً متوسّطاً، لا يُدنِيهم كلَّ الدنوّ؛ لأنهم مُشرِكون، ولا يقصيهم كلّ الإقصاء؛ لأنهم مُعاهِدون، فوجب أن يعاملهم معاملةً آخِذةً من كلّ واحدٍ من القسمين بنصيب.



الأَصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه

وهو خليفة عامله عبدالله بن عباس على البصرة ـ وعبد الله عامل أمير المؤمنين عليه السلام يومئذٍ عليها وعلى كُوَر الأهواز وفارس وكِرْمَان وغيرها:

وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَماً صادِقاً، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ ٱلْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً، لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ ٱلْوَفْرِ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ، ضَئِيلَ ٱلْأَمْرِ، وَالسَّلَامُ.

الشَّرْحُ :

قوله عليه السلام: «لأشُدّنّ عليك شدّة»، مثلُ قوله: «لأحملنّ عليك حَملةً»، والمراد تهديده بالأخذ واستصفاء المال.

ثم وصف تلك الشدّة فقال: «إنها تتركك قليل الوَفْر»، أي أُفقِرك بأخذ ما اجتحتَ من

---

١. الغلظة: الخشونة، ضد الرّقة. الجفوة: ضد المواصلة والمؤانسة. الإقصاء: الإبعاد. العهد: الذمّة والأمان. الجلباب: الإزار. تشوبه: تخلطه.

بيت مال المسلمين. وثقيل الظّهر، أي مسكين لا تقدِر على مَؤونة عيالك. وضئيل الأمر، أي حقير؛ لأنك إنما كنت نبيهاً بين الناس بالغنَى والثّروة، فإذا افتقرتَ صغرتَ عندهم، واقتحمَتك أعينُهم.



الأصْلُ:

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد أيضاً

فَدَعِ ٱلْإِسْرَافَ مُقْتَصِداً، وَٱذْكُرْ فِي ٱلْيَوْمِ غَداً، وَأَمْسِكْ مِنَ ٱلْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَقَدِّمِ ٱلْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ، أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ ٱللهُ أَجْرَ ٱلْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ ٱلْمُتَكَبِّرِينَ! وَتَطْمَعُ - وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ، أَنْ تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَٱلْأَرْمَلَةَ - أَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ ٱلْمُتَصَدِّقِينَ؟ وَإِنَّمَا ٱلْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ وَقَادِمٌ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ، وَالسَّلَامُ.

الشّرْحُ:

المتمرِّغ في النّعيم: المتقلّب فيه، ونهاه عن الإسراف وهو التبذير في الإنفاق، وأمرَه أن يُمسك من المال ما تَدْعو إليه الضرورة، وأن يقدِّم فضول أمواله وما ليس له إليه حاجة ضرورية في الصدقة فيدّخره ليوم حاجته، وهو يوم البَعْث والنشور.

قلتُ: قبّح الله زياداً! فإنه كافأ إنعام عليّ عليه السلام وإحسانه إليه واصطناعه له بما لا حاجة إلى شرحه من أعماله القبيحة بشيعته ومحبّيه والإسراف في لعنه، وتهجين أفعاله، والمبالغة في ذلك بما قد كان معاوية يرضى باليسير منه، ولم يكن يفعلُ ذلك لطلب رضا معاوية، كلّا، بل يفعله بطبعه، ويعاديه بباطنه وظاهره، وأبى اللهُ إلّا أن يرجع إلى أُمّه، ويصحّح نسبه، وكلُّ إناءٍ يَنْضَح بما فيه. ثم جاء ابنه بعده فختم تلك الأعمال السيّئة

بما ختم، وإلى الله ترجع الأُمور!



الأَصْلُ :

ومن كتاب لهعليه السلام إلى عبد الله بن العبّاسرحمه الله

وكان ابنُ عبّاس يقول: ما انتفعت بكلامٍ بعدَ كلام رسولِ اللهصلى الله عليه وآله كانتفاعي بهذا الكلام:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱلْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَىٰ مَا فَاتَكَ مِنْهَا، وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأسَ عَلَيْهِ جَزَعاً، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيما بَعْدَ ٱلْمَوْتِ.

الشّرْحُ :

يقول: إنّ كلّ شيء يصيب الإنسانَ في الدّنيا من نَفْع وضَرّ فبقضاء من الله وقَدره تعالى؛ لكنّ الناسَ لا ينظرون حقّ النظر في ذلك، فيُسَرّ الواحدُ منهم بما يصيبه من النّفع، ويُساء بفوْت ما يَفُوته منه، غيرُ عالم بأنّ ذلك النفعَ الّذي أصابه، كان لابدّ أن يصيبه، وأنّ ما فاته منه كان لابدّ أن يفوته، ولو عرَف ذلك حقّ المعرفة لم يفرَح ولم يَحزَن.

ولقائلٍ أن يقول: هَبْ أن الأُمور كلّها بقضاءٍ وقَدَر، فلم لا ينبغي للإنسان أن يَفرَح بالنفع وإن وَقع بالقَدَر، ويُساءَ بفَوْته أو بالضّرر وإن وَقَعا بقَدَر؟

والجواب: ينبغي أن يُحمَل هذا الكلامُ على أنّ الإنسان ينبغي أن لا يعتقد في الرّزق أنه أتاه بسَعْيه وحَرَكته فيَفرَح مُعْجَباً بنفسه، وكذلك ينبغي ألّا يساء بفَوات ما يفوته من المنافع لائماً نفسَه في ذلك ناسباً لها إلى التقصير وفسادِ الحيلة والاجتهاد؛ لأنّ الرزق هو من الله تعالى لا أَثَر للحركة فيه، وإن وقع عندها.



الأصْلُ:

ومن كلام لهعليه السلام قاله قبل موته
على سبيل الوصيّة لمّا ضَرَبه ابن مُلجم لعنه الله

وَصِيَّتِي لَكُمْ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً؛ وَمُحَمَّدٌ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هٰذَيْنِ ٱلْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هٰذَيْنِ ٱلْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ!
أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَٱلْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ، إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، وَإِنْ أَفْنَ فَٱلْفَنَاءُ مِيعَادِي، وَإِنْ أَعْفُ فَٱلْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَاعْفُوا: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ ٱللهُ لَكُمْ﴾[1].
وَٱللهِ مَا فَجَأَنِي مِنَ ٱلْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ، وَلَا طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ؛ وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ، وَطَالِبٍ وَجَدَ؛ ﴿وَمَا عِنْدَ ٱللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾[2].

قال الرضيرحمه الله:

أقولُ: وقد مضى بعض هذا الكلام فيما تقدّم من الخطب، إلّا أن فيه هاهنا زيادةً أوجبت تكريره.

الشّرْحُ:

فإن قلت: لقائل أن يقول: إذا أوصاهم بالتّوحيد واتّباع سنّة النبيّصلى الله عليه وآله فلم يبقَ شيء بعد ذلك يقول فيه: أقيموا هذين العَمودين وخَلَاكم ذمّ؛ لأنّ سنّة النبيّصلى الله عليه وآله فعلُ كلّ واجب، وتجنُّب كلّ قبيح؛ فخلاهم ذمّ فيماذا يقال؟
والجواب: أنّ كثيراً من الصّحابة كلّفوا أنفسهم أُموراً من النّوافل شاقّةً جداً، فمنهم من

---

١. سورة النور ٢٢.
٢. سورة آل عمران ١٩٨.

كان يقوم الليل كلّه، ومنهم من كان يصوم الدهر كلّه، ومنهم المرابط في الثّغور، ومنهم المجاهد مع سقوط الجهاد عنه لقيام غيره به، ومنهم تاركُ النّكاح، ومنهم تاركُ المطاعم والملابس؛ وكانوا يتفاخرون بذلك، ويتنافسون فيه، فأرادﷺ أن يبيِّن لأهله وشيعته وقتَ الوصيّة أنّ المهمّ الأعظم هو التّوحيد، والقيام بما يُعلم من دين محمّدﷺ أنه واجب، ولا عليكم بالإخلال بما عدا ذلك، فليت من المئة واحداً نَهَض بذلك، والمراد ترغيبهم بتخفيف وظائف التكاليف عنهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿**يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[1]. وقالﷺ: «بُعثتُ بالحنيفيّة السّهلة السَّمْحة».

قولُه: وخَلاكم ذمّ، لفظةٌ تقال على سبيل المثَل، أي قد أعذَرتم، وسَقَط عنكم الذمّ.

ثم قسم أيامه الثلاثة أقساماً فقال: أنا بالأمس صاحبُكم أي كنت أُرجَى وأُخاف، وأنا اليوم عِبرةٌ لكم، أي عِظَة تعتبرون بها. وأنا غداً مفارقكم، أكون في دار أُخرىٰ غير داركم.

ثم ذكر أنه إن بقي ولم يمتْ من هذه بالضربة فهو وليّ دمِه، إن شاء عَفا، وإنْ شاء اقتصّ، وإن لم يَبْق فالفناء الموعد الَّذي لابدّ منه. ثم عاد فقال: وإن أعْفُ، والتقسيم ليس على قاعدة تقسيم المتكلِّمين. والمعنى منه مفهوم، وهو إمّا أن أسلم من هذه الضربة أو لا أسلم، فإن سلمت منها فأنا وليّ دَمي؛ إن شئتُ عفوتُ فلم أقتصّ، وإن شئتُ اقتصصتُ، ولا يعني بالقصاص هاهنا القتل، بل ضربةً بضربة، فإن سَرَتْ إلى النفس كانت السراية مُهدَرة كقَطْع اليد. ثم أومأَ إلىٰ أنه إن سلم عفا، بقوله: إن العفو لي إن عفوْت قرْبة.

ثم عُدْنا إلى القسم الثاني من القسمين الأوَّليْن، وهو أنهﷺ لا يَسلَم من هذه؛ فولاية الدم إلى الورثة إن شاؤوا اقتَصُّوا وإن شاؤوا عَفَوْا. ثم أومأ إلىٰ أنَّ العفوَ منهم أحسن، بقوله: «وهو لكم حسنة»، بل أمَرَهم أمراً صريحاً بالعفو، فقال: فاعفوا، ﴿**أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ**﴾. وهذا لفظ الكتاب العزيز، وينبغي أن يكون أمْرُه بالعفو في هذا الكلام محمولاً على النّدب.

ثم أقسَمﷺ أنّه ما فجأه من الموت أمْرٌ أنكَرَه ولا كَرِهه، فجأني الشيء: أتاني بغتةً. ثم قال: «ما كنتُ إلّا كقارِب وَرَد»، والقارب: الّذي يسير إلى الماء وقد بقي بينه وبينَه ليلة واحدة، والاسم: القَرَب، فهم قارِبون، ولا يقال: «مقرِبون»، وهو حرف شاذٌّ.

---

١. سورة البقرة ١٨٥.



الأصْلُ :

ومن وصية لهعليه السلام

بما يُعمل في أمواله ، كتبها بعد منصرفه من صفين

هٰذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ ٱللهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ، ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللهِ، لِيُولِجَهُ بِهِ ٱلْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ ٱلْأَمَنَةَ.

الشّرْحُ :

قد عابت العثمانِيّة وقالت : إنّ أبا بكر مات ولم يخلّف ديناراً ولا درهماً، وإنّ علياًعليه السلام مات وخلّف عَقاراً كثيراً ـ يَعنون نَخْلاً.

قيل لهم : قد عَلِم كلُّ أحدٍ أنّ عليّاًعليه السلام استخرَج عيوناً بكدّ يدِه بالمدينة ويَنْبُع وسُويْعة، وأحْيَا بها مَواتاً كثيراً، ثم أخرَجها عن مِلكِهِ، وتَصدّق بها على المسلمين، ولم يمتْ وشيءٌ منها في ملكِه، ولم يُورِّث عليٌّعليه السلام بنيه قليلاً من المال ولا كثيراً إلّا عبيدَه، وإماءَه وسَبْعَمِئة درهم من عَطائه، تركها ليشتريَ بها خادماً لأهله، وإنما لم يَترُك أبو بكر قليلاً ولا كثيراً لأنّه ما عاش، ولو عاش لترَك.

وقد مات رسولُ اللهصلى الله عليه وآله وسلم وله ضِياعٌ كثيرةٌ جليلة جدّاً بخَيْبَر وفَدَك وَبَني النَّضِير، وكان له وادِي نخْلة، وضِياعٌ أُخرىٰ كثيرة بالطائف، فإن كان عليٌّعليه السلام مَعيباً بضياعه ونخلِه فكذلك رسولُ اللهصلى الله عليه وآله وسلم، وهذا كفر وإلحاد.

ورُويَ: «ويُعطيني بهِ الأمَنَة»، وهي الأمْن.

الأصْلُ :

منها :

فإنَّهُ يَقُومُ بِذٰلِكَ ٱلْحَسنُ بْنُ عَلِيٍّ يأْكُلُ مِنْهُ بِالْمعْروفِ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ

حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ، قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ، وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ؛ وَإِنَّ لابنَيْ فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ.

وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ ٱلْقِيامَ بِذٰلِكَ إِلَىٰ ٱبْنَيْ فَاطِمَةَ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللهِ، وَقُرْبَةً إِلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ، وَتَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ، وَيَشْتَرِطُ عَلَىٰ الَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ ٱلْمَالَ عَلَىٰ أُصُولِهِ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أُمِرَ بِهِ وَهُدِيَ لَهُ، وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِ نَخِيلِ هٰذِهِ ٱلْقُرَىٰ وَدِيَّةً حَتَّىٰ تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً.

وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي - اللَّاتِي أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ - لَهَا وَلَدٌ، أَوْ هِيَ حَامِلٌ، فَتُمْسَكُ عَلَىٰ وَلَدِهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ؛ فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ، قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا الرِّقُّ، وَحَرَّرَهَا ٱلْعِتْقُ.

قال السيّد الرضي رحمه الله:

قوله عليه السلام في هذه الوصية: «وألا يبيع من نخلها وَدِيَّـةً»، الوَدِيَّـةُ: الفَسِيلَةُ، وجمعها وَدِيّ.

وَقوله عليه السلام: «حتى تشكل أرضها غراساً» هو من أفصح الكلام، والمراد به أن الأرض يكثر فيها غراس النخل حتى يراها الناظر على غير تلك الصفة التي عرفها بها، فيشكل عليه أمرها ويحسبها غيرها.

الشّرْحُ:

جَعلَ للحَسَن ابنه عليه السلام ولاية صَدَقات أمواله، وأذن له أن يأكل منه بالمعروف، أي لا يُسرِف، وإنّما يتناول منه مقدارَ الحاجة، وما جرتْ بمثلِه عادة من يتولّى الصدقات.

ثم قال: فإن مات الحسنُ، والحُسين بعدَه حيّ فالولايةُ للحسين، والهاء في «مَصدرِه» ترجع إلى الأمر، أي يصرفه في مَصارفه التي كان الحسن يصرفه فيها. ثم ذكر أنَّ لهذين الولدين حصّة من صدقاته أُسوَةً بسائر البنين، وإنما قال ذلك؛ لأنّه قد يتوهّم متوهِّم أنّهما لكونهما قد فوِّض إليهما النظرُ في هذه الصدقات، قد مُنِعا أن يُسهما فيها بشيء، وإن الصّدقات إنما يتناولها غيرُهما من بني عليّ عليه السلام ممّن لا ولاية له مع وجودهما، ثم بيّن لماذا خصَّهما بالولاية؟ فقال: إنّما فعلتُ ذلك لشرفهما برسول الله صلى الله عليه وآله، فتقرّبتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بأن جعلتُ لسِبطيه هذه الرئاسة، وفي هذا رَمْز وإزراء بمن صَرَف الأمر عن

أهل بيتِ رسول الله ﷺ مع وجود من يصلُح للأمر، أي كان الأليق بالمسلمين والأَوْلىٰ أن يجعلوا الرِّئاسة بعدَه لأهله قُربةً إلى رسول الله ﷺ، وتكريماً لحرمته، وطاعَةً له، وأنفَةً لقَدْره ﷺ أن تكونَ وَرَثَته سُوقةً، يليهم الأجانب، ومن ليس من شَجَرته وأصلِه، ألَا ترى أنّ هيبة الرّسالة والنبوّة في صدور الناس أعظمُ إذا كان السلطان والحاكم في الخلق من بيت النبوّة؛ وليس يُوجد مثل هذه الهيْبة والجلال في نفوس الناس للنبوّة إذا كان السلطان الأعظمُ بعيدَ النسب من صاحب الدعوة ﷺ!

ثم اشترَط على مَنْ يلي هذه الأموال أن يتركَها علىٰ أُصولها، ويُنفِق من ثمرتها، أي لا يقطع النخل والثمر ويبيعُه خَشَباً وعيداناً، فيُفضي الأمرُ إلى خراب الضِّياع وعُطْلة العَقار.

قوله: «وألّا يبيع من أولاد نخيل هذه القُرَى»، أي من الفُسْلان الصّغار، سمّاها أولاداً، وفي بعض النُّسخ ليست «أولاد» مذكورةً، والوَديّة: الفَسِيلة. تُشْكِلَ أرضها: تمتلئ بالغِراس حتى لا يَبقَى فيه طريقة واضحة.

قوله: «أطوفُ عليهنّ»، كنايةً لطيفة عن غِشْيان النساء، أي من السَّراريّ؛ فقال: من كان من إمائي لها ولد منّي؛ أو هي حاملٌ منّي وقسمتم تركتي فلتكن أُمُّ ذلك الولدِ مبيعة على ذلك الوَلَد، ويُحَاسَب بالثمن من حصّته من التركة، فإذا بيعتْ عليه عتقتْ عليه؛ لأنّ الوَلد إذا اشتَرَى الوالدَ عَتق الوالدُ عنه، وهذا معنى، قوله «فتُمسَك على ولدها»، أي تقوم عليه بقيمة الوقت الحاضر، وهي منْ حظّه، أي من نصيبه وقسطه من التركة. قال: فإن مات ولدها وهي حيّة بعد أن تقوم عليه فلا يجوز بيعُها؛ لأنها خرجتْ عن الرِّق بانتقالها إلى ولدها، فلا يجوز بيعُها.



الأصْلُ:

ومن وصية له ﷺ كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات

وإنّما ذكرنا هنا جُمَلاً منها ليُعلمَ بها أنّه ﷺ كان يقيم عِمادَ الحق، ويشرع أمثلةَ العَدْل، في صغير الأُمور وكبيرِها، ودقيقِها وجَليلِها.

ٱنْطَلِقْ عَلَىٰ تَقْوَىٰ ٱللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً، وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ

كَارِهاً، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ ٱللهِ فِي مَالِهِ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَىٰ ٱلْحَيِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ، ثُمَّ ٱمْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَٱلْوَقَارِ؛ حَتَّىٰ تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ. وَلَا تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ، ثُمَّ تَقُولُ: عِبَادَ ٱللهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ ٱللهِ وَخَلِيفَتُهُ، لِآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ ٱللهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ للهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلَىٰ وَلِيِّهِ!

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَا، فَلَا تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ، أَوْ تَعْسِفَهُ أَوْ تُرْهِقَهُ؛ فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلْهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ وَلَا عَنِيفٍ بِهِ. وَلَا تُنَفِّرَنَّ بَهِيمَةً وَلَا تُفْزِعَنَّهَا، وَلَا تَسُوءَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا.

وَٱصْدَعِ ٱلْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا ٱخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا ٱخْتَارَهُ. ثُمَّ ٱصْدَعِ ٱلْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا ٱخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا ٱخْتَارَهُ؛ فَلَا تَزَالُ كَذٰلِكَ حَتَّىٰ يَبْقَىٰ مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ ٱللهِ فِي مَالِهِ؛ فَاقْبِضْ حَقَّ ٱللهِ مِنْهُ.

فَإِنِ ٱسْتَقَالَكَ فَأَقِلْهُ، ثُمَّ ٱصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلاً حَتَّىٰ تَأْخُذَ حَقَّ ٱللهِ فِي مَالِهِ. وَلَا تَأْخُذَنَّ عَوْداً وَلَا هَرِمَةً وَلَا مَكْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً، وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ؛ وَلَا تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ، رَافِقاً بِمَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ حَتَّىٰ يُوَصِّلَهُ إِلَىٰ وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ، وَلَا تُوَكِّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحاً شَفِيقاً وَأَمِيناً حَفِيظاً، غَيْرَ مُعْنِفٍ وَلَا مُجْحِفٍ، وَلَا مُلْغِبٍ وَلَا مُتْعِبٍ.

ثُمَّ ٱحْدُرْ إِلَيْنَا مَا ٱجْتَمَعَ عِنْدَكَ نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ ٱللهُ بِهِ، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَلَّا يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا، وَلَا يَمْصُرَ لَبَنَهَا فَيَضُرَّ ذٰلِكَ بِوَلَدِهَا؛ وَلَا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً، وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذٰلِكَ وَبَيْنَهَا، وَلْيُرَفِّهْ عَلَىٰ اللَّاغِبِ، وَلْيَسْتَأْنِ بِالنَّقِبِ وَالظَّالِعِ، وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ ٱلْغُدُرِ، وَلَا يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ ٱلْأَرْضِ إِلَىٰ جَوَادِّ الطُّرُقِ، وَلْيُرَوِّحْهَا فِي السَّاعَاتِ، وَلْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَافِ وَٱلْأَعْشَابِ، حَتَّىٰ

تَأْتِينَا بِإِذْنِ آللهِ بُدَّناً مُنْقِيَاتٍ، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ، لِنَقْسِمَهَا عَلَىٰ كِتَابِ آللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّىٰ آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ أَعْظَمُ لِأَجْرِكَ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ، إِنْ شَاءَ آللهُ.

الشّرْحُ:

قد كرّر عليه السلام قوله: «لنَقسِمها على كتاب الله وسُنّة نبيّه صلى الله عليه وآله» في ثلاثة مواضعَ مِن هذا الفَصْل!

الأوّل ـ قولُه: «حتى يوصله إلى وليّهم لِيَقسِمَه بينهم».

الثاني ـ قوله عليه السلام: «نصيِّره حيث أمَرَ الله به».

الثالث ـ قوله: «لنَقسِمها عَلَى كتاب الله»، والبلاغة لا تقتضي ذلك، ولكنّي أظنّه أحبَّ أن يَحتاط، وأن يدفعَ الظِّنّة عن نفسِه، فإن الزّمان كان في عهده قد فَسَد، وساءت ظُنونُ الناس، لا سيّما مع ما رآه من عثمان واستئثاره بمالِ الفَيْء.

ونعود إلى الشرح. قوله عليه السلام: «عَلَى تقوَى الله»، «على» ليست متعلّقة بـ«انطلِقْ»، بل بمحذوف، تقديرُه: مُواظِباً. «ولا تُروعَنّ»، أي لا تُفَزِّعَنّ، والرَّوع الفَزَع، رُعتُه أرُوعه، ولا تُروِّعنّ بتشديد الواو وضَمِّ حَرف المضارَعة، من رَوّعت للتكثير. «ولا تجتازَنّ عليه كارهاً»، أي لا تَمُرّنّ ببيوت أحدٍ من المسلمين يكره مُرورَك. ورُوِي: «ولا تَختارَنّ عليه»، أي لا تَقسِم مالَه وتختَرْ أحدَ القِسْمين، والهاء في «عليه» ترجع إلى «مُسلِماً»، وتفسير هذا سيأتي في وصيّته له أن يَصدَع المال ثم يصدعه، فهذا هو النّهي عن أن يختار عَلَى المسلِم. والرواية الأُولى هي المشهورة.

قوله عليه السلام: «فانزلْ بمائهم»، وذلك لأنّ الغريبَ يُحمَد منه الانقباض، ويُستَهْجَن في القادم أن يُخالط بيوت الحيّ الذي قدم عليه فقد يكون هناك من النساء من لا تليق رؤيتُه، ولا يحسُن سماعُ صَوته، ومن الأطفال من يَستهجِن أن يرى الغريبَ انبساطَه على أبويه وأهلِه، وقد يكره القومُ أن يطّلع الغريبُ عَلَى مأكَلهم ومشرَبهم وملبَسهم وبواطنِ أحوالهم، وقد يكونون فقراء فيكرهون أن يعرِف فقرَهم فيحتقرهم، أو أغنياءَ أربابَ ثروة كثيرة فيكرهون أن يَعلَم الغريبُ ثروتَهم فيحسُدَهم، ثم أمره أن يَمضِيَ إليهم غير متسرِّع ولا عَجِلٍ ولا طائشٍ نزِق، حتى يقوم بينهم فيسلِّم عليهم ويحيِّيهم تحيّةً كاملة، غير مخدجة، أي غير ناقصة، أَخدجَتِ الناقةُ إذا جاءت بوَلَدها ناقصَ الخَلْق، وإن كَانت أيامه تامّة، وخَدَجتْ: ألقتْ الولدَ قبل تَمام أيّامه. ورُوي: «ولا تُخدج بالتحيّة»، والباء زائدة.

ثم أمره أن يسألهم: هل في أموالهم حقٌّ لله تعالى يعني الزّكَاة؟ فإن قالوا: لا، فلينصرف عنهم؛ لأنّ القولَ قول ربِّ المال، فلعلّه قد أخرج الزكَاة قبل وصول المصدق إليه. قوله: «أنعَم لك»، أي قال: نعم. ولا تعسِفه، أي لا تطلب منه الصّدقة عَسْفاً، وأصلُه الأخذ عَلَى غير الطريق. ولا تُرهِقه: لا تكلِّفه العسرَ والمشقّة.

ثم أمَرَه أن يَقبِض ما يدفع إليه من الذّهب والفضّة، وهذا يدلّ عَلَى أن المصدّق كَان يأخذ العَيْنَ والوَرِق كما يأخذ الماشية، وأن النّصاب في العَيْن والوَرِق تُدفع زكاتُه إلى الإمام ونوّابه، وفي هذه المسألة اختلافٌ بين الفقهاء.

قوله: «فإنّ أكثرها له»، كلامٌ لا مَزيدَ عليه في الفصاحة والرِّئاسة والدِّين؛ وذلك لأنّ الصدقة المستَحقّة جزءٌ يسيرٌ من النِّصاب، والشَّريك إذا كان له الأكثر حَرُم عليه أن يدخل ويتصرّف إلّا بإذنِ شريكهِ، فكيف إذا كَان له الأقلّ.

قوله: «فلا تَدخُلها دخولَ متسلِّط عليه»، قد علمﷺ أن الظّلم من طَبْع الوُلاة، وخصوصا من يتولّى قبضَ الماشية من أربابها عَلَى وجه الصَّدقة، فإنّهم يدخلونها دخولَ متسلِّط حاكم قاهر، ولا يَبقى لربّ المال فيها تصرُّف، فنَهَىﷺ عن مِثل ذلك.

قوله: «ولا تنفِرنّ بهيمةً، ولا تُفزِعَنَّها»، وذلك أنّهم عَلَى عادة السّوء يُهَجْهِجون بالقَطيع حتى تنفِر الإبل، وكذلك بالشّاء إظهاراً للقوّة والقهر، وليتمكّن أعوانُهم من اختيار الجيّد، ورَفْض الرديء. «ولا تسوءَنّ صاحبَها فيها»، أي لا تغمّوه ولا تُحزنوه، يقال: سؤته في كذا سَوائيةً ومَسائيةً. «واصْدَع المال صدعين ثُمَّ خيِّره»، أي شقّه نصفين ثم خَيِّره، فإذا اختار أحد النّصفين فلا تَعرِضنّ لما اختار، ثم اصدع النصف الّذي ما ارتضاه لنفسه صَدْعين وخيِّره، ثم لا تزال تفعل هكذا حتى تُبقِيَ من المال بمقدار الحقّ الَّذي عليه، فاقبِضه منه، فإن استَقالك فأقِلهُ، ثم اخلط المال، ثم عُدْ لمثل ما صنعتَ حتى يرضى، وينبغي أن يكون المعِيبات الخمس وهي المَهْلوسة والمكْسورة وأخواتهما يخرجها المصدّق من أصل المال قبل قِسْمته ثم يقسم وإلّا فربَّما وقعتْ في سهم المصدّق إذا كان يعتمد ما أمره به من صدع المال مرّة بعد مرّة.

والعوْد: المُسِنّ من الإبل، والهرمة المسِنّة أيضاً، والمكسورة الّتي أحد قوائمها مكسورة العظم أو ظهرها مكسورة، والمهْلوسة: المريضة قد هَلَسها المرض وأفنى لحمها، والهُلاس: السلّ. والعَوار، بفتح العين: العَيْب، وقد جاء بالضّم. والمعنِّف: ذو العُنْف بالضم وهو ضِدّ الرِّفْق. والمُجحِف: الذي يسوق المال سوْقاً عنيفاً فيجحف به أي يهلكه أو يذهب كثيراً من

لحْمه ونقْيه. والمُلغَب: المُتعَب. واللُّغوب: الإعياء. وحَدرتُ السفينة وغيرها ـ بغير ألف ـ أحدُرها بالضم.

قوله ﷺ: «ولا يَمْصُر لبنها»، المَصْر حَلْب ما في الضّرع جميعه، نهاه من أن يحلب اللبن كلَّه فيبقَى الفَصيلُ جائعا؛ ثم نهاه أن يُجهِدَها ركوباً، أي يُتعبها ويُحمِّلها مشقّة؛ ثم أمَرَه أن يعدِل بين الركاب في ذلك، لا يخصّ بالركوب واحدةً بعينها، ليكون ذلك أرْوَح لهنّ، ليرفِّه على اللّاغب، أي ليترُكَه وليُعْفِه عن الركوب ليستريح. والرفاهِيَة: الدّعَة والراحة. والنُّقب: ذو النّقب، وهو رقّة خُفّ البعير حتى تكاد الأرضُ تَجرحه: أمَرَه أن يستأني بالبعير ذي النّقبِ، من الأناة، وهي المُهلة. والظالع: الذي ظَلَع، أي غمز في مَشْيه. والغُدُر: جمع غدير الماء. وجوادّ الطريق: حيث لا ينبُت المرعَى. والنُّطاف: جمع نطفة، وهي الماء الصافي القليل. والبُدّن بالتشديد: السِّمان، واحدها بادن. ومُنْقِيات: ذواتُ نِقْي، وهو المُخّ في العَظْم، والشحم في العَين من السِّمَن، وأنْقَت الإبلُ وغيرُها: سَمنتْ وصار فيها نِقْيٌ، وناقة مُنْقِيةٌ، وهذه الناقة لا تُنقِي.



الأصْلُ:

ومن عهد له ﷺ إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة

أمَرَهُ بِتَقْوَىٰ ٱللهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لَا شاهِدَ غَيْرُهُ، وَلَا وَكِيلَ دُونَهُ. وَأَمَرَهُ أَلَّا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ ٱللهِ فِيما ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَىٰ غَيْرِهِ فِيما أَسَرَّ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ، فَقَدْ أَدَّىٰ ٱلْأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ ٱلْعِبَادَةَ.
وأمَره أَلَّا يَجْبَهَهُمْ، وَلَا يَعْضَهَهُمْ، وَلَا يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلاً بِالْإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمُ ٱلْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَٱلْأَعْوَانُ عَلَىٰ ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْحُقُوقِ.
وَإِنَّ لَكَ فِي هٰذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً، وَحَقّاً مَعْلُوماً، وَشُرَكَاءَ أَهْلَ مَسْكَنَةٍ، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ. وَإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ، وَإِلَّا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ

النَّاس خُصُوماً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ، وَبُؤْسَىٰ لِمَنْ خَصْمُهُ عِنْدَ ٱللهِ ٱلْفُقَرَاءُ وَٱلْمَسَاكِينُ وَالسَّائِلُونَ وَٱلْمَدْفُوعُونَ، وَٱلْغَارِمُونَ وَٱبْنُ السَّبِيلِ!

وَمَنِ ٱسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ، وَرَتَعَ فِي ٱلْخِيَانَةِ، وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ الذُّلَّ وَٱلْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَىٰ؛ وَإِنَّ أَعْظَمَ ٱلْخِيَانَةِ خِيَانَةُ ٱلْأُمَّةِ، وَأَفْظَعَ ٱلْغِشِّ غِشُّ ٱلْأَئِمَّةِ، وَالسَّلَام.

الشّرْحُ:

حيث لا شهيد ولا وكيلَ دونَه، يعني يومَ القيامة. قوله: «ألّا يعمل بشيء من طاعة الله فيما ظهر»، أي لا يُنافق فيَعمَل الطاعة في الظاهر، والمعصية في الباطن. ثم ذكر أن الذين يتجنّبون النِّفاق والرِّياء هم الُمخلِصون.

وألّا يجْبَهَهم: لا يواجِهَهُم بما يَكرهونه، وأصل الجَبْهِ لقاءُ الجَبْهة أو ضَرْبُها، فلمّا كان المواجِه غيرَه بالكلام القبيح كالضّارب جَبهتَه به سُمِّي بذلك جَبْهاً. «ولا يعضههم»، أي لا يرْمِيهم بالبُهْتان والكَذِب، وهي العَضِيهة، وعَضِهتُ فلانا عَضْهاً، وقد عَضِهتَ يا فلان، أي جئتَ بالبهتان. «ولا يرغب عنهم تفضّلاً»، يقول: لا يحقِرهم ادّعاءً لفضله عليهم، وتمييزه عنهم بالولاية والإمرة؛ يقال: فلان يرغَب عن القوم، أي يأنف من الانتماء إليهم، أو من المخالطة لهم.

ثم قال: إنّ أربابَ الأموال الّذين تجب الصدقةُ عليهم في أموالهم إخوانُك في الدِّين، وأعوانُك على استخراج الحقوق؛ لأنَّ الحق إنما يمكن العامل استيفاؤه بمعاونة ربِّ المال واعترافه به، ودفعه إليه، فإذا كانوا بهذه الصِّفة لم يجُزْ لك عَضْهُهم وجَبْهُهم وادّعاءُ الفضل عليهم. ثم ذكر أنّ لهذا العامل نصيباً مفروضاً من الصدقة، وذلك بنصّ الكتاب العزيز، فكما نوفِّيك نحن حقّكَ يجب عليك أن توفِّيَ شركاءَك حقوقَهم، وهم الفقراءُ والمساكين والغارمون وسائرُ الأصناف المذكورة في القرآن.

وانتصب «أهلَ مَسْكنة»؛ لأنّه صفة «شركاء»، وفي التّحقيق أنَّ «شركاء» صفةٌ أيضاً موصوفُها محذوف، فيكون صفةً بعد صفة.

وقال أيضاً: بؤسى، أي عذاباً وشدَّة، فظنَّه منوَّنا وليس كذلك، بل هو بُؤْسَى على وزن «فُعْلَى» كفُضْلَى ونُعمَى، وهي لفظة مؤنّثة؛ يقال: بؤسى لفلان، قال الشاعر:

أرى الحلم بؤسى للفتى في حياتِهِ ولا عيش إلّا ما حَبَاكَ بـه الجـهلُ

والسائلون هاهنا هم الرّقاب المذكورون في الآية، وهم المكاتبون يتعذّر عـليهم أداءُ مالِ الكتابة، فيسألون الناسَ ليتخلّصوا من ربْقةِ الرِّق. وقيل: هم الأسارَى يطْلبون فكـاكَ أنفسهم، وقيل: بل المراد بالرّقاب في الآية الرّقيق، يسأل أن يـبتاعه الأغـنياءُ فـيُعتِقوه. والمدفوعون هاهنا هم الذين عناهم اللهُ تعالى في الآية بقوله: ﴿وفي سبيل الله﴾[1]، وهم فقراء الغُزاة، سمّـاهم مدفوعين لفقرِهمْ. والمدفوع والمدفَّع: الفَقير؛ لأنّ كل أحد يكـرَهه ويَدفعه عن نفسه. وقيل: هم الحجيج المنقطَع بهم، سمّـاهم مدفوعين؛ لأنهم دُفِـعوا عـن إتمام حجّهم، أو دُفِعوا عن العَوْد إلى أهلهم.

قوله فقد أحلّ بنفسه الذلّ والخِزي، أي جعل نفسَه مَحلّا لهما، ويُروَى: «فـقد أخـلّ بنفسه» بالخاء المعجمة، ولم يذكر الذلّ والخِزْي أي جعل نفسَه مخلّاً، ومعناه جعل نـفسه فقيراً، يقال: خلّ الرجل: إذا افتقر، وأخَلَّ به غيرُه وبـغيره أي جَـعَلَ غـيرَه فـقيراً، ورُوِي «أحلّ» بنفسه بالحاء المهملة، ولم يذكر «الذلّ والخِزي»، ومعنى «أحلّ بنفسه» أباحَ دمَه، والرواية الأُولىٰ أصحّ؛ لأنّه قال بعدها: «وهو في الآخرة أذلُّ وأخزَى».

وخيانة الأُمّة: مصدرٌ مُضاف إلى المفْعول به؛ لأنّ الساعيَ إذا خان فقد خان الأُمّة كلَّها؛ وكذلك غِشّ الأئمة، مصدرٌ مُضاف إلى المفعول أيضاً؛ لأنّ الساعيَ إذا غَشّ في الصدقة فقد غَشّ الإمامَ.



الأصْلُ:

ومن عهد له ﷺ إلى محمد بن أبي بكر ﷺ حين قلّده مصر

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي

---

١. سورة التوبة ٦٠.

اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، حَتَّىٰ لَا يَطْمَعَ ٱلْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَٱلْكَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَٱلْمَسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ، وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ.

وَٱعْلَمُوا عِبَادَ ٱللهِ أَنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ ٱلْآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكْهُمْ أَهْلَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ؛ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ ٱلْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ ٱلْجَبَابِرَةُ ٱلْمُتَكَبِّرُونَ؛ ثُمَّ ٱنْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ ٱلْمُبَلِّغِ؛ وَٱلْمَتْجَرِ الرَّابِحِ؛ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ ٱللهِ غَداً فِي آخِرَتِهِمْ؛ لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ.

فَاحْذَرُوا عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَخَطْبٍ جَلِيلٍ؛ بِخَيْرٍ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً، أَوْ شَرٍّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً. فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَىٰ ٱلْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا! وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَىٰ النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا! وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ ٱلْمَوْتِ؛ إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ. ٱلْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ؛ وَالدُّنْيَا تُطْوَىٰ مِنْ خَلْفِكُمْ.

فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ؛ دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ، وَلَا تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ. وَإِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ ٱللهِ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا؛ فَإِنَّ ٱلْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَىٰ قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنّاً بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً للهِ.

وَٱعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَىٰ نَفْسِكَ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَلَا تُسْخِطِ ٱللهَ بِرِضَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ؛ فَإِنَّ فِي ٱللهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ ٱللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ.

صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا ٱلْمُؤَقَّتِ لَهَا، وَلَا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاشْتِغَالٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلَاتِكَ.

الشّرْحُ:

آسِ بينهم: اجعَلْهم أسوَة، لا تفضّل بعضهم على بعض في اللَّحظة والنظرة، ونبّه بذلك على وجوب أن يَجعَلهم أسوَة في جميع ما عدا ذلك، من العطاء والإنعام والتقريب، كقوله تعالى: **﴿فَلا تَقلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾**[1].

قوله: «حتى لا يطمع العظماءُ في حَيْفك لهم»، الضمير في «لهم» راجعٌ إلى الرعيّة لا إلى العظماء، وقد كان سبق ذكرهم في أوّل الخطبة، أي إذا سلكتَ هذا المسلكَ لم يَطمع العظماءُ في أن تحيف على الرعيّة وتظلمهم وتدفعَ أموالهم إليهم، فإنّ وُلاة الجور هكذا يفعلون، يأخذون مال هذا فيُعطونَه هذا. ويجوز أن يرجع الضمير إلى العظماء، أي حتّى لا يطمَع العظماءُ في جَوْرك في القَسْم الّذي إنما تفعله لهم ولأجلهم، فإنّ ولاة الجور يَطمَع العظماءُ فيهم أن يحيفوا في القسمة في الفَيْء، ويخالفوا ما حدّه اللهُ تعالى فيها، حفظاً لقلوبهم، واستمالةً لهم، وهذا التفسير أليَقُ بالخطابة؛ لأنّ الضمير في «عليهم» في الفقرة الثالثة عائد إلى الضعفاء؛ فيجب أن يكون الضمير في «لهم» في الفقرة الثانية عائداً إلى العظماء.

قوله: «فإن يعذب فأنتم أظلم» أفعل هاهنا بمعنى الصّفة، لا بمعنى التفضيل، وإنما يراد فأنتم الظالمون، كقوله تعالى: **﴿وَهُوَ أَهوَنُ عَلَيْهِ﴾**[2]. وكقولهم: الله أكبر.

ثم ذكر حال الزُّهاد فقال: أخذوا من الدنيا بنصيبٍ قويّ، وجعلت لهم الآخرة. ورُوِي: «والمتْجَر المربح»، فالرابح فاعلٌ من ربح رِبْحاً، يقال: بيعٌ رابح أي يُربَح فيه، والمُربح: اسم فاعل قد عُدِّيَ ماضيه بالهمزة، كقولك: قام وأقمتُه.

قوله: «جيرانُ الله غداً في آخرتهم»؛ ظاهر اللفظ غيرُ مراد، لأنّ الباريَ تعالى ليس في مكان وجهةٍ ليكونوا جيرانَه، ولكن لمّا كان الجار يُكرِم جاره سمّاهم جيران الله، لإكرامه إيّاهم، وأيضاً فإنّ الجنة إذا كانت في السّماء والعرش هو السّماء العليا، كان في الكلام محذوف مقدّر، أي جيرانُ عرش الله غداً.

---

١. سورة الإسراء ٢٣.

٢. سورة الروم ٢٧.

قوله: «فإنَّه يأتي بأمرٍ عظيم، وخطب جليل، بخيرٍ لا يكون معه شرٌّ أبداً وشرٍّ لا يكون معه خيرٌ أبداً»، نصّ صريح في مذهب أصحابنا في الوعيد، وأنّ من دخل النار من جميع المكلَّفين فليس بخارج، لأنّه لو خرج منها لكان الموتُ قد جاءه بشرٍّ معه خير، وقد نَفى نفياً عامّاً أن يكون مع الشرّ المعقب للموت خير البتّة. «من عاملها»، أي من العامل لها.

قوله: « طُردَاء الموت»، جمع طَريد، أي يطردكم عن أوطانكم ويُخرجكم منها، لابد من ذلك، إن أقمتمْ أخَذَكم، وإن هَرَبتم أدرَكَكم. قوله: «ألزَم لكم من ظِلّكم»، لأنّ الظلّ لا تصح مفارَقته لذى الظلّ ما دام في الشمس، وهذا من الأمثال المشهورة. «معقودُ بنَواصيكم»، أي ملازِمٌ لكم، كالشيء المعقود بناصية الإنسان أين ذهب ذهب معه. «والدنيا تُطوَى مِن خلفِكم». مِن كلام بعض الحكماء: الموتُ والناس كسطورٍ في صحيفة يقرؤها قارئٌ ويَطوي ما يقرأ، فكلّما ظهر سطرٌ خفِيَ سطر.

ثم أمرهﷺ بأن يَجمَع بين حُسن الظّن بالله وبين الخوف منه، وهذا مَقامٌ جليل لا يصل إليه إلّا كلُّ ضامرٍ مهزول. ثم قال: «ولّيتُك أعظمَ أجنادي»، يقال للأقاليم والأطراف: أجناد، تقول: وَلِيَ جُندَ الشام، ووَلِيَ جند الأُرْدُنّ، وولي جندَ مِصرَ.

قوله: «فأنت محقوق»، كقولك حَقِيق وجَدِير وخَلِيق، قال الشاعر:

وإنـي لَـمحقوقٌ بألّا يَـطولَني ... نَـداهُ إذا طـاوَلْتُه بـالقصائدِ

وتُنافِح: تُجالِد، نافحتُ بالسيف أي خاصمتُ به.

قوله: «ولو لم يكن إلّا ساعة من الدَّهْرِ»، المراد تأكيد الوَصاة عليه أن يخالِف على نفسه، وألّا يتّبع هَواها، وأن يُخاصِم عن دِينه، وأن ذلك لازمٌ له، وواجبٌ عليه، ويلزم أن يفعله دائماً فإن لم يستطع فليفعلْه ولو ساعة من النهار، وينبغي أن يكون هذا التقييد مصروفاً إلى المنافحة عن الدِّين. قال: «ولا تُسخِط اللهَ برضى أحد من خلقِه، فإنّ في الله خَلَفاً من غيرِه، وليس من الله خَلَفٌ في غيره».

ثم أمَرَه بأن يصلّي الصلاةَ لوقتها؛ أي في وقتها، ونهاه أن يحمِلَه الفراغُ من الشّغل على أن يُعجِّلها قبل وقتها، فإنها تكون غيرَ مقبولة، أو أن يَحمِله الشّغل على تأخيرها عن وقتها فيأثم. قولُه: «واعلم أنّ كل شيء من عملك تَبعٌ لصلاتك»، فيه شَبَهٌ من قول رسولِ الله ﷺ: «الصّلاةُ عِماد الإيمان، ومن تَركَها فقد هَدَم الإيمان». وقالﷺ: «أوّل ما يحاسَب به العبدُ صَلاته، فإن سُهّل عليه كان ما بعدَه أسهَل، وإن اشتدّ عليه كان ما بعدَه أشدّ».

ومثل قوله: «ولا تُسخِط اللهَ برضى أحد من خلقِه»، ما رواه المبرِّد في «الكامل» عن عائشة قالت: من أرضَى اللهَ بإسخاط الناس كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومَن أرضَى الناسَ بإسخاط الله وَكَله الله إلى الناس.

الأصْلُ:

ومن هذا العهد:

فَإِنَّهُ لَا سَوَاءَ، إِمَامُ ٱلْهُدَىٰ وَإِمَامُ الرَّدَىٰ، وَوَلِيُّ النَّبِيِّ، وَعَدُوُّ النَّبِيِّ. وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ ٱللهِ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلَا مُشْرِكاً؛ أَمَّا ٱلْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ ٱللهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا ٱلْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ ٱللهُ بِشِرْكِهِ، وَلٰكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ ٱلْجَنَانِ، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ.

الشّرْحُ:

الإشارة بإمام الهُدَى إليه نفسه، وبإمام الرَّدى إلى معاويةَ، وسمّاه إماماً، كما سَمَّى اللهُ تعالى أهلَ الضّلال أئمة. فقال: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ**﴾[1] ثم وصفه بصفة أُخرىٰ وهو أنه عدوّ النّبيّ ﷺ ليس يعنى بذلك أنه كان عدوّا أيام حَرْب النبيّ ﷺ لقريش، بل يريد أنّه الآن عدوّ النبيّ ﷺ، لقوله ﷺ له ؑ: «وعدوّك عدوّي، وعدوّي عدوّ الله». وأوّل الخبر: «وليُّك وَليِّي، ووليِّي وَلِيّ الله»، وتمامُه مشهور، ولأنّ دلائلَ النفاق كانت ظاهرة عليه من فَلَتات لسانه ومن أفعاله.

ثم قال ؑ: «إنّ رسولَ الله ﷺ قال: إني لا أخاف على أمّتي مؤمناً ولا مُشرِكاً»[2] أي ولا مشركاً يُظهِر الشِّرك. قال: لأنّ المؤمن يَمنعه اللهُ بإيمانه أن يُضِلّ الناسَ. والمُشرك مُظهِر الشّرك، يَقمَعه الله بإظهار شِركه ويَخذُله، ويَصرِف قلوبَ الناس عن اتّباعه؛ لأنّهم يَنفِرون

---

١. سورة القصص ٤١.

٢. يقمعه: يقهره ويذلّه لِعلم الناس أنّه مشرك فيحذرونه. منافق الجنان: من أسرّ النفاق في قلبه. عالم باللّسان: من يعرف أحكام الشريعة ويبيّنها بقوله ولا يؤيده بفعله.

منه لإظهاره كلمةَ الكُفْر . فلا تطمئنّ قلوبُهم إليه ، ولا تَسكُن نفوسهم إلى مقالته ، ولكنّي أخاف على أُمتي المنافقَ الذي يُسِرُّ الكفر والضلال ، ويُظهِر الإيمانَ والأفعال الصالحة ، ويكون مع ذلك ذا لَسَن وفصاحة ، يقول بلسانه ما تعرفون صوابَه ، ويَفعل سرّاً ما تُنكِرونه لو اطّلعتم عليه ، وذاك أنّ مَنْ هذه صِفتُه تَسكُن نفوسُ الناس إليه ؛ لأنّ الإنسان إنما يحكم بالظاهر فيقلّده الناس ؛ فيضلّهم ويوقعهم في المفاسد .



الأصْلُ :

ومن كتاب له ﷺ إلى معاوية جواباً، وهو من محاسن كتبه

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ ٱصْطِفَاءَ ٱللهِ مُحَمَّداً ﷺ لِدِينِهِ ، وَتَأْيِيدَهِ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ فَلَقَدْ خَبَأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً ؛ إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ ٱللهِ تَعَالَىٰ عِنْدَنَا ، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا ، فَكُنْتَ فِي ذٰلِكَ كَنَاقِلِ التمْرِ إِلَىٰ هَجَرَ ، أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَىٰ النِّضَالِ .

وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاس فِي ٱلْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ؛ فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ ٱعْتَزَلَكَ كُلُّهُ ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ . وَمَا أَنْتَ وَٱلْفَاضِلَ وَٱلْمَفْضُولَ ، وَالسَّائِسَ وَٱلْمَسُوسَ ! وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ ، وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلأَوَّلِينَ ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ ! هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا ، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ ٱلْحُكْمُ لَهَا ! أَلَا تَرْبَعُ أَيُّهَا ٱلْإِنْسَانُ عَلَىٰ ظَلْعِكَ ، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ ٱلْقَدَرُ ! فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ ٱلْمَغْلُوبِ ، وَلَا ظَفَرُ الظَّافِرِ ! وَإِنَّكَ لَذَهَّابٌ فِي التِّيهِ ، رَوَّاغٌ عَنِ ٱلْقَصْدِ . أَلَا تَرَىٰ - غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ ، وَلٰكِنْ بِنِعْمَةِ ٱللهِ أُحَدِّثُ - أَنَّ قَوْماً ٱسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ تَعَالَىٰ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلأَنْصَارِ ، وَلِكُلٍّ

فَضْلٌ، حَتَّىٰ إِذَا ٱسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ، وَخَصَّهُ رَسُولُ آللهِ صَلَّىٰ آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ؟

أَوَلَا تَرَىٰ أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ آللهِ -وَلِكُلٍّ فَضْلٌ- حَتَّىٰ إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ، قِيلَ: الطَّيَّارُ فِي ٱلْجَنَّةِ وَذُو ٱلْجَنَاحَيْنِ؟

وَلَوْلَا مَا نَهَىٰ آللهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ ٱلْمَرْءِ نَفْسَهُ، لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً، تَعْرِفُهَا قُلُوبُ ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَلَا تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ.

فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ، فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا. لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا وَلَا عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَىٰ قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا؛ فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا، فِعْلَ ٱلْأَكْفَاءِ، وَلَسْتُمْ هُنَاكَ! وَأَنَّىٰ يَكُونُ ذٰلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمُ ٱلْمُكَذِّبُ، وَمِنَّا أَسَدُ آللهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ ٱلْأَحْلَافِ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ ٱلْحَطَبِ، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ!

فَإِسْلَامُنَا مَا قَدْ سُمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَا تُدْفَعُ، وَكِتَابُ آللهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُولُو ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ آللهِ﴾[1] وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَآللهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَىٰ بِالْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَىٰ بِالطَّاعَةِ.

وَلَمَّا ٱحْتَجَّ ٱلْمُهَاجِرُونَ عَلَىٰ ٱلْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ آللهِ صَلَّىٰ آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَجُوا عَلَيْهِمْ، فَإِنْ يَكُنِ ٱلْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالأنصارُ عَلَىٰ دَعْوَاهُمْ.

وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ ٱلْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ، وَعَلَىٰ كُلِّهِمْ بَغَيْتُ، فَإِنْ يَكُنْ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَلَيْسَتِ ٱلْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونَ ٱلْعُذْرُ إِلَيْكَ.

---

١. سورة الأنفال ٧٥.

٢. سورة آل عمران ٦٨.

* وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا[١] *

وَقُلْتَ: إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ ٱلْجَمَلُ ٱلمخْشُوشُ[٢] حَتَّىٰ أُبَايِعَ؛ وَلَعَمْرُ ٱللهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ! وَمَا عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ، وَلَا مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ!

وَهٰذِهِ حُجَّتِي إِلَىٰ غَيْرِكَ قَصْدُهَا، وَلٰكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا.

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثمانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هٰذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ؛ فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَىٰ لَهُ، وَأَهْدَىٰ إِلَىٰ مَقَاتِلِهِ! أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ وَٱسْتَكَفَّهُ[٣]، أَمْ مَنِ ٱسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَىٰ عَنْهُ وَبَثَّ ٱلْمَنُونَ إِلَيْهِ؛ حَتَّىٰ أَتَىٰ قَدَرُهُ عَلَيْهِ؟ كَلَّا وَٱللهِ لَقَدْ ﴿يَعْلَمُ ٱللهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَٱلْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[٤].

وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً؛ فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ؛ فَرُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ.

* وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ ٱلْمُتَنَصِّحُ[٥] *

وَمَا أَرَدْتُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلِأَصْحَابِي عِنْدَكَ إِلَّا السَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ ٱسْتِعْبَارٍ! مَتَىٰ أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ عَنِ ٱلْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ، وَبِالسَّيْفِ مُخَوَّفِينَ، فَـ

* لَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَقِ ٱلْهَيْجَا حَمَلْ[٦] *

---

١. الشكاة: النقيصة والعيب؛ وأصلها في المرض. وظاهر عنك، أي لا يعلّق بك. وهذا عجز بيت لأبي ذؤيب الهذليّ، وأوله: * وَعَيَّرها الْواشونَ أنّي أُحِبُّها *.

٢. الجمل المخشوش: في أنفه خشبة يقاد بها. غضاضة: منقصة. أعدىٰ له: أشدّ عدواً. والمقاتل: مواضع القتل.

٣. أي أن الإمام ﷺ كان قد بذل النصرة لعثمان، ولكن استقعده ولم ينتصر به.

٤. سورة الأحزاب: ١٨.

٥. الظِنّة: التهمة. والمتنصّح: المبالغ في النصح. وهذا عجز بيت وصدره:

* وكم سُقْتُ في آثاركم من نصيحةٍ *

٦. لبّث: فعل أمر من لبّثه: إذا استزاد لُبثه، أي مكثه، يريد: أمهل. والهيجاء: الحرب. وحَمَلُ هو ابن بدر، كان من

فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ، سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ، مُتَسَرْبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ؛ أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ، وَقَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ، وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[1].

الشَّرْحُ:

قولُه: «فلقد خَبَأ لنا الدهرُ منك عَجَباً»، موضعُ التعجُّب أنّ معاويةَ يُخبِر عليّاً ﷺ باصطفاء الله تَعالى محمداً وتشريفه له، وتأييدِه له؛ وهذا ظريف لأنّه يجري كإخبار زيدٍ عمراً عن حالِ عمرٍو، إذ كان النبيُّ ﷺ وعليٌّ ﷺ كالشيء الواحد. وخبأ مهموز، والمصدرُ الخَبْء، ومنه الخابية، وهي الخبء إلّا أنّهم تركوا همزَها، والخَبء أيضاً والخبيء على «فَعِيل» ما خُبِئ. وبلاءُ الله تعالى: إنعامُه وإحسانه.

وقولُه ﷺ: «كناقِلِ التَّمر إلى هجَر»، مَثَلٌ قديم. وهَجَر: اسم مدينة لا ينصرف للتعريف والتّأنيث. وقيل: هو اسم مذكَّر مصروف، وأصل المَثَل «كَمُسْتَبْضِع تَمرٍ إلى هَجَرَ»، والنسبة إليه هاجِرِيّ على غير قياس، وهي بلدة كثيرة النخل يُحمل منها التمر إلى غيرها.

قولُه: «أو داعي مسدّدة إلى النضال»، أي معلِّمه الرَّمْيَ، وهذا إشارة إلى قول القائل الأوّل:

أُعَلِّمه الرِّمايةَ كلَّ يوم فلما اشتدّ ساعدُه رماني

هكذا الرِّواية الصحيحة بالسين المهملة، أي استقام ساعدُه على الرّمي، وسدَّدتُ فلاناً علّمته النِّضالَ، وسهمٌ سَديد: مُصيب، ورمحٌ سديد، أي قلَّ أن تخطئَ طعنتُه.

قوله ﷺ: «وزعمتَ أن أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان»، أي أبو بكر وعمر.

← قشير، أغير على إبله فاستنقذها وقال:

لبّث قليلاً يلحَقِ الهيجا حَمَلْ لا بأس بالموت إذا الموت نزل

فصار مثلاً يضرب للتهديد بالحرب

١. سورة هود ٨٣.

«فذكرتَ أمْراً إن تَمّ اعتزَلَك كله، وإن نَقَص لم يَلْحَقْك ثلمُهُ».

* وما أنتَ من قيس فَتنبَح دونها *

هو معنى قولِ عليّ عليه السلام لمعاوية: «فذكرتَ أمْراً إن تمّ اعتزلَك كلّه».

قوله عليه السلام: «وما أنتَ والفاضلَ والمفضولَ»، الرّواية المشهورةُ بالرّفع، وقد رواها قوم بالنّصْب. ثم قال: «وما للطُّلَقَاء وأبناءُ الطُّلَقاء» والتمييزَ النّصبُ هاهنا لا غير، لأجل اللام في الطلقاء. ثم قال عليه السلام: بين المهاجرين الأوّلين وترتيب درجاتهم، وتعريف طبقاتهم، هذا الكلامُ ينقُض ما يقول من يطعن في السّلف، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام أنكرَ على معاوية تعرّضَه بالمفاضلة بين أعلام المهاجرين، وأنّ قَدْرَ معاوية يصغر أن يُدخل نفسَه في مِثل ذلك.

قوله عليه السلام: «هيهات، لقد حنَّ قِدْحٌ ليس منها» هذا مَثَلٌ يُضرَب لمن يُدخل نفسه بين قوم لَيس له أن يَدخُل بينهم؛ وأصله القِداح من عودٍ واحد يجعَل فيها قَدَح من غَيْر ذلك الخشَب، فيصوّت بينها إذا أرادها المفِيض، فذلك الصوتْ هو حنينُه. «وطفِق يحكُم فيها مَنْ عليه الحُكم لها»، أي وطفِق يحكُم في هذه القصّة أو في هذه القضيّة مَنْ يجب أن يكون الحكْم لها عليه لا له فيها؛ ويجوز أن يكون الضمير يرجع إلى الطّبقات. ثم قال: «ألا تَربَع أيّها الإنسان على ظلْعك!»، أي ألا تَرْفُق بنفْسك وتَكفّ، ولا تحمِل عليها ما لا تطيقُه، والظلْع: مَصدَرُ ظَلَع البعيرُ يظلَع أي غمز في مشْيه. «وتعرِف قُصورَ ذرْعك»، أصل الذرْع بَسْط اليد؛ يقال: ضِقتُ به ذرْعاً، أي ضاق ذرْعي به. فنَقلوا الاسمَ من الفاعلية فجعلوه منصوباً على التمييز؛ كقولهم: طبت به نفساً. «وتتأخّر حيث أخّرك القَدر»، مِثل قولِك: ضع نفسَك حيث وضعَها الله؛ يقال ذلك لمنْ يرفع نفسَه فوق استحقاقه.

ثم قال: «فما عليك غَلبة المغلوب، ولا عليك ظفرُ الظّافر». يقول: وما الّذي أدخلَكَ بيني وبين أبي بكر وعمرَ، وأنتَ من بني أُميّة، لستَ هاشميّاً ولا تيمياً ولا عدويّاً هذا فيما يرجع إلى أنسابنا، ولستَ مُهاجِراً ولا ذا قَدَم في الإسلام فتزاحِم المهاجرين وأربابَ السّوابق بأعمالِك واجتهادك، فإذَنْ لا يضرّك غَلَبة الغالب منّها، ولا يسرّك ظفر الظافر.

«وإنّك لذهّابٌ في التّيه، روّاغ عن القَصْد»، يحتمل قوله عليه السلام في التّيه معنَيَيْن: أحدُهما بمعنى الكِبر، والآخر التِّيه، من قولك: تاه فلان في البَيْداء. ومنه قوله تعالى: **﴿فإنّها مُحرَّمة عَلَيْهم أرْبعين سَنةً يتيهُون في الأرض﴾**[1]؛ وهذا الثاني أحسَنُ يقول: إنّك شديد الإيغال في

---

١. سورة المائدة: ٢٦.

الضلال. و «ذهّاب» فَعّال؛ للتكثير، ويقال: أرض متيهة، مِثلُ معيشةٍ، أي يُتاهُ فيها.

قال عليه السلام: «روّاغ عن القَصْد»، أي تترك ما يلزمك فعلُه وتعدل عما يجب عليك أن تجيب عنه إلى حديث الصحابة، وما جرى بعد موت النبيّ صلى الله عليه وآله، ونحن إلى الكلام في غير هذا أحوَج إلى الكلام في البيعة وحَقْن الدِّماء والدخول تحتَ طاعةِ الإمام.

ثم قال: «ألا تَرَى غير مخبِر لك، ولكن بنعمة اللهِ أحدِّث»، أي لستَ عندي أهْلاً لأنّ أُخبرك بذلك أيضاً، فإنّك تَعلَمه، ومن يَعلم الشيء لا يَجوزُ أن يُخبَر به؛ ولكنّ أذكرُ ذلك لأنَّه تحدُّثٌ بنعمةِ الله علينا، وقد أُمِرْنا بأن نحدِّث بنعمتِه سبحانه. «إنّ قوماً استُشهدوا في سبيل الله»، المراد هاهنا، سيّد الشُّهداء حَمْزة عليه السلام، وينبغي أن يُحمَل قولُ النبيّ صلى الله عليه وآله فيه إنّه سيّد الشهداء على أنّه سيّد الشهداء في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله؛ لأنّ عليّاً عليه السلام مات شهيداً؛ ولا يجوز أن يقال: حمزة سيّده، بل هو سيّد المسلمين كلِّهم، ولا خلافَ بين أصحابنا رحمهم الله أنّه أفضل من حمزةَ وجعفر رضي الله عنهما. قوله عليه السلام: «ولكلٍّ فَضْل»، أي ولكلّ واحد من هؤلاء فَضْل لا يُجحَد. «أولا ترى أنّ قوماً قُطِعت أيديهم»، هذا إشارة إلى جعفر. «ولولا ما نهى الله عنه »، هذا إشارة إلى نفسِه عليه السلام. «ولا تمجُّها آذانُ السامعين»، أي لا تقذِفها، يقالُ: مَجَّ الرجلَ مِن فيه، أي قذفه.

قوله عليه السلام «فدع عنك من مالت به الرَّمِيّة»، يقال للصيد: يرمي هذه الرميّة، وهي « فعيلة» بمعنى مفْعولة، والأصل في مِثلِها ألّا تلحَقها الهاء، نحو كفٌ خضيب، وعين كحِيل، إلّا أنّهم أجْرَوها مجرَى الأسماء لا النّعوت، كالقَصيدة والقَطيعة. والمعنى: دَعْ ذكرَ من مالَ إلى الدنيا ومالتْ به، أي أمالتْه إليها.

فإن قلتَ: فهل هذا إشارة إلى أبي بكر وعمرَ؟

قلت: يَنبغي أن ينزَّه أميرُ المؤمنين عليه السلام عن ذلك، وأن تُصرَف هذه الكلمة إلى عثمانَ، لأنّ معاويةَ ذكرَه في كتابه وقد أورَدْناه. وإذا أنصف الإنسانُ من نفسه علم أنّه عليه السلام لم يكن يذكرهما بما يذكر به عثمان، فإن الحال بينه وبين عثمان كانت مضطربة جدّاً[1].

---

١. إنّما ينزّه أمير المؤمنين عليه السلام عن ذكره لهما، إذا ثبت بالدليل القاطع براءتهما من الميل إلى الدنيا، كيف؟ وقد ثبت ذلك دون أدنى شك، أنّهم خالفا النصّ ميلاً إلى الدنيا، وما يقال إنهما تركا الدنيا فإنما كان من أجل الدنيا فيكون تنزيهه عن ذكرهما إهمالاً لهما منه. وإلّا فكما ذكر معاوية عثمان في كتابه ذكرهما فيه، وكان أشار بذكرهما

قالعليه‌السلام: «فإنا صنائع ربِّنا، والناسُ بعدُ صَنائعُ لنا»، هذا كلام عظيم، عالٍ على الكلام، ومعناه عالٍ على المعاني، وصَنيعةُ الملِك من يصطَنِعُه الملك ويرفع قدرَه. يقول: ليس لأحد من البشر علينا نعمة، بل اللهُ تعالى هو الذي أنعم علينا، فليس بيننا وبينه واسطة، والناس بأسرهم صنائعنا؛ فنحن الواسطةُ بينهم وبين الله تعالى، وهذا مقامٌ جليل ظاهره ما سمعت، وباطنه أنهم عبيدُ الله، وأنَّ الناس عبيدهم.

ثم قال: «لم يمنعْنا قديم عزِّنا، وعاديّ طوْلنا»؛ الطوْل: الفَضْل. وعادِيّ أي قديم، بئرٌ عاديّة. على قومِك أن خلَطْناكم بأنفسِنا فَنَكَحنا وأنكَحْنا فِعل الأكْفاء، ولستم هناك؛ يقول: تزوَّجْنا فيكم وتزوّجتم فينا كما يَفعَل الأكفاء، ولستم أكفاءنا. ثم قالعليه‌السلام: «وأنَّى يكون ذلك!»، أي كيف يكون شرفُكم كشَرَفنا، ومنّا النبيّ ومنكم المكذِّب ـ يعنى أبا سُفيانَ بنَ حرب، كان عدوَّ رسول الله والمكذِّبَ له والمُجلبَ عليه ـ وهؤلاء ثلاثة: بإزاء أبي سُفْيان رسولُ اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله، ومعاويةُ بإزاء عليّعليه‌السلام، ويزيدُ بإزاء الحسينعليه‌السلام؛ بينهم من العداوة ما لا تبرك عليه الإبل.

قال: «ومنّا أَسَدُ الله»، يعني حمزة، «ومنكم أسَدُ الأحلاف»، يعني عُتْبة بن ربيعة، وقد تقدّم شرحُ ذلك في قصّة بدر. «ومنّا سيّدَا شَبابِ أهل الجنّة»، يعني حَسَناً وحُسَيْناًعليهما‌السلام، «ومنكم صبية النار»، هي الكلمة الّتي قالها النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله لعُقْبة بن أبي مُعَيْط حين قَتَله صَبْراً يوم بَدْر، وقد قال كالمستعطِف لهعليه‌السلام: مَن للصبية يا محمّد؟ قال: النار. وعُقْبة بن أبي مُعَيْط من بني عبد شمْس. قولهعليه‌السلام: «ومنّا خير نساء العالمين»، يعني فاطمةَعليها‌السلام، نصّ رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله على ذلك؛ لا خلاف فيه، «ومنكم حمّالة الحطب»، هي أم جميل بنت حَرْب بن أُميّة، امرأةُ أبي لهب الذي ورد نصُّ القرآن فيها بما وَرَد. قوله: «في كثير مما لنا وعليكم»،

↩ إغضاباً لهعليه‌السلام بما يكون أنشد من ذكر عثمان. فمعاوية كتب إليهعليه‌السلام إشارة من عمرو بن العاص: «فكان أفضلهم مرتبة، وأعلاهم عند الله والمسلمين منزلة الخليفة الأول، الذي جمع الكلمة، ولمّ الدعوة، وقاتل أهل الردة، ثم الخليفة الثاني الذي فتح الفتوح ومصّر الأمصار، وأذل رقاب المشركين... وما يوم المسلمين منك بواحد لقد حسدت أبا بكر والتويت عليه، ورمت إفساد أمره وقعدت في بيتك... ثم كرهت خلافة عمر وحسدته، واستبطأت مدته، وسررت بقتله وأظهرت الشماتة بمصابه... إلىٰ آخر الكتاب».

وأمّا قول ابن أبي الحديد: «أن تصرف هذه الكلمة إلىٰ عثمان» فبعيد جداً؛ لأنّ المذكور في رسالة معاوية لم يكن عثمان وحده كما هو واضح.

أي أنا قادر على أن أذكر مِن هذا شيئاً كثيراً، ولكنّي أكتفي بما ذكرت.

فإن قلت: فبماذا يتعلّق «في» في قوله: «في كثير»؟

قلتُ: بمحذوف تقديرُه: هذا الكلام داخلٌ في جملة كلام كثيرٍ يتضمّن ما لَنا وعليكم.

قولُه ﷺ: «فإسلامُنا ما قد سُمِع، وجاهليّتنا لا تُدفَع»، كلامٌ قد تعلّق به بعضُ من يتعصّب للأمويّة. وقال: لو كانت جاهليّة بني هاشم في الشّرف كإسلامهم لعدّ من جاهليّتهم حَسب ما عدّ من فضيلتهم في الإسلام.

هذه الرسالة الكريمة هي جواب لرسالة كان قد بعثها معاوية مع أبي مسلم الخولاني، ثم إن ابن أبي الحديد أورد رسالة معاوية من إملاء النقيب أبي جعفر يحيىٰ بن زيد، بعثها معاوية مع أبي أُمامة الباهلي، حذفناها للاختصار.

قال النّقيب أبو جعفر: فلما وصل هذا الكتابُ إلىٰ عليّ ﷺ مع أبي اُمامة الباهلي، كلَّم أبا أُمامة بنحوٍ ممّا كلَّم به أبا مُسلم الخَولاني، وكتب معه هذا الجواب.

قال النقيب: وفي كتابِ معاويةَ هذا ذكرُ لفظ الجمل المخشوش أو الفَحل المخشوش، لا في الكتاب الواصل مع أبي مسلم، وليس في ذلك هذه اللّفظة. وإنّما فيه: «حسدتَ الخلفاء وبَغيتَ عليهم، عرفنا ذلك من نظرك الشَّزر، وقولك الهُجر وتنفُّسك الصُّعداء، وإبطائك عن الخلفاء».

قال: وإنما كثيرٌ من الناس لا يعرفون الكتابين؛ والمشهور عندهم كتابُ أبي مسلم فيجعلون هذه اللّفظة فيه، والصحيح أنّها في كتاب أبي أُمامة.

قال ابن أبي الحديد: ثم انّ النقيب أمرني أنْ اكتب ما عليه علي ﷺ فكتبته، قال ﷺ:

كان معاوية يتسقّط عليّاً ويَنعَى عليه ما عساه يذكره من حال أبي بكر وعمر، وأنهما غَصَباه حقَّه، ولا يزال يكيدُه بالكتاب يكتبه، والرّسالة يبعثُها يطلب غِرّته؛ لينفُث بما في صدره من حال أبي بكر وعمر، إمّا مكاتبةً أو مراسلة، فيجعل ذلك حجّةً عليه عند أهل الشام، ويضيفه إلىٰ ما قرّره في أنفسهم من ذنوبه كما زعم، فقد كان غمصه عندهم بأنّه قتل عثمانَ ومالأَ علىٰ قتله، وأنه قتل طلحةَ والزّبير، وأسَرَ عائشة، وأراق دماء أهلِ البصرة. وبقيت خصلةٌ واحدة، وهو أن يثبت عندهم أنه يتبرّأ من أبي بكر وعمر، وينسبهما إلىٰ الظّلم ومخالفة الرّسول في أمر الخلافة، وأنهما وثبا عليها غلبةً، وغصباه إيّاها؛ فكانت هذه الطامّة الكبرى ليست مقتصرةً علىٰ فساد أهل الشام عليه، بل وأهلِ العراق الّذين هم جُندُه

وبطانته وأنصاره؛ لأنهم كانوا يعتقدون إمامة الشَّيخين؛ إلّا القليل الشاذّ من خواصّ الشّيعة، فلما كَتَب ذلك الكتابَ مع أبي مسلم الخولاني قصد أن يُغضب عليّاً ويُحرِجَه ويُحوِجَه إذا قرأ ذكر أبي بكر، وأنه أفضل المسلمين، إلىٰ أن يَخلِط خطه في الجواب بكلمةٍ تقتضي طعنا في أبي بكر، فكان الجواب مُجَمْجَما غير بيّن، ليس فيه تصريح بالتّظليم لهما، ولا التّصريح ببراءتهما، وتارةً يترحّم عليهما، وتارةً يقول: أخَذَا حقّي وقد تركته لهما، فأشار عمرو بن العاص علىٰ معاوية أن يكتب كتاباً ثانياً مناسباً للكتاب الأوّل ليستفزّا عليّاًﷺ ويستخِفّاه، ويحمله الغَضَب منه أن يكتب كلاماً يتعلّقان به في تقبيح حاله وتَهْجين مذهبه. وقال له عمرو: إنّ عليّاً رجل نَزِق تَيّاه، وما استطعمت منه الكلامَ بمثل تقريظ أبي بكر وعمر، فاكتب. فكتب كتاباً أنفَذَه إليه مع أبي أُمامة الباهليّ، وهو من الصحابة، بعد أن عزم علىٰ بعثته مع أبي الدَّرداء.



٢٩

الأصْلُ:

ومن كتاب لهﷺ إلى أهل البصرة

وَقَدْ كَانَ مِنِ ٱنْتِشَارِ حَبْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَغْبَوْا عَنْهُ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ، فَإِنْ خَطَتْ بِكُمُ ٱلْأُمُورُ ٱلْمُرْدِيَةُ، وَسَفَهُ ٱلآرَاءِ ٱلْجَائِرَةِ، إِلَىٰ مُنَابَذَتِي وَخِلَافِي، فها أنا ذا قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي، وَرَحَلْتُ رِكَابِي.

وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَىٰ ٱلْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لَأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقْعَةً لَا يَكُونُ يَوْمُ ٱلْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَلَعْقَةِ لَاعِقٍ؛ مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ، وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقَّهُ، غَيْرَ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَماً إِلَىٰ بَرِيءٍ، وَلَا ناكِثاً إِلَىٰ وَفِيٍّ[1].

١. انتشار حبلكم: تفرّقكم. شقاقكم: عداوتكم وخلافكم. المردية: المهلكة. سفه الآراء: ضعفها. المنابذة: المخالفة.

الشّرْحُ :

ما لم تغْبوا عنه، أي لم تسهوا عنه ولم تغفلوا، يقال: غبيتُ عن الشيء أغبى غباوة؛ إذا لم يفطُن، وغَبِي الشيءُ عليّ كذلك إذا لم تعرفه، وفلان غبيّ على «فعيل»، أي قليل الفِطْنة، وقد تَغَابى؛ أي تغافل؛ يقول لهم: قد كان من خروجكم يومَ الجمل عن الطاعة، ونشرِكم حبلَ الجماعة، وشقاقِكم لِي ما لستم أغبياء عنه. فغفرت ورفعت السيف، وقبلت التوبة والإنابة. والمدبر هاهنا: الهارب. والمقبِل: الّذي لم يفرّ لكن جاءنا فاعتذر وتنصّل.

ثم قال: فإن خطت بكم الأُمور، خطا فلان خُطْوة يخطُو، وهو مقدار ما بين القَدمين، فهذا لازم، فإن عدّيتَه، قلت: أخطيت بفلان، وخطوت به، وهاهنا قد عدّاه بالباء.

والمردية: المهلكة. والجائرة: العادلة عن الصواب. والمنابذة، مفاعلة، من نبذتُ إليه عهدَه أي ألقيتَه وعدلت عن السِّلم إلى الحرب، أو من نبذت زيداً، أي اطّرحته ولم أحفل به.

قوله: «قرّبت جيادي»، أي أمرت بتقريب خيلي إليّ لأركب وأسير إليكم. ورحلت ركابي، الرّكاب الإبل، ورحلتها: شددت على ظهورها الرَّحل. كلَعقة لاعق، مثل يضرب للشيء الحقير التافه، ويروى بضم اللام، وهي ما تأخذه المِلْعقة.

ثم عاد فقال مازجاً الخشونَة باللِّين: مع أني عارف فضلَ ذي الطاعة منكم، وحقّ ذي النصيحة، ولو عاقبت لما عاقبت البريء بالسقيم، ولا أخذت الوفيّ بالناكث.



الأصْلُ :

ومن كتاب لهﷺ إلى معاوية

فَاتَّقِ آللهَ فِيما لَدَيْكَ، وَآنْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَآرْجِعْ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ مَا لَا تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلَاماً وَاضِحَةً، وَسُبُلاً نَيِّرَةً، وَمَحَجَّةً نَهْجَةً، وَغَايَةً مُطَّلَبَةً، يَرِدُهَا آلأَكيَاسُ، وَيُخَالِفُهَا آلأنكَاسُ؛ مَنْ نَكَبَ عَنْهَا جَارَ عَنِ آلْحَقِّ، وَخَبَطَ فِي التِّيهِ،

وَغَيَّرَ ٱللهُ نِعْمَتَهُ، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ.

فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ! فَقَدْ بَيَّنَ ٱللهُ لَكَ سَبِيلَكَ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ، فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَىٰ غَايَةِ خُسْرٍ، وَمَحَلَّةِ كُفْرٍ، فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ شَرّاً، وَأَقْحَمَتْكَ غَيّاً، وَأَوْرَدَتْكَ ٱلْمَهَالِكَ، وَأَوْعَرَتْ عَلَيْكَ ٱلْمَسَالِكَ[1].

الشَّرْحُ:

قوله: «وغاية مُطّلبة»، أي مساعفة لطالبها بما يطلبه. تقول: طلب فلان مِنّي كذا فأطلبتُه: أي أسعفت به. والأكياس: العقلاء. والأنكاس: جمع نِكْس؛ وهو الدنيء من الرجال. ونكب عنها: عدَل. «وحيث تناهت بك أُمورك»، الأوْلى ألّا يكون هذا معطوفاً ولا متّصلاً بقوله، فقد بين الله لك سبيلك، بل يكون كقولهم لمن يأمرونه بالوقوف: حيث أنت، أي قِفْ حيث أنت؛ فلا يذكرون الفعل؛ ومثله قولهم: مكانَك، أي قف مكانك.

قوله: «فقد أجريت»، يقال: فلان قد أجرى بكلامه إلى كذا، أي الغاية التي يقصدها هي كذا، مأخوذ من إجراء الخيل للمسابقة. وكذلك قد أجرى بفعله إلى كذا، أي انتهى به إلى كذا. ويروى: «قد أوْحلتك شرّاً»، أي أورطتك في الوحل. والغَيّ ضدُّ الرشاد. وأقحمتك غيّاً: جعلتك مقتحماً له. وأوعرت عليك المسالك: جعلتها وعْرة.

وأوّل هذا الكتاب:

«أمّا بعد، فقد بلغَنِي كتابُك تذكر مشاغبتي، وتستقبح موازرتي، وتزعمني متحيِّراً وعن الحقّ مقصِّراً. فسبحان الله! كيف تستجيز الغيبة، وتستحسن العضيهة! إنّي لم أُشاغب إلّا في أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، ولم أتجبّر إلّا على باغ مارق، أو ملحد منافق، ولم آخذ في ذلك إلّا بقول الله سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَو إِخْوانَهم﴾[2]، وأمّا التّقصير في حقّ الله تعالى فمعاذ الله! وإنّما المقصّر في حقّ

---

١. أعلاماً: علامات ودلائل. المحجّة: الطريق الواضحة. نهجة: واضحة. خبط: سار بغير هدى. التسيه: الضلال. تناهت الأُمور: بلغت غايتها. أولجتك: أدخلتك.

٢. سورة المجادلة ٢٢.

الله جلّ ثناؤه مَنْ عطّل الحقوق المؤكّدة، وركن إلى الأهواء المبتدعة، وأخلد إلى الضّلالة المحيّرة؛ ومن العجب أن تصِفَ يا معاويةُ الإحسان، وتخالف البرهان، وتنكث الوثائق التي هي لله عزّ وجل طَلِبة، وعلى عباده حجّة، مع نبذ الإسلام، وتضييع الأحكام، وطمْس الأعلام، والجري في الهوى، والتهوّس[١] في الرّدى، فاتق الله فيما لديك، وانظر في حقّه عليك...» الفصل المذكور في الكتاب.

وفي الخطبة زيادات يسيرة لم يذكرها الرضيّ، منها:

«وإنّ للناس جماعة يد الله عليها، وغضب الله على مَنْ خالفها، فنفسَك نفسَك قبل حلول رمسِك، فإنّك إلى الله راجع، وإلى حشره مُهْطِع[٢] وسيبهظُك كربه، ويحلّ بك غمّه، في يوم لا يغنى النادمَ ندمُه، ولا يُقبَل من المعتذِر عُذرهُ، ﴿يوم لا يُغنِي مَوْلىً عن مولىً شيئاً ولا هم يُنْصَرون﴾[٣]».



الأصْلُ:

ومن وصية لهﷺ للحسن بن عليﷺ

كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفّين:

مِنَ ٱلْوَالِدِ ٱلْفَانِ، ٱلْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ، ٱلْمُدْبِرِ ٱلْعُمْرِ، ٱلْمُسْتَسْلِمِ للدَّهْرِ، الذَّامِّ لِلدُّنْيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ ٱلْمَوْتَىٰ، ٱلظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً.

إِلَىٰ ٱلْمَوْلُودِ ٱلْمُؤَمِّلِ مَا لَايُدْرَكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ؛ غَرَضِ ٱلْأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ ٱلْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ ٱلْمَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ ٱلْغُرُورِ، وَغَرِيمِ ٱلْمَنَايَا،

---

١. التهوس في الردى: الوقوع فيه!

٢. المهطع: الذي ينظر في ذل وخشوع.

٣. سورة الدخان ٤١.

وَأَسِيرِ ٱلْمَوْتِ، وَحَلِيفِ ٱلْهُمُومِ، وَقَرِينِ ٱلْأَحْزَانِ، وَنُصُبِ ٱلآفَاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ ٱلْأَمْوَاتِ.

الشّرْحُ:

أمّا قوله: «كتبها إليه بحاضرين»، فالذي كُنا نقرؤه قديماً: «كتبها إليه بالحاضرَيْن» على صيغة التثنية؛ يعني حاضر حلب وحاضر قِنّسرِين، وهي الأرباض والضواحي المحيطة بهذه البلاد. ثم قرأناه بعد ذلك على جماعة من الشيوخ بغير لامٍ، ولم يفسّروه، ومنهم من يذكره بصيغة الجمع لا بصيغة التثنية، ومنهم من يقول بخناصرين، يظنونه تثنية خناصرة أو جمعها، وقد طلبتُ هذه الكلمة في الكتب المصنفة، سيّما في البلاد والأرضين فلم أجدها، ولعَلّي أظفر بها فيما بعد فألحقها في هذا الموضع.

قوله: «من الوالد الفان»، حذف الياء هاهنا للازدواج بين «الفان» و «الزمان»، ولأنّهُ وقف، وفي الوقف على المنقوص يجوز مع اللام حذف الياء وإثباتها، والإثبات هو الوجه، ومع عدم اللام يجوز الأمران وإسقاط الياء هو الوجه. قوله: «المقرّ للزمان»، أي المقرّ له بالغلبة، كأنه جعل نفسه فيما مضى خصماً للزمان بالقهر. قوله: «المدبر العمر»؛ لأنّه كان قد جاوز الستين، ولم يبق بعد مجاوزة الستين إلّا إدبار العمر؛ لأنّها نصف العمر الطبيعي الذي قلّ أن يبلغه أحدٌ، فعلى تقدير أنه يبلغه، فكلّ ما بعد الستين أقلّ مما مضى، فلا جرم يكون العمر قد أدبر. «المستسلم للدّهر»، هذا آكد من قوله: «المقرّ للزّمان»؛ لأنّه قد يقرّ الإنسان لخصمه ولا يستسلم. «الذام للدّنيا»، هذا وصف لم يستحدثه عند الكِبر، بل لم يزل عليه، ولكن يجوز أن يزيد ذمّه لها؛ لأنّ الشيخ تنقص قواه التي يستعين بها على الدنيا والدين جميعاً، ولا يزال يتأفّف من الدنيا. قوله: «الساكن مساكن الموتى»، إشعار بأنه سيموت، وهذا من قوله تعالى: ﴿**وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ**﴾[1].

قوله: «الظاعن عنها غداً»، لا يريد الغدَ بعينه، بل يريد قُرْب الرّحيل والظّعْن. وهذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام كلام مَنْ قد أيقن بالفراق، ولا ريب في ظهور الاستكانة والخضوع عليه، ويدل أيضاً على كرب وضيق عَطَنٍ؛ لكونه لم يبلغ أربه من حرْب أهل الشام، وانعكس ما قدّره بتخاذل أصحابه عنه، ونفوذ حكم عمرو بن العاص فيه لحمق أبي

---

١. سورة ابراهيم ٤٥.

موسى وغباوته وانحرافه أيضاً.

قوله: «إلى المولود»، هذه اللفظة بإزاء «الوالد». «المؤمّل ما لا يدرك»، لو قال قائل: إنه كنى بذلك عن أنه لا ينال الخلافة بعد موتي وإن كان مؤملاً لها لم يُبعد، ويكون ذلك إخباراً عن غيب، ولكن الأظهر أنّه لم يرد ذلك، وإنما أراد جنس البشر لا خصوص الحسن، وكذلك سائر الأوصاف التي تلي هذه اللفظة لا تخصّ الحسن بعينه، بل هي وإن كانت له في الظاهر بل هي للناس كلّهم في الحقيقة، ألا ترى إلى قوله بعدها: «السالك سبيل من قد هلك»، فإن كل واحد من الناس يؤمّل أُموراً لا يدركها، وكلّ واحد من الناس سالك سبيل من هلك قبله. قوله: «غرض الأسقام»؛ لأنّ الإنسان كالهدف لآفات الدنيا وأعراضها. «ورهينة الأيام»، الرهينة هاهنا: المهزول يقال: إنه لرهن، وإنه لرهينة؛ إذا كان مهزولاً بالياء. ويجوز أن يريد بالرهينة واحدة الرهائن؛ يقال للأسير أو للزمِن أو للعاجز عند الرحيل: إنّه لرهينة؛ وذلك لأنّ الرهائن محتبسة عند مرتهنها.

«ورميّة المصائب»، الرميّة ما يرمى.

قوله: «وعبد الدنيا، وتاجر الغرور، وغريم المنايا»؛ لأنّ الإنسان طوع شهواته، فهو عبد الدنيا، وحركاته فيها مبنيّة على غرور لا أصل له، فهو تاجر الغرور لا محالة؛ ولمّا كانت المنايا تطالبه بالرحيل عن هذه الدار كانت غريماً له يقتضيه ما لابدّ له من أدائه. «وأسير الموت، وحليف الهموم، وقرين الأحزان، ونصب الآفات، صريع الشهوات»، لما كان الإنسان مع الموت، كان أسيراً له لا محالة؛ ولمّا كان لابدّ لكلّ إنسان من الهمّ كان حليف الهموم؛ وكذلك لا يخلو ولا ينفكّ من الحزن، فكان قريناً له، ولما كان معرّضاً للآفات كان نصباً لها، ولما كان إنما يهلك بشهواته كان صريعاً لها. قوله: «وخليفة الأموات» قد أخذه مَنْ قال: إنّ امرأً ليس بينه وبين آدم إلّا أب ميّت لمعرق في الموت.

واعلم أنّه عدّ من صفات نفسه سبعاً، وعدّ من صفات ولده أربع عشرة صفة، فجعل بإزاء كلّ واحدة مما له اثنتين ممّا لولده، فليلمح ذلك.

الأَصْلُ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ فِيما تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَإِقْبَالِ ٱلآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَٱلاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي

ـ دُونَ هُمُومِ النَّاسِ ـ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَقَنِي رَأْيِي، وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَىٰ بِي إِلَىٰ جِدٍّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ. وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّىٰ كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ.

الشّرْحُ:

يزعني: يكفّني ويصدّني، وزعتُ فلاناً، ولابدّ للناس من وَزَعة.

وسِوى، لفظة تقصَر إذا كسرت سينها، وتمدّ إذا فتحتها؛ وهي هاهنا: بمعنى غير. ومَنْ قبلها بمعنى شيء منكّر. والتقدير غير ذكر إنسان سواي، ويجوز أن تكون «مَنْ» موصولة، وقد حذف أحد جزأي الصلة، والتقدير عن ذكر الذي هو غيري، كما قالوا في: ﴿لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾، أي هو أشدّ. يقولﷺ: إن في ما قد بان لي من تنكّر الوقت وإدبار الدنيا وإقبال الآخرة شاغلاً لي عن الاهتمام، بأحد غيري، والاهتمام والفكر في أمر الولد وغيره ممن أخلفه ورائي.

ثم عاد فقال: إلّا أنّ همّي بنفسي يقتضي اهتمامي بك؛ لأنّك بعضي بل كلّي، فإن كان اهتمامي بنفسي يصرفني عن غيري لم تكن أنت داخلاً في جملة مَنْ يصرفني همّي بنفسي عنهم؛ لأنّك لست غيري.

فإن قلت: أفهذا الهمّ حدَث لأمير المؤمنينﷺ الآن، أو من قبل لم يكن عالماً بأن الدنيا مدبرة، والآخرة مقبلة؟

قلت: كلّا بل لم يزل عالماً عارفاً بذلك، ولكنه الآن تأكد وقوى، بطريق علوّ السنّ وضعف القُوَى، وهذا أمر يحصل للإنسان على سبيل الإيجاب، لابدّ من حصوله لكلّ أحد، وإن كان عالماً بالحال من قبل: ولكن ليس العِيان كالخبر.

قوله: «تفرّد بي دون هموم الناس همّ نفسي»، أي دون الهموم التي قد كانت تعتريني لأجل أحوال الناس. فصدّقني رأيي؛ يقال: صدقته كذا أي عن كذا، وفي المثل: «صدقني سنّ بكره»؛ لأنّه لما نفر قال له: هِدَعْ، وهي كلمة يسكّن بها صغار الإبل إذا نفرت؛ والمعنى

أنّ هذا الهم صدقني عن الصفة التي يجب أن يكون رأيي عليها وتلك الصفة هي ألّا يفكر في أمر شيء من الموجودات أصلاً إلّا الله تعالى ونفسه؛ وفوق هذه الطبقة طبقة أُخرىٰ جداً وهي ألّا تفكر في شيء قطّ إلّا في الله وحده، وفوق هذه الطبقة طبقة أُخرىٰ تجلّ عن الذكر والتفسير، ولا تصلح لأحد من المخلوقين إلا النادر الشاذ. وقد ذكرها هو فيما سبق، وهو ألّا يفكر في شيء أصلاً، لا في المخلوق ولا في الخالق؛ لأنّه قد قارب أن يتّحد بالخالق، ويستغني عن الفكر فيه.

قوله: «وصرفني عن هواي»، أي عن هواي وفكري في تدبير الخلافة وسياسة الرعيّة والقيام بما يقوم به الأئمة. «وصرّح لي محض أمري»، يروى بنصب محض «ورفعه»؛ فمن نصب فتقديره: عن محض أمري؛ فلمّا حذف الجار نصب، ومن رفع جعله فاعلاً. وصرّح: كشف أو انكشف. «فأفضى به إلى كذا»، ليس بمعنى أنه قد كان من قبل يمازج جدّه باللعب؛ بل المعنى أنّ همومه الأُولى قد كانت بحيث يمكن أن يتخلّلها وقت راحة أو دُعابة لا يخرج بها عن الحق، كما كان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلّا حقاً، فالآن قد حدث عنده همّ لا يمكن أن يتخلّله من ذلك شيء أصلاً. وكذلك القول في قوله: «وصدق لا يشوبه كذب» أي لا يمكن أن يشوبه كذب؛ وليس المراد بالصدق والكذب هاهنا مفهومهما المشهورين؛ بل هو من قولهم: صدَقونا اللقاء، ومن قولهم: حمل عليهم فما كذب! أي أفضى به هذا الهمّ إلى أن صدقتني الدنيا حربها، كأنه جعل نفسه محارباً للدنيا، أي صدقتني الدنيا حربها ولم تكذب، أي لم تجبن ولم تَخُنْ.

أخبر عن شدّة اتّحاد ولده به، فقال وجدتك بعضي، قال الشاعر:

وإنّما أولادُنا بيننا	أكبادُنا تمشي على الأرض
لو هبّت الرّيح على بعضهمْ	لامتنعتْ عيني من الغَمْضِ

الأصْلُ:

فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَىٰ ٱللهِ -أَيْ بُنَيَّ- وَلُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَٱلْاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ. وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱللهِ؛ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ!

أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ

ٱلْمَوْتِ ، وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا ، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ تَقَلُّبِ ٱللَّيَالِي وَٱلْأَيَّامِ ؛ وَٱعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ ٱلْمَاضِينَ ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ . وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ ، فَانْظُرْ فِيما فَعَلُوا وَعَمَّا ٱنْتَقَلُوا ، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا ! فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ ٱنْتَقَلُوا عَنِ ٱلْأَحِبَّةِ ، وَحَلُّوا دارَ ٱلْغُرْبَةِ ؛ وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ . فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ ؛ وَدَعِ ٱلْقَوْلَ فِيما لَا تَعْرِفُ ، وَٱلْخِطَابَ فِيما لَمْ تُكَلَّفْ ؛ وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ ، فَإِنَّ ٱلْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ ٱلْأَهْوَالِ[١] .

الشّرْحُ :

قولهعليه‌السلام : «وأيّ سبب أوثق» ؛ إشارة إلى القرآن لأنّه هو المعبّر عنه بقوله تعالى : ﴿وَٱعتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[٢] . ثم أتى بلفظتين متقابلتين ، وذلك من لطيف الصنعة ؛ فقال : «أحيِ قلبك بالموعظة ، وأمته بالزّهادة» ؛ والمراد إحياء دواعيه إلى الطاعة وإماتة الشهوات عنه . قولهعليه‌السلام : «وأعرض عليه أخبار الماضين» معنى قد تداوله الناس ، قال الشاعر :

سل عن الماضين إن نطقت عنهم الأجداث والتُّرَكُ
أيّ دار للبلى نزلوا وسبيل للردى سَلَكُوا

قولهعليه‌السلام : «ودع القول فيما لا تعرف» من قول رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله : «خذ ما تعرف ، ودع ما لا تعرف ، وعليك بخُوَيْصة نفسك» . قوله : «والخطاب فيما لم تكلّف» من قول رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله : «مِنْ حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» . قولهعليه‌السلام : «وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته» ، مأخوذ من قول النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله : «دع ما يَريبك إلى ما لا يريبك» ، وفي خبر آخر : «إذا رابك أمْرٌ فدعْه» .

---

١. اعتصم : اعتصم بالشيء أمسكه بيده ، فجائع : رزايا جمع رزية وهي المصيبة صولة الدهر : سطوته . فحش : القبيح من القول .

٢. سورة آل عمران ١٠٣ .

الأَصْلُ :

وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ ٱلْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ، وَجَاهِدْ فِي ٱللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي ٱللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ. وَخُضِ ٱلْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى ٱلْمَكْرُوهِ؛ وَنِعْمَ ٱلْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ!

وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَىٰ إِلٰهِكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُها إِلَىٰ كَهْفٍ حَرِيزٍ، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ. وَأَخْلِصْ فِي ٱلْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ ٱلْعَطَاءَ وَٱلْحِرْمَانَ، وَأَكْثِرِ ٱلاِسْتِخَارَةَ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحاً، فَإِنَّ خَيْرَ ٱلْقَوْلِ مَا نَفَعَ. وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ.

الشَّرْحُ :

أمره أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهما واجبان عندنا، وأحد الأُصول الخمسة التي هي أُصول الدين.

ومعنى قوله: «تكن من أهله»؛ لأنّ أهل المعروف هم الأبرار الصالحون، ويجب إنكار المنكر باللسان، فإن لم ينجع فباليد.

قوله: «وخض الغمرات إلى الحق» لا شبهة أنّ الحسن؈ لو تمكّنَ لخاضها إلّا أن من فقد الأنصار لا حيلة له.

❊ وهل ينهض البازي بغير جناح ❊

والذي خاضها مع عدم الأنصار هو الحسين؈، ولهذا عظُم عند الناس قدرُه.

فإن قلتَ: فما قول أصحابكم في ذلك ؟

قلت: هما عندنا في الفضيلة سيّان، أما الحسن فلوقوفه مع قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا﴾، وأمّا الحسين فلإعزاز الدين.

قوله: فنعم التصبّر، قد تقدّم منّا كلام شافٍ في الصبر. وقوله: «وأكثر الاستخارة»، ليس يعني بها ما يفعله اليوم قوم من الناس من سَطْر رقاع وجعلها في بنادق، وإنما المراد أمره إياه

بأن يطلب الخيرَة من الله فيما يأتي ويذر. قوله: «لا خير في علم لا ينفع» قول حق، لأنّه إذا لم ينفع كان عبثاً. «ولا ينتفع بعلم لا يحقُّ تعلمه» أي لا يجب ولا يندب إليه؛ وذلك لأنّ النفع إنما هو نفع الآخرة، فما لم يكن من العلوم مرغباً فيه إمّا بإيجاب أو ندب فلا انتفاع به في الآخرة، وذلك كعلم الهندسة والأرثماطيقيّ ونحوهما.

الأَصْلُ:

أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْناً، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْ أَنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ ٱلْهَوَىٰ وَفِتَنِ الدُّنْيَا، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ.

وَإِنَّمَا قَلْبُ ٱلْحَدَثِ كَالْأَرْضِ ٱلْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ؛ فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُو قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذٰلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ.

الشَّرْحُ:

هذه الوصيّة كتبها عليه السلام للحسن بعد أن تجاوز الستين، وروي أنه ذُكر عند رسول الله صلى الله عليه وآله ما بين الستّين والسبعين، فقال: «معترك المنايا».

قوله عليه السلام «أو أن أنقص في رأيي»، هذا يدلّ على بطلان قول من قال: إنّه لا يجوز أن ينقص في رأيه، وأن الإمام معصوم عن أمثال ذلك[1].

١. عقيدتنا في الامام عليه السلام أنّه كالنبي صلى الله عليه وآله يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، بل المنقّصات المنفّرة، وغلبات الهوىٰ... الخ من سنّ الطفولة إلىٰ الموت عمداً وسهواً، خطأً ونسياناً. لأنّ الإمام حافظ الشريعة، حاله حال النبي صلى الله عليه وآله، قائم مقامه في جميع شؤونه إلّا تلقي الوحي. وليس المراد (بنقصان الرأي) هنا فساد العقل، بل كلّ ما يحول بين المرء والتعبير عن رأيه. كما أن الإمام لا يغلبه الهوى،

⇔

قوله: «فتكون كالصّعب النّفور»، أي كالبعير الصعب الذي لا يُمكّن راكباً، وهو مع ذلك نفور عن الأنس. ثم ذكر أنّ التعلّم إنما هو في الصبى، وفي المثل: «الغلام كالطّين يقبل الختم مادام رطباً». ومثل هو‌عليه السلام قلب الحدث بالأرض الخالية، ما أُلقي فيها من شيء قبلته، وكان يقال: التعلّم في الصغر كالنقش في الحجر، والتعلم في الكبر كالخطّ على الماء. قوله: «فأتاك من ذلك ما كنّا نأتيه»، أي الّذي كنّا نحن نتجشم المشقّة في اكتسابه، ونتكلّف طلبه؛ يأتيك أنت الآن صَفواً عَفواً.

الأصْلُ:

أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ؛ حَتَّىٰ عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ؛ بَلْ كَأَنِّي بِمَا ٱنْتَهَىٰ إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ؛ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَىٰ آخِرِهِمْ؛ فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذٰلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ؛ فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ جَلِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي ٱلْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ ٱلْعُمُرِ وَمُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ ٱلْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لَا أُجَاوِزُ ذٰلِكَ بِكَ إِلَىٰ غَيْرِهِ. ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا ٱخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ، مِثْلَ الَّذِي ٱلْتَبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذٰلِكَ عَلَىٰ مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَىٰ أَمْرٍ لَاآمَنُ عَلَيْكَ بِهِ ٱلْهَلَكَةَ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ ٱللهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هٰذِهِ.

⇐ ولا تفتنه الدنيا، كيف والإمام‌عليه السلام طلّقها ثلاثاً قولاً وعملاً. ولكن هذا من باب هظم النفس والتواضع الذي عرف به‌عليه السلام وهي لغة القدّيسين وأولياء الله سبحانه، ومن قبله قال رسول الله‌صلى الله عليه وآله: ﴿وإنّا أو إيّاكم لعلىٰ هُدًىٰ أو في ضلال مبين﴾ سبأ ٢٤. وقال نوح‌عليه السلام: ﴿وإلّا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾ هود ٤٧. ولكن ابن أبي الحديد يؤوّل النصوص بحسب هواه، ومذهب أصحابه.

الشّرْحُ :

هذا الفصل وما بعده يشعر بالنّهي عن علم الكلام حسب ما يقتضيه ظاهر لفظه، ألا تراه قال له : كنت عازماً على أن أعلّمك القرآن وتفسيره والفقه وهو المعرفة بأحكام الشريعة، ولا أجاوز ذلك بك إلى غيره، ثم خفت أنْ تدخل عليك شبهة في أُصول الدين فيلتبس عليك في عقيدتك الأصلية ما التبس على غيرك من الناس، فعدلتُ عن العزم الأوّل إلى أن أوصيك بوصايا تتعلّق بأصول الدين.

ومعنى قولهعليه السلام : «وكان إحكام ذلك» إلى قوله : «لا آمن عليك به الهلكة»، أي فكان إحكامي الأمورَ الأصليّة عندك وتقرير الوصيّة التي أوصيك بها في ذهنك فيما رجع إلى النظر في العلوم الإلهية؛ وإن كنت كارهاً للخوض معك فيه وتنبيهك عليه أحبّ إليّ من أن أتركك سدىً مهملاً، تتلاعب بك الشّبَه، وتعتورك الشكوك في أُصول دينك، فربّما أفضى ذلك بك إلى الهَلكة[1]. قولهعليه السلام : «قد عَمِرتُ مع أولهم إلى آخرهم» العين مفتوحة والميم مكسورة مخففة، تقول : عمر الرجل يعمر عمراً وعُمراً على غير قياس؛ لأنّ قياس مصدره التحريك أي عاش زماناً طويلاً، واستعمل في القسم أحدهما فقط، وهو المفتوح. قولهعليه السلام : «حيث عناني من أمرك»، أي أهمّني، قال :

* عَنَاني مِنْ صُدُودِكَ مَاعَنَاني *

قوله : «وأجمعت عليه»، أي عزمت. ومقتبل الدهر، يقال : اقتبل الغلام فهو مقتَبل بالفتح وهو من الشواذّ، ومثله أحصن الرجل إذا تزوج فهو مُحصَن، وإذا عفّ فمحصَن أيضاً، وأسهب إذا أطال الحديث فهو مسهَب، وألفج إذا افتقر فهو ملفَج؛ وينبغي أن يكون له من قوله : « تنبيهك له» بمعنى «عليه»، أو تكون على أصلها، أي ما كرهت تنبيهك لأجله.

فإن قلت : إلى الآن ما فسّرتَ، لماذا كره تنبيهه على هذا الفنّ ؟

قلت : بلى قد أشرت إليه؛ وهو أنه كره أن يعدل به عن تفسير القرآن وعلم الفقه إلى

---

١. الصحيح أن وجه كراهة الإمامعليه السلام هو لتنبيه ولده أن يخلص ذهنه للنظر في معاني القرآن، والأحكام الشرعية، والمعرفة الشرعية الحاصلة بالفطرة. وهذا هو الأهم. وواضح لكل منصف أن هذه الوصية الخالدة، وإن كانت مصدّرة إلى الإمام الحسنعليه السلام لكبر سنه، ولكونه عظيم أهله، لكنها في الحقيقة موجهة لسائر المؤمنين إلى يوم القيامة. وأمّا توجيه الخطاب إلى الأكبر والأجل والرئيس، عادة جرى عليها العقلاء، وورد بها القرآن، وجرت عليها سنّة النبيّ الأقدسصلى الله عليه وآله في وصاياه.

الخوض في الأُمور الأصوليّة فنبّهه على أُمور يجرّه النظر وتأمّل الأدِلّة والشُّبُهات إليها دقيقة يُخافُ على الإنسان من الخوض فيها أن تضطرب عقيدته، إلا أنه لم يجد به بدّاً من تنبيهه على أُصول الديانة، وإن كان كارهاً لتعريضه لخطر الشبهة، فنبّهه على أُمور جملية غير مفصلة، وأمره أن يلزم ذلك ولا يتجاوزه إلى غيره وأن يُمسك عما يشتبه عليه، وسيأتي ذكر ذلك.

الأَصْلُ:

وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَىٰ ٱللهِ وَٱلْإِقْتِصَارُ عَلَىٰ مَا فَرَضَهُ ٱللهُ عَلَيْكَ، وَٱلْأَخْذُ بِمَا مَضَىٰ عَلَيْهِ ٱلْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذٰلِكَ إِلَىٰ ٱلْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَٱلْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذٰلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا؛ فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذٰلِكَ بِتَفَهُّم وَتَعَلُّم، لَا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ، وَعُلَقِ ٱلْخُصُومَاتِ. وَٱبْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذٰلِكَ بِالاِسْتِعَانَةِ بِإِلٰهِكَ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَىٰ ضَلَالَةٍ، فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذٰلِكَ هَمّاً وَاحِداً، فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ؛ وَإِنْ أنت لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ؛ وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ ٱلْعَشْوَاءَ، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ، وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، وَٱلْإِمْسَاكُ عَنْ ذٰلِكَ أَمْثَلُ.

الشّرْحُ:

أمره أن يقتصر على القيام بالفرائض، وأن يأخذ بسنّة السّلف الصّالح من آبائه وأهل بيته؛ فإنّهم لم يقتصروا على التقليد؛ بل نظروا لأنفسهم، وتأمّلوا الأدلة، ثم رجعوا آخر الأمر إلى الأخذ بما عرفوا، والإمساك عمّا لم يكلّفوا.

فإن قلت: مَنْ سَلَفُه هؤلاء الذين أشار إليهم ؟

قلت: المهاجرون الأوّلون من بني هاشم وبني المطّلب كحمزة وجعفر والعباس وعبيدة ابن الحارث، وكأبي طالب في قول الشّيعة وكثير من أصحابنا، وكعبد المطّلب في قول الشيعة خاصّة.

فإن قلت: فهل يكون أمير المؤمنين عليه السلام نفسه معدوداً من جملة هؤلاء ؟

قلت: لا، فإنه لم يكن من أهل المبادئ والجمل المقتصر بهم في تكليفهم العقليّات على أوائل الأدلّة، بل كان سيّد أهل النظر كافّة وإمامهم.

فإن قلت: ما معنى قوله: لم يدعوا أن نظروا لأنفسهم ؟

قلت: لأنّهم إذا تأمّلوا الأدلّة وفكّروا فيها فقد نظروا لأنفسهم كما ينظر الإنسان لنفسه ليخلّصها من مضرّة عظيمة سبيلها أن تقع به إن لم ينظر في الخلاص منها: وهذا هو الوجه في وجوب النظر في طريق معرفة الله، والخوف من إهمال النظر.

فإن قلت: ما معنى قوله: «إلى الأخذ بما عرفوا، والإمساك عمّا لم يكلّفوا» ؟

قلت: الأخذ بما عرفوا، مثل أدلّة حدوث الأجسام وتوحيد الباري وعدله، والإمساك عمّا لم يكلّفوا، مثل النّظر في إثبات الجزء الّذي لا يتجزأ ونفيه، ومثل الكلام في الخلا والملا، وأمثال ذلك مما لا يتوقّف أصول التوحيد والعدل عليه، فإنه لا يلزم أصحاب الجمل والمبادئ أن يخوضوا في ذلك: لأنهم لم يكلّفوا الخوض فيه؛ وهو من وظيفة قوم آخرين.

واعلم أنّ ظاهر الكلام كونه يأمر بتقليد النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأخذ بما في القرآن وترك النظر العقليّ؛ هذا هو ظاهر الكلام؛ ألا تراه كيف يقول له: الاقتصار على ما فرضه الله عليك، والأخذ بما مضى عليه أهل بيتك وسلفك؛ فإنّهم لما حاولوا النظر رجعوا بآخره إلى السمعيات، وتركوا العقليات؛ لأنّها أفضتْ بهم إلى ما لا يعرفونه؛ ولا هو من تكليفهم.

ثم قال له: فإن كرهت التقليد المحض، وأحببت أن تسلك مسلكهم في النّظر، وإن أفضى بك الأمر بأخرة إلى تركه والعود إلى المعروف من الشرعيّات وما ورد به الكتاب والسنّة، فينبغي أن تنظر وأنت مجتمع الهمّ خالٍ من الشبهة، وتكون طالبا للحقّ، غير قاصد إلى الجدل والمراء؛ فلمّا وجدنا ظاهر اللفظ يقتضي هذه المعاني، ولم يجز عندنا أنْ يأمر أمير المؤمنين عليه السلام ولده مع حكمته وأهلية ولده بالتّقليد وترك النظر، رجعنا إلى تأويل كلامه على وجه يخرج به عليه السلام من أن يأمر بما لا يجوز لمثله أن يأمر به.

واعلم أنّه قد أوصاه إذا همّ بالشروع في النظر بمحض ماذكره المتكلمون، وذلك أُمور:

منها أن يرغب إلى الله في توفيقه وتسديده.

ومنها أن يطلب المطلوب النظري بتفهّم وتعلم؛ لا بجدال ومغالبة وهِراء ومخاصمة.

ومنها اطّراح العصبية لمذهب بعينه، والتورّط في الشبهات التي يحاول بها نصرة ذلك المذهب.

ومنها ترك الإلْف والعادة، ونصرة أمر يطلب به الرياسة؛ وهو المعنيّ بالشوائب التي تولج في الضلال.

ومنها أنْ يكون صافي القلب، مجتمعَ الفكر، غير مشغول السرّ بأمرٍ من جوع أو شِبع أو شبَق أو غضب؛ ولا يكون ذا هموم كثيرة، وأفكار موزّعة مقسّمة؛ بل يكون فكره وهمّه همّاً واحداً.

قال: فإذا اجتمع لك كلّ ذلك فانظر، وإن لم يجتمع لك ذلك ونظرت كنت كالنّاقة العشواء الخابطة لا تهتدي، وكمن يتورّط في الظلماء لا يعلم أين يضع قدمه! وليس طالب الدين مَنْ كان خابطاً أو خالطاً، والإمساك عن ذلك أمثل وأفضل.

الأَصْلُ:

فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي، وَٱعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ ٱلْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ ٱلْحَيَاةِ، وَأَنَّ ٱلْخَالِقَ هُوَ ٱلْمُمِيتُ، وَأَنَّ ٱلْمُفْنِيَ هُوَ ٱلْمُعِيدُ، وَأَنَّ ٱلْمُبْتَلِي هُوَ ٱلْمُعَافِي، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَىٰ مَا جَعَلَهَا ٱللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ، وَٱلْإِبْتِلَاءِ، وَٱلْجَزَاءِ فِي ٱلْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَىٰ جَهَالَتِكَ به، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلاً ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ ٱلْأَمْرِ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ، ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ!

الشّرْحُ:

قوله: «أو ما شاء ممّا لا تعلم» يجوز أن يريد عليه السلام أن الله تعالى قد يجازي المذنب في الدّنيا بنوع من العقوبة، كالأسقام والفقر وغيرهما، والعقاب وإن كان على وجه الاستحقاق والإهانة فيجوز لمستحقه وهو الباري أن يقتصر منه على الإيلام فقط، لأنّ الجميع حقّه، فله

أن يستوفي البعض ويسقط البعْض، وقد روي «أو بما شاء» بـالباء الزائـدة، وروي «بـما لا يعلم». وأمّا الثواب فلا يجوز أن يجازي به المحسن في الدّنيا؛ لأنّه على صفة لا يمكن أن تجامع التكليف، فيحمل لفظ الجزاء على جزاء العقاب خاصة.

ثم أعادﷺ وصيته الأولى، فقال: وإن أشكل عليك شيء من أمر القضاء والقَدر، وهـو كون الكافر مخصوصاً بالنعماء والمؤمن مخصوصاً بضرب من الابتلاء، وكون الجزاء قـد يكون في المعاد، وقد يكون في غير المعاد، فلا تقدحنّ جهالتك به في سكون قلبك إلى ما عرفتك جملته، وهو أنّ الله تعالى هو المحيي المميت، المفني المعيد، المبتلي المعافي، وأنّ الدنيا بنيت على الابتلاء والإنعام، وأنهما لمصالح وأمور يستأثر الله تـعالى بـعلمها، وأنـه يجازي عباده إمّا في الآخرة أو غير الآخرة، على حسب ما يريده ويختاره.

ثم قال له: إنما خلقت في مبدأ خلقتك جاهلاً، فلا تطلبن نفسك غاية من العلم لا وصول لها إليها، أو لها إليها وصول بعد أمور صعبة، ومتاعب شديدة، فمن خلق جاهلاً حقيق أن يكون جهله مدّة عمره أكثر من علمه استصحاباً للأصل.

ثم أراد أن يؤنسه بكلمة استدرك بها إيحاشه، فقال له: وعساك إذا جهلت شيئاً من ذلك أن تعلمه فيما بعد، فما أكثر ما تجهل من الأمور وتتحير فيه، ثم تبصره وتعرفه! وهذا من الطِّبّ اللطيف، والرُّقَى الناجعة، والسحر الحلال.

الأصْلُ:

فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَـيْهِ رَغْـبَتُكَ، وَمِـنْهُ شَفَقَتُكَ.

وَٱعْلَمْ يَابُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ نَبِيُّنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؛ فَارْضَ بِهِ رَائِداً، وَإِلَىٰ النَّجَاةِ قَائِداً، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً، وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ - وَإِنِ ٱجْتَهَدْتَ - مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ.

الشّرْحُ:

عاد إلى أمره باتّباع الرسولﷺ، وأن يعتمد على السمع وما وردت به الشريعة، ونطق به الكتاب، وقال له: إنّ أحداً لم يخبر عن الله تعالى كما أخبر عنه نبيناﷺ؛ وصدقﷺ! فإنّ

التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب أنبياء بني إسرائيل لم تتضمّن من الأُمور الإلٰهية ما تضمنه القرآن، وخصوصاً في أمر المعاد.

ثم ذكر له أنه أنصحُ له من كلّ أحد؛ وأنه ليس يبلغ وإن اجتهد في النظر لنفسه ما يبلغه هوﷺ له، لشدة حبّه له وإيثاره مصلحته. وقوله: «لم آلك نصحاً» لم أقصّر في نصحك، ألى الرجل في كذا يألو أي قصّر فهو آلٍ والفعل لازم، ولكنه حذف اللام فوصل الفعل إلى الضمير فنصبه، وكان أصله: لا آلو لك نصحاً، ونصحاً منصوب على التمييز.

قوله: «ومنه شفقتك»، أي خوفك. ورائد: أصله الرجل يتقدّم القوم فيرتاد بهم المرعى.

الأَصْلُ:

وَٱعْلَمْ يَابُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلٰكِنَّهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلَا يَزُولُ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ، أَوَّلٌ قَبْلَ ٱلْأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ، وَآخِرٌ بَعْدَ ٱلْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَايَةٍ، عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ.

فَإِذَا عَرَفْتَ ذٰلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ، وَقِلَّةِ مَقْدُرَتِهِ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَٱلْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنٍ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ.

الشّرْحُ:

يمكن أن يستدلّ بهذا الكلام على نفي الثاني من وجهين:

أحدهما: أنّه لو كان في الوجود ثانٍ للباري تعالى لما كان القول بالوحدانيّة حقّاً، بل كان الحقّ هو القول بالتثنية، ومحال ألا يكون ذلك الثاني حكيماً، ولو كان الحقّ هو إثبات ثانٍ حكيم لوجب أن يبعث رسولاً يدعُو المكلّفين إلى التثنية، لأنّ الأنبياء كلّهم دعوا إلى التّوحيد، لكن التوحيد على هذا الفرض ضلالٌ، فيجب على الثاني الحكيم أن يبعث من ينبّه المكلّفين على ذلك الضلال ويرشدهم إلى الحق وهو إثبات الثاني، وإلّا كان منسوباً في

إهمال ذلك إلى السّفه واستفساد المكلّفين، وذلك لا يجوز؛ ولكنا ما أتانا رسول يدعو إلى إثبات ثانٍ في الإلهيّة فبطل كون القول بالتوحيد ضلالاً، وإذا لم يكن ضلالاً كان حقاً؛ فنقيضه وهو القول بإثبات الثاني باطل.

الوجه الثاني: أنه لو كان في الوجود ثانٍ للقديم تعالى لوجب أن يكون لنا طريقٌ إلى إثباته، إمّا من مجرد أفعاله، أو من صفات أفعاله، أو من صفات نفسه، أو لا من هذا ولا من هذا، فمن التوقيف.

وهذه هي الأقسام التي ذكرها أمير المؤمنين؛ لأنّ قوله: «أتتك رسله» هو التوقيف، وقوله: «ولرأيت آثار ملكه وسلطانه» هي صفات أفعاله، وقوله: « ولعرفت أفعاله وصفاته» هما القسمان الآخران.

أما إثبات الثاني من مجرّد الفعل فباطل؛ لأنّ الفعل إنما يدلّ على فاعل ولا يدلّ على التعدّد، وأمّا صفات أفعاله وهي كون أفعاله محكمة متقنة، فإن الإحكام الذي نشاهده إنّما يدل على عالم ولا يدلّ على التعدّد، وأمّا صفات ذات الباري فالعلم بها فرع على العلم بذاته، فلو أثبتنا ذاته بها لزم الدور.

وأمّا التوقيف فلم يأتنا رسول ذو معجزة صحيحة يدعونا إلى الثاني؛ وإذا بطلت الأقسام كلّها، وقد ثبت أن ما لا طريق إلى إثباته لا يجوز إثباته بطل القول بإثبات الثاني.

ثم قال: «لا يضادّه في مُلْكه أحد»، ليس يريد بالضدّ ما يريده المتكلّمون من نفي ذات هي معاكسة لذات الباري تعالى في صفاتها، كمضادّة السواد للبياض، بل مراده نفي الثاني لا غير، فإنّ نفي الضدّ بحث آخر لا دخول له بين هذا الكلام.

ثم ذكر له أنّ الباري تعالى قديم سابق للأشياء، لا سبْقاً له حدّ محدود، وأول معيّن، بل لا أوّل له مطلقاً. ثم قال: وهو مع هذا آخر الأشياء، آخرية مطلقة ليس تنتهي إلى غاية معينة. ثم ذكر أنّ له ربوبيّة جلّت عن أن تحيط بها الأبصار والعقول.

الأَصْلُ:

يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَٱنْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ ٱلآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا ٱلْأَمْثَالَ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا.

إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ، نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ، فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيباً

وَجَنَاباً مَرِيعاً، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ ٱلْمَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ أَلَماً، وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَماً. وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ وَأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلَّتِهِمْ.

وَمَثَلُ مَنِ آغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَىٰ مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ، وَلَا أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَىٰ مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ.

الشّرْحُ:

حذا عليه يحذو، واحتذى مثاله، يحتذي، أي اقتدى به. وقوم سَفْر، بالتسكين، أي مسافرون. وأمُّوا: قصدوا. والمنزل الجديب: ضدّ المنزل الخصيب. والجناب المَريع بفتح الميم: ذو الكلأ والعشب، وقد مَرُع الوادي، بالضمّ. والجَناب: الفناء. ووعْثاء الطريق: مشقّتها. وجشوبة المطعم: غِلَظه، طعام جشيب ومجشوب، ويقال إنّه الذي لا أدْم معه.

يقول: مثلَ من عرف الدنيا وعمل فيها للآخرة كمن سافر من منزل جدب إلى منزل خصيب، فلقي في طريقه مشقّة؛ فإنه لا يكترث بذلك في جنب ما يطلب؛ وبالعكس من عمل للدنيا وأهمل أمر الآخرة، فإنه كمن يسافر إلى منزل ضَنْك ويهجر منزلاً رحيباً طيباً، وهذا من قول رسول الله ﷺ: «الدّنيا سِجْن المؤمن وجنّة الكافر».

الأَصْلُ:

يَا بُنَيَّ آجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَآكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَآسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَآرْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ.

وَآعْلَمْ أَنَّ ٱلْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ ٱلْأَلْبَابِ؛ فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ، وَلَا تَكُنْ

خَازِناً لِغَيْرِكَ، وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ، فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ.

الشّرْحُ:

جاء في الحديث المرفوع: «لا يكمل إيمان عبدٍ حتىٰ يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه». وقال بعض الأسارى لبعض الملوك: افعل معي ما تحبّ أن يفعل الله معك؛ فأَطلقَه؛ وهذا هو معنى قوله عليه السلام: «ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم».

وقوله: «وأحسن» من قول الله تعالى: **﴿وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إليك﴾**[1]. وقوله: «واستقبح من نفسك» سئل الأحنف عن المروءة، فقال: أن تستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك. وروي: «وارض من الناس لك» وهي أحسن.

قوله عليه السلام: «فاسْعَ في كدحك»، أي اذهب ما اكتسبت بالإنفاق؛ والكدح هاهنا: هو المال الّذي كدح في حصوله، والسعي فيه إنفاقه؛ وهذه كلمة فصيحة وقد تقدّم نظائر قوله: « ولا تكن خازناً لغيرك». ثم أمره أن يكون أخشع ما يكون لله إذ هَدَاه لرشده، وذلك لأنّ هدايته إيّاه إلى رشده نعمة عظيمة منه، فوجب أن يقابل بالخشوع؛ لأنّه ضرب من الشكر.

الأَصْلُ:

وَٱعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لَا غِنَىٰ بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ ٱلْإِرْتِيَادِ، وَقَدْرِ بَلَاغِكَ مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَىٰ ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذٰلِكَ وَبَالاً عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ ٱلْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ. فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ.

وَٱغْتَنِمْ مَنِ ٱسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ. وَٱعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَؤُوداً، ٱلمخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالاً مِنَ ٱلْمُثْقِلِ، وَٱلْمُبْطِىءُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِنَ ٱلْمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبَطَكَ بِهَا لَا مَحَالَةَ؛ إِمَّا عَلَىٰ جَنَّةٍ أَوْ عَلَىٰ نَارٍ، فَارْتَدْ

---

١. سورة القصص ٧٧.

لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِّىء ٱلْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ. فَلَيْسَ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ، وَلَا إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ.

الشّرْحُ:

أمره في هذا الفصل بإنفاق المال والصَّدَقة والمعروف. فقال: إنّ بين يديك طريقاً بعيد المسافة، شديد المشقّة، ومَنْ سلك طريقاً فلا غنىً له عن أن يرتاد لنفسه، ويتزوّد من الزاد قدر ما يبلّغه الغاية، وأن يكون خفيف الظهر في سفره ذلك؛ فإيّاك أن تحمل من المال ما يثقِلكَ؛ ويكون وبالاً عليك؛ وإذا وجدت من الفقراء والمساكين مَنْ يحمل ذلك الثّقل عنك فيوافيك به غداً وقت الحاجة فحمّله إياه، فلعلك تطلب مالك فلا تجده. جاء في الحديث المرفوع: «خَمْس مَن أتى الله بهنّ أو بواحدة منهنّ أوجب له الجنّة: مَنْ سقى هامةً صادِية، أو أطعم كبداً هافية، أو كسا جلدة عارية، أو حمل قدماً حافية، أو أعتق رقبة عانية».

الأصْلُ:

وَٱعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْض قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أن تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَىٰ مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بَالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ تَعَرَّضْتَ لِلْفَضِيحَةِ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ ٱلْإِنَابَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْمَتَابِ، وَبَابَ ٱلِاسْتِعْتَابِ؛ فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْثَثْتَهُ ذاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَٱسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَٱسْتَعَنْتَهُ عَلَىٰ أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ ٱلْأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ ٱلْأَبْدَانِ، وَسَعَةِ ٱلْأَرْزَاقِ.

ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفاتِيحَ خَزائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلتِهِ؛ فَمَتَىٰ شِئْتَ آسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَآسْتَمْطَرْتَ شآبِيبَ رَحْمَتِهِ، فَلَا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ ٱلْعَطِيَّةَ عَلَىٰ قَدْرِ النِّيَّةِ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ ٱلْإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذٰلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ ٱلآمِلِ. وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيما يَبْقَىٰ لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَىٰ عَنْكَ وَبَالُهُ؛ فَالْمَالُ لَا يَبْقَىٰ لَكَ وَلَا تَبْقَىٰ لَهُ.

الشّرْحُ:

قوله: «بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة»، هذا متّفق عليه بين أصحابنا، وهو أنّ تارك القبيح؛ لأنّه قبيح يستحقّ الثواب. «وحسب سيئتك واحدة وحسب حسنتك عشراً»: هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالحَسَنةِ فَلَهُ عَشْرُ أمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إلّا مِثْلَهَا**﴾[١]. قوله: «وأبثثته ذات نفسك»، أي حاجتك.

ثم ذكر له وجوهاً في سبب إبطاء الإجابة:

منها أنّ ذلك أمر عائد إلى النيّة، فلعلّها لم تكن خالصة.

ومنها أنه ربما أخرت ليكون أعظم لأجر السائل؛ لأنّ الثواب على قدر المشقة.

ومنها أنّه ربما أخّرت ليعطى السائل خيراً مما سأل، إمّا عاجلاً أو آجلاً؛ أو في الحالين.

ومنها أنه ربّما صرف ذلك عن السائل؛ لأنّ في إعطائه إيّاه مفسدة في الدين.

قوله: «فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له»، لفظ شريف فصيح، ومعنى صادق محقّق فيه عظة بالغة؛ وقال أبو الطيب:

أيْنَ الجبابرةُ الأكاسِرَة الأُلَى ... كنزُوا الكُنوز فما بَقِينَ وَلَا بَقُوا[٢]

ويروى: «من يحجبه عنك». وروي: «حيث الفضيحة»، أي حيث الفضيحة موجودة منك.

---

١. سورة الأنعام ١٦٠.

٢. ديوانه ٢: ٣٣٤.

واعلم أنّ في قوله: «قد أذن لك في الدعاء، وتكفّل لك بالإجابة» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١]. وفي قوله: «وأمرك أن تسأله ليعطيك» إشارة إلى قوله: ﴿واسألوا اللهَ مِنْ فضله﴾[٢]. وفي قوله: «وتسترحمه ليرحمك» إشارة إلى قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٣].

وفي قوله: «ولم يمنعك إن أسأت من التوبة» إشارة إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[٤].

الأَصْلُ:

وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ؛ وَأَنَّكَ فِي مَنْزِلِ قُلْعَةٍ، وَدَارِ بُلْغَةٍ، وَطرِيقٍ إِلَىٰ ٱلآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ ٱلْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَىٰ حَذرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَىٰ حَالٍ سَيِّئَةٍ؛ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذٰلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكتَ نَفْسَكَ.

يَا بُنَيَّ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِي بَعْدَ ٱلْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ، وَلَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَىٰ مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَّأَكَ ٱللهُ عَنْهَا، وَنَعَتَتْ هِيَ لَكَ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْض، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا. نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَىٰ مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا. سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ

١. سورة غافر ٦٠.

٢. سورة النساء ٣٢.

٣. سورة الأنفال ٣٣.

٤. سورة الفرقان ٧٠.

وَعْثٍ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا. سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَىٰ، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَىٰ، فَتاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، وَاتَّخَذُوهَا رَبّاً، فَلَعِبَت بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا.

رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلَامُ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ؛ يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ![١]

الشّرْحُ:

يقول: هذا منزل قُلْعة؛ بضم القاف وسكون اللام، أي ليس بمستوطن؛ يقول: هذا مجلس قُلْعة، بضم القاف وسكون اللام، اي ليس بمستوطن؛ ويقال هذا مجلس قُلْعة إذاكان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرّة بعد مرّة. ويقال أيضاً: هم على قُلْعة، أي على رِحْلة، والقُلْعة أيضاً: هو المال العارية، وفي الحديث: «بئس المال القُلْعة»؛ وكلُّه يرجع إلى معنىً واحد. قوله: «ودار بلْغة»، والبلغة: ما يتبلّغ به من العيش. قوله: «سروح عاهة»، والسّروح: جمع سَرْح؛ وهو المال السارح. والعاهة: الآفة؛ أعاه القومُ أصابت ماشيتَهم العاهة. وواد وَعْث: لا يثبت الحافرُ والخُفّ فيه، بل يغيب فيه، ويشقّ على مَنْ يمشي فيه. وأوعث القوم: وقعوا في الوعْث. ومسِيم يُسيمها: راع يرعاها.

قوله: «رويداً يسفر الظلام...» إلى آخر الفصل، ثلاثة أمثال محرّكة لمن عنده استعداد. واستقرأني أبو الفرج محمد بن عباد ﷺ وأنا يومئذٍ حَدَث هذه الوصيّة فقرأتها عليه من حِفْظي، فلمّا وصلتُ إلى هذا الموضع صاح صيحة شديدة، وسقط ـ وكان جبّاراً قاسيَ القلب.

الأَصْلُ:

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ والنَّهارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً، ويَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً.

---

١. أدرك الشيء: لَحِقَهُ. يحول: حال بينهما، حجز واعترض. أفضىٰ: افتقر. افضىٰ به إلىٰ كذا: بلغ وانتهىٰ به إليه. الأزر: الظهر، والقوة. بغتة: فجأة. لا تغتر: لا تنخدع. أهمل: ترك. أضلّت: أضاعت. سروح: جمع سرح، الماشية السائمة. العاهة: الآفة. الوعث: الأرض الرخوة التي تغوص الرجل فيها. وأسأم: ترك الحيوان يرعى علىٰ رسله.

وَٱعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ. فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ فِي ٱلْمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَىٰ حَرَبٍ؛ وَلَيسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ. وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَىٰ الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً. وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ ٱللهُ حُرّاً. وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ، وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ. وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ ٱلْهَلَكَةِ. وَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ ٱلْيَسِيرَ مِنَ ٱللهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ ٱلْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ.

الشّرْحُ:

مثل الكلمة الأولى قول بعض الحكماء ـ وقد نسب أيضاً إلى أمير المؤمنين ﷺ ـ: أهل الدنيا كركْبٍ يُسار بهم وهم نيام.

قوله: «مخفّض في الطلب» من قول رسول الله ﷺ: «إنّ روح القدس نفث في رُوعي أنّه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فأجْمِلوا في الطلب»[١].

الأصْلُ:

وَتَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ، وَحِفْظُ مَا فِي ٱلْوِعَاءِ بِشَدِّ ٱلْوِكَاءِ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ، وَمَرَارَةُ ٱلْيَأْسِ، خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَىٰ النَّاسِ، وَٱلْحِرْفَةُ مَعَ ٱلْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ ٱلْغِنَىٰ مَعَ

---

١. تعدو: تتجاوز، تعدّى الشيء جاوزه. الأجل: وقت الموت. السبيل: الطريق. أجمل: يقال: أجمل في الطلب، أي اعتدل ولا تفرّط، وفي الكلام: تلطّف. مجْمِل: معتدل. المحروم: الممنوع. الرغائب: الأمر المرغوب فيه، العطاء الكثير. لن تعتاض: لن تحصل على البدل والخلف. توردك: تحضرك وتدنيك. مناهل: جمع منهل، المورد. قسمك: نصيبك وكذلك سهمك.

ٱلْفُجُورِ، وَٱلْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، وَرُبَّ سَاعٍ فِيما يَضُرُّهُ! مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ. قَارِنْ أَهْلَ ٱلْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ. بِئْسَ الطَّعَامُ ٱلْحَرَامُ! وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ. إِذَا كَانَ ٱلرِّفْقُ خُرْقاً كَانَ ٱلْخُرْقُ رِفْقاً. رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً. وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ ٱلْمُسْتَنْصَحُ. وَإِيَّاكَ وَٱلاتِّكَالَ عَلَىٰ ٱلْمُنَىٰ فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَىٰ، وَٱلْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ. بَادِرِ ٱلْفُرْصَةَ، قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً. لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يَؤُبُ، وَمِنَ ٱلْفَسَادِ، إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ ٱلْمَعَادِ. وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ.

التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، وَرُبَّ يَسِيرٍ، أَنْمَىٰ مِنْ كَثِيرٍ!

الشَّرْحُ:

هذا الكلام قد اشتمل على أمثال كثيرة حكميّة:

أوّلها ـ قوله: «تلافيك ما فرط من صمتك أيسر من إدراكك ما فات من منطقك»، وهذا مثل قولهم: أنت قادر على أن تجعل صمتك كلاماً، ولستَ بقادر على أن تجعل كلامك صمتاً؛ وهذا حقّ؛ لأنّ الكلام يُسمع وينقل؛ فلا يستطاع إعادته صمتاً. والصمت عدم الكلام، فالقادر على الكلام، قادر على أن يبدّله بالكلام، وليس الصمت بمنقول ولا مسموع فيُتعذَّر استدراكه.

وثانيها ـ قوله: «حفظ ما في يَدَيْك أحبّ إليّ من طلب ما في يدي غيرك»، هذا مثل قولهم في المثل: البخل خير من سؤال البخيل. وليس مراد أمير المؤمنين ﷺ وصايته بالإمساك والبخل، بل نهيه عن التفريط والتبذير، قال الله تعالى ﴿**وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً**﴾[1].

وثالثها ـ قوله: «مرارة اليأس خير من الطلب إلى الناس» من هذا أخذ الشاعر قوله:

---

١. سورة الإسراء ٢٩.

وإن كان طـعم اليأس مُـرّاً فـإنّهُ ألذّ وأحْـلَى مـن سـؤال الأراذِلِ

ورابعها ـ قوله: «الحِرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور»، والحِرْفة بالكسر مثل الحُرف بالضمّ، وهو نقصان الحظ وعدم المال. ومنه قوله: «رجل محارَف»، بفتح الراء، يقول: لأنّ يكون المرء هكذا وهو عفيف الفَرْج واليد، خير من الغنى مع الفجور؛ وذلك لأنّ ألم الحرفة مع العفة ومشقّتها إنما هي في أيام قليلة وهي أيام العمر، ولذّة الغنى إذا كان مع الفجور، ففي مثل تلك الأيام يكون؛ ولكن يستعقب عذاباً طويلاً، فالحال الأُولى خيرٌ لا محالة. وأيضاً ففي الدنيا خير أيضاً للذكر الجميل فيها، والذكر القبيح في الثانية، وللمحافظة على المروءة في الأُولى وسقوط المروءة في الثانية.

وخامسها ـ قوله: «المرء أحفظ لسرّه»، أي الأوْلى ألّا تبوح بسرّك إلى أحد، فأنت أحفظ له من غيرك؛ فإن أذعتَهُ فانتشر فلا تَلُمْ إلّا نفسك؛ لأنك كنت عاجزاً عن حفظ سرّ نفسك، فغيرك عن حفظ سرّك وهو أجنبيٌّ أعجز.

وسادسها ـ قوله: «رُبَّ ساع فيما يضرّهُ»، قال عبد الحميد الكاتب في كتابه إلى أبي مسلم: لو أراد الله بالنملة صلاحاً، لما أنبت لها جَناحاً.

وسابعها ـ قوله: «من أكثر أهجر» يقال: أهجر الرجل؛ إذا أفحش في المنطق السوء والخنا. وهذا مثل قولهم: مَنْ كثر كلامه كثر سَقَطه.

وثامنها ـ قوله: «مَنْ تفكّر أبصرَ»؛ قالت الحكماء: الفكر تحديق العقل نحو المعقول، كما أنّ النظر البصريّ تحديق البصر نحو المحسوس، وكما أنّ من حدّق نحو المبصر وحدقته صحيحة والموانع مرتفعة لابدّ أن يبصره؛ كذلك من نظر بعين عقله، وأفكر فكراً صحيحاً، لابدّ أن يدرك الأمر الذي فكّر فيه وبناله.

وتاسعها ـ قوله: «قارن أهلَ الخير تكن معهم، وباين أهل الشرّ تَبِنْ عنهم»، كان يقال: حاجبك وجهك، وكاتبك لسانك، وجليسك كلّك.

عن المرء لا تسألْ وسلْ عن قرينهِ فكـلّ قَـرينٍ بـالمُقارِن مُـقْتَدِ

وعاشرها ـ قوله: «بئس الطعام الحرام»، هذا من قوله تعالى: **﴿إنّ الذِينَ يأْكُلونَ أمْوالَ اليَتامى ظُلْماً إنّمَا يأْكُلُونَ في بُطُونِهِمْ نَاراً وَسيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾**[1].

---

١. سورة النساء ١٠.

وحادي عشرها ـ قوله: «ظلم الضعيف أفحش الظلم».

وثاني عشرها ـ قوله: «إذا كان الرفق خرقاً، كان الخرق رفقاً»، يقول: إذا كان استعمال الرفق مفسدة وزيادةً في الشرّ فلا تستعمله؛ فإنه حينئذٍ ليس برِفْق بل هو خرق، ولكن استعمل الخرق فإنه يكون رفقاً والحال هذه؛ لأنّ الشر لا يلقى إلّا بشر مثله.

وثالث عشرها ـ قوله: «وربما كان الدواء داء، والداء دواء»؛ هذا مثل قول أبي الطيّب:

* وربّما صَحَّتِ الأجسامُ بالعِلل *

ومثله قول أبي نواس:

* وداوِني بالّتي كانتْ هي الداء *

ورابع عشرها ـ قوله: «ربما نصح غير الناصح، وغشّ المستنصَح» كان المغيرة بن شعبة يبغض عليّاً عليه السلام منذ أيام رسولِ الله صلى الله عليه وآله، وأشار عليه يوم بُويع بالخلافة أن يقرّ معاوية على الشام مدة يسيرة، فإذا خُطِب له بالشام وتوطّأت دعوته دعاه إليه، وصرفه فلم يقبل؛ وكان ذلك نصيحة من عدوّ كاشح.

وخامس عشرها ـ قوله: «إياك والاتكال على المُنى، فإنّها بضائع النَّوْكَى»، جمع أنْوَك وهو الأحمق، من هذا أخذ أبو تمام قوله:

مَنْ كانَ مَرْعى عَزْمِهِ وَهُمُومِهِ ... رَوْضُ الأماني لم يزلْ مهزولا

وسادس عشرها ـ قوله: «العقل حفظ التجارِب» من هذا أخذ المتكلِّمون قولهم: العقل نوعان: غريزيّ، ومكتسب، فالغريزيّ العلوم البديهية، والمكتسب ما أفادته التجربة وحفظته النفس.

وسابع عشرها ـ قوله: «خير ما جرّبت ما وعظك»، مثل هذا قول أفلاطون: إذا لم تعظك التجربة فلم تجرّب، بل أنت ساذج كما كنت.

وثامن عشرها ـ قوله: «بادر الفرصة، قبل أن تكون غُصّة».

وتاسع عشرها ـ قوله: «ليس كل طالب يصيب، ولا كل غائب يؤوب» الأُولى كقول القائل:

ما كلّ وقتٍ ينالُ المرءُ ما طلبَا ... ولا يسوّغه المقدار ما وَهَبَا

والثانية كقول عَبِيد:

وكلّ ذِي غيبةٍ يؤوبُ ... وغائب الموت لا يؤوبُ[1]

---

١. ديوانه ١٣.

العشرون ـ قوله: «من الفساد، إضاعة الزاد، ومفسدة المعاد»، ولا ريب أنّ من كان في سفر وأضاع زاده، وأفسد الحال التي يعود إليها فإنه أحمق، وهذا مثلٌ ضربه للإنسان في حالتي دنياه وآخرته.

الحادي والعشرون ـ قوله: «لكل أمر عاقبة»، هذا مِثل المثَل المشهور: لكل سائلة قرار.

الثاني والعشرون ـ قوله: «سوف يأتيك ما قدّر لك»، هذا من قول رسول الله ﷺ: «وإنْ يقدّر لأحدكم رزق في قبّة جبل أو حضيض بِقاع يأْتِه».

الثالث والعشرون ـ قوله: «التاجر مخاطر» هذا حقّ؛ لأنّه يتعجّل بإخراج الثمن ولا يعلم: هل يعود أم لا! وهذا الكلام ليس على ظاهره، بل له باطن، وهو أنّ مَنْ مزج الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة، مثل قوله: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخرَ سَيِّئاً﴾[1] فإنه مخاطر لأنّه لا يأمن أن يكون بعض تلك السيّئات تحبط أعماله الصالحة، كما لا يأمن أن يكون بعض أعماله الصالحة يكفّر تلك السيئات. والمراد أنه لا يجوز للمكلّف أن يفعل إلّا الطاعة أو المباح.

الرابع والعشرون ـ قوله: «ربّ يسير، أنمَى من كثير»، قد جاء في الأثر: قد يجعل الله من القليل الكثير، ويجعل من الكثير البركة.

الأَصْلُ:

لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ، وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ. سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ، وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ.

آحْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَىٰ الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَىٰ اللَّطَفِ وَآلْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَىٰ آلْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَىٰ الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَىٰ اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَىٰ آلْعُذْرِ، حَتَّىٰ كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذٰلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ. لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً

---

١. سورة التوبة ١٠٢.

فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَآمْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ؛ حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً، وَتَجَرَّعِ ٱلْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَىٰ مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً. وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَىٰ عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فإِنَّهُ أَحْلَىٰ الظَّفَرَيْنِ. وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذٰلِكَ يَوْماً مَّا. وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ، وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالاً عَلَىٰ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ. وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَىٰ ٱلْخَلْقِ بِكَ، وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ، وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَىٰ عَلَىٰ قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَىٰ صِلَتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَىٰ ٱلْإِسَاءَةِ أَقْوَىٰ مِنْكَ عَلَىٰ ٱلْإِحْسَانِ. وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَىٰ فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ.

الشّرْحُ:

هذا الفصل قد اشتمل على كثير من الأمثال الحكيمة:

فأوّلها ـ قوله: «لا خير في معين مهين، ولا في صديق ظنين»، مثل الكلمة الأُولى قولهم:

إذا تكفّيْتَ بغير كافِ ... وجدتَه للهمّ غيرَ شافِ

ومن الكلمة الثانية أخذ الشاعر قوله:

فإنّ من الإخوان مَنْ شَحَطَ النَّوى ... به وهو راعٍ للوصال أمينُ

ومنهم صديق العين أمّا لقاؤه ... فحُلْوٌ وأمّا غيبُه فظَنِينُ

وثانيها ـ قوله: «ساهل الدهر ما ذلّ لك قَعُوده»؛ هذا استعارة، والقَعُود البَكْر حين يمكّن ظهره من الركوب إلى أن يثنى، ومثل هذا المعنى قولهم في المثل: مَنْ ناطح الدّهر أصبح أجمّ. ومثله:

إذا الدهر أعطاك العِنان فسِرْ بِهِ ... رويداً ولا تعنُفْ فيصبح شامِسَا

وثالثها ـ قوله: «لا تخاطر بشيء رجاءَ أكثر منه»، هذا مثل قولهم: مَن طلب الفضل، حُرِم الأصل.

ورابعها ـ قوله: «إياك وأن تجمحَ بك مطيّة اللجاج»، هذا استعارة، وفي المثل: ألجّ من خنفساء، وألجّ من زُنبور. وكان يقال: اللّجاج من القِحة، والقِحة من قلّة الحياء، وقلّة الحياء من قلّة المروءة، وفي المثل: لجّ صاحبك فحُجّ.

وخامسها ـ قوله: «احمل نفسك من أخيك»، إلى قوله: «أو تفعله بغير أهله» اللّطَف، بفتح اللام والطاء، الاسم من ألطفه بكذا أي برّه به، وجاءتنا لُطفة من فلان أي هديّة، والملاطفة المبارّة. وروي «عن اللّطْف» وهو الرفق للأمر؛ والمعنى أنّه أوصاه إذا قطعه أخوه أن يصله، وإذا جفاه أن يبرّه، وإذا بخل عليه أن يجود عليه، إلى آخر الوصاة. ثم قال له: «لا تفعل ذلك مع غير أهله».

وسادسها ـ قوله: «لا تتخذنّ عدوّ صديقك صديقاً فتعادي صديقك»، قد قال الناس في هذا المعنى فأكثروا، قال بعضهم:

إذا صافى صديقُك مَنْ تعادِي ... فقد عاداك وانقطَعَ الكلامُ

وقال آخر:

صديقُ صديقِي داخلٌ في صداقتِي ... وخصمُ صديقي ليس لي بصديقِ

وسابعها ـ قوله: «وامحض أخاك النصيحة، حسنة كانت أو قبيحة»؛ ليس يعني عليه السلام بقبيحة هاهنا القبيح الذي يستحق به الذم والعقاب؛ وإنّما يريد نافعة له في العاجل كانت أو ضارة له في الآجل، فعبّر عن النفع والضرر بالحسن والقبيح، كقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ**﴾[1]. وقد فسّره قوم فقالوا: أراد: كانت نافعة لك أو ضارّة لك. ويحتمل تفسير آخر وهو وصيّته إيّاه أن يمحض أخاه النصيحة سواء كانت ممّا لا يستحيا من ذكرها وشياعها، أو كانت مما يستحيا من ذكرها واستفاضتها بين الناس، كمن ينصح صديقه في أهله ويشير عليه بفراقهم لفجور اطّلع عليه منهم؛ فإنّ النّاس يسمون مثل هذا إذا شاع قبيحاً.

وثامنها ـ قوله: «تجرّع الغيظ فإني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ولا ألذّ مغبّة» هذا مثْل قولهم: الحلم مرارة ساعة، وحلاوة الدهر كلّه. وكان يقال: التذلّل للناس مصايد الشرف.

وتاسعها ـ قوله: «لِنْ لمن غالظك، فإنّه يوشك أن يلين لك»، هذا مثل المثل المشهور: إذا عزّ أخوك فهُنْ، والأصل في هذا قولُه تعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ**

---

١. سورة الروم ٣٦.

﴿وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

وعاشرها ـ قوله: «خذ على عدوِّك بالفضل فإنّه أحد الظَّفَرين»، هذا معنى مليح، ومنه قول ابن هانئ في المعزّ:

ضَرّابُ هامِ الرّومِ منتقماً وفي ... أعناقهم من جُودِهِ أعبَاءُ

لولا انبعاث السّيف وهو مسلّطٌ ... في قتلهم قتلتْهُم النَّعماءُ

وحادي عشرها ـ قوله: «إنْ أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقيّة يرجع إليها إن بدَا ذلك له يوماً»، هذا مثل قولهم: أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغِض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبَك يوماً ما. وما كانَ يقول: إذا هويت فلا تكن غالياً، وإذا تركت فلا تكن قالياً.

وثاني عشرها ـ قوله: «مَنْ ظنّ بك خيراً فصدّق ظنّه»، كثير من أرباب الهمم يفعلون هذا، يقال لمن قد شد طرفاً من العلم: هذا عالم، هذا فاضل، فيدعوه ما ظنّ فيه من ذلك إلى تحقيقه، فيواظب على الاشتغال بالعلم حتى يصير عالماً فاضلاً حقيقة.

وثالث عشرها ـ قوله «ولا تضيعنّ حقّ أخيك اتّكالاً على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخٍ من أضعت حقّه»، من هذا النحو قول الشاعر:

إذا خنتُم بالغيْب عهدِي فما لكم ... تُدِلّون إدلالَ المقيم على العهدِ

صِلُوا وافعلوا فعلَ المدِلّ بوصِلِه ... وإلّا فصُدّوا وافعلوا فعلَ ذي الصّدِّ

وكان يقال: إضاعة الحقوق، داعية العقوق.

ورابع عشرها ـ قوله: «لا ترغبنّ فيمن زهد فيك»، الرغبة في الزاهد هي الداء العياء. قال العباس بن الأحنف:

مازِلْتُ أزْهَدُ في مودّةِ راغبٍ ... حتى ابتليت برغبةٍ في زاهدِ

هذا هو الدّاء الّذِي ضاقت به ... حِيَلُ الطبيب وطال يأس العائدِ

وخامس عشرها ـ قوله: «لا يكوننّ أخوك أقوى على قطعيتك منك على صلته، ولا تكوننّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان»، هذا أمر له بأن يصل مَنْ قطعه، وأن يحسن إلى من أساء إليه.

---

١. سورة فصلت ٣٤.

وسادس عشرها ـ قوله: «لا يكبرنّ عليك ظُلْم مَنْ ظلمك، فإنّه يسعى في مضرته ونفعك وليس جزاء من سرّك أن تسوءه»، وقولهﷺ: «وليس جزاء من سرّك أن تسوءه»، يقول: لا تنتقم ممن ظلمك فإنه قد نفعك في الآخرة بظلمه لك، وليس جزاء مَنْ ينفع إنساناً أن يسيء إليه. وهذا مقام جليل لا يقدر عليه إلّا الأفراد من الأولياء الأبرار.

ومن الناس من يجعل قولهﷺ: «وليس جزاء من سرك أن تسوءه»، كلمة مفردة مستقلّة بنفسها، ليست من تمام الكلام الأول، والصحيح ما ذكرناه.

وسابع عشرها ـ ومن حقه أن يقدم ذكره قوله: «ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك»، هذا كما يقال في المثل: من شؤم الساحرة أنّها أول ما تبدأ بأهلها، والمراد من هذه الكلمة النّهي عن قطيعة الرّحِم وإقصاء الأهل وحرمانهم، وفي الخبر المرفوع: «صلوا أرحامكم ولَوْ بالسلام».

الأصْلُ:

وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ. مَا أَقْبَحَ ٱلْخُضُوعَ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ، وَٱلْجَفَاءَ عِنْدَ ٱلْغِنَىٰ! إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَىٰ مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَىٰ كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ. ٱسْتَدِلِ عَلَىٰ مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ ٱلْأُمُورَ أَشْبَاهٌ؛ وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ ٱلْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ، فَإِنَّ ٱلْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالآدَابِ، وَٱلْبَهَائِمَ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ. اِطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ ٱلْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ ٱلْيَقِينِ. مَنْ تَرَكَ ٱلْقَصْدَ جَارَ، وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ. وَالْهَوَىٰ شَرِيكُ ٱلْعَمَىٰ، وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، وَٱلْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ. مَنْ تَعَدَّىٰ ٱلْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنِ ٱقْتَصَرَ عَلَىٰ قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَىٰ لَهُ. وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱللهِ سُبْحَانَهُ. وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ. قَدْ يَكُونُ ٱلْيَأْسُ إِدْرَاكاً، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكاً. لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ، وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ ٱلْبَصِيرُ قَصْدَهُ، وَأَصَابَ ٱلْأَعْمَىٰ رُشْدَهُ. أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ

تَعَجَّلْتَهُ، وَقَطِيعَةُ ٱلْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ ٱلْعَاقِلِ. مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ. لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَىٰ أَصَابَ. إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ. سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ ٱلْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ.

الشّرْحُ:

واعلم أنّ هذا الفصل يشتمل على نكت كثيرة حكمية:

منها قوله «الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك»، وهذا حقّ؛ لأنّ ذلك إنّما يكون على حسب ما يعلمه الله تعالى من مصلحة المكلّف، فتارةً يأتيه الرزق بغير اكتساب ولا تكلّف حركة، ولا تجشّم سَعْي، وتارة يكون الأمر بالعكس. وأمّا الرّزق الذي يطلبه الإنسان ويسعى إليه فهو كثير جداً لا يحصى.

ومنها قوله: «ما أقبح الخضوع عند الحاجة، والجفاء عند الغنى»! هذا من قول الله تعالى: **﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾**[1].

ومنها قوله: «إنّما لك من دنياك، ما أصلحت به مثواك»، هذا من كلام رسول الله ﷺ: «يابن آدم، ليس لك من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأبقيت».

ومنها قوله: «وإن كنت جازعاً على ما تفلّت من يديك، فاجْزَع على كلّ ما لم يصل إليك»، يقول: لا ينبغي أنْ تجزَعَ على ما ذهب من مالك، كما لا ينبغي أن تجزع على ما فاتك من المنافع والمكاسب؛ فإنّه لا فرق بينهما، إلّا أنّ هذا حصل، وذاك لم يحصل بعد؛ وهذا فرق غير مؤثّر؛ لأنّ الذي تظنّ أنه حاصل لك غير حاصل في الحقيقة، وإنما الحاصل على الحقيقة ما أكلتَه ولبستَه، وأمّا القنيات والمدّخرات فلعلّها ليست لك.

ومنها قوله: «استدلّ على ما لم يكن بما كان، فإن الأُمور أشباه» يقال: إذا شئت أن تنظر للدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك.

---

١. سورة يونس ٢٢، ٢٣.

ومنها قوله: «ولا تكونَنّ ممّن لا تنفعه العظة ...» إلى قوله: «إلّا بالضرب»، هو قول الشاعر:

العبد يُقرَع بالعصَا والحرّ تكفيه الملامةْ[١]

وكان يقال: اللئيم كالعبد، والعبد كالبهيمة عَتْبها ضربُها.

ومنها قوله: «اطّرح عنك واردات الهموم بحسن الصبر وكرم العزاء»، هذا كلام شريف فصيح عظيم النفع والفائدة.

ومنها قوله: «مَنْ ترك القصد جار»، القصد الطريق المعتدل، يعني أنّ خير الأُمور أوسطها، فإن الفضائل تحيط بها الرذائل فمن تعدّى هذه يسيراً وقع في هذه.

ومنها قوله: «الصاحب مناسب»، كان يقال: الصديق نسيب الروح، والأخ نسيب البدن.

ومنها قوله: «الصديق مَنْ صدق غيبه»، من هاهنا أخذ أبو نواس قوله:

هل لك والْهَلّ خَبَرْ فيمن إذا غبتَ حضرْ
أو مالَكَ اليوم أَثَرْ فإن رأى خيراً شَكَرْ

* أو كان تقصير عَذَرْ *

ومنها قوله: «الهوى شريك العمى»، هذا مِثلُ قولهم: حبُّك الشيء يُعمِي ويُصِمّ قال الشاعر:

وَعَيْنُ الرّضا عن كلِّ عيب كليلةٌ كما أنّ عينَ السُّخط تُبْدِي المَسَاوِيَا[٢]

ومنها قوله: «ربّ بعيد أقرب من قريب، وقريب أبعد من بعيد»، هذا معنى مطروق، قال الشاعر:

لعمركَ ما يضرّ البُعدُ يوماً إذَا دَنَت القلوبُ من القلوبِ

ومنها قوله «والغريب من لم يكن له حبيب» يريد بالحبيب هاهنا المحبّ لا المحبوب.

ومنها قوله: «مَنْ تعدّى الحقّ ضاق بمذهبه»، يريد بمذهبه هاهنا طريقته، وهذه استعارة، ومعناه أنّ طريق الحقّ لا مشقّة فيها لسالكها، وطرق الباطل فيها المشاقّ والمضارّ، وكأن سالكها سالك طريقة ضيّقة يتعثّر فيها، ويتخبّط في سلوكها.

ومنها قوله: «مَنْ اقتصر على قدره كانَ أبقى له»، هذا مثل قوله: «رحم الله امرأ عرف

---

١. لابن مفرغ، الشعر والشعراء ٣١٥.

٢. لعبد الله بن معاوية، الأغاني ١٢: ٢١٤.

قدره، ولم يتعدّ طوره»، وقال: «مَن جهل قدره قتل نفسه». وقال أبو الطيّب:

وَمَنْ جهلت نفسُه قــدرَهُ　　　رأى غيرُه منه ما لا يَرَى

ومنها قوله: «أوثق سبب أخذتَ به سببٌ بينك وبين الله سبحانه»، هـذا مـن قـول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ باللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾[1].

ومنها قوله: «فمن لم يبالك فهو عدوّك»، أي لم يكترث بك، وهذه الوصاة خاصّة بالحسن عليه السلام وأمثاله من الولاة وأرباب الرعايا، وليست عامّة للسُّوقة من أفْناء الناس، وذلك لأنّ الواليَ إذا أنس من بعض رعيّته أنه لا يباليه ولا يكترث به، فقد أبدى صفحته، ومن أبدى لك صَفحته فهو عدوّك، وأمّا غير الوالي من أفناء الناس، فليس أحدهم إذا لم يبال الآخر بعدوٍّ له.

ومنها قوله: «قد يكونُ اليأس إدراكاً، إذا كان الطمع هلاكاً»، هذا مثل قول القائل:

مَنْ عاشَ لاقَى ما يسو　　　ء من الأُمور وما يسُرّ

وَلَـرُبَّ حتفٍ فَوْقَهُ　　　ذهبٌ وياقوتٌ ودرّ

والمعنى: ربّما كان بلوغ الأمل في الدنيا والفوز بالمطلوب منها سبباً للهلاك فيها؛ وإذا كان كذلك، كان الحرمان خيراً من الظفر.

ومنها قوله: «ليس كلّ عورة تظهر، ولا كلّ فرصة تصاب» يقول: قد تكون عورة العدوّ مستترةً عنك فلا تظهر، وقد تظهر لك ولا يمكنك إصابتها.

وقال بعض الحكماء: الفرصة نوعان: فرصة من عدوّك، وفرصة في غير عدوّك، فالفرصة من عدوّك ما إذا بلغتها نفعتك، وإن فاتتك ضرّتك، وفي غير عدوّك ما إذا أخطأك نفعه لم يصلْ إليك ضرّه.

ومنها قوله: «فربما أخطأ البصير قصدَه، وأصاب الأعمى رشده»، من هذا النحو قولهم في المثل: مع الخواطئ سهم صائب، وقولهم: «رمية من غير رام». وقالوا في مثل اللفظة الأُولى: الجواد يكبُو، والحسام قد ينبو.

ومنها قوله: «أخّر الشرّ فإنك إذا شئت تعجّلتَه»، مثل هذا قولهم في الأمثال الطفيليّة: «كلْ إذا وجدت، فإنك على الجوع قادر». ومن الأمثال الحِكَمية: ابدأ بالحسنة قبل السيئة،

---

١. سورة البقرة ٢٥٦.

فلست بمستطيع للحسنة في كلّ وقت، وأنت على الإساءة متى شئت قادر.

ومنها قوله: «قطيعة الجاهل تعدل صِلة العاقل»، هذا حق؛ لأنّ الجاهل إذا قطعك انتفعت ببعده عنك، كما تنتفع بمواصلة الصديق العاقل لك.

ومنها قوله: «منْ أمن الزمان خانه، ومن أعظمه هانه»، مثل الكلمة الأُولى قول الشاعر:

ومَنْ يأمن الدّنيا يكن مثل قابضٍ ... على الماء خَانَتْهُ فروجُ الأنامِلِ

وقالوا: احذر الدنيا ما استقامتْ لك. ومن الأمثال الحكمية: من أمن الزمان ضيّع ثغراً مَخُوفاً. ومثل الكلمة الثانية قولهم: الدنيا كالأمة اللئيمة المعشوقة، كلما ازددت لها عشقاً وعليها تهالُكا ازدادت لك إذلالاً، وعليك شطاطاً.

ومنها قوله: «سل عن الرفيق قبل الطريق؛ وعن الجار قبل الدار»، وقد روي هذا الكلام مرفوعاً، وفي المثل: جار السوء كلب هارش، وأفعى ناهش.

الأَصْلُ:

إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً، وَإِنْ حَكَيْتَ ذٰلِكَ عَنْ غَيْرِكَ. وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَىٰ أَفْنٍ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَىٰ وَهْنٍ. وَٱكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ ٱلْحِجَابِ أَبْقَىٰ عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ. وَلَا تُمَلِّكِ ٱلْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ ٱلْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ. وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا. وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذٰلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَىٰ السَّقَمِ، وَٱلْبَرِيئَةَ إِلَىٰ الرِّيَبِ. وَٱجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلاً تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَىٰ أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ. وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ. ٱسْتَوْدِعِ ٱللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَٱسْأَلْهُ خَيْرَ ٱلْقَضَاءِ لَكَ فِي ٱلْعَاجِلَةِ وَٱلآجِلَةِ، وَالدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ، وَالسَّلَامُ.

الشّرْحُ :

نهاه أن يذكر من الكلام ما كان مضحكاً ؛ لأنّ ذلك مِنْ شغل أرباب الهزل والبَطالة ، وقلّ أنْ يخلو ذلك من غيبة أو سخرية . ثم قال : وإن حكيت ذلك عن غيرك ، فإنه كما يستهجن الابتداء بذلك يستهجن حكايته عن الغير ؛ وذلك كلام فصيح ألا ترى أنّه لا يجوز الابتداء بكلمة الكفر ، ويكره أيضاً حكايتها .

فأما مشاورة النساء فإنّه من فِعْل عَجزَة الرجال . قولهﷺ : «فإنّ رأيَهنّ إلى أفْن» الأَفْن بالسكون : النقص ، والمتأفّن : المتنقّص ، يقال : فلان يتأفّن فلاناً ، أي يتنقّصه ويعيبه . ومن رواه «إلى أفَنٍ» بالتحريك فهو ضعيف الرأي ، أفِن الرجل يأفِن أفَناً ، أي ضعف رأيه . والوهن : الضعف . قوله : «واكفُفْ عليهنّ من أبصارهنّ» من هاهنا زائدة ؛ وهو مذهب أبي الحسن الأخفش في زيادة من في الموجب ، ويجوز أن يحمل على مذهب سيبويه ، فيعني به : فاكفف عليهنّ بعض أبصارهنّ .

ثم ذكر فائدة الحجاب ، ونهاه أن يُدخِلَ عليهنّ من لا يُوثق به ؛ وقال : إنّ خروجهنّ أهونُ من ذلك ، وذلك لأنّ مَنْ تلك صفتُه يتمكن من الخلوة ما لا يتمكن منه مَنْ يراهنّ في الطرقات . قال : «ولا تملّك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها» ، أي لا تدخلها معك في تدبير ولا مشورة ، ولا تتعدّينّ حال نفسها وما يصلح شأنها . فإن المرأة ريحانةٌ ، وليست بقهرمانة ، أي إنما تصلح للمتعة واللذّة ، وليست وكيلاً في مال ، ولا وزيراً في رأي .

ثم أكّد الوصيّة الأُولى ، فقال : لا تَعْدُ بكرامتها نفسها ، هذا هو قوله : «ولا تملّكها من أمرها ما جاوز نفسها» . ثم نهاه أن يطمِعَها في الشفاعات .

فأما قولهﷺ : «إيّاك والتغاير في غير موضع غَيْرة» فقد قيل هذا المعنى ، قال بعض المحدثين :

يا أيّها الغائر مَهْ لا تغَرْ ... إلّا لِمَا تُدْركه بالبَصَرْ
ما أنت في ذلك إلّا كمنْ ... بيّته الدبّ لرمْي الحجرْ

فأما قوله : «واجعل لكلّ إنسان من خَدَمك عملاً تأخذه به» ، قال أبرويز في وصيّتِهِ لولده شيرويه : ولا تجعل أمرك فوضَى بين خدمِك فيفسد عليك ملكك .

وأمّا قوله : «فأكرِم عشيرتك فإنّهم جناحك» ، فقد تقدّم منّا كلام في وجوب الاعتضاد بالعشائر .



الأصْلُ :

ومن كتاب لهعليه السلام إلى معاوية

وأرْدَيْتَ جِيلاً مِنَ النَّاس كَثِيراً؛ خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ، وَتَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ، فَجَارُوا عَنْ وِجْهَتِهِمْ، وَنَكَصُوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا عَلَىٰ أَدبَارِهِمْ، وَعَوَّلُوا عَلَىٰ أَحْسَابِهِمْ، إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَصَائِرِ، فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ، وَهَرَبُوا إِلَىٰ ٱللهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَىٰ الصَّعْبِ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ ٱلْقَصْدِ.

فَاتَّقِ ٱللهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ، وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ. فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، وَٱلآخِرَةَ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وَالسَّلَامُ.

الشّرْحُ :

أرديتَهم: أهلكتهم. وجيلاً من الناس، أي صنفاً من الناس. والغيّ: الضلال. وجاروا: عدلوا عن القصد. ووِجهتهم، بكسر الواو، يقال: هذا وجه الرأي، أي هو الرأي بنفسه، والاسم الوِجْه بالكسر ويجوز بالضم.

قوله: «وعوّلوا عَلَى أحسابهم»، أي لم يعتمدوا على الدّين؛ وإنما أردتهم الحميّة ونخوة الجاهلية فأخلدوا إليها وتركوا الدين، والإشارة إلى بني أُميّة وخلفائهم الّذين اتّهموهعليه السلام بدم عثمان، فحاموا عن الحسب، ولم يأخذوا بموجب الشرع في تلك الواقعة.

ثم استثنى قوماً فاؤوا أي رجعوا عن نُصرة معاوية؛ وقد ذكرنا في أخبار صِفّين مَنْ فارق معاوية ورجع إلى أمير المؤمنينعليه السلام، أو فارقه واعتزل الطائفتين.

قوله: «حملتهم على الصعب» أي على الأمر الشاقّ؛ والأصل في ذلك البعير المستصعَب يركبه الإنسان فيغرّر بنفسه.

وأول هذا الكتاب:

«من عبد الله عليّ أمير المؤمنينؑ إلىٰ معاوية بن أبي سفيان، أمّا بعد، فإنّ الدنيا دار تجارة، وربحها أو خُسرها الآخرة؛ فالسعيد مَنْ كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة، ومَنْ رأىٰ الدنيا بعينها، وقدّرها بقدرها؛ وإني لأعِظك مع علمي بسابق العلم فيك ممّا لا مردّ له دون نَفاذه؛ ولكن الله تعالى أخذ على العلماء أن يؤدّوا الأمانة، وأنْ ينصحوا الغويَ والرشيد، فاتّق الله ولا تكن ممّن لا يرجو لله وقاراً، ومَن حقّت عليه كلمة العذاب؛ فإنّ الله بالمرصاد. وإنّ دنياك ستدبر عنك، وستعود حسرةً عليك؛ فأقلع عمّا أنت عليه من الغيّ والضلال، على كبر سنّك، وفناء عمرك؛ فإن حالك اليوم كحال الثوب المهيل الذي لا يصلح مِن جانب إلّا فسد من آخر، وقد أرديتَ جيلاً من الناس كثيراً، خدعتهم بغيّك ...» إلى آخر الكتاب.

قال أبو الحسن علي بن محمد المدائني: فكتب إليه معاوية: من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب، أمّا بعد؛ فقد وقفتُ على كتابك، ... الخ.



٣٣

الأصْلُ:

ومن كتاب لهؑ إلى قُثَم بن العبّاس وهو عامله علىٰ مكّة

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي بِالْمَغْرِبِ كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنـَّهُ وُجِّهَ إِلَىٰ الْمَوْسِمِ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، ٱلْعُمْيِ ٱلْقُلُوبِ، الصُمِّ ٱلْأَسْمَاعِ، ٱلْكُمْهِ ٱلْأَبْصَارِ، الَّذِينَ يَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِالبَاطِلِ، وَيُطِيعُونَ ٱلْمخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ ٱلْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا بِالدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِآجِلِ ٱلْأَبْرَارِ ٱلْمُتَّقِينَ؛ وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ، وَلَا يُجْزَىٰ جَزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ. فَأَقِمْ عَلَىٰ مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ ٱلْحَازِمِ الطَّبِيبِ، وَالنَّاصِحِ اللَّبِيبِ، التَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ، ٱلْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ. وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ، وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِراً،

وَلَا عِنْدَ ٱلْبَأْسَاءِ فَشِلاً، وَالسَّلَامُ[١].

الشّرْحُ:

كان معاوية قد بعث إلى مكّة دعاة في السرّ يدعون إلى طاعته، ويثبّطون العرب عن نصرة أميرِ المؤمنين، ويوقعون في أنفسهم أنه إمّا قاتلٌ لعثمان أو خاذل، وإنّ الخلافة لا تصلح فيمن قتل أو خذل، وينشرون عندهم محاسن معاوية ـ بزعمهم ـ وأخلاقه وسيرته، فكتب أميرُ المؤمنين عليه السلام هذا الكتاب إلى عامله بمكّة، ينبّهه على ذلك ليعتمد فيه بما تقتضيه السياسة، ولم يصرح في هذا الكتاب بماذا يأمره أن يفعل إذا ظفر بهم.

قوله: «عيني بالمغرب»، أي أصحاب أخباره عند معاوية، وسمّى الشام مغرباً؛ لأنّه من الأقاليم المغربية. والموسم: الأيام التي يقام فيها الحج. «ويحتلبون الدنيا دَرّها بالدّين» دلالة على ما قلنا: إنّهم كانوا دُعاة يظهرون سَمْت الدين، وناموس العبادة، وفيه إبطال قول مَنْ ظنَّ أنْ المراد بذلك السّرايا التي كان معاوية يبعثها، فتُغِيرُ على أعمال عليّ عليه السلام. ودرَّها منصوب بالبدل من «الدنيا»، وروي: «الذين يلتمسون الحق بالباطل»، أي يطلبونه؛ أي يتبعون معاوية وهو على الباطل التماساً وطلباً للحقّ، ولا يعلمون أنهم قد ضلوا.

قوله: «وإيّاك وما يعتذرُ منه» من الكلمات الشريفة الجليلة الموقع، وقد رويت مرفوعة، وكان يقال: ما شيء أشدّ على الإنسان من حمْل المروءة، والمروءة ألّا يعمل الإنسان في غيبة صاحبه ما يُعتذَر منه عند حضوره. «ولا تكن عند النعماء بطراً، ولا عند البأساء فشلاً» معنىً مستعمل، قال الشاعر:

فلستُ بمفراح إذا الدّهر سرّني ... ولا جازعٌ من صَرْفه المتقلّبِ
ولا أتمنى الشرّ والشرّ تاركي ... ولكن مَتَى أحمَل على الشّر أركبِ

---

١. الكُمْه: جمع أكمه، وهو من ولد أعمى. الدَّر: اللبن. النعماء: الرخاء والسعة. البطر: الشديد الفرح مع ثقة بدوام النعمة.



الأَصْلُ :

ومن كتاب لهعليه السلام إلى محمد بن أبي بكر

لما بلغه تَوَجُّدُهُ من عزله بالأشتر عن مصر، ثم توفي الأشتر في توجهه إلى هناك قبل وصوله إليها :

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الْأَشْتَرِ إِلَىٰ عَمَلِكَ، وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذٰلِكَ آسْتِبْطَاءً لَكَ فِي الجَهْدِ، وَلَا آزْدِيَاداً لَكَ فِي الْجِدِّ، وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ، لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وِلَايَةً.

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كَانَ رَجُلاً لَنَا نَاصِحاً، وَعَلَىٰ عَدُوِّنَا شَدِيداً نَاقِماً، فَرَحِمَهُ آللّٰهُ! فَلَقَدِ آسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ، وَلَاقَىٰ حِمَامَهُ، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ؛ أَوْلَاهُ آللّٰهُ رِضْوَانَهُ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ. فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ، وَآمْضِ عَلَىٰ بَصِيرَتِكَ، وَشَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَكَ، وَآدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ، وَأَكْثِرِ الِاسْتِعَانَةَ بِاللّٰهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ، وَيُعِنْكَ عَلَىٰ مَا يُنْزِلُ بِكَ، إِنْ شَاءَ آللّٰهُ.

الشَّرْحُ :

أُمّ محمدرحمه الله أسماء بنت عُميس الخثعميّة، وهي أُخت ميمونة زوج النبيصلى الله عليه وآله، وأخت لبابة أم الفضْل وعبد الله زوج العباس بن عبد المطلب؛ وكانت من المهاجرات إلى أرض الحبشة، وهي إذ ذاك تحت جعفر بن أبي طالبعليه السلام، فولدت له هناك محمد وعبد الله وعوناً، ثم هاجرت معه إلى المدينة، فلما قتِل جعفر يوم مؤتة تزوّجها أبو بكر. فولدت له محمداً هذا ثمّ مات عنها فتزوجها عليعليه السلام وولدت له يحيىٰ بن علي. ثم كان في حجر عليعليه السلام، وكان يُثني عليه ويقرّظه ويفضّله.

قوله: «فقد بلغني موجدتك»، أي غضبك، وجدت على فلان مَوْجِدة، ووِجداناً لغة

قليلة. فأما في الحزن فلا يقال إلّا وَجَدت أنا، بالفتح لا غير. والجَهد: الطاقة، أي لم استبطئك في بذل طاقتك ووسعك، ومن رواها الجَهْد بالفتح فهو من قولهم: اجهد جَهدك في كذا، أي ابلغ الغاية، ولا يقال هذا الحرف هاهنا إلّا مفتوحاً.

ثمّ طيّب عليه السلام نفسه بأن قال له: لو تمّ الأمر الذي شرعت فيه من ولاية الأشتر مصر لعوّضتك بما هو أخفّ عليك مؤونة وثقلاً، وأقلّ نصباً من ولاية مصر؛ لأنّه كان في مصر بإزاء معاوية من الشام وهو مدفوع إلى حربه. ثم أكّد عليه السلام ترغيبه بقوله: «وأعجب إليك ولاية».

فإن قلت: ما الذي بيده ممّا هو أخفّ على محمد مؤونة وأعجب إليه من ولاية مصر؟

قلت: ملْك الإسلام كلُّه كان بيد علي عليه السلام إلّا الشام، فيجوز أن يكون قد كان في عزمه أن يولّيَه اليمن أو خراسان أو أرمينيَة أو فارس.

ثم أخذ في الثناء على الأشتر وكان علي عليه السلام شديد الاعتضاد به، كما كان هو شديد التحقّق بولايته وطاعته. وناقماً، من نقمت على فلان كذا، إذا أنكرته عليه وكرهته منه. ثم دعا له بالرضوان؛ ولست أشك بأنّ الأشتر بهذه الدعوة يغفر الله له ويكفّر ذنوبه، ويدخله الجنّة، ولا فرق عندي بينها وبين دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويا طُوبَى لمن حصل له من علي عليه السلام بعض هذا.

قوله: «فأصْحَر لعدوّك»، أي ابرز له ولا تستتر عنه بالمدينة التي أنت فيها، أصحر الأسدُ من خِيسه، إذا خرج إلى الصحراء. وشمر فلان للحرب، إذا أخذ لها أُهبتَها.



الأصْلُ:

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبدالله بن العباس بعد مقتل محمّد بن أبي بكر

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ ٱفْتُتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ ـ قَدِ ٱسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ ٱللهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَداً نَاصِحاً، وَعَامِلاً كَادِحاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَرُكْناً دَافِعاً.

وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ النَّاسَ عَلَىٰ لِحَاقِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ ٱلْوَقْعَةِ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرّاً وَجَهْراً، وَعَوْداً وَبَدْءًا، فَمِنْهُمُ ٱلآتِي كَارِهاً، وَمِنْهُمُ ٱلْمُعْتَلُّ كَاذِباً، وَمِنْهُمُ ٱلْقَاعِدُ خَاذِلاً.

أَسْأَلُ ٱللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجاً عَاجِلاً؛ فَوَٱللهِ لَوْلَا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ، وَتَوْطِينِي نَفْسِي عَلَىٰ ٱلْمَنِيَّةِ، لَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَبْقَىٰ مَعَ هٰؤُلَاءِ يَوْماً وَاحِداً، وَلَا أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَداً.

الشّرْحُ:

انظر إلى الفصاحة كيف تعطي هذا الرّجل قيادها، وتملّكه زمامها؛ واعجب لهذه الألفاظ المنصوبة يتلو بعضها بعضاً كيف تواتيه وتطاوعه؛ سلسة سهلة تتدفق من غير تعسّف ولا تكلّف؛ حتى انتهى إلى آخر الفصل فقال: «يوماً واحداً، ولا ألتقي بهم أبداً»، وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا في كتاب أو خطبة جاءت القرائن والفواصل تارة مرفوعة، وتارة مجرورة، وتارة منصوبة، فإن أرادوا قَسْرَها بإعراب واحد ظهر منها في التكلّف أثرٌ بيّن، وعلامة واضحة، وهذا الصّنْف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن، ذكره عبد القاهر.

ثم إن فواصل كلّ واحد منهما تنساق سياقة بمقتضى البيان الطبيعي لا الصناعة التكلفية. ثم انظر إلى الصفات والموصوفات في هذا الفصل؛ كيف قال: « ولداً ناصحاً»، « وعاملاً كادحاً»، «وسيفاً قاطعاً»، «وركناً دافعاً»، لو قال: «ولداً كادحاً» و «عاملاً ناصحاً»، وكذلك ما بعده لما كان صواباً، ولا في الموقع واقعاً، فسبحان الله من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة والخصائص الشريفة! ولا غرو فيمن كان محمدﷺ مربّيه ومخرِجه، والعناية الإلهية تمدّه وترفُدُه أن يكون منه ما كان!

يقال: احتسب ولده، إذا مات كبيراً، وافترط ولده، إذا مات صغيراً.

قوله: «فمنهم الآتي...»، قسّم جنده أقساماً، فمنهم من أجابه وخرج كارهاً للخروج، كما قال تعالى: ﴿**كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ**﴾[1]، ومنهم من قعد واعتلّ بعلة

---

١. سورة الأنفال ٦.

كاذبة، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً﴾[1]، ومنهم مَنْ تأخّر وصرّح بالقعود والخذلان، كما قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[2]. والمعنى أنّ حاله كانت مناسبة لحال النبي ﷺ، ومَنْ تذكر تدبّر أحوالهما وسيرتهما، وما جرى لهما إلى إن قبضا، علم تحقيق ذلك.

ثم أقسم أنه لولا طمعه في الشهادة لما أقام مع أهل العراق ولا صحبهم.



الأَصْلُ:

ومن كلام له ﷺ إلى أخيه
عقيل بن أبي طالب في ذكر جيشٍ أنفذه إلى بعض الأعداء

وهو جواب كتابٍ كتبه إليه عقيل:

فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشاً كَثِيفاً مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذٰلِكَ شَمَّرَ هَارِباً، وَنَكَصَ نَادِماً، فَلَحِقُوهُ بِبِعْضِ الطَّرِيقِ، وَقَدْ طَفَّلَتِ الشَّمْسُ لِلْإِيَابِ، فَاقْتَتَلُوا شَيْئاً كَلَا وَلَا، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّىٰ نَجَا جَرِيضاً بَعْدَمَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ؛ فَلَأْياً بِلَأْيٍ مَا نَجَا.

فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشاً فِي الضَّلَالِ، وَتَجْوَالَهُمْ فِي الشِّقَاقِ، وَجِمَاحَهُمْ فِي التِّيهِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَىٰ حَرْبِي كَإِجْمَاعِهِمْ عَلَىٰ حَرْبِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَبْلِي، فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنِّي ٱلْجَوَازِي! فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ٱبْنِ أُمِّي.

---

١. سورة الأحزاب ١٣.

٢. سورة التوبة ٨١.

وَأَمَّا مَا سَأَلتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي ٱلْقِتَالِ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ ٱلْمحِلِّينَ حَتَّى أَلْقَىٰ ٱللهَ؛ لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاس حَوْلِي عِزَّةً، وَلَا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً، وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱبْنَ أَبِيكَ - وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ - مُتَضَرِّعاً مُتَخَشِّعاً، وَلَا مُقِرّاً لِلضَيْمِ وَاهِناً، وَلَا سَلِسَ الزِّمَامِ لِلْقَائِدِ، وَلَا وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ المُقْتَعِد، وَلٰكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سَلِيم:

فَإِنْ تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنَّنِي ... صَبُورٌ عَلَىٰ رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ

يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَىٰ بِي كَآبَةٌ ... فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

الشّرْحُ:

قد تقدم ذكر هذا الكتاب في اقتصاصنا ذكر حال بُسْر بن أرطاة وغارته على اليمن في أول الكتاب[1].

ويقال: طفّلت الشمس، بالتشديد، إذا مالَت للغروب، وطفّل الليل، مشدّداً أيضاً، إذا أقبل ظلامه، والطَّفَل، بالتحريك: بعد العصر حين تطفُل الشمس للغروب؛ ويقال: أتيته طَفَلى؛ أي في ذلك الوقت. وقولهﷺ: «للإياب»، أي للرجوع، أي ما كانت عليه في الليلة التي قبلها، يعني غيبوبتها. «فاقتتلوا شيئاً كلا ولا»، أي شيئاً قليلاً، وموضع «كلا ولا» نصب؛ لأنّه صفة «شيئاً»، وهي كلمة تقال لما يستقصر وقته جداً؛ والمعروف عند أهل اللغة: (كلا وذا). وقد رويت في (نهج البلاغة) كذلك، إلّا أن في أكثر النسخ: «كلا ولا»، ومن الناس من يرويها: «كلا ولات»، وهي حرف أُجري مجرى «ليس»؛ ولا تجيء «حين» إلّا أن تحذف في شعر، ومن الرواة من يرويها: «كلا ولأي»، ولأي فِعْل، معناه أبطأ.

قولهﷺ «نجا جريضاً»، أي قد غصّ بالريق من شدة الجهد والكرب، يقال: جَرَض بريقه يجرِض بالكسر، مثال كسر يكسِر، ورجل جريض مثل قَدَر يقدر فهو قدير، ويجوز أن يريد بقوله: «فنجا جريضاً»، أي ذا جريض، والجريض: الغصّة نفسها. قال الأصمعيّ: ويقال: هو يجرَض بنفسه، أي يكاد يموت. وأجرضه الله بريقه أغصّه. «بعدما أخذ منه بالمخنّق»، هو موضع الخنق من الحيوان، وكذلك الخُناق، بالضمّ؛ يقال أخذ بخُناقه، فأما

---

١. الجزء الثاني من الشرح ص ٣ وما بعدها.

الخِناق بالكسر: فالحبل تخنق به الشاة. والرمَق: بقية الروح. قوله ﷺ: «فلأياً بلأي ما نجا»، أي بعد بطء وشدة، وما زائدة أو مصدرية، وانتصب «لأياً» على المصدر القائم مقام الحال، أي نجا مبطئاً، والعامل في المصدر محذوف أي أبطأ بطئاً؛ والفائدة في تكرير اللفظة المبالغة في وصف البطء الذي نجا موصوفه به، أي لأياً مقروناً بلأي.

قوله: «فدع عنك قريشاً» إلى قوله: «على حرب رسول الله ﷺ»، هذا الكلام حقّ، فإنّ قريشاً اجتمعت على حربه منذ يوم بويع بغضاً له وحسداً وحقداً عليه، فأصفقوا كلّهم يداً واحدة على شقاقه وحَرْبه، كما كانت حالهم في ابتداء الإسلام مع رسول الله ﷺ، لم تخرم حاله من حاله أبداً إلّا أن ذاك عصمه الله من القتل، فمات موتاً طبيعياً، وهذا اغتاله إنسان فقتله. قوله: «فجزت قريشاً عني الجوازي، فقد قطعوا رحمي، وسلبوني سلطان ابن أُمّي»، هذه كلمة تجري مجرى المثل، تقول لمن يسيء إليك وتدعوا عليه: جزتك عني الجوازي! يقال: جزاه الله بما صنع، وجازاه الله بما صنع! ومصدر الأول جزاء، والثاني مجازاة، وأصل الكلمة أن الجوازي جمع جازية كالجواري جمع جارية، فكأنه يقول: جَزَتْ قريشاً عنّي بما صنعت لي كلّ خصلة من نكبة أو شدة أو مصيبة أو جائحة، أي جعل الله هذه الدواهي كلّها جزاء قريش بما صنعت بي. وسلطان ابن أُمّي، يعني به الخلافة، وابن أُمّه هو رسول الله ﷺ؛ لأنهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن عمران بن عائذ بن مخزوم، أُمّ عبد الله وأبي طالب، ولم يقل سلطان ابن أبي؛ لأنّ غير أبي طالب من الأعمام يشرَكه في النسب إلى عبد المطلب.

قوله: «فإن رأيي قتال المحِلّين»، أي الخارجين من الميثاق والبيعة، يعني البُغاة ومخالفي الإمام، ويقال لكلّ من خرج من إسلام أو حارب في الحرم أو في الأشهر الحرُمِ: مُحلّ.

وروي «متخضّعاً متضرّعاً» بالضاد. ومقرّ للضيم وبالضيم، أي راض به، صابرٌ عليه. وواهناً، أي ضعيفاً. السلس: السهل. ومقتعد البعير: راكبه.

والشعرُ ينسب إلى العباس بن مِرْداس السُّلَميّ، ولم أجده في ديوانه، ومعناه ظاهر، وفي الأمثال الحكمية: لا تشكونّ حالك إلى مخلوق مثلك، فإنه إن كان صديقاً أحزنْته، وإن كان عدوّاً أشمتّه، ولا خير في واحد من الأمرين.



الأصْلُ :

ومن كتاب لهعليه السلام إلى معاوية

فَسُبْحَانَ ٱللهِ ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ ٱلْـمُبْتَدَعَةِ ، وَٱلْـحَيْرَةِ ٱلْـمُتَّبَعَةِ ، مَعَ تَضْيِيعِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱطِّرَاحِ ٱلْوَثَائِقِ ، ٱلَّتِي هِيَ للهِ طِلْبَةٌ ، وَعَلَىٰ عِبَادِهِ حُجَّةٌ .
فَأَمَّا إِكْثَارُكَ ٱلْحِجَاجَ عَلَىٰ عُثمانَ وَقَتَلَتِهِ ؛ فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ ، وَالسَّلَامُ .

الشّرْحُ :

أوّل هذا الكتاب قوله :

«أمّا بعد ، فإنّ الدنيا حُلْوة خَضِرة ذات زينة وبَهْجة ، لم يَصْبُ إليها أحدٌ إلّا وشغلتْه بزينتها عمّا هو أنفع له منها ، وبالآخرة أُمِرنا ، وعليها حُثِثنا ؛ فدعْ يا معاوية ما يَفنَى ، واعمل لما يَبقى ، واحذر الموتَ الّذي إليه مصيرُك ، والحسابَ الّذي إليه عاقبتك .

واعلم أنّ الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً حالَ بينه وبين ما يَكرَه ، ووفّقه لطاعته ، وإذا أراد الله بعبد سوءاً أغراه بالدنيا ، وأنساه الآخرة ، وبسَطَ له أمَلَه ، وعاقَه عمّا فيه صلاحُه ، وقد وصلني كتابُك فوجدتُك تَرمي غيرَ غَرَضِك ، وتَنشُد غيرَ ضالّتك ، وتخبط في عَماية ، وتَتِيه في ضلالة ، وتعتصم بغير حجّة ، وتلوذ بأضعف شُبهة .

فأمّا سؤالك المتارَكة والإقرار لك على الشام ، فلو كنتُ فاعلاً ذلك اليوم لفعلتُه أمس .

وأمّا قولُك : إن عُمَر ولّاكه فقد عزل مَنْ كان ولّاه صاحبه ، وعزل عثمانُ من كان عمرُ ولّاه ولم ينصّب للناس إمام إلّا ليرى من صلاح الأُمّة إماماً قد كان ظهر لمن قبله ، أو أخفى عنهم عيبَه ، والأمر يَحدُ بعدَه الأمرَ ، ولكلّ والٍ

رأي واجتهاد. فسبحان الله! ما أشَدّ لزومَك للأهواء المبتدعة، والحيرة المتّبعة...» إلى آخر الفصل.

وأمّا قولهﷺ: «إنّما نصرتَ عثمانَ حيث كان النصرُ لك...» إلى آخره، فقد رَوَى البلاذري قال: لما أرسل عثمان إلى معاوية يستمدّه، بعث يزيد بن أسد القَسْريّ، وقال له: إذا أتيتَ ذا خُشُب فأقِم بها، ولا تتجاوَزْها، ولا تقل: الشاهدُ يَرَى ما لا يَرَى الغائب؛ فإنّني أنا الشاهد، وأنت الغائب.

قال: فأقام بذي خُشُب حتى قتل عثمان، فاستقدمه حينئذٍ معاوية، فعاد إلى الشام بالجيش الذي كان أُرسل معه، وإنّما صنع ذلك معاوية ليقتل عثمانَ فيدعوَ إلى نفسه.



الأصْلُ:

ومن كتاب لهﷺ إلى أهل مصر لما ولّى عليهم الأشتر

مِنْ عَبْدِ ٱللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ، إِلَىٰ ٱلْقَومِ ٱلَّذِينَ غَضِبُوا للهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضَرَبَ ٱلْجَوْرُ سُرَادِقَهُ عَلَىٰ ٱلْبَرِّ وَٱلْفَاجِرِ، وَٱلْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ، فَلَا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاحُ إِلَيْهِ، وَلَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَىٰ عَنْهُ.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْداً مِنْ عِبَادِ ٱللهِ، لَا يَنَامُ أَيَّامَ ٱلخَوْفِ، وَلَا يَنْكُلُ عَنِ ٱلْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ؛ أَشَدَّ عَلَىٰ ٱلْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ ٱلْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيما طَابَقَ ٱلْحَقَّ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ ٱللهِ لَا كَلِيلُ الظُّبَةِ، وَلَا نَابِي الضَّرِيبَةِ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فانْفِرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا، فَإِنَّهُ لَا يُقْدِمُ وَلَا يُحْجِمُ، وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي؛ وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَىٰ نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَىٰ عَدُوِّكُمْ.

الشّرْحُ :

هذا الفصل يُشكل عليّ تأويله؛ لأنّ أهل مصرَ هم الّذين قتلوا عثمانَ، وإذا شهد أميرُ المؤمنين عليه السلام أنهم غضبوا لله حين عُصيَ في الأرض، فهذه شهادة قاطعةٌ على عثمانَ بالعصيان، وإتيان المنكَر.

ثم وصف الأشتر بما وصفه به، ومِثلُ قوله: «لا ينام أيّام الخوف»، قولُهم: لا ينام ليلة يخاف، ولا يَشبَع ليلة يُضاف. ثم أمرهم أن يطيعوه فيما يأمرهم به ممّا يطابق الحقّ، وهذا من شدّة دينِه وصلابته عليه السلام، لم يسامح نفسَه في حقّ أحبِّ الخلق إليه أن يهمل هذا القيْد، قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: «لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق».

قوله: «فإنه سيفٌ من سيوف الله»، هذا لقبُ خالدِ بن الوليد، لقّبه به أبو بكر، لقتاله أهلَ الرّدة، وقتلِه مُسيلِمة. والظُّبَة، بالتخفيف: حدُّ السيف. والنابي من السيوف: الّذي لا يَقطع؛ وأصلُه نبا، أي ارتفع؛ فلمّا لم يَقطَع كان مرتفعاً، فسمّيَ نابياً؛ وفي الكلام حذفٌ تقديرُه: ولا نابي ضارب الضريبة، وضارب الضريبة، هو حدّ السيف. فأمّا الضريبة نفسها فهو الشيء المضروبُ بالسيف، وإنما دخلته الهاء وإن كان بمعنى «مَفْعول»؛ لأنّه صار في عداد الأسماء، كالنّطيحة والأكِيلة.

ثم أمرهم بأن يطيعوه في جميع ما يأمرهم به من الإقدام والإحجام، وقال: إنه لا يقدّمُ ولا يؤخّر إلّا عن أمري، وهذا إن كان قاله مع أنه قد سَنَح له أن يعمل برأيه في أُمور الحرب من غير مراجعته فهو عظيم جدّاً؛ لأنّه يكون قد أقامه مقامَ نفسه. وجاز أن يقول: إنه لا يفعل شيئاً إلّا عن أمري، وإن كان لا يُراجعُه في الجزئيّات على عادة العرب في مِثل ذلك؛ لأنّهم يقولون فيمن يثقون به نحوَ ذلك. وإن كان عليه السلام قال هذا القول عن الأشتر؛ لأنّه قد قرّر معه بينه وبينه ألّا يعمل شيئاً قليلاً ولا كثيراً إلّا بعد مراجعتِه، فيجوز، ولكن هذا بعيد؛ لأنّ المسافة طويلة بين العراق ومصر، وكانت الأُمور هناك تقف وتفسد.

ثم ذكر أنّه آثرهم به على نفسه، وعليٌّ عليه السلام كان يصول على الأعداء بالأشتر، ويقوّي أنفسَ جيوشه بمقامه بينهم، فلمّا بعثه إلى مصرَ كان مؤثراً لأهل مصرَ به على نفسه.



الأَصْلُ:

ومن كتاب له عليه السلام إلى عمرو بن العاص

فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا آمْرِئٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسَفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ، فَاتَّبَعْتَ أَثَرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ؛ آتِّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ يَلُوذُ بِمَخَالِبِهِ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَىٰ إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَتِهِ. فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ، وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ. فَإِنْ يُمَكِّنِ اللهُ مِنْكَ وَمِنِ آبْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُما، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا. وَالسَّلَامُ.

الشَّرْحُ:

كلّ ما قاله فيهما هو الحقّ الصريح بعينه، لم يحملْه بغضُه لهما، وغيظُه منهما، إلى أن بالغ في ذمّها به، كما يبالغ الفُصَحاء عند سَوْرة الغضب، وتدفّق الألفاظ على الألسنة، ولا ريبَ عند أحدٍ من العقلاء ذوي الإنصاف أنّ عمْراً جعل دينَه تبعاً لدنيا معاوية، وأنّه ما بايعه وتابعه إلّا على جَعالة جعلها له، وضمانٍ تكفّل له بإيصاله، وهيَ ولاية مصر مؤجّلة، وقطعة وافرة من المال معجّلة، ولولدَيه وغلمانِه ما ملأ أعينهم.

فأما قوله عليه السلام في معاوية: «ظاهرٌ غيُّه»، فلا ريب في ظهور ضلاله وبغيه؛ وكلُّ باغٍ غاوٍ. أمّا مهتوك سِتْره، فإنه كان كثير الهزل والخلاعة، صاحب جُلَساء وسمّار، ومعاوية لم يتوقَّر، ولم يلزم قانون الرئاسة إلّا منذ خرج على أمير المؤمنين، واحتاج إلى الناموس والسكينة، وإلّا فقد كان في أيّام عثمانَ شديدَ التهتّك، موسوماً بكلّ قبيح، وكان في أيّام عمَر يستر نفسَه قليلاً خوفاً منه، إلّا أنه كان يلبس الحرير والدِّيباج، ويَشرَب في آنية الذهب والفضّة، ويركب البَغلات ذواتِ السّروج المحلّاة بها، وعليها جِلال الدِّيباج والوَشْي؛ وكان حينئذٍ شابّاً، وعنده نزَق الصِّبا، وأثَر الشبيبة، وسكْر السلطان والإمْرة؛ ونقل الناسُ عنه في كتب السيرة أنّه كان يشرب الخمر في أيّام عثمان في الشام وأمّا بعد وفاةِ أمير المؤمنين واستقرار الأمر له فقد اختلف فيه، فقيل: إنه شرب الخمر في ستر، وقيل: إنه

لم يَشربه. ولا خلافَ في أنه سمعَ الغناء وطرِب عليه، وأعطى وَوصل عليه أيضاً.

أمّا قوله: «يشين الكريمَ بمجلسه، ويسفّه الحليمَ بخلْطته»، فالأمر كذلك، فإنه لم يكن في مجلسه إلّا شتْم بني هاشم وقَذْفُهم، والتعرّضُ بذكر الإسلام؛ والطعن عليه، وإن أظهر الانتماء إليه. وأمّا طلب عمرو فَضْله واتباعه أثره اتباعَ الكلب للأسد فظاهر، ولم يقل: الثعلب غضّاً من قدر عَمرو، وتشبيهاً له بما هو أبلغُ في الإهانة والاستخفاف.

ثم قال: «ولو بالحقّ أخذتَ أدركت ما طلبت»، أي لو قعدتَ عن نصرِه ولم تَشخص إليه ممالئاً به على الحقّ لوَصَل إليك من بيت المال قدر كفايتك.

فالأولى أن يقال: معناه لو أخذتَ بالحقّ أدركت ما طلبت من الآخرة.

فإن قلت: إن عَمْراً لم يكن عليّ عليه السلام يَعتقِد أنه من أهل الآخرة، فكيف يقول له هذا الكلام؟

قلت: لا خَلَل ولا زَلَل في كلامه عليه السلام؛ لأنّه لو أخذ بالحقّ لكان معتقداً كونَ عليّ عليه السلام على الحقّ باعتقاده صحّة نبوّة رسولِ الله صلى الله عليه وآله، وصحّة التوحيد، فيصير تقديرُ الكلام: لو بايعتَني معتقداً للزوم بَيْعتي لك لكنتَ في ضِمن ذلك طالباً الثواب، فكنت تدركه في الآخرة.

ثم قال مهدّداً لهما، ومتوعّداً إياهما: «فإن يُمكِن اللهُ منك ومن ابن أبي سفيان»، وأقول: لو ظفر بهما لما كان في غالب ظنّي يقتلهما، فإنّه كان حليماً كريماً، ولكن كان يَحبسهما ليَحسِم بحبسهما مادّة فسادِهما.

ثم قال: «وإن تُعجزا وتبقيا»، أي وإن لم أستطع أخذكما أو أمُتْ قبلَ ذلك وبقيتُما بعدي فما أمامَكما شرّ لكما من عقوبة الدنيا؛ لأنّ عذاب الدنيا منقطِع، وعذاب الآخرة غيرُ منقطع.

وذكر نصرُ بن مزاحم في كتاب «صِفّين» هذا الكتاب بزيادةٍ لم يذكرْها الرّضيّ. قال نصرُ: وكتب عليّ عليه السلام إلى عَمرو بن العاص:

«من عبدِ الله عليٍّ أمير المؤمنين إلى الأبتر بن الأبتر عمرو بن العاص بن وائل، شانئ محمدٍ وآلِ محمّد في الجاهليّة والإسلام، سلامٌ على من اتّبع الهدى، أمّا بعد، فإنّك تركتَ مروءتك لامرئ فاسق مهتوك ستره، يشينُ الكريمَ بمجلسه، ويسفّه الحليمَ بخلطته، فصار قلبُك لقلبه تَبَعاً، كما قيل: «وافَقَ شنٌّ طَبَقة»، فسلَبك دينَك وأمانتَك، ودنياك وآخرتَك، وكان علمُ الله بالغاً فيك، فصرت كالذئب يتبع الضّرغام إذا ما الليلِ دَجَى، أو أَتى الصبح يلتمس فاضل سؤْره، وحَوايَا فريسته، ولكن لا نجاةَ من القَدَر، ولو بالحقّ أخذتَ لأدركت ما رجوتَ، وقد رَشد من كان الحقّ قائدَه، فإنْ يُمَكِن الله منك ومِن ابن آكلة الأكباد ألحقتكما بمن قتله الله من

ظلَمة قريش على عهدِ رسولِ الله ﷺ ، وإن تُعجِزا وتَبقيا بعدُ فالله حَسْبكما، وكفى بانتقامه انتقاماً، وبعقابه عقاباً. والسلام».



الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطتَ رَبَّكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ، وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ. بَلَغَنِي أنـّكَ جَرَّدْتَ ٱلْأَرْضَ فأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَآعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ ٱللهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاس؛ وَالسَّلَامُ.

الشّرْحُ :

أخزيْتَ أمانتك: أذللْتها وأهنْتَها. وجرّدت الأرْض: قشرتَها؛ والمعنى أنّه نسبه إلى الخيانة في المال، وإلى إخراب الضّياع.



الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي، وَلَم يَكُن في

أَهلِي رَجُلٌ أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِمُوَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي، وَأَدَاءِ ٱلْأَمَانَةِ إِلَيَّ؛ فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَىٰ ٱبْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ، وَٱلْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ، وَأَمَانَةَ النَّاس قَدْ خَزِيَتْ، وَهٰذِهِ ٱلْأُمَّةَ قَدْ فُتِكَت وَشَغَرَتْ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ ٱلْمِجَنِّ، فَفَارَقْتَهُ مَعَ ٱلْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ ٱلْخَاذِلِينَ، وَخُنْتَهُ مَعَ ٱلْخَائِنِينَ، فَلَا ٱبْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ، وَلَا ٱلْأَمَانَةَ أَدَّيْتَ.

وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ ٱللهَ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ. وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَنْوِي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ، فَلَمَّا أَمْكَنَتْكَ الشِّدَّةُ فِي خِيَانَةِ ٱلْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ ٱلْكَرَّةَ، وَعَاجَلْتَ ٱلْوَثْبَةَ، وَٱخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ ٱلْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ، ٱخْتِطَافَ الذِّئْبِ ٱلْأَزَلِّ دَامِيَةَ ٱلْمِعْزَىٰ ٱلْكَسِيرَةَ، فَحَمَلْتَهُ إِلَىٰ ٱلْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ ـ لَا أَبَا لِغَيْرِكَ ـ حَدَرْتَ إِلَىٰ أَهْلِكَ تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ.

فَسُبْحَانَ ٱللهِ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أَوَ مَا تَخَافُ نِقَاشَ ٱلْحِسَابِ؟ أَيُّهَا ٱلْمَعْدُودُ -كَانَ- عِنْدَنَا مِنْ أُولِي الأَلْبَابِ، كَيْفَ تُسِيغُ شَرَاباً وَطَعَاماً، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَاماً، وَتَشْرَبُ حَرَاماً، وَتَبْتَاعُ ٱلإِمَاءَ وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ ٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُجَاهِدِينَ، الَّذِينَ أَفَاءَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ هٰذِهِ ٱلْأَمْوَالَ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هٰذِهِ ٱلْبِلَادَ!

فَاتَّقِ ٱللهَ وَٱرْدُدْ إِلَىٰ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ اموَالَهُمْ، فإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي ٱللهُ مِنْكَ، لَأُعْذِرَنَّ إِلَىٰ ٱللهِ فِيكَ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَداً إِلَّا دَخَلَ النَّارَ!

وَوَٱللهِ لَوْ أَنَّ ٱلْحَسَنَ وَٱلْحُسَيْنَ فعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ، وَلَا ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادَةٍ، حَتَّىٰ آخُذَ ٱلْحَقَّ مِنْهُمَا، وَأُزِيحَ ٱلْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا.

وَأُقْسِمُ بِاللهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي، أَتْرُكُهُ مِيرَاثاً لِمَنْ بَعْدِي؛ فَضَحِّ رُوَيْداً، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ ٱلْمَدَىٰ، وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَىٰ،

وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالمحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ، وَيَتَمَنَّىٰ ٱلْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاص[١].

الشّرْحُ:

أشركتك في أمانتي: جعلتك شريكاً فيما قمتُ فيه من الأمر، وائتمنني الله عليه من سياسة الأُمّة، وسمّى الخلافة أمانةً كما سمّى الله تعالى التكليف أمانةً في قوله: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ﴾**[٢]. فأمّا قوله: وأداء الأمانة إليّ فأمرٌ آخر، ومراده بالأمانة الثانية ما يتعارفه الناس من قولهم: فلان ذو أمانة، أي لا يخون فيما أُسند إليه. وكلِب الزمان: اشتدّ؛ وكذلك كلِب البردُ. وحَرِب العدوّ: استأسد. وخزيتْ أمانة الناس: ذلّت وهانت. وشَغَرت الأُمّة: خلت من الخير، وشَغَر البلد: خلا من الناس. وقلبتُ له ظهر المجنّ: إذا كنت معه فصرت عليه؛ وأصل ذلك أنّ الجيش إذا لقوا العدوّ وكانت ظهور مجانّهم إلى وجه العدوّ، وبطون مجانّهم إلى وجه عسكرهم، فإذا فارقوا رئيسهم وصاروا مع العدوّ كان وضع مجانّهم بدلاً من الوضع الذي كان من قبل، وذلك أنّ ظهور التّرسة لا يمكن أن تكون إلّا في وجوه الأعداء؛ لأنها مَرمى سهامهم. وأمكنتك الشدة، أي الحملة.

قوله: «أسرعت الكرّة»، لا يجوز أن يقال: الكرّة إلّا بعد فرّة، فكأنه لما كان مقلعاً في ابتداء الحال عن التعرّض لأموالهم، كان كالفارّ عنها، فلذلك قال: أسرعت الكرّة. والذئب الأزلّ: الخفيف الوَرِكين، وذلك أشدّ لعدوه، وأسرَع لوثبته، وإن اتفق أن تكون شاةٌ من المِعزَى كسيرة ودامية أيضاً، كان الذئب على اختطافها أقدر. ونقاش الحساب: مناقشته. قوله: «فضحّ رويداً»، كلمة تقال لمن يؤمر بالتؤدة والأناة والسكون، وأصلها الرّجل يطعم إبله ضحى، ويسيّرها مسرعاً ليسير، فلا يشبعها، فيقال له: ضَحِّ رويداً.

وقد اختلف الناس في المكتوب إليه هذا الكتاب.

فقال الأكثرون: إنه عبد الله بنُ العباس ﷺ، وروَوْا في ذلك روايات، واستدلّوا عليه بألفاظ

---

١. الشعار: الثوب الملتصق بالجسم. بطانتي: خاصتي. المؤازرة: المناصرة. كَلِبَ الزمان: اشتدّ. فتكثْ: كذبت. آسيت: ساعدت. غرتهم: غفلتهم. حدرت: أسرعت. تسيغ شراباً: تبلعه. وأفاء المال عليه: جعله غنيمة له. الهوادة: اللين والرفق. المدى: الغاية. المناص: المضرّ.

٢. سورة الأحزاب ٧٢.

من ألفاظ الكتاب كقوله: «أشركتك في أمانتي، وجعلتك بطانتي وشعاري، وأنه لم يكن في أهلي رجل أوثق منك». وقوله: «علىٰ ابن عمّك قد كلب»، ثم قال ثانياً: «قلبتَ لابن عمّك ظهر المِجَنّ»، ثم قال ثالثاً: «ولا ابن عمك آسيت»؛ وقوله: «لا أبا لغيرك»، وهذه كلمة لا تقال إلّا لمثله، فأمّا غيره من أفناء الناس، فإنّ علياً عليه السلام كان يقول: لا أبا لك.

وقوله: «أيها المعدود كان عندنا من أولي الألباب». وقوله: «لو أنّ الحسن والحسين عليهما السلام»، وهذا يدلّ علىٰ أنّ المكتوب إليه هذا الكتاب قريب من أن يجري مجراهما عنده.

وقال آخرونَ وهم الأقلون: هذا لم يكن، ولا فارق عبدُ الله بن عباس علياً عليه السلام، ولا باينه ولا خالفه، ولم يزل أميراً على البصرة إلى أن قتل عليّ عليه السلام. وهذا عندي هو الأمثل والأصوب.

وقد قال الراوندي: المكتوب إليه هذا الكتاب هو عبيد الله بن العباس، لا عبد الله.

وليس هذا بصحيح؛ فإنّ عبيد الله كان عامل علي عليه السلام علىٰ اليمن، ولم ينقل عنه أنّه أخذ مالاً، ولا فارق طاعة.

وقد أشكل عليَّ أمرُ هذا الكتاب، فإن أنا كذّبت النقل وقلتُ: هذا كلام موضوع على أمير المؤمنين عليه السلام، خالفتُ الرواة، فإنهم قد أطبقوا على رواية هذا الكلام عنه، وقد ذكِر في أكثر كتب السيَر. وإن صرفته إلى عبد الله بن عباس صدني عنه ما أعلمه من ملازمته لطاعة أمير المؤمنين عليه السلام في حياته وبعد وفاته. وإن صرفته إلى غيره لم أعلم إلى مَنْ أصرفه من أهل أمير المؤمنين عليه السلام؛ والكلامُ يشعر بأنّ الرجل المخاطب من أهله وبني عمه، فأنا في هذا الموضع من المتوقّفين[1]!

---

١. إنّ هذه القصة كانت مسرحاً لاصطراع المؤرخين والرواة، فمنهم المثبت لها، ومنهم النافي، ومنهم المتوقف في أمرها.

وأقدم المثبتين لها الطبري، وعنه أخذ مَن تأخّر عنه كابن الأثير وابن خلدون، وصاحب العقد الفريد، وحتىٰ الكشي، وقد بالغ بعضهم في المبلغ الذي حمله حتىٰ أوصله بعضهم إلىٰ ستة ملايين من الدراهم. اعتماداً علىٰ عدة رسائل تبودلت بين الإمام، وابن عباس، رواها شخص واحد وهذه الروايات رويت بأحاديث الآحاد، ومثلها لا تبحث كذلك، وقد نوقشت في أسانيدها.

ولذا فلا يمكن الاطمئنان إليها، لأنّ ذلك يعني تجاهل حال الوضاعين وتربصهم في ذلك الزمان له، ⟺

⇐ وتربّص المناوئين للعباسيين من شعراء وثوار، وتجاهل لإغفال الأمويين كمعاوية وابن العاص، وعدم تطرّق هؤلاء جميعاً لهذه الحادثة، وأُمور أُخر لا يسع المجال لذكرها. مضافاً إلىٰ سكوت أهل البيت عليهم السلام عن هذه القضية، وعدم حدوث خلاف بين أحد منهم وبينه. كل هذه الأُمور تبعث علىٰ التشكيك أو التردد في الأخذ بهذا الرأي.

وأمّا النافون، فقد اعتمدوا علىٰ ما روي أنه عليه السلام بقي في البصرة إلىٰ عهد الإمام الحسن الزكـي عليه السلام، وشهد الصلح معه. وأيدوا كلامهم؛ بأنّ الإمام عليّاً عليه السلام ما كان يجتمع عنده في بيت المال لحاجته إلىٰ الأموال، وقد كان يفرّغ بيت مال الكوفة كل خمس ويرشّه [أمالي المرتضىٰ ١:٢٣، ط السعادة المصرية].

والواقع أنّ النفي بهذا الشكل تأباه طبيعة البحث الموضوعي، مع تعرض جملة من المؤرخين له، مضافاً إلىٰ أنّ القصّة وردت علىٰ لسان عبد الله بن الزبير في ملاحاة له مع ابن عباس، وعدم إنكار الأخير له، كما وردت علىٰ لسان قيس بن سعد.

والحق أن نقول: إن يده امتدت إلىٰ بيت المال بمبرر شرعي ووصل الخبر إلىٰ الإمام عليه السلام عن طريق أبي الأسود الدؤلي، وقد كتب الإمام عليه السلام إليه مؤنّباً، ثم دارت بينهما بعض المراسلات، انتهت بإرجاع ما أخذ من مال، ثم رضي الإمام عنه، وأبقاه علىٰ منصبه بالبصرة. دون أن يخدش ذلك في شخصيته، أو في تديّنه وورعه، ولا شك أنّ أخذه للمال كان بدافع الحاجة إليه، ومن حقّه المكتوب له في الخمس. وهذا الأخذ للمال صحيح بعنوانه الأولي، ثم أَمَرَه الإمام عليه السلام بإرجاعه لطرو عنوان ثانوي ملزم، كخوفه أنْ يدبّ التهامس بين الناس حول هذا الموضوع، وعند إصرار الإمام أرجع الأموال، وامتثل أمر إمامه. ففي مكارم الأخلاق للطبرسي ص ١٣١: «عن عبد الله بن عباس، لما رجع من البصرة وحمل المال ودخل الكوفة، وجد أمير المؤمنين عليه السلام قائماً في السوق، وهو ينادي بنفسه، معاشر الناس، ... إلخ: فسلّمتُ عليه فردّ عليّ السلام، ثم قال: يا ابن عباس ما فعل المال؟ فقلتُها هو يا أمير المؤمنين، وحملته إليه فقرّبني ورحّبَ بي ...».

وأمّا مقدار المال، فلم يتجاوز العشرة آلاف درهم. ذكر ذلك اليعقوبي ٢:١٨١.

فأخذُ المال إذاً كان بحق، وإرجاعه كان بحقٍّ أيضاً، لطرو العنوان الثانوي كما ذكرنا، وبعد هذا فلا سرقة ولا خيانة، وبقي عليه السلام علىٰ منصبه في البصرة وهذا يدلّ علىٰ رضا إمامه عنه وصلاحه لما ينهض به. وقد صرّح في جوابه لابن الزبير: «وأمّا حملي المال. فإنّه كان مالاً جَبيناه، وأعطينا كلَّ ذي حق حقّه، وبقيت بقيّة هي دون حقنا في كتاب الله، فأخذنا بحقنا» ذكره ابن أبي الحديد في شرحه ٢٠:١٣١ وعلىٰ أي فقد كانت له وجهة نظر لها أساس من الشرع، كما صرّح به قيس بن سعد في خطبته، برواية أبي الفرج الاصفهاني: (وهو يزعم أنها حلال)، وظل ابن عباس وفياً لإمامه ولأبنائه من بعده، واعتقاد إمامتهم، وأي عبد لا تصدر منه زلة؟ وإنما العبرة بالتوبة والإنابة وعدم الإصرار عليها. ومن أولىٰ بذلك من حبر الأُمّة وربيب الإسلام. [انظر تفصيل ذلك في كتاب عبد الله بن عباس للعلامة السيد محمد تقي الحكيم ص٣٨٦ـ ٤٠٢].



الأَصْلُ :

ومن كتاب لهﷺ إلى عمر بن أبي سلمة المخزومي

وكان عامله على البحرين ، فعزله ، واستعمل النعمان بن عجلان الزّرقي مكانه :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ نُعْمَانَ بْنَ عَجْلَانَ الزُّرَقِيَّ عَلَىٰ ٱلْبَحْرَيْنِ ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلَا ذَمٍّ لَكَ ، وَلَا تَثْرِيبٍ عَلَيْكَ ؛ فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ ٱلْوِلَايَةَ . وَأَدَّيْتَ ٱلْأَمَانَةَ ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ ، وَلَا مَلُومٍ ، وَلَا مُتَّهَمٍ ، وَلَا مَأْثُومٍ ، فَلَقَدْ أَرَدْتُ ٱلْمَسِيرَ إِلَىٰ ظَلَمَةِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِي ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَىٰ جِهَادِ ٱلْعَدُوِّ ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ ، إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ .

الشّرْحُ :

أمّا عمر بن أبي سَلَمة فهو رَبيبُ رسولِ اللهﷺ ، وأبوه أبو سَلَمة بن عبد الأسد ، يكنّى أبا حفص ، وُلد في السنة الثانية من الهجرة بأرض الحبشة ، وتوفّي في المدينة في خلافة عبد الملك سنة ثلاثٍ وثمانين ، وقد حَفِظ عن رسول اللهﷺ الحديث .

وأمّا النّعمان بن عجلان الزُّرَقيّ فمن الأنصار ، ثم من بني زُرَيق ، كان النّعمانُ هذا لسان الأنصار وشاعرهم ؛ ويقال : إنه كان رجلاً أحمر قصيراً تزدريه العين ، إلّا أنّه كان سيّداً ، وهو القائل يوم السقيفة :

وإنّ هَـــوانــا فــي عــليّ وإنّــه ... لأهلٌ لها من حيث يدري ولا يدري

قوله : «ولا تثريب عليك» ، فالتثريب الاستقصاء في اللّوم ؛ ويقال : ثرّبت عليه ، وعرّبت عليه ، إذا قبّحتَ عليه فعله .

والظَّنِين : المتّهم ؛ والظِّنّة التهمة ، والجمع الظِّنن ؛ يقول : قد اظّنّ زيد عمراً ، والألف ألف وصل ، والظاء مشدّدة ، والنون مشدّدة أيضاً ، وجاء بالطاء المهملة أيضاً ، أي اتّهمه .



الأصْلُ :

ومن كتاب لهعليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني

وكان عامله على أردشير خُرّة :

بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلٰهَكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ؛ إِنَّكَ تَقْسِمُ فَيْءَ ٱلْمُسْلِمِينَ ـ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخُيُولُهُمْ، وَأُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ ـ فِيمَنِ ٱعْتَامَكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ. فَوَالَّذِي فَلَقَ ٱلْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ؛ لَئِنْ كَانَ ذٰلِكَ حَقّاً، لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَاناً، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَاناً، فَلَا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ ٱلأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً.

ألا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ وَقِبَلَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هٰذَا ٱلْفَيْءِ سَوَاءٌ؛ يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ.

الشّرْحُ :

قد تقدّم ذكر نسب مَصقَلة بن هُبيرة[١]. وأردشير خرّة: كُورةٌ من كُوَر فارَس.

واعتامَك: اختارَك من بين الناس، أصلُه من العِيمة بالكسر، وهي خيارُ المال. اعتام المصَّدّق إذا أخذ العِيمة، وقد رُوي: «فيمن اعتماك» بالقلب، والصحيح المشهور الأوّل. وروي: «ولتجدنّ بك عندي هواناً» بالباء، ومعناها اللام؛ ولتجدنّ بسبب فعلك هوانك عندي، والباء ترد للسببيّة، كقوله تعالى: ﴿**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**﴾[٢]. والمَحْق الإهلاك.

والمعنى، أنّه نهى مصقلة عن أن يقسم الفيءَ على أعراب قومه الذين اتّخذوه سيّداً

---

١. ذكره ابن أبي الحديد في ج ١٢٧:٣.

٢. سورة النساء ١٦٠.

ورئيساً، ويَحرِم المسلمين الذين حازُوه بأنفسهم وسلاحهم؛ وهذا هو الأمر الّذي كان يُنكِره على عثمان، وهو إيثارُ أهله وأقاربه بمالِ الفَيء؛ وقد سبق شرحُ مثل ذلك مستوفىً.



٤٤

الأصْلُ:

ومن كتاب لهﷺ إلى زياد بن أبيه

وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه:

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ لُبَّكَ، وَيَسْتَفِلُّ غَرْبَكَ، فاحْذَرْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ يَأتِي ٱلْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ، وَيَسْتَلِبَ غِرَّتَهُ.

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ فَلْتَةٌ مِنْ حَدِيثِ النَّفْس، وَنَزْغَةٌ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ؛ لَا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ، وَٱلْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ ٱلْمُدَفَّعِ، وَالنَّوْطِ ٱلْمُذَبْذَبِ.

فلمّا قرأ زياد الكتاب قال: شهد بها وربّ الكعبة[1]، ولم تزل في نفسه حتى ادّعاه معاويةُ.

قال الرضيﷺ:

قولهﷺ: «الوَاغِلُ»: هو الذي يهجم على الشَّرب ليشرب معهم، وليس منهم، فلا يزال مدفّعاً محاجزاً. والنّوط المُذَبْذَبُ: هو ما يناط برحل الراكب من قُعب أو قَدَحٍ، أو ما أشبه ذلك، فهو أبداً

---

١. قول زياد: (شهد بها وربّ الكعبة) قول باطل، لأنّ شهادة الإمام عليﷺ هي على كلام أبي سفيان، هو داخل في نزغات الشيطان وهوى النفس. وقال: لا يَثبُتُ ولا يَسوم بذلك نسب. فكيف يكون هذا الكلام شهادة على إثبات النّسب؟ وكيف يكون ردّ عليٍّ على أبي سفيان تحقيقاً لهذا النّسب؟ [انظر: شرح النهج للبيهقي، ص ٧٦٠].

يتقلقل إذا حث ظهره واستعجل سيره.

الشّرْحُ:

يستزلّ لبّك، يطلب زلله وخطأه، أي يحاول أن تزلّ. واللبّ: العقل. ويستفلّ غَرْبك: يحاول أن يفلّ حدّك، أي عزمك، وهذا من باب المجاز. ثم أمَرَه أن يحذره، وقال: إنه ـ يعني معاوية ـ كالشّيطان يأتي المرءَ من كذا ومن كذا، وهو مأخوذ من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[1].

قوله: «ليقتحم غفلته»، أي ليلجَ ويهجم عليه وهو غافل؛ جعل اقتحامه إياه اقتحاماً للغِرّة نفسها لما كانت غالبةً عليه. ويستلب غرّته، ليس المعنى باستلابه الغِرّة أن يرفعها ويأخذها؛ لأنّه لو كان كذلك لصار ذلك الغافل المغتر فاقداً للغفلة والغِرّة، وكان لبيباً فطناً، فلا يبقى له سبيل عليه، وإنما المعنى بقوله: «ويستلب غِرّته»، ما يعنيه الناس بقولهم: أخذ فلانٌ غفلتي. وفعل كذا، ومعنى أخذها هنا أخذ ما يستدلّ به على غفلتي وفلتة: أمرٌ وقع من غير تثبت ولا رويّة. ونَزْغَة: كلمة فاسدة، من نزغات الشيطان، أي من حركاته القبيحة التي يستفسد بها المكلفين. ولا يثبتُ بها نسب، ولا يستحقّ بها إرث؛ لأنّ المقرّ بالزنا لا يلحقه النسب، ولا يرثه المولود، لقوله ﷺ: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر».

ورَوَى أحمد بن يحيى البَلاذُريّ قال: تكلّم زياد ـ وهو غلام حَدَث ـ بحضرة عمر كلاماً أعجَب الحاضرين[2]، فقال عمرو بن العاص: لله أبوه! لو كان قرشيّاً لساق العرب بعصاه؛ فقال أبو سُفْيان: أما والله إنّه لقُرشيّ، ولو عرفتَه لعرفتَ أنّه خير من أهلك؛ فقال: ومَن أبوه؟ قال: أنا والله وضعتُه في رَحِم أمّه. فقال: فهلّا تستلحقه؟ قال: أخاف هذا العيْرَ الجالسَ أن يَخرِق عليّ إهابي. (يعني به عمر بن الخطاب).

وقال الحسن البصريّ: ثلاث كنّ في معاوية لو لم تكن فيه إلّا واحدة منهنّ لكانت موبقةً: انتزاؤهم على هذه الأُمّة بالسّفهاء حتى ابتزّها أمرها؛ واستلحاقه زياداً مُراغَمةً لقول

---

١. سورة الأعراف ١٧.

٢. هذا المجلس عقد في قضية الشهادة على المغيرة بن شعبة بالزنا، بعد أن أدىٰ الشهود شهادتهم عليه، ووصل دور زياد بن أبيه، قال له واحد من الصحابة: إياك أن تفضح بلسانك واحداً من صحابة رسول الله ﷺ، فقرر حينئذٍ كلاماً بليغاً، أعجب الحاضرين. [معارج نهج البلاغة، للبيهقي ٧٥٩].

رسول الله : «الوَلَد للفراش، وللعاهر الحَجَر»؛ وقتلُه حُجْر بن عَدِيّ، فياويلَه من حُجْر وأصحابِ حُجْر!



الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام

إلى عثمان بن حنيف الأنصاري ، وكان عامله على البصرة

وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها :

أَمَّا بَعْدُ، يَابْنَ حُنَيْفٍ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ ٱلْبَصْرَةِ، دَعَاكَ إِلى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا، تُسْتَطَابُ لَكَ ٱلأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ ٱلْجِفَانُ. وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلىٰ طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَانْظُرْ إِلَىٰ مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هٰذَا ٱلْمَقْضَمِ، فَمَا ٱشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وَجهِهِ فَنَلْ مِنْهُ.

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ؛ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ ٱكْتَفَىٰ مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ. أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَىٰ ذٰلِكَ، وَلٰكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَٱجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ. فَوَٱللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلَا ٱدَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً، وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَىٰ وَأَهْوَنُ مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ.

الشّرْحُ :

هو عثمان بن حُنَيف الأنصاري ثم الأوسيّ أخو سهل بن حُنَيف، ولّاه عليّ عليه السلام على البصرة، فأخرجه طلحة والزّبير منها حين قدِماها، وسكن عثمان الكوفة بعد وَفاة عليّ عليه السلام ، ومات

بها في زمن معاوية.

قوله: «من فتية أهل البَصرة»، أي من فتيانها، أي من شبابها أو من أسخيائها؛ يقال للسخيّ: هذا فتى، والجمع فِتْية وفتيان وفُتُوّ؛ ويروَى: «أنّ رجلاً من قُطّان البصرة»، أي سكانها. والمأدُبة، بضم الدال: الطعام، يدعى إليها القوم، وقد جاءت بفتح الدال أيضاً، ويقال: أدَب فلانٌ القومَ يأدِبهم بالكسر، أي دعاهم إلى طعامه، والآدِب: الدّاعي إليه.

ويروى: «وكثرت عليك الجفان فكرَعْتَ وأكلت أكل ذئب نَهِمْ، أو ضبُع قِرَم». وروي: «وما حَسِبتك تأكل طعامَ قوم».

ثم ذمّ أهلَ البصرة فقال: «عائلهم مجفوّ، وغنيّهم مدعوّ»، والعائل: الفقير. ثم أمره بأن يترك ما فيه شبهة إلى ما لا شبهة فيه، وسمّى ذلك قضماً ومقضماً وإن كان مما لا يقضم لاحتقاره له، وازدرائه إياه، وأنه عنده ليس مما يستحقّ أن يسمّى بأسماء المرغوب فيه، المتنافس عليه، وذلك لأنّ القَضْم يطلق على معنيين: أحدُهما على أكل الشيء اليابس، والثاني على ما يؤكل ببعض الفم؛ وكلاهما يدلّان على أن ذلك المقضم المرغوب عنه، لا فيه.

ثم ذكرﷺ حالَ نفسه فقال: «إنّ إمامكم قد قنع من الدنيا بطِمْرَيه»، والطِّمْر: الثوب الخلِق البالي، وإنما جعلهما اثنين لأنّهما إزارٌ ورداء لابدّ منهما، أي للجسد والرأس. «ومن طُعْمه بقُرْصَيه»، أي قرصان يفطر عليهما لا ثالث لهما. وروي: «قد اكتفى من الدنيا بطمرَيه، وسدّ فورةَ جوعه بقُرْصيه. لا يطعم الفلْذةَ في حوليه إلّا في يوم أضحية». ثم قال: إنكم لن تقدروا على ما أقدر عليه، ولكن أسألكم أن تعينوني بالوَرَع والاجتهاد.

ثم أقسم أنه ما كنز ذهباً، ولا ادّخر مالاً، ولا أعدّ ثوباً بالياً سملاً لبالي ثوبيه، فضلاً عن أن يعدّ ثوباً قشيباً كما يفعله الناس في إعداد ثوب جديد ليلبسوه عِوَض الأسمال التي ينزعونها، ولا حاز من أرضها شبراً، والضمير في «أرضها» يرجع إلى «دنياكم»، ولا أخذ منها إلّا كقوت أتانٍ دبرة، وهي التي عقر ظهرُها فقلّ أكلها. ثم قال: «ولهي في عيني أهوَن من عَفْصة مَقِرة»، أي مُرّة، مقِر الشيءُ بالكسر أي صار مرّاً، وأمقَرَه بالهمز أيضاً.

الأصْلُ:

بَلَىٰ كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَنِعْمَ ٱلْحَكَمُ ٱللهُ. وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَغَيْرِ فَدَكٍ،

وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لَأَضْغَطَهَا ٱلْحَجَرُ وَٱلْمَدَرُ، وَسَدَّ فُرَجَهَا ٱلتُّرَابُ ٱلْمُتَرَاكِمُ؛ وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَىٰ لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ ٱلْخَوْفِ ٱلْأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَىٰ جَوَانِبِ ٱلْمَزْلَقِ.

الشّرْحُ:

الجَدَث: القبر. وأضغطها الحجر: جعلها ضاغطة، والهمزة للتّعدية، ويروى: «وأضغطها». وقوله: «مظانّها في غد جَدَث»، المظانّ: جمع مَظِنّة، وهو موضع الشيء ومألفه الّذي يكون فيه. يقول: لا مال لي، ولا اقتنيتُ فيما مضى مالاً، وإنما كانت في أيدينا[1] فَدَك فشحّت

---

١. قوله ﷺ: «بلىٰ كانت في أيدينا فدك... إلى آخره»:

أقول: هذا اللفظ صريح في أن فدكاً كانت في يد فاطمة ﷺ، فاعجب للشارح ابن أبي الحديد في تعصّبه وتقويمه لما ذكره قاضي القضاة، ورده علىٰ المرتضى ﷺ، وقوله في نصرة ما تمسك به قاضي القضاة: أنّه لو كانت في يدها وكانت متصرّفة فيها تصرّف الملّاك فلا حاجة إلىٰ البيّنة؛ لأنّ اليد أو الحيازة دليل الملكية، فلم تحتج إلىٰ دعوىٰ النحلة وطلب البيّنة.

فنحن نقول بموجبه ولا يلزم أن تحتج به ﷺ؛ لأنّهم قد واجهوها بأن كونها في يدكِ علىٰ وجه الارتفاق لا الملك، فكيف تحتج بحجة قد بادرا إلىٰ إبطالها بنزع يدها ودفعها، بقولهم: كانت في يدكِ حين كانت لأبيك، والآن قد صارت للمسلمين فبطل تمسكك بها، وهذا واضح ولذلك استدلت علىٰ ملكيتها ﷺ بآيات الميراث؛ وذلك لأنّ فدكاً كانت أرضاً مترامية الأطراف، وليست من الأُمور التي يسهل معرفة حيازتها كما أنها كانت تبعد عن المدينة أياماً، وعلىٰ هذا فما الذي كان يمنع الخليفة من مطالبته الزهراء بالبينة إذا ما ادعت ملكيتها؟

قال ابن أبي الحديد في شأن فدك:

وقد أخلّ قاضي القضاة بلفظة حكاها عن الشيعة فلم يتكلّم عليها وهي لفظة جيدة، قال: قد كان الأجمل أن يمنعهم التكرّم مما ارتكبا منها فضلاً عن الدِّين. وهذا الكلام لا جواب عنه، ولقد كان التكرّم ورعاية حقّ رسول الله ﷺ وحفظ عهده يقتضي أن تعوّض ابنته بشيء يرضيها إن لم يستنزل المسلمون عن فَدَك وتُسلم إليها تطييباً لقلبها. وقد يسوغ للإمام أن يفعل ذلك من غير مشاورة المسلمين إذا رأى المصلحة فيه، وقد بعد العهد الآن بيننا وبينهم، ولا نعلم حقيقة ما كان، وإلىٰ الله ترجع الأُمور.

قال ابن أبي الحديد: وسألت علي بن الفارقيّ مدرّس المدرسة الغربية ببغداد، فقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم، قلت: فلم لم يدفع إليها أبو بكر فَدَكاً وهي عنده صادقة؟ فتبسّم، ثمّ قال كلاماً لطيفاً

عليها نفوسُ قوم، أي بخلتْ وسختْ عنها نفوسُ آخرين، أي سامحت وأغْـضَت. وليس يعني هاهنا بالسخاء إلّا هذا، لا السخاء الحقيقيّ؛ لأنّه ﷺ وأهله لم يسمحوا بفَدَك إلّا غصباً وقَسْراً؛ وقد قال هذه الألفاظ في موضع آخر فيما تقدّم[1]، وهو يعني الخلافة بـعد وفـاةِ رسولِ الله ﷺ.

ثم قال: «ونعم الحَكَم الله»، الحَكَم: الحاكم، وهذا الكلام كلامُ شاكٍ متظلّم، ثم ذكر مالَ الإنسان وأنّه لا ينبغي أن يكترث بالقَيْنات والأموال، فإنّه يصير عن قريب إلى دار البِـلَى ومنازل الموتى.

ثمّ ذكر أنّ الحُفرة ضيّقة، وأنه لو وسّعها الحافر لألجأهـا الحـجر المـتداعـي والمـدَر المتهافت، إلى أن تضغط الميّت وتزحمه. وهذا كلام محمول على ظـاهره؛ لأنّـه خـطاب للعامّة، وإلّا فأيّ فَرْق بين سعة الحُفرة وضِيقها على الميّت! اللهمّ إلّا أن يـقول قـائل: إنّ الميّت يحسّ في قبره، فإذا قيل ذلك فالجاعل له إحساساً بعد عدم الحسّ هو الّذي يوسّع الحفرة، وإن كان الحافر قد جعلها ضيّقة؛ فإذن هذا الكلام جيّد لخطاب العَرَب خاصّة، ومن يَحمل الأمورَ على ظواهرها.

ثم قال: «وإنّما هي نفسي أُروضُها بالتقوى»، يقول: تَـقلُّلي واقـتصاري مـن المـطعم والمَلبَس على الجَشِب والخَشِن رياضةٌ لنفسي؛ لأنّ ذلك إنّما أعمله خوفاً من الله أن أنغمس في الدنيا، فالرياضة بذلك هي رياضةٌ في الحقيقة بالتقوى، لا بنفس التقلّل والتقشّف؛ لتأتي نفسي آمنةً يومَ الفَزَع الأكبر، وتثبت في مداحض الزّلَق.

الأصْلُ:

وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَىٰ مُصَفَّىٰ هٰذَا ٱلْعَسَلِ، وَلُبَابِ هٰذَا ٱلْقَمْحِ، وَنَسَـائِجِ هٰذَا ٱلْقَزِّ. وَلٰكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَىٰ تَخَيُّرِ ٱلْأَطْـعِمَةِ ـ

⇐ مستحسناً مع ناموسه وحُرْمته وقلّة دعابته، قال: لو أعطاها اليوم فَدَكاً بمجرّد دعواها لجاءت إليه غداً وادّعت لزوجها الخلافة، وزحزحته عن مقامه، ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء؛ لأنّه يكون قد سجل علىٰ نفسه أنّها صادقة فيما تدّعي كائناً ما كان [من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود؛ وهذا كـلام صـحيح؛ وإن كـان أخرجه مخرج الدّعابة والهزْل]. انتهىٰ.

١. مرّت في الخطبة (١٦٣).

وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوِ الْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ - أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَىٰ وَأَكْبَادٌ حَرَّىٰ، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ عَاراً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ ... وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَىٰ الْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هٰذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؛ وَلَا أُشَارِكَهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ! فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ، هَمُّهَا عَلَفُهَا، أَوِ الْمُرْسَلَةِ، شُغْلُهَا تَقَمُّمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرَكَ سُدىً، أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلَالَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ!

الشَّرْحُ:

قد روي: «ولو شئت لاهتديت إلى هذا العسل المصفّى، ولباب هذا البُرّ المنقّى؛ فضربت هذا بذاك؛ حتى ينضج وقوداً، ويستحكم معقوداً».

وروي: «ولعل بالمدينة يتيماً ترباً يتضوّر سغباً، أأبيت مِبْطاناً، وحولي بطونٌ غرْثى، إذن يحضرني يوم القيامة، وهم من ذكر وأُنثى». وروي: «بطونُ غَرْثى» بإضافة «بطون» إلى «غرثى». والقمح: الحنطة. والجشع: أشدّ الحرْص. والمبطان: الذي لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل. فأما المبطن: فالضامر البطن؛ وأمّا البطين، فالعظيم البَطن لا من الأكل؛ وأمّا البِطن، فهو الّذي لا يهمّه إلّا بطنُه؛ وأمّا المبطون فالعليل البَطْن. وبطون غرثى: جائعة. والبِطْنة: الكِظّة؛ وذلك أن يمتلئ الإنسان من الطعام امتلاءً شديداً، وكان يقال: ينبغي للإنسان أن يجعل وعاء بطنه أثلاثاً: فثلثٌ للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنَّفس. والتقمّم: أكل الشاة ما بين يديْها بمقمّتها أي بشفتها؛ وكلّ ذي ظِلْف كالثور وغيره فهو ذو مقمّة. وتكترش من أعلافها: تملأ كِرشها من العَلف.

قوله: «أو أجرّ حبلَ الضلالة» منصوب بالعطف على «يشغلني»، وكذلك «أترك» ويقال: أجررتُه رَسَنَه، إذا أهملته. والاعتساف: السلوك في غير طريق واضح. والمتاهة: الأرض يُتاه فيها، أي يتحيّر.

والبيت من أبيات منسوبة إلى حاتم بن عبد الله الطائيّ الجواد[١].

الأَصْلُ:

وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: إِذَا كَانَ هٰذَا قُوتُ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ ٱلضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ ٱلْأَقْرَانِ، وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ. أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ ٱلْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً، وَٱلرَّوَاتِعَ ٱلْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً، وَالنَّابِتَاتِ العِذْيَةَ أَقْوَىٰ وَقُوداً، وَأَبْطَأُ خُمُوداً.

وَأَنَا مِنْ رَسُولِ ٱللهِ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ، وَالذِّرَاعِ مِنَ ٱلْعَضُدِ؛ وَٱللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ ٱلْعَرَبُ عَلَىٰ قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمْكَنَتِ ٱلْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا، وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ ٱلْأَرْضَ مِنْ هٰذَا الشَّخْصِ ٱلْمَعْكُوسِ، وَٱلْجِسْمِ ٱلْمَرْكُوسِ، حَتَّىٰ تَخْرُجَ ٱلْمَدَرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ ٱلْحَصِيدِ.

الشَّرْحُ:

الشّجرة البريّة: التي تنبت في البرّ الذي لا ماء فيه، فهي أصلب عوداً من الشجرة التي تنبت في الأرض النديّة، وإليه وقعت الإشارة بقوله: «والرواتع الخضرة أرقّ جلوداً».

ثم قال: «والنابتات العِذْيَة» التي تنبت عِذْياً، والعِذْي، بسكون الذال: الزرع لا يسقيه إلّا ماء المطر، وهو يكون أقلّ أخذاً من الماء من النبت سقياً، قال‌عليه‌السلام: إنها تكون أقوى وقوداً ممّا يشرب الماء السائح أو ماء الناضح، وأبطأ خموداً؛ وذلك لصلابة جِرْمها.

ثم قال: «وأنا من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله كالضوء من الضوء، والذراع من العضد»؛ وذلك لأنّ الضوء الأول يكون علّة في الضوء الثاني، ألا ترى أنّ الهواء المقابل للشمس يصير مضيئاً من الشمس! فهذا الضَّوْء هو الضوء الأول.

ثم إنه يقابل وجه الأرض فيضيء وجهُ الأرض منه، فالضوء الذي على وجه الأرض هو الضوء الثاني، وما دام الضوء الأول ضعيفاً فالضوء الثاني ضعيف؛ فإذا ازداد الجوّ إضاءة ازداد وجهُ الأرض إضاءة؛ لأنّ المعلول يتبع العلّة، فشبّه‌عليه‌السلام نفسه بالضوء الثاني، وشبّه

---

١. ديوان الحماسة بشرح المرزوقي ٤: ١٦٦٨.

رسولَ الله ﷺ بالضوء الأول، وشبّه منبع الأضواء والأنوار سبحانه وجلّت أسماؤه بالشمس الّتي توجب الضّوء الأوّل ثم الضوء الأول يوجب الضوء الثاني. وهاهنا نكتة، وهي أنّ الضوء الثاني يكون أيضاً علّة لضوءٍ ثالث.

وأمّا قوله: «والذراع من العَضُد»؛ فلأنّ الذراع فرع على العَضُد، والعضُد أصل، ألا ترى أنّه لا يمكن أن يكون ذراع إلّا إذا كان عضد، ويمكن أن يكون عضد لا ذراع له.

فشبّه ﷺ نفسه بالنسبة إلى رسول الله ﷺ بالذّراع الذي العضد أصله وأسّه، والمراد من هذا التشبيه الإبانة عن شدّة الامتزاج والاتّحاد والقرب بينهما؛ فإنّ الضوء الثاني شبيه بالضّوْء الأوّل، والذراع متّصل بالعَضُد اتصالاً بيّناً؛ وهذه المنزلة قد أعطاه إيّاها رسول الله ﷺ في مقامات كثيرة نحو قوله في قصة براءة: «قد أُمِرت ألّا يؤدى عنّي إلّا أنا أو رجل منّي»، وقوله: «لتنتهُنّ يا بني وَلِيعة، أو لأبعثنّ إليكم رجلاً منّي»، أو قال: «عديل نفسي»، وقد سمّاه الكتاب العزيز «نفسَه» فقال: ﴿**وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ**﴾[١]، وقد قال له: «لحمك مختلط بلحمي، ودمك مسُوط بدمي، وشبرك وشبري واحد».

فإن قلت أمّا قوله: «لو تظاهرت العرب عليّ لما وليت عنها» فمعلوم، فما الفائدة في قوله: «ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت إليها»؟ وهل هذا مما يفخر به الرؤساء ويعدّونه منقبة؛ وإنما المنقبة أن لو أمكنته الفرصة تجاوز وعفا!

قلت: غرضه أن يقرّر في نفوس أصحابه وغيرهم من العرب أنه يحارب على حقّ، وأنّ حربه لأهل الشام كالجهاد أيام رسول الله ﷺ، وأنّ من يجاهد الكفّار يجب عليه أن يُغْلِظ عليهم، ويستأصل شأفتهم.

قوله: «وسأجهد في أن أطهّر الأرض»، الإشارة في هذا إلى معاوية، سمّاه شخصاً معكوساً، وجسماً مركوساً، والمراد انعكاس عقيدته، وأنها ليست عقيدة هدىً، بل هي معاكسة للحقّ والصواب، وسمّاه مركوساً من قولهم: ارتكسَ في الضلال، والرّكس ردّ الشيء مقلوباً، قال تعالى: ﴿**واللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا**﴾[٢]، أي قلبهم وردّهم إلى كفرهم، فلما كان تاركاً للفطرة التي كلُّ مولود يُولد عليها، كان مرتكساً في ضلاله. ولما كان معاوية عنده ﷺ من أهل الشّقاوة، سمّاه معكوساً ومركوساً.

---

١. سورة آل عمران ٦١.

٢. سورة النساء ٨٨.

قوله: «حتى تخرج المدرة من بين حبّ الحصيد»، أي حتى يتطهّر الدين وأهله منه؛ وذلك لأنّ الزُرّاع يجتهدون في إخراج المدَر والحجر والشوْك والعَوْسج ونحو ذلك من بين الزرع كي تفسد منابته. فيفسد الحبّ الذي يخرج منه، فشبّه معاوية بالمدَر ونحوه من مُفْسِدات الحبّ، وشبّه الدّين بالحَبّ الذي هو ثمرة الزرع.

الأصْلُ:

ومن هذا الكتاب وهو آخره:

إِلَيْكِ عَنِّي يَا دُنْيَا، فَحَبْلُكِ عَلَىٰ غَارِبِكِ، قَدِ آنْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ، وَأَفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ، وَآجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ. أَيْنَ ٱلْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ! أَيْنَ ٱلْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ! ها هُمْ رَهَائِنُ ٱلْقُبُورِ، وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ. وَآللهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيّاً، وَقَالَباً حِسِّيّاً لَأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ آللهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالْأَمَانِي، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي ٱلْمَهَاوِي، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَىٰ التَّلَفِ، وَأَوْرَدْتِهِمْ مَوَارِدَ ٱلْبَلَاءِ، إِذْ لَا وِرْدَ وَلَا صَدَرَ!

هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكِ زَلِقَ، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ، وَمَنِ آزْوَرَّ عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ، وَالسَّالِمُ مِنْكِ لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ، وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ آنْسِلَاخُهُ[1].

الشّرْحُ:

إليك عنّي، أي ابعدي. وحبلُك على غاربك، كناية من كنايات الطلاق، أي اذهبي حيث شئت؛ لأنّ الناقة إذا أُلقي حبلها على غاربها فقد فُسح لها أن ترعى حيث شاءت، وتذهب

١. إليك عني: اذهبي عني وابعدي. إنسل: انتزع الشيء وأخرجه برفق. الحبائل: جمع حبالة وهي شبكة الصيّاد. المداحض: المساقط والمزالق. المداعب: جمع مدعبة، وهي المزاح. المهاوي: المهالك. وطأ الشيءَ: داسه. الدحض: المكان الذي لا تثبت عليه القدم فتزلّ. اللجج: معظم البحر وأعمق أماكنه. ازورّ: تنحّى ومال. المناخ: مبرك البعير. حان: اقترب. انسلاخه: انقضاؤه.

أين شاءت؛ لأنّه إنما يردّها زمامها، فإذا أُلقي حبلها على غاربها فقد أُهملت. والغارب: ما بين السَّنَام والعُنق. والمداحض: المزالق. وقيل: إنّ في النسخة التي بخط الرضيّ «غررتيهم» بالياء، وكذلك «فتنتيهم»، و «ألقيتيهم»، و «أسلمتيهم»، و «أوردتيهم»، والأحسن حذف الياء، وإذا كانت الرواية وردت بها فهي من إشباع الكسرة. ومضامين اللحود، أي الذين تضمنتهم، وفي الحديث نهى عن بيع المضامين والملاقيح، وهي ما في أصلاب الفحول وبطون الإناث.

ثم قال: لو كنتِ أيتها الدنيا إنساناً محسوساً، كالواحد من البَشَر؛ لأقمتُ عليك الحدّ كما فعلتِ بالناس. ثم شرح أفعالها فقال: منهم مَنْ غررتِ، ومنهم من ألقيتِ في مهاوي الضلال والكفر، ومنهم من أتلفتِ وأهلكتِ.

ثم قال: ومن وطئ دَحْضك زلق، مكان دَحْض أي مزلّة. ثم قال: لا يبالي مَنْ سلم منك إن ضاق مناخه، لا يبالي بالفقر، ولا بالمرض ولا بالحبوس والسجون وغير ذلك من أنواع المحن! لأنّ هذا كله حقير لا اعتداد به في جَنْب السلامة من فتنة الدنيا. قال: والدّنيا عند من قد سَلِم منها كيوم قرب انقضاؤه وفناؤه.

الأصْلُ:

أُعْزُبِي عَنِّي! فَوَآللهِ لَا أُذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِي، وَلَا أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِي. وَآيْمُ آللهِ -يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ آللهِ- لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهَشُّ مَعَهَا إِلَىٰ آلْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً؛ وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينُهَا، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعُهَا. أَتَمْتَلِئُ السَّائِمَةُ مِنْ رِعْيِهَا فَتَبْرُكَ؟ وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ؟ وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعَ! قَرَّتْ إِذاً عَيْنُهُ إِذَا آقْتَدَىٰ بَعْدَ السِّنِينَ آلْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ آلْهَامِلَةِ، وَالسَّائِمَةِ آلْمَرْعِيَّةِ!

طُوبَىٰ لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَىٰ رَبِّهَا فَرْضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمْضَهَا، حَتَّىٰ إِذَا غَلَبَ آلْكَرَىٰ عَلَيْهَا آفْتَرَشَتْ أَرْضَهَا، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا. فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ، وَهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ

رَبِّهِم شِفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ ٱسْتِغْفَارِهِم ذُنُوبُهُمْ، ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱللهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

فَاتَّقِ ٱللهَ يَا بْنَ حُنَيْفٍ، وَلْتَكْفُفْ أَقْرَاصُكَ؛ لِيَكُونَ مِنْ النَّارِ خَلَاصُكَ.

الشّرْحُ:

أعزبي: ابعدي، يقال عَزَب الرجل بالفتح، أي بَعُد. ولا أسلَس لك بفتح اللام، أي لا أنقاد لك، سلِس الرجل بالكسر يسلَس فهو بيّن السّلس، أي سهل قياده.

ثم حلف، واستثنى بالمشيئة أدباً كما أدّب الله تعالى رسولهﷺ ليروضنّ نفسه، أي يدرّ بها بالجوع، والجوع هو أصل الرياضة عند الحكماء وأرباب الطريقة.

قال: «حتى أهشّ إلى القُرْص»، أي إلى الرغيف وأقنع من الإدام بالملح. ونضب معينها: فنى ماؤها. ثم أنكر على نفسه فقال: أتشبع السائمة من رِعْيها ـ بكسر الراء، وهو الكلأ ـ والربيضة ـ جماعة من الغنم أو البقر تربض في أماكنها ـ وأنا أيضاً مثلها أشبع وأنام! لقد قرت عيني إذاً حيث أشابه البهائم بعد الجهاد والسبق والعبادة والعلم والجدّ في السنين المتطاولة.

قوله: «وعركت بجنبها بؤسها»، أي صبرت على بؤسها، والمشقّة التي تنالها، يقال: قد عرك فلان بجنبه الأذى أي أغضى عنه، وصبر عليه. «افترشت أرضها»، أي لم يكن لها فراش إلّا الأرض. «وتوسّدت كفّها»، لم يكن لها وسادة إلّا الكفّ. «وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم» لفظ الكتاب العزيز: **﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهمْ عن المضاجع﴾**[1]. وهمهمت: تكلّمت كلاماً خفياً. وتقشعت ذنوبهم: زالت وذهبت كما يتقشع السحاب.

قوله: «ولتكفف أقراصك»، إنما هو نهيٌ لابن حُنيف أن يكفّ عن الأقراص، وإن كان اللفظ يقتضي أن تكفّ الأقراص عن ابن حُنيف. وقد رواها قوم بالنصب، قالوا: «فاتق الله يابنَ حنيف ولتكفف أقراصَك، لترجو بها من النار خلاصك»، والتاء هاهنا للأمر عوض الياء، وهي لغة لا بأس بها، وقد قيل: إن رسول اللهﷺ قرأ: **﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحوا﴾**[2]، بالتاء.

---

١. سورة السجدة ١٦.

٢. سورة يونس ٥٨.



الأصْلُ :

ومن كتاب لهعليه السلام إلى بعض عمّاله

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَىٰ إِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ ٱلْأَثِيمِ، وَأَسُدُّ بِهِ لَهَاةَ ٱلثَّغْرِ ٱلْمَخُوفِ. فَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَىٰ مَا أَهَمَّكَ، وَٱخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ مِنَ اللِّينِ، وَٱرْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ، وَٱعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشِّدَّةُ. وَٱخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَٱبْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، وَٱلإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَتَّىٰ لَا يَطْمَعَ ٱلْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ. وَالسَّلَامُ[١].

الشّرْحُ :

قوله: «وآس بينهم في اللحظة»، أي اجعلهم أُسوة، وروي: «وساوِ بينهم في اللحظة»؛ والمعنى واحد. وأستظهِرُ به: اجعلُه كالظَّهر. والنّخوة: الكبرياء. والأثيم: المخطئ المذنب. وقوله: «وأسُدّ به لَهاة الثّغر»، استعارة حسنة.

والضِّغث في الأصل: قبضة حشيش مختلط يابسُها بشيء من الرّطْب، ومنه: أضغاث الأحلام، للرؤيا المختلطة التي لا يصحّ تأويلها، فاستعار اللفظة هاهنا؛ والمراد امزُج الشدّة بشيء من اللين فاجعلهما كالضِّغْث، وقال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً﴾[٢].

قوله: «فاعتزم بالشدّة»، أي إذا جدّ بك الجِدّ فدَع اللّين، فإنّ في حال الشدّة لا تُغنِي إلّا الشدّة.

---

١. استظهِرُ به: استعين. أقمع: أقهر وأكسر. اللّهاة: لحمة مدلّاة في سقف الفم على باب الحلق. الثغر: ما يمكن أن يهجم منه العدو. آسي: سوىّ بينهم وأعدل.

٢. سورة ص ٤٤.

قوله: «حتى لا يطمع العظماء في حَيْفك»، أي حتّى لا يطمع العظماء في أن تمالِئهم على حَيْف الضعفاء، وقد تقدّم مثل هذا فيما سبق[1].



الأَصْلُ:

ومن وصية له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام

لما ضربه ابن ملجم لعنه الله

أُوصِيكُمَا بِتَقْوَىٰ ٱللهِ، وَأَلَّا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا، وَلَا تَأْسَفَا عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا، وَقُولَا بِالْحَقِّ، وَٱعْمَلَا لِلْأَجْرِ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً.

أُوصِيكُمَا، وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي، بِتَقْوَىٰ ٱللهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا صلى الله عليه وآله يَقُولُ: «صَلَاحُ ذَاتِ ٱلْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ».

ٱللهَ ٱللهَ فِي ٱلْأَيْتَامِ، فَلَا تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ، وَلَا تُضَيِّعُوا بِحَضْرَتِكُمْ.

وَٱللهَ ٱللهَ فِي جِيرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ؛ مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّىٰ ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ.

وَٱللهَ ٱللهَ فِي ٱلْقُرْآنِ، لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ.

وَٱللهَ ٱللهَ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ.

وَٱللهَ ٱللهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لَا تُخَلُّوهُ مَا بَقِيتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا.

وَٱللهَ ٱللهَ فِي ٱلْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ.

وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ؛ وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ، لَا تَتْرُكُوا ٱلْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ

---

١. أوّل الرسالة (٢٧).

وَالنَّهْيَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ؛ فَيُوَلَّىٰ عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ.

ثمّ قال:

يَا بَنِي عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ، لَا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ ٱلْمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ، قُتِلَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ! أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي.

ٱنْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هٰذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، وَلَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَٱلْمُثْلَةَ وَلَوْ بِٱلْكَلْبِ ٱلْعَقُورِ».

الشّرْحُ:

روي: «واعملا للآخرة»، وروي «فلا تغيّروا أفواهكم»؛ يقول: لا تطلبا الدّنيا وإن طلبتْكما؛ فإذا كان مَنْ تطلبه الدنيا منهيّاً عن طلبها فمن لا تطلبه يكون منهياً عن طلبها بالطريق الأولى.

ثم قال: «ولا تأسفا على شيء منها زُوِي عنكما»، أي قبض. وروي: «ولا تأسيا»؛ وكلاهما بمعنى واحد، أي لا تحزنا، وهذا من قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾[1].

قوله: «صلاح ذات البين»، وذات هاهنا زائدة مقحمة. قوله: «فلا تُغبّوا أفواههم»، أي لا تجيعوهم بأن تطعموهم غِبّاً، ومن روى: «فلا تغيّروا أفواههم»؛ فذاك لأنّ الجائع يتغيّر فمه. «ولا تُضَيِّعُوا بحضْرتكم»، أي لا تضيّعوهم، فالنهي في الظاهر للأيتام؛ وفي المعنى للأوصياء والأولياء، والظاهر أنه لا يعني الأيتام الذين لهم مال تحت أيدي أوصيائهم؛ لأنّ أولئك الأوصياء محرّم عليهم أن يصيبوا من أموال اليتامى إلّا القَدْر النَّزْر جدّاً عند الضرورة ثم يقضونه مع التمكّن، ومَنْ هذه حالُه لا يحسن أن يقال له: لا تغيّروا أفواه أيتامكم، وإنما الأظهرُ أنّه يعني الّذين مات آباؤهم وهم فقراء يتعيّن مواساتهم ويقبح القعود عنهم، واليُتْم في النّاس من قِبَل الأبِ، وفي البهائم من قِبَل الأمّ؛ وجُمع يتيم على أيتام، كما قالوا: شريف وأشراف. وحكى أبو عَليّ في التّكْملة: «كميء وأكماء»، ولا يسمّى الصبيّ يتيماً إلّا إذا كان

---

١. سورة الحديد ٢٣.

دون البلوغ وإذا بلغ زالَ اسمُ اليتيم عنه. واليتامى أحد الأصناف الّذين عُيّنوا في الخُمس بنصّ الكتاب العزيز.

ثم أوصى بالجيران، واللفظ الذي ذكرهﷺ قد ورد مرفوعاً في رواية عبد الله بن عمر لمّا ذبح شاة، فقال: أهْدَيتُم لجارنا اليهوديّ؟ فإنّي سمعت رسولَ اللهﷺ يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه».

قولهﷺ: «والله الله في القرآن»، أمرهما بالمسارعة إلى العمل به، ونهاهما أن يسبقهما غيرُهما إلى ذلك، ثم أمرهما بالصلاة والحجّ. وشدّد الوَصاة في الحجّ، فقال: «فإنّهُ إن تُرِك لم تناظروا»، أي يتعجّل الانتقام منكم.

فأما المثلة فمنهيّ عنها، أمر رسول اللهﷺ أن يمثّل بهبّار بن الأسود؛ لانه روّع زينب حتّى أجهضتْ، ثم نهى عن ذلك، وقال: لا مُثْلة، المثلة حرام.



الأصْلُ:

ومن كتاب لهﷺ إلى معاوية

فإِنَّ ٱلْبَغْيَ وَالزُّورَ يُوتِغَانِ ٱلْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيُبْدِيَانِ خَلَلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ، وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْراً بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ فَتَأَلَّوْا عَلَىٰ ٱللهِ فَأَكْذَبَهُمْ، فَاحْذَرْ يَوْماً يَغْتَبِطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَاقِبَةَ عَمَلِهِ، وَيَنْدَمُ مَنْ أَمْكَنَ الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ فَلَمْ يُجَاذِبْهُ، وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَىٰ حُكْمِ ٱلْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجَبْنَا، وَلَكِنَّا أَجَبْنَا ٱلْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ، وَالسَّلَامُ[1].

---

١. البغي: الظلم. الزور: خلاف الحق. أدرك الشيء: إذا لحقه. فات: مضى. رام: طلب.

الشّرْحُ :

يوتغان : يهلكان ؛ والوتَغ بالتحريك : الهلاك ؛ وقد وتغ يَوْتَغ وتَغاً، أي أثِم وهلك ، وأوتغه الله أهلكه الله ، وأوتغ فلان دينه بالإثم.

قوله : «فتألّوْا على الله» أي حلفوا من الأليّة وهي اليمين ، وفي الحديث : «من تألّى على الله أكذبه الله» ، ومعناه : مَنْ أقسم تجبّراً واقتداراً : لأفعلنّ كذا ، أكذبه الله ، ولم يبلغ أمله .

وقد روي «تأوّلوا على الله» ، أي حَرَّفُوا الكلم عن مواضعه ، وتعلّقوا بشبهة في تأويل القرآن انتصاراً لمذاهبهم وآرائهم ، فأكذبهم الله بأن أظهر للعقلاء فسادَ تأويلاتهم والأوّل أصحّ . ويغتبط فيه : يفْرح ويُسّر ، والغِبطة : السرور ، روي : «يغبط فيه» ، أي يتمنّى مثلُ حاله هذه .

قوله : «ويندم من أمكن الشيطان من قياده فلم يجاذبه» الياء التي هي حرف المضارعة عائدة على المكلف الذي أمكن الشيطان من قياده . يقول : إذا لم يجاذب الشيطان من قياده فإنه يندم ؛ فأما مَنْ جاذَبَه قيادَه فقد قام بما عليه .

ومثله قوله : «ولسنا إياك أجَبْنا» قوله : «والله ما حكّمت مخلوقاً وإنما حكّمت القرآن» ومعنى «مخلوقاً» : بشراً لا محدِثاً .



الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضاً

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا ، وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا ، وَلَهَجاً بِهَا ، وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا ، وَمِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ ، وَنَقْضُ مَا أَبْرَمَ ! وَلَوِ آعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَىٰ ، حَفِظْتَ مَا بَقِيَ ، وَالسَّلَامُ.

الشّرْحُ :

هذا كما قيل في المثل : صاحب الدّنيا كشارب ماء البحر ؛ كلّما ازداد شرباً ازداد عطشاً.

وقد ذكر نصر بن مزاحم هذا الكتاب وقال :

إنّ أمير المؤمنينعليه السلام كتبه إلى عمرو بن العاص ، وزاد فيه زيادةً لم يذكرها الرضيّ : « أمّا بعد ؛ فإنّ الدنيا مشغلة عن الآخرة ، وصاحبها منهوم عليها ، لم يصب شيئاً منها قطّ إلّا فتَحت عليه حرصاً ، وأدخلت عليه مؤنة تزيده رغبةً فيها ؛ ولن يستغنى صاحبُها بما نال عمّا لم يدرك ، ومن وراء ذلك فراق ما جَمَع ؛ والسعيد مَنْ وُعِظ بغيره ، فلا تُحْبِط أجرك أبا عبد الله ولا تشرك معاوية في باطله ؛ فإن معاوية غمصَ الناس ، وسفَّه الحق. والسلام ».

قال نصر : وهذا أوّل كتاب كتبه عليّعليه السلام إلى عمرو بن العاص ، فكتب إليه عمرو جوابه :

أمّا بعد ، فإنّ الذي فيه صلاحنا ، وألفة ذات بيننا ، أن تُنِيب إلى الحقّ ، وأن تجيب إلى ما ندعوكم إليه من الشورى ؛ فصبَر الرجل منّا نفسَه على الحقّ ، وعذَرهُ النّاس بالمحاجزة. والسلام.

قال نصر : فكتب عليٌّعليه السلام إلى عمرو بن العاص بعد ذلك كتاباً غليظاً . وهو الذي ضرب مَثَله فيه بالكلْبِ يتبع الرجل ، وهو مذكور في «نهج البلاغة»[1] . واللَّهَج : الحرص.

ومعنى قولهعليه السلام : «لو اعتبرت بما مضى حفِظْت ما بقِي» ، أي لو اعتبرتَ بما مضَى من عمرك لحفظْت باقيَه أن تنفقه في الضّلال وطلب الدنيا وتضيّعه.



الأصْلُ :

ومن كتاب لهعليه السلام إلى أمرائه على الجيوش

مِنْ عَبْدِ ٱللهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ رفعة إِلَىٰ أَصْحَابِ ٱلْمَسَالِحِ.

١. الكتاب رقم (٣٩).

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقّاً عَلَىٰ ٱلْوَالِي أَن لا يُغَيِّرَهُ عَلَىٰ رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ، وَلَا طَوْلٌ خُصَّ بِهِ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ ٱللهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوّاً مِنْ عِبَادِهِ، وَعَطْفاً عَلَىٰ إِخْوَانِهِ.

أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرّاً إِلَّا فِي حَرْبٍ، وَلَا أَطْوِيَ دُونَكُمْ أَمْراً إِلَّا فِي حُكْمٍ، وَلَا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقّاً عَنْ مَحَلِّهِ، وَلَا أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي ٱلْحَقِّ سَوَاءً، فَإِذَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ وَجَبَتْ للهِ عَلَيْكُمْ النِّعْمَةُ، وَلِي عَلَيْكُمْ الطَّاعَةُ، وَأَلَّا تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوَةٍ، وَلَا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ، وَأَنْ تَخُوضُوا ٱلْغَمَرَاتِ إِلَىٰ ٱلْحَقِّ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَىٰ ذٰلِكَ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنْ ٱعْوَجَّ مِنْكُمْ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ ٱلْعُقُوبَةَ، وَلَا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً.

فَخُذُوا هٰذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ ٱللهُ بِهِ أَمْرَكُمْ. وَالسَّلَامُ.

الشّرْحُ:

أصحابُ المسَالح: جماعات تكون بالثّغر يحمون البَيْضة. والمسْلَحة هي الثّغر، كالمرغبة، قال: يجب على الوالي ألَّا يتطاول على الرعيّة بولايته، وما خُصّ به عليهم من الطَّوْل وهو الفضل؛ وأن تكون تلك الزيادة التي أُعطِيها سبباً لزيادة دنوّه من الرعيّة وحنوّه عليهم. ثم قال: «لكم عندي ألَّا أحتجِز دونكم بسرٍّ»، أي لا أستتر. قال: «إلَّا في حرب»، وذلك لأنّ الحرب يحمَد فيها طيّ الأسرار، والحرب خُدعة. «ولا أطوِي دونكم أمراً إلَّا في حُكْـم»، أي أظهركم على كلّ ما في نفسي مما يحسن أن أظهرَكم عليه؛ فأمّا أحكام الشريعة والقضاء على أحَد الخَصْمين فإنّي لا أعلمكم به قبل وقوعه؛ كيْلا تـفسد القـضيّة بأن يـحتال ذلك الشخص لصرْف الحكْم عنه.

ثم ذكر أنّه لا يؤخّر لهم حقاً عن محلّه، يعني العطاء، وأنّه لا يقف دون مقطعه، والحق هاهنا غير العطاء، بل الحكـم، أي مـتى تـعيّنَ الحكْـم حكَـمْتُ بـه وقـطعت ولا أقـف، ولا أتحبَّس.

ولمّا استوفى ما شرط لهم قال: فإذا أنا وَفّيت بما شرطت على نفسي وجبتْ لله عليكم النّعمة ولي عليكم الطاعة. ثم أخذ في الاشتراط عليهم كما شرط لهم، فقال: ولي عليكم ألَّا

تنكصوا عن دعوة، أي لا تقاعسُوا عن الجهاد إذا دعوتُكم إليه، ولا تفرّطوا في صلاح، أي إذا أمكنتْكم فرصة، أو رأيتم مصلحة في حرب العدوّ أو حماية الثّغر، فلا تفرّطوا فيها فتفوت. وأن تخوضوا الغمراتِ إلى الحقّ، أي تكابدوا المشاقّ العظيمة؛ ولا يهولنّكم خوضُها إلى الحقّ.

ثم توعّدهم إن لم يفعلوا ذلك، ثم قال: فخذوا هذا من أمرائكم؛ ليس يعني به أنّ على هؤلاء أصحاب المسالح أمراء من قِبَله عليه السلام كالواسطة بينهم وبينه، بل من أمرائكم؛ يعني منّي وممّن يقوم في الخلافة مقامي بعدي؛ لأنّه لو كان الغرض هو الأوّل لما كان محلهم عنده أن يقول: «ألّا أحتجز دونكم بسرٍّ ولا أطوى دونكم أمراً»؛ لأنّ محلّ من كان بتلك الصفة دون هذا.



الأصْلُ:

ومن كتاب له عليه السلام إلى عماله على الخراج

مِنْ عَبْدِ ٱللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ أَصْحَابِ ٱلْخَرَاجِ.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ سَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا. وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ يَسِيرٌ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَىٰ ٱللهُ عَنْهُ مِنَ ٱلْبَغْيِ وَٱلْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ، لَكَانَ فِي ثَوَابِ ٱجْتِنَابِهِ مَالَا عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ، فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَٱصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلَاءُ ٱلْأُمَّةِ، وَسُفَرَاءُ ٱلْأَئِمَّةِ، وَلَا تُحْشِمُوا أَحَداً عَنْ حَاجَتِهِ، وَلَا تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ، وَلَا تَبِيعُنَّ لِلنَّاس فِي ٱلْخَرَاجِ كِسْوَةَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ، وَلَا دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا، وَلَا عَبْداً، وَلَا تَضْرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً لِمَكَانِ دِرْهَمٍ، وَلَا تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاس، مُصَلٍّ وَلَا مُعَاهَدٍ، إِلَّا أَنْ

تَجِدُوا فَرَساً أَوْ سِلَاحاً يُعْدَىٰ بِهِ عَلَىٰ أَهْلِ ٱلْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذٰلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ ٱلْإِسْلَامِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ.

وَلَا تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلَا ٱلْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ، وَلَا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَلَا دِينَ ٱللهِ قُوَّةً.

وَأَبْلُوا فِي سَبيلِ ٱللهِ مَا ٱسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ ٱصْطَنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْعَظِيمِ.

الشّرْحُ:

يقول: لو قدّرنا أنّ القبائح العقلية كالظلم والبغي لا عقابَ على فعلها، بل في تركها ثواب فقط؛ لم يكن الإنسان معذوراً إذا فرّط في ذلك الترك؛ لأنّه يكون قد حرَم نفسَه نفعاً هو قادر على إيصالها إليه.

قوله: «ولا تُحشموا أحداً»، أي لا تغضبوا طالب حاجة فتقطعوه عن طلبها، أحشمتُ زيداً، وجاء «حَشَمْته»، وهو أن يجلس إليك فتغضبه وتؤذيه. وقال ابن الأعرابيّ: حشمتُه: أخجلته، وأحشمته: أغضبته، والاسم الحِشْمة، وهي الاستحياء والغضب.

ثم نهاهم أن يبيعوا لأرباب الخراج ما هو من ضروريّاتهم كثياب أبدانهم وكدَابّةٍ يعتمِلون عليها، نحو بقر الفلاحة، وكعبْدٍ لابدّ للإنسان منه يخدُمه، ويسعى بين يديه.

ثم نهاهم عن ضرب الأبشار لاستيفاء الخراج.

ثم نهاهم أن يعرِضُوا لمال أحدٍ من المسلمين أو من المعاهَدِين؛ المعاهد هاهنا: هو الذّميّ أو مَنْ يدخل دار الإسلام من بلاد الشرك على عهد، إمّا لأداء رسالة، أو لتجارة؛ ونحو ذلك، ثم يعود إلى بلاده.

ثم نهاهم عن الظّلم وأخذ أموال النّاس على طريق المصادرة والتأويل الباطل؛ قال: إلّا أن تخافوا غائلةَ المعاهَدين، بأن تجدوا عندهم خيولاً أو سلاحاً، وتظنّوا منهم وثبة على بلد من بلاد المسلمين، فإنه لا يجوز الإغضاء عن ذلك حينئذٍ.

قوله: «وأبْلُوا في سبيل الله»، أي اصطنعوا من المعروف في سبيل الله ما استوجب عليكم، يقال: هو يبلوه معروفاً، أي يصنعه إليه. قوله ﷺ: «قد اصطنع عندنا وعندكم أن

نشكره»، أي لأنْ نشكره، بلام التعليل وحذفها، أي أحسن إلينا لنشكره، وحذفها أكثر نحو قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾[1].



الأَصْلُ:

ومن كتاب لهعليه السلام إلى أمراء البلاد في معنى الصلاة

أَمَّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بَالنَّاس الظُّهْرَ حَتَّىٰ تَفِيءَ الشَّمْسُ مِنْ مَرْبِضِ ٱلْعَنْزِ، وَصَلُّوا بِهِمُ ٱلْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْضَاءُ حَيَّةٌ فِي عُضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرْسَخَانِ، وَصَلُّوا بِهِمُ ٱلْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، وَيَدْفَعُ ٱلْحَاجُّ إِلَىٰ مِنىً، وَصَلُّوا بِهِمُ ٱلْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَىٰ الشَّفَقُ إِلَىٰ ثُلُثِ اللَّيْلِ، وَصَلُّوا بِهِمُ ٱلْغَدَاةَ والرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ، وَصَلُّوا بِهِمْ صَلَاةَ أَضْعَفِهِمْ؛ وَلَا تَكُونُوا فَتَّانِينَ[2].

الشَّرْحُ:

فأما قولهعليه السلام: «والرجل يعرف وجه صاحبه»؛ فمعناه الإسفار. وقولهعليه السلام: «وصلُّوا بهم صلاة أضعفِهم»، أيْ لا تطيلوا بالقراءة الكثيرة والدّعوات الطويلة.

ثم قال: «ولا تكونوا فتّانين»، أي لا تفتِنوا الناس بإتعابهم وإدخال المشقّة عليهم بإطالة الصلاة وإفساد صلاة المأمومين بما يفعلونه من أفعال مخصوصة، نحو أن يُحدِث الإمام فيستخلف فيصلّي الناس خلف خليفته، فإن ذلك لا يجوز على أحد قولي الشافعيّ؛ ونحو أن يُطيل الإمام الركوع والسجود، فيظنّ المأمومون أنّه قد رفع فيرفعون أو يسبقونه بأركان

---

١. سورة المائدة ٨٠.

٢. تفيء: ترجع. مربض العنز: مرقدها. يدفع الحاج: يفيض من عرفات أي يخرج منها. توارى: اختفى. الشفق: حمرة الأُفق بعد غروب الشمس.

كثيرة؛ ونحو ذلك من مسائل يذكُرُها الفقهاء في كتبهم.

واعلم أنّ أمير المؤمنينﷺ إنما بدأ بصلاة الظهر؛ لأنها أوّلُ فريضة افترضت على المكلّفين من الصلاة على ما كان يذهب إليهﷺ؛ وإلى ذلك تذهب الإماميّة[1]، وينصر قولَهم تسميتها بالأُولى؛ ولهذا بدأ أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بذكرها قبل غيرها.



٥٣

الأصْلُ:

ومن كتاب لهﷺ

كتبه للأشتر النخعي[2]ﷺ لمّا ولّاه على مصر وأعمالها

حين اضطرب أمر أميرها محمّد بن أبي بكر، وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن.

بِسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرّحيم

هٰذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ ٱللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ، مَالِكَ بْنَ ٱلْحَارِثِ ٱلْأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ: جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَٱسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا.

---

١. كنز العرفان، للمقداد السيوري ١:٦٢.

٢. هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي المعروف بالأشتر. شهد اليرموك والقادسية. كان خطيب قومه وفارسهم. ومن زعماء العرب وأكياسهم. من رؤوس الشيعة وأعيانهم، الموالين لأهل البيتﷺ ومخلصيهم. شهد مع أمير المؤمنينﷺ الجمل وصفين، وأبلىٰ فيهما بلاءً عظيماً. عيّنه الامامﷺ والياً علىٰ مصر. استشهد في طريقه إليها بيد الغدر الأموية بأمر من معاوية. قال فيه الامامﷺ: «كان لنا ناصحاً وعلىٰ عدونا شديداً». وقالﷺ حينما وصله نبأ استشهاده: «إنا لله وإنا إليه راجعون... اللهم إني احتسبه عندك فإن موته من مصائب الدهر»، وقالﷺ: «لله درّ مالك، وما مالك! لو كان من جبل لكان فنداً، ولو كان من حجر لكان صلداً ...».

وهذه الرسالة، تعرف بعهد الأشتر، وقد أخذت هذه الرسالة حظّاً وافراً من الاهتمام قديماً وحديثاً شرحاً وترجمة إلىٰ كثير من اللغات.

أَمَرَهُ بِتَقْوَىٰ ٱللهِ، وَإِيثَارِ طَاعَتِهِ، وَٱتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ: مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ، الَّتِي لَا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا، وَلَا يَشْقَىٰ إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ ٱللهَ سُبْحَانَهُ بِيَدِهِ وَقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ، جَلَّ ٱسْمُهُ، قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ. وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَيَزَعَهَا عِنْدَ ٱلْجَمَحَاتِ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلَّا مَا رَحِمَ ٱللهُ.

ثُمَّ ٱعْلَمْ يَا مَالِكُ، أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَىٰ بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ ٱلْوُلَاةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي ٱللهُ لَهُمْ عَلَىٰ أَلْسُنِ عِبَادِهِ. فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ ٱلْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ ٱلْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ.

الشّرْحُ:

نصرة الله باليد: الجهاد بالسيف، وبالقلب: الاعتقاد للحقّ، وباللسان: قولُ الحقّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد تكفَّل الله بنُصرة من نَصَره؛ لأنّه تعالى قال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾[1]. والجمَحات: منازعة النَّفس إلى شهواتها ومآربها، ونزعها بكفّها.

ثم قال له: قد كنت تسمع أخبار الولاة، وتعيب قوماً وتمدح قوماً، وسيقول الناس في إمارتك الآن نحو ما كنت تقول في الأُمراء؛ فاحذر أن تعاب وتذمّ كما كنت تعيب وتذمّ مَنْ يستحقّ الذم. ثم قال: إنما يستدلّ على الصالحين بما يكثر سماعه من ألْسنة النّاس بمدحهم والثناء عليهم؛ وكذلك يستدلّ على الفاسقين بمثل ذلك. وكان يقال: ألسنة الرعيّة أقلام الحقّ سبحانه إلى الملوك. ثم أمره أن يشحّ بنفسه، وفسّر له الشحّ ما هو؟ فقال: أن تنتصف منها فيما أحبّت وكرهت، أي لا تمكنها من الاسترسال في الشهوات، وكُنْ أميراً عليها،

---

١. سورة الحج ٤٠.

ومسيطراً وقامعاً لها من التهوّر والانهماك.

فإن قلت: هذا معنى قوله: «فيما أحببْتَ»، فما معنى قوله: «وكرهت»؟

قلت: لأنها تكره الصلاة والصوم وغيرهما من العبادات الشرعية ومن الواجبات العقلية، وكما يجب أن يكون الإنسان مهيمناً عليها في طرف الفعل يجب أن يكون مهيمناً عليها في طرف التَّرْك.

الأصْلُ:

وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَٱلْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ؛ وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ؛ وإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي ٱلْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ ٱلعِلَلُ، وَيُؤْتَىٰ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ فِي ٱلْعَمْدِ وَٱلْخَطإِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ، مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَىٰ أَنْ يُعْطِيَكَ ٱللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي ٱلْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَٱللهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ! وَقَدِ ٱسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ، وَٱبْتَلَاكَ بِهِمْ.

وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ ٱللهِ. فَإِنَّهُ لَا يَدَيْ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلَا غِنَىٰ بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَىٰ عَفْوٍ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَىٰ بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً. وَلَا تَقُولَنَّ: إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذٰلِكَ إِدْغَالٌ فِي ٱلْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ ٱلْغِيَرِ. وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً، فانْظُرْ إِلَىٰ عِظَمِ مُلْكِ ٱللهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَىٰ مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذٰلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ.

إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ ٱللهِ فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ ٱللهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ.

الشَّرْحُ :

أشعِر قلبَك الرحمة، أي اجعلها كالشِّعار له، وهو الثّوب الملاصق للجسد؛ قال: لأنّ الرعيّة إمّا أخوك في الدّين، أو إنسان مثلك تقضي رقّة الجنسيّة وطبع البشريّة الرحمةَ له.

قوله: «ويؤتى على أيديهم»، مثْل قولك: «ويؤخذ على أيديهم»، أي يهذّبون ويثقّفون، يقال: خذ على يد هذا السّفيه، وقد حجَر الحاكم على فلان، وأخذ على يدِه.

ثم قال: «فنسْبتُهم إليك كنسبتك إلى الله تعالى»، وكما تحب أن يصفح الله عنك ينبغي أن تصفح أنت عنهم. قوله: «لا تنصبن نفسَك لحرْب الله»، أي لا تبارزْه بالمعاصي. فإنه لا يدي لك بنقمته؛ اللام مُقحمة، والمراد الإضافة، ونحوه قولهم: لا أبا لك. «ولا تقولنّ إني مُؤَمّر»، أي لا تقل: إني أمير ووالٍ آمر بالشيء فأُطاع. والإدغال: الإفساد. ومنهكة للدين: ضعف وسقم.

ثم أمره عند حدوث الأُبّهة والعظمة عنده لأجل الرئاسة والإمْرَة أن يذكر عظمةَ الله تعالى وقدرتَه على إعدامه وإيجاده، وإماتته وإحيائه؛ فإنّ تذكّر ذلك يطامِن من غُلوائه، أي يغضّ من تعظّمه وتكبّره، ويطأطئ منه. والغَرْب: حدّ السيف، ويستعار للسطوة والسرعة في البطش والفَتْك. «ويُفِيءُ»، أي يرجع إليك بما بعد عنك من عَقْلك، وحرْف المضارعة مضموم؛ لأنّه من «أفاء». ومساماة الله تعالى: مباراته في السموّ وهو العلوّ.

الأصْلُ :

أَنْصِفِ ٱللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوىً مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمْ! وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ ٱللهِ كَانَ ٱللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ ٱللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ للهِ حَرْباً حَتَّىٰ يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ. وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَىٰ إِلَىٰ تَغْيِيرِ نِعْمَةِ ٱللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَىٰ ظُلْمٍ؛ فَإِنَّ ٱللهَ يَسْمَعُ دَعْوَةَ ٱلْمُضْطَهَدِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

وَلْيَكُنْ أَحَبَّ ٱلْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي ٱلْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي ٱلْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَىٰ الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ ٱلْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَىٰ ٱلْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ ٱلْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ

رِضَىٰ ٱلْعَامَّةِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَىٰ ٱلْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي ٱلْبَلَاءِ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ ٱلْإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ ٱلْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ ٱلْخَاصَّةِ. وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَٱلْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ: ٱلْعَامَّةُ مِنَ ٱلْأُمَّةِ؛ فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ.

الشّرْحُ:

قال له: أنصِف اللهَ، أي قُم له بما فَرَض عليك من العبادة والواجبات العقليّة والسمعيّة. ثمّ قال: وأنصِف الناس من نفسك ومن ولَدِك وخاصّة أهلِك ومَن تحبّه وتميل إليه من رعيّتك، فمتى لم تفعل ذلك كنتَ ظالماً.

ثمّ نهاه عن الظّلم، وأكّد الوِصاية عليه في ذلك. ثمّ عرّفه أنّ قانون الإمارة الاجتهاد في رضا العامّة، فإنّه لا مبالاة بسُخْط خاصّة الأمير مع رضا العامّة. فأمّا إذا سخِطَت العامّة لم ينفعه رضا الخاصّة، وذلك لأنّ هؤلاء (الخاصة) عنهم غنىً، ولهم بدل، والعامّة لا غنىً عنهم ولا بدل منهم، ولأنّهم إذا شَغَبوا عليه كانوا كالبحر إذا هاج واضطرب، فلا يقاومه أحد، وليس الخاصّة كذلك.

ثمّ قال عليه السلام ـ ونِعمَ ما قال ـ: ليس شيءٌ أقلَّ نفعاً، ولا أكثرَ ضرراً على الوالي من خواصّه أيّام الولاية؛ لأنّهم يثقّلون عليه بالحاجات، والمسائل والشّفاعات، فإذا عُزِل هَجَروه ورَفَضوه حتّى لو لقوه في الطّريق لم يسلّموا عليه. والصِّغو، بالكسر والفتح، والصَّغا مقصور: الميْل.

الأصْلُ:

وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ، وَأَشْنَأُهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَائِبِ النَّاسِ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً ٱلْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَٱللهُ يَحْكُمُ عَلَىٰ مَا غَابَ عَنْكَ، فَاسْتُرِ ٱلْعَوْرَةَ مَا ٱسْتَطَعْتَ؛ يَسْتُرِ ٱللهُ

مِنْكَ ما تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ.

أَطْلِقْ عَنِ النَّاس عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ، وَٱقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ، وَتَغَابَ عَنْ كلِّ مَا لَا يَضِحُ لَكَ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَىٰ تَصْدِيقِ سَاعٍ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ.

وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ ٱلْفَضْلِ، وَيَعِدُكَ ٱلْفَقْرَ، وَلَا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ ٱلْأُمُورِ، وَلَا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ ٱلْبُخْلَ وَٱلْجُبْنَ وَٱلْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّىٰ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ.

الشّرْحُ:

أشنَأُهم عندك، أبغَضُهم إليك. وتَغابَ: تغافَلْ، يقال: تَغابى فلانٌ عن كذا. ويَضِح: يَظهَر، والماضي وَضَح.

فأمّا قوله ﷺ: «ولا تعجلنّ إلى تصديق ساع»، فقد ورد في هذا المعنى كلامٌ حَسَن، قال ذو الرّياستين: قبول السِّعاية شرّ من السعاية؛ لأنّ السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس مَنْ دلّ على شيء كمن قبله وأجازه.

قوله ﷺ: «ولا تُدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفَضْل، ويعدك الفقر»، مأخوذٌ من قول الله تعالى: **﴿الشَّيطانُ يَعِدُكم الفقرَ ويأمُرُكُمْ بالْفَحْشَاءِ واللهُ يَعِدُكُمْ مَغفرةً منهُ وفَضْلاً﴾**؛ قال المفسّرون: الفَحْشاء هاهنا البُخْل؛ ومعنى «يعدكم الفقر»، يخيِّل إليكم أنكم إن سمحتم بأموالكم افتقرتم فيخوّفكم فتخافون فتبخلون. «فإنّ البخلَ والجبن والحرص غرائز شتّى يجمعها سوء الظن بالله»؛ كلامٌ شريف عالٍ على كلام الحكماء، يقول: إن بينها قَدْراً مشترَكاً وإن كانت غرائز وطبائع مختلفة، وذلك القدْر المشترك هو سوءُ الظنّ بالله، لأنّ الجبان يقول في نفسه: إن أقدمتُ قُتِلت، والبخيلَ يقول: إن سمحتُ وأنفقتُ افتقرتُ، والحريصَ يقول: إن لم أجدَّ وأجتهد وأدأب فاتنى ما أروم؛ وكلّ هذه الأُمور ترجع إلى سوء الظنّ بالله، ولو أحسن الظنّ الإنسان بالله وكانَ يقينه صادقاً لعلم أنّ الأجل مقدّر، وأنّ الرزق مقدَّر، وأنّ الغنى والفقر مقدَّران، وأنّه لا يكون من ذلك إلّا ما قَضَى الله تعالى كونه.

الأَصْلُ :

إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، وَمَنْ شَرَكَهُمْ فِي ٱلْآثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ ٱلْأَثَمَةِ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ ٱلْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَآثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَىٰ ظُلْمِهِ، وَلَا آثِماً عَلَىٰ إِثْمِهِ؛ أُولٰئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَىٰ عَلَيْكَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً. فَاتَّخِذْ أُولٰئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ، ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ ٱلْحَقِّ لَكَ، وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ ٱللهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعاً ذٰلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ[1].

الشَّرْحُ :

نهاه عليه السلام ألّا يتّخذ بطانة قد كانوا من قبلُ بطانةً للظَّلمة، وذلك لأنّ الظلم وتحسينه قد صار ملَكةً ثابتة في أنفسهم، فبعيد أن يمكنهم الخلوّ منها إذ قد صارت كالخُلُق الغريزيّ اللّازم لتكرارها وصيرورتها عادةً، فقد جاءت النصوص في الكتاب والسنّة بتحريم معاونة الظلمة ومساعَدتهم، وتحريم الاستعانة بهم، فإنّ من استعان بهم كان معيناً لهم، قال تعالى: **﴿وما كُنتُ متَّخِذَ المُضِلِّين عَضُداً﴾**[2].

الأَصْلُ :

وَٱلْصَقْ بِأَهْلِ ٱلْوَرَعِ وَالصِّدْقِ؛ ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَىٰ أَلَّا يُطْرُوكَ وَلَا يُبَجِّحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ ٱلْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ ٱلْعِزَّةِ. وَلَا يَكُونَنَّ ٱلْمُحْسِنُ وَٱلْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ ٱلْإِحْسَانِ فِي ٱلْإِحْسَانِ،

---

١. الآثام: المعاصي. البطانة: الخاصّة. الآصار والآزار بمعنى. أحنى: أعطف. حفلاتك: جلساتك في المجامع والمحافل. آثرهم: أفضلهم.

٢. سورة الكهف ٥١.

وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ ٱلْإِسَاءَةِ عَلَىٰ ٱلْإِسَاءَةِ، وَأَلزِمْ كُلّاً مِنْهُمْ مَا أَلزَمَ نَفْسَهُ.

الشّرْحُ:

قوله: «والصَق بأهل الورع»، كلمةٌ فصيحة، يقول: اجعلهم خاصّتك وخُلصاءك. ثمّ رُضْهم على ألّا يُطرُوك، أي عودهم ألّا يمدحوك في وجهك. ولا يبجّحوك بباطل: لا يجعلوك ممن يبجَح أي يفخر بباطل لم يفعله كما يُبَجِّح أصحابُ الأمراء الأُمراء بأن يقولوا لهم: ما رأينا أعدل منكم ولا أسمحَ، ولا حَمَى هذا الثغرَ أمير أشد بأساً منكم! ونحو ذلك، وقد جاء في الخبر: «احثُوا في وجوه المدّاحين التراب».

فأمّا قولهﷺ: «ولا يكوننّ المحسن والمسيءُ عندَك بمنزلة سواء»، فقد أخذه الصّابي فقال: وإذا لم يكن للمُحسنِ ما يَرفعه، وللمسيء ما يَضَعُه، زَهِد المحسن في الإحسان، واستمرّ المسيء على الطّغيان.

الأَصْلُ:

وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَىٰ إِلَىٰ حُسْنِ ظَنِّ والٍ بِرعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ ٱلْمَؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ ٱسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ. فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذٰلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلاً، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ.

وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ، وَٱجْتَمَعَتْ بِهَا ٱلْأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ. وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ ٱلْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، وَٱلْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا.

وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ ٱلْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةَ ٱلْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ، وَإِقَامَةِ مَا ٱسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ.

الشَّرْحُ :

خلاصةُ صدرِ هذا الفصل، أنّ مَنْ أحسنَ إليك حَسُن ظنُّه فيك، ومَنْ أساء إليك استَوْحش منك، وذلك لأنَّك إذا أحسنتَ إلى إنسان وتكرّر منك ذلك الإحسان تبع ذلك اعتقادُك أنّه قد أحبّك، ثم يتبع ذلك الاعتقادَ أمرٌ آخر، وهو أنّك تحبّه؛ لأنّ الإنسان مجبول على أن يحبّ مَن يحبُّه، وإذا أحببتَه سكنتَ إليه وحَسُن ظنّك فيه، وبالعكس من ذلك إذا أسأتَ إلى زيد؛ لأنّك إذا أسأت إليه وتكرّرت الإساءة تَبِع ذلك اعتقادُك أنّه قد أبغضك، ثمّ يتبع ذلك الاعتقادَ أمرٌ آخر، وهو أن تُبغضه أنت، وإذا أبغضتَه انقبضتَ منه واستوحشت، وساءَ ظنّك به.

ثمّ نهاه عن نقض السّنن الصالحة الّتي قد عمل بها من قبله من صالحي الأُمّة، فيكون الوزر عليه بما نَقَض، والأجر لأولئك بما أسّسوا، ثم أمره بمطارحة العلماء والحكماء في مَصالح عمله، فإنّ المشورة بركة، ومن استشار فقد أضاف عَقْلاً إلى عقله.

الأَصْلُ :

وَٱعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ، لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْض، وَلَا غِنَىً بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْض؛ فَمِنْهَا جُنُودُ ٱللهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ ٱلْعَامَّةِ وَٱلْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ ٱلْعَدْلِ، وَمِنْهَا عُمَّالُ ٱلْإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ ٱلْجِزْيَةِ وَٱلْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاس، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَىٰ مِنْ ذَوِي ٱلْحَاجَةِ وَٱلْمَسْكَنَةِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّىٰ ٱللهُ لَهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَىٰ حَدِّهِ وفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً.

فَٱلْجُنُودُ، بِإِذْنِ ٱللهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ ٱلْوُلَاةِ، وعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ ٱلْأَمْنِ؛ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ، ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ ٱللهُ لَهُمْ مِنَ ٱلْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَىٰ جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ، ثُمَّ لَا قِوَامَ لِهٰذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلَّا بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ ٱلْقُضَاةِ وَٱلْعُمَّالِ وَٱلْكُتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ ٱلْمَعَاقِدِ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ ٱلْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ

خَوَاصِّ ٱلْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا؛ وَلَا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلَّا بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ، مَا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ.

ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَىٰ مِنْ أَهْلِ ٱلْحَاجَةِ وَٱلْمَسْكَنَةِ، الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ. وَفِي ٱللهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَى ٱلْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ. وَلَيْسَ يَخْرُجُ ٱلْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ ٱللهُ تعالىٰ مِنْ ذٰلِكَ، إِلَّا بِالاهْتِمَامِ وَالاسْتِعَانَةِ بِاللهِ، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَىٰ لُزُومِ ٱلْحَقِّ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ.

الشّرْحُ:

قالت الحكماء: الإنسانُ مَدَنيّ بالطّبع، ومعناه أنه خُلِق خِلْقةً لابدَّ معها من أن يكون منضمّاً إلى أشخاصٍ من بني جنسه، ومتمدّنا في مكان بعينه، وليس المراد بالمتمدّن ساكنَ المدينة ذات السّور والسّوق، بل لابدّ أن يقيم في موضع مّا مع قوم من البَشَر؛ وذلك لأنّ الإنسان مضطرّ إلى ما يأكله ويشرَبُه ليقيمَ صورتَه، ومضطرّ إلى ما يلبسه، ليدفع عنه أذى الحرّ والبَرْد، وإلى مَسكَن يسكُنه ليردّ عنه عادِيَةَ غيره من الحيوانات، وليكون مَنزِلاً له ليتمكّن من التصرّف والحركة عليه، ومعلومٌ أن الإنسان وحدَهُ لا يستقلّ بالأمور الّتي عددناها، بل لابدّ من جماعة، فيَحصلُ مساعدة بعض الناس لبعض، لولا ذلك لما قامت الدنيا، فهذا معنى قوله ﷺ: «إنّهم طبقات لا يصلُح بعضُها إلّا ببعض، ولا غَناء ببعضها عن بعض».

ثم فصّلهم وقسّمهم فقال: منهم الجند، ومنهم الكتّاب، ومنهم القُضاة، ومنهم العمّال، ومنهم أرباب الجزية من أهل الذمّة، ومنهم أرباب الخراج من المسلمين، ومنهم التجّار، ومنهم أرباب الصّناعات. ومنهم ذوو الحاجات والمَسكَنة، وهم أدوَن الطبقات.

ثم ذكر أعمال هذه الطبقات فقال: الجند للحماية، والخراجُ يُصرَف إلى الجند والقُضاة والعمّال والكتّاب لما يحكمونه من المعاقد، ويجمعونه من المنافع، ولابدّ لهؤلاء جميعاً من التجّار لأجل البَيْع والشّراء الّذي لا غَناءَ عنه، ولابدّ لكلٍّ من أرباب الصناعات كالحدّاد والنجّار والبنّاء وأمثالهم. ثمّ تلي هؤلاء الطبقة السفلى، وهم أهل الفقر والحاجة الّذين تجب معونتُهم والإحسانُ إليهم.

وإنّما قسّمهم في هذا الفصل هذا التقسيم تمهيداً لما يذكره فيما بعد، فإنّه قد شرع بعد هذا الفصل فذكَر طبقةً طبقةً وصِنفاً صِنفاً، وأوصاه في كلّ طبقة وفي كلّ صِنْف منهم بما يليق بحاله، وكأنّهُ مَهّد هذا التمهيد، كالفِهْرِست لما يأتي بعده من التفصيل.

الأصْلُ:

فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلإِمَامِكَ، وَأَطْهَرَهُمْ جَيْباً، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً، مِمَّنْ يُبْطِيءُ عَنِ ٱلْغَضَبِ؛ وَيَسْتَرِيحُ إِلَىٰ ٱلْعُذْرِ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَيَنْبُو عَلَىٰ ٱلْأَقْوِيَاءِ؛ وَمِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ ٱلْعُنْفُ، وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ.

ثُمَّ ٱلْصَقْ بِذَوِي ٱلْمُرُوءَاتِ وَٱلْأَحْسَابِ؛ وَأَهْلِ ٱلْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ ٱلْحَسَنَةِ؛ ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ؛ فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ ٱلْكَرَمِ؛ وَشُعَبٌ مِنَ ٱلْعُرْفِ. ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ ٱلْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا؛ وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ. وَلَا تُحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَىٰ بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ. وَلَا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ ٱتِّكَالاً عَلَىٰ جَسِيمِهَا؛ فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ؛ وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ.

وَلْيَكُنْ آثَرُ رُؤُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ بِمَا يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّىٰ يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ ٱلْعَدُوِّ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ، وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ عَلَىٰ وُلَاةِ أُمُورِهِم، وَقِلَّةِ ٱسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ، وَتَرْكِ ٱسْتِبْطَاءِ ٱنْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ. فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَىٰ ذَوُو ٱلْبَلَاءِ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ، إِنْ شَاءَ ٱللهُ.

ثُمَّ ٱعْرِفْ لِكُلِّ ٱمْرِيءٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَىٰ، وَلَا تَضُمَّنَّ بَلَاءَ ٱمْرِيءٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَلَا تُقَصِّرَنَّ

بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ. وَلَا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَىٰ أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيراً، وَلَا ضَعَةُ امْرِئٍ إِلَىٰ أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيماً، وَارْدُدْ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ؛ فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبحانه لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَىٰ اللهِ وَالرَّسُولِ﴾[1]، فَالرَّدُّ إِلَىٰ اللهِ: الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَىٰ الرَّسُولِ: الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ.

الشّرْحُ:

هذا الفصل مختصٌّ بالوَصاة فيما يتعلّق بأُمراء الجيش، أمَرَه أن يولّيَ أمر الجيش من جنودِهِ مَن كان أنصَحَهم لله في ظنّهِ، وأطهَرهم جَيْباً، أي عفيفاً أميناً؛ ويُكنَى عن العفّة والأمانة بطهارة الجَيْب؛ لأنّ الّذي يسرق يجعل المسروق في جَيْبه.

فإن قلت: وأيّ تعلّق لهذا بوُلاة الجيش؟ إنّما ينبغي أن تكون هذه الوصيّة في وُلاة الخراج!

قلت: لابدّ منها في أُمراء الجيش لأجل الغنائم.

ثمّ وصف ذلك الأمير فقال: «ممّن يبطئ عن الغضب، ويستريح إلى العُذر»، أي يقبَل أدْنى عذر، ويستريحُ إليه، ويَسكُن عنده، ويَرْؤُفَ على الضّعفاء، يَرفق بهم ويَرحمُهم. والرأفة: الرحمة. ويَنْبو عن الأقوياء: يَتجافى عنهم ويبعد، أي لا يُمكّنهم من الظّلم والتعدّي على الضعفاء. ولا يثيره العُنْف: لا يهيج غضبَه عُنْف وقَسْوة. ولا يَقْعد به الضّعف، أي ليس عاجزاً.

ثم أمره أن يَلصق بذوي الأحساب وأهلِ البيُوتات، أي يكرمهم ويَجعل مُعوّله في ذلك عليهم ولا يتعدّاهم إلى غيرهم، وكان يقال: عليكم بذوِي الأحساب؛ فإنْ هم لم يتكرّموا استحيَوْا.

ثم ذكر بعدهم أهلَ الشجاعة والسّخاء، ثم قال: «فإنها جِمَاع من الكرم، وشُعَب من

---

١. سورة النساء ٥٩.

العرف»؛ من هاهنا زائدة؛ وإن كانت في الإيجاب على مذهب أبي الحسن الأخفش، أي جماع الكرم، أي يجمعه كقوله النبي ﷺ: «الخمر جِمَاع الإثم». والعُرْف: المعروف.

وكذلك «من» في قوله: «وشعَب من العُرْف» أي وشُعب العُرْف، أي هي أقسامه وأجزاؤه، ويجوز أن تكون «من» على حقيقتها للتبعيض، أي هذه الخلال جملة من الكرم وأقسام من المعروف؛ وذلك لأنّ غيرها أيضاً من الكرم والمعروف، نحو العدل والعفّة.

قوله: «ثم تفقَّدْ من أُمورهم»، الضمير هاهنا يرجع إلى الأجناد لا إلى الأُمراء لما سنذكره ممّا يدلّ الكلام عليه.

فإن قلت: إنه لم يَجْرِ للأجناد ذِكْرٌ فيما سبق؛ وإنما المذكور الأُمراء!

قلت: كلّا بل سبق ذكر الأجناد، وهو قوله: «الضعفاء والأقوياء».

وأمره ﷺ أن يتفقّد من أُمور الجيش ما يتفقّد الوالدان من حال الوَلد؛ وأمره ألّا يعظِّم عنده ما يقوّيهم به وإن عظم، وألّا يستحقِر شيئاً تعهّدهم به وإن قلّ، وألّا يمنعه تفقّدُ جسيم أُمورهم عن تفقد صغيرها. وأمره أن يكون آثر رؤوس جنوده عنده وأحظاهم عنده وأقربهم إليه مَنْ واساهم في معونته؛ هذا هو الضمير الدالّ على أنّ الضمير المذكور أولاً للجُند لا لأُمراء الجند؛ لولا ذلك لما انتظم الكلام.

قوله: «من خُلُوف أهليهم»، أي ممن يخلفونه من أولادهم وأهليهم. ثم قال: لا يصحّ نصيحة الجند لك إلّا بحيطتهم على ولاتهم، أي بتعطّفهم عليهم وتحنُّنهم. وهي الحِيطَة على وزن الشِّيمة، مصدر حاطه يحوطه حَوْطاً وحياطة، وحِيطة، أي كلأه ورعاه، وأكثر الناس يروونها إلّا «بحيِّطتهم» بتشديد الياء وكسرها، والصحيح ماذكرناه. «وقلّة استثقال دُوَلهم»، أي لا تصحّ نصيحة الجُنْد لك إلّا إذا أحبُّوا أُمراءهم ثم لم يستثقلوا دُوَلهم؛ ولم يتمنّوا زوالَها.

ثم أمره أن يذكر في المجالس والمحافل بلاءَ ذوي البلاء منهم؛ فإنّ ذلك مما يُرهِف عَزْم الشُّجَاع ويحرّك الجبان. قوله: «ولا تضمَّنَّ بلاءَ امرئٍ إلى غيره»، أي اذكر كلَّ مَنْ أبلى منهم مفرَداً غير مضموم ذكرُ بلائه إلى غيره، كي لا يكون مغموراً في جَنْب ذكر غيره. ثم قال له: لا تعظّم بلاء ذوِي الشرف لأجل شرفهم، ولا تحقِر بلاء ذَوِي الضّعَة لضعة أنسابهم، بل اذكر الأُمورَ على حقائقها.

ثم أمره أن يردّ إلى الله ورسوله ما يُضلعه من الخطوب، أي ما يؤوده ويُميله لثقَله، وهذه الرواية أصحّ من رواية من رواها بالظّاء؛ وإن كان لتلك وجه.

الأَصْلُ :

ثُمَّ ٱخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاس أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ ٱلْأُمُورُ، وَلَا تَمَحِّكُهُ ٱلْخُصُومُ، وَلَا يَتَمادَىٰ فِي الزَّلَّةِ، وَلَا يَحْصَرُ مِنَ ٱلْفَيْءِ إِلَىٰ ٱلْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَىٰ طَمَعٍ، وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَىٰ فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ؛ وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ ٱلْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَىٰ تَكَشُّفِ ٱلْأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ ٱلْحُكْمِ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ، وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ، وَأُولٰئِكَ قَلِيلٌ. ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ، وَٱفْسَحْ لَهُ فِي ٱلْبَذْلِ مَا يُزِيحُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَىٰ النَّاس، وَأَعْطِهِ مِنَ ٱلْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذٰلَكَ ٱغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ. فَانْظُرْ فِي ذٰلِكَ نَظَراً بَلِيغاً، فَإِنَّ هٰذَا الدِّيْنَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي ٱلْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَىٰ، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا.

الشَّرْحُ :

تمحّكه الخصوم: تجعله ما حكاً، أي لجوجاً، محك الرّجل، أي لجّ، وماحك زيد، عمْراً، أي لاجّه.

قوله: «ولا يتمادى في الزّلّة»، أي إن زلّ رجع وأناب، والرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل. قوله: «ولا يحصَر من الفيء» هو المعنى الأول بعينه، والفيء: الرجوع، إلّا أنّ هاهنا زيادة، وهو أنّه لا يحصَر، أي لا يعيا في المنطق؛ لأنّ مِن النّاس من إذا زلّ حصِر عن أن يرجع وأصابه كالفهاهة والعيّ خجلاً. «ولا تُشرِفُ نفسه»، أي لا تشفق. والإشراف: الإشفاق والخوف. والمعنى: ولا تشفق نفسه، وتخاف من فوت المنافع والمرافق. ثم قال: «ولا يكتفي بأدنى فهم»، أي لا يكون قانعاً بما يخطر له باديَ الرأي من أمر الخصوم، بل يستقصي ويبحث أشدّ البحث.

قوله: «وأقلهم تبرُّماً بمراجعة الخصم»، أي تضجُّراً، وهذه الخصلة من محاسن ما شرطه ﷺ، فإنّ القلق والضجر والتبرُّم قبيح، وأقبح ما يكون من القاضي. «وأصرمهم»، أي أقطعهم وأمضاهم. وازدهاه كذا، أي استخفّه. والإطراء: المدح. والإغراء: التحريض.

ثم أمره أنْ يتطلّع على أحكامه وأقضيته، وأن يفرض له عطاء واسعاً يملأ عينه، ويتعفّف به عن المرافق والرّشوات، وأن يكون قريبَ المكان منه، كثير الاختصاص به ليمنع قربه من سعاية الرجال به وتقبيحهم ذكره عنده. ثم قال: «إنّ هذا الدّين قد كان أسيراً»، هذه إشارة إلى قضاة عثمان وحكامه، وأنّهم لم يكونوا يقضون بالحقّ عنده، بل بالهوى لطلب الدنيا.

الأصْلُ:

ثُمَّ ٱنْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ، فَاسْتَعْمِلْهُمُ ٱخْتِبَاراً، وَلَا تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً، فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ ٱلْجَوْرِ وَٱلْخِيَانَةِ. وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَٱلْحَيَاءِ، مِنْ أَهْلِ ٱلْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَٱلْقَدَمِ فِي ٱلْإِسْلَامِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقاً، وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً، وَأَقَلُّ فِي ٱلْمَطَامِعِ إِشْرَافاً، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ ٱلْأُمُورِ نَظَراً.
ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذٰلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَىٰ ٱسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنىً لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ، أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ. ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَٱبْعَثِ ٱلْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَىٰ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَمَانَةِ، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ. وَتَحَفَّظْ مِنَ ٱلْأَعْوَانِ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَىٰ خِيَانَةٍ ٱجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ، ٱكْتَفَيْتَ بِذٰلِكَ شَاهِداً، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ ٱلْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ ٱلْمَذَلَّةِ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ.

الشّرْحُ:

لمّا فرغ عليه السلام من أمر القضاء، شرع في أمر العمّال، وهم عمّال السواد والصّدَقات والوقوف والمصالح وغيرها، فأمَرَه أن يستعملهم بعد اختبارهم وتجربَتهم، وألّا يولّيَهم محاباةً لهم، ولمن يشفع فيهم، ولا أثَرة ولا إنعاماً عليهم.
ثم قال عليه السلام: «فإنهما ـ يعني استعمالهم للمحاباة والأثرة ـ جماع من شُعَب الجوْر

والخيانة»، وقد تقدّم شرح مثل هذه اللفظة، والمعنى أن ذلك يجمع ضروباً من الجوْر والخيانة. أمّا الجوْر فإنه يكون قد عدل عن المستحقّ إلى غير المستحقّ ففي ذلك جَوْر على المستحقّ، وأمّا الخيانة فلأنّ الأمانة تقتضي تقليدَ الأعمالِ الأكفاء؛ فمن لم يعتمد ذلك فقد خان مَنْ ولّاه. ثم أمره بتخيّر مَنْ قد جرّب؛ ومَنْ هو من أهل البيوتات والأشراف لشدّة الحرص على الشيء والخوف من فواته. ثم أمره بإسباغ الأرزاق عليهم؛ فإنّ الجائع لا أمانَةَ له؛ ولأنّ الحجّة تكون لازمةً لهم إن خانوا؛ لأنهم قد كُفُوا مؤنة أنفسِهم وأهلِيهم بما فرض لهم من الأرزاق. ثم أمره بالتطلّع عليهم وإذكاء العيون والأرصادِ على حركاتهم.

وحدوة: باعث، يقال: حداني هذا الأمر حَدْوةً على كذا؛ وأصله سَوْق الإبل، ويقال للشّمْأل حَدْواء؛ لأنّها تسوق السحاب. ثم أمره بمؤاخذة من ثبتتْ خيانته واستعادة المال منه.

الأصْلُ:

وَتفَقَّدْ أَمْرَ ٱلْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَىٰ ٱلْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ. وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ ٱلْأَرْض أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي ٱسْتِجْلَابِ ٱلْخَرَاجِ؛ لِأَنَّ ذٰلِكَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بَالْعِمَارَةِ؛ وَمَنْ طَلَبَ ٱلْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ ٱلْبِلَادَ، وَأَهْلَكَ ٱلْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلاً؛ فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلاً أَوْ عِلَّةً، أَوِ ٱنْقِطَاعَ شِرْبٍ، أَوْ بَالَّةٍ، أَوْ إِحَالَةَ أَرْض ٱغْتَمَرَهَا غَرَقٌ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ؛ خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِما تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ.

وَلَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ ٱلْمؤُونَةَ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلادِكَ، وَتَزْيِينِ وِلَايَتِكَ، مَعَ ٱسْتِجْلَابِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ، وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ ٱلْعَدْلِ فِيهِمْ، مُعْتَمِداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ، وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَرِفْقِكَ بِهِمْ، فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ ٱلْأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ ٱحْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ؛ فَإِنَّ ٱلْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ،

وَإِنَّمَا يُؤْتَىٰ خَرَابُ ٱلْأَرْض مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا، وَإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُس ٱلْوُلَاةِ عَلَىٰ ٱلْجَمْعِ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ، وَقِلَّةِ ٱنْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ.

الشَّرْحُ :

انتقلعليه السلام من ذكر العمّال إلى ذكر أرباب الخراج ودَهَاقين السّواد، فقال: تفقّد أمرَهم، فإنّ النّاس عيال عليهم؛ وكان يقال: استوصُوا بأهل الخراج؛ فإنّكم لا تزالون سماناً ما سَمِنُوا.

وروي: «استحلاب الخراج» بالحاء. ثم قال: «فإن شكَوْا ثِقْلاً»، أي ثقل طَسْق[1] الخراج المضروب عليهم، أو ثقل وطأة العامل. «أو علّة»، نحو أن يصيب الغلّة آفة كالجراد والبرق أو البرد. «أو انقطاع شرْب[2]» بأن يَنقُص الماء في النهر، أو تتعلق أرض الشّرب عنه لفقد الحَفْر. «أو بالّة»، يعني المطر. «أو إحالة أرض اغتمرها غرق»، يعني أو كوْن الأرض قد حالت، ولم يحصل منها ارتفاع؛ لأنّ الغرق غمرها وأفسد زَرْعها. «أو أجْحف بها عطش»، أي أتلفها.

فإن قلت: فهذا هو انقطاع الشّرب؟

قلت: لا، قد يكون الشِّرب غير منقطع، ومع ذلك يُجحِف بها العطش، بأن لا يكفيها الماء الموجود في الشِّرب.

ثم أمره أن يخفّف عنهم مَتى لحقهم شيء من ذلك؛ فإنّ التخفيف يُصْلح أُمورهم، وهو وإن كان يُدْخِل على المال نقصاً في العاجل إلّا أنه يقتضي توفير زيادة في الآجل؛ فهو بمنزلة التجارة التي لا بُدّ فيها من إخراج رأس المال وانتظار عوده وعود ربحه.

قال: ومع ذلك فإنه يفضي إلى تزيين بلادك بعمارتها، وإلىٰ أنّكَ تَبْجح بين الولاة بإفاضة العدل في رعيّتك معتمداً فَضْلَ قُوّتهم. و «معتمداً»، منصوب على الحال من الضّمير في «خَفّفت» الأُولى، أي خَفّفت عنهم معتمداً بالتخفيف فضل قوّتهم. والإجمام: الترفيه.

ثم قال له: وربما احتجتَ فيما بعد إلى تكلفهم بحادث يحدُث عندك المساعدة بمالٍ يقسطونه عليهم قرضاً لك أو معونة محضة؛ فإذا كانتْ لهم ثروة نهضوا بمثل ذلك، طيّبة قلوبُهم به. فإن العمران محتمل ما حمّلته. ثم قالعليه السلام: «إنما تُؤتَى الأرض»، أي إنما تُدْهَى

---

١. في اللسان عن التهذيب: الطسق شبه الخراج له مقدار معلوم؛ وليس بعربي خالص.

٢. الشِّرْب بالكسر: النصيب من الماء.

من إعواز أهلها، أي من فقرهم. قال: والموجب لإعوازهم طمعُ ولاتهم في الجباية وجمع الأموال لأنفُسهم ولسلطانهم. وسوء ظنّهم بالبقاء: يحتمل أن يريد به أنهم يظنّون طول البقاء وينسَوْن الموتَ والزوال. ويحتمل أن يريد به أنهم يتخيّلون العَزْل والصرف، فينتهزون الفرص، ويقتطعون الأموال، ولا ينظرون في عِمارة البلاد.

الأَصْلُ:

ثُمَّ ٱنْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ، فَوَلِّ عَلَىٰ أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ، وَٱخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَايِدَكَ وَأَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُودِ صَالِحِ ٱلْأَخْلَاقِ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ ٱلْكَرَامَةُ، فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلَافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلَأٍ. وَلَا تَقْصُرُ بِهِ ٱلْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَىٰ الصَّوَابِ عَنْكَ، فِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ، وَلَا يُضْعِفُ عَقْداً ٱعْتَقَدَهُ لَكَ، وَلَا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ، وَلَا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفسِهِ فِي ٱلْأُمُورِ، فَإِنَّ ٱلْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ.

ثُمَّ لَا يَكُنِ ٱخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ فِرَاسَتِكَ وَٱسْتِنَامَتِكَ وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ، فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّضُونَ لِفِرَاسَاتِ ٱلْوُلَاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ حديثهم، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذٰلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَٱلْأَمَانَةِ شَيْءٌ؛ وَلٰكِنِ ٱخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ، فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي ٱلْعَامَّةِ أَثَراً، وَأَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهاً، فَإِنَّ ذٰلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ نَصِيحَتِكَ لِلَّهِ، وَلِمَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ. وَٱجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْساً مِنْهُمْ؛ لَا يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا، وَلَا يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا، وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْه أُلْزِمْتَهُ.

الشّرْحُ:

لما فرغ من أمر الخراج، شَرَع في أمر الكتّاب الذين يلُون أمر الحضرة، ويترسّلون عنه إلى عمّاله وأُمرائه، وإليهم مَعاقد التدبير وأمرُ الديوان، فأمَرَه أن يتخيّر الصالح منهم، ومَنْ يوثق

على الاطلاع على الأسرار والمكايد والحِيَل والتدبيرات، ومن لا يُبطِره الإكرام والتقريب، فيطمعَ فيجترئُ على مخالفته في مَلَإٍ من الناس والردّ عليه، ففي ذلك من الوَهَن للأمير وسوء الأدب الذي انكشف الكاتب عنه ما لا خفاءَ به.

ثم قال عليه السلام: وليكن كاتبُك غيرَ مقصّر عن عرض مكتوبات عمّالك عليك، والإجابة عنها حسن الوَكالة والنيابةِ عنك فيما يحتجّ به لك عليهم مِن مكتوباتهم، وما يُصدِره عنك إليهم من الأجوبة، فإن عَقَد لك عقداً قوّاه وأحكَمه، وإن عَقد عليك عقداً اجتهد في نقضِه وحَلّه.

قال: وأن يكون عارفاً بنفسه، فمن لم يعرف قدرَ نفسِهِ لم يَعرِف قدرَ غيرِه. ثمّ نهاه أن يكون مستّند اختيارِه لهؤلاء فِراستُه فيهم، وغلبةُ ظنّه بأحوالهم، فإن التّدليس ينمّ في ذلك كثيراً، وما زال الكتّاب يتصنّعون للأُمراء بحُسن الظاهر، وليس وراء ذلك كثير طائل في النصيحة والمعرفة، ولكن ينبغي أن يرجع في ذلك إلى ما حكمتْ به التجربةُ لهم، وما وُلّوه من قبل، فإن كانت ولايتُهم وكتابتُهم حسنةً مشكورةً فهم هم، وإلّا فلا، ويتعرّفون لفراسات الوُلاة، يجعلون أنفسهم بحيث يعرف بضُروب من التصنّع، وروي «يتعرّضون».

ثم أمَرَه أن يقسم فنونَ الكتابة وضروبَها بينهم، نحو أن يكون أحدهم للرسائل إلى الأطراف والأعداء، والآخر لأجوبة عمّال السواد، والآخر بحضرة الأمير في خاصّته وداره، وحاشيته وثقاته. ثم ذكر له أنّه مأخوذ مع الله تعالى بما يتغابَى عنه، ويتغافل من عيوب كتّابه، فإن الدّين لا يبيح الإغضاءَ والغفلةَ عن الأعوان والخَوَل، ويوجب التطلّع عليهم.

واعلم أنّ الكاتب الذي يشير أمير المؤمنين عليه السلام إليه هو الذي يسمي الآن في الاصطلاح العُرْفي وزيراً؛ لأنّه صاحب تدبير حضرة الأمير، والنائب عنه في أموره، وإليه تصل مكتوباتُ العمّال وعنه تصدر الأجوبة، وإليه العَرْض على الأمير، وهو المستدرِك على العمّال، والمهيمِن عليهم، وهو على الحقيقة كاتبُ الكتّاب، ولهذا يسمّونه: الكاتب المطلَق.

الأصْلُ:

ثُمَّ ٱسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْراً، ٱلْمُقِيمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ، وَٱلْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ؛ فَإِنَّهُمْ مَوادُّ ٱلْمَنَافِعِ، وَأَسْبَابُ ٱلْمَرَافِقِ، وَجُلّابُهَا مِنَ ٱلْمَبَاعِدِ وَٱلْمَطَارِحِ، فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ، وَحَيْثُ

لَا يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا، وَلَا يَجْتَرِؤُونَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لَا تُخَافُ بَائِقَتُهُ، وَصُلْحٌ لَا تُخْشَىٰ غَائِلَتُهُ.

وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ، وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ. وَٱعْلَمْ - مَعَ ذٰلِكَ - أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشاً، وَشُحّاً قَبِيحاً، وَٱحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ، وَتَحَكُّماً فِي ٱلْبِيَاعَاتِ، وَذٰلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ، وَعَيْبٌ عَلَىٰ ٱلْوُلَاةِ، فَامْنَعْ مِنَ ٱلْاحْتِكَارِ؛ فَإِنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَنَعَ مِنْهُ. وَلْيَكُنِ ٱلْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً بِمَوَازِينِ عَدْلٍ، وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ ٱلْبَائِعِ وَٱلْمُبْتَاعِ. فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ، وَعَاقِبْهُ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ.

الشّرْحُ:

خرج عليه السلام الآن إلى ذكر التّجار وذوي الصناعات؛ وأمَرَه بأن يعمل معهم الخير، وأن يُوصِيَ غيره من أُمرائه وعمّاله أن يعملوا معهم الخير. واستوصِ بمعنى «أوص» نحو قرَّ في المكان واستقرّ، وعلا قِرْنَه واستعلاه. وقوله: «استوصِ بالتجّار خيراً»، أي أوصِ نفسك بذلك، ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وآله «استوْصوا بالنّساء خيراً»؛ ومَفْعولا «استوصِ وأوصِ» هاهنا محذوفان للعلم بهما، ويجوز أن يكون «استوصِ»، أي اقبل الوصيّة منّي بهم، وأوصِ بهم أنتَ غيرك.

ثمّ قسّم عليه السلام الموصّى بهم ثلاثة أقسام: اثنان منها للتجّار، وهما المقيم، والمضطرب، يعني المسافر. والضّرب: السيرُ في الأرض؛ قال تعالى: **﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ في الأَرْضِ﴾**[1].

وواحد لأرباب الصناعات، وهو قوله: «والمترفّق ببدنه»، ورُوِي «بيديه»، تثنية يد.

والمَطارِح: الأماكن البعيدة. وحيث لا يلتئم الناس: لا يجتمعون، ورُوِي «حيث لا يلتئم»؛ بحذف الواو.

ثم قال: «فإنّهم أولو سِلْم»، يعني التجّار والصناع، استعطفه عليهم، واستماله إليهم، وقال: ليسوا كعمال الخراج وأُمراءِ الأجناد، فجانبُهم ينبغي أن يراعي، وحالُهم يجب أن

---

١. سورة النساء ١٠١.

يُحاط ويُحمَى، إذ لا يتخوّف منهم بائقة لا في مال يخونون فيه، ولا في دَوْلة يُفسِدونها. وحواشي البلاد: أطرافها.

ثم قال له: قد يكون في كثير منهم نوعٌ من الشحّ والبُخْل فيدعوهم ذلك إلى الاحتكار في الأقوات، والحَيْف في البياعات. والاحتكار: ابتياع الغلّات في أيام رخصها، وادّخارها في المخازن إلى أيام الغلاء والقَحْط. والحَيْف: تطفيفٌ في الوزن والكيل، وزيادةٌ في السعر، وهو الذي عبّر عنه بالتحكّم، وقد نهى رسولُ الله ﷺ عن الاحتكار؛ وأمّا التطفيف وزيادة التّسْعير فمنهيٌّ عنهما في نص الكتاب. وقارَفَ حُكْرة: واقعها، والحاء مضمومة، وأمرَه أن يؤدب فاعل ذلك من غير إسراف، وذلك أنّه دون المعاصي التي توجب الحدود، فغاية أمرِه من التعزير الإهانة والمنع.

الأَصْلُ:

ثُمَّ ٱللهَ ٱللهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَىٰ مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ، مِنَ ٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْـمحْتَاجِينَ وَأَهْلِ ٱلْبُؤْسَىٰ وَالزَّمْنَىٰ، فإِنَّ فِي هٰذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً. وَٱحْفَظْ لله مَا ٱسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَٱجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ، وَقِسْماً مِنْ غَلَّاتِ صَوَافِي ٱلْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَد، فإِنَّ لِلْأَقْصَىٰ مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَىٰ؛ وَكُلٌّ قَدِ ٱسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ. وَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ، فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِ التَّافِهِ لإِحْكَامِكَ ٱلْكَثِيرَ ٱلْمُهِمَّ؛ فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ، وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ، مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ ٱلْعُيُونُ، وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ؛ فَفَرِّغْ لِأُولٰئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ ٱلْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ.

ثُمَّ ٱعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَىٰ ٱللهِ يَوْمَ تَلْقَاهُ، فَإِنَّ هٰؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَىٰ ٱلْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ؛ وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَىٰ ٱللهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ. وَتَعَهَّدْ أَهْلَ ٱلْيُتْمِ وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ، وَلَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ، وَذٰلِكَ عَلَىٰ ٱلْوُلَاةِ ثَقِيلٌ، وَٱلْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ؛ وَقَدْ يُخَفِّفُهُ ٱللهُ عَلَىٰ أَقْوَامٍ طَلَبُوا ٱلْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ ٱللهِ لَهُمْ.

الشّرْحُ :

انتقل من التجّار وأرباب الصّناعات إلى ذكر فقراء الرعيّة ومَغْموريها، فقال: وأهل البؤسَى، وهي البؤسُ كالنُّعمى للنّعيم، والزَّمْنى أولو الزَّمانة. والقانع: السائل؛ والمعترّ: الّذي يَعرِض لك ولا يسألك، وهما من ألفاظ الكتاب العزيز[1]. وأمَره أن يعطيَهم من بيت مال المسلمين؛ لأنّهم من الأصناف المذكورين في قوله تعالى: ﴿واعْلَمُوا أنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيءٍ فأنَّ لِلهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى والْيَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابنِ السَّبِيلِ﴾[2]، وأن يُعطِيَهم من غلّات صوافي الإسلام ـ وهي الأرَضون الّتي لم يُوجَف عليها بخيل ولا ركاب ـ وكانت صافية لرسول الله ﷺ.

ثم قال له: «فإنّ للأقصى منهم مثل الّذي للأدنى»، أي كلّ فقراء المسلمين سواء في سهامهم، ليس فيها أقصى وأدنى، أي لا تُؤثِر مَنْ هو قريب إليك أو إلى أحدٍ من خاصّتك على مَنْ هو بعيد ليس له سببٌ إليك، ولا علْقة بينه وبينك. ويمكن أن يريد به: لا تَصرِف غلّات ما كان من الصّوافي في بعض البلاد إلى مساكين ذلك البلد خاصّة، فانّ حقّ البعيد عن ذلك البلد فيها كمثل حقّ المقيم في ذلك البلد.

والتافه: الحقير. وأشخصتُ زيداً من موضع كذا: أخرجتُه عنه. وفلان يصعِّر خدَّه للناس، أي يتكبّر عليهم. وتقتَحِمه العيون: تزدَريه وتحتقِرُه. والإعذار إلى الله: الاجتهاد والمبالغة في تأدية حقّه، والقيام بفرائضه.

وكان لأمير المؤمنين ﷺ بيتٌ سمّاه بيتَ القِصَص، يُلقي الناسُ فيه رقاعَهُم.

الأصْلُ :

وَٱجْعلْ لِذَوِي ٱلْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً، فَتَتَواضَعُ فِيهِ للهِ الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ؛ حَتَّىٰ يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ: «لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ

---

١. وهو قوله تعالى في سورة الحج ٣٦: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾.

٢. سورة الأنفال ٤١.

ٱلْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ». ثُمَّ ٱحْتَمِلِ ٱلْخُرْقَ مِنْهُمْ وَٱلْعِيَّ، وَنَحِّ عَنْهُمُ الضِّيقَ وَٱلْأَنَفَ، يَبْسُطِ ٱللّٰهُ عَلَيْكَ بِذٰلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ، وَيُوجِبُ لَكَ ثَوابَ طَاعَتِهِ. وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئاً، وَٱمْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ.

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا مِنْهَا: إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ عِنْدَ وَرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ. وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ، فإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ.

الشّرْحُ:

هذا الفصل من تتمّة ما قبله، وقد رُوِي «حتّى يكلّمك مكلِّمهم»، فاعل من «كلّم»، والرواية الأُولى أحسن. وغير متتعتع: غير مزعج ولا مقلق. والمتَتَعْتِع في الخبر النبويّ: المتردّد المضطرب في كلامه عِيّاً من خوف لحقه، وهو راجع إلى المعنى الأوّل. والخُرق: الجهل. ورُوِي: «ثمّ احتمل الخُرق منهم والغَيّ». والغيّ، وهو الجهل أيضاً، والرواية الأُولى أحسن.

ثمّ بيّن له عليه السلام أنه لابدّ له من هذا المجلس لأمرٍ آخر غير ما قدّمه عليه السلام، وذلك لأنّه لابدّ من أن يكون في حاجات الناس ما يضيق به صدور أعوانه، والنوّاب عنه، فيتعيّن عليه أن يباشرَها بنفسه؛ ولابدّ من أن يكون في كتب عمّاله الواردة عليه ما يعيا كتّابه عن جوابه، فيجيب عنه بعلْمه. ويدخل في ذلك أن يكون فيها ما لايجوز في حُكْم السياسة ومصلحة الولاية أن يطلع الكتّاب عليه، فيجيب أيضاً عن ذلك بعلمه.

ثم قال له: لا تدخِلْ عملَ يومٍ في عمل يومٍ آخر فيُتْعِبك ويُكَدِّرك؛ فإنّ لكلّ يومٍ ما فيه من العمل.

الأَصْلُ:

وَٱجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيما بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱللهِ تَعالى أَفْضَلَ تِلْكَ ٱلْمَوَاقِيتِ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ ٱلْأَقْسَامِ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا للهِ؛ إِذَا صَلَحَتْ فيهَا النِّيَّةُ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ.

وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ للهِ بِه دِينَكَ إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتي هِيَ لَهُ خَاصَّةً، فَأَعْطِ ٱللهَ

مِن بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَىٰ ٱللهِ سُبْحانَهُ مِنْ ذٰلِكَ كَامِلاً غَيْرَ مَثْلُومٍ وَلَا مَنْقُوصٍ، بَالِغاً مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ. وَإِذَا قُمْتَ فِي صلَاتِكَ لِلنَّاسِ، فَلَا تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَلَا مُضَيِّعاً، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ ٱلْعِلَّةُ وَلَهُ ٱلْحَاجَةُ؛ وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَىٰ ٱلْيَمَنِ كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ؟ فَقَالَ: «صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ»، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً.

الشَّرْحُ:

لمّا فرغ عليه السلام من وصيّته بأُمور رعيّته، شرَع في وصيّته بأداء الفرائض التي افترضها الله عليه من عبادته، ولقد أحسن عليه السلام في قوله: «وإن كانت كلها لله»، أي أنّ النّظر في أُمور الرعيّة مع صحّة النيّة وسلامة الناس من الظّلم من جملة العبادات والفرائض أيضاً. ثم قال له: «كاملاً غيرَ مثلومٍ»، أي لا يحملنّك شُغْل السلطان على أن تختصر الصّلاة اختصاراً، بل صلّها بفرائضها وسُننها وشعائرها في نهارِك ولَيلِك؛ وإن أتعبك ذلك ونالَ من بَدَنك وقُوّتك.

ثمّ أمَرَه إذا صلّى بالناس جماعة ألّا يطيل فينفرّهم عنها، وألّا يخدع الصّلاة وينقُصها فيضيّعَها. ثم رَوَى خبراً عن النبيّ ﷺ، وهو قوله عليه السلام له: «صلّ بهم كصلاةِ أضعفهم»، وقوله: «وكن بالمؤمنين رحيماً»؛ يحتمل أن يكون من تتمّة الخبر النبويّ، ويحتمل أن يكون من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، والظاهر أنّه من كلام أميرِ المؤمنين من الوصيّة للأشتر؛ لأنّ اللفظة الأُولى عند أرباب الحديث هي المشهور في الخبر.

الأَصْلُ:

وَأَمَّا بَعْدَ هذا؛ فَلَا تُطَوِّلَنَّ ٱحْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ ٱحْتِجَابَ ٱلْوُلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ؛ وَالْإِحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا ٱحْتَجَبُوا دُونَهُ، فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ ٱلْكَبِيرُ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ ٱلْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ ٱلْقَبِيحُ، وَيُشَابُ ٱلْحَقُّ بِالْبَاطِلِ؛ وَإِنَّمَا ٱلْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَىٰ عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ ٱلْأُمُورِ، وَلَيْسَتْ عَلَىٰ ٱلْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ ٱلْكَذِبِ، وَإِنَّمَا

أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا ٱمْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي ٱلْحَقِّ، فَفِيمَ ٱحْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ! أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنْعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ! مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مَا لَا مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلَمَةٍ، أَوْ طَلَبِ إِنْصافٍ فِي مُعَامَلَةٍ.

الشّرْحُ:

نهاه عن الاحتجاب؛ فإنّه مَظِنّة انطواء الأُمور عنه، وإذا رُفِع الحجاب دخل عليه كلُّ أحد فعَرَف الأخبار، ولم يَخْفَ عنه شيء من أحوال عَمله. ثمّ قال له: لم تحتجب، فإنّ أكثر الناس يحتجبون كيلا يُطلَب منهم الرِّفد! وأنت فإن كنتَ جواداً سَمْحاً لم يكن لك إلى الحجاب داعٍ، وإن كنتُ مُمسِكاً فسيعلم الناسُ ذلك منك، فلا يسألك أحدٌ شيئاً. ثم قال: عَلَى أنّ أكثرَ ما يسأل منك مالاً مؤونة عليه في ماله؛ كردّ ظُلَامة أو إنصاف من خَصْم.

الأَصْلُ:

ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وبِطَانَةً، فِيهِمُ ٱسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ، وَقِلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ، فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولٰئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ، وَلَا تَقْطِعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَّتِكَ قَطِيعةً، وَلَا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي ٱعْتِقَادِ عُقْدَةٍ، تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ فِي شِرْبٍ أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ، يَحْمِلُونَ مَؤُنَتَهُ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذٰلِكَ لَهُمْ دُونَكَ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ. وَأَلْزِمِ ٱلْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ ٱلْقَرِيبِ وَٱلْبَعِيدِ، وَكُنْ فِي ذٰلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً، وَاقِعاً ذٰلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَٱبْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذٰلِكَ مَحْمُودَةٌ. وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ، وَٱعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ، فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ، وَرِفْقاً بِرَعِيَّتِكَ، وَإِعْذَاراً تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَىٰ ٱلْحَقِّ.

الشّرْحُ :

نهاهﷺ عن أن يَحمِل أقارَبه وحاشيتَه وخواصَّه على رقاب الناس، وأن يمكنهم من الاستئثار عليهم والتّطاول والإذلال، ونهاه من أن يقطع أحداً منهم قطيعةً، أو يملّكه ضَيْعة تضرّ بمن يجاورها من السادة والدّهاقين في شِرْب يتغلّبون على الماء منه، أو ضِياع يُضيفونها إلى ما ملّكهم إيّاه، وإعفاء لهم من مؤنة، أو حفر وغيره، فيعفيهم الوُلاة منه مراقبةً لهم، فيكون مؤنة ذلك الواجب عليهم قد أسقطت عنهم، وحِمْل ثقلها على غيرهم؛ لأنّ منفعة ذلك في الدّنيا تكون لهم دونَك، والوِزْر في الآخرة عليك، والعيب والذمّ في الدّنيا أيضاً لاحقان بك.

ثم قال له: إن اتّهمَتك الرعيّة بحيْفٍ عليهم، أو ظنّتْ بك جَوْراً، فاذكر لهم عذرَك في ذلك، وما عندَك ظاهراً غير مستور، فإنه الأوْلى والأقرب إلى استقامتهم لك على الحقّ. واصحرتُ بكذا، أي كشفته؛ مأخوذٌ من الإصحار، وهو الخروج إلى الصّحراء. وحامّة الرجل: أقاربُه وبطانته. واعتقدت عقدة، أي ادّخرت ذخيرة. والمهنأ مصدر هنأه كذا. ومغبّة الشيء: عاقبتُه. واعدل عنكَ ظنونهم: نحّها. والإعذار: إقامة العُذْر.

الأصْلُ :

وَلَا تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ وَلِلهِ فِيهِ رِضىً، فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ؛ وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ، وَأَمْناً لِبِلَادِكَ، وَلَكِنِ ٱلْحَذَرَ كُلَّ ٱلْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ، فَإِنَّ ٱلْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ. فَخُذْ بِالْحَزْمِ، وَٱتَّهِمْ فِي ذٰلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ.
وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ، وَٱرْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ. وَٱجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِض ٱللهِ شَيْءٌ ٱلنَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ ٱجْتِمَاعاً مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ، وَتَشَتُّتِ آرَائِهِمْ، مِنْ تَعْظِيمِ ٱلْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ. وَقَدْ لَزِمَ ذٰلِكَ ٱلْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ ٱلْمُسْلِمِينَ؛ لِمَا ٱسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ ٱلْغَدْرِ. فَلَا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلَا تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ، وَلَا تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ، فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَىٰ ٱللهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيٌّ، وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْناً أَفْضَاهُ بَيْنَ

ٱلْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ، وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَىٰ مَنَعَتِهِ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَىٰ جِوَارِهِ، فَلَا إِدْغَالَ وَلَا مُدَالَسَةَ وَلَا خِدَاعَ فِيهِ.

وَلَا تَعْقِدْه عَقْداً تُجَوِّزُ فِيهِ ٱلْعِلَلَ، وَلَا تُعَوِّلَنَّ عَلَىٰ لَحْنِ قَوْلٍ بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوْثِقَةِ، وَلَا يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ ٱللهِ إِلَىٰ طَلَبِ ٱنْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَىٰ ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو ٱنْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ ٱللهِ فِيهِ طِلْبَةٌ، لَا تَسْتَقْبِلُ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلَا آخِرَتَكَ.

الشَّرْحُ:

أَمَرَه أن يقبل السِّلم والصلح إذا دُعِي إليه، لما فيه من دَعَة الجنود، والراحةِ من الهمّ، والأمن للبلاد، ولكن ينبغي أن يحذر بعد الصّلح من غائلة العدوّ وكيدِه، فإنه ربما قارب بالصلح ليتغفَّل، أي يطلب غفلتك. فخذ بالحَزم، واتّهِمْ حُسْنَ ظنك، لا تثقْ ولا تسكن إلى حُسنِ ظنك بالعدوّ، وكن كالطائر الحَذِر.

ثمّ أمَرَه بالوفاء بالعهود؛ قال: واجعل نفسك جُنّةً دون ما أعطيت، أي ولو ذهبتْ نفسُك فلا تَغدِر. ثم قال له عليه السلام: وقد لزم المشركون مع شِرْكهم الوفاءَ بالعهود، وصار ذلك لهم شريعة وبينهم سنّة، فالإسلام أولى باللزوم والوفاء. واستَوْبلوا: وجدوه وَبِيلاً، أي ثقيلاً. استوبلتُ البلدَ، أي استَوْخَمته واستثقلْته، ولم يوافق مِزاجَك. ولا تخيسنَّ بعهدك، أي لا تَغدِرنّ، خاسَ فلانٌ بذمته، أي غَدَر ونَكَثَ. «ولا تختلنّ عدوّك»، أي لا تمكُرنّ به، خَتَلْته، أي خدعتُه.

وقوله: «أفضاه بين العباد»، جعله مشتركاً بينهم، لا يختصّ به فريق دون فريق.

قال: «ويستفيضون إلى جِواره»، أي ينتشرون في طلب حاجاتهم ومآربهم، ساكنين إلى جواره، فإلى هاهنا متعلقة بمحذوف مقدّر، كقوله تعالى: **﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾**[1]، أي مرسلاً. قال «فلا إدْغال»، أي لا إفساد، والدَّغَل: الفساد. ولا مُدالسة، أي لا خديعة. يقال: فلان لا يوالس ولا يُدالس، أي لا يخادع ولا يخون، وأصل الدّلس

---

١. سورة النمل ١٢.

الظلمة، والتدليس في البَيْع: كتمانُ عيبِ السِّلعة عن المشتري.

ثم نهاه عن أن يَعقِد عَقْداً يمكن فيه التأويلات والعلل وطلب المخارج. ونهاه إذا عقد العقد بينه وبين العدوّ أن ينقضه معوِّلاً على تأويل خفيّ أو فحوى قول، أو يقول: إنما عنيت كذا؛ ولم أعن ظاهر اللفظة؛ فإن العقود إنما تُعقد على ما هو ظاهر في الاستعمال متداول في الاصطلاح والعُرْف لا على ما في الباطن. وروي «انفساحه» بالحاء المهملة، أي سعته.

الأَصْلُ:

إِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَىٰ لِنِقْمَةٍ، وَلَا أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ، وَلَا أَحْرَىٰ بِزَوَالِ نِعْمَةٍ، وَٱنْقِطَاعِ مُدَّةٍ، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا. وَٱللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ، فِيما تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ؛ فَلَا تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ، فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ، بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ.

وَلَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ ٱللهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ ٱلْعَمْدِ، لِأَنَّ فِيهِ قَوَدَ ٱلْبَدَنِ، وَإِنِ ٱبْتُلِيتَ بِخَطَإٍ، وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ سَيْفُكَ أَوْ يَدُكَ بِالْعُقُوبَةِ، فَإِنَّ فِي ٱلْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً. فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَىٰ أَوْلِيَاءِ ٱلْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ.

الشّرْحُ:

ووصيَّة أمير المؤمنين عليه السلام مبنيَّةٌ على الشريعة الإسلاميّة، والنّهي عن القتل والعُدْوان الَّذي لا يُسيغه الدّين، وقد ورد في الخبر المرفوع: «إنّ أوّل ما يقضي اللهُ به يوم القيامة بين العباد أمرُ الدّماء». قال: إنّه ليس شيء أدعى إلى حلول النِّقم، وزوال النِّعم، وانتقال الدُّول، من سَفْك الدم الحرام، وإنك إن ظننتَ أنّك تُقوِّي سلطانك بذلك، فليس الأمرُ كما ظننتَ، بل تُضعفه، بل تُعدِمه بالكليّة.

ثمَّ عرّفه أنّ قتل العَمْد يوجِب القَوَد؛ وقال له: «قَوَد البدَن»، أي يجب عليك هَدْم صورتك كما هدمتَ صورة المقتول، والمراد إرهابُه بهذه اللّفظة فإنّها أبلَغ من أن يقول له: «فإنّ فيه القَوَد». ثم قال له: إن قتلتَ خطأً أو شِبه عَمْدٍ كالضّرب بالسّوط فعليك الدِّية. وقد اختلف الفقهاءُ في هذه المسألة.

وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أنّ المؤدّب من الوُلاة إذا تَلِف تحت يده إنسان في التأديب فعليه الديّة.

الأصلُ:

وَإِيَّاكَ وَٱلْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا وَحُبَّ ٱلْإِطْرَاءِ؛ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ ٱلمحْسِنِينَ.
وَإِيَّاكَ وَٱلْمَنَّ عَلَىٰ رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أَوِ التَّزَيُّدَ فِيما كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ ٱلْمَنَّ يُبْطِلُ ٱلْإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ ٱلْحَقِّ، وَٱلْخُلْفَ يُوجِبُ ٱلْمَقْتَ عِنْدَ ٱللهِ وَالنَّاسِ. قَالَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1].
وَإِيَّاكَ وَٱلْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا، أَوِ التَّسَاقُطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا، أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إذا تَنَكَّرَتْ، أَوِ ٱلْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا ٱسْتَوْضَحَتْ. فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ، وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ.
وَإِيَّاكَ وَٱلِاسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ، وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَىٰ بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ. وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ ٱلْأُمُورِ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ. ٱمْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ، وَٱحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذٰلِكَ بِكَفِّ ٱلْبَادِرَةِ، وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ، حَتَّىٰ يَسْكُنَ غَضَبُكَ، فَتَمْلِكَ ٱلِاخْتِيَارَ. وَلَنْ تَحْكُمَ ذٰلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّىٰ تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ ٱلْمَعَادِ إِلَىٰ رَبِّكَ.
وَٱلْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَىٰ لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا صلى الله عليه وآله، أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ ٱللهِ، فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ

---
١. سورة الصف ٣.

فِيهَا، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي ٱتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هٰذَا، وَٱسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ ٱلْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ، لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَىٰ هَوَاهَا.

الشّرْحُ:

قد اشتمل هذا الفصلُ على وصايا نحنُ شارحوها:

منها قولُه ﷺ: «إيّاك وما يُعجبك من نفسك، والثّقة بما يُعجِبك منها»؛ قد ورد في الخبر: «ثلاثٌ مُهلِكات: شُحٌّ مُطاع، وهوىً متّبَع، وإعجاب المرءِ بنفسه».

وكان بعضُ الصّالحين يقول إذا أطراه إنسان: ليسألكَ اللهُ عن حُسن ظنّك.

ومنها قولُه: «وإيّاك والمَنّ»، قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ والأَذَى**﴾[1]. وكان يقال: المَنّ محبّة للنفس، مَفسَدة للصّنع.

ومنها نَهيُه إيّاه عن التزيّد في فعله، قال ﷺ: إنّه يَذهَب بنُور الحقّ، وذلك لأنّه محض الكذب، مِثل أن يسديَ ثلاثة أجزاء من الجميل، فيدّعي في المجالس والمحافِل أنّه أسدَى عشرةً، وإذا خالط الحقُّ الكذبَ أذهبَ نورَه.

ومنها نهيُه إيّاه عن خُلف الوَعد، قد مدح اللهُ نبيّاً من الأنبياء وهو إسماعيل بنُ إبراهيمَ ﷺ بصِدْق الوعد. وكان يقال: وعد الكريم نَقْد وتَعْجيل، ووعدُ اللئيم مَطْل وتَعْطيل. وفي الحديث المرفوع: «عدَة المؤمن كأخذٍ باليد»، فأمّا أميرُ المؤمنين ﷺ فقال: «إنّه يوجب المَقْت»، واستَشهَدَ عليه بالآية. والمَقْت: البُغض.

ومنها نهيُه عن العَجَلة؛ وكان يقال: أصاب متثبّت أو كاد، وأخطأَ عَجِل أو كاد. وفي المَثَل: «ربَّ عَجَلة تَهَبُ رَيْثاً»، وذَمّها الله تعالى فقال: ﴿**خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ**﴾[2].

ومنها نهيُه عن التّساقط في الشيء الممكن عند حضوره، وهذا عبارةٌ عن النهي عن الحِرْص والجَشَع.

ومنها نهيه عن اللّجاجة في الحاجة إذا تعذّرت؛ كأن يقال: مَن لاجّ اللهَ فقد جعَلَه خصماً، ومن كان الله خصمَه فهو مخصوم، قال الغزّي:

---

١. سورة البقرة ٢٦٤.

٢. سورة الأنبياء ٣٧.

دعْها سماويّة تجري على قَـدَرٍ　　لا تُفْسِدَنْها برأيٍ منك مَـعكوسِ

ومنها نـهيُه له عـن الوَهْـن فـيها إذا اسـتوضحت أي وَضَـحَتْ وانكشـفتْ، ويُـروَى: « واستُوضِحَتْ» فِعلُ ما لم يسمَّ فاعله، والوَهْن فيها إهمالُها وتركُ انتهاز الفرصة.

ومنها نهيُهُ عن الاستئثار، وهذا هو الخُلُق النبويّ. غَنم رسـولُ الله ﷺ غـنائمَ خَـيْبر، وكانت مِلءَ الأرض نعماً، فلمّا ركب راحلتَه وسار تَبِعه الناسُ يطلبون الغنائم وقَسْمَها، وهو ساكتٌ لا يكلّمهم، وقد أكثروا عليه إلحاحاً وسؤالاً، فمرّ بشجرة فخطفت رداءه، فـالتفتَ فقال: ردّوا عليّ ردائي، فلو ملكت بعدد رَمْل تِهامةَ مَغنَماً لقسمتُه بـينكم عـن آخـره ثـمّ لا تجدونني بخيلاً ولا جباناً، ونَزلَ وقَسمَ ذلك المالَ عن آخره عليهم كلّه، لم يأخذ لنفسه منه وَبرَةً.

ومنها نهيُه له عن التّغابي، وصورة ذلك أنّ الأمير يُومَى إليه أن فلاناً من خاصّته يَفعل كذا ويَفعل كذا من الأُمور المنكرة ويرتكبُها سرّاً، فيتغابَى عنه ويَتغافل، نهاهﷺ عن ذلك وقال: إنّك مأخوذٌ منك لغيرك، أي معاقَب، تقول: اللّهمّ خذ لي من فلان بحقّي، أي اللّـهم انـتقِم لي منه.

ومنها نهيُه إيّاه عن الغضب، وعن الحُكْم بما تقتضيه قوّتهُ الغضبيّة حتّى يسكن غضبُه. قد جاء في الخبر المرفوع: «لا يقضي القاضي وهو غَضْبان»، فإذا كان قد نُهِيَ أن يـقضيَ القاضي وهو غَضْبان على غير صاحبِ الخصومة، فبالأوْلى أن يُنهَى الأميرُ عن أن يَسـطوَ على إنسان وهو غَضبان عليه.

الأصْلُ:

ومن هذا العهد وهو آخره:

وَأَنَا أَسْأَلُ آللهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ، أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فيهِ رِضَاهُ، مِنَ آلْإِقَامَةِ عَلَىٰ آلْعُذْرِ آلْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ خَلْقِهِ، مَعَ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي آلْعِبَادِ، وَجَمِيلِ آلْأَثَرِ فِي آلْبِلَادِ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ، وَتَضْعِيفِ آلْكَرَامَةِ، وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ؛ إِنَّا إلى الله راغبون. وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ آللهِ صَلَّىٰ آللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ.

الشّرْحُ :

رُوِيَ : «كلّ رَغِيبة» ، والرغيبةُ ما يُرغَب فيه ؛ فأمّا الرّغبة فمصَدرُ رَغِبَ في كذا ، كأنّه قال : القادرُ على إعطاء كلّ سؤال ، أي إعطاء كلّ سائلٍ ما سأله .

ومعنى قوله : «من الإقامة على العُذْر» ، أي أسأل الله أن يوفّقني للإقامة على الاجتهاد ، وبَذْل الوُسْع في الطاعة ، وذلك لأنّه إذا بذل جهدَه فقد أعذَر ، ثمّ فسّر اجتهاده في ذلك في رضا الخَلْق ، ولم يفسّر اجتهاده في رضا الخالق ؛ لأنّه معلوم ، فقال : هو حُسنُ الثّـناء فـي العباد ، وجميل الأثر في البلاد .

فإن قلت : فقولُه «وتمام النّعمة» على ماذا تَعطفه ؟

قلت : هو معطوفٌ على «ما» من قوله «لما فيه» ، كأنّه قال : أسأل الله توفيقي لذا ولتمام النّعمة ، أي ولتمامِ نعمته عليّ ، وتضاعف كرامته لديّ ، وتوفيقه لهما هـو تـوفيقه للأعـمال الصالحة الّتي يستوجبهما بها .



الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام
إلى طلحة والزبير مع عمران بن الحصين الخزاعيّ[1]

وذكر هذا الكتاب أبو جعفر الإسكافي[2] في كتاب المقامات :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ عَلِمْتُما ، وَإِنْ كَتَمْتُما ، أَنِّي لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّىٰ أَرَادُونِي ، وَلَمْ أُبـايِعْهُمْ

---

١. هو عمران بنُ الحُصَين الخزاعيّ ، وكان من فضلاء الصّحابة وفقهائهم أسلم عام خيبر ، مات بالبصرة سنة اثنتين وخمسين .

٢. أبو جعفر الإسكافيّ ـ وهو محمّد بن عبد الله الإسكافي ـ عدّه قاضي القضاة في الطّبقة السـابعة مـن طـبقات المُعتزِلة ، وقال : كان أبو جعفر فاضلاً عالماً ، صنّف سبعين كتاباً فـي عـلم الكـلام . وهـو الذي نـقض كـتاب (العثمانية) علىٰ أبي عثمان الجاحظ في حياته ، وكان أبوجعفر يقول بالتفضيل علىٰ قاعدة معتزلة بغداد ، ويبالغ في ذلك ، وكان عَلَويَّ الرأي ، محقّقاً منصفاً ، قليل العصبية .

حَتَّىٰ بَايَعُونِي . وَإِنَّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِي وَبَايَعَنِي ، وَإِنَّ العَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِي لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ ، وَلَا لِحِرْصٍ حَاضِرٍ ، فَإِنْ كُنْتُما بَايَعْتُمانِي طَائِعَيْنِ ، فَارْجِعَا وَتُوبَا إِلَىٰ ٱللهِ مِنْ قَرِيبٍ ، وَإِنْ كُنْتُما بَايَعْتُمانِي كَارِهَيْنِ ، فَقَدْ جَعَلْتُما لِي عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ وَإِسْرَارِكُمَا ٱلْمَعْصِيَةَ . وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُما بِأَحَقِّ ٱلْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ وَٱلْكِتمانِ ، وَإِنَّ دَفْعَكُمَا هٰذَا ٱلْأَمْرَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَدْخُلَا فِيهِ ، كَانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُمَا مِنْ خُرُوجِكُمَا مِنْهُ بَعْدَ إِقْرَارِكُمَا بِهِ .

وَقَدْ زَعَمْتُما أَنِّي قَتَلْتُ عُثْمانَ ، فَبَيْنِي وَبَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَعَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ، ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ ٱمْرِيءٍ بِقَدْرِ مَا ٱحْتَمَلَ . فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا ؛ فَإِنَّ ٱلآنَ أَعْظَمَ أَمْرِكُمَا ٱلْعَارُ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجتَمِعَ ٱلْعَارُ وَالنَّارُ . وَالسَّلَامُ .

الشّرْحُ :

قولهﷺ : «لم أُرد الناس» ، أي لم أُرد الولايةَ عليهم حتّى أرادوا هم منّي ذلك . «ولم أبايعْهم حتى بايعوني» ، أي لم أمدُدْ يدي إليهم مدّ الطَّلَب والحرْص على الأمر ، ولم أمدُدها إلّا بعد أن خاطَبُوني بالإمْرَةِ والخلافة ، وقالوا بألسنتهم : قد بايعناك ، فحينئذٍ مددتُ يدي إليهم . قال : ولم يبايعني العامّة والمسلمون لسلطانٍ غَصَبهم وقهرَهم على ذلك ، ولا لحرص حاضر ، أي مال موجود فرّقته عليهم .

ثم قسم عليهما الكلام ، فقال : إن كنتما بايَعْتُماني طوعاً عن رضىً فقد وجب عليكما الرّجوع ؛ لأنّه لا وجه لانتقاض تلك البيعة ، وإن كنتما بايعتُماني مكْرَهَيْن عليها فالإكراه له صورةٌ ، وهي أن يجرّد السيف ويمدّ العنق ، ولم يكن قد وقع ذلك ، ولا يمكنكما أن تدّعياه ، وإن كنتما بايعتماني لا عن رضىً ولا مكرهين بل كارهين ، وبين المُكْرَه والكاره فرقُ بيّن ، فالأُمور الشرعيّة إنما تُبنىٔ على الظاهر ، وقد جعلتُما لي على أنفسكما السّبيل بإظهاركما الطاعة ، والدخول فيما دخل فيه الناس ، ولا اعتبار بما أسرزتما من كراهية ذلك . على أنه لو كان عندي ما يكرهه المسلمون لكان المهاجرون في كراهيّة ذلك سواء ؛ فما الذي جعلكما أحقَّ المهاجرين كلّهم بالكتمان والتقيّة .

ثم قال: وقد كان امتناعكما عن البيعة في مبدأ الأمر أجمل من دخولكما فيها ثم نكثها. قال: وقد زعمتما أنّ الشبهة التي دخلت عليكما في أمري أني قتلتُ عثمان، وقد جعلتُ الحكمَ بيني وبينكما من تخلّف عنّي وعنكما مِن أهل المدينة، أي الجماعة التي لم تَنصُر عليّاً ولا طلحة، كمحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، وغيرهم، يعني أنهم غيرُ متَّهمين عليه، ولا على طلحة والزبير، فإذا حكموا لزم كلّ امرئ منّا بقدر ما تقتضيه الشهادات. ولا شبْهة أنهم لو حكموا وشهدوا بصورة الحال لحكموا ببراءة عليّ‌ﷺ من دم عثمان، وبأن طلحة كان هو الجملة والتفصيل في أمره وحصره وقتله، وكان الزبير مساعداً له على ذلك، وإن لم يكن مكاشفاً مكاشفة طلحة.

ثم نهاهما عن الإصرار على الخطيئة، وقال لهما: إنكما إنما تخافان العار في رجوعكما وانصرافكما عن الحرب، فإن لم ترجعا اجتمع عليكما العار والنار؛ أما العار فلأنكما تهزِمان وتفرّان عند اللّقاء فتعيَّران بذلك، وأيضاً سيُكشف للنّاس أنكما كنتما على باطل فتعيّران بذلك، وأمّا النار فإليها مصيرُ العُصاة إذا ماتوا على غير توبة، واحتمال العار وحده أهوَنُ من احتماله واحتمال النارِ معه.



الأصْلُ:

ومن كتاب له‌ﷺ إلى معاوية

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا، وَٱبْتَلَىٰ فِيهَا أَهْلَهَا، لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً. وَلَسْنَا لِلدُّنْيَا خُلِقْنَا، وَلَا بِالسَّعْيِ فِيهَا أُمِرْنَا، وَإِنَّمَا وُضِعْنَا فِيهَا لِنُبْتَلَىٰ بِهَا، وَقَدِ ٱبْتَلَانِي ٱللهُ بِكَ وَٱبْتَلَاكَ بِي، فَجَعَلَ أَحَدَنَا حُجَّةً عَلَىٰ ٱلْآخَرِ، فَغَدَوتَ عَلَىٰ طَلَبِ الدُّنْيَا بِتَأْوِيلِ ٱلْقُرْآنِ، وَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَدِي وَلَا لِسَانِي، وَعَصَبْتَهُ أَنْتَ وَأَهْلُ الشَّامِ بِي، وَأَلَّبَ عَالِمُكُمْ جَاهِلَكُمْ، وَقَائِمُكُمْ قَاعِدَكُمْ. فَاتَّقِ ٱللهَ فِي

نَفْسِكَ، وَنَازِعِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ، وَٱصْرِفْ إِلَىٰ ٱلآخِرَةِ وَجْهَكَ، فَهِيَ طَرِيقُنَا وَطَرِيقُكَ، وَٱحْذَرْ أَنْ يُصِيبَكَ ٱللهُ مِنْهُ بِعَاجِلِ قَارِعَةٍ تَمَسُّ ٱلْأَصْلَ، وَتَقْطَعُ الدَّابِرَ، فَإِنِّي أُولِي لَكَ بِاللهِ أَلِيَّةً غَيْرَ فَاجِرَةٍ، لَئِنْ جَمَعَتْنِي وَإِيَّاكَ جَوَامِعُ ٱلْأَقْدَارِ لَا أَزَالُ بِبَاحَتِكَ؟ ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ﴾.

الشَّرْحُ:

قال ﷺ: «إن الله قد جعل الدنيا لما بعدها»، أي جعلها طريقاً إلى الآخرة. ومن الكلمات الحكميّة: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها. «وابتلى فيها أهلها»: أي اختبرهم ليعلم أيهم أحسنُ عملاً، وهذا من ألفاظ القرآن العزيز[1]، والمراد ليعلم خلقه، أو ليعلم ملائكته ورُسُله، فحذف المضاف، وقد سبق ذكر شيء يناسب ذلك فيما تقدّم. قال: «ولسنا للدنيا خُلِقْنا»، أي لم نخلق للدنيا فقط. «ولا بالسعي فيها أُمرنا»، أي لم نؤمر بالسعي فيها لها، بل أُمِرْنا بالسعي فيها لغيرها. ثمّ ذكر أنّ كلّ واحد منه ومن معاوية مُبتلىً بصاحبه، وذلك كابتلاء آدم بإبليسَ وإبليسَ بآدم.

قال: «فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن»، أي تعدّيت وظلمت، و «على» هاهنا متعلّقة بمحذوف دلّ عليه الكلام، تقديرُه مثابراً على طلب الدنيا، أو مصرّاً على طلب الدنيا، وتأويل القرآن ماكان معاوية يموّه به على أهل الشام فيقول لهم: أنا وليّ عثمان، وقد قال الله تعالى: **﴿ومن قُتِلَ مَظلوماً فَقَدْ جَعَلْنا لوليّه سلطاناً﴾**[2]. ثم يَعِدُهم الظفر والدولة على أهل العراق بقوله تعالى: **﴿فلا يُسرِفْ في القتْلِ إنه كانَ مَنْصوراً﴾**[3].

قوله: «وعصبته أنت وأهل الشام»، أي ألزمتنيه كما تلزم العصابة الرأس. «وألّب عالمكم جاهلَكم»، أيّ حرّض. والقيادة: حبل تقاد به الدابّة. «واحذر أن يصيبك اللهُ منه بعاجل قارعة»، الضمير في «منه» راجعٌ إلى الله تعالى، و «مِن» لابتداء الغاية. «تمسّ الأصل»، أي تقطعه، ومنه ماء ممسوس أي يقطع الغُلّة. ويقطَع الدابر أي العقب والنسل.

---

١. في قوله تعالىٰ في سورة الكهف ٧: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.

٢. سورة الإسراء ٣٣.

٣. المصدر السابق.

والأليّة: اليمين. وباحة الدار: وَسَطها، وكذلك ساحَتُها. ورُوي: بناحيتك.

قوله: «بعاجل قارعة، وجوامع الأقدار»، من باب إضافة الصفة إلى الموصوف للتأكيد، كقوله تعالى ﴿وإنه لحق اليقين﴾[1].



الأَصْلُ:

ومن كلام له عليه السلام وصّىٰ به شريح بن هانئ لما جعله على مقدمته إلى الشام

ٱتَّقِ ٱللهَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، وَخَفْ عَلَىٰ نَفْسِكَ الدُّنْيَا ٱلْغَرُورَ، وَلَا تَأْمَنْهَا عَلَىٰ حَالٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَرْدَعْ نَفْسَكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تُحِبُّ مَخَافَةَ مَكْرُوهٍ، سَمَتْ بِكَ ٱلْأَهْوَاءُ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِ، فَكُنْ لِنَفْسِكَ مَانِعاً رَادِعاً، وَلِنَزْوَتِكَ عِنْدَ ٱلْحَفِيظَةِ وَاقِماً قَامِعاً.

الشَّرْحُ:

هو شُرَيح بن هانئ بن يزيدَ المَذْحِجيّ. من جِلّة أصحاب عليّ عليه السلام، شهد معه المشاهد كلَّها، وعاش حتّى قُتِل بسِجِسْتان في زمن الحجّاج، وشُرَيْح جاهليّ إسلاميّ، يكنى أبا المِقْدام، ذَكَر ذلك كلَّه أبو عمرَ بنُ عبدِ البرّ في كتاب الاستيعاب[2].

قولُه عليه السلام: وخَفْ على نفسك الغَرورَ، يعني الشيطان، فأما الغُرور بالضّم فمصدر. والرادع: الكافّ المانع. والنَّزَوات: الوَثَبات. والحَفِيظة: الغضب. والواقِم: فاعلٌ، من وقَمْتُه أي رددتُه أقبحَ الردّ وقهرتُه. يقول عليه السلام: إنْ لم تَردَع نفسَك عن كثير من شَهَواتِك أفضتْ بك

---

١. سورة الحاقة ٥١.

٢. الاستيعاب ٦٠٧.

إلى كثيرٍ من الضّرر، ومثلُ هذا قولُ الشاعر:

فـإنَّكَ إنْ أعـطيتَ بـطنَك سُـؤلَها وفَرْجَك نالاَ مُنتَهى الذَّمِّ أجمَعَا[١]



الأصْلُ:

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي خَرَجْتُ مِنْ حَيِّي هٰذَا: إِمَّا ظَالِماً، وَإِمَّا مَظْلُوماً؛ وَإِمَّا بَاغِياً، وَإِمَّا مَبْغِيّاً عَلَيْهِ. وَإِنِّي أُذَكِّرُ ٱللهَ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هٰذَا لَمَّا نَفَرَ إِلَيَّ، فَإِنْ كُنْتُ مُحْسِناً أَعَانَنِي، وَإِنْ كُنْتُ مُسِيئاً ٱستَعْتَبَنِي.

الشّرْحُ:

ما أحسنَ هذا التقسيم وما أبلَغه في عطف القلوب عليه، واستمالة النفوس إليه!

قال: لا يَخْلو حالي في خُروجي من أحد أمرين: إمّا أن أكون ظالماً أو مظلوماً، وبدأ بالظّالم هَضْماً لنفسه، ولئلّا يقول عدوه: بدأ بدعوَى كونه مظلوماً، فأعطى عدوَّه من نفسِه ما أراد. قال: فليَنفِر المسلمون إليّ فإنْ وجدوني مظلوماً أعانوني، وإن وجدوني ظالماً نهَوْني عن ظُلمي لأعتِبَ وأنيبَ إلى الحقّ. وهذا كلام حَسن، ومرادُه عليه السلام يَحصل على كلا الوجهين، لأنّه إنّما أراد أن يستنفرَهم، وهذان الوجهان يقتضيان نفيرَهم إليه على كلّ حال، والحـيّ: المنزل، ولمّا هاهنا بمعنى إلّا، كقوله تعالى: **﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾**[٢] في قراءة من قرأها بالتّشديد.

---

١. البيت لحاتم، وهو من شواهد المغني ٣٣١.

٢. سورة الطارق ٤.



الأصْلُ:

ومن كتاب لهﷺ كتبه إلى أهل الأمصار

يقص فيه ما جرى بينه وبين أهل صفين:

وَكَانَ بَدْءُ أَمْرِنَا أَنَّا ٱلْتَقَيْنَا بِالْقَوْمِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ رَبَّنَاوَاحِدٌ، وَنَبِيَّنَا وَاحِدٌ، وَدَعْوَتَنَا فِي ٱلْإِسْلَامِ وَاحِدَةٌ، وَلَا نَسْتَزِيدُهُمْ فِي ٱلْإِيمَانِ بِاللهِ وَالتَّصْدِيقِ بِرَسُولِهِ، وَلَا يَسْتَزِيدُونَنَا؛ وَٱلْأَمْرُ وَاحِدٌ إِلَّا مَا ٱخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ دَمِ عُثْمانَ، وَنَحْنُ مِنْهُ بَرَاءٌ، فَقُلْنَا: تَعَالَوْا نُدَاوِ مَا لَايُدْرَكُ ٱلْيَوْمَ بِإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ، وَتَسْكِينِ ٱلْعَامَّةِ، حَتَّىٰ يَشْتَدَّ ٱلْأَمْرُ وَيَسْتَجْمِعَ، فَنَقْوَىٰ عَلَىٰ وَضْعِ ٱلْحَقِّ مَوَاضِعَهُ، فَقَالُوا: بَلْ نُدَاوِيهِ بِالْمُكَابَرَةِ، فَأَبَوْا حَتَّىٰ جَنَحَتِ ٱلْحَرْبُ وَرَكَدَتْ، وَوَقَدَتْ نِيرَانُهَا وَحَمِشَتْ.

فَلَمَّا ضَرَّسَتْنَا وَإِيَّاهُمْ، وَوَضَعَتْ مَخَالِبَهَا فِينَا وَفِيهِمْ، أَجَابُوا عِنْدَ ذٰلِكَ إِلَىٰ الَّذِي دَعَوْنَاهُمْ إِلَيْهِ، فَأَجَبْنَاهُمْ إِلَىٰ مَا دَعَوْا، وَسَارَعْنَاهُمْ إِلَىٰ مَا طَلَبُوا، حَتَّىٰ ٱسْتَبَانَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْحُجَّةُ؛ وَٱنْقَطَعَتْ مِنْهُمُ ٱلْمَعْذِرَةُ، فَمَنْ تَمَّ عَلَىٰ ذٰلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ الَّذِي أَنْقَذَهُ ٱللهُ مِنَ ٱلْهَلَكَةِ، وَمَنْ لَجَّ وَتَمَادَىٰ فَهُوَ الرَّاكِسُ ٱلَّذِي رَانَ ٱللهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ، وَصَارَتْ دَائِرَةُ السَّوْءِ عَلَىٰ رَأْسِهِ.

الشّرْحُ:

رُوِي: «التقَيْنا والقوم» بالواو ومن لم يروها بالواو فقد استراح من التكلّف.

قوله: «والظاهر أن ربّنا واحد»، كلامُ من لم يَحكم لأهل صِفّين من جانب معاوية حُكْماً قاطعاً بالإسلام، بل قال: ظاهرُهم الإسلام، ولا خلْف بيننا وبينهم فيه، بل الخُلْف في دَمِ عثمان. قالﷺ: قلنا لهم: تعالوْا فلنُطفئ هذه النائرة الآن بوضع الحرب إلى أن تتمهّد قاعدتي في الخلافة وتزول هذه الشوائبُ الّتي تُكدِّر عليّ الأمر، ويكونَ للنّاس جماعةٌ

ترجع إليها، وبعد ذلك أتمكّن من قَتَلةِ عثمان بأعيانهم فأقتصّ منهم، فأبَوْا إلّا المكابرَة والمغالبة والحرب. «حتّى جَنَحتْ الحرب ورَكدَت»، جَنَحت: أقبلتْ، ومنه: قد جَنَح الليل، أي أقبل، ورَكَدت: دامت وثَبَتَتْ. «ووَقَدتْ نِيرانُها»، أي التهبت. «وحَمِشتْ»، أي استعرَت وشَبّت. ورُوِي: «واستحشَمَت» وهو أصحّ؛ ومن رواها «حَمَستْ» بالسين المهملة أراد اشتدّت وصَلُبت.

قوله: «فلمّا ضَرّستْنا وإيّاهم»، أي عضّتْنا بأضراسها، ويقال: ضَرَسَهم الدهر أي اشتدّ عليهم. قال: لمّا اشتدّت الحرب علينا وعليهم، وأكلَتْ منّا ومنهم، عادوا إلى ماكنّا سألناهم ابتداءً، وضَرَعوا إلينا في رَفْع الحرب، ورَفَعوا المصاحفَ يسألون النزولَ على حُكمِها، وإغمادَ السّيف، فأجبناهم إلى ذلك. قوله: «وسارعْناهم إلى ما طلبوا» كلمةٌ فصيحة، وهي تَعدِية الفعلِ اللّازم، كأنّهما لمّا كانت في معنى المُسابَقة، والمسابقة متعدّية عدّي المُسارعةَ.

قولُه: «حتّى استبانت»، يقول: استمرَرْنا على كفّ الحرب، ووضعِها إجابةً لسؤالهم إلى أن استبانت عليهم حجّتنا، وبطلتْ معاذيرُهم وشُبُهتُهم في الحرب وشَقّ العصا، فمن تمّ منهم على ذلك، أي على انقياده إلى الحقّ بعد ظهوره له، فذاكَ الّذي خَلّصه اللهُ من الهلاك وعذابِ الآخرة، ومن لَجّ منهم على ذلك وتَمادَى في ضلاله فهو الرّاكس؛ قال قوم: الراكس هُنا بمعنَى المَرْكوس، فهو مقلوب، فاعل بمعنى مفعول، كقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾[1]، أي مرضيّة، وعندي أنّ اللّفظة على بابها، يعني أنّ من لجّ فقد رَكَس نفسَه، فهو الرّاكس، وهو المركوس، يقال: ركَسه وأركَسَه بمعنىً، والكتابُ العزيز جاء بالهمز فقال: ﴿واللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾[2]، أي رَدّهم إلى كفرهم؛ ويقول: ارتَكَس فلان في أمرٍ كان نجا منه، ورانَ على قلبه، أي رانَ هو على قلبه، كما قلنا في الرّاكس؛ ولا يجوز أن يكون الفاعل ـ وهو الله ـ محذوفاً؛ لأنّ الفاعل لا يُحذَف، بل يجوز أن يكون الفاعلُ كالمحذوف وليس بمحذوف، ويكون المصدر وهو الرَّيْن، ودَلّ الفعل عليه كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَارَأَوُا الآيَاتِ﴾[3] أي بَدا لهم البداء. ورَانَ بمعنى غَلَب وغَطّى؛ ورُوِي: «فهو الرّاكس الّذي رينَ على قَلْبه».

---

١. القارعة ٧.

٢. سورة النساء ٨٨.

٣. سورة يوسف ٣٥.

قال: وصارت دائرةُ السَّوْء على رأسِه، من ألفاظ القرآن العزيز. قال الله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾[١]. والدوائر: الدُّوَل.

* وإنّ على الباغي تدورُ الدوائر *

والدائرة أيضاً: الهزيمة، يقال: على مَن الدائرةُ منهما، والدوائر أيضاً الدّواهي.



٥٩

الأصْلُ:

ومن كتاب له ﷺ إلى الأسود بن قُطْبَةَ صاحب جند حلوان

أَمَّا بَعْدُ، فإِنَّ ٱلْوَالِيَ إِذَا ٱخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذٰلِكَ كَثِيراً مِنَ ٱلْعَدْلِ، فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاس عِنْدَكَ فِي ٱلْحَقِّ سَوَاءً؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي ٱلْجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ ٱلْعَدْلِ، فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ، وَٱبْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيما ٱفْتَرَضَ ٱللهُ عَلَيْكَ، رَاجِياً ثَوابَهُ، وَمُتَخَوِّفاً عِقَابَهُ.

وَٱعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا فِيهَا قَطُّ سَاعَةً إِلَّا كَانَتْ فَرْغَتُهُ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ لَنْ يُغْنِيَكَ عَنِ ٱلْحَقِّ شَيْءٌ أَبَداً، وَمِنَ ٱلْحَقِّ عَلَيْكَ حِفْظُ نَفْسِكَ، وَٱلاِحْتِسَابُ عَلَى الرَّعِيَّةِ بِجُهْدِكَ، فَإِنَّ ٱلَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذٰلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَصِلُ بِكَ. وَالسَّلَامُ.

الشّرْحُ:

الّذي يَغلِب على ظنّي أنّه الأسود بنُ زيد بنِ قُطْبة بن غَنْم الأنْصاري من بني عُبَيد بن عَدِيّ. ذكَره أبو عمرَ بنُ عبدِ البرّ في كتاب «الاستيعاب»، وقال: إنّ موسى بنَ عُقْبة عدّه فيمن شَهِدَ بَدْراً[٢].

١. سورة الفتح ٦.

٢. الاستيعاب ١: ٩٠ (طبعة نهضة مصر).

قولهعليه السلام: إذا اختلف هَوَى الوالي منعَه كثيراً من الحقّ قولُ صِدْق؛ لأنّـه مَـتَى لم يكـن الخصمان عند الوالي سواءً في الحقّ جارَ وظَلم. ثم قال له: فإنّه ليس في الجَوْرِ عِوضٌ من العَدْل؛ وهذا أيضاً حقّ، وفي العدل كلّ العِوض مِن الجور. ثمّ أمَرَه باجتناب ما ينكَر مِثله من غيره، وقد تقدّم نحوُ هذا.

وقوله: «إلّا كانت فَرْغَتُه» كلمةٌ فصيحة، وهي المرّة الواحدة من الفَراغ، وقد رُوِيَ عن النبيّصلى الله عليه وآله: «إنّ الله يُبغِضُ الصحيحَ الفارغ لا في شُغْل الدنيا ولا في شُغْل الآخرة»، ومرادُ أميرِ المؤمنينعليه السلام هاهنا الفَراغُ من عمل الآخرة خاصّة.

قوله: «فإنّ الّذي يصل إليك من ذلك أفضلُ من الّذي يَصِل بك»، معناه فإنّ الّذي يصل إليك من ثواب الاحتساب على الرعيّة، وحفظ نفسك من مَظالِمهم والحَيْف عليهم، أفضلُ من الّذي يصل بك من حِراسةِ دِمائِهم وأعراضِهم وأموالِهم؛ ولا شُبهة في ذلك؛ لأنّ إحدى المنفعتين دائمة، والأُخرى منقطِعة، والنفع الدائمُ أفضلُ من المنقطِع.



٦٠

الأصْلُ:

ومن كتاب لهعليه السلام إلى العمال الذين يطأ عملهم الجيوش

مِنْ عَبْدِ ٱللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلىٰ مَنْ مَرَّ بِهِ ٱلْجَيْشُ مِنْ جُبَاةِ ٱلْخَرَاجِ وَعُمَّالِ ٱلْبِلَادِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ سَيَّرْتُ جُنُوداً هِيَ مَارَّةٌ بِكُمْ إِنْ شَاءَ ٱللهُ، وَقَدْ أَوْصَيْتُهُمْ بِمَا يَجِبُ للهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كَفِّ ٱلْأَذَىٰ، وَصَرْفِ ٱلشَّذَىٰ، وَأَنَا أَبْرَأُ إِلَيْكُمْ وَإِلَىٰ ذِمَّتِكُمْ مِنْ مَعَرَّةِ ٱلْجَيْشِ، إِلَّا مِنْ جَوْعَةِ ٱلْمُضْطَرِّ لَا يَجِدُ عَنْهَا مَذْهَباً إِلَىٰ شِبَعِهِ، فَنَكِّلُوا مَنْ تَنَاوَلَ مِنْهُمْ ظُلْماً عَنْ ظُلْمِهِمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَ سُفَهَائِكُمْ عَنْ مُضَادَّتِهِمْ، وَٱلتَّعَرُّض لَهُمْ فِيمَا ٱسْتَثْنَيْنَاهُ مِنْهُمْ. وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِ ٱلْجَيْشِ، فَٱرْفَعُوا إِلَيَّ مَظَالِمَكُمْ، وَمَا عَرَاكُمْ مِمَّا

يَغْلِبُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلَا تُطِيقُونَ دَفْعَهُ إِلَّا بِاللهِ وَبِي، أُغَيِّرْهُ بِمَعُونَةِ اللهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

الشّرْحُ :

رُوِي «عن مُضارّتهم» بالراء المشدّدة. وجُباة الخَراج : الّذين يَجمَعونه، جَبيتُ الماءَ في الحوض، أي جمعتُه. والشَّذَى: الضرب والشرّ، تقول: لقد أشذَيْت وآذَيْت. وإلى ذمّتكم، أي إلى اليهود والنّصارى الّذين بينكم، قالﷺ : «من آذى ذِمّيّاً فكأنّما آذاني»، وقال: إنما بذلوا الجِزْية لتكون دماؤهم كدِمائِنا، وأموَالُهم كأموالنا، ويسمّى هؤلاء ذِمّة، أي أهل ذِمّة، بحذف المضاف .والمَعَرّة: المَضَرّة، قال : الجيش ممنوعٌ من أذى من يمرّ به من المسلمين وأهل الذمّة إلّا من سدّ جَوْعة المضطرّ منهم خاصّة ؛ لأنّ المضطرّ تباح له الميتة فضلاً عن غيرها.

ثمّ قال: فنكّلوا من تَناوَل، ورُوِي : «بمن تَناوَل» بالباء، أي عاقِبوه. و «عن» في قوله : «عن ظلمهم»، يتعلّق بنكلوا، لأنّها في معنَى «اردعوا» ؛ لأنَّ النَّكالَ يُوجِب الرّدْع.

ثمّ أمرهم أن يكفّوا أيدِيَ أحداثِهم وسفهائِهم عن مُنازَعة الجيش ومصادَمتِه، والتعرّض لمنعه عمّا استثناه، وهو سدّ الجوعة عند الاضطرار، فإنّ ذلك لا يجوز في الشرع، وأيضاً فإنّه يُفضِي إلى فتنة وهَرَج. ثمّ قال: «وأنا بين أظهُر الجَيْش»، أي أنا قريبٌ منكم، وسائرٌ على إثْر الجيش، فارفعوا إليّ مظالمَكم وما عَراكم منهم على وجه الغَلَبة والقَهْر، فإنّي مغيّرٌ ذلك ومنتصِفٌ لكم منهم.



الأصْلُ :

ومن كتاب لهﷺ إلى كميل بن زياد النخعي

وهو عامله على هيت ينكر عليه تركه دفع من يجتاز به من جيش العدو طالباً للغارة :

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ تَضْيِيعَ ٱلْمَرْءِ مَا وُلِّيَ، وَتَكَلُّفَهُ مَا كُفِيَ، لَعَجْزٌ حَاضِرٌ، وَرَأْيٌ مُتَبَّرٌ. وَإِنَّ

تَعَاطِيَكَ ٱلْغَارَةَ عَلَىٰ أَهْلِ قِرْقِيسِيَا، وَتَعْطِيلَكَ مَسَالِحَكَ الَّتِي وَلَّيْنَاكَ - لَيْسَ لها مَنْ يَمْنَعُهَا، وَلَا يَرُدُّ ٱلْجَيْشَ عَنْهَا - لَرَأْيٌ شَعَاعٌ، فَقَدْ صِرْتَ جِسْراً لِمَنْ أَرَادَ ٱلْغَارَةَ مِنْ أَعْدَائِكَ عَلَىٰ أَوْلِيَائِكَ، غَيْرَ شَدِيدِ ٱلْمَنْكِبِ، وَلَا مَهِيبِ ٱلْجَانِبِ، وَلَا سَادٍّ ثُغْرَةً، وَلَا كَاسِرٍ لِعَدُوٍّ شَوْكَةً، وَلَا مُغْنٍ عَنْ أَهْلِ مِصْرِهِ، وَلَا مُجْزٍ عَنْ أَمِيرِهِ. والسلام.

الشَّرْحُ:

هو كُمَيل[1] بنُ زياد بنِ سهيل النخعي. كان من أصحاب عليّ عليه السلام وشيعتِه وخاصّتِه، وقتله الحجّاج على المَذهب فيمن قَتَل من الشّيعة. وكان كُمَيل بنُ زياد عاملَ عليّ عليه السلام على هِيتَ، وكان ضعيفاً يمرّ عليه سرايا معاوية تَنهبُ أطرافَ العِراق ولا يردّها، ويحاول أن يجبُر ما عندَه من الضّعف بأن يُغِير على أطراف أعمال معاوية مثل قَرْقِيسِيا وما يَجرِي مَجرَاها من القُرَى التي على الفرات، فأنكر عليه السلام ذلك مِن فِعله، وقال: إنّ من العجز الحاضرِ أن يُهمِل الوالِي ما وَلِيه، ويتكلّف ما ليس من تكليفه.

والمتبَّر: الهالك؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾[2]. والمسالح: جمعُ مَسلَحة، وهي المواضع الّتي يقام فيها طائفةٌ من الجند لحمايتها. ورأيٌ شَعاع بالفتح، أي متفرّق.

ثم قال له: «قد صرتَ جِسْراً»، أي يَعبُر عليكَ العدوّ كما يَعبُر النّاسُ على الجُسور، وكما أنّ الجِسْر لا يَمنَع من يَعبُر به ويمرّ عليه فكذاك أنت.

والثُّغْرة: الثُّلْمة. ومُجْزٍ: كافٍ ومُغْنٍ؛ والأصل «مُجزِئٌ» بالهمز فخفّف.

---

١. كان كميل من أعاظم خواص أمير المؤمنين عليه السلام وأصحاب سرّه وهو القائد العابد والزاهد العالم، كان الإمام عليه السلام يردفه معه على راحلته ويحدّثه بأمور لم يطّلع عليها أحد غيره، شهد مع الإمام (صفين)، روى عنه جماعة من التابعين وقد روى دعاء الخضر عليه السلام عن الإمام عليه السلام، وهو المسمى بدعاء (كميل)، قتله الحجاج صبراً، وكان الإمام عليه السلام قد أخبره بذلك. دفن بالثوية في ظهر الكوفة، وقبره يزار ويتبرك به.

٢. سورة الأعراف ١٣٩.



الأصْلُ :

ومن كتاب لهعليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتررضي الله عنه لما ولاه إمارتها

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداًصلى الله عليه وآله نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ ، وَمُهَيْمِناً عَلَىٰ ٱلْمُرْسَلِينَ. فلمَّا مَضىٰصلى الله عليه وآله تنَازَعَ ٱلْمُسْلِمُونَ ٱلْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ؛ فَوَٱللهِ مَا كَانَ يُلْقَىٰ فِي رُوعِـي ، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّ ٱلْعَرَبَ تُزْعِجُ هٰذَا ٱلْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَلَا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ ! فَمَا رَاعَنِي إِلَّا ٱنْثِيَالُ النَّاس عَلَىٰ فُـلَانٍ يُبَايِعُونَهُ ، فَأَمْسَكْتُ بِيَدِي حَتَّىٰ رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّـاس قَـدْ رَجَـعَتْ عَـنِ ٱلْإِسْـلَامِ ، يَدْعُونَ إِلَىٰ مَحْقِ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ ٱلْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَىٰ فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً ، تَكُونُ ٱلْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلَايَتِكُمْ ، الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَـلَائِلَ ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَـانَ ، كَـمَا يَـزُولُ السَّـرَابُ ، أَوْ كَـمَا يَـتَقَشَّعُ السَّحَابُ . فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ ٱلْأَحْدَاثِ حَتَّىٰ زَاحَ ٱلْبَاطِلُ وَزَهَقَ ، وَٱطْمَأَنَّ الدِّيـنُ وَتَنَهْنَهَ.

الشّرْحُ :

المُهيمِن : الشاهد ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً﴾ ، أي تشهد بإيمان مَـنْ آمَن وكُفْر من كَفَر . وقيل : تشهد بصحّة نبوّة الأنبياء قبلك . وقوله : «على المرسلين» ، يؤكّد صحّة هذا التفسير الثاني ، وأصل اللّفظة من « آمن غيره من الخوف» ؛ لأنّ الشـاهد يـؤمّن غيره من الخَوْف بشهادته ، ثمّ تصرفوا فيها فأَبدلوا إحدَى همزتَي «مـؤامـن» يـاء فـصار « مُؤَيْمن» ، ثم قَلَبوا الهمزة هاءً كأُرقْت وهَرَقْت فصار «مُهَيْمن» .

والرُّوع : الخلَد؛ وفي الحديث : «إنّ رُوح القُدُس نَفَث في رُوعي» ، قال : ما يخطر لي ببالٍ أنّ العرب تَعدِل بالأمر بعد وفاة محمّدصلى الله عليه وآله عن بني هاشم ، ثمّ من بني هاشم عنّي ؛ لأنّه كان

المتيقّن بحكم الحال الحاضرة.

قال: «فما راعني إلّا انثيال الناس»، تقول للشيء يفْجَؤك بغتَةً: ما راعني إلّا كذا، والرَّوْع بالفتح: الفَزَع، كأنه يقول: ما أفزعني شيءٌ بعد ذلك السكون الذي كان عندي، وتلك الثقة التي اطمأنَنْتُ إليها إلّا وقوعُ ما وقع من انثيال الناس ـ أي انصبابهم من كلّ وجه كما ينثال التراب ـ على أبي بكر، وهكذا لفظ الكتاب الذي كتبه للأشتر، وإنما الناسُ يكتبونه الآن «إلى فلان» تذمّماً من ذكر الاسم كما يكتبون في أوّل الشِقْشِقِيّة: «أما والله لقد تقمّصها فلانٌ»، واللفظ «أما والله لقد تقمّصها ابن أبي قُحافة».

قوله: «فأمسكتُ بيدي»، أي امتنعتُ عن بيعته، حتى رأيت راجعة الناس، يعني أهل الرِّدة كمسيلمة، وسَجاح وطُليحة بن خويلد، ومانعي الزكاة؛ وإن كان مانعوا الزكاة قد اختلف في أنّهم أهل رِدّة أم لا؟ ومحقُ الدِّين: إبطاله. وزَهَق: خَرَج وزال. تنهنَه: سكن، وأصله الكفّ، تقول: نهنهت السبعَ فتَنَهْنَه، أي كَفّ عن حركته وإقدامه، فكأنّ الدّين كان متحرّكاً مضطرباً فسكن وكفّ عن ذلك الاضطراب.

قلت: هذا هو الحديث الذي أشار عليه السلام إلى أنه نهض فيه أيام أبي بكر. وكأنه جوابٌ عن قول قائل: إنه عمل لأبي بكر، فبيّن عليه السلام عذرَه في ذلك، وقال: إنه لم يكن كما ظنّه القائل، ولكنه من باب دَفْع الضرر عن النفس وعن الدين، فإنه واجبٌ سواء كان للنّاس إمام أو لمْ يكن.

الأصْلُ:

ومن هذا الكتاب:

إنِّي وَٱللهِ لَوْ لَقِيتُهُمْ وَاحِداً وَهُمْ طِلَاعُ ٱلْأَرْض كُلِّهَا مَا بَالَيْتُ وَلَا ٱسْتَوْحَشْتُ، وَإِنِّي مِنْ ضَلَالِهِمُ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ، وَٱلْهُدَىٰ ٱلَّذِي أَنَا عَلَيْهِ، لَعَلَىٰ بَصِيرَةٍ مِنْ نَفْسِي وَيَقِينٍ مِنْ رَبِّي. وَإِنِّي إِلَىٰ لِقَاءِ ٱللهِ لَمُشْتَاقٌ، وَلِحُسْنِ ثَوَابِهِ لَمُنْتَظِرٌ رَاجٍ؛ وَلَكِنَّنِي آسَىٰ أَنْ يَلِيَ أَمْرَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ سُفَهَاؤُهَا وَفُجَّارُهَا، فَيَتَّخِذُوا مَالَ ٱللهِ دُوَلًا، وَعِبَادَهُ خَوَلاً، وَٱلصَّالِحِينَ حَرْباً، وَٱلْفَاسِقِينَ حِزْباً؛ فَإِنَّ مِنْهُمُ ٱلَّذِي قَدْ شَرِبَ فِيكُمُ ٱلْحَرَامَ، وَجُلِدَ حَدّاً فِي

ٱلْإِسْلَامِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتَّىٰ رُضِخَتْ لَهُ عَلَىٰ ٱلْإِسْلَامِ الرَّضَائِخُ. فَلَوْلَا ذٰلِكَ مَا أَكْثَرْتُ تَأْلِيبَكُمْ وَتَأْنِيبَكُمْ، وَجَمْعَكُمْ وَتَحْرِيضَكُمْ، وَلَتَرَكْتُكُمْ إِذْ أَبَيْتُمْ وَوَنَيْتُمْ.

أَلَا تَرَوْنَ إِلَىٰ أَطْرَافِكُمْ قَدِ ٱنْتَقَصَتْ، وَإِلَىٰ أَمْصَارِكُمْ قَدِ ٱفْتُتِحَتْ، وَإِلَىٰ مَمَالِكِكُمْ تُزْوَىٰ، وَإِلَىٰ بِلَادِكُمْ تُغْزَىٰ!

ٱنْفِرُوا - رَحِمَكُمُ ٱللهُ - إِلَىٰ قِتَالِ عَدُوِّكُمْ، وَلَا تَثَّاقَلُوا إِلَىٰ ٱلْأَرْضِ فَتَقِرُّوا بِالْخَسْفِ، وَتَبُوؤُا بِالذُّلِّ، وَيَكُونَ نَصِيبُكُمُ ٱلْأَخَسَّ، وَإِنَّ أَخَا ٱلْحَرْبِ ٱلْأَرِقُ، وَمَنْ نَامَ لَمْ يُنَمْ عَنْهُ، وَالسَّلَامُ.

الشَّرْحُ:

طِلاع الأرض: ملؤُها. وآسَى: أحزَن. وأكثرت تأليبَكم: تحريضَكم وإغراءكم به. والتأنيب: أشدّ اللّوم. ونَيْتم: ضَعُفتم وفترتم. ومَمالِككم تزوَى، أي تُقبَض. ولا تثّاقلوا بالتّشديد، أصلُه «تتثاقلوا». وتقرّوا بالخسف: تَعترفوا بالضّيم وتَصبروا له. وتبوءوا بالذلّ: تَرجِعوا به. والأرِق: الّذي لا ينام. ومِثلُ قولِه ﷺ: «من نام لم يُنَم عنه» قولُ الشاعر:

لله دَرُّكَ ما أردتَ بثائرٍ ... حرّانَ ليس عن التِّراتِ براقدِ[1]

أسهرْتَه ثمّ اضطجَعْت ولم يَنَم ... حَنَقاً عليك وكيف نَوْمُ الحاقدِ!

فأمّا الذي رُضِخت له على الإسلام الرّضائخ، فمعاوية؛ والرّضِيخة: شيء قليلٌ يُعطاه الإنسان يُصانَع به عن شيء يُطلَب منه كالأجر، وذلك لأنّه من المؤلَّفة قلوبُهم الّذين رَغِبوا في الإسلام والطاعة بجمالٍ وشاءٍ دُفِعتْ إليهم، وهم قومٌ معروفون كمعاوية وأخيه يزيد، وأبيهما أبي سُفْيان، وحكيم بن حِزام، وسُهَيل بن عمرو، والحارث بن هشام بن المغيرة، وحُوَيْطِب بن عبد العُزّى، والأخنَس بن شَريق، وصَفْوان بن أُميّة، وعُمير بن وهب الجُمَحيّ، وعُيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وعبّاس بن مِرْداس وغيرهم. وكان إسلام هؤلاء للطّمع والأغراض الدنياويّة، ولم يكن عن أصل ولا عن يقين وعلم.

---

١. التراث: جمع ترة؛ وهي الأخذ بالثأر.

وقال الراونديّ: عَنَى بقوله: «رُضِخَت لهم الرضائخ» عَمرَو بنَ العاص، وليس بصحيح؛ لأنّ عمراً لم يُسلِم بعد الفَتْح، وأصحاب الرضائخ كلّهم أسلَموا بعد الفتح، صُونعوا على الإسلام بغنائم حُنَين. ولَعَمري إسلام عَمْرو كان مدخولاً أيضاً؛ إلّا أنّه لم يكن عن رَضِيخة، وإنّما كان لمعنىً آخر. فأما الذي شَرِب الحرام، وجُلِد في حدّ الإسلام، الوليدُ بنُ عُقْبة بن أبي مُعَيط، وكان أشدّ الناس عليه وأبلَغَهم تحريضاً لمعاوية وأهل الشام على حَرْبه.



الأصْلُ:

من كتاب لهعليه‌السلام إلى أبي موسى الأشعريّ وهو عامله على الكوفة

وقد بلغه عنه تثبيطه الناس عن الخروج إليه لمّا ندبهم لحرب أصحاب الجمل:

مِنْ عَبْدِ ٱللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ قَيْس: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ قَوْلٌ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ، فإِذَا قَدِمَ رَسُولِي عَلَيْكَ فارْفَعْ ذَيْلَكَ، وَٱشْدُدْ مِئْزَرَكَ، وَٱخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ، وَٱنْدُبْ مَنْ مَعَكَ، فَإِنْ حَقَّقْتَ فَانْفُذْ، وَإِنْ تَفَشَّلْتَ فَابْعُدْ! وَٱيْمُ ٱللهِ لَتُؤْتَيَنَّ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ، وَلَا تُتْرَكُ حَتَّىٰ يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ، وَذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ، وَحَتَّىٰ تُعْجَلَ عَنْ قِعْدَتِكَ، وَتَحْذَرَ مِنْ أَمَامِكَ، كَحَذَرِكَ مِنْ خَلْفِكَ، وَمَا هِيَ بِالْهُوَيْنَىٰ الَّتِي تَرْجُو، وَلٰكِنَّهَا الدَّاهِيَةُ ٱلْكُبْرَىٰ يُرْكَبُ جَمَلُهَا، وَيُذَلَّلُ صَعْبُهَا، وَيُسَهَّلُ جَبَلُهَا. فَاعْقِلْ عَقْلَكَ، وَٱمْلِكْ أَمْرَكَ، وَخُذْ نَصِيبَكَ وَحَظَّكَ، فَإِنْ كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إِلَىٰ غَيْرِ رَحْبٍ، وَلَا فِي نَجَاةٍ، فَبِالْحَرِيِّ لَتُكْفَيَنَّ وَأَنْتَ نَائِمٌ، حَتَّىٰ لَا يُقَالَ: أَيْنَ فُلَانٌ! وَٱللهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مَعَ مُحِقٍّ، مَا يُبَالِي مَا صَنَعَ ٱلْمُلْحِدُونَ. وَالسَّلَامُ.

الشّرْحُ :

المراد بقوله : «قولٌ هوَ لك وعليك»، أنّ أبا موسى كان يقول لأهل الكوفة : إنّ عليّاً إمامُ هُدىً، وبَيْعته صحيحة، إلّا أنّه لا يجوز القِتال معه لأهل القِبْلة، وهذا القولُ بعضُه حقّ، وبعضه باطل. وقولُه : «فارفَع ذَيْلك»، أي شَمِّر للنّهوض معي واللّحاقِ بي، لِتشهدَ حربَ أهلِ البصرة، وكذلك قولُه : «واشددْ مِئزرَك»، وكلتاهما كنايتان عن الجِدّ والتشمير في الأمر. «واخرج من جُحْرِك»، أمرٌ له بالخروج من منزلِهِ للّحاق به، وهي كِنايةٌ فيها غَضٌّ من أبي موسى واستهانةٌ به لأنّه لو أراد إعظامَه لقال : واخرج من خِيسِك[1]، أو من غِيلِك[2] كما يقال للأسد، ولكنّه جعله ثعلباً أو ضبّاً. «واندُب مَنْ معك»، أي واندُب رعيّتك من أهل الكوفة إلى الخروج معي واللَّحاق بي.

ثم قال : «وإن تحقّقت فانفذ»، أي أمرُك مبنيٌّ على الشكّ، وكلامك في طاعتي كالمتناقض، فإن حقّقتَ لزومَ طاعتي لك فانفذ، أي سِرْ حتى تَقدم عليّ، وإن أقمتَ على الشكّ فاعتزِل العَمَل، فقد عزلتُكَ. قوله : «وايمُ الله لتُؤتَيَنّ»، معناه إن أقمتَ على الشكّ والاسترابة وتثبيطِ أهل الكوفة عن الخروج إليّ وقولِك لهم : لا يحلّ لكم سَلّ السيف لا مع عليّ ولا مع طلحة، والزَموا بيوتَكم، واكسِروا سيوفَكم، لتأتينّكم وأنتم في منازلكم بالكوفة أهل البصرة مع طلحة ونأتينّكم نحن بأهلِ المدينة والحجاز، فيجتمع عليكم سيفان من أمامكم ومن خلفِكم، فتكونَ ذلك الداهيةُ الكبرى الّتي لا شَواةَ لها.

قولُه : «ولا تترك حتّى يخلط زُبْدُك بخاثِرك» تقول للرجل إذا ضربتَه حتى أثخنتَه : لقد ضربتُه حتّى خلطتُ زُبْدَه بخاثِره، وكذلك حتّى خلطتُ ذائبه بجامِدِه، والخاثِر : اللّبن الغليظ، والزُّبد خلاصة اللبن وصَفْوَته. فإذا أثخنتَ الإنسانَ ضَرْباً كنتَ كأنّك خلطتَ مارَقّ ولَطُف من أخلاطه بما كثُف وغَلُظ منها، وهذا مَثَل، ومعناه لتَفسُدَنّ حالُك ولتَخلَّطَنّ، وليضطربنّ ما هو الآن منتظمٌ من أمرك. «وحتى تَعجَل عن قِعْدَتك»، القِعدة بالكسر هيئة القعود كالجلسة والرِّكْبة، أي وليعجلنّك الأمرُ عن هيئة قعودك، يصف شدّة الأمر وصعوبته. «وتحذر مَنْ أمامك كحَذَرك من خَلْفَك»، يعني يأتيك مِنْ خلفِك إن أقمتَ على مَنْع الناس عن الحرب معنا ومعهم أهل البصرة وأهل المدينة، فتكون كما قال الله تعالى : ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ

---

١. الخيس : معرّس الأسد.

٢. الغيل : الشجر الكثير الملتف.

مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ منكم﴾[١]. «وماهي بالهُوَينَى الّتي ترجو» الهُوَينَى تصغير «الهونى» التي هي أنثى «أَهْوَن»، أي ليست هذه الداهية والجائحة الّتي أذكُرها لك بالشيء الهيّن التي ترجو اندفاعَه وسهولتَه.

ثم قال: بل هي الداهيَة الكبرى ستفعل لا مَحالة إن استمررتَ على ما أنت عليه، وكنَى عن قوله: «ستفعل لا محالة» بقوله: «يركب جملها» وما بعده، وذلك لأنّها إذا ركب جملُها، وذلّل صعبُها وسهل وعرُها فقد فعلت، أي لا تقل: هذا أمرٌ عظيم صعبُ المرام، أي قصد الجيوش من كلا الجانِبَين الكوفة، فإنه إن دام الأمرُ على ما أشرتَ إلى أهل الكوفة من التخاذُل والجلوس في البيوت، وقولك لهم: «كن عند الله المقتول» لنقعنّ بموجب ما ذكرته لك، وليرتكبنّ أهل الحجاز وأهل البصرة هذا الأمرَ المستصعب؛ لأنّا نحن نطلب أن نَملك الكوفة، وأهلُ البصرة كذلك، فيجتمع عليها الفريقان.

ثم عاد إلى أمره بالخروج إليه فقال له: «فاعقِل عَقْلك، واملِك أمرَك، وخذ نصيبَك وحَظّك»، أي من الطاعة، واتّباع الإمام الّذي لِزِمْتك بيعته، فإن كرهتَ ذلك، فتنحّ عن العمل فقد عزلتُك. وابعُد عنّا لا في رحْب، أي لا في سَعَة، وهذا ضدّ قولهم: مَرْحباً.

ثم قال: فجديرٌ أن تُكفى ما كُلّفته من حضور الحَرْب وأنت نائم، أي لست معدوداً عندنا ولا عندَ الناس من الرّجال الّذين تَفتقر الحروب والتّدبيرات إليهم، فسيُغني اللهُ عنك ولا يقال: أين فلان؟ ثم أقسَم أنّه لحقّ، أي أنّي في حرب هؤلاء لَعَلَى حقّ، وإن من أطاعني مع إمام مُحِقّ ليس يُبالي ما صنَع الملحدون، وهذا إشارةٌ إلى قولِ النبيّ ﷺ: «اللهمّ أدِرِ الحقّ معه حيثما دارَ».



الأصْلُ:

ومن كتاب لهﷺ إلى معاوية جواباً عن كتابه

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ مَا ذَكَرْتَ مِنَ ٱلْأُلْفَةِ وَٱلْجَمَاعَةِ، فَفَرَّقَ بيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

---

١. سورة الأحزاب ١٠.

أَمْس أَنَّا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ، وَٱلْيَوْمَ أَنَّا ٱسْتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ، وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلَّا كَرْهاً، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ أَنْفُ ٱلْإِسْلَامِ كُلُّهُ لِرَسُولِ ٱللهِ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، حَرْباً.

وذَكَرْتَ أَنِّي قَتَلْتُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ، وَشَرَّدْتُ بِعَائِشَةَ، وَنَزَلْتُ بَيْنَ ٱلْمِصْرَيْنِ! وَذٰلِكَ أَمْرٌ غِبْتَ عَنْهُ، فَلَا عَلَيْكَ، وَلَا ٱلْعُذْرُ فِيهِ إِلَيْكَ.

وَذَكَرْتَ أَنَّكَ زَائِرِي فِي ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلأنصارِ، وَقَدِ ٱنْقَطَعَتِ ٱلْهِجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَخُوكَ، فَإِنْ كَانَ فِيكَ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهْ، فَإِنِّي إِنْ أَزُرْكَ فَذٰلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ ٱللهُ إِنَّمَا بَعَثَنِي إِلَيْكَ لِلنِّقْمَةِ مِنْكَ! وَإِنْ تَزُرْنِي فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِي أَسَدٍ:

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ ... بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلْمُودِ

وَعِنْدِيَ السَّيْفُ الَّذِي أَعْضَضْتُهُ بِجَدِّكَ وَخَالِكَ وَأَخِيكَ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ.

وَإِنَّكَ وَٱللهِ مَا عَلِمْتُ ٱلْأَغْلَفُ ٱلْقَلْبِ، ٱلْمُقَارِبُ ٱلْعَقْلِ، وَٱلْأَوْلَىٰ أَنْ يُقَالَ لَكَ: إِنَّكَ رَقِيتَ سُلَّماً أَطْلَعَكَ مَطْلَعَ سُوءٍ عَلَيْكَ لَا لَكَ، لِأَنَّكَ نَشَدْتَ غَيْرَ ضَالَّتِكَ، وَرَعَيْتَ غَيْرَ سَائِمَتِكَ، وَطَلَبْتَ أَمْراً لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَلَا فِي مَعْدِنِهِ، فَمَا أَبْعَدَ قَوْلَكَ مِنْ فِعْلِكَ! وَقَرِيبٌ مَا أَشْبَهْتَ مِنْ أَعْمَامٍ وَأَخْوَالٍ! حَمَلَتْهُمُ الشَّقَاوَةُ وَتَمَنِّي ٱلْبَاطِلِ عَلَىٰ ٱلْجُحُودِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَصُرِعُوا مَصَارِعَهُمْ حَيْثُ عَلِمْتَ، لَمْ يَدْفَعُوا عَظِيماً، وَلَمْ يَمْنَعُوا حَرِيماً، بِوَقْعِ سُيُوفٍ مَا خَلَا مِنْهَا ٱلْوَغَىٰ، وَلَمْ تُمَاشِها ٱلْهُوَيْنَىٰ.

وَقَدْ أَكْثَرْتَ فِي قَتَلَةِ عُثْمانَ؛ فَادْخُلْ فِيما دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ، ثُمَّ حَاكِمِ ٱلْقَوْمَ إِلَيَّ، أَحْمِلْكَ وَإِيَّاهُمْ عَلَىٰ كِتَابِ ٱللهِ تَعَالَىٰ، وَأَمَّا تِلْكَ الَّتِي تُرِيدُ؛ فَإِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ فِي أَوَّلِ ٱلْفِصَالِ. وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ.

الشَّرْحُ:

[مجموع الرسائل المتبادلة بين أمير المؤمنين عليه السلام، وبين معاوية ١٥ رسالة، وهذه الثانية عشرة، وهي جميعاً متقاربة في مضامينها وأهدافها، وما فتئ معاوية يكيل الشتائم والتهم

للإمام عليه السلام، من قبيل حسد الشيخين، والتواطئ علىٰ قتل عثمان، ومعاداة بعض الصحابة، وقتال أصحاب الجمل شيخي قريش وأم المؤمنين، وطالما هدد الإمام عليه السلام بالحرب وبإشعال الفتن وكاد للإسلام والمسلمين. ومِن الطبيعي أن يردّ الإمام عليه السلام علىٰ مزاعمه واتهاماته، ليردّ عليه كيده، ولئلا يلتبس الأمر علىٰ السذّج من المسلمين من أهل الشام أو غيرهم.

وقد أورد ابن أبي الحديد كتاب معاوية في ذيل جواب الإمام عليه السلام وكتابه. ونورد هنا جملاً من كتاب معاوية حتىٰ يطّلع القارئ الكريم علىٰ تجنّي وعدوانية هذا الرجل الطليق وانحرافه اسمعه يقول:

«ومن قبل ذلك ما عيبت خليفتي رسول الله صلى الله عليه وآله أيام حياتهما، فقعدت عنهما وألّبتَ عليهما، وامتنعتَ من بيعتهما، ورُمتَ أمراً لم يرك الله تعالىٰ له أهلاً، ورقيت سُلماً وعراً، وحاولت مقاماً دحْضاً، وادّعيت ما لم تجد عليه ناصراً؛ ولعمري لو وليتها حينئذٍ لما ازدادت إلّا فساداً واضطراباً، ولا أعقبت ولا يتكها إلّا انتشاراً وارتداداً؛ لأنك الشامخ بأنفه، الذاهب بنفسه، المستطيلُ علىٰ الناس بلسانه ويده؛ وها أنا سائرٌ إليك في جمع من المهاجرين والأنصار تحفُّهم سيوفٌ شاميّة ...»، إلىٰ آخر الرسالة التي كتبها بتشجيع من شريكه عمرو بن العاص وقد حاول ابن أبي الحديد دفع بعض مزاعم معاوية، لكن علىٰ طريقته وِفق مذهب الاعتزال].

ثم نعود إلىٰ تفسير ألفاظ كتاب الإمام علي عليه السلام.

قال عليه السلام: «وما أسلم مُسلِمكم إلّا كَرْهاً»، كأبي سفيان وأولاده يزيد ومعاوية وغيرهم من بني عبد شمس.

قال: وبعد أن كان أَنْفُ الإسلام محارباً لرسول الله صلى الله عليه وآله»، أي في أوّل الإسلام، يقال: كان ذلك في أنْف دولة بني فلان، أي في أوّلها، وأنْف كلّ شيء أوّله وطَرَفه، وكان أبو سُفيانَ وأهله من بني عبد شمس أشدَ الناس عَلَى رسولِ الله صلى الله عليه وآله في أوّل الهجرة، إلى أن فتح مكة.

ثم أجابه عن قوله: (قتلتَ طلحة والزبير، وشرّدت بعائشة، ونزلتَ بين المصرين) بكلام مختصر أعرض فيه عنه هَواناً به، فقال: هذا أمرٌ غبتَ عنه، فليس عليك كان العدوان الذي تَزْعُم، ولا العذرُ إليك لو وجب عليّ العذرُ عنه.

فأما الجواب المفصّل فأن يقال: إن طلحة والزبير قتلا أنفسهما ببغيهما ونكْثِهما،

ولو استقاما على الطريقة لسلما، ومن قتله الحق فدمه هَدَر.

وأمّا أمّ المؤمنين عائشة فالذي جَرَى لها كان خطأ منها، فأيّ ذنب لأمير المؤمنين عليه السلام في ذلك! ولو أقامت في منزلها لم تُبتذَل بين الأعراب وأهل الكوفة؛ على أن أمير المؤمنين عليه السلام أكرَمها وصَانها وعظّم من شأنها، ومَنْ أحب أن يقف على ما فعله معها فليطالع كتب السيرة. ولو كانت فعلتْ بعمر ما فعلتْ به، وشقّت عصا الأُمّة عليه، ثم ظفر بها، لقتلها ومزّقها إرَباً إرَباً، ولكنّ عليّاً كان حليماً كريماً.

قوله عليه السلام: «وذكرت أنّك زائِري في جَمْع من المهاجرين والأنصار، وقد انقطعَت الهجرةُ يوم أُسِر أخوك»، هذا الكلامُ تكذيبٌ له في قوله: (في جمعٍ من المهاجرين والأنصار)، أي ليس معك مهاجر؛ لأنّ أكثر من معك ممن رأى رسول الله صلى الله عليه وآله هم أبناء الطُّلَقَاء، ومن أسلَم بعد الفتح، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «لاهِجرةَ بعد الفَتْح».

وعبّر عن يوم الفَتْح بعبارة حَسَنة فيها تقريع لمعاوية وأهلِه بالكفر، وأنّهم ليسوا من ذوي السّوابق، فقال: «قد انقطعتْ الهجرةُ يومَ أُسِر أخوك»، يعني يزيد بن أبي سُفيان أُسِرَ يوم الفَتْح في باب الخَنْدَمة، وكان خَرَج في نفر من قريش يُحارِبون ويَمنَعون من دخول مكّة، فقُتِل منهم قومٌ وأُسِر يزيدُ بنُ أبي سفيان، أسرَه خالدُ بنُ الوليد، فخلّصه أبو سُفيان منه، وأدخَلَه دارَه، فأَمِن؛ لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال يومئذٍ: «من دخل دارَ أبي سُفْيانَ فهو آمِن».

قوله عليه السلام: «فإن كان فيك عجل فاسترفِه»، أي كن ذا رَفاهِية، ولا تُرهِقَنّ نفسك بالعجل، فلابدّ من لِقاء بعضنا بعضاً، فأيّ حاجة بك إلى أن تعجل. ثمّ فسّر ذلك فقال: إن أَزُرْك في بلادك، أي إن غَزَوتك في بلادِك فخليق أن يكون الله بعثني للانتقام منك، وإن زُرْتَني -أي إن غَزَوتني في بلادي وأقبلتَ بجموعك إليّ، كنتم كما قال أخو بني[1] أسد؛ كنت أسمعُ قديماً أنّ هذا البيت من شِعْر بشر بن أبي خازم الأسَديّ؛ والآن فقد تصفّحتُ شعره فلم أجِده، ولا وقفتُ بعدُ على قائله، وإن وَقَفْتُ فيما يُستقبل من الزّمان عليه ألحقته.

وريحٌ حاصِب، تَحمل الحصْباء، وهي صِغارُ الحَصَى، وإذا كانت بين أغْوار -وهي ما سَفُل من الأرض وكانت مع ذلك ريح صَيف- كانت أعظمَ مشقّة، وأشدّ ضَرَرا على مَنْ

---

١. وهو قوله:

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ الصَّيْفِ تضربُهُمْ ... بحاصِبٍ بينَ أغوارٍ وجلمُودِ

تُلاقيه. وجُلْمود، يمكن أن يكون عَطْفاً على «حاصِب»، ويمكن أن يكون عطْفاً على «أغْوار»، أي بين غَوْرٍ من الأرض وحَرَّةٍ، وذلك أشدّ لأذاها لما تكسِبُه الحَرّة من لَفْح السَّموم وَوَهجِها. والوجه الأوّل ألْيَق.

وأعضضْته، أي جَعَلته مَعضوضاً برؤوس أهلك، وأكثر ما يأتي «أَفْعَلْته» أن تجعله «فاعلاً»، وهي هاهنا من المقلوب، أي أعضَضْت رؤوس أهلك به، كقوله: «قد قطع الحبل بالمرْوَد». وجدُّه عُتبة بن ربيعة، وخاله الوليدُ بنُ عتبة، وأخوه حَنظلة بن أبي سفيان، قتلهم عليّ عليه السلام يوم بدر.

والأغلَفَ القلب: الذي لا بصيرة له، كأنّ قلبه في غِلاف، قال تعالى: **﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾**[1]. والمقارِب العقل، بالكسر: الذي ليس عَقْله بجيّد؛ والعامّة تقول فيما هذا شأنه: مقارَب، بفتح الراء. ثم قال: والأوْلى أن يقال هذه الكلمة لك. ونشدتُ الضّالّة: طَلبتُها، وأنشدتها: عَرّفتها، أي طلبتَ ما ليس لك. والسائمة: المال الراعي؛ والكلامُ خارجٌ مخرج الاستعارة.

فإن قلت: كلّ هذا الكلام يطابق بعضه بعضاً إلّا قوله: «فما أبعد قولك من فِعلك» وكيف استبعد عليه السلام ذلك ولا بُعْدَ بينهما؛ لأنّه يَطلُب الخلافة قولاً وفعلاً! فأيّ بُعد بين قوله وفعله؟

قلت: لأنّ فعله البَغْي، والخروج على الإمام الذي ثبتت إمامتُه وصحّت، وتفريق جماعةِ المُسلمين، وشقّ العَصا. هذا مع الأمور الّتي كانت تَظهر عليه وتقتضي الفسق؛ من لبس الحرير، والمَنسوج بالذهب، وما كان يتعاطاه في حياةِ عثمان من المنكرات التي لم تثْبت توبته منها، فهذا فعلُه.

وأمّا قوله؛ فزعمه أنه أميرُ المؤمنين، وخليفةُ المسلمين، وهذا القولُ بعيد من ذلك الفعل جداً.

و «ما» في قوله: «وقريب ما أشبهت» مصدرية، أي وقريب شبهك بأعمام وأخوال. وقد ذكرنا من قُتِل من بني أُميّة في حرُوب رسول الله صلى الله عليه وآله فيما تقدّم، وإليهم الإشارة بالأعمام والأخوال؛ لأنّ أخوال معاوية من بني عبد شمس، كما أنَّ أعمامه من بني عبد شمس.

قوله: «ولم تماشها الهوينى»، أي لم تصحبها، يصفها بالسرعة والمضيّ في الرؤوس والأعناق. وأمّا قوله عليه السلام: «ادخُل فيما دَخَل فيه الناسُ وحاكِم القومَ»، فهي الحجّة الّتي

---

١. سورة البقرة ٨٨.

يَحتجّ بها أصحابُنا له في أنّه لم يُسلِّم قَتلة عثمانَ إلى معاوية، وهي حُجّة صحيحةٌ؛ لأنّ الإمام يجب أن يُطاع، ثمّ يتحاكَم إليه أولياءُ الدّم والمتّهَمون، فإنْ حكَم بالحقّ استُدِيمت حكومتُه، وإلّا فَسق وبَطَلت إمامتُه. قوله: «فأمّا تلك الّتي تُريدها»؛ قيل: إنّه يريد التعلّق بهذه الشّبهة، وهي قَتلَة عثمان، وقيل: أراد به ما كان معاوية يكرّر طلبَه من أمير المؤمنين عليه السلام، وهو أن يُقِرّه على الشّام وحدَه، ولا يكلّفه البَيْعة، قال: إنّ ذلك كمُخادَعة الصبيّ في أوّل فِطامه عن اللّبَن بما تَصنَعه النّساء له ممّا يكرّه إليه الثّديَ ويُسليه عنه، ويُرغّبه في التعوّض بغيره.



الأصْلُ:

ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضاً

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِاللَّمْحِ آلْبَاصِرِ مِنْ عِيَانِ آلْأُمُورِ، فَلَقَدْ سَلَكْتَ مَدَارِجَ أَسْلَافِكَ بِادِّعَائِكَ آلْأَبَاطِيلَ، وَآقْتِحَامِكَ غُرُورَ آلْمَيْنِ وَآلْأَكَاذِيبِ؛ مِنِ انْتِحَالِكَ مَا قَدْ عَلَا عَنْكَ، وَآبْتِزَازِكَ لِمَا قَدِ آخْتُزِنَ دُونَكَ؛ فِرَاراً مِنْ آلْحَقِّ، وَجُحُوداً لِمَا هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ وَدَمِكَ؛ مِمَّا قَدْ وَعَاهُ سَمْعُكَ، وَمُلِىءَ بِهِ صَدْرُكَ، فَمَاذَا بَعْدَ آلْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ وَبَعْدَ آلْبَيَانِ إِلَّا اللَّبْسُ! فَاحْذَرِ الشُّبْهَةَ وَآشْتِمالَهَا عَلَىٰ لُبْسَتِهَا، فَإِنَّ آلْفِتْنَةَ طَالَمَا أَغْدَفَتْ جَلَابِيبَهَا، وَأَغْشَتِ آلْأَبْصَارَ ظُلْمَتُهَا. وَقَدْ أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ ذُو أَفَانِينَ مِنَ آلْقَوْلِ ضَعُفَتْ قُوَاهَا عَنِ السِّلْمِ، وَأَسَاطِيرَ لَمْ يَحُكْهَا مِنْكَ عِلْمٌ وَلَا حِلْمٌ، أَصْبَحْتَ مِنْهَا كَالْخَائِضِ فِي الدَّهَاسِ، وَآلْخَابِطِ فِي الدِّيمَاسِ، وَتَرَقَّيْتَ إِلَىٰ مَرْقَبَةٍ بَعِيدَةِ آلْمَرَامِ، نَازِحَةِ آلْأَعْلَامِ، تَقْصُرُ دُونَهَا آلْأَنُوقُ وَيُحَاذَىٰ بِهَا آلْعَيُّوقُ. وَحَاشَ للهِ أَنْ تَلِيَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِي صَدْراً أَوْ وِرْداً، أَوْ أُجْرِيَ لَكَ عَلَىٰ أَحَدٍ

مِنْهُمْ عَقْداً أَوْ عَهْداً؛ فَمِنَ ٱلْآنَ فَتَدَارَكْ نَفْسَكَ وَٱنْظُرْ لَهَا، فَإِنَّكَ إِنْ فَرَّطْتَ حَتَّىٰ يَنْهَدَ إِلَيْكَ عِبَادُ ٱللهِ أُرْتِجَتْ عَلَيْكَ ٱلْأُمُورُ، وَمُنِعْتَ أَمْراً هُوَ مِنْكَ ٱلْيَوْمَ مَقْبُولٌ. وَالسَّلَامُ.

الشّرْحُ:

آنَ لك وأَنَى لَك بمعنىً، أي قَرُب وحَانَ. تقول: آنَ لك أن تَفعَل كذا يَئِين أَيْناً.

و «أنّى» مقلوبة عن «آنَ»، ومِمّا يجري مَجرَى المَثَل قولُهم لمن يرُونه شيئاً شديداً يُبصره ولا يشكّ فيه: قد رأيته لمحاً باصِراً، قالوا: أي نظراً بتَحْدِيق شديد، ومَخرَجه مَخرَج رجل لابنٍ وتامِر، أي ذو لبَن وتَمْر، فمعنَى «باصِر» ذو بَصَر. يقول عليه السلام لمعاوية: قد حانَ لك أن تَنتفِع بما تَعلَمه من معايَنة الأمورِ والأحوالِ وتتحقّقه يقيناً بقَلْبك كما يتحقّق ذو اللّمح الباصر ما يُبصِره بحاسّة بصرِه، وأراد ببَيان الأُمور هاهنا معايَنتها، وهو ما يعرفه ضرورة من استحقاق عليٍّ عليه السلام للخلافة دونَه، وبراءتِه من كلّ شُبْهة يَنسُبها إليه.

ثم قال له: «فلقد سلكتَ»، أي اتّبعتَ طرائق أبي سُفْيان أبيكَ وعُتْبة جَدِّك وأمثالِهما من أهلِك ذَوِي الكُفْر والشّقاق. والأباطيل: جمعُ باطل على غير قياس، كأنّهم جَمَعوا إبطيلاً. والاقتحام: إلقاءُ النّفس في الأَمْر من غير رَويّة. والمَيْن: الكَذِب. والغُرور بالضم المصدَر، وبالفَتْح الاسم. وانتحلْتُ القصيدة، أي ادّعيتَها كَذِباً.

قال: «ما قد علا عنك»، أي أنتَ دونَ الخلافة، ولستَ من أهلِها؛ والابتزاز: الاستِلاب. «لما قد اختزن دونَك»، يعني التسمّي بإمرة المؤمنين.

ثمّ قال: «فِراراً من الحقّ»، أي فعلتَ ذلك كلّه هَرَباً من التمسّك بالحقّ والدّين، وحبّاً للكُفْر والشّقاق والتغلّب. «وجُحوداً لما هو ألزَم»، يعني فرض طاعةِ عليّ عليه السلام، لأنّه قد وَعَاها سَمعُه لا رَيْب في ذلك، إمّا بالنّص في أيّام رسولِ الله صلى الله عليه وآله كما تَذكرُه الشّيعة ـ فقد كان معاوية حاضراً يومَ الغَدِير؛ لأنّه حجّ معهم حجّة الوداع، وقد كان أيضاً حاضراً يومَ تَبُوك حين قال له بمَحضَر من الناس كافّة: «أنت منّي بمنزِلة هَارُون مِن موسى»، وقد سُمِع غيرُ ذلك ـ وإمّا بالبَيْعة كما نَذكره نحن فإنّه قد اتّصل به خبرُها، وتواترَ عندَه وُقوعُها، فصار وقوعُها عنده معلوماً بالضّرورة كعِلمِه بأنّ في الدّنيا بلداً اسمُها مِصر، وإن كان ما رآها.

والظّاهر من كلام أميرِ المؤمنين عليه السلام أنّه يريد المعنى الأوّل؛ ونحن نخرِّجه على وَجْهٍ لا يَلزَم منه ما تقوله الشِّيعة. فنقول: لنَفرض أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله ما نصّ عليه بالخلافة بعدَه، أليس يَعلَم معاوية وغيرُه من الصّحابة أنه قال له في ألف مقام: «أنا حَرْبٌ لمن حارَبْتَ، وسِلْمٌ لمن

سالَمْت»، ونحو ذلك من قوله: «اللّهمّ عادِ من عاداه، ووالِ مَن وَالاه»، وقوله: «حربُك حَرْبي وسِلْمُك سِلْمي»، وقوله: «أنت مع الحقّ والحقّ معك»، وقوله: «هذا منّي وأنا منه»، وقوله: «هذا أخِي»، وقوله: «يحبُّ اللّه ورسوله، ويحبّه اللّهُ ورسولُه»، وقولُه: «اللّهمّ ائتني بأحبّ خَلقِك إليك»، وقوله: «إنّه وليّ كلّ مؤمن [ومؤمنة] بعدي»، وقوله: في كلام قاله «خاصِف النّعل»، وقوله: «لا يحبّه إلّا مؤمن، ولا يَبغَضه إلّا مُنافِق»، وقوله: «إنّ الجنّة لتشتاق إلى أربعة»، وجعله أوّلَهم؛ وقوله لعمّار: «تقتُلك الفِئة الباغية»؛ وقوله: «ستقاتل الناكثِين والقاسِطين والمارِقين بعدِي»، إلى غير ذلك ممّا يَطولُ تَعدادُه جدّاً، ويحتاج إلى كتابٍ مفرد يُوضَع له؟ أفما كان ينبغي لمعاويةَ أن يفكّر في هذا ويتأمّله، ويَخشَى اللّهَ ويتّقيه؟! فلعلّهﷺ إلى هذا أشار بقوله: «وجُحوداً لما هو ألزَم لك من لَحمِك ودَمِك ممّا قد وَعاه سَمْعُك، ومُلِئَ به صَدْرُك».

قولُه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلال﴾[1] كلمةٌ من الكلام الإلهيّ المقدّس. قال: «وبعد البَيان إلّا اللّبس»، يقال: لَبَست عليه الأمرَ لَبْساً، أي خَلطتُه، والمضارع يَلبِس بالكسر. «فاحذَر الشبهة واشتمالها» على اللُّبسة بالضمّ، يقال في الأمر لُبْسة أي اشتباه، وليس بواضح؛ ويجوز أن يكون «اشتمال» مصدراً مُضافاً إلى معاوية، أي احذَر الشّبهة واحذر اشتمالَك إيّاها على اللّبسة، أي ادّراعَك بها، وتقمُّصَك بها على ما فيها من الإبهام والاشتِباه؛ ويجوز أن يكون مصدراً مضافاً إلى ضمير الشّبهة فقط، أي احذر الشّبهة واحتواءَها على اللّبسة الّتي فيها.

وتقول: أغدَفَت المرأةُ قِناعَها، أي أرسلتْه على وجهها، وأغدَف الليلُ أي أرخَى سُدولَه، وأصلُ الكلمة التّغطِيَة. والجلابيب: جمع جِلْباب، وهو الثّوب. «وأعْشَت الأبصارَ ظُلْمتَها»، أي اكتسبتْها العَشا، وهو ظُلْمة العَيْن. ورُوِي: «وأغْشَت» بالغين المعجمة «ظُلمتَها» بالنّصب، أي جعلت الفتنة ظُلمتها غِشاء للأبصار. والأفَانِين: الأساليب المختلِفة.

قوله: «ضعفت قُواها عن السّلم»، أي عن الإسلام، أي لا تَصدُر تِلكَ الأفانينُ المختلِطة عن مُسلِم، وكان كَتَب إليه يطلب منه أن يُفرده بالشام، وأن يوليه العهد من بعده، وألا يكلّفه الحضور عنده. وقرأ أبو عمرو: ﴿ادخُلُوا فِي السِّلم كَافَّةً﴾[2]؛ وقال: ليس المعنيّ بهذا الصّلح، بل الإسلام والإيمان لا غير، ومعنى «ضَعُفتْ قُواها»، أي ليس لتلك الطّلبات

---

١. سورة يونس: ٣٢.

٢. سورة البقرة ٢٠٨ وانظر تفسير القرطبي ٣: ٢٣.

والدّعاوَى والشّبُهات الّتي تضمّنها كتابُك من القوّة ما يقتضِي أن يكون المتمسّك به مُسلِماً، لأنّه كلامٌ لا يَقولُه إلّا مَنْ هو؛ إمّا كافرٌ مُنافق أو فاسق، والكافر ليس بمسلِم، والفاسق أيضاً ليس بمُسلِم ـ على قول أصحابِنا ـ ولا كافر.

ثم قال: «وأساطير لم يَحْكها منكَ عِلْم ولا حِلْم»، الأساطير: الأباطيل، واحدها أُسطورَة بالضم وإسْطارَة بالكسر والألف. وحَوْكُ الكلام: صَنْعتُه ونَظْمُه. والحِلْم: العَقْل، يقول له: ما صدر هذا الكلام والهُجر الفاسد عن عالم ولا عاقل. ومن رَواها «الدِّهاس» بالكسر فهو جمع دَهْس، ومَنْ قرأها بالفتح فهو مُفرَد، يقول: هذا دَهْس ودَهاس بالفتح مثل لَبْث ولبَاث للمكان السّهل الّذي لا يَبلُغ أن يكون رملاً، وليس هو بتراب ولا طين. والدِّيماس بالكَسْر: السَّرَب المُظلِم تحتَ الأرض، وأصله من دَمَس الظلام يَدمُس، أي اشتدّ، وليل دامِسٌ وداموس، أي مُظلم. وجاءنا فلانٌ بأمور دُمْس، أي مُظلِمة عظيمة، يقول له: أنت في كتابِك هذا كالخائض في تِلكَ الأرض الرِّخْوة، تقوم وتقع ولا تتخلّص، وكالخابط في اللّيل المُظلِم يَعثرُ ويَنهَض ولا يَهتدِي الطريق. والمَرْقَبَة: الموضعُ العالي. والأعلام: جمع عَلَم، وهو ما يُهْتَدى به في الطّرقات من المَنار، يقول له: سمَتْ همّتك إلى دَعوَى الخِلافة، وهي منك كالمرقَبة الّتي لا تُرام بتعدٍّ على من يَطلُبها، وليس فيها أعلامٌ تَهدِي إلى سلوك طريقِها، أي الطرقُ إليها غامضة. كالجَبَل الأملس الّذي ليس فيه دَرَج ومَراق يُسلَك منها إلى ذِروَته. والأَنوق على «فَعُول» بالفتح كأَكُول وشَرُوب: طائر، وهو الرَّخمَة. وفي المثل «أعزّ من بَيْضِ الأنوق»؛ لأنها تُحرِزه، ولا يكاد أحدٌ يَظفَر به، وذلك لأنّ أوكارَها في رؤوس الجبال والأماكن الصّعبة البعيدة. والعَيّوق: كوكب معروف فوق زُحَل في العُلوّ، وهذه أمثالٌ ضَرَبها في بُعدِ معاوية عن الخلافة.

ثم قال: «حاشَ لله أن أولِّيك شيئاً من أُمور المسلمين بَعدِي»، أي مَعاذَ الله، والأصْلُ إثبات الألف في «حاشا»، وإنّما اتّبع فيها المصحف. والوِرْد والصَّدَر: الدّخول والخروجُ، وأصلُه في الإبل والماء. ويَنهَد إليك عباد الله، أي يَنهَض. وأرتِجَتْ عليك الأمورُ: أُغلِقت.

وهذا الكتابُ هو جواب كتابٍ وَصَل من معاوية إليه عليه السلام بعد قَتْل عليّ عليه السلام الخوارجَ، وفيه تلويحٌ بما كان يقوله من قبْل: إنّ رسولَ الله وَعَدني بقتالِ طائفةٍ أُخرىٰ غيرِ أصحابِ الجَمَل وصِفّين، وإنّه سمّاهم المارِقين، فلمّا واقَعَهم عليه السلام بالنَّهرَوان وقتَلهم كلّهم بيوم واحد وهم عَشرَة آلافِ فارسٍ أحَبّ أن يُذكِّر معاوية بما كان يقول من قبلُ، ويَعِدُ به أصحابَه وخواصّه، فقال له: قد آن لك أن تَنتفِع بما عايَنت وشاهَدْتَ معاينةً ومُشاهَدةً، من صدق القول الّذي كنتُ أَقولُه للنّاس ويَبلغك فتَستهزِئ به.



الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى عبد الله بن العباس

وقد تقدم ذكره بخلاف هذه الرواية[١] :

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱلْمَرْءَ لَيَفْرَحُ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَحْزَنُ عَلَىٰ الشَّيْءِ ٱلَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، فَـلَا يَكُنْ أَفْضَلَ مَانِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغُ لَذَّةٍ، أَوْ شِـفَاءُ غَيْظٍ، وَلٰكِنْ إِطْفَاءَ بِاطِلٍ، أَوْ إِحْيَاءَ حَقٍّ.

وَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا قَدَّمتَ، وَأَسَفُكَ عَلَىٰ مَا خَلَّفْتَ، وَهَمُّك فِيما بَعْدَ ٱلْمَوْتِ.

الشّرْحُ :

هذا الفَصْل قد تقدّم شرحُ نظيره، وليس في ألفاظه ولا معانيه ما يفتقر إلى تفسير.



الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى قُثَم بن العباس وهو عامله على مكّة

أَمَّا بَعْدَ، فَأَقِمْ لِلنَّاسِ ٱلْحَجَّ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ ٱللهِ، وَٱجْلِسْ لَـهُمُ ٱلْـعَصْرَيْنِ، فَـأَفْتِ ٱلْمُسْتَفْتِيَ، وَعَلِّمِ ٱلْجَاهِلَ، وَذَاكِرِ ٱلْعَالِمَ. وَلَا يَكُنْ لَكَ إِلَىٰ النَّاس سَفِيرٌ إِلَّا لِسَانُكَ،

---

١. أي في الرسالة (٢١).

أصاب: أدرك. نلت: أدركت وأصبت. الغيظ: أشد الغضب وسورته. خلّفت: تركت.

وَلَا حَاجِبٌ إِلَّا وَجْهُكَ.

وَلَا تَحْجُبَنَّ ذَا حَاجَةٍ عَنْ لِقَائِكَ بِهَا، فَإِنَّهَا إِنْ ذِيدَتْ عَنْ أَبْوَابِكَ فِي أَوَّلِ وِرْدِهَا، لَمْ تُحْمَدْ فِيما بَعْدُ عَلَىٰ قَضَائِهَا.

وَٱنْظُرْ إِلَىٰ مَا ٱجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ مَالِ ٱللهِ فَاصْرِفْهُ إِلَىٰ مَنْ قِبَلَكَ مِنْ ذَوِي ٱلْعِيَالِ وَٱلمجَاعَةِ، مُصِيباً بِهِ مَوَاضِعَ المفاقر وَٱلْخَلَّاتِ، وَمَا فَضَلَ عَنْ ذٰلِكَ فَاحْمِلْهُ إِلَيْنَا لِنَقْسِمَهُ فِيمَنْ قِبَلَنَا.

وَمُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَلَّا يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنٍ أَجْراً، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿سَوَاءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾[١] فَالْعَاكِفُ: ٱلْمُقِيمُ بِهِ، وَٱلْبَادِي: الَّذِي يَحُجُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ، وَفَّقَنَا ٱللهُ وَإِيَّاكُمْ لِمحَابِّهِ؛ وَالسَّلَامُ.

الشّرْحُ:

قد تقدّم ذكر قُثَمَ ونسبه[٢]. أمَره أن يقيمَ للنّاس حجّهم، وأن يذكّرهم بأيّام الله، وهي أيّام الإنعام، وأيّام الانتقام، لتحصل الرغبة والرّهبة. واجلس لهم العَصْرين: الغَداةَ والعَشيّ.

ثم قَسّم له ثمرةَ جلوسِه لهم ثلاثة أقسام: إمّا أن يفتيَ مُسْتفتياً من العامّة في بعض الأحكام، وإمّا أن يعلّم متعلّماً يطلُب الفِقْه، وإمّا أن يُذاكر عالماً ويُباحِثه ويُفاوِضه، ولم يَذكُر السّياسة والأُمورَ السّلطانيّة؛ لأنّ غَرضه متعلّق بالحَجيج، وهم أضيافه، يقيمون ليالي يسيرةً ويقفِلون؛ وإنّما يذكر السّياسة وما يتعلّق بها فيما يَرجع إلى أهل مَكّة، ومن يدخل تحت ولايتِه دائماً، ثمّ نهاه عن توسّط السُّفَراء والحُجّاب بينه وبينهم، بل ينبغي أن يكون سفيرَه لسانُه، وحاجبَه وجهُه، ورُوِي «ولا يكن إلّا لسانُك سفيراً لك إلى الناس» يَجْعل «لسانك» اسم كان مثل قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلّا أَنْ قَالُوا﴾[٣]، والرواية الأُولى هي

---

١. سورة الحج ٢٥.

٢. في الرسالة (٣٣)، قُثَم بن العباس بن عبد المطلب؛ كان من أفضل بني العباس، وأشبههم برسول الله ﷺ، وكان والياً لأمير المؤمنين ؑ علىٰ مكّة. استشهد بسمرقند زمن معاوية. [الاستيعاب ٣: ١٣٠٤]

٣. سورة النمل ٥٦، العنكبوت ٢٤ و٢٩.

المشهورة، وهو أن يكون «سفيراً» اسم كان، و «لك» خبرُها. ثم قال: فإنّها إن ذيدت، أي طُرِدَتْ ودُفعت.

والمفاقر: الحاجات؛ يقال: سدّ الله مَفاقره، أي أغنَى الله فَقْره، ثمّ أمَرَه أن يأمر أهلَ مكّة ألّا يأخذوا من أحَد من الحجيج أُجرة مَسكَن، واحتجّ على ذلك بالآية، وقرأ «سَواء» بالنصب على أن يكون أحد مفعولي «جعلْنا» أي جعلناه مُستوِياً فيه العاكف والباد، ومن قرأ بالرّفع جعل الجُمْلة هي المفعول الثاني.



الأصْلُ:

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه قبل أيام خلافته

أَمَّا بَعْدُ، فإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ ٱلْحَيَّةِ، لَيِّنٌ مَسُّهَا، قَاتِلٌ سُمُّهَا، فَأَعْرِضْ عَمَّا يُعْجِبُكَ فِيهَا، لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا، وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا، لِمَا أَيْقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا، وَتَصَرُّفِ حَالاَتِهَا، وَكُنْ آنَسَ مَا تَكُونُ بِهَا، أَحْذَرَ مَا تَكُونَ مِنْهَا؛ فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا ٱطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَىٰ سُرُورٍ أَشْخَصَتْهُ عَنْهُ إِلَىٰ مَحْذُورٍ، أَوْ إِلَىٰ إِينَاس أَزَالَتْهُ عَنْهُ إِلَىٰ إِيحَاش! وَالسَّلاَمُ.

الشّرْحُ:

سَلْمان: رجلٌ من فارِسَ من رَامَهُرْمُز؛ وقيل: بل من أصبهانَ، من قريةٍ يقال لها جَيّ، وهو معدودٌ من مَوالِي رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ وكُنيتُه أبو عبد الله، وكان إذا قيل: ابنُ مَن أنتَ؟ يقول: أنا سَلْمان، ابنُ الإسلام، أنا مِن بني آدم. وكان خيّراً، فاضِلاً، حبْراً، عالماً، زاهداً، متقشّفاً.

وقد رُوِي من حديثِ ابن بُرَيْدة، عن أبيه أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أمَرَني ربـي بحُبّ أربعة، وأخبَرَني أنّه يحبّهم: عليّ، وأبو ذرّ، والمِقْداد، وسَلْمان».

وفي روايةِ زَاذانَ، عن عليٍّ عليه السلام: سَلمانُ الفارسيّ كلُقمانَ الحكيم.

ولِسلمانَ فضائلُ جَمّة، وأخبارٌ حِسان؛ وتوفّي في آخِر خلافةِ عُثمانَ سنة خمسٍ وثلاثين؛ وقيل: توفّي في أوّل سنة سِتّ وثلاثين.

وكان سَلْمان مِن شيعة عليّ عليه السلام وخاصّته، وتَزْعُم الإماميّة أنه أحدُ الأربعة الّذين حَلّقوا رؤوسهم وأتوه متقلّدي سيوفِهم في خبر يَطُول؛ وليس هذا موضع ذكره.

فأما ألفاظ الفَصْل ومعانِيه فظاهرة. ومما يُناسِب مضمونه قول بعض الحكماء: تَعَزّ عن الشيء إذا مُنِعْتَه، بقلّة صحبتِه لك إذا أُعْطِيتَهُ.



الأَصْلُ:

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى الحارث الهمداني

وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ ٱلْقُرآنِ وَٱسْتَنْصِحْهُ، وَأَحِلَّ حَلالَهُ، وَحَرِّمْ حَرَامَهُ، وَصَدِّقْ بِمَا سَلَفَ مِنَ ٱلْحَقِّ، وَٱعْتَبِرْ بِمَا مَضَىٰ مِنَ الدُّنْيَا لِمَا بَقِيَ مِنْهَا، فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضاً، وَآخِرَهَا لَاحِقٌ بِأَوَّلِهَا، وَكُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ. وَعَظِّمِ اسْمَ اللهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلَّا عَلَىٰ حَقٍّ، وَأَكْثِرْ ذِكْرَ ٱلْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ ٱلْمَوْتِ، وَلَا تَتَمَنَّ ٱلْمَوْتَ إِلَّا بِشَرْطٍ وَثِيقٍ. وَٱحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ، ويُكرِهُهُ لِعَامَّةِ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَٱحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ، وَيُسْتَحَىٰ مِنْهُ فِي ٱلْعَلَانِيَةِ، وَٱحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ أَوِ ٱعْتَذَرَ مِنْهُ. وَلَا تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضاً لِنِبَالِ القوم، وَلَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ، فَكَفَىٰ بِذٰلِكَ كَذِباً، وَلَا تَرُدَّ عَلَىٰ النَّاسِ كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ، فَكَفَىٰ بِذٰلِكَ جَهْلاً. وَٱكْظِمِ ٱلْغَيْظَ، وَٱحْلُمْ عِنْدَ ٱلْغَضَبِ، وَتَجَاوَزْ عِنْدَ ٱلْمَقْدَرَةِ، وَٱصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ تَكُنْ لَكَ ٱلْعَاقِبَةُ. وَٱسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا ٱللهُ عَلَيْكَ، وَلَا تُضَيِّعَنَّ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ

ٱللهِ عِنْدَكَ، وَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ ٱللهُ بِهِ عَلَيْكَ.

وَٱعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِمَةً مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ، وَانَّك مَا تُقَدِّمْ مِنْ خَيْرٍ يَبْقَ لَكَ ذُخْرُهُ، وَمَا تُؤَخِّرْهُ يَكُنْ لِغَيْرِكَ خَيْرُهُ. وَٱحْذَرْ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ، وَيُنْكَرُ عَمَلُهُ، فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ. وَٱسْكُنِ ٱلْأَمْصَارَ ٱلْعِظَامَ فَإِنَّهَا جِمَاعُ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَٱحْذَرْ مَنَازِلَ ٱلْغَفْلَةِ وَٱلْجَفَاءِ، وَقِلَّةَ ٱلْأَعْوَانِ عَلَىٰ طَاعَةِ ٱللهِ. وَٱقْصُرْ رَأْيَكَ عَلَىٰ مَا يَعْنِيكَ. وَإِيَّاكَ وَمَقَاعِدَ ٱلْأَسْوَاقِ، فَإِنَّهَا مَحَاضِرُ الشَّيْطَانِ، وَمَعَارِيضُ ٱلْفِتَنِ. وَأَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْهِ، فإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ. وَلَا تُسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّىٰ تَشْهَدَ الصَّلَاةَ إِلَّا فَاصِلاً فِي سَبِيلِ ٱللهِ، أَوْ فِي أَمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ. وَأَطِعِ ٱللهَ فِي جُمَلِ أُمُورِكَ، فَإِنَّ طَاعَةَ ٱللهِ فَاضِلَةٌ عَلَىٰ مَا سِوَاهَا. وَخَادِعْ نَفْسَكَ فِي ٱلْعِبَادَةِ، وَٱرْفُقْ بِهَا وَلَاتَقْهَرْهَا، وَخُذْ عَفْوَهَا وَنَشَاطَهَا، إِلَّا مَا كَانَ مَكْتُوباً عَلَيْكَ مِنَ ٱلْفَرِيضَةِ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا وَتَعَاهُدِهَا عِنْدَ مَحَلِّهَا. وَإِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ ٱلْمَوْتُ وَأَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا. وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ ٱلْفُسَّاقِ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ. وَوَقِّرِ ٱللهَ، وَأَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ، وَٱحْذَرِ ٱلْغَضَبَ، فَإِنَّهُ جُنْدٌ عَظِيمٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ؛ وَالسَّلَامُ.

الشَّرْحُ:

الحارث الأعور ونسبه

هو الحارث الأعور صاحبُ أمير المؤمنينعليه السلام؛ وهو الحارث بنُ عبد الله بن كعب الهمْدانيّ، كان أحد الفُقهاء، له قولٌ في الفُتيا، وكان صاحب عليّعليه السلام، وإليه تنسب الشِّيعةُ الخطابَ الذي خاطبه به في قولهعليه السلام:

يا حارِ هَمْدان من يمتْ يَرَني ... مِنْ مؤمنٍ أو منافقٍ قِبَلَا[1]

---

١. وهو الذي قال له الإمامعليه السلام: «أُبشّرك يا حارث، إنّك لتعرفني عند الممات، وعند الصراط، وعند الحوض».

وهي أبياتٌ مشهورة قد ذكرْناها فيما تقدّم. وقد اشتمل هذا الفصل على وصايا جليلة الموقع:

منها قوله: «وتمسّكْ بِحَبْل القرآن»، جاء في الخبر المرفوع لما ذكر الثَّقَلَيْن فقال: «أحدهما كتابُ الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض طَرَف بيد الله وطرف بأيديكم».

ومنها قوله: انتصحْه، أي عُدَّه ناصحاً لك فيما أمرك به ونهاك عنه.

ومنها قوله: «وأحِلَّ حلاله وحَرِّم حرامه»، أي احكم بين الناس في الحلال والحرام بما نص عليه القرآن.

ومنها قوله: «وصدِّق بما سلف من الحقّ»، أي صدِّق بما تضمَّنه القرآنُ من أيام الله ومَثُلاته في الأُمم السالفة لما عصوْا وكذّبوا.

ومنها قوله: «واعتبر بما مضى من الدّنيا لما بقي منها»، وفي المثل: إذا شئت أن تنظر الدنيا بعدَك فانظرها بعد غيرك، وقال الشاعر:

وما نحنُ إلّا مثلهم غير أننا ... أقمنا قليلاً بعدهم ثمّ نرحَلُ

ويناسب قوله: «وآخرُها لاحقٌ بأولها، وكلها حائل مُفارق»، قوله أيضاً ﷺ في غير هذا الفصل الماضي: «للمقيم عِبرة، والميّت للحيّ عِظَة، وليس لأمس عودة، ولا المرءُ من غدٍ على ثقة، الأول للأوسط رائد، والأوسط للأخير قائد؛ وكلٌّ بكلّ لاحق، والكلُّ للكلِّ مُفارق».

ومنها قوله: «وعَظِّم اسم الله أن تذكره إلّا على حَقّ»، قال الله سبحانه ﴿**ولا تجْعلوا اللهَ عُرضةً لأيمانكُمْ**﴾[1]، وقد نهى عن الحلف بالله في الكذب والصدق، أمّا في أحدهما فمحرّم وأمّا في الآخر فمكروه، ولذلك لا يجوز ذكر اسمه تعالى في لغْوِ القول والهزءِ والعبث.

ومنها قوله: «وأكثِرْ ذكر الموت وما بعد الموت»، جاء في الخبر المرفوع: «أكثرُوا ذكر هاذم[2] اللذَّات»، وما بعد الموت: العقابُ والثوابُ في القبر وفي الآخرة.

↔ وقال له بعد كلام طويل: «خذها إليك يا حارث قصيرة من طويلة: أنت مع من أحببت ولك ما احتسبت، أو قال: ما اكتسبت، قالها ثلاثاً». فقال الحارث وقام يجرّ رداءه جذلاً: ما أُبالي وربي بعد هذا لقيتُ الموت أو لقيني.

١. سورة البقرة ٢٢٤.

٢. هاذم اللذات، من الهدم وهو القطع.

ومنها قوله: «ولا تتمنّ الموت إلّا بشرط وثيق»، هذه كلمةٌ شريفة عظيمة القدْر، أي لا تتمنّ الموتَ إلّا وأنت واثق من أعمالك الصالحة أنها تؤدّيك إلى الجنة، وتُنقِذك من النار؛ وهذا هو معنى قوله تعالى لليهود: **﴿إنْ زعمتمْ أنكم أوْلياءُ للهِ مِنْ دُونِ النـاسِ فـتمَنَّوُا المـوتَ إنْ كُـنتُـمْ صَـادِقيـنَ * ولَا يَـتَمَنَّوْنـه أبـداً بِمـا قـدَّمتْ أيـديهمْ واللهُ عـليمٌ بالظّالمين﴾**[1].

ومنها قوله: «واحذر كلّ عمل يرضاه صاحبه لنفسه، ويكرهه لعامة المسلمين، واحذر كل عمل يُعمل في الستر، ويُستحيا منه في العلانية، واحذر كل عمل إذا سُئل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه»، وهذه الوصايا الثلاث متقاربةٌ في المعنى، ويشملها معنى قول أبي الأسود الدؤلي:

لا تنهَ عن خُلق وتأتيَ مثلهُ ... عار عليك إذا فعلتَ عظيمُ

وقال الله تعالى حاكياً عن نبيٍّ من أنبيائه: **﴿وَمَا أُرِيدُ أنْ أُخَالِفَكُمْ إلَى مَا أنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾**[2].

ومنها قوله: «ولا تجعَل عِرْضك غَرَضاً لنبال القوم»، قال الشاعر:

لا تستثِرْ أبداً ما لا تَقومُ له ... ولا تَهيجنّ من عِرّيسِهِ الأَسَدَا

إنّ الزّنابيرَ إنْ حرّكتها سَفَهاً ... مِن كورها أوجعتْ مِن لَسْعِها الجَسَدا

ومنها قوله: «ولا تُحَدِّث الناسَ بكلّ ما سمعتَ، فكفى بذلك كَذِباً»، قد نهى أن يحدّث الإنسان بكلّ ما رأى من العَجائب فَضْلاً عمّا سَمِع؛ لأنّ الحديثَ الغريبَ المعجبَ تُسارِع النفسُ إلى تكذيبه، وإلى أن تقوم الدّلالة على صِدْقه قد فَرَط من سوء الظنّ فيه ما فرط.

ومنها قوله: «ولا تردّ على الناس كلّ ما حدّثوك، فكفى بذلك جَهْلاً»، من الجَهْل المبادرة بإنكار ما يَسمَعه.

ومنها قوله: «واكظم الغَيْظ»، قد مَدَح اللهُ تعالى ذلك فقال: **﴿وَالْكاظِمِينَ الغَيظَ﴾**[3].

ومنها قوله: «واحلُم عند الغَضَب»، هذه مُناسَبة الأولى، وقد تقدَّم منّا قولٌ كثيرٌ في الحِلْم وفضله؛ وكذلك القول في قولهﷺ: «وتجاوَزْ عند المقدرة»، وكان يقال: القُدْرة

---

١. سورة الجمعة ٦، ٧.

٢. سورة هود ٨٨. وهي من مواعظ شعيبﷺ إلىٰ قومه.

٣. سورة آل عمران ١٣٤.

تذهب الحَفِيظَة.

ومنها قوله: «واصفحْ مع الدّولة تكنْ لكَ العاقبة»، هذه كانت شيمةُ رسول الله ﷺ، وشيمة عليّ عليه السلام؛ أمَّا شيمةُ رسولِ الله ﷺ فظفِرَ بمشركي مَكّة وعفا عنهم، كما سَبَقَ القولُ فيه في عام الفَتْح؛ وأمّا عليّ عليه السلام فَظفِر بأصحاب الجمل وقد شَقّوا عصا الإسلام عليه، وطَعَنوا فيه وفي خلافتِه، فعفا عنهم، مع علمِه بأنّهم يُفسدون عليه أمره فيما بعد، ويَصِيرون إلى معاوية إمّا بأنفسهم أو بآرائهم ومكتوباتهم، وهذا أعظمُ من الصّفح عن أهل مكّة؛ لأنّ أهل مكّة لم يَبقَ لهم لمّا فُتِحت فئةٌ يتحيّزون إليها، ويُفسِدون الدّين عندها.

ومنها قوله: «واستَصلح كلّ نعمةٍ أنعَمها الله عليك»، معنى استَصلِحْها استَدِمْها؛ لأنّه إذا استدامها فقد أصلَحها، فإنَّ بقاءها صلاحٌ لها، واستدامتها بالشكر.

ومنها قوله: «ولا تضيّعنّ نعمة من نعم الله عندَك»، أي واس الناسَ منها، وأحسِنْ إليهم، واجعلْ بعضها لنَفْسك وبعضها للصّدقة والإيثار، فإنَّك إن لم تفعلْ ذلك تكنْ قد أضَعْتَها.

ومنها قوله: «وليُرَ عليك أثرُ النّعمة»، قد أمَر بأنْ يُظهر الإنسانُ على نفسِه آثارَ نعمةِ الله عليه، وقال سبحانه: ﴿**وأمّا بنعمةِ رَبِّكَ فحدِّثْ**﴾[١].

ومنها قوله: «واعلم أنّ أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمة من نفسِه وأهله وماله»، أي أفضلهم إنفاقاً في البرّ والخير من مالِه، وهي التَّقدمة، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا تَقَدِّمُوا لأنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ**﴾[٢]، فأمّا النفس والأهل، فإنّ تقدِمتهما في الجهاد، وقد تكون التّقدمة في النّفس بأن يَشفع شفاعةً حسنةً أو يحضر عند السّلطان بكلام طيّب، وثناءٍ حَسَن، وأن يُصلِح بين المُتخاصِمَين، ونحو ذلك، والتَّقدِمة في الأهل أن يحجّ بوَلَده وزَوْجته ويكلِّفهما المشاقّ في طاعة الله، وأن يؤدِّب ولده إن أذنَب، وأن يقيمَ عليه الحدّ، ونحو ذلك.

ومنها قوله: «وما تقدّم من خير يَبق لك ذُخْره وما تؤخره يكنْ لغيرك خيرُه»، قد سبق مثلُ هذا، وأنّ ما يتركُه الإنسانُ بعده فقد حُرِم نفعه، وكأنّما كان يكدَح لغيره، وذلك من الشّقاوة وقلّة التوفيق.

ومنها قولُه: «واحذر صَحابَة مَن يَفِيلُ رأيه»، الصَّحابة بفتح الصاد، مَصدَر صحبت والصَّحابة بالفتح أيضاً جَمعُ صاحب، والمرادُ هاهنا الأوّل، وفالَ رأيُه: فَسَد؛ وهذا المعنى

---

١. سورة الضحى ١١.

٢. سورة البقرة ١١٠.

قد تَكرّر، وقال طَرَفة:

عن المرءِ لَا تسأَلْ وسَلْ عن قَرينِه   فـإنّ القَـرينَ بـالمُقارن يَـقتدِي

ومنها قوله: «واسكُن الأمْصار العظام»، قد قيل: لا تسكن إلّا في مصرٍ فيه سوقٌ قائمة، ونهرٌ جارٍ، وطبيبٌ حاذق، وسلطانٌ عادل، فأما مَنازل الغَفْلة والجفاء، فمِثلُ قُرَى السّواد الصغار، فإنّ أهلها لا نُورَ فيهم، ولا ضوءَ عليهم، وإنّما هم كالدّوابّ والأنعام، هَمُّهم الحَرْث والفِلاحة، ولا يفقهون شيئاً أصْلاً. فمجاوَرَتهم تُعْمِي القلب، وتُظلِم الحِسّ، وإذا لم يَجِد الإنسانُ مَنْ يُعينه على طاعةِ الله وعلى تَعلُّم العِلم قصَّر فيهما.

ومنها قوله: «واقصر رأيَك على ما يَعْنيك»، كان يقال: من دَخَل فيما لا يَعْنيه فاتَه ما يَعْنيه. ومنها نَهيُه إيّاه عن القُعود في الأسْواق. قد جاء في المَثَل: السُّوق محلّ الفُسوق. وجاء في الخبر المرفوع: «الأسواقُ مَواطنُ إبليس وجندِه»، وذلك لأنّها قلّما تخلو عن الأيْمان الكاذبة، والبُيوع الفاسدة، وهي أيضاً مَجمَع النّساء المُومِسات، وفجّار الرجال، وفيها اجتماعُ أرباب الأهواء والبِدَع، فلا يخلُو أن يتَجادَل اثنان منهم في المذاهب والنِّحِل فيُفضِي إلى الفِتَن.

ومنها قوله: «وانظر إلى من فُضِّلْتَ عليه»، كان يقال: اُنظُر إلى مَن دُونَك، ولا تَنظُر إلى مَنْ فَوْقَك. وقد بيّنﷺ السرّ فيه فقال: إنّ ذلك من أبواب الشّكر، وصَدَقﷺ؛ لأنّك إذا رأيتَ جاهلاً وأنتَ عالم، أو عالماً وأنت أعلَمُ منه، أو فقيراً وأنتَ أغْنَى منه؛ أو مُبتلىً بسَقَم وأنتَ مُعافىً عنه، كان ذلك باعثاً وداعِياً لك إلى الشكر.

ومنها نَهيهُ عن السّفر يومَ الجمعة، ينبغي أن يكون هذا النهيُ عن السَّفَر يومَ الجمعة قبلَ الصلاة، وأمّا بعدَ الصلاة، فلا بأس به، واستَثْنَى فقال: إلّا فاصلاً في سبيل الله، أي شاخِصاً إلى الجهاد. «أو في أمرٍ تُعذَر به»، أي لضرورة دَعَتْك إلى ذلك.

ومنها قولُه: «وأطعِ اللهَ في جُمَل أُمورك»، أي في جُمْلَتها، وفيها كلّها، وليس يَعني في جُملَها دونَ تَفاصِيلها، قال: فإنّ طاعةَ الله فاضلةٌ على غيرها، وصَدَقﷺ؛ لأنّها توجب السعادةَ الدائمة. والخلاصَ من الشّقاء الدائم، ولا أفضلَ ممّا يؤدِّي إلى ذلك.

ومنها قوله: «وخادِعْ نَفسَك في العبادة»، أَمَرَه أن يَتلطّف بنفسه في النّوافل، وأن يُخادِعَها ولا يقْهَرها فتَملَّ وتَضجَر وتترُك، بل يأخذ عفوَها، ويتوخّى أوقات النشاط، وانشراحَ الصّدر للعبادة.

قال: فأمّا الفرائض فحُكمُها غيُر هذا الحُكم، عليك أن تقوم بـها كـرِهَتْها النـفسَ أو لم تَكرَهْها. ثمّ أمَرَه أن يقوم بالفريضة في وقتِها، ولا يؤخّرها عنه فتصيرَ قضاءً.

ومنها قولُه: «وإيّاك أن يَنزِل بك المنون وأنتَ آبِقٌ من ربّك في طَلَب الدّنيا»، هذه وصيّة شريفة جدّاً، جَعَل طالبَ الدّنيا المُعرِضَ عن الله عند مَوْته كالعَبْد الآبِق يُقدم به على مَوْلاه أسيراً مكتوفاً ناكِسَ الرأس، فما ظنّك به حينئذٍ!

ومنها قولُه: «وإيّاك ومصاحَبَة الفُسّاق، فإنّ الشرّ بالشرّ مُلحَق»؛ يقول: إنّ الطباع يَنزِع بعضُها إلى بعض، فلا تَصحَبنّ الفُسّاق فإنّه يَنزِع بك ما فيك، من طَبْع الشرّ إلى مساعَدَتهم على الفُسوق والمَعصِية، وما هو إلّا كالنّار تَقوَى بالنار، فإذا لم تُجاوِرْها وتمازِجْها نارٌ كانت إلىٰ الانطِفاء والخمُود أقرب.

ورُوِي «مُلحِق» بكسر الحاء، وقد جاء ذلك في الخبر النبويّ «فـإن عـذابَك بـالكفّار مُلحِق» بالكسر.

ومنها قولُه: «وأحِبَّ أحبّاءه»، قد جاء في الخبر: «لا يَكمُل إيمانُ أمرئ حتّى يُحبَّ مَن أحَبَّ الله، ويُبغض من أبغَضَ الله».

ومنها قولُه: «واحذَر الغَضَب». قال إنسانٌ للنّبيّ ﷺ: أوصِني، قال: «لا تَغْضب»، فقال: زِدْني، فقال: «لا تغضب»، قال: زِدْني، قال: «لا أجدُ لك مَزيداً»، وإنّما جـعلَه ﷺ جُـنْداً عظيماً من جُنودِ إبليس؛ لأنّه أصلُ الظّلم والقَتْل وإفسادِ كلّ أمرٍ صالح، وهو إحدى القوّتين المشؤومَتَيْن اللّتين لم يخلق أضرّ منهما على الإنسان، وهما مَنبَع الشرّ: الغَضَب والشَّهْوة.



الأَصْلُ:

ومن كتاب له ﷺ إلى سهل بن حنيف الانصاري

وهو عامله على المدينة، في معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالاً مِمَّنْ قِبَلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلىٰ مُعَاوِيَةَ، فَـلَا تَـأْسَفْ عَـلَىٰ

مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ، فَكَفَىٰ لَهُمْ غَيّاً، وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِياً، فِرَارُهُمْ مِنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْحَقِّ، وَإِيضَاعُهُمْ إِلَىٰ ٱلْعَمَىٰ وَٱلْجَهْلِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا، وَمُهْطِعُونَ إِلَيْهَا، وَقَدْ عَرَفُوا ٱلْعَدْلَ وَرَأَوْهُ، وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي ٱلْحَقِّ أُسْوَةٌ، فَهَرَبُوا إِلَىٰ ٱلْأَثَرَةِ، فَبُعْداً لَهُمْ وَسُحْقاً، إِنَّهُمْ وَٱللهِ لَمْ يَفِرُّوا مِنْ جَوْرٍ، وَلَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلٍ، وَإِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هٰذَا ٱلْأَمْرِ أَنْ يُذَلِّلَ ٱللهُ لَنَا صَعْبَهُ، وَيُسَهِّلَ لَنَا حَزْنَهُ، إِنْ شَاءَ ٱللهُ، وَالسَّلَامُ عليك وَرحمةُ اللهِ وَبَرَكاتهُ[1].

الشّرْحُ:

قد تقدّم نسبُ سَهْل بن حُنيف وأخيه عثمانَ فيما مضى. ويتسلّلون: يَخرُجون إلى معاويةَ هارِبين في خِفْية واستتار. قال: «فلا تأسَفْ»، أي لا تحزن. والغَيّ: الضلال. «ولك منهم شافياً»، أي يكفيك في الانتقام منهم وشفاءِ النّفس من عقوبَتِهم أنّهم يتسلّلون إلى معاوية.

قال: «ارض لمن غاب عنك غَيْبَته»، فذاك ذَنْبُ عِقابِه فيه. والإيضاع: الإسراع. وَضَعَ البعيرُ أي اسرَعَ، وأوْضَعَه صاحبُه. ومُهْطِعون: مُسرعون أيضاً، والأثَرَة: الاستئثار، يقول: قد عَرَفوا أنّي لا أقسِم إلّا بالسويّة، وأنّي لا أنفّل قوماً على قومٍ، ولا أُعطِي على الأحْساب والأنْساب كما فعل غيري، فتَرَكوني وهَرَبوا إلى مَنْ يَسْتأثِر ويُؤثر. قال: فبُعْداً لهم وسُحْقاً، دعاءٌ عليهم بالبُعْد والهلاك.

ورُوِي أنّهم «لم يَنْفروا» بالنّون، من نَفَرَ؛ ثمّ ذكر أنّه راجٍ من الله أن يذلّل له صَعْبَ هذا الأمْر، ويُسهّل له حَزْنه؛ والحَزْن: ما غَلُظ من الأرض، وضِدّه السّهْل.

---

١. قِبلك: عندك. يتسللون: يهربون. المدد: العون. الأَثَرة: الاختيار والاختصاص.



الأصْلُ :

ومن كتاب لهعليه السلام إلى المنذر بن الجارود العبدي

وقد كان استعمله على بعض النواحي ، فخان الأمانة في بعض ما ولّاه من أعماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ صَلَاحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ ، فَإِذَا أَنْتَ فِيما رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدَعُ لِهَوَاكَ آنْقِيَاداً ، وَلَا تُبْقِي لِآخِرَتِكَ عَتَاداً. تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ. وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقّاً لَجَمَلُ أَهْلِكَ وَشِسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ ، وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ ، أَوْ يُنفَذَ بِهِ أَمْرٌ ، أَوْ يُعْلَىٰ لَهُ قَدْرٌ ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَىٰ جِبَايَةٍ ،فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هٰذَا إِنْ شَاءَ آللهُ.

قال الرضي رحمه الله تعالى :

المنذر بن الجارود هذا هو الذي قال فيه أمير المؤمنينعليه السلام : إنه لنَظّارٌ في عِطفيه مختال في بُرْدَيْه تَفّالٌ في شِرَاكَيْهِ .

الشّرْحُ :

هو المُنذِر بنُ الجارود. واسم الجارود بشْرُ بنُ خُنَيس بن المعلّى. ووفد الجارودُ على النبيّصلى الله عليه وآله في سنة تسع ، وقيل : في سنة عشرٍ. وذكَر أبو عمرَ بنُ عبدِ البرّ في كتاب (الاستيعاب) أنه كان نصرانياً فأسلم وحَسُن إسلامُهُ ، وسَكَن الجارودُ البَصْرة ، وقُتِل بأرض فارس .

فأمّا المُنذِر بنُ الجارُود فكان شريفاً ، غيرُ معدود في الصّحابة ، وكان تائهاً مُعجَباً بنفسِه .

قولهعليه السلام : «إنّ صلاح أبيك غرّني منك» ، قد ذكَرْنا حال الجارود وصحبتَه وصلاحه ، وكثيراً ما يغترّ الإنسان بحال الآباء فيظنّ أنّ الأبناء على منهاجهم ، فلا يكون الأمرُ كذلك

﴿يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميِّت ويُخْرِجُ الميِّت من الحيّ﴾[١]. قوله «فيما رقّي» بالتشديد، أي فيما رفع إليّ؛ وأصله أن يكون الإنسان في موضع عالٍ فيرقى إليه شيء، وكأنّ العلوّ هاهنا هو علوّ المرتبة بين الإمام والأمير، ونحوه قولهم: تعالى باعتبار علوّ رُتْبة الآمر على المأمور. واللّام في «لهواك» متعلّقة بمحذوف دلّ عليه انقياداً، ولا يتعلّق بنفس «انقياد»؛ لأنّ المتعلّق من حروف الجرّ بالمصدر لا يجوز أن يتقدّم على المصدر. والعتاد: العُدّة. قوله: «وتصل عشيرتك» كان فيما رقّي إليه عنه أنه يقتطع المال ويُفيضه على رَهْطه وقومِه ويُخرِج بعضه في لذّاته ومآربه.

قوله: «لجمل أهلِكَ» العَرَب تَضرِب بالجمَل المَثَل في الهوان. فأمّا شِسْع النَّعْل فضَرْب المثل بها في الاستهانة مشهور، لابتذالها ووطئها الأقدام في التراب.

ثم ذكر أنّه من كان بصفته فليس بأهلٍ لكذا ولا كَذَا، إلى أن قال: «أو يشرك في أمانة»؛ وقد جَعَل الله تعالى البلاد والرعايا أمانةً في ذمّة الإمام، فإذا استعمل العمّال على البلاد والرّعايا فقد شرَكهم في تلك الأمانة.

قال: «أو يؤمن على جباية»، أي على استِجْباء الخراج وجمعه، وهذه الرّواية الّتي سمعناها، ومن الناس من يَرْويها «على خيانة»، وهكذا رواها الراونديّ، ولم يرو الرواية الصحيحية التي ذكرناها نحن. ثم أمَره أن يُقبل إليه، وهذه كنايةٌ عن العَزْل.

فأمّا الكلمات الّتي ذكرها الرضيّ عنه ﷺ في أمر المُنذر فهي دالّة على أنّه نَسَبَه إلى التِّيه والعُجْب، فقال: نظّار في عِطْفيه، أي جانبيه، ينظر تارةً هكذا وتارة هكذا، ينظُر لنفسه، ويَستحسِن هَيْئَته ولبْستَه، وينظر هل عنده نَقْص في ذلك أو عَيْب فيستدركُه بإزالته، كما يفعل أربابُ الزّهْو ومن يدّعي لنفسه الحسن والملاحة.

قال: مُختالٌ في بُرْدَيْه: يمشي الخُيلاء عُجْباً. «تفّال في شِراكيه»، الشِّراك السَّيْر الّذي يكون في النّعل على ظَهْر القدم. والتَّفْل بالسكون: مصدر تَفَل أي بَصَق، والتَّفَل محركاً البُصاقُ نفسه، وإنّما يفعله المُعجِب والتّائِه في شِراكَيْه ليذهب عنهما الغُبار والوسخ، يَتْفُل فيهما ويمسَحهما ليعودا كالجَدِيدين.

---

١. سورة الروم ١٩.



الأصْلُ :

ومن كتاب له ﷺ إلى عبد الله بن العباس ﷺ

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِسَابِقٍ أَجَلَكَ، وَلَا مَرْزُوقٍ مَا لَيْسَ لَكَ[1]؛ وَٱعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْرَ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ، وَأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ دُوَلٍ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَىٰ ضَعْفِكَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ.

الشَّرْحُ :

قد تقدّم شرحُ مثل هذا الكلام، وهذا معنىً مطروق، قد قال الناس فيه فاكثروا:

قد يُرزَق العاجزُ الضعيفُ وما ... شَدّ بكُورٍ رَحْلاً ولا قَتَبَا
ويُحرَم المرءُ ذو الجلادة ... والرّأْي ومن لا يزال مُغترِبا



الأصْلُ :

ومن كتاب له ﷺ إلى معاوية

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي عَلَىٰ التَّرَدُّدِ فِي جَوَابِكَ، وَٱلاِسْتِمَاعِ إِلَىٰ كِتَابِكَ، لَمُوَهِّنٌ رَأْيِي،

---

١. والمعنىٰ: قد بيّن الإمام ﷺ حقيقتين:

الأولىٰ: إن الإنسان لن يسبق أجله (الكل أجل الكتاب)، فالوقت المقدّر لخروجه من الدنيا مؤقت مكتوب لا يستطيع الانسان أن يتقدّم عليه. ومع ذلك علينا أن لا نلقي بأنفسنا إلىٰ التهلكة والثانية: أن الرزق مكتوب ومقدّر، فمهما جدّ الإنسان وسعىٰ، وسافر وتغرّب فلن يحصل الاعلىٰ ما قدّر له. ولكن لا يهمل العمل والتدبير. انظر: الرسالة ٢٢.

وَمُخَطِّئٌ فِرَاسَتِي. وَإِنَّكَ إِذْ تُحَاوِلُنِي ٱلْأُمُورَ، وَتُرَاجِعُنِي ٱلسُّطُورَ، كَٱلْمُسْتَثْقِلِ النَّائِمِ تَكْذِبُهُ أَحَلَامُهُ، وَٱلْمُتَحَيِّرِ ٱلْقَائِمِ يَبْهَظُهُ مَقَامُهُ، لَا يَدْرِي أَلَهُ مَا يَأْتِي أَمْ عَلَيْهِ، وَلَسْتَ بِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ بِكَ شَبِيهٌ.

وَأُقْسِمُ بِاللهِ إِنَّهُ لَوْلَا بَعْضُ ٱلاسْتِبْقَاءِ، لَوَصَلَتْ إِلَيْكَ مِنِّي قَوَارِعُ، تَقْرَعُ ٱلْعَظْمَ، وَتَنْهَسُ اللَّحْمَ! وَٱعْلَمْ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ثَبَّطَكَ عَنْ أَنْ تُرَاجِعَ أَحْسَنَ أُمُورِكَ، وَتَأْذَنَ لِمَقَالِ نَصِيحَتِكَ. وَالسَّلَامُ لأَهْلِهِ.

الشّرْحُ:

رُوي: «نوازع» جمع نازعة، أي جاذبة قالعة، ورُوي: «تهلِس اللحم» و « تلهس» بتقديم اللام، وتهلِس بكسر اللام: تذيبه حتى يصير كبدن به الهُلاس، وهو السلّ؛ وأمّا تلهس فهو بمعنى تلحس، أبدِلت الحاء هاء؛ وهو من لحِست كذا بلساني بالكسر، ألحسه، أي تأتي على اللحم حتى تلحسه لحساً؛ لأنّ الشيء إنما يلحس إذا ذهب وبقي أثره، وأمّا «يَنْهس» وهي الرواية المشهورة، فمعناه يعترق. وتأذَن بفتح الذال، أي تسمع.

قوله ﷺ «إني لموهِّن رأيي» بالتشديد، أي إني لائم نفسي، ومستضعف رأيي في أن جعلتك نظيراً، أكتُب وتجيبني، وتكتب وأجيبك؛ وإنما كان ينبغي أن يكون جواب مثلك السكوت لهوانِك.

فإن قلت: فما معنى قوله: «على التردد»؟

قلت: ليس معناه التوقّف، بل معناه الترداد والتكرار؛ أي أنا لائم نفسي على أني أكرر تارة بعد تارة أجوبتك عمّا تكتبه.

ثم قال: وإنك في مناظرتي ومقاومتي بالأُمور التي تحاولها، والكتب التي تكتبها كالنائم يرى أحلاماً كاذبة، أو كمن قام مقاماً بين يدي سلطان، أو بين قوم عقلاء ليعتذر عن أمر، أو ليخطب بأمر في نفسه، قد بهظه مقامه ذلك، أي أثقله فهو لا يدري: هل ينطق بكلام هو له، أم عليه، فيتحيّر ويتبلّد، ويدركه العيُّ والحَصَر؟!

قال: وإن كنتَ لست بذلك الرّجل فإنك شبيه به؛ أمّا تشبيهه بالنائم ثم ذي الأحلام، فإن معاوية لو رأى في المنام في حياة رسولِ الله ﷺ أنه خليفةٌ يخاطب بإمرة المؤمنين،

ويحارب علياً على الخلافة، ويقوم في المسلمين مقامَ رسولِ اللهﷺ لما طلب لذلك المنام تأويلاً ولا تعبيراً، ولعدّة من وساوس الخيال وأضغاث الأحلام؛ وكيف وأنّى له أن يخطر هذا بباله، وهو أبعد الخلق منه؟ وهذا كما يخطر للنّقاط أن يكون مَلِكاً، ولا تنظرنّ إلى نسبه في المناقب، بل انظر إلى أن الإمامة هي نبوّة مختصرة، وأن الطليق المعدود من المؤلفة قلوبهم المكذّب بقلبه وإن أقرّ بلسانه، الناقص المنزلة عند المسلمين، القاعد في أُخريات الصفّ إذا دخل إلى مجلس فيه أهل السوابق من المهاجرين، كيف يخطر ببال أحد أنها تصير فيه ويملكها ويسمه الناس وسمَها، ويكون للمؤمنين أميراً، ويصير هو الحاكم في رقاب أولئك العظماء من أهل الدّين والفَضْل؟ وهذا أعجب من العَجب! أن يجاهد النبيّﷺ قوماً بسيفه ولسانه ثلاثاً وعشرين سنة، يلعنهم ويبعدهم عنه، وينزل القرآن بذمهم ولعنهم، والبراءة منهم، فلما تمهّدت له الدولة، وغلب الدّين على الدّنيا، وصارت شريعة دينيّة محكمة، مات فشيّد دينه الصالحون من أصحابه، وأوسعوا رقعة ملّته، وعظم قدرُها في النفوس، فتسلّمها منهم أولئك الأعداء، الذين جاهدهم النبيﷺ فملكوها وحكموا فيها، وقتلوا الصُّلحاء والأبرار وأقارب نبيّهم الذين يظهرون طاعته، وآلت تلك الحركة الأُولى وذلك الاجتهاد السابق إلى أن كان ثمرته لهم؛ فليتَهُ كان يبعث فيرى معاوية الطّليق وابنه، ومَرْوان وابنه، خلفاء في مقامه، يحكمون على المسلمين، فوضح أنّ معاوية فيما يراجعه ويكاتبه به؛ كصاحب الأحلام.

وأمّا تشبيهه إياه بالقائم مقاماً قد بهظه؛ فلأن الحجج والشّبه والمعاذير التي يذكرها معاوية في كتبه أوهن من نسج العنكبوت، فهو حال ما يكتب كالقائم ذلك المقام، يخبط خبطَ العشواء، ويكتب ما يعلم هو والعقلاء من النّاس أنّه سفَه وباطل.

فإن قلت: فما معنى قولهﷺ: «لولا بعض الاستبقاء»؟ وهل كانت الحال تقتضي أن يستبقي؟ وما تلك القوارع التي أشار إليها؟

قلت: قد قيل: إنّ النبيّﷺ فَوّض إليه أمرَ نسائه بعد موته، وجعل إليه أن يقطع عصمة أيّتهن شاء إذا رأى ذلك، وله من الصحابة جماعةٌ يشهدون له بذلك، فقد كان قادراً على أن يقطع عصمة أمّ حبيبة، ويبيح نكاحها الرّجال عقوبة لها ولمعاوية أخيها، فإنها كانت تُبغض عليّاً كما يُبغضه أخوها، ولو فعل ذلك لانتهسَ لحمه. وهذا قول الإماميّة وقد رووا عن رجالهم أنهﷺ تهدّد عائشة بضرب من ذلك[1]، وأمّا نحن فلا نصدّق هذا الخبر، ونفسّر

---

١. قول الشارح: «وهذا قول الإمامية»، وقد فسّر (القوارع) في كلام الامامﷺ بما ذكره من تفويض أمر

كلامه على معنى آخر، وهو أنه قد كان معه من الصّحابة قوم كثيرون سمعوا من رسول الله ﷺ يلعن معاوية بعد إسلامه، ويقول: إنّه منافق كافر، وإنّه من أهل النار، والأخبار في ذلك مشهورة؛ فلو شاء أن يحمل إلى أهل الشام خطوطهم وشهاداتهم بذلك، ويسمعهم قولهم ملافظةً ومشافهة لفعل، ولكنه رأى العدول عن ذلك، مصلحةً لأمر يعلمه هو ﷺ، ولو فعل ذلك لانتهسَ لحمه، وإنما أبقى عليه.



الأصْلُ:

ومن حِلف له ﷺ كتبه بين ربيعة واليمن

ونقل من خط هشام بن الكلبي:

هٰذَا مَا آجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ آليمَنِ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا، وَرَبِيعَةُ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا، أَنَّهُمْ عَلَىٰ كِتَابِ آللهِ يَدْعُونَ إِلَيْهِ، وَيَأْمُرُونَ بِهِ، وَيُجِيبُونَ مَنْ دَعَا إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ، لَا يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً، وَلَا يَرْضَوْنَ بِهِ بَدَلاً، وَأَنَّهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ ذٰلِكَ وَتَرَكَهُ، أَنْصَارٌ بَعْضُهُمْ لِبَعْض، دَعْوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ، لَا يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ لِمَعْتَبَةِ عَاتِبٍ، وَلَا لِغَضَبِ غَاضِبٍ، وَلَا لِاسْتِذْلَالِ قَوْمٍ قَوْماً، وَلَا لِمَسَبَّةِ قَوْمٍ قَوْماً! عَلَىٰ ذٰلِكَ شَاهِدُهُمْ وَغَائِبُهُمْ، وَسَفِيهُهُمْ وَعَالِمُهُمْ، وَحَلِيمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ.

⇐ نسائه ﷺ إلى الامام ﷺ.

أقول: أولاً: لا أحد من أعلام الإمامية فسّر (القوارع) بما ذكر.

وثانياً: أن أصل تفويض النبي ﷺ أمر نسائه إلى الإمام ﷺ، لم يكن من مختصّات الإمامية. فقد ذكر ذلك بعض العامة، منهم (أحمد بن أعثم الكوفي في كتابه الفتوح ٢: ٣٤٠ طبعة مصر).

وثالثاً: ليس المراد من طلاقهنّ إباحة نكاحهن، بل سقوط حرمتهنّ. فحتىٰ لو أنّ النبي ﷺ طلّق امرأة لم يدخل بها، لم يجز نكاحها أيضاً.

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْهِمْ بِذٰلِكَ عَهْدَ ٱللهِ وَمِيثَاقَهُ، إِنَّ عَهْدَ ٱللهِ كَانَ مَسْؤُولاً.

وكتب علي بن أبي طالب.

الشّرْحُ:

الحِلْف: العهد، أي ومن كتاب حِلْف؛ فحذف المضاف. واليمن: كلّ مَن ولده قحطان؛ نحو حِمْيَر، وعكّ، وجُذام، وكِنْدة، والأزد، وغيرهم.

وربيعة، هو ربيعة بن نزار بن معدّ بن عدنان؛ وهم بكْر وتغلِب، وعبد القيس.

وهشام، هو هشام بن محمّد بن السائب الكلبيّ، نسّابة ابن نسّابة؛ عالم بأيّام العرب وأخبارها، وأبوهُ أعلم منه، وهو يروي عن أبيه.

والحاضر: ساكنو الحَضَر، والبادي: ساكنو البادية؛ واللفظ لفظ المفرد والمعنى الجمع.

قوله: «إنهم على كتاب الله» حرف الجرّ يتعلّق بمحذوف، أي مجتمعون.

قوله: «لا يشترونَ بهِ ثمناً قليلاً»، أي لا يتعوّضون عنه بالثمن، فسمّى التعوّض اشتراء؛ والأصل هو أن يشتري الشيء بالثمن لا الثمن بالشيء، لكنه من باب اتّساع العرب، وهو من ألفاظ القرآن العزيز[١]. وإنّهم يدٌ واحدة، أي لا خلف بينهم.

قوله: «لمعتبة عاتب»، أي لا يؤثّر في هذا العهد والحلف ولا ينقضه أن يعتب أحد منهم على بعضهم؛ لأنّه استجداه فلم يُجدِه، أو طلب منه أمراً فلم يقم به، ولا لأنّ أحداً منهم غضب من أمرٍ صدر من صاحبه، ولا لأنّ عزيزاً منهم استذلّ ذليلاً منهم، ولا لأنّ إنساناً منهم سبّ أو هجا بعضهم، فإنّ أمثال هذه الأُمور يتعذّر ارتفاعها بين الناس؛ ولو كانت تنقض الحِلْف لما كان حلف أصلاً.

واعلم أنه قد ورد في الحديث عن النبيّ ﷺ: «كلّ حِلْف كان في الجاهليّة فلا يزيده الإسلام إلّا شدة»؛ ولا حلف في الإسلام، لكن فِعْل أمير المؤمنين عليه السلام أولى بالاتّباع من خبر الواحد؛ وقد تحالفت العرب في الإسلام مراراً، ومن أراد الوقوف على ذلك فليطلبه من كتب التواريخ.

---

١. وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾ سورة البقرة ٤١، والمائدة ٤٤.



٧٥

الأصْلُ :

ومن كتاب لهﷺ
إلى معاوية من المدينة في أول ما بويع له بالخلافة

ذكره الواقدي في كتاب الجمل :

مِنْ عَبْدِ ٱللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ:
أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ عَلِمْتَ إِعْذَارِي فِيكُمْ ، وَإِعْرَاضِي عَنْكُمْ ، حَتَّىٰ كَانَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا دَفْعَ لَهُ ؛ وَٱلْحَدِيثُ طَوِيلٌ ، وَٱلْكَلَامُ كَثِيرٌ ، وَقَدْ أَدبَرَ مَا أَدبَرَ ، وَأَقْبَلَ مَا أَقْبَلَ . فَبَايِعْ مَنْ قِبَلَكَ ، وَأَقْبِلْ إِلَيَّ فِي وَفْدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ . وَالسَّلَامُ .

الشّرْحُ :

كتابه إلى معاوية ومخاطبته لبني أُميّة جميعاً ، قال : «وقد علمت إعذاري فيكم» ، أي كوني ذا عذرٍ لو لُمْتُكُمْ أو ذممتكم ـ يعني في أيّام عثمان . ثم قال : «وإعراضي عنكم» ، أي مع كوني ذا عذر لو فعلت ذلك فلم أفعله ، بل أعرضت عن إساءتكم إليّ وضربت عنكم صفحاً . حتى كان ما لابدّ منه ـ يعني قتل عثمان وما جرى من الرّجَبَةِ بالمدينة .

ثم قاطعه الكلام مقاطعة وقال له : والحديث طويل ، والكلام كثير ، وقد أدبر ذلك الزمان ، وأقبل زمان آخر ، فبايع وأقدِم . فلم يبايع ولا قدم ، وكيف يبايع وعينه طامحة إلى الملك والرئاسة منذ أمّره عمر على الشام ؛ وكان عاليَ الهمّة ، توّاقاً إلى معالي الأُمور ، وكيف يطيع عليّاً والمحرّضون له على حَرْبه عدد الحصا ، ولو لم يكن إلّا الوليد بن عقبة لكفى ، وكيف يسمع قوله :

فواللهِ ما هندٌ بأُمّك إن مضى الـنّـ ـــهارُ ولم يثأرْ بعثمان ثائرُ
أيَقتل عبدُ القوم سيّدَ أهلِه ولم تـقْتلوه ، ليت أُمّك عاقرُ
ومن عجبٍ أنْ بتّ بالشام وادعاً قريراً وقد دارت عليه الدوائرُ!

ويطيع عليّاً ، ويبايع له ، ويُقدم عليه ، ويسلّم نفسه إليه ، وهو نازل بالشام في وسط

قَحْطان ودونه منهم حَرَّة لا ترام؛ وهم أطوع له من نعله، والأمر قد أمكنه الشروعِ فيه؟ وتالله لو سمع هذا التحريض أجبنُ الناس وأضعفهُم نفساً وأنقصُهم همّة لحرّكه وشحّذ من عزمه؛ فكيف معاوية، وقد أيقظ الوليدُ بشِعره من لا ينام؟!



٧٦

الأصْلُ:

ومن وصية له عليه السلام لعبد الله بن العباس عند استخلافه إياه على البصرة

سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَحُكْمِكَ، وإِيَّاكَ وَٱلْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَٱعْلَمْ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ ٱللهِ يُبَاعِدُكَ مِنْ النَّارِ، وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ ٱللهِ يُقَرِّبُكَ مِنَ النَّارِ.

الشّرْحُ:

رُوي: «وحلمك». والقرب من الله، هو القرب من ثوابه؛ ولا شبهة أن ما قرّب من الثواب باعدَ من العقاب، وبالعكس لتنافيهما.

فأما وصيّته له أن يَسع الناس بوجهه ومجلسه وحكمه، فقد تقدّم شرح مثلِه، وكذلك القول في الغضب. وطَيْرة من الشيطان: بفتح الطاء وسكون الياء، أي خفّة وطيش.



٧٧

الأصْلُ:

ومن وصية له عليه السلام

لعبد الله بن العباس لما بعثه للاحتجاج على الخوارج

لَا تُخَاصِمْهُمْ بِالْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ ٱلْقُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجُوهٍ، تَقُولُ وَيَقُولُونَ، وَلٰكِنْ

حَاجِجْهُمْ بالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصاً.

الشّرْحُ:

هذا الكلام لا نظير له في شرفه وعلوّ معناه، وذلك أنّ القرآن كثير الاشتباه، فيه مواضع يُظنّ في الظاهر أنها متناقضة متنافية، نحو قوله: **﴿لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ﴾**[١] وقوله: **﴿إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾**[٢]، ونحو قوله: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فأغْشَيناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾**[٣] وقوله: **﴿وأمّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاسْتَحبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾**[٤]، ونحو ذلك، وهو كثير جدّاً؛ وأمّا السنة فليست كذلك، وذلك لأنّ الصحابة كانت تسأل رسول الله ﷺ وتستوضح منه الأحكام في الوقائع، وما عساه يشتبه عليهم من كلامه؛ يراجعونه فيه؛ ولم يكونوا يراجعونه في القرآن إلّا فيما قلّ؛ بل كانوا يأخذونه منه تلقّفاً، وأكثرهم لا يفهم معناه، لا لأنّه غير مفهوم؛ بل لأنهم ما كانوا يتعاطَوْن فهمه

وكانوا في السنّة ومخاطبة الرسول على خلاف هذه القاعدة، فلذلك أوصاه عليٌّ عليه السلام أن يحاجّهم بالسنة لا بالقرآن.

فإن قلت: فهل حاجّهم بوصيّته؟

قلت: لا، بل حاجّهم بالقرآن، مثل قوله: **﴿فابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أهلِهِ وَحَكَماً مِنْ أهلِهَا﴾**[٥] ومثل قوله في صيد المحرم: **﴿يَحْكُمُ به ذَوَا عَدْلٍ مِنكم﴾**[٦]؛ ولذلك لم يرجعوا والتحمت الحرب، وإنما رجع باحتجاجه نفر منهم.

فإن قلت: فما هي السنّة التي أمره أن يحاجّهم بها؟

قلت: كان لأمير المؤمنين عليه السلام في ذلك غرض صحيح، وإليه أشار، وحوله كان يطوف ويحوم، وذلك أنه أراد أن يقول لهم: قال رسول الله ﷺ: «عليٌّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ

---

١. سورة الأنعام ١٠٣.

٢. سورة القيامة ٢٣.

٣. سورة يس ٩.

٤. سورة فصّلت ١٧.

٥. سورة النساء ٣٥.

٦. سورة المائدة ٩٥.

يدور معه حيثما دار»، وقوله: «اللهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله»، ونحو ذلك من الأخبار التي كانت الصحابة قد سمعتها من فَلْقِ فيه صلوات الله عليه، وقد بقي ممن سمعها جماعة تقوم الحجّة وتثبت بنقلهم، ولو احتجّ بها على الخوارج في أنّه لا يحلّ مخالفته والعدول عنه بحالٍ لحصل من ذلك غرض أمير المؤمنين في محاجّتهم، وأغراض أُخرى أرفع وأعلى منهم؛ فلم يقع الأمر بموجب ما أراد، وقُضي عليهم بالحرْب؛ حتى أكلتهم عن آخرهم، وكان أمر الله مفعولاً.



٧٨

الأَصْلُ:

ومن كتاب له عليه السلام أجاب به أبا موسى الأشعريّ

عن كتاب كتبه إليه من المكان الذي اتعدوا[1] فيه للحكومة، وذكر هذا الكتاب سعيد بن يحيى الأُموي في كتاب المغازي:

فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَظِّهِمْ، فَمَالُوا مَعَ الدُّنْيَا، وَنَطَقُوا بِالْهَوَىٰ؛ وَإِنِّي نَزَلْتُ مِنْ هٰذَا ٱلْأَمْرِ مَنْزِلاً مُعْجِباً، ٱجْتَمَعَ بِهِ أَقْوَامٌ أَعْجَبَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ، وَأَنَا أُدَاوِي مِنْهُمْ قَرْحاً أَخَافُ أَنْ يَكُونَ عَلَقاً يَعُودُ. وَلَيْسَ رَجُلٌ - فَاعْلَمْ - أَحْرَصَ عَلَىٰ جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأُلْفَتِهَا مِنِّي، أَبْتَغِي بِذٰلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ، وَكَرَمَ ٱلْمَآبِ.

وَسَأَفِي بِالَّذِي وَأَيْتُ عَلَىٰ نَفْسِي، وَإِنْ تَغَيَّرْتَ عَنْ صَالِحِ مَا فَارَقْتَنِي عَلَيْهِ، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِنَ ٱلْعَقْلِ وَالتَّجْرِبَةِ، وَإِنِّي لَأَعْبَدُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ بِبَاطِلٍ، وَأَنْ أُفْسِدَ أَمْراً قَدْ أَصْلَحَهُ ٱللهُ، فَدَعْ مَا لَا تَعْرِفُ، فَإِنَّ شِرَارَ النَّاسِ طَائِرُونَ إِلَيْكَ

---

١. في نسخة: أُقْعِدُوا.

بِأَقَاوِيلِ السُّوءِ، وَالسَّلَامُ.

الشَّرْحُ:

رُوي: «ونطقوا مع الهوى»، أي مائلين مع الهوى. ورُوي: «وأنا أُداري» بالراء، من المداراة، وهي الملاينة والمساهلة. ورُوي: «نفع ما أولى» باللام؛ يقول: أوليته معروفاً. ورُوي: «إن قال قائل بباطل ويفسد أمراً قد أصلَحَه الله».

واعلم أنّ هذا الكتاب كتاب مَنْ شكّ في أبي موسى واستوحش منه؛ ومن قد نقل عنه إلى أبي موسى كلاماً إمّا صدقاً وإمّا كذباً. وقد نَقَل عن أبي موسى إليه كلاماً إمّا صدقاً أيضاً وأمّا كذباً، قال: إنّ الناس قد تغيّر كثير منهم عن حظّهم من الآخرة، فمالوا مع الدنيا. وإنّي نزلت من هذا الأمر منزلاً معجِباً، بكسر الجيم، أي يعجِب مَنْ رآه، أي يجعله متعجّباً منه.

وهذا الكلام شكوى من أصحابه ونُصّاره من أهل العراق؛ فإنهم كان اختلافهم عليه واضطرابهم شديداً جدّاً. والمنزل والنّزول هاهنا مجاز واستعارة، والمعنى أنّي حصلت في هذا الأمر الذي حصلت فيه عليه حال معجبة لمن تأمّلها لأنّي حصلت بين قوم كلّ واحد منهم مستبدّ برأي يخالف فيه رأيَ صاحبه؛ فلا تنتظم لهم كلمة ولا يستوثق لهم أمر؛ وإن حكمت عليهم برأي أراه أنا خالَفوه وعصوْه، ومن لا يطاع فلا رأي له، وأنا معهم كالطبيب الذي يداوي قَرْحاً، أي جراحة قد قاربتْ الاندمال ولم تندمِلْ بعدُ؛ فهو يخاف أن يعود عَلَقاً، أي دماً. ثم قال له: ليس أحد ـ فاعلم ـ أحرصَ على ألفة الأُمّة وضمّ نشْر المسلمين.

وأدخل قوله: «فاعلم» بين اسم ليس وخبرها فصاحة، ويجوز رفع «أحرص» يجعله صفةً لاسم «ليس»؛ ويكون الخبر محذوفاً، أي ليس في الوجود رجل.

وتقول: قد وأيتُ وأياً، أي وعدت وعداً، قال له: أمّا أنا فسوف أفي بما وعدت وما استقرّ بيني وبينك؛ وإن كنت أنت قد تغيّرت عن صالح ما فارقتني عليه.

فإن قلت: فهل يجوز أن يكون قوله: «وإن تغيّرت» من جملة قوله فيما بعد «فإنّ الشقيّ» كما تقول: إن خالفتني فإنّ الشقيّ من يخالف الحق؟

قلت: نعم، والأوّل أحسن؛ لأنّه أدخلُ في مدْح أمير المؤمنين كأنه يقول: أنا أفي وإن كنتَ لا تفي، والإيجاب يحسّنه السلْب الواقع في مقابلته. والضدّ يظهر حسنَه الضّدُّ.

ثمّ قال: «وإني لأعْبَد»، أي آنف، من عبِد بالكسر أي أنِف، وفسّروا قوله: ﴿**فَأَنَا أَوَّلُ**

الْعَابِدِينَ﴾[1] بذلك، يقول: إنّي لآنف من أن يقول غيري قولاً باطلاً، فكيف لا آنف أنا من ذلك لنفسي ؟! ثم تختلف الرّوايات في اللفظة بعدها كما ذكرنا.

ثم قال: «فدَعْ عنك ما لا تعرف»، أي لا تبْن أمرك إلّا على اليقين والعلم القطعيّ، ولا تُصْغِ إلى أقوال الوشاة ونَقلَة الحديث؛ فإنّ الكذب يخالط أقوالهم كثيراً، فلا تصدِّق ما عساه يبلِّغك عنّي شرار الناس؛ فإنهم سراع إلى أقاويل السوء.



الأصْلُ:

ومن كتاب لهﷺ لما استخلف إلى أمراء الأجناد:

أَمَّا بَعْدُ، فإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ ٱلْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ، وَأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فَاقْتَدَوْهُ.

الشّرْحُ:

أي منعوا الناس الحق فاشترى الناس الحق منهم بالرّشا والأموال، أي لم يضعوا الأُمور مواضعَها، ولا ولّوا الولايات مستحقِّيها، وكانت أُمورهم الدينية والدنياوية تجري على وَفْق الهوى والغرض الفاسد، فاشترى الناس منهم الميراث والحقوق كما تُشترى السلع بالمال.

ثم قال: «وأخذوهم بالباطل فاقتدوه»، أي حملوهم على الباطل، فجاء الخلَف من بعد السلف فاقتدَوا بآبائهم وأسلافهم في ارتكاب ذلك الباطل؛ ظنّاً أنّه حق، لما قد ألفوهُ ونشؤوا وربّوا عليه.

ورُوي «فاستروه» بالسين المهملة أي اختاروه، يقال استريتُ خيار المال، أي اخترته ويكون الضمير عائداً إلى «الظلمَة» لا إلى «الناس»، أي منعوا الناس حقّهم من المال واختاروه لأنفسهم واستأثروا به.

---

١. سورة الزخرف ٨١.

باب الحكم والمواعظ

باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام ومواعظه ويدخل في ذلك المختار من أجوبة مسائله والكلام القصير الخارج في سائر أغراضه

الشّرْحُ :

اعلم أن هذا الباب من كتابنا كالرّوح من البدن، والسواد من العين؛ وهو الدرّة المكنونة التي سائر الكتاب صدَفها؛ وربما وقع فيه تكرار لبعض ما تقدّم يسير جدّاً؛ وسبب ذلك طول الكتاب وبعد أطرافه عن الذهن، وإذا كان الرضيّ رحمه الله قد سَها فكرّر في مواضع كثيرة في «نهج البلاغة» على اختصاره كنّا نحن في تكرار يسير في كتابنا الطويل أعذر.



الأَصْلُ :

كُنْ فِي ٱلْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ، لَا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ، وَلَا ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ.

الشّرْحُ :

ابن اللّبون: ولد النّاقة الذّكر إذا استكمل السّنة الثانية ودخل في الثالثة؛ ولا يقال للأُنثى: ابنة اللّبون؛ واللّبون من الإبل والشاة: ذات اللّبَن، غزيرة كانت أو بكيئة[1]، ويقال: ابن لَبُون وابن اللّبون، منكّراً أو معرّفاً. وابن اللّبون لا يكون قد كمل وقويَ ظهره على أن يركب، وليس بأُنثى ذات ضرع فيُحلب، وهو مطّرح لا يُنتفع به.

وأيّام الفتنة هي أيّام الخصومة والحرب بين رئيسيْن ضالّين يدعوان كلاهما إلى ضلالة كفتنة عبد الملك وابن الزبير وفتنة مروان والضحّاك وفتنة الحجّاج وابن الأشعث ونحو ذلك، فأمّا إذا كان أحدهما صاحب حق فليست أيام فتنة كالجَمل وصِفّين ونحوهما بل يجب الجهاد مع صاحب الحقّ وسلّ السّيف والنهي عن المنكر وبذل النّفس في إعزاز الدين وإظهار الحقّ.

قال عليه السلام: أخمِل نفسك أيام الفتنة، وكن ضعيفاً مغموراً بين النّاس، لا تصلح لهم بنفسك، ولا بمالك، ولا تنصر هؤلاء وهؤلاء.

وقوله: «فيركَبَ» [و] «فيُحلبَ»، منصوبان لأنهما جواب النفي، وفي الكلام محذوف تقديره: «له»؛ وهو يستحق الرفع؛ لأنّه خبر المبتدأ، مثل قولك: لا إله إلّا الله، تقديره «لنا»، أو «في الوجود».



الأَصْلُ :

أَزْرَىٰ بِنَفْسِهِ مَنِ ٱسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عن ضُرِّه، وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَنْ أَمَّرَ عَلَيْهَا لِسَانَهُ.

---

١. البكيئة: قليلة اللبن.

الشّرْحُ :

قوله ﷺ : «أزرى بنفسه» ، أي قصّر بها . مَن استشعر الطمع ، أي جعله شعاره أي لازمه . وفي الحديث المرفوع : «إنّ الصّفا الزّلزال الذي لا تَثبت عليه أقدام العلماء الطمع» .

قوله ﷺ : «من كشف للناس ضرّه» ، أي شكى إليهم بؤسه وفقره ، فقد رضي بالذل . وفي حفظ اللسان : كان يقال : حفظ اللسان راحة الإنسان ، وكان يقال : ربّ كلمة سفكت دماً ، وأورثت ندماً .



الأَصْلُ :

ٱلْبُخْلُ عَارٌ ، وَٱلْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ ، وَٱلفَقْرُ يُخْرِسُ ٱلْفَطِنَ عَنْ حَاجَتِهِ ، وَٱلْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ[1] .

الشّرْحُ :

وما أحسن قول القائل : كفى حزناً أنّ الجواد مقتَر عليه ، ولا معروف عند بخيل . وكان يقال : البخل مهانة ، والجود مهابة . ومثل قوله : «الفقر يخرس الفَطِن عن حاجته» ، قولُ الشاعر :

فَللمَوْتُ خيرٌ من حياة يرى لها ... على الحرّ بالإقلال وسْمُ هَوانِ
متَى يتكلّمْ يُلْغَ حُكْمُ كلامِه ... وإن لم يقُلْ قالوا عديم بيانِ

ومثل قوله ﷺ : «والمقلّ غَريب في بلدته» ، قول خَلف الأحمر :

لا تظنّي أنّ الغريب هو النّا ... ئي ولكنّما الغريب المقلُّ

وكان يقال : مالُك نورُك ، فإن أردت أن تنكسف ففرّقه وأتلفه .

---

١ . المنقصة : المذمّة والعيب . المقلّ : الفقير الذي لا مال له .



الأَصْلُ :

ٱلْعَجْزُ آفَةٌ، وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ، وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ، وَٱلْوَرَعُ جُنَّةٌ، وَنِعْمَ ٱلْقَرِينُ الرِّضَا.

الشَّرْحُ :

قولهعليه السلام: «العجز آفة»، وهذا حقّ؛ لأنّ الآفة هي النقص أو ما أوجب النقص، والعجز كذلك. وكان يقال: العجز المفرط ترك التأهّب للمعاد.

وكان يقال: الصبر مرّ، لا يتجرّعه إلّا حرّ، وكان يقال: إنّ للأزمان المحمودة والمذمومة أعماراً وآجالاً كأعمار الناس وآجالهم؛ فاصبروا لِزمانِ السوء حتى يفنى عمره، ويأتي أجله.

قولهعليه السلام: «والزهد ثروة»، وهذا حقّ؛ لأنّ الثروة ما استغنى به الإنسان عن النّاس، ولا غناء عنهم كالزّهد في دنياهم؛ فالزّهد على الحقيقة هو الغِنَى الأكبر.

قولهعليه السلام: «والورعُ جُنّة»، كان يقال: لا عصمة كعصمة الورع والعبادة؛ أمّا الورع فيعصمك من المعاصي، وأمّا العبادة فتعصمك من خصمك؛ فإنّ عدوّك لو رآك قائماً تصلّي وقد دخل ليقتلك لصدّ عنك وهابَك.

قولهعليه السلام: «ونعم القرينُ الرضا»، وكان يقال: مَنْ سخِط القضاء طاحَ، ومن رضي به استراح. وكان يقال: عليك بالرّضا، ولو قُلّبْتَ على جَمْر الغَضا. وفي الخبر المرفوع أنهصلى الله عليه وآله قال عن الله تعالى: «من لم يرضَ بقضائي فليتخذ ربّاً سوائي».



الأَصْلُ :

ٱلْعِلْمُ وِرَاثَةٌ كَرِيمَةٌ، وَٱلآدابُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ، وَٱلْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ.

الشّرْحُ :

إنما قال : «العلم وراثة» ؛ لأنّ كلّ عالم من البشر إنما يكتسب علمه من أُستاذٍ يهذّبه وموقّف يعلمه ؛ فكأنه ورث العلم عنه كما يرث الابنُ المال عن أبيه.

وكان يقال : لا حُلّة أجمل من حلة الأدب ؛ لأنّ حُلل الثياب تبلى ، وحلل الأدب تبقى ، وحُلل الثياب قد يغتصبها الغاصب ، ويسرِقها السارق ، وحُلل الآداب باقية مع جوهر النفس. وكان يقال: عليكم بالأدب ؛ فإنه صاحبٌ في السَفر ، ومؤنس في الوحدة ، وجمال في المحفِل ، وسبب إلى طلب الحاجة.



الأصْلُ :

صَدْرُ ٱلْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ ، وَٱلْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ ٱلْمَوَدَّةِ ، وَٱلِاحْتِمَالُ قَبْرُ العُيُوبِ.

ورُوي أنّه قال في العبارة عن هذا المعنى أيضاً : **المُسالَمَةُ خَبءُ ٱلْعُيُوبِ.**

الشّرْحُ :

قولُه عليه السلام : «صدر العاقل صندوق سرّه»[1] ، وكان يقال : لا تُنكِحْ خاطبَ سرّك.

وقال بعض الأعراب : لا تضع سرّك عند من لا سرّ له عندك.

قوله عليه السلام : «البشاشة حبالة المودّة»[2] ، وكان يقال : البِشْر دالّ على السخاء من ممدوحك ، وعَلَى الوُدّ من صديقك دلالةَ النَّوْر على الثَّمَر. وكان يقال: ثلاث تُبين لك الودّ في صدر أخيك : تلقاه ببشرِك ، وتبدؤه بالسّلام ، وتوسّع له في المجلس.

---

١. أي ، لا يفشي سرّه ، فإنّ السرّ بالكتمان أولى ، وكتمان الأسرار خُلُق محمود من الفضائل ، وهو من باب الأمانة. المعارج للبيهقي: ص ٧٩١.

٢. البشاشة : طلاقة الوجه ، أو حسن المعاشرة. ولا يضيق نطاقُ البشاشةِ عن الأصدقاء ، ويضيق نطاق المال والجاه عنهم.

قولهﷺ: «الاحتمال قبر العيوب»[١]، أي إذا احتملت صاحبك وحلمت عنه، سترَ هذا الخلق الحسَن منك عيوبك، كما يستر القبرُ الميّت، وهذا مثل قولهم في الجود: كلّ عيبٍ فالكرمُ يغطّيه. فأما الخَبْء فمصدر خبأته أخبؤه، والمعنى في الروايتين واحد. ومن كلامهﷺ: وجدت الاحتمال أنصرَ لي من الرجال. ومن كلامه: مَنْ سالم النّاس سلم منهم، ومن حارب الناس حاربوه؛ فإنّ العثرة للكاثر.



الأَصْلُ:

مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُ عَلَيْهِ، والصَّدَقَةُ دَوَاءٌ مُنْجِحٌ، وَأَعْمَالُ ٱلْعِبَادِ فِي عَاجِلِهِمْ نُصْبُ أَعْيُنِهِمْ فِي آجِلِهِمْ.

الشّرْحُ:

قولهﷺ: «من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه»[٢].

قال الشاعر:

أرى كلَّ إنسانٍ يَرَى عيبَ غيره ... ويعمَىٰ عن العيب الذي هو فيهِ
وما خيرُ مَنْ تخفَى عليه عيوبُه ... ويبدو له العيبُ الّذي بأخيهِ

قولهﷺ: «الصدقة دواء منجح»، قد جاء في الصّدقة فضل كثير. وفي الحديث المرفوع: «تاجروا الله بالصدقة تربحوا». وقيل: الصدقة صَدَاق الجنّة. ومثل قولهﷺ «الصدقة دواء

---

١. لا يفتح الصندوق فيطّلع الغيرُ علىٰ ما فيه. الحبالة: شبكة الصيد. والبشاش يصيد مودات القلوب. الاحتمال: تحمّل الأذىٰ ومن تحمّل الأذى خفيت عيوبه.

٢. من رضي عن نفسه رفع نفسه فوق قدرها، ومن رفع نفسه فوقَ قدرها ردّها الناس إلىٰ قدرها، فكثُر الساخط عليه. ومن رضي عن نفسه لم يجتهد في طلب كمالِه. وبقي في مهاوي النقصان وتصوّر نقصانه كمالاً، والعقلاء يتصوّرون نقصانه نقصاناً فلذلك كثر الساخطُ عليه. المعارج للبيهقي: ص٧٩٢.

منجح»، قول النّبيّ ﷺ: «داووا مَرْضاكم بالصدقة».

قوله ﷺ: «أعمال العباد في عاجلهم نُصْبُ أعينهم في آجِلِهم»، هذا من قوله تعالى: **﴿يَوْمَ تَجِدُ كلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلتْ منْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أنَّ بينَها وبيْنَهُ أمَداً بَعِيداً﴾**. وقال تعالى: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذرّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾**.



الأصْلُ:

آعْجَبُوا لِهٰذَا الْإِنْسَانِ يَنْظُرُ بِشَحْمٍ، وَيَتَكَلَّمُ بِلَحْمٍ، وَيَسْمَعُ بِعَظمٍ، وَيَتَنَفَّسُ مِنْ خَرْمٍ.

الشّرْحُ:

هذا كلام محمول بعضه على ظاهره، لما تدعو إليه الضّرورة من مخاطبة العامّة بما يفهمونه، والعدول عمّا لا تقبله عقولهم، ولا تَعِيهِ قلوبُهم[1].

أما الإبصار؛ فقد اختلف فيه، وعلى جميع الأقوال فلابدّ من إثبات القوة المبصرة في الرطوبة الجلْدية، وإلى الرطوبة الجلدية وقعت إشارته ﷺ بقوله: «ينظر بشَحْم».

وأمّا الكلام فمحلّه اللسان عند قوم. وقال قوم: ليس اللّسان آلة ضرورية في الكلام، وعلى كلا القولين فلابدّ أن تكون آلة الكلام لحماً، وإليه وقعت إشارة أمير المؤمنين ﷺ.

فأما السمع للصوت فليس بعظم عند التحقيق، وإنما هو بالقوّة المودَعة في العصب المفروش في الصّماخ كالغشاء، وبالجملة فلابدّ من عَظْم؛ لأنّ الحامل للّحم والعَصَب إنما هو العظْم.

وأمّا التّنفُّس فلا ريبَ أنه من خَرْم؛ لأنّه من الأنف، وإن كان قد يمكن لو سدّ الأنف أن

---

١. كلام الإمام ﷺ واضح، أراد أن يحكي فيه عظمة الخالق ودقة صنعه وحكمته ليعتبر الإنسان ويتعظ، والعلم الحديث يذعن بذلك، فالإنسان ينظر بشحم، وهي (الشبكية) وهي شحمة دون شك، وبها يتم الإبصار. ويتكلم الإنسان بلحم وهو اللسان (ويسمع بعظم)، وهو إشارة إلى العظيمات الثلاث في الأُذن الوسطىٰ، التي بواسطتها يتم نقل الأصوات ويتم الاستماع. فسبحان من خلق فسوّىٰ، وقدّر فهدىٰ.

يتنفس الإنسان من الفم وهو خَرْم أيضاً.



الأصْلُ:

إِذَا أَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَىٰ قَوْمٍ أَعَارَتْهُمْ مَحَاسِنَ غَيْرِهِم، وَإِذَا أَدبَرَتْ عَنْهُمْ سَلَبَتْهُمْ مَحَاسِنَ أَنْفُسِهِمْ.

الشّرْحُ:

واعلم أنا قد وجدنا تصديق ما قالهﷺ في العلوم والفضائل والخصائص النفسانية، دَعْ حديث الدنيا والسلطان والرئاسة، فإن المحظوظ من علمٍ أو من فضيلةٍ، تضاف إليه شوارد تلك الفضيلة وشوارد ذلك الفنّ.



الأصْلُ:

خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ.

الشّرْحُ:

وقد روي: «خَنُّوا» بالخاء المعجمة، من الخنين؛ وهو صوت يخرج من الأنف عند البكاء. وإلى تتعلق بمحذوف، أي حنُّوا شوقاً إليكم. وقد ورد في الأمر بإحسان العشرة مع الناس الكثير الواسع. وفي الخبر المرفوع: «إذا وسعتم النّاس ببسط الوجوه، وحسن الخلق، وحسن الجوار، فكأنما وسعتموهم بالمال».



الأصْلُ :

إِذَا قَدَرْتَ عَلَىٰ عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ ٱلْعَفْوَ عَنْهُ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ.

الشّرْحُ :

قد أخذت أنا هذا المعنى، فقلت في قطعة لي:

إنّ الأمانيّ أكسابُ الجهول فَلا — تقنعْ بها واركب الأهوالَ والخَطَرا
واجعل من العقل جهلاً واطّرِح نظراً — في الموبقاتِ ولا تستشعِر الحذَرا
وإن قدرتَ على الأعداء منتصراً — فاشكر بعفوك عن أعدائك الظّفَرا

وكان يقال: أحسن أفعال القادر العفو، وأقبحها الانتقام.

قال معاوية لخالد بن مَعمر السّدوسيّ: علىٰ ماذا أحببت عليّاً؟ قال: علىٰ ثلاث: حلمه إذا غضب، وصدقه إذا قال، ووفاؤه إذا وَعَد.



الأصْلُ :

أَعْجَزُ النَّاس مَنْ عَجَزَ عَنِ ٱكْتِسَابِ ٱلْإِخْوَانِ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ.

الشّرْحُ :

في الحديث المرفوع أنّ النبيﷺ بكَى لما قُتِل جعفر بمؤتة، وقال: «المرء كثير بأخيه».

وقال جعفر بن محمدﷺ: «لكلّ شيء حِلْيَةٌ وحليةُ الرجل أودّاؤه».

وأنشد ابن الأعرابيّ:

لَعَمْرُك ما مالُ الفتى بذخيرةٍ — ولكنَّ إخوان الصّفاء الذخائرُ



الأصْلُ :

وقال عليه السلام في الذين اعتزلوا القتال معه : خَذَلُوا الحَقَّ وَلَمْ يَنْصُرُوا البَاطِلَ.

الشّرْحُ :

قد سبق ذكر هؤلاء القوم فيما تقدّم، وهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل، وأُسامة بن زيد، ومحمد بن مسلمة، وأنس بن مالك؛ وجماعة غيرهم.

وقد ذكر شيخنا أبو الحسين في (الغرر) أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا دعاهم إلى القتال معه، واعتذروا بما اعتذروا به، قال لهم : أتنكرون هذه البيعة ؟ قالوا : لا، لكنّا لا نقاتل ؛ فقال عليه السلام : إذا بايعتم فقد قاتلتم ؛ قال : فسلِموا بذلك من الذّم ؛ لأنّ إمامهم رضيَ عنهم.

ومعنى قوله : «خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل»، أي خذلوني ولم يحاربوا معي معاوية ؛ وبعض أصحابنا البغداديين يتوقف في هؤلاء، وإلى هذا القول يميل شيخنا أبو جعفر الإسكافيّ[1].

---

١. أول الكلام يقع في أصل بيعتهم، فالروايات فيها مختلفة. بل هناك روايات صريحة ذكرها الطبري في ٤: ٤٢٨، سنة ٣٥، دلت علىٰ عدم حصولها، إلّا رواية أبي مخنف. وإذاكان كذلك فكيف يعقل أن يقول لهم عليه السلام : «إذا بايعتم فقد قاتلتم» بدون عذر صحيح ؛ وعلىٰ تقدير صحته، فلا يدل علىٰ أنّهم قد سلِموا من الذمّ وأن إمامهم رضي عنهم كما ادعىٰ ذلك ابن أبي الحديد. بل فيها دلالة صريحة علىٰ أقذع الذمّ وأوجعه. لأنهم إذا لزمتهم البيعة، فقد لزمهم ما يترتب عليها من أحكام ومنها مناصرة الإمام وإطاعته. والآن قد تهيأت الأسباب الكافية لمناصرته وخذلان الباطل ومع ذلك فقد تجاهلوا وخذلوا الحق، فلا عذر لهم في القعود.

وكان الإمام عليه السلام في مواطن كثيرة يوبخ المتخاذلين، والمتقاعسين عن القتال، كقوله في الخطبة ٢٩: «لا يدرك الحق إلّا بالجدّ... ومع أي إمام تقاتلون ؟...»، ولا شكّ أنهم داخلون في قوله صلى الله عليه وآله : «واخذل من خذله». وهل يسلم من الذمّ والعقاب من شملته دعوة النبي صلى الله عليه وآله هذه وقوله صلى الله عليه وآله : «الساكت عن الحق شيطان أخرس» وقوله صلى الله عليه وآله : «علي مع الحق والحق مع علي».

١٤

الأصْلُ :

إذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلَا تُنَفِّرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ[1].

الشّرْحُ :

قال بعضهم : ما شيّبتني السّنون، بل شكري مَنْ أحتاج أن أشكره. وقالوا: العفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغنى. وقال البحتريّ :

فإن أنا لم أشكر لنعماك جاهداً　　　فلا نلت نُعْمَى بعدها توجب الشُّكْرا



١٥

الأصْلُ :

مَنْ ضَيَّعَهُ ٱلْأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ ٱلْأَبْعَدُ.

الشّرْحُ :

إنّ الإنسان قد ينصره مَنْ لا يرجو نصره وإن أهمله أقربوه وخذلوه، فقد تقوم به الأجانب من الناس، وقد وجدنا ذلك في حقّ رسول الله ﷺ، ضيّعه أهلُه ورهطه من قريش وخذلوه، وتمالؤوا عليه، فقام بنصره الأوس والخزرج، وهم أبعد الناس نسباً منه، وقامت ربيعة بنصر عليّ عليه السلام في صِفّين، وهم أعداء مُضَر الذين هم أهله ورهطه، وقامت الخراسانية وهم عَجَم بنصر الدولة العباسيّة، وهي دولة العرب. وإذا تأملت السِّير وجدت هذا كثيراً شائعاً.

---

١. أطراف النعم: أوائلها، فإذا بطرتم ولم تشكروها بأداء الحقوق منها، نفرت عنكم أقاصيها ـ أي أواخرها ـ فحرمتموها.



الأَصْلُ :

مَا كُلُّ مَفْتُونٍ يُعَاتَبُ.

الشّرْحُ :

هذه الكلمة قالها عليٌّ لسعد بنِ أبي وَقّاص، ومحمّدِ بنِ مَسلَمةَ، وعبدِ الله بنِ عمرَ، لمّا امتَنعوا من الخروج معه لحرب أصحابِ الجَمَل[١]، ونظيرُها أو قريبٌ منها قولُ أبي الطيّب:

فما كلّ فعّالٍ يجازى بفعلِهِ ولا كلُّ قَوّالٍ لديّ يُجابُ
وربَّ كلامٍ مرَّ فوق مَسامعي كما طنّ في لوْحِ الهجير ذبابُ



الأَصْلُ :

تَذِلُّ ٱلْأُمُورُ لِلْمَقَادِيرِ، حَتَّىٰ يَكُونَ ٱلْحَتْفُ فِي التَّدْبِيرِ[٢].

الشّرْحُ :

إذا تأمّلتَ أحوالَ العالَم وجدت صِدقَ هذه الكلمة ظاهراً، ولو شئنا أن نَذكُر الكثيرَ من ذلك لذكَرْنا ما يَحتاج في تقييده بالكتابة إلى مِثْل حَجْم كِتابنا هذا. ولكنّا نذكر لمحاً ونُكَتاً وأطرافاً ودُرَراً من القول.

---

١. يراد: لا يتوجّه العتاب واللّوم على كل داخل في فتنة، إذ ربّما كان له عذر في ذلك، أو أن سبب فتنته لم يكن باختياره، وأمّا من فتن وكان معجباً بنفسه ورأيه لمجرد الهوىٰ والتعصّب: لم ينجع عتابه، ولم ينفع نصيحته، كابن عمر، وابن الوقاص وأضرابهما. حيث امتنعوا عن بيعة الإمام، ولم ينصروا حقاً، ولم يخذلوا باطلاً.

٢. يعني أنّ مَنْ قدّر الله (حتفه)، أي هلاكه، فإن تدبيره وتخطيطه يؤدي إلىٰ تدميره.

وقد دبّرتْ من قبلُ قريشٌ في حماية العِير بأن نفَرتْ على الصَّعْب والذَّلول لِتدفَع رسولَ الله ﷺ عن اللَّطيمة، فكانَ هلاكُها في تدبيرِها.

وكُسِرت الأنصارُ يومَ أُحُد بأن أخرَجت النبيّ ﷺ عن المدينة ظنّاً منها أن الظفر والنُّصْرة كانت بذلك، وكان سببُ عَطَبها وظَفر قريشٍ بها، ولو أقامت بين جُدْران المدينة لم تَظفرُ قريشٌ منها بشيء.

ودَبَّر أبو مسلم أمرَ الدّولة الهاشميّة، وقام بها حَتّى كان حَتْفُه في تدبيره.

وكذلك جَرَى لأبي عبدِ الله المحتسِب مع عبدِ الله المهديّ بالمغرب.

وأمثالُ هذا ونظائرُه أكثرُ من أن تُحصَى.



الأصْلُ:

وَسُئِلَ عليه السلام عن قول الرسول ﷺ: «غَيِّرُوا الشَّيْبَ، وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ»؛ فَقَالَ عليه السلام: إِنَّمَا قَالَ ﷺ ذٰلِكَ وَالدِّينُ قُلٌّ، فَأَمَّا الآنَ وَقَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ، وَضَرَبَ بِجِرَانِهِ، فَامْرُؤٌ وَمَا اخْتَارَ.

الشّرْحُ:

اليهودُ لا تَخضِب، وكان النبيّ ﷺ أمر أصحابه بالخِضابِ ليكونوا في مَرْأى العين شَباباً، فيَجْبنَ المشركون عنهم حال الحرْب، فإنّ الشيخَ مَظِنّة الضّعف.

قال عليٌّ عليه السلام: «كان ذلك والإسلامُ قُلّ»، أي قليل؛ وأمّا الآن وقد اتّسع نطاقُه وضَرَب بجِرانه فقد سَقط ذلك الأمرُ وصار الخضاب مُباحاً غيرَ مندوب.

والنِّطاق: ثوبٌ تلبَسه المرأةُ لِبسةً مخصوصة، ليس بصُدرةٍ ولا سراويلَ، واستعارَ أميرُ المؤمنين عليه السلام هذه اللّفظة لسَعة رُقْعة الإسلام، وكذلك استعار قوله: «وضَرَب بجِرانه»، أي أقام وثَبت، وذلك لأنّ البعير إذا ضَرَب بجِرانه الأرض ـ وجِرانُه مقدَّم عنقِه ـ فقد استناخ

وبَرَك، وامرؤ مبتَدَأ، وإن كان نكرَةً، كقولهم: «شرٌّ أهَرَّ ذا ناب»، لحصول الفائدة، والواو بمعنى «مع»، وهي وما بعدها الخبر، وما مصدريّة، أي امرؤ مع اختياره.



الأَصْلُ:

مَنْ جَرَىٰ فِي عِنَانِ أَمَلِهِ عَثَرَ بِأَجَلِهِ[1].

الشّرْحُ:

قد تقدّم لنا قولٌ كثيرٌ في الأمل، ونذكر هاهنا زيادةً على ذلك:

قال الحسن عليه السلام: «لو رأيتَ الأجلَ ومَسيرَه، لنسيتَ الأملَ وغرورَه، ويُقدِّر المقدِّرون والقضاءُ يَضحَك».

ورَوَى أبو سَعيد الخُدْرِيّ أنّ أُسامةَ بنَ زيد اشتَرى وَليدةً بمئة دينار إلى شهر، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: ألا تَعجَبون من أُسامةَ يَشتري إلى شَهْر! إنّ أُسامةَ لطويلُ الأمَل.



الأَصْلُ:

أَقِيلُوا ذَوِي ٱلْمُرُوءَاتِ عَثَرَاتِهِمْ، فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلَّا وَيَدُهُ بِيَدِ الله يَرْفَعُهُ[2].

---

١. العنان: سير اللّجام تمسك به الدابة. عثر: سقط ووقع. الأجل: الموت.

٢. الإقالة: هنا الاغضاء والعفو والستر. العثرة: السقطة. وإقالة العثرة: رفعه من سقطته. والمروءة: صفة للنفس تحملها علىٰ فعل الخير. ومن كان صاحب مروءة، فإنّ الله تعالىٰ يهديه في عاقبة أمره إلىٰ ما فيه الخير والصلاح.

الشّرْحُ :

قد رُوِيَتْ هذه الكلمة مرفوعة ، ذكر ذلك ابنُ قُتيبة في «عيون الأخبار» . وأحسَن ما قيل في المُروءة قولُهم : اللّذة تركُ المروءة ، والمروءةُ تركُ اللّذة .

وفي الحديث أنّ رجلاً قام إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسولَ الله ، ألستُ أفضلَ قومي ! فقال : إن كان لك عَقْل فلك فَضْل ، وإن كان لك خُلُق فلَك مُروءة ، وإن كان لك مال فلَك حَسَب ، وإن كان لك تُقىً فلك دِين .



الأصْلُ :

قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ ، وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ ، وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، فَانْتَهِزُوا فُرَصَ الْخَيْرِ[1] .

الشّرْحُ :

في المَثَل : مَنْ أقْدَم لم يَنْدَم . وكان يقال : الفرصة ما إذا حاولْتَه فأخطأك نفعُه لم يَصِلْ إليك ضرّه . كانت العربُ إذا أوفدَتْ وافداً قالت له : إيّاك والهَيْبة ؛ فإنها خَيْبة ؛ ولا تَبِتْ عند ذَنَب الأمر وبِتْ عند رأسه .



الأصْلُ :

لَنَا حَقٌّ فَإِنْ أُعْطِينَاهُ ، وَإِلَّا رَكِبْنَا أَعْجَازَ الْإِبِلِ ، وَإِنْ طَالَ السُّرَى .

---

١ . الهيبة : المخافة . الخيبة : عدم الظفر بالمطلوب . الحياء : الخجل . الحرمان : المنع . فإذا عظّم الإنسان صَغارَ الأُمورِ في نفسه ، ربما كان ذلك سبب حرمانه مما قدّر له من الرزق أو حسن الذكر .

قال الرَّضيّ ﵀ :

وهذا القول من لطيف الكلام وفصيحه ، ومعناه : أنّا إن لم نعط حقّنا كنا أذلّاء ، وذلك أن الرديف يركب عجُزَ البعير ، كالعبد والأسير ومن يجري مجراهما .

الشّرْحُ :

هذا الفصلُ قد ذكره أبو عبيد الهرويّ في (الجمع بين الغريبين)، وصورته : «إنّ لنا حقّاً إن نعطَه نأخُذْه، وإنْ نُمنَعه نركب أعجاز الإبل، وإن طال السُّرَى». قال: قد فسّروه على وجهين: أحدُهما أنّ راكبَ عَجزِ البعير يلحقه مشقة وضرر، فأراد: أنا إذا مُنِعْنا حَقَّنا صَبرنا على المَشقّة والمَضرّة، كما يَصبر راكب عجُز البعير؛ وهذا التفسير قريبٌ مما فسّره الرضيّ. والوجه الثاني: أنّ راكب عجزِ البعير إنما يكون إذا كان غيرُه قد رَكِب على ظَهْر البعير، وراكبُ ظهر البعير متقدّم على راكب عَجزِ البعير، فأراد أنّا إذا مُنِعْنا حَقَّنا تأخَّرْنا وتقدَّمَ غيرُنا علينا، فكُنّا كالراكب رَديفاً لِغَيره، وأكّد المعنى على كلا التفسيرين بقوله: «وإنْ طالَ السُّرَى»؛ لأنّه إذا طال السرى كانت المَشَقّة على راكب عجز البعير أعظم، وكان الصبر على تأخّر راكب عجُزِ البعير عن الراكب على ظهره أشدّ وأصعب.

وهذا الكلام تزعم الإماميّة أنه قاله يومَ السَّقيفة أو في تلك الأيام، ويذهَب أصحابُنا إلى أنّه قاله يوم الشورى بعد وفاة عمر واجتماعِ الجماعةِ لاختيار واحد من الستّة، وأكثر أرباب السِّير ينقُلونه على هذا الوجه[1].

---

١. صرّح الطبري في تاريخه ٣: ٣٠٠ حوادث سنة ٢٤، وغيره، أنه قاله ﵇ يوم الشورى. وليس مهماً زمانه، بل المهم أنه لا يُثبت حقاً ولا إمضاءً ليوم السقيفة. فقد رويت عنه أقوالٌ أشد قرعاً من ذلك. والمراد: أنّ الخلافة حقّ لنا بالنصّ دون جميع الصحابة، إن أُعطينا ذلك الحق فذاك، وإن منعناه صبرنا ولا نطلبه بالعسف ما سلمت أُمور المسلمين.



الأصْلُ :

مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ.

الشّرْحُ :

هذا الكلام حَثٌّ وحَضٌّ وتحريض على العبادة، وقد تقدّم أمثالُه، وسيأتي له نظائرُ كثيرة.



الأصْلُ :

مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ ٱلْعِظَامِ إِغَاثَةُ ٱلْمَلْهُوفِ، وَالتَّنْفِيسُ عَنِ ٱلْمَكْرُوبِ.

الشّرْحُ :

قد جاء في هذا المعنى آثارٌ كثيرة، وأخبارٌ جميلة[1].



الأصْلُ :

يَابْنَ آدَمَ، إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْهُ.

---

١. فيه حثّ وترغيب في خصال الكرم ومحمود الشيم لوجه الله تعالىٰ.
الكفارات: جمع كفارة، فدية أو عمل يمحى به الإثم. الذنوب: المعاصي. إغاثة: إعانة. الملهوف: الحزين، أو المفجوع.

الشّرْحُ :

هذا الكلام تخويف وتحذير من الاستدراج ؛ قال سبحانه : **﴿سنستدرجُهُمْ من حيثُ لا يعلَمُون﴾**[1] ؛ وذلك لأنّ العبد بغروره يعتقد أنّ موالاة النِّعَم عليه وهو عاص من باب الرِّضا عنه، ولا يعلم أنّه استدراج له ونقمةٌ عليه.

فإن قلت: كيف يصحّ القول بالاستدراج على أُصولكم في العدل، أليس معنى الاستدراج إيهام العبد أنّه سبحانه غيرُ ساخط فعله ومعصيته، فهل هذا الاستدراج إلّا مفسدةٌ وسببٌ إلى الإصرار على القبيح ؟

قلت: إذا كان المكلَّف عالِماً بقبح القبيح، أو متمكِّناً من العِلْم بقُبْحه ثم رأى النِّعَم تتوالى عليه وهو مُصِرٌّ على المعصية، كان تَرَادُف تلك النِّعَم كالمنبِّه له على وجوب الحذَر.



الأَصْلُ :

مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وصَفَحَاتِ وَجْهِهِ.

الشّرْحُ :

قال زُهيرُ بنُ أبي سُلمَى :

ومَهمَا تكن عند امرئٍ مِنْ خليقةٍ   وإن خالَها تَخفَى على الناس تُعلَمِ

وكان يقال: العين والوجه واللّسان أصحاب أخبار على القلب، وقالوا: القلوب كالمرايا المتقابِلة ؛ إذا ارتسمَتْ في إحداهنّ صورةٌ ظهرتْ في الأُخرى.

---

١. سورة الأعراف ١٨٢.



الأصْلُ :

آمْش بِدَائِكَ مَا مَشَىٰ بِكَ.

الشّرْحُ :

يقول: مهما وجدتَ سبيلاً إلى الصّبر على أمرٍ من الأُمور الّتي قد دفعت إليها، وفيها مشَقّة عليك، وضرر لاحِقٌ بك، فاصبر ولا تلتمسْ طريقاً إلى تغيير ما دفعت إليه أن تَسلُكها بالعُنْف، ومُراغَمة الوقت، ومعاناة الأقْضية والأقدار؛ ومِثال ذلك من يَعرِض له مَرَض ما يُمكِنه أن يَحتمِله ويدافع الوقت، فإنّه يجب عليه ألّا يَطرَح جانبَه إلى الأرض، ويَخلُد إلى النوم على الفِراش، ليعالج ذلك المرض قوّة وقهراً؛ فربما أفضَى به مقاهرة ذلك المَرَض الصغير بالأدوية إلى أن يصير كبيراً مُعضِلاً.



الأصْلُ :

أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ.

الشّرْحُ :

إنما كان كذلك؛ لأنّ الجَهْر بالعبادة والزّهادة والإعلان بذلك قلَّ أن يَسلم من مخالطة الرّياء.

شاعر:

معشرٌ أثبتَ الصلاةَ عليهمْ ... لجِباهٍ يشقُّها المِحراب

عَمَرُوا مَوْضع التصنُّعِ منهمْ ... ومكانُ الإخلاص منهمْ خَرابُ



الأَصْلُ :

إِذَا كُنْتَ فِي إِدْبَارٍ، وَٱلْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ، فَمَا أَسْرَعَ ٱلْمُلْتَقَىٰ !

الشَّرْحُ :

هذا ظاهر ؛ لأنّه إذا كان كلّما جاء ففي إدبار، والموتُ كلّما جاء ففي إقبال، فياسَرْعانَ ما يَلتقيان ! وذلك لأنّ إدبارَه هو توجُّهه إلى الموت، وإقبال الموت هو توجّه الموت إلى نحوه، فقد حُقّ إذَن الالتقاء سريعاً ، ومثالُ ذلك سفينتان بدِجْلة أو غيرها، تَصعَد إحداهما، والأُخرى تَنحدِر نحوَها، فلا رَيْب أنّ الالتقاء يكون وَشِيكاً .



الأَصْلُ :

ٱلْحَذَرَ ٱلْحَذَرَ ! فَوَٱللهِ لَقَدْ سَتَرَ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ.

الشَّرْحُ :

قد تقدّم هذا المعنى وهو الاستدراج الذي ذكَرْناه آنِفاً[1] .

---

١. الضمير في (ستر) يعود على الله عزّ وجلّ، ستر مخازي عباده حتى ظُنَّ أنّه غفرها لهم ؛ ويوشك أن يأخذهم بمكروه. وهذا هو (الاستدراج). انظر: الحكمة (٢٥).



الأصْلُ :

وسُئِلَ عليه السلام عَنِ ٱلْإِيمَانِ، فَقَالَ: ٱلإِيمَانُ عَلَىٰ أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَىٰ الصَّبْرِ، وٱلْيَقِينِ، وَٱلْعَدْلِ، وَٱلْجِهَادِ.

وَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَىٰ أَربَعِ شُعَب: عَلَىٰ الشَّوْقِ، وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، والتَّرَقُّبِ؛ فَمَنِ ٱشْتَاقَ إِلَىٰ ٱلْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ؛ وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ ٱجْتَنَبَ ٱلْمحَرَّمَاتِ؛ وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا ٱسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ؛ وَمَنِ ٱرْتَقَبَ ٱلْمَوْتَ سَارَعَ إِلَىٰ ٱلْخَيْرَاتِ.

وَٱلْيَقِينُ مِنْهَا عَلَىٰ أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَىٰ تَبْصِرَةِ ٱلْفِطْنَةِ، وَتَأَوُّلِ ٱلْحِكْمَةِ، وَمَوْعِظَةِ ٱلْعِبْرَةِ، وَسُنَّةِ ٱلْأَوَّلِينَ، فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي ٱلْفِطْنَةِ، تَبَيَّنَتْ لَهُ ٱلْحِكْمَةُ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ ٱلْحِكْمَةُ، عَرَفَ ٱلْعِبْرَةَ؛ وَمَنْ عَرَفَ ٱلْعِبْرَةَ، فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي ٱلْأَوَّلِينَ.

وَٱلْعَدْلُ مِنْهَا عَلَىٰ أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَىٰ غائِص ٱلْفَهْمِ، وَغَوْرِ ٱلْعِلْمِ، وَزُهْرَةِ ٱلْحُكْمِ، وَرَسَاخَةِ ٱلْحِلْمِ، فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ ٱلْعِلْمِ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ ٱلْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ ٱلْحِلْمِ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَ فِي النَّاس حَمِيداً.

وَٱلْجِهَادُ مِنْهَا عَلَىٰ أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَىٰ ٱلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْي عَنِ ٱلْمُنْكَرِ، وَالصِّدْقِ فِي ٱلْمَوَاطِنِ، وَشَنَآنِ ٱلْفَاسِقِينَ؛ فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ نَهَىٰ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ ٱلمُنافِقِينَ، وَمَنْ صَدَقَ فِي ٱلْمَوَاطِنِ قَضَىٰ مَا عَلَيْهِ؛ وَمَنْ شَنِيءَ ٱلْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ للهِ غَضِبَ ٱللهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ.

وَٱلْكُفْرُ عَلَىٰ أَرْبَعِ دَعائِمَ: عَلَىٰ التَّعَمُّقِ، وَالتَّنَازُعِ، وَالزَّيْغِ، وَالشِّقَاقِ؛ فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَىٰ ٱلْحَقِّ، وَمَنْ كَثُرَ نِزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ ٱلْحَقِّ، وَمَنْ زَاغَ سَاءَتْ عِنْدَهُ ٱلْحَسَنَةُ، وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ، وَسَكِرَ سُكْرَ الضَّلَالَةِ، وَمَنْ شَاقَّ وَعُرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ، وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، وَضَاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ.

وَالشَّكُّ عَلَىٰ أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَىٰ: اَلتَّمَادِي، وَٱلْهَوْلِ، وَالتَّرَدُّدِ وَٱلْاسْتِسْلَامِ؛ فَمَنْ جَعَلَ ٱلْمِرَاءَ دَيْدَناً لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ؛ وَمَنْ هَالَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ، وَمَنْ تَرَدَّدَ فِي الرَّيْبِ، وَطِئَتْهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ، وَمَنِ ٱسْتَسْلَمَ لِهَلَكَةِ الدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ هَلَكَ فِيهِمَا[١].

قال الرضي رحمه الله:

وبعد هذا كلامٌ تركنا ذكره خوف الإطالة والخروج عن الغرض المقصود في هذا الكتاب.

الشَّرْحُ:

من هذا الفصل أخذَتِ الصّوفيّةُ وأصحابُ الطريقة والحقيقةِ كثيراً من فنونهم في علومهم؛ ومن تأمّل رأى هذه الكلمات في فَرْش كلامِهم تَلُوح كالكَواكِب الزاهرة، وكلّ المقامات والأحوال المذكورة في هذا الفصل قد تقدّم قولُنا فيها.



٣٢

الأَصْلُ:

فَاعِلُ ٱلْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ.

---

١. شُعب: جمع شعبة: الفرقة، الطائفة من الشيء. الشفق: الخوف. الترقّب: الانتظار. سلا: هجر وترك. استهان: لم يعر الأمر اهتماماً. التبصّر: التعرّف. الفطنة: الفهم. تأوُّل الحكمة: الوصول إلىٰ دقائقها. العبرة: العظة والاعتبار. سنّة الأولين: طريقتهم وسيرتهم. غور العلم: سرّه وباطنه. زُهرة الحكم: حسنه. رساخة الحلم: ثبوته واستقراره. صدر: رجع. يفرّط: يقصّر. الشَّنَآن: البغض. أرغم أنفه: أجبره علىٰ الرضوخ. الزيغ: الانحراف عن مذهب الحق. الشقاق: العناد. أعْضَلَ الأمر: اشتد وأعجزت صعوبته. التماري: التجادل بغير الحق. الهول: الفزع. التردد: انتقاض العزيمة، وعدم الجزم بالشيء. الاستسلام: عدم المقاومة. المراء: الجدال. هاله: أفزعه. نكص علىٰ عقبيه: رجع متقهقراً. الريب: الشك. وطأته: داسته. سنابك: جمع سنبك طرف الحافر.

الشّرْحُ :

قد نظمتُ أنا هذا اللّفظ والمعنى، فقلتُ في جملةِ أبياتٍ لي :

خيرُ البضائعِ للإنسان مَكرُمَةٌ تَنْمِي وتزْكو إذا بارَتْ بَضائِعُهُ
فالخيرُ خَيرٌ وخيرٌ منه فاعِلُه والشرّ شرٌّ وشرٌّ منه صانعُهُ

فإن قلتَ: كيف يكون فاعلُ الخير خيراً من الخير، وفاعلُ الشرّ شرّاً من الشرّ، مع أنّ فاعل الخير إنّما كان ممدوحاً لأجل الخير، وفاعل الشرّ إنما كان مذموماً لأجل الشرّ، فإذا كان الخير والشرّ هما سَبَبَا المَدْح والذمّ ـ وهما الأصل في ذلك ـ فكيف يكون فاعلاهما خيراً وشرّاً منهما ؟

قلت: لأنّ الخير والشرّ ليسا عبارة عن ذات حيّة قادرة، وإنّما هما فعلان، أو فعل وعدم فعل، أو عَدَمان، فلو قطع النظر عن الذّات الحيّة القادرة الّتي يَصدُران عنها، لما انتَفَع أحدٌ بهما ولا استضرّ، فالنّفع والضّرر إنّما حَصَلا من الحيّ الموصوف بهما لا منهما على انفرادهما، فلذلك كان فاعلُ الخَيْر خيراً من الخير، وفاعلُ الشرّ شرّاً من الشرّ.



الأصْلُ :

كُنْ سَمِحاً، وَلَا تَكُنْ مُبَذِّراً، وَكُنْ مُقَدِّراً؛ وَلَا تَكُنْ مُقَتِّراً[1].

الشّرْحُ :

كلُّ كلام جاء في هذا فهو مأخوذٌ من قوله سبحانَه: **﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾**. ونحو قوله: **﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾**[2].

١. السمح: الجواد. المبذر: الذي يضع المال في غير محلّه. المقدّر: المقتصد. المقتّر: المضيّق في النفقة.

٢. سورة الإسراء ٢٧.



الأَصْلُ :

أَشْرَفُ ٱلْغِنَىٰ، تَرْكُ ٱلْمُنَىٰ.

الشّرْحُ :

يقال: الأمانيّ للنّفس كالرَّوْنَق للبَصَر.

ومن كلامِ بعضِ الحُكَماء: الأمانيّ تُعمِي أعيُنَ البصائر، والحظّ يأتي من لا يأتيه، وربّما كان الطمع وِعاءً حشوُه المَتالف، وسائقاً يدعو إلى الندامة.



الأَصْلُ :

مَنْ أَسْرَعَ إِلَىٰ النَّاس بِمَا يَكْرَهُونَ، قَالُوا فِيهِ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ[١].



الأَصْلُ :

مَنْ أَطَالَ ٱلْأَمَلَ، أَسَاءَ ٱلْعَمَلَ[٢].

---

١. أي من أساء إلى الناس ذمّوه بالحق أو بالباطل.

٢. طول الأمل: الثقة بحصول الأماني بدون عمل لها، أو إطالة العمر والتسويف بأعمال الخير.

الشّرْحُ :

وقيل لبعض الصالحين: ألك حاجةٌ إلى بغداد؟ قال: ما أحبّ أن أبسط أملي حتى تذهب إلى بغداد وتعود.

وقال أبو عثمان النَّهدي: قد أتت عليّ ثلاثون ومئة سنةً ما من شيء إلَّا وأجد فيه النَّقص إلا أمَلي، فإني وجدتُه كما هو أو يزيد.



الأَصْلُ :

وقال عليه السلام وقد لقيه عند مسيره إلى الشام دهاقين الأنبار فترجلوا له واشتدوا بين يديه[1] :

مَا هٰذَا ٱلَّذِي صَنَعْتُمُوهُ؟ فقالوا: خُلُقٌ مِنَّا نُعَظِّمُ بِهِ أُمَرَاءَنَا. فقال: وَٱللهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهٰذَا أُمَرَاؤُكُمْ! وَإِنَّكُمْ لَتَشُقُّونَ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ، وَتَشْقَوْنَ بِهِ فِي أُخْرَاكُمْ. وَمَا أَخْسَرَ ٱلْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا ٱلْعِقَابُ، وَأَرْبَحَ الدَّعَةَ مَعَهَا ٱلْأَمَانُ مِنَ النَّارِ!

الشّرْحُ :

اشتدُّوا بين يديه: أسرَعوا شيئاً، فنهاهم عن ذلك وقال: إنكم تشقّون به على أنفسكم لما فيه من تَعَب الأبدان. وتَشْقَوْن به في آخرتكم، تخضعون للولاة، كما زعمتم أنه خُلُق وعادةٌ لكم؛ خضوعاً تطلُبون به الدنيا والمنافع العاجلة فيها، وكلّ خضوع وتذلُّل لغير الله فهو معصية. ثمّ ذكر أنّ الخسران المبين مَشقّة عاجلة يتبعها عقاب الآخرة، والرِّبح البيّن دعةٌ عاجلة يتبعها الأمانُ من النار.

---

١. الدهاقين: جمع دِهقان، وهو زعيم الفلاحين في العجم. ترجلوا: نزلوا عن خيولهم مشاة.



الأَصْلُ:

قال عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام:

يَابُنَيَّ، آحْفَظْ عَنِّي أَرْبَعاً، وَأَرْبعاً، لا يَضُرَّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ: إِنَّ أَغْنَىٰ آلْغِنَىٰ آلْعَقْلُ، وَأَكْبَرَ آلْفَقْرِ آلْحُمْقُ، وَأَوحَشَ آلْوَحْشَةِ آلْعُجْبُ، وَأَكْرَمَ آلْحَسَبِ حُسْنُ آلْخُلُقِ. يَا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ آلْأَحْمَقِ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ آلْبَخِيلِ، فَإِنَّهُ يَقْعُدُ عَنْكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ آلْفَاجِرِ، فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِالتَّافِهِ؛ وإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ آلْكَذَّابِ، فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يُقَرِّبُ عَلَيْكَ آلْبَعِيدَ، وَيُبَعِّدُ عَلَيْكَ آلْقَرِيبَ[١].

الشَّرْحُ:

هذا الفصل يتضمّن ذِكرَ العقلِ والحُمق، والعُجب وحُسن الخُلُق، والبُخل والفُجور، والكَذِب، وقد تقدّم كلامُنا في هذه الخصال أجمَع.



الأَصْلُ:

لَا قُرْبَةَ بِالنَّوافِلِ إِذَا أَضَرَّتْ بِالْفَرَائِضِ.

---

١. العجب: ظن الإنسان في نفسه استحقاق منزلة هو غير مستحقّ لها. التافه: الشيء القليل. السراب: ما يتراءىٰ في الصحراء ماءً حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئاً.

الشّرْحُ :

هذا الكلام يُمكن أن يُحمَل على حقيقته، ويمكن أن يُحمَل على مَجازه، فإنْ حُمِل على حقيقته فقد ذهب إلى هذا المذهب كثيرٌ من الفقهاء، وهو مَذهَب الإماميّة، وهو أنّه لا يصحّ التنفّل ممّن عليه قضاءُ فريضة فاتتْه لافي الصلاة ولا في غيرها؛ وأمّا إذا حُمِل على مَجازه، فإنّ معناه يجب الابتداء بالأهمّ وتقديمُه على ما ليس بأهمّ، فتَدخُل هذه الكلمة في الآداب السلطانيّة والإخوانيّة، وحَمْلُ الكلمة على حقيقتها أولَى؛ لأنّ اهتمام أميرِ المؤمنينعليه السلام بالأمور الدينيّة والشرعيّة في وصاياه ومنثور كلامِه أعظمُ.



الأصْلُ :

لِسَانُ ٱلْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ، وَقَلْبُ ٱلْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ.

قال الرضيرحمه الله :

وهذا مِنَ المَعَاني العَجيبةِ الشريفةِ، والمُرَاد بِهِ أنَّ العاقلَ لا يُطْلِقُ لسانَهُ، إلّا بَعْدَ مشاورةِ الرَّوِيَّة ومؤامرةِ الفكرةِ، والأحمقُ تَسبقُ حذفاتُ لسانِهِ وفلتاتُ كلامِهِ مراجعةَ فِكرِهِ، ومماخَضَةَ رأيِهِ. فكأنّ لسانَ العاقلِ تابعٌ لقلبِهِ، وكأنَّ قلبَ الأحمقِ تابعٌ لِلسانِهِ.

قال: وقد روي عنهعليه السلام هذا المعنى بلفظ آخر، وهو قوله: « قَلْبُ ٱلْأَحْمَقِ فِي فِيهِ، وَلِسَانُ ٱلْعَاقِلِ فِي قَلْبِهِ» ومعناهما واحد.

الشّرْحُ :

قد تقدّم القولُ في العَقل والحُمق، ونذكر هاهنا زِياداتٍ أُخرىٰ. قالوا: كلّ شيء يَعِزّ إذا قَلّ، والعقل كلّما كان أكثرَ كان أعزّ وأغلى.

قيل لبعضهم: ما جِماعُ العَقل؟ فقال: ما رأيتُه مجتمِعاً في أحد فأصِفَه، وما لا يوجد

كاملاً فلا حَدّ له.

وقيل: الأحمق يتحفظ من كل شيء إلّا من نفسه.



الأصْلُ:

وقال عليه السلام لبعض أصحابه في علة اعتلها:

جَعَلَ ٱللّٰهُ مَا كَانَ مِنْ شَكْوَاكَ حطّاً لِسَيِّئَاتِكَ، فَإِنَّ ٱلْمَرَضَ لَا أَجْرَ فِيهِ، وَلٰكِنَّهُ يَحُطُّ السَّيِّئَاتِ، وَيَحُتُّهَا حَتَّ ٱلْأَوْرَاقِ، وَإِنَّمَا ٱلْأَجْرُ فِي ٱلْقَوْلِ بِاللِّسَانِ، وَٱلْعَمَلِ بِالْأَيْدِي وَٱلْأَقْدَامِ، وَإِنَّ ٱللّٰهَ سُبْحَانَهُ يُدْخِلُ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالسَّرِيرَةِ الصَّالِحَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْجَنَّةَ.

قال الرضي رحمه الله:

وأقول: صدق عليه السلام، إن المرض لا أجر فيه؛ لأنّه ليس من قبيل ما يستحق عليه العوض؛ لأنّ العوض يستحق على ما كان في مقابلة فعل الله تعالى بالعبد من الآلام والأمراض وما يجري مجرى ذلك. والأجر والثواب يستحقان على ما كان في مقابل فعل العبد. فبينهما فرق قد بينه عليه السلام كما يقتضيه علمه الثاقب ورأيه الصائب.

الشّرْحُ:

ينبغي أن يُحْمل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل على تأويل يُطابق ما تدلّ عليه العقول وألّا يُحْمل على ظاهره، وذلك لأنّ المرض إذا استحقّ عليه الإنسان العوض لم يَجُز أن يقال: إنّ العِوَض يَحُطّ السيّئات بنفسه، لا على قول أصحابنا، ولا على قول الإماميّة، وإذا ثبت ذلك وَجَب أن يُحمل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام على تأويل صحيح، وهو الذي أراده عليه السلام، لأنّه كان أعرفَ الناس بهذه المعاني، ومنه تَعلّم المتكلّمون علم الكلام، وهو أن المرض

والألم يَحُطّ الله تعالى عن الإنسان المبتلَى به ما يستحقّه من العقاب على معاصيه السالِفةِ تفضُّلاً منه سبحانه، فلما كان إسقاط العقاب متعقّباً للمرض، وواقعاً بعده بلا فَصْل، جاز أن يُطلق اللفظ بأنّ المرض يَحُطّ السيئات ويحتّها حَتّ الوَرَق، كما جاز أن يُطْلق اللفظ بأنّ الجماع يُحبل المرأة، وبأن سَقْيَ البَذْر الماء ينبِته، إن كان الولد والزرع عند المتكلمين وقعا من الله تعالى على سبيل الاختيار، لا على الإيجاب؛ ولكنه أجرى العادة؛ وأن يفعل ذلك عقيبَ الجماع وعقيب سَقي البَذْر الماء.

فأما قولُهﷺ: «وإنما الأجرُ في القَوْل ...» إلى آخر الفَصْل، فإنهﷺ قَسَم أسباب الثواب أقساماً؛ فقال: لمّا كان المَرَض لا يقتضي الثواب لأنّه ليس فعل المكلّف ـ وإنما يستحق المكلف الثواب على ما كان من فِعله ـ وَجَب أن يبيّن ما الذي يستحق به المكلّف الثواب، والذي يستحق المكلف به ذلك، أن يفعل فعلاً إمّا مِنْ أفعال الجوارح، وإمّا من أفعال القلوب: فأفعال الجوارح إمّا قولٌ باللسان أو عملٌ ببعض الجوارح؛ وعبّر عن سائر الجوارح عدا اللسان بالأيدي والأقدام؛ لأنّ أكثر ما يُفعل بها، وإن كان قد يُفْعل بغيرها، نحو مجامِعَة الرجل زوجته إذا قُصِد به تحصينها وتحصينه عن الزّنا، ونحو أن يُنحّيَ حَجراً ثقيلاً برأسه عند صَدْر إنسانٍ قد يَقتُله، وغير ذلك، وأمّا أفعال القلوب فهي العزوم والإرادات والنظر والعلوم والظنون والندم، فعبّرﷺ عن جميع ذلك بقوله: «بصدق النية والسريرة الصالحة»، واكتفى بذلك عن تعديد هذه الأجناس.

فإن قلت: فإنّ الإنسان قد يستحق الثواب على ألّا يفعل القبيح، وهذا يخرم الحصر الذي حصره أمير المؤمنين.

قلت: يجوز أن يكون يذهب مذهب أبي عليّ في أن القادر بقدرةٍ لا يخلو عن الأخذ والتَّرْك.



الأصْلُ:

وقالﷺ في ذكر خباب:

يَرْحَمُ ٱللهُ خَبَّابَ بْنَ ٱلْأَرَتِّ! فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِباً، وَهَاجَرَ طَائِعاً، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ،

وَرَضِيَ عَنِ ٱللهِ ، وَعَاشَ مُجَاهِداً.
طُوبَىٰ لِمَنْ ذَكَرَ ٱلْمَعَادَ، وَعَمِلَ لِلْحِسَابِ، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ، وَرَضِيَ عَنِ ٱللهِ[١] !

الشَّرْحُ :

خبّاب بن الأرتّ بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب، يكنى أبا عبد الله ـ وقيل: أبا محمد، وقيل: أبا يحيى ـ أصابه سَبيٌ فبيع بمكة.

وخَبّاب من فقراء المسلمين وخيارهم، وكان في الجاهليّة قيْنا حداداً يَعْمل السيوف، وهو قديم الإسلام؛ قيل إنه كان سادس ستة، وشهد بَدْراً وما بعدها مِن المشاهد، وهو معدودٌ في المعذَّبين في الله.

نزل خبّابٌ إلى الكوفة، ومات بها في سنة سبع وثلاثين، بعد أن شهد مع أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام صِفّين، والنَهْرَوان، وصلّى عليه عليٌّ عليه السلام، وكان سنُّه يومَ مات ثلاثاً وسبعين سنة، ودُفِن بظَهْر الكوفة[٢]. وهو أوَّل من دُفِن بظَهْر الكوفة، وعبدُ الله بن خَبّاب هو الذي قتلته الخوارج، فاحتجّ عليّ عليه السلام به وطلبهم بدَمِه، وقد تقدّم ذكرُ ذلك.



٤٣

الأَصْلُ :

وقال عليه السلام :

لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ ٱلْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هٰذَا عَلَىٰ أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي، وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا عَلَىٰ ٱلْمُنَافِقِ عَلَىٰ أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي. وَذٰلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَانْقَضَىٰ عَلَىٰ

---

١. قنع: رضي. الكفاف: ما يكفي الإنسان ويغنيه عن الناس بلا زيادة. طوبى: سعادة وخير وغبطة. المعاد: يوم الحساب، يوم القيامة.
٢. الاستيعاب ١: ٤٣٨.

لِسَانِ النَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ: «يَا عَلِيُّ، لَا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ».

الشّرْحُ:

جَمّاتها بالفتح: جَمعُ جَمّة، وهي المكـان يـجتمع فـيه المـاء وهـذه اسـتعارة [والمـراد: بأجمعها]. والخَيْشوم: أقصى الأنْف.

ومرادُه عليه السلام من هذا الفصل إذكار الناس ما قاله فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، وهـو: «لا يُـبغِضك مؤمن، ولا يحبك منافق»؛ وهي كلمةُ حقّ، وذلك لأنّ الإيمان وبغضَه عليه السلام لا يَجتمعان؛ لأنّ بغضه كبيرة، وصاحب الكبيرة عندنا لا يسمّى مؤمِناً، وأمّا المنافق فهو الذي يُظْهر الإسلامَ ويُبْطن الكفر، والكافرُ بعقيدته لا يحبّ عليّاً عليه السلام؛ لأنّ المراد من الخبر المحبّة الدّينيّة، ومن لا يعتقد الإسلام لا يحبّ أحداً من أهل الإسلام، لإسلامه وجهاده في الدّين، فقد بـان أنّ الكلمة حقّ؛ وهذا الخبر مَرْوِيٌّ في الصحاح بغير هـذا اللـفظ: «لا يـحبُّك إلّا مـؤمن، ولا يبغضك إلّا منافق»، وقد فسرناه فيما سبق.



الأصْلُ:

سَيِّئَةٌ تَسُوءُكَ خَيْرٌ عِنْدَ ٱللهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ.

الشّرْحُ:

هذا حقّ؛ لأنّ الإنسان إذا وقع منه القبيح ثمّ ساءه ذلك وندم عليه وتاب حقيقة التوبة كَفَّرَتْ توبته معصيتَه، فسقط ما كان يستحقّه من العقاب، وحصل له ثوابُ التوبة، وأمّا مـن فـعل واجباً واستحقّ به ثواباً ثم خامره الإعجاب بنفسه والإدلال على الله تعالى بعلمه، والتّـيه على الناس بعبادته واجتهاده، فإنه يكون قد أحْبَط ثواب عِبادته بما شَفَعها من القبيح الذي

أتاه، وهو العُجْب والتِّيه والإدلال على الله تعالى، فيعود لا مُثاباً ولا مُعاقباً؛ لأنّــه يـتكافأ الاستحقاقان. ولا ريب أنّ من حَصَل له ثواب التوبة، وسَقط عنه عقاب المَعصية؛ خيرٌ ممن خرج من الأمْرَين كَفافا[1] لا عليه ولا له.



الأصْلُ:

قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَىٰ قَدْرِ هِمَّتِهِ، وَصِدْقُهُ عَلَىٰ قَدْرِ مُرُوءَتِهِ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَىٰ قَدْرِ أَنَفَتِهِ، وَعِفَّتُهُ عَلَىٰ قَدْرِ غَيْرَتِهِ.

الشّرْحُ:

قد تقدَّم الكلامُ في كلّ هذه الشِّيَم والخصال، ثم نقول هاهنا: إنّ كِبَر الهمّة خُـلق مـختصٌّ بالإنسان فقط، وأمّا سائر الحيوانات فليس يوجد فيها ذلك، وإنما يتجرّأ كلّ نوع منها الفعل بقدر ما في طبعه، وعلوّ الهِمة حالٌ متوسِّطة محمودة بين حالتين طرفي رذِيـلتين، وهـما النذح، وتسميه الحكماء التفتُّح ـ وصغر الهمة ـ وتسميه النـاس الدّنـاءة، فـالتفتّح تأهـل الإنسان لما لا يستحقه، وصِغْرُ الهمة تركه لما يستحقه لضعفٍ في نفسه، فهذان مَذْمومان، والعدالة وهي الوَسَط بينهما محمودة، وهي علوّ الهمة، وينبغي أن يعلم أن المتفتح جـاهلٌ أحمق، وصغيرُ الهمة ليس بجاهل ولا أحمق، ولكـنه دنـيءٌ ضـعيف قـاصر، وإذا أردت التحقيق، فالكبير الهمّة من لا يرضى بالهمم الحيوانيّة، ولا يقنع لنفسه أن يكون عند رعاية بطنه وفرجه؛ بل يجتهد في معرفة صانع العالم ومصنوعاته، وفي اكتساب المكارم الشرعية ليكون من خلفاء الله وأوليائه في الدّنيا، ومجاوريه في الآخرة. ولذلك قيل: مَـن عـظُمتْ همتُه لم يرض بقَيْنة مستردّة، وحياةٍ مستعارة، فإن أمكنك أن تقتني قنية مـؤبّدة، وحـياة مخلدة، فافعل غير مكترث بقلّة مَن يَصحبك ويعينك على ذلك فإنه كـما قـيل: إذا عـظم

---

١. الكفاف من الشيء، مثله.

المطلوب قل المُساعد. وكما قيل:

* طرقُ العلاء قليلة الإيناس *

وأمّا الكلام في الصدق والمروءة والشجاعة والأنَفة والعفّة والغيرة، فقد تقدّم كثيرٌ منه، وسيأتي ما هو أكثر فيما بعد إن شاء الله تعالى.



الأصْلُ:

الظَّفَرُ بالْحَزْمِ، وَٱلْحَزْمُ بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ، وَالرَّأْيُ بِتَحْصِينِ ٱلْأَسْرَارِ.

الشّرْحُ:

وقال الحكماء: السرّ ضربان: أحدُهما ما يُلقَى إلى الإنسان من حديثٍ ليُستكتَم، وذلك: إمّا لفظاً كقول القائل: اكتُم ما أقولُه لك، وإمّا حالاً وهو أن يَجْهر بالقول حال انفراد صاحبه، أو يخفّض صوتَه حيثُ يُخاطِبه، أو يُخفِيه عن مُجالِسِيه؛ ولهذا قيل: إذا حدّثك إنسانٌ والتَفَتَ إليه فهو أمانة.

والضرب الثاني نوعان: أحدُهما أن يكون حديثاً في نفسك تَستقبح إشاعتَه، والثاني أن يكون أمراً تُريد أن تفعلَه.

وإلى الأوّل أشارَ النبيّ بقوله: «مَن أتَى منكم شيئاً من هذه القاذُورات فليستَتِر بسَتْر الله عزّوجلّ»، وإلى الثاني أشار من قال: «مِنَ الوَهَن والضعْفِ إعلانُ الأمر قبل إحكامه» وكتمانُ الضّرب الأوّل من الوَفاء، وهو مخصوص بعوامّ الناس، وكتمام الضرب الثاني من المُروءة والحَزْم؛ والنوع الثاني من نَوْعيه أخصّ بالملوك وأصحاب السياسات.

قالوا: وإذاعة السرّ من قلّة الصبر، وضِيق الصّدر، ويُوصَف به ضَعَفة الرّجال والنّساء والصّبيان. والسبب في أنّه يَصعُب كتمانُ السرّ أنّ للإنسان قوّتين: إحدَاهما آخِذةٌ، والأخرَى مُعطِيَة، وكل واحدةٍ منهما تتشوّق إلى فعلِها الخاصّ بها، ولولا أنّ الله تعالى وَكّل المعطية بإظهار ما عندها لما أتاك بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوّد، فَعَلَى الإنسان أن يُمسِك هذه القوّة ولا يُطلِقها إلّا حيث يَجِب إطلاقُها، فإنها إنْ لم تُزَمّ وتُخطَم؛ تقحّمتْ بصاحبها في كلّ مَهلَكة.



الأصْلُ :

ٱحْذَرُوا صَوْلَةَ ٱلْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ ، واللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ .

الشّرْحُ :

ليس يعني بالجوع والشِّبَع ما يتعارَفُه الناس ، وإنما المراد : احْذَروا صَوْلة الكريم إذا ضِيَم ، وامتُهِن ، واحذَرُوا صَوْلة اللئيم إذا أُكرِم . ومِثل المعنى الأوّل قولُ الشاعر :

لا يصبِر الحُرّ تحتَ ضَيْمٍ ... وإنّما يَصبِر الحِمارُ

ومِثلُ المعنى الثاني قولُ أبي الطيِّب :

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ ... وإن أنتَ أكرمْتَ اللّئيم تَمرّدَا[1]

٤٨

الأصْلُ :

قُلُوبُ الرِّجَالِ وَحْشِيَّةٌ ، فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ .

الشّرْحُ :

هذا مِثلُ قولهم : من لانَ استمالَ ، ومن قسا نفّر ، وما استُعِيد الحُرّ بمِثل الإحسان إليه . وقال الشاعر :

وإنّي لوَحْشِيٌّ إذا ما زَجَرْتَني ... وإنّي إذا ألّفتَني لألوفُ

وأمّا قول عُمارةَ بن عقيل :

---

١. ديوانه ١ : ٢٨٨.

وما النفس إلّا نطفةٌ بقرارةٍ ... إذا لم تكدّر كان صفواً غديرها

فيكاد يُخالِف قولَ أمير المؤمنينعليه السلام في الأصل؛ لأنّ أميرَ المؤمنينعليه السلام جَعَل أصلَ طبيعة القلوب التوحّش، وإنّما تُستَمال لأمرٍ خارج، وهو التألّف والإحسان؛ وعُمارة جَعَل أصلَ طبيعة النّفس الصفو والسلامة، وإنّما تتكدّر وتَجمَح لأمرٍ خارج، وهو الإساءة والإيحاش.



الأَصْلُ:

عَيْبُكَ مَسْتُورٌ مَا أَسْعَدَكَ جَدُّكَ[1].

الشّرْحُ:

قد قال الناسُ في الجَدّ فأكثَروا، وإلى الآن لم يتحقّق معناه؛ ومن كلام بعضِهم: إذا أقبل البَخْت باضَت الدَّجاجة على الوَتَد، وإذا أدبَر البَخْت أُسعِرَ الهاونُ في الشّمس. ومن كلام الحُكماء: إنّ السعادةَ لتَلحظ الحجَر فيُدعَى رَبّاً.



الأَصْلُ:

أَوْلَى النَّاس بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ.

---

١. الجدّ: الحظ، وإقبال الدنيا. والمراد: إنّك ستظلّ مرموقاً بالعناية والدعاية، وستر العيوب مادام حظك مؤاتياً وأيامك مقبلة.

وقد تقدم نحوه في الحكمة ٩: إذا أقبلت على قوم أعارتهم محاسن غيرهم.

الشَّرْحُ :

وقال الأحنف: ما شيء أشدّ اتّصالاً بشيء من الحِلْمِ بالعِزّ.

وقالت الحُكماء: ينبغي للإنسان إذا عاقَبَ من يستحقّ العقوبة، ألّا يكون سَبُعاً في انتقامه، وألّا يُعاقِب حتّى يزول سلطانُ غَضَبه، لئلّا يَقدَم على ما لا يجوز. ولذلك جَرَتْ سُنّة السلطان بحَبْس الُمجرم حتّى يَنْظُر في جُرْمه، ويُعِيدَ النّظر فيه.

وقالت الحكماء أيضاً: لذّة العفْو أطيَبُ من لَذّة التشفّي والانتقام؛ لأنّ لذّة العَفْو يَشفَعها حميدُ العاقبة، ولذّة الانتقام يَلحَقها ألمُ النّدم.



الأَصْلُ :

السَّخَاءُ مَا كَانَ اِبتِدَاءً؛ فَأَمَّا مَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ وَتَذَمُّمٌ[1].

الشّرْحُ :

يُعجِبني في هذا المعنى قولُ ابنِ حَيُّوس [محمد بن سلطان الشامي]:

إنّي دعوتُ نَدَى الكِرامِ فلم يُجِبْ ... فلأَشكُرَنّ نَدىً أجَابَ وما دُعِي

ومن العجائِب والعَجائبُ جَمّةٌ ... شكرُ بَطِيءٌ عن نَدَى المتسرِّعِ



الأَصْلُ :

لَا غِنَىٰ كَالْعَقْلِ، وَلَا فَقْرَ كَالْجَهْلِ، وَلَا مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ، وَلَا ظَهِيرَ كَالْمُشَاوَرَةِ.

---

١. التذمّم: الفرار من الذمّ وهنا الاستنكاف. والتأثّم: الفرار من الإثم.

الشّرْحُ :

رَوَى أبو العبّاس في «الكامل» عن أبي عبد الله ﷺ أنه قال: « خمسٌ من لم يكنّ فيه لم يكن فيه كثيرُ مستمتَع: العقلُ، والدّينُ، والأدب، والحياء، وحُسن الخُلق ».

وقال أيضاً: « لم يُقسم بين الناس شيء أقلّ من خمس: اليقين، والقناعة، والصبر، والشكر، والخامسة التي يكمُل بها هذا كلّه العقل ».

قال أبو العبّاس: ورُوي عن علي ﷺ: « هَبَط جبرئيلُ ﷺ على آدم ﷺ بثلاث ليختار منها واحدة ويَدَع اثنتين، وهي: العقل، والحياء، والدين؛ فاختار العقل، فقال جبرائيل للحياء والدين: انصرفا؛ فقالا: إنّا أُمِرْنا أن نكون مع العقل حيث كان، فقال: فشأنكما! ففازَ بالثلاث ».

فأما قوله ﷺ: «ولا ميراثَ كالأدب» فإني قرأتُ في حِكَم الفُرس عن بزُرجُمِهْر: ما ورّثت الآباءُ أبناءَها شيئاً أفضل مِن الأدب؛ لأنها إذا ورّثتها الأدب اكتسبت بالأدب المال، فإذا ورّثتها المال بلا أدب أتلفته بالجهل، وقَعَدَتْ صِفراً من المال والأدب.



الأصْلُ :

الصَّبْرُ صَبْرَانِ: صَبْرٌ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُ، وصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ.

الشّرْحُ :

النوع الأول أشقّ من النوع الثاني؛ لأنّ الأول صبرٌ على مَضَرّة نازلة، والثاني صبرٌ على محبوب متوقَّع لم يحصل.



الأصْلُ :

الْغِنَىٰ فِي ٱلْغُرْبَةِ وَطَنٌ، وَٱلْفَقْرُ فِي ٱلْوَطَنِ غُرْبَةٌ.

الشّرْحُ :

قال رجلٌ لبقراط : ما أشدّ فقرَكَ أيّها الحكيم ؟ قال : لو عرفتَ راحةَ الفَقْر لشَغَلك التوجّع لنفسك عن التوجّع لي ؛ الفَقْر مَلِك ليس عليه مُحاسَبَة.

وكان يقال: أضعفُ الناس من لا يحتمِل الغنى.



الأصْلُ :

ٱلْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ.

قال الرضي رحمه الله : وقد رُوي هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وآله.

الشّرْحُ :

فمن كلام الحُكماء: قاوم الفقرَ بالقناعة، وقاهِرِ الغِنَى بالتعفّف، وطاولْ عَناءَ الحاسِد بحُسْن الصُّنْع، وغالِب الموتَ بالذّكر الجميل.

وكان يقال: الناسُ رجلان واجِدٌ لا يَكتفِي، وطالبٌ لا يَجِد.



الأصْلُ :

ٱلْمَالُ مَادَّةُ الشَّهَوَاتِ[١].

---

١. الشهوة: الرغبة الشديدة، وما يُشتهىٰ من الملذات المادية، وتشمل شهوة البطن والفرج، وحبّ التسلط
⇔

الشّرْحُ :

سئل أفلاطونُ عن المال، فقال: ما أقولُ في شيء يُعطِيه الحَظّ ويَحفَظه اللّؤمُ، ويبلغُه الكَرَمُ! ثم قالوا: وقد سمّى الله تعالى المالَ خَيْراً في قوله: **﴿إنْ تَرَكَ خَيْراً﴾**[1]، وفي قوله: **﴿وإنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾**[2].



الأصْلُ :

مَنْ حَذَّرَكَ، كَمَنْ بَشَّرَكَ.

الشّرْحُ :

هذا مِثلُ قولِهم: اتّبِع أمرَ مُبْكيانِك، لا أمرَ مُضْحِكاتك. ومِثْلُه: صديقك من نـهاك، لا مـن أغراك. ومثلُه: رَحِم الله امرأً أهدَى إليّ عيوبي.

والتحذير هو النّصح، والنّصح واجب، وهو تعريفُ الإنسان ما فيه صَلاحُه، ودفع المَضَرّة عنه، وقد جاء في الخبر الصّحيح: «الدِّين النصيحة»، فقيل: يا رسول الله، لمـن ؟ فـقال: «لعامّة المسلمين». وأوّل ما يجب على الإنسان أن يُحذِّر نفسَه ويَنصَحها، فمن غَشّ نفسَه فَقلّما يُحذِّر غيرَه ويَنصَحُه.

ومعنى قوله عليه السلام «كمن بشّرك»، أي يَنبغي لك أن تُسَرّ بتحذيره لك، كما تُسَرّ لو بشّرَك بأمرٍ تحبّه، وأن تَشكُرَه على ذلك كما تَشكُر لو بشّرك بأمرٍ تُحبُهُ؛ لأنّه لو لم يكن يُريدُ بك الخير لما حَذّرك من الوُقوع في الشرّ.

⇐ والتعالي والتباهي والجاه وغير ذلك، وكلّ هذه مطيتها ووسيلة إشباعها وسببها المال، ومتىٰ شبعت طغت وبغت ما لم يضبطها العقل والدين.

١. سورة البقرة ١٨٠.

٢. سورة العاديات ٨.



الأَصْلُ:

اللِّسَانُ سَبُعٌ، إنْ خُلِّيَ عَنْهُ عَقَرَ.

الشّرْحُ:

وكان يقال: إن كان في الكلام دَرك ففي الصّمت عافية.

وقالت الحكماء: النّطق أشرَف ما خُصّ به الإنسان؛ لأنّه صورتُه المعقولة الّتي بايَنَ بها سائرَ الحيوانات، ولذلك قال سبحانه: ﴿خَلَقَ الإنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[1]، ولم يقل: «وعلّمه» بالواو؛ لأنّه سبحانه جَعَل قوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ تفسيراً لقوله: ﴿خَلَقَ الإنْسَانَ﴾، لا عطفاً عليه؛ تنبيهاً على أنّ خلْقه له وتَخصِيصَه بالبيان الذي لو توهّم مرتفِعاً لارتفَعَتْ إنسانيّته، ولذلك قيل: ما الإنسانُ لولا اللّسانُ إلّا بهيمةٌ مُهمَلة، أو صورةٌ ممثَّلة.

وقال الشاعر:

لسانُ الفَتَى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ فلم يَبقَ إلّا صورة اللّحمِ والدَّمِ[2]

قالوا: والصّمت من حيثُ هو صَمْتٌ مَذْموم، وهو من صفات الجَمادات، فَضْلاً عن الحيوانات، وكلامُ أمير المؤمنينعليه السلام وغيرِه من العُلَماء في مَدْح الصّمت محمول على مَنْ يسيء الكلامَ فيقَعُ منه جِنايات عظيمة في أُمور الدِّين والدّنيا، كما رُوِي في الخبر: «إنّ الإنسان إذا أصبَح قالت أعضاؤه للسانِه: اتّق اللهَ فينا، فإنّك إن استقَمتَ نجوْنا، وإن زُغْت هَلَكْنا». فأما إذا اعتُبر النُّطقُ والصَّمتُ بذاتَيْهما فقط فمُحالٌ أن يقال في الصمت فضلٌ، فضلاً عن أن يخايَرَ ويقايَس بينه وبين الكلام.

---

١. سورة الرحمن ٣ و٤.

٢. ينسب لزهير، من معلقته بشرح الزوزني ٩٤.



الأَصْلُ :

ٱلْمَرْأَةُ عَقْرَبٌ حُلْوَةُ اللَّسْبَةِ .

الشّرْحُ :

اللَّسْبة : اللّسعة ، لَسَبْته العَقْرب بالفتح ، ولَسِبْت العسل بالكسر ، أي لعقْتُه .

وقيل لِسُقراط : أيُّ السِّباع أجسر ؟ قال : المرأة .

وفي الحديث المرفوع : «استعيذوا بالله من شِرار النِّساء ، وكونوا من خيارهنّ على حَذَر» . وقد تقدّم مِن كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الكتاب ما هو شرحٌ وإيضاح لهذا المعنى[١] .



الأَصْلُ :

إِذَا حُيِّيتَ بِتَحِيَّةٍ فَحَيِّ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، وإِذَا أُسْدِيَتْ إِلَيْكَ يَدٌ فَكَافِئْهَا بِمَا يُرْبِي عَلَيْهَا ، وَٱلْفَضْلُ مَعَ ذٰلِكَ لِلْبَادِئِ .

الشّرْحُ :

اللّفظة الأُولى من القرآن العزيز[٢] ، والثانية تتضمّن معنىً مشهوراً .

وقولُه : «والفَضْل مع ذلك للبادئ» ، يقال في الكَرَم ، والحثّ على فِعلِ الخَيْر .

---

١ . انظر : الخطبة ٧٩ ، ١٥٣ .

٢ . وهو قوله تعالى في سورة النساء ٨٦ : ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ .



الأصْلُ:

الشَّفِيعُ جَنَاحُ الطَّالِبِ.

الشّرْحُ:

جاء في الحديث مرفوعاً: «اشفَعوا إليَّ تُؤْجَروا، ويَقضِي اللهُ على لسان نبيّه ما شاء الله».

خرج العطاءُ في أيّام المنصور، وأقام الشُّقرانيّ ـ من وَلَد شُقْرانَ مولَى رسول الله ﷺ ـ ببابه أيّاماً لا يَصل إليه عطاؤه؛ فخرَج جعفرُ بنُ محمّد عليه السلام من عند المنصور، فقام الشّقرانيّ إليه، فذكر له حاجتَه، فرَحّب به، ثمّ دخل ثانياً إلى المنصور، وأخرج عطاءُ الشّقرانيّ في كمّه فَصبّه في كُمّه ثم قال: يا شُقْران، إنّ الحَسَن من كلّ أحدٍ حَسَنٌ، وإنّه منك أحسَنُ لِمكانك مِنّا، وإن القبيحَ من كلّ أحدٍ قبيحٌ، وهو منكَ أقبحُ لِمكانِك منّا. فاستحسَن الناسُ ما قالَه، وذلك لأنّ الشّقرانيّ كان صاحبَ شراب. قالوا: فانظر كيف أحسَنَ السعيَ في استنجاز طَلِبته، وكيف رَحّب به وأكرَمَه مع معرفته بحاله، وكيف وَعَظه ونَهاه عن المُنكَر على وجه التّعريض! قال الزّمَخشَرِيّ: وما هُوَ إلّا من أخلاق الأنبياء.



الأصْلُ:

أَهْلُ الدُّنْيَا كَرَكْبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ.

الشّرْحُ:

هذا التشبيه واقعٌ وهو صورة الحالِ لا مَحالة.

ولو تأمّل الناسُ أحوالَهم، وتبيّنوا مآلَهم، لعَلِموا أنّ المقيم منهم بوَطَنِه، والساكنَ إلى

سَكَنِه، أخو سَفَرٍ يُسرَى به وهو لا يَسْرِي، وراكبُ بحرٍ يُجرَى به وهو لا يَدْرِي[١].



الأَصْلُ :

فَقْدُ ٱلْأَحِبَّةِ غُرْبَةٌ.

الشّرْحُ :

مثلُ هذا قولُ الشاعر :

فلا تَحسَبِي أنّ الغريبَ الّذي نَأَى ... ولكنّ مَن تَنأَيْنَ عنه غَريبُ

ومِثلُه قولُه ﷺ : «الغريبُ من ليس له حبيب».



الأَصْلُ :

فَوْتُ ٱلْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِهَا إِلَىٰ غَيْرِ أَهْلِهَا.

الشّرْحُ :

وكان يقال: لا تطلُبوا الحوائج إلى ثلاثة: إلى عَبْد يقول: الأمْر إلى غيري، وإلى رجل حديثِ الغِنَى، وإلى تاجِرٍ هِمّته أن يستَرْبِحَ في كلّ عشرين ديناراً حبّة واحدة.

---

١. ونحوه ما جاء في الرسالة ٣١: «من كانت مطيته الليل والنهار فإنّه يسار به وإن كان واقفاً، ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعاً».



الأَصْلُ :

لَا تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ ٱلْقَلِيلِ ، فَإِنَّ ٱلْحِرْمَانَ أَقَلُّ مِنْهُ.

الشَّرْحُ :

هذا نوعٌ من الحَثّ على الإفضال والجُود لطيف ، وقد استُعمِل كثيراً في الهديّة والاعتذار لِقلّتها ؛ وقد تقدّم منّا قولٌ شافٍ في مَدح السّخاء والجُودِ.

وكان يقال : أفضِلْ على مَن شِئتَ تَكنْ أميرَه ، واحتَجْ إلى مَن شئتَ تكن أسِيرَه ، واستغْنِ عمّن شئتَ تكن نَظِيرَه .



الأَصْلُ :

ٱلْعَفَافُ زِينَةُ ٱلفَقْرِ ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ ٱلْغِنَىٰ .

الشَّرْحُ :

من الأبيات المشهورة :

فإذا افتقرتَ فلا تكن ... متخشّعاً وتجمَّلِ

ومن أمثالهم المشهورة : «تَجوعُ الحُرّة ولا تأكلُ بثَدييْها» .

وكان يقال : العِلْم بغير عملٍ قولٌ باطل ، والنّعمة بغيرِ شُكْرٍ جِيدٌ عاطِل .



الأَصْلُ :

إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُ فَـلَا تُبَلْ كيف كُنْتَ .

الشَّرْحُ :

قد أعجم تفسيرُ هذه الكلمة على جماعةٍ من الناس، وقالوا: المشهورُ في كلام الحكماء: إذا لم يكن ما تُريد فأرِدْ مايكون، ولا مَعنَى لقوله: «فلا تُبَلْ كيف كُنتَ» ! وجَهلوا مُرادَه ﷺ.

ومُرادُه: إذا لم يكن ما تُريد فلا تُبَلْ بذلك، أي لا تَكْتَرِثْ بفَوْت مُرادِك ولا تَبْتَئِسْ بالحِرْمان، ولو وَقَف على هذا لتمّ الكلام وكَمَل المعنى، وصار هذا مِثل قوله: «فلا تُكثِر على ما فاتَكَ منها أسَفاً»، ومثل قول الله تعالى: ﴿**لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ**﴾[1]؛ لكنّه تمّم وأكّد فقال: «كيف كنت»، أي لا تُبَل بفَوْتِ ما كنتَ أمَّلته، ولا تَحمِل لذلك همّاً كيف كنت، وعلى أيّ حال كنتَ، من حَبْسٍ أو مرضٍ أو فقر أو فقدِ حبيب؛ وعلى الجملة، لا تُبالِ الدّهر، ولا تَكتَرِث بما يَعكِس عليكَ من غَرَضِك، ويَحرِمك من أمَلك؛ وليكن هذا الإهْوانُ به والاحتقارُ له ممّا تعتَمده دائماً على أيّ حال أفضَى بك الدهر إليها. وهذا واضح.



الأَصْلُ :

لَا يُرَىٰ ٱلْجَاهِلَ إِلَّا مُفْرِطاً أَوْ مُفَرِّطاً[2].

---

١. سورة الحديد ٢٣.

٢. أي غالياً أو مُقصّراً.

الشّرْحُ :

العدالة هي الخُلُق المتوسّط . وهو محمود بين مَذْمُومين ، فالشجاعة محفوفة بالتهوّر والجُبْن . والذّكاء بالغَباوة والجربزة . والجود بالشحّ والتبذير . والحلم بالجمادية والاستشاطة ، وعلى هذا كلّ ضدّين من الأخلاق فبينهما خُلُق متوسّط ، وهو المسمّى بالعدالة، فلذلك لا يُرَى الجاهلُ إلّا مُفرِطاً أو مفرِّطاً ، كصاحب الغَيْرة ، فهو إمّا أن يُفرِط فيها ، فيَخرُج عن القانون الصّحيح فيَغار لا مِنْ مُوجب ، بل بالوَهْم وبالخيال وبالوَسْواس ، وإمّا أن يُفرِّط فلا يَبحَث عن حالِ نسائِه ولا يُبَالي ما صنَعْن، وكلا الأمْرَين مذموم ، والمحمودُ الاعتدال .



الأصْلُ :

إِذَا تَمَّ ٱلْعَقْلُ نَقَصَ ٱلْكَلَامُ[1] .

الشّرْحُ :

وكان يقال: إذا رأيتم الرجلَ يُطِيل الصمتَ ويَهرُب من النّاس ، فاقرُبوا منه فإنه يلقَّى الحِكْمة.



الأصْلُ :

الدَّهرُ يُخْلِقُ ٱلْأَبْدَانَ ، وَيُجَدِّدُ ٱلآمَالَ ، وَيُقَرِّبُ ٱلْمَنِيَّةَ ، وَيُبَاعِدُ ٱلْأُمْنِيَّةَ ؛ مَنْ ظَفِرَ بِهِ نَصِبَ ، وَمَنْ فَاتَهُ تَعِبَ[2] .

---

١ . أي أنّ العاقل لا يتكلّم بما لا يعنيه ، فيقلّ كلامُه .

٢ . يخلق الأبدان : يبليها . يباعد الأُمنيّة : يجعلها بعيدة صعبة المنال . نصب : أعيىٰ .

الشّرْحُ :

قال بعضُ الحُكماء : الدنيا تَسُرّ لِتَغُرّ ، وتُفِيد لتَكِيد ، كم راقدٍ في ظلّها قد أيقَظَته ، وواثقٍ بها قد خذَلَتْه ، بهذا الخُلُق عُرِفَتْ ، وعلى هذا الشرْط صُوحِبتْ .

وكتب الإسكندرُ إلى أرِسْطوطاليس : عِظْني ، فكتب إليه : إذا صَفَتْ لك السلامة فجدّد ذِكرَ العَطَب ، وإذا اطمأنّ بك الأَمْن فاستشْعر الخوف ، فإذا بلغتَ نهايةَ الأمل فاذكر الموتَ ، وإذا أحببت نفسك فلا تجعل لها نصيباً في الإساءة .



الأصْلُ :

مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاس إمَاماً فَعَلَيهِ أنْ يبدَأَ بِتَعْلِيم نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيم غَيْرِهِ ، وَلْيَكُنْ تَأدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ ؛ وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاس وَمُؤَدِّبِهِمْ .

الشّرْحُ :

الفروع تابعة للأُصول ، فإذا كان الأصل معوجّاً استحالَ أن يكون الفرعُ مستقيماً ، كما قال صاحبُ المَثَل : وهل يستقيمُ الظِّلّ والعُود أعوج ، فمن نَصَب نفسه للناس إماماً ، ولم يكن قد علّم نفسه ما انتصب ليعلمه الناس ، كان مِثل من نصب نفسه ليُعلم النّاس الصِّياغة ، والنجارة ، وهو لا يُحْسِن أن يصوغَ خاتماً ، ولا ينجُر لوحاً ، وهذا نوعٌ [من] السَّفَه ، بل هو السَّفَهُ كلُّه ؛ ثم قال عليه السلام : وينبغي أن يكون تأديبُه لهم بفعله وسيرته قبل تأديبه لهم بلسانه ، وذلك لأنّ الفِعْل أدلّ على حال الإنسان من القول . ثم قال : ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقُّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدّبهم . وهذا حق ؛ لأنّ من علم نفسه محاسن الأخلاق أعظمُ قَدْراً ممن تعاطى تعليم الناس ذلك وهو غيرُ عامل بشيء منه ، فأما من عَلّم نفسه وعلّم الناس فهو أفضل وأجَلّ ممن اقتصر على تعليم نفسه فقط لا شُبْهةَ في ذلك .



الأصْلُ :

نَفَسُ ٱلْمَرْءِ خُطَاهُ إِلَىٰ أَجَلِهِ[١].

الشّرْحُ :

وجدتُ هذه الكلمةَ منسوبةً إلى عبد الله بن المعتزّ في فصلٍ أوّله : الناس وفْد البلاء ، وسُكّان الثَرى ، وأنفاس الحيّ خُطاه إلى أجله ... ، فلا أدري هل هيَ لابن المعتز ، أم أخَذَها من أمير المؤمنينعليه السلام ! والظاهر أنها لأمير المؤمنينعليه السلام ، فإنها بكلامه أشبه ، ولأنّ الرضيّ قد رواها عنه ، وخبرُ العَدْل معمولٌ به .



الأصْلُ :

كُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ[٢].

الشّرْحُ :

الكلمة الأُولى تؤكِّد مذهب جمهور المتكلّمين في أنّ العالم كلّه لابدّ أن ينقضيَ ويَفْنَى ، ولكنّ المتكلمين الذاهبين إلى هذا القَوْل لا يقولون : يجب أن يكون فانياً ومنقضياً لأنّه معدود ، فإن ذلك لا يلزم ؛ ومن الجائز أن يكون معدوداً ولا يجب فناؤه ، ولهذا قال أصحابنا : إنما علمنا أن العالم يفنى عن طريق السمع لا مِن طريق العقل ، فيجب أن يُحْمَل كلامُ

---

١ . أي أنّ كلّ نفسٍ يتنفّسه الإنسان خطوة يقطعها إلىٰ الأجل ويقرّبه إلىٰ الموت .

٢ . لعل الفقرة الأُولىٰ إشارة إلىٰ أنفاس الخلائق وحركاتهم أو أعمار العباد . والثانية ، توقع الشيء : ترقبه ، والمراد بالمتوقع ، مالا مفر من وقوعه ، والمراد ، التحذير عما يتوقع حدوثه كالموت وتوابعه .

أمير المؤمنين ﷺ على ما يُطابق ذلك، وهو أنه ليس يعني أن العددَ علّةٌ في وجوب الانقضاء، كما يُشعِر به ظاهرُ لفظِه، وهو الذي يسمّيه أصحابُ أُصول الفقه إيماء، وإنما مُراده كلّ معدود فاعلموا أنه فانٍ ومنقضٍ، فقد حكم على كلّ معدود بالانقضاء حُكْماً مجرَّداً عن العلّة، كما لو قيل: زيد قائمٌ، ليس يعني أنه قائم؛ لأنّه يسمّى زيد.

فأما قوله: «وكلّ متوقع آتٍ» فيماثلُه قول العامة في أمثالها: لو انتُظِرَت القيامةُ لقامت؛ والقولُ في نفسه حق؛ لأنّ العُقلاء لا ينتظرون ما يَستحيل وقوعه، وإنما ينتظرون ما يمكن وقوعه، وما لابدّ من وقوعه، فقد صَحّ أنّ كلّ منتظَر فسيأتي.



الأصْلُ:

إنَّ ٱلْأُمُورَ إذا ٱشْتَبَهَتْ ٱعْتُبِرَ آخِرُهَا بِأَوَّلِهَا.

الشَّرْحُ:

رُوي: «إذا استبهَمَتْ»، والمعنى واحد وهو حقّ، وذلك أن المقدّمات تدلّ عَلَى النتائج، والأسباب تدلّ على المسبّبات، وطالما كان الشيئان ليسا عِلّةً ومعلولاً، وإنما بينهما أدنى تناسبُ، فيُستدَلّ بحالِ أحدهما على حال الآخر، وإذا كان كذلك واشتبَهَتْ أمورُ على العاقِل الفَطِن ولم يعلم إلى ماذا تَؤُول، فإنه يُسْتَدَلّ على عواقبها بأوائلها وعلى خواتمها بفوَاتِحها، كالرّعيّة ذاتِ السلطان الرَّكِيك الضعيف السياسة، إذا ابتدأت أُمورُ مملكتِه تضطرِب، واستَبْهَم على العاقل كيف يكون الحالُ في المستقبل، فإنه يجب عليه أن يعتبر أواخرها بأوائلها، ويَعلم أنه سيفضي أمرُ ذلك المُلْك إلى انتشار وانحلال في مُستقبل الوقت؛ لأنّ الحركات الأُولى مُنذرة بذلك، وواعدة بوقوعه، وهذا واضح.



الأصْلُ :

ومن خبر ضرار بن حمزَةَ الضّبابي عند دخوله على معاوية ومسألته له عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : فأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وهو قائم في محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ، ويقول :

يَا دُنْيَا ، إِلَيْكِ عَنِّي ، أَبِي تَعَرَّضْتِ ؟ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ ؟ لَا حَانَ حِينُكِ ! هَيْهَات ! غُرِّي غَيْرِي ، لَا حَاجَةَ لِي فِيكِ ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلَاثاً ، لَا رَجْعَةَ فِيهَا ! فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ ، وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ ، وَأَمَلُكِ حَقِيرٌ . آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ ، وَطُولِ الطَّرِيقِ ، وَبُعْدِ السَّفَرِ ، وَعَظِيمِ الْمَوْرِدِ!

الشّرْحُ :

السُّدُول : جمعُ سَدِيل ، وهو ما أسدل على الهَوْدَج ، ويجوز في جَمْعه أيضاً أسْدال وسدائل ، وهو هاهنا استعارة . والتّملْمُل والتملّل أيضاً : عدمُ الاستقرار من المرض ، كأنه على مَلّة ، وهي الرّماد الحارّ . والسليم : الملسوع . ويُروى «تشوّقت» بالقاف .

وقوله : «لا حان حَينُك» ، دعاء عليها ، أي لا حَضَر وَقْتك ، كما تقول : لا كنت .

فأما ضِرارُ بن ضَمْرة ، فإنّ الرّياشيّ رَوَى خبرَه ، ونقلتُه أنا من كتاب عبدِ الله بنِ إسماعيلَ بن أحمدَ الحلبي في (التّذييل على نَهْج البلاغة) ، قال : دخل ضِرارٌ على معاويةَ ـ وكان ضِرارٌ من صحابةِ عليّ عليه السلام ـ فقال له معاوية : يا ضرار ، صف لي عليّاً ، قال : أوَتُعْفِيني ! قال : لا أُعْفيك ، قال : ما أصف منه ! كان واللهِ شديدَ القُوَى ، بعيد الْمَدىٰ ، يتفجّر العِلْم من أنْحائه ، والحكمةُ من أرْجائِه ، حَسَن المُعاشَرة ، سَهْل المباشرة ، خَشِن المأكَل ، قصير المَلبَس ، غَزير العَبْرة ، طويل الفِكْرة ، يقلّب كَفّه ، ويخاطِب نفسَه ، وكان فينا كأحدِنا ، يُجيبنا إذا سألْنا ، ويبتَدِئُنا إذا سكَتْنا ، ونحن مع تقريبه لنا أشَدّ ما يكون صاحبٌ لصاحبٍ هيبةً ، لا نبتدئه

الكلام لعظَمَتِه، يحبّ المساكين، ويقرِّب أهلَ الدّين، وأشهَد لقد رأيتُه في بعض مَواقِفه ... وتَمامُ الكلامِ مذكورٌ في الكتاب.

وذكَر أبو عمرَ بنُ عبد البرّ في كتاب (الاستيعاب)[1] هذا الخبرَ، فقال: حدّثنا عبدُ الله ابنُ محمّد ابنِ يوسفَ، قال: حدّثنا يحيى بنُ مالك بنِ عائد، قال: حدّثنا أبو الحسن محمّد بنُ محمّدِ بنِ مُقْلة البَغْداديّ بمصرَ. وحدّثنا أبو بكر محمّد بن الحسن بنِ دُرَيد، قال: حدّثنا العُكْليّ، عن الحِرْمازِيّ، عن رجل من هَمْدان، قال: قال معاويةُ لضِرار الضبّابيّ: يا ضرار صِفْ لي عَلِيّاً، قال: اعفِني يا أميرَ المؤمنين؛ قال: لتَصِفَنّه؛ قال: أمّا إذ لابدّ من وَصْفِه، فكان واللهِ بعيدَ المَدَى، شديدَ القُوَى، يقول فَصْلاً، ويَحكُم عَدْلاً، يتفجّر العِلم من جَوانبِه، وتَنطِق الحكمة من نَواحيه، يَستوحِش من الدنيا وزَهرتِها، ويَأنَس باللّيل ووَحْشَتِه، [وكان] غزيرَ العَبْرة، طويلَ الفكْرة، يُعجِبه من اللّباس ما قَصُر، ومن الطعام ما خَشُن. كان فينا كأحدِنا، يجيبُنا إذا سألناه، ويُنبئنا إذا استَفْتَيْناه؛ ونحن واللهِ مع تقريبه إيّانا، وقربِه منّا، لا نكاد نكلّمه هيبةً له. يعظِّم أهلَ الدّين، ويقرِّب المساكينَ. لا يَطمَع القويُّ في باطله، ولا ييئس الضعيفُ من عَدلِه؛ وأشهَد لقد رأيتُه في بعض مَواقِفه وقد أرخَى الليلُ سُدوله، وغارَت نجومُه، قابضاً على لِحيته، يَتَمَلْمَل تَملْمُل السَّليم[2]، ويَبكِي بكاءَ الحزين، ويقول: يا دُنْيا غُرّي غَيْري، أبي تعرّضتِ! أم إليّ تشوّقْتِ! هيهاتَ هيهاتَ! قد باينتُكِ ثلاثاً لا رجعةَ لي فيها، فعُمرُكِ قصير، وخطرُكِ حقير! آهِ منْ قِلّة الزاد، وبُعد السّفر، ووَحشةِ الطريق! فبكى معاويةُ وقال: رَحِم اللهُ أبا حسن، كان والله كذلك؛ فكيف حُزْنُك عليه يا ضِرار؟ قال: حزنُ مَن ذُبِح ولدُها في حِجْرها[3].

---

١. الاستيعاب ١١٠٧ و ١١٠٨، وهو أيضاً في أمالي القالي ٢:١٤٧.

٢. السليم: اللديغ.

٣. تأمّل حال معاوية هذا الطليق، مع علمه بفضل أمير المؤمنين؈، واعترافه بعظمته وسابقته وتقواه؛ يسنّ سبّه من على كل شاهقة؛ تمرّداً على الله، وعداوة لرسوله، وبغضاً للحق. ومع هذا يأتي علماء السوء فيعذرونه ويقولون إنّه: مجتهد مصيب لا إثم عليه ولا حرج. كذلك ﴿ويُضِلُّ اللهُ الظّالِمِين﴾ سورة إبراهيم ٢٧.



الأصْلُ :

ومن كلام لهﷺ للسائل الشامي لما سأله: أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر ؟ بعد كلام طويل هذا مختاره:

وَيْحَكَ! لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لاَزِماً، وَقَدَراً حَاتِماً ! وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لَبَطَلَ الثَّوابُ وٱلْعِقَابُ، وَسَقَطَ ٱلْوَعْدُ وَٱلْـوَعِيدُ؛ إِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْيِيراً، وَنَهَاهُمْ تَحْذِيراً، وَكَلَّفَ يَسِيراً، وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيراً، وَأَعْطَىٰ عَلَىٰ ٱلْقَلِيلِ كَثِيراً، وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوباً، وَلَمْ يُطَعْ مُكْرَهاً، وَلَمْ يُرْسِلِ ٱلْأَنْبِيَاءَ لَعِباً، وَلَمْ يُنْزِلِ الكُتُبَ لِلْعِبَادِ عَبَثاً، وَلَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً؛ ﴿ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ .

الشّرْحُ :

قد ذكر شيخُنا أبو الحسينﷺ هذا الخبرَ في كتاب (الغُرَر) ورواه عن الأصبغ بنِ نُباتة ، قال : قام شيخٌ إلى عليّﷺ فقال : أخبِرْنا عن مَسيرنا إلى الشام ، أكانَ بقضاء الله وقدَرِه ؟ فقال : والّذي فَلَق الحبّة ، وبَرَأ النّسمَة ، ما وَطِئْنا مَوْطِئاً ، ولا هَبطنا وادياً إلّا بقضاء الله وقَدَرِه . فقال الشيخ ! فعندَ الله أحتَسِب عَنائي ! ما أرَى لي من الأجْر شيئاً ! فقال : مَهْ أيّها الشيخ ، لقد عَظَّم اللهُ أجرَكم في مَسيرِكم وأنتم سائرون ، وفي مُنصرَفكم وأنتم منصرِفون ، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرَهين ، ولا إليها مضطَرِّين . فقال الشيخ : وكيف القضاءُ والقَدَر ساقانا ؟ فقال : وَيْحَكَ ! لعلّك ظننتَ قضاءً لازماً ، وقَدَراً حَتْماً ! لو كان ذلك كذلك لبَطَل الثواب والعِقاب ، والوَعْد والوَعِيد ، والأمرُ والنّهي ، ولم تأتِ لائمةٌ مِن الله لمُذنِب ، ولا محمَدة لُمحسِن ، ولم يكن الُمحسِن أولَى بالمدح من المسيء ، ولا المسيءُ أولَى بالذمّ من الُمحسِن ؛ تلك مقالةُ عُبّاد الأوثان ، وجنودِ الشّيطان ، وشهودِ الزور ، وأهلِ العَمَى عن الصواب ، وهم قَدَرِيّةُ هذه الأُمّة ومجوسُها ؛ إنّ الله سبحانه أمَر تخييراً ، ونَهَى تحذيراً ، وكَلَّف يسيراً ، ولم

يُعصَ مغلوباً، ولم يُطَع مُكرِهاً، ولم يُرسِل الرسلَ إلى خلقه عَبَثاً، ولم يَخلُق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ﴿ذلك ظنّ الذّين كَفروا فوَيلٌ للذّين كفروا من النار﴾[1] فقال الشيخ: فما القَضاء والقَدَر اللّذان ما سِرْنا إلّا بِهما؟ فقال: هو الأمرُ من الله والحُكم، ثمّ تلا قولَه سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[2]، فنَهضَ الشيخُ مسروراً وهو يقول:

أنتَ الإمامُ الّذي نَرجُو بطاعتِه — يومَ النشور من الرّحمن رِضْوانَا
أوْضحتَ مِن دِينِنا ما كان مُلتَبِساً — جزاكَ رَبُّك عنّا فيه إحسانا

ذَكَر ذلك أبو الحسين في بيانِ أنّ القضاء والقَدَر قد يكون بمعنى الحكْم والأمر، وأنّه من الألفاظ المشترَكة.

٧٧

الأصْلُ:

خُذِ ٱلْحِكْمَةَ أَنَّىٰ كَانَتْ، فَإِنَّ ٱلْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ ٱلْمُنَافِقِ فَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِهِ، حَتَّىٰ تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ ٱلْمُؤْمِنِ[3].

قَالَ الرَّضيّ ﵀ ـ وَقَدْ قَالَ عليٌّ ﵇ فِي مِثْل ذِلك ـ:

ٱلحِكْمَةُ ضَالَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ، فَخُذِ ٱلحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ ٱلنِّفَاقِ.

الشّرْحُ:

خَطَب الحجّاج فقال: إنّ الله أمَرَنا بطلب الآخرة، وكفانَا مؤونة الدّنيا، فليْتَنا كُفِينا مؤونة الآخرة، وأُمِرنا بطلب الدنيا!

---

١. سورة ص ٢٧.
٢. سورة الإسراء ٢٣.
٣. تلجلج: تتحرك وتتردد. تسكن: تقرّ وتثبت. إن الحكمة كالضالة عند المنافق لا تهدأ نفسه إلّا بإخراجها، فإذا علم شيئاً، أُعجب بنفسه، ويكاد يعجز عن الإمساكِ عنه حتىٰ يخرجه، فإذا سمعها المؤمن، ضمّها إلىٰ علمه، فتسْكن عنده فإذا احتيج إلىٰ علمه بثّه.

فسمعها الحسن [البصري] فقال: هذه ضالّة المؤمن خرجت من قلب المنافق، وكان سُفيانُ الثّوريّ يُعجِبه كلامُ أبي حَمْزة الخارجيّ ويقول: ضالّة المؤمن على لسان المنافق.



الأَصْلُ:

قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ.

قال الرضي ﷺ:

وهذه الكلمة التي لا تصاب لها قيمة، ولا توزن بها حكمة، ولا تقرن إليها كلمة.

يقال: إنّ من كلام أرْدَشير بن بابك في رسالته إلى أبناءِ الملوك: بحَسْبِكم دلالةً على فَضْل العلم أنّه ممدوح بكلّ لسان، يتزيّن به غير أهله، ويدّعيه من لا يلصقُ به. قال: وبحَسْبكم دَلالةً على عَيْب الجهل أنّ كل أحد يَنتفِي منه، ويَغضَب أن يسمَّى به.



الأَصْلُ:

أُوصِيكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا آبَاطَ ٱلْإِبِلِ لَكَانَتْ لِذٰلِكَ أَهْلاً: لَا يَرْجُوَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَخَافَنَّ إِلَّا ذَنْبَهُ، وَلَا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِذَا سُئِلَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ: لَا أَعْلَمُ، وَلَا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ إِذَا لَمْ يَعلَم الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ ٱلْإِيمَانِ كَالرَّأس مِنَ ٱلْجَسَدِ، وَلَا خَيْرَ فِي جَسَدٍ لاَ رأْسَ مَعَهُ، وَلَا في إِيمَانٍ لَا صَبْرَ مَعَهُ[1].

---

١. الإبط: جمع آباط باطن الكتف. ضرب الآباط: كناية عن شد الرحال وحثّ المسير والسفر لأنّ الراكب يضرب

الشّرْحُ :

قد تقدّم الكلامُ في جميع الحكم المنطوي عليها هذا الفَصْل؛ وقال أبو العَتاهِيَة :

واللهِ لا أرجُــو سِــوا ... كَ ولا أخافُ سِوَى ذنوبي
فــاغفرْ ذنـوبي يـا رَحِـيـ ... ـمُ فأنتَ سَـتّارُ العـيوبِ

وكان يقال: من استَحْيا من قولِ: (لا أَدْرِي) كان كمن يَسْتحي من كَشْـفِ ركْـبته، ثـم يكشف سَوْءته، وذلك لأنّ من امتَنعَ من قول: (لا أَدْرِي) وأجابَ بالجَهْل والخطأ فقد واقَعَ ما يجبُ في الحقيقة أن يُستحيا منه، وكَفَّ عمّا ليس بواجب أن يُسْتَحْيَا منه، فكان شبيها بما ذكَرْناه في الرُّكبة والعَوْرة.

وكان يقال: يحسُن بالإنسان التعلّم ما دامَ يقبح منه الجَهل، وكما يقبح منه الجهل ما دام حيّاً ذلك يحسُن به التعلم ما دام حيّاً.



الأصْلُ :

وقال عليه السلام لرجل أفرط في الثناء عليه وكان له مُتَّهِماً:
أنا دُونَ مَا تَقُولُ، وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ[1].

الشّرْحُ :

قد سَبَق منّا قولٌ مُقنِع في كراهية مدح الإنسان في وجهه.

وقالت الحكماء: إنّه يَحدُث للممدوح في وجهه أمرانِ مُـهلِكان: أحـدُهما الإعـجاب بنفسه، والثاني إذا أثنى عليه بالدِّين أو العلم فَتَر وقَلّ اجتهادُه، ورضيَ عن نفسه، ونَـقَصَ تشميرُه وجِدُّه في طلب العلم والدِّين، فإنه إنما يتشمّر من رأى نفسَه مقصّراً فأمّا مَنْ أطلِقت

⇐ برجله إبطَ الإبل. والمراد بالرجاء هنا السؤال وطلب الحاجة.

١. يعني تمدحني بما لا يمدح به مثلي، وأنا فوق ما تعتقده فيَّ.

الألسُنُ بالثّناء عليه، فإنّه يظنّ أنه قد وصل وأدرك، فيقلّ اجتهاده، ويتّكل على ما قد حَصَل له عند الناس؛ ولهذا قال النبيّ ﷺ لمن مَدَح إنساناً كاد يَسمَعه: «وَيْحك! قطعتَ عُنُق صاحبك، لو سمِعها لما أفلَح».

فأمّا قوله ﷺ له: «وفوقَ مافي نفسك»، فإنه إنما أراد أن ينبّهه على أنه قد عَرَف أنه كان يَقَع فيه، وينحرف عنه، وإنما أراد تعريفه ذلك لِما رآه من المَصلحةِ، إمّا لظنّه أنه يُقلع عمّا كان يذمّه به، أو ليُعلمَه بتعريفه أنه قد عَرَف ذلك، أو ليخوّفه ويزجُرَه، أو لغير ذلك.



الأصْلُ:

بَقِيَّةُ السَّيْفِ أَنْمَىٰ عَدَداً، وَأَكْثَرُ وَلَداً.

الشّرْحُ:

قال شيخنا أبو عثمان: ليته لما ذَكَر الحُكم ذكر العِلّة[1]!

---

١. بقية السيف هم الذين يبقون بعد الذين قتلوا في حفظ شرفهم ودفع الضيم عنهم وفضّلوا الموت على الذل، فيكون الباقي شرفاء نجباء، وعدهم أبقىٰ، وولدهم أكثر بخلاف الأذلاء، فإن مصيرهم إلىٰ المحو والفناء. «شرح محمد عبده».

ولعله ﷺ لم يرد التعميم، وانما خصّ بهذا الكلام ولده وذريّته ﷺ الذين حاول الظالمون استئصالهم ومحو ذكرهم، فلم يزدادوا إلّا نماء وكثرة، وذكراً في الخالدين، واعداؤهم إلّا هباءً وبدداً حتىٰ لا يبقىٰ منهم باقية تذكر، وخير مثال علىٰ ذلك، الإمام علي بن الحسين زين العابدين ﷺ، الوحيد الذي نجىٰ من القتل يوم كربلاء، فإنه خلق من صلبه ذريةً مباركة كثيرة تنتشر في كل مكان، تنوف عن ذرية أكثر الناس، وقيل: حتىٰ لو بقي المقتولون من أهلِه ﷺ لما وَفوا في النسل بنسل هذا الواحد. وهذه سنة الله تعالىٰ في خلقه، أنّ من قتل مظلوماً، وقتلت ذريته، ثمّ يبقىٰ واحدٌ منهم، فإنه يبارك له في نسله. ويكونون أنهىٰ عدداً وأكثر ولداً.



الأَصْلُ :

مَنْ تَرَكَ قَوْلَ «لَا أَدْرِي» أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ[١].

الشَّرْحُ :

وكان يقول : قولُ «لا أَعْلَمُ» نِصفُ العِلم . وقال بعضُ الفُضَلاء : إذا قال لنا إنسانٌ : (لا أدرِي) عَلَّمناه حتى يَدري ، وإن قال : أدري ، امتحنّاه حتى لا يدري .



الأَصْلُ :

رَأْيُ الشَّيْخِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَلَدِ ٱلْغُلَامِ .
ويُرْوَى «مِنْ مَشْهَدِ ٱلْغُـلَامِ»[٢] .

الشَّرْحُ :

إنما قال كذلك ؛ لأنّ الشيخ كثيرُ التَّجربة ، فيبلغ من العَدُوّ برأيه ما لا يبلُغ بشجاعته الغلام الحَدَث غير المجرِّب ؛ لأنّه قد يغرِّر بنفسِه فيَهلك ويُهلِك أصحابَه ، ولا رَيبَ أنّ الرأي مقدَّم على الشجاعة .

---

١. مقاتله : مواضع قتله ؛ لأنّ من قال ما لا يعلم عُرِف بالجهل ، ومن عرفه الناس بالجهل مقتوه ، فحرم خيره كلّه فهلك .

٢. جَلَد الغلام ، أي صبره على القتال . مشهد الغلام : إيقاعه بالأعداء .



الأصْلُ:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْنَطُ وَمَعَهُ ٱلِاسْتِغْفَارُ[١].

الشّرْحُ:

قالوا: الاستغفار حَوارسُ الذّنوب.

وقال بعضهم: العبدُ بين ذَنْب ونِعْمة لا يُصْلِحهما إلّا الشكر والاستغفار.



الأصْلُ:

وحكى عنه أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام أنّه كان عليه السلام قال:

كَانَ فِي ٱلْأَرْض أَمَانَانِ مِنْ عَذَابِ ٱللهِ، وَقَدْ رُفِعَ أَحَدُهُمَا. فَدُونَكُمُ ٱلْآخَرَ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، أَمَّا ٱلْأَمَانُ الَّذِي رُفِعَ فَهُوَ رَسُولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله، وَأَمَّا ٱلْأَمَانُ ٱلْبَاقِي فَالْاسْتِغْفَارُ. قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٢].

قال الرضيّ رحمه الله: وهذا من محاسن الاستخراج ولطائف الاستنباط.

الشّرْحُ:

قال قومٌ من المفسّرين: قوله: ﴿وهم يستغْفِرُونَ﴾، في موضع الحال، والمرادُ نفي الاستغفار عنهم، أي لو كانوا ممّن يستغفرون لما عذّبهم. وهذا مثلُ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى

---

١. القنوط: اليأس.

٢. سورة الأنفال ٣٣. إنّ ضمير الغائبين في (ليعذّبهم) يعود إلىٰ أهل مكة.

بظلم وأهلُها مُصلحون﴾[١]: فكأنه قال: لكنهم لا يَستغفرون فلا انتفَاء للعذاب عنهم.

وقال قوم: معناه، وما كان الله معذِّبهم وفيهم مَنْ يستغفر، وهم المسلمون بين أظـهرهم ممن تخلّف عن رسول الله ﷺ من المستضعفين.



الأصْلُ:

مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱللهِ أَصْلَحَ ٱللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاس. وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْـرَ آخِـرَتِهِ أَصْلَحَ ٱللهُ لَهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ. وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ ٱللهِ حَافِظٌ.

الشّرْحُ:

مِثلُ الكلمة الأُولى قولُهم: رِضا المَخلوقِين عُنوانُ رِضا الخالق.

ومِثلُ الكلمة الثانية دُعاءُ بعضهم في قوله:

أنا شاكرٌ أنـا مـادحٌ أنـا حـامِدٌ أنا خـائفٌ أنـا جـائعٌ أنـا عـارِ

هي ستّةٌ وأنـا الضّـمِينُ بـنِصْفها فكُنِ الضمينَ بنِصْفها يـا بـارِي

ومِثلُ الكلمة الثالثة قولُه تعالى: **﴿إنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾**[٢].



الأصْلُ:

ٱلْفَقِيهُ كُلُّ ٱلْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ ٱللهِ، وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ، وَلَمْ

---

١. سورة هود ١١٧.

٢. سورة النحل ١٢٨.

يُؤْمِنُهُمْ مِنْ مَكْرِ ٱللهِ[1].

الشّرْحُ :

قَلَّ موضعٌ من الكتاب العزيز يَذكُر فيه الوعيد إلّا ويَمزُجه بالوعد، مِثل أن يقول: ﴿**لَشَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ ثم يقول: ﴿**وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾، والحكمة تَقتضِي هذا ليكون المكلَّف متردِّداً بين الرّغبة والرّهبة.

ويقولون في الأمثال المرموزة: لَقِيَ موسَى وهو ضَاحكٌ مستبشرٌ عيسَى وهو كالحٌ قاطِب، فقال عيسى: مالَك كأنّكَ آمِنٌ من عذاب الله؟ فقال موسى ﷺ: مالَكَ كأنّك آيسٌ من رَوْح الله! فأوحَى الله إليهما: موسى أحبُّكما إليّ شِعاراً، فإنّي عِنْدَ حُسْن ظَنِّ عبدي بي.

واعلم أنّ أصحابَنا وإن قالوا بالوعيد؛ فإنّهم لا يؤيسون أحداً ولا يقنِّطونه من رحمة الله، وإنما يَحُثّونه على التوبة، ويخوِّفونه إن ماتَ من غير توبة.



الأصْلُ :

أَوْضَعُ ٱلْعِلْمِ مَا وَقَفَ عَلَىٰ اللِّسَانِ، وَأَرْفَعُهُ مَا ظَهَرَ فِي ٱلْجَوَارِحِ وَٱلْأَرْكَانِ.

الشّرْحُ :

هذا حقّ؛ لأنّ العالِمَ إذا لم يَظهَر من عِلمِه إلّا لَقْلَقَةُ لسانِه من غيرِ أن تَظْهرَ منه العبادات، كان عالماً ناقصاً، فأمّا إذا كان يُفيدُ الناسَ بألفاظِه ومنطقِه، ثمّ يشاهِدُهُ النّاسُ على قَدَم عظيمةٍ من العبادةِ، فإنَّ النفعَ يكون به عامّاً تامّاً، وذلك لأنّ الناس يقولون: لو لم يكن يَعتقِدُ حقيقةَ ما يقوله، لما أدْأَبَ نَفسَه هذا الدَّأَب.

وأمّا الأوّل فيقولون فيه: كُلّ ما يقوله نفاق وباطل؛ لأنّه لو كان يعتقد حقيقةَ ما يقول لأخَذَ به، ولظَهرَ ذلك في حَرَكاته، فيَقْتَدون بفِعله لا بقَوْله، فلا يَشتغِل أحدٌ منهم بالعبادة ولا يهتمّ بها.

---

١. القنوط: اليأس، وقنّطه: يأّسه. رَوْح الله: لطفه ورأفته. مكر الله: أخذ العبد بالعقاب من حيث لا يشعر.



الأصْلُ :

إِنَّ هٰذِهِ ٱلْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ ٱلْأَبْدَانُ، فَٱبْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ ٱلْحِكَمِ[1].

الشّرْحُ :

لو قال: إنّها تَمَلّ كما تَمَلّ الأبدان، فأحمِضُوا، كما نقل عن غيره؛ لحُمِل ذلك على أنّه أراد نَقلَها إلى الفُكاهات والأخبار والأشعار، ولكنّه لم يقل ذلك، ولكن قال: «فابْتَغوا لها طرائفَ الحِكمة»، فوَجَب أن يُحمَل كلامُه ﷺ على أنّه أراد أنّ القُلوبَ تَمَلّ من الأنظار العقليّة في البراهين الكلاميّة على التوحيد والعدل، فابتغوا لها عندَ مَلالِها طرائفَ الحِكمة، أي الأمثال الحِكَمِية الراجعة إلى الحِكمة الخلقية، كما نحن ذاكرُوه في كثيرٍ من فصولِ هذا الباب، مِثل مدح الصبر، والشجاعة، والزهد، والعِفّة، وذمّ الغضب، والشهوة، والهوى، وما يَرجع إليه سياسة الإنسان نفسه، وولده، ومنزله، وصديقه، وسلطانه، ونحو ذلك؛ فإنّ هذا عِلْمٌ آخَر وفَنّ آخر، لا تَحتاجُ القلوب فيهِ إلى فِكْر واستنباط، فتَتعب وتكِلّ بترادُف النّظر والتأمّل عليها، وفيه أيضاً لذّةٌ عظيمةٌ للنّفس. وقد جاء في إجمامِ النّفس كثيرٌ. قال بعضهم: رَوِّحوا القلوب برَواتِع الذّكر.



الأصْلُ :

لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: «ٱللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ ٱلْفِتْنَةِ»؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ، وَلٰكِنْ مَنِ ٱسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلَّاتِ ٱلْفِتَنِ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ:

---

١. طرائف الحكم: قيل هي، لطائفها وغرائبها المعجبة للنفس اللّذيذة لها، وذلك ليكون أبداً في اكتساب الحكمة بنشاط. وسيأتي مثل هذا مكرراً في الحكمة رقم (١٩٣).

﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، وَمَعْنَىٰ ذٰلِكَ أَنَّهُ يَخْتَبِرُ عِبادَهُ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِهِ، وَالرَّاضِيَ بِقِسْمِهِ، وإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلٰكِنْ لِتَظْهَرَ ٱلْأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَٱلْعِقَابُ؛ لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ الذُّكُورَ وَيَكْرَهُ ٱلْإِنَاثَ، وَبَعْضَهُمْ يُحِبُّ تَثْمِيرَ ٱلْمَالِ، وَيَكْرَهُ ٱنْثِلَامَ ٱلْحَالِ.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وهذا من غريب ما سمع منه ﷺ في التفسير.

الشّرْحُ:

الفتنة لفظٌ مشتَرك؛ فتارةً تُطلَق على الجائحة والبليّة تصيبُ الإنسان، تقول: قد افتُتِن زيد وفُتِن فهو مفتون إذا أصابتْه مُصيبة فذَهَب مالُه أو عقلُه، أو نحوُ ذلك، قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾**[1] يَعني الّذين عذَّبوهم بمكّة ليرتدّوا عن الإسلام، وتارةً تُطلَق على الاختبار والامتِحان، يقال: فتنتُ الذهبَ إذا أدخلتَه النار لتَنظرَ ما جَوْدَته، وَدينارٌ مَفْتون، وتارةً تُطلَق على الإحراق، قال تعالى: **﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾**[2] ووَرِق مَفْتون، أي فِضّة مُحرَقة، ويقال للحَرَّة: فَتِين كأنّ حِجارتَها مُحرَقة، وتارةً تُطلَق على الضّلال، يقال رجلٌ فاتن ومُفتن، أي مُضِلّ عن الحَقّ جاء ثُلاثيّاً ورُباعيّاً، قال تعالى: **﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾**[3] أي بمضلّين، وقرأ قومٌ «مفتنين»، فمن قال: إنّي أعوذُ بك من الفِتْنة، وأرادَ الجائحة، أو الإحراق أو الضلال، فلا بأس بذلك، وإنْ أراد الاختبار والامتحانَ فغيرُ جائز؛ لأنّ الله تعالى أعلمُ بالمَصلَحة، وله أن يَختبِر عبادَه لا ليَعلَمَ حالَهم، بل ليَعلَم بعضُ عبادِه حالَ بعض، وعندي أنّ أصلَ اللّفظة هو الاختبار والامتحان، وأنّ الاعتبارات الأُخرىٰ راجعة إليها، وإذا تأمَّلْتَ علمتَ صحّةَ ما ذكرناه.

---

١. سورة البروج ١٠.

٢. سورة الذاريات ١٣.

٣. سورة الصافات ١٦٢، ١٦٣.



الأَصْلُ :

وسُئل عن الخير ما هو؟

فقال: لَيْسَ ٱلْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مَالُكَ وَوَلَدُكَ، وَلٰكِنَّ ٱلْخَيْرَ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ، وَأَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ ، وَأَنْ تُبَاهِيَ النَّاسَ بِعِبَادَةِ رَبِّكَ؛ فَإِنْ أَحْسَنْتَ حَمِدْتَ ٱللهَ، وَإِنْ أَسَأْتَ ٱسْتَغْفَرْتَ ٱللهَ .وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِرَجُلَيْنِ: رَجُلٍ أَذنَبَ ذُنُوباً فَهُوَ يَتَدَارَكُهَا بِالتَّوْبَةِ، وَرَجُلٍ يُسَارِعُ فِي ٱلْخَيْرَاتِ؛ ولَا يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوىٰ، وَكَيْفَ يَقِلُّ مَا يُقبَلُ!

الشّرْحُ :

قد قال الشاعر لهذا المعنى :

ليس السّعيدُ الذي دُنياه تُسعِدُه ... بل السعيد الذي ينجُو من النارِ

قوله ﷺ: «ولا يَقِلّ عملٌ مع التقوى»، أي مع اجتناب الكبائر؛ لأنّه لو كان مُوقِعاً لكبيرة لما تُقبّل منه عملٌ أصلاً على قول أصحابنا، فوجب أن يكون المراد بالتقوى اجتنابَ الكبائر؛ فأمّا مذهبُ المرجِئة فإنهم يحملون التّقوى هاهنا على الإسلام؛ لأنّ المسلم عندهم تتقبَّل أعماله، وإن كان مُواقعاً للكبائر.

فإن قلت: فهل يجوز حملُ لفظة «التقوى» على حقيقتها، وهي الخوف ؟

قلت: لا. أما على مَذهبنا فلان من يخافُ الله ويواقع الكبائرَ لا تتقبل أعمالُه، وأمّا مذهب المرجئة فلأنّ من يخاف الله مِن مخالِفِي مِلّة الإسلام لا تتقبل أعمالُه. فثبت أنه لا يجوز حملُ التقوى هاهنا على الخوف.

فإن قلت: مَنْ هو مخالفٌ لمِلة الإسلام لا يخافُ الله لأنّه لا يعرفه ؟

قلت: لا نسلّم، بل يجوز أن يعرف الله بذاته وصِفاته، كما نعرفه نحن، ويجحد النبوّة لشُبْهة وقعت له فيها، فلا يلزم من جَحْد النبوة عدمُ معرفة الله تعالى.



الأصْلُ :

إنَّ أَوْلَىٰ النَّاس بِالأنبِيَاءِ أَعْلَمُهُمْ بِمَا جَاؤُوا بِهِ ، ثُمَّ تَلَاﷺ : ﴿إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الآية .

ثُمَّ قَالَ: إنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنْ أَطَاعَ آللهَ وإنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ ، وَإِنَّ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ مَنْ عَصَىٰ آللهَ وَإنْ قَرُبَتْ قَرَابَتُهُ .

الشّرْحُ :

هكذا الرواية «أعلمهم» ، والصحيح «أعملهم» ؛ لأنّ استدلاله بالآية يقتضي ذلك ، وكذا قوله فيما بعدُ . «إنّ وَلِيَّ محمد من أطاع الله ...» إلى آخر الفصل ، فلم يذكر العلم ، وإنما ذكر العمل . واللُّحْمة بالضم : النسب والقرابة ، وهذا مثلُ الحديث المرفوع : «ائتوني بأعمالكم ، ولا تأتوني بأنسابكم ، إنّ أكرمَكم عند الله أتقاكم» .

وقال رجل لجعفر بن محمّدﷺ : أرأيت قولهﷺ : «إن فاطمةَ أحصنتْ فرجها فحرَّم اللهُ ذرّيتها على النار» ، أليس هذا أماناً لكلّ فاطمي في الدنيا؟ فقال : إنك لأحمق ، إنما أراد حسناً وحسَيناً ؛ لأنهما من لحمة أهل البيت ، فأما مَن عداهما فمنْ قَعد به عملُه لم يَنهَضْ به نَسَبُه .



الأصْلُ :

وسمعﷺ رجلاً[1] من الحرورية يتهجد ويقرأ ، فقال :

١ . قيل: إنّ هذا الرجل هو (عروة بن أُذينه) ، وكان مبغضاً لعليﷺ ، إلّا أنه كان متعبّداً ، وهو أوّل من سلّ من الخوارج السيف . قبض عليه معاوية أيام ملكه ، وقتله . معارج النهج ، للبيهقي : ص ٨١٢ .

نَوْمٌ عَلَىٰ يَقِينٍ، خَيْرٌ مِنْ صَلَاةٍ فِي شَكٍّ.

الشّرْحُ:

هذا نهيٌ عن التعرّض للعبادة مع الجَهل بالمعْبود، كما يصنع اليوم كثيرٌ من الناس، ويظنون أنّهم خير الناس، والعقلاء الألبّاء من الناس يضحكون منهم، ويستهزئون بهم، والحَروريّة: الخوارج، وقد سبَق القول فيهم. وفي نِسبتهم إلى حرَوراء[1].

يقولﷺ: تَرْكُ التنفُّل بالعبادات مع سلامة العقيدة الأصلية، خيرٌ من الاشتغال بالنوافل وأورادِ الصّلاة مع عدم العلم؛ وهو المعنيُّ بقوله: «في شَكّ»، فإذا كان عدمُ التنفل خيراً من التنفّل مع الشكّ فهو مع الجهل المحض وهو الاعتقاد الفاسِد أوْلى بأنْ يكون.



٩٤

الأصْلُ:

اعْقِلُوا الْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ؛ لَا عَقْلَ رِوَايَةٍ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ.

الشّرْحُ:

نهاهمﷺ عن أن يقتصروا إذا سمِعوا منه أو من غيره أطرافاً من العِلْم والحكمة، على أن يَرووا ذلك رواية كما يفعله اليومَ المحدثون، وكما يقرأ أكثرُ الناس القرآن دراسةً ولا يَدْرِي من معانيه إلّا اليسير. وأمرَهم أن يعقِلوا ما يَسمَعُونه عقلَ رِعاية أي مَعرفة وفَهْم. ثم قال لهم: «إنّ رُواة العلم كثير، ورُعاته قليل»، أي من يُراعِيه ويتدبّره؛ وصَدَقﷺ!

---

١. حروراء: قرية بالنهروان، نزل بها الخوارج الذين خالفوا أمير المؤمنينﷺ؛ وبها كان أول تحكيمهم واجتماعهم حين خالفوه، وهناك ناظَرَهم الإمامﷺ، فرجع منهم ألفان.



الأصْلُ :

وَقَالَ﵇ وَقَدْ سمع رجلاً يقول: ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

إِنَّ قَوْلَنَا: «إِنَّا للهِ» إِقْرَارٌ عَلَىٰ أَنْفُسِنَا بِالْمُلْكِ، وقولَنَا: «وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» إِقْرَارٌ عَلَىٰ أَنْفُسِنَا بِالْهُلْكِ.

الشَّرْحُ :

قوله: ﴿إِنَّا للهِ﴾ اعترافٌ بأنّا مملوكون لله وعبيدٌ له؛ لأنّ هذه اللامَ لامُ التمليك، كما تقول: الدارُ لِزَيد؛ فأمّا قولُه: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1]؛ فهو إقرار واعترافٌ بالنّشور والقيامة؛ لأنّ هذا هو معنى الرّجوع إليه سبحانه، واقتَنَع أميرُ المؤمنين عن التصريح بذلك، فذَكَر الهُلْك، فقال: إنّه إقرارٌ على أنفُسنا بالهُلْك؛ لأنّ هُلْكنا مُفضٍ إلى رجوعِنا يومَ القيامة إليه سبحانه، فعبّر بمقدّمة الشيء عن الشيء نفسه، كما يقال: الفقرُ المَوْت، والحمَّى الموت، ونحو ذلك.

ويُمكِن أن يفسّر ذلك على قول مُثبِتي النّفس الناطِقة بتفسيرِ آخر فيقال: إنّ النفس ما دامت في أسْرِ تدابير البَدَن فهي بمَعزِل عن مبادئها؛ لأنّها مشتغِلةٌ مستغرِقة بغير ذلك، فإذا مات البَدَن رجعت النفسُ إلى مَبادِئها، فقوله: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إقرارٌ بما لا يصحّ الرجوع بهذا التفسير إلّا معَه، وهو الموت المعبّر عنه بالهُلْك.



الأصْلُ :

وقال﵇ و [قد] مدحه قوم في وجهه:

اَللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي، وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ. اَللَّهُمَّ اجْعَلْنِي خَيْراً مِمَّا

---

١. سورة البقرة ١٥٦.

يَظُنُّونَ، وَٱغْفِرْ لِي مَا لَايَعْلَمُونَ!

الشّرْحُ :

قد تقدّم القولُ في كراهِيَة مَدْحِ الإنسان في وجهه. وفي الحديثِ المرفوعِ: «إذا مدحْتَ أخاك في وجهِه، فكأنّما أمرَرْتَ على حَلْقِه مُوسَى وَمِيضه». وقال أيضاً لرجلٍ مَدَح رجلاً في وجهه: «عَقَرْتَ الرجلَ عَقَرك الله !». وقال أيضاً: «لو مَشَى رجلٌ إلى رجل بسَيْف مرهَفٍ كان خيراً له من أن يُثنِيَ عليه في وجهه».



الأصْلُ :

وقال عليه السلام:

لَا يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ ٱلْحَوَائِجِ إِلَّا بِثَلَاثٍ: بِاسْتِصْغَارِهَا لِتَعْظُمَ، وَبِاسْتِكْتَامِهَا لِتَظْهَرَ، وَبِتَعْجِيلِهَا لِتَهْنُؤَ.

الشّرْحُ :

قد تَقدَّم لنا قَوْلٌ مستقصىً في هذا النحو، وفي الحوائج وقضائِها واستنجاحِها.

قد جاء في الحديث المرفوع: «استعِينوا على حاجاتكم بالكِتمان، فإنّ كلّ ذي نِعْمة محسود». وكان يقال: لكلّ شيء أسٌّ، وأُسُّ الحاجة تعجيلٌ أروَحُ من التأخير.

وقال رجلٌ لمحمّد بن الحنفيّة: جئتُك في حُوَيْجة، قال: فاطلب لها رُجَيْلاً!

وكان يقال: من استَعظَم حاجَة أخِيه إليه بعد قضائها امتناناً بها فقد استَصْغَر نفسَه.



الأصْلُ :

يَأتِي عَلَىٰ النَّاس زَمَانٌ لَا يُقَرَّبُ فِيهِ إِلَّا ٱلْمَاحِلُ، وَلَا يُظَرَّفُ فِيهِ إِلَّا ٱلْفَاجِرُ، وَلَا يُضَعَّفُ فِيهِ إِلَّا ٱلْمُنْصِفُ؛ يَعُدُّونَ الصَّدَقَةَ فِيهِ غُرْماً، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنّاً، وَٱلْعِبَادَةَ ٱسْتِطَالَةً عَلَىٰ النَّاس! فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَكُونُ السُّلْطَانُ بِمَشُورَةِ الإماء، وَإِمَارَةِ الصِّبْيَانِ، وَتَدْبِيرِ ٱلْخِصْيَانِ.

الشَّرْحُ :

المَحْل: المكر والكَيْد؛ يقال مَحَل به إذا سَعَى به إلى السلطان، فهو ماحِلٌ ومَحُول؛ والمُماحَلة المماكَرة والمكايدة. قوله: «وَلَا يُظَرَّف فيه إلَّا الفاجر»، لا يَعُدّ الناسُ الإنسانَ ظريفاً إلّا إذا كان خليعاً ماجناً متظاهراً بالفِسق. وقولُه: «ولا يضعَّف فيه إلّا المنصِف»، أي إذا رأوا إنساناً عنده وَرَع وإنصاف في معاملتِهِ الناسَ عدوُّه ضعيفاً، ونَسَبوه إلى الرِّكّة والرَّخاوة، وليس الشَّهم عندهم إلّا الظالم.

ثم قال: «يعُدّون الصدقة غُرْماً»، أي خسارة، ويَمُنُّون إذا وَصَلوا الرَّحِم وإذا كانوا ذوي عِبادة استطالوا بها على الناس وتبجّحوا بها، وأعجبتهم أنفسهم، واحتقروا غيرهم.

قال: فعند ذلك يكون السلطان والحُكم بين الرعايا بمشورة الإماء... إلى آخر الفصل، وهو من باب الإخبار عن الغيوب وهي إحدى آياته، والمُعجِزات المختصّ بها دون الصّحابة.



الأصْلُ :

وقال عليه السلام:

وقدْ رُئي عليه إزار خَلَقٌ مرقوع، فقيل له في ذلك، فقال:

يَخْشَعُ لَهُ ٱلْقَلْبُ، وَتَذِلُّ بِهِ النَّفْسُ، وَيَقْتَدِي بِهِ ٱلْمُؤْمِنُونَ.

الشّرْحُ :

قد تقدم القولُ في هذا الباب، وذكَرْنا أنّ الحكماء والعارفين فيه على قسمين: منهم من آثر لبسَ الأدْنى على الأعلى، ومنهم من عكس الحال، وكان عمرُ بنُ الخطاب من أصحاب المذهب الأوّل، وكذلك أميرُ المؤمنين، وهو شِعار عيسى بن مريمَ عليه السلام، كان يلبسُ الصوف وغليظ الثياب، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يلبس النَّوعين جميعاً، وأكثر لُبسِه كان الجيّد من الثياب مِثل أبراد اليمن، وما شاكل ذلك، وكانت مِلحفتُه مورَّسَةً حتى إنها لترتدع على جِلده كما جاء في الحديث. ورُئيَ محمّد بن الحنفية عليه السلام واقفاً بعرفات على بِرذون أصفر، وعليه مُطْرَف خزٍّ أصْفر. وجاء فَرْقَد السَّبَخِيّ إلى الحسن[1] وعلى الحسَن مُطرف خَزٍّ، فجعل يَنظُر إليه وعلى فَرْقد ثيابُ صوف، فقال الحسن: ما بالُك تنظُر إليّ وعليّ ثيابُ أهلِ الجنّة، وعليك ثيابُ أهلِ النار! إن أحَدكم ليَجْعل الزهد في ثيابه والكِبْرَ في صَدْره، فلَهُو أشدُّ عجباً بصوفه من صاحِبِ المُطرَف.

وقال ابن السمَّاك لأصحاب الصّوف: إن كان لباسُكم هذا مُوافِقاً لسرائِركم فلقد أحببتم أن يطّلع الناسُ عليها، ولئن كان مخالفاً لها لقد هَلَكتم.



الأصْلُ :

إِنَّ الدُّنْيَا وَٱلآخِرَةَ عَدُوَّانِ مُتَفَاوِتَانِ، وَسَبِيلَانِ مُخْتَلِفَانِ؛ فَمَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَتَوَلَّاهَا أَبْغَضَ ٱلآخِرَةَ وَعَادَاهَا، وَهُمَا بِمَنْزِلَةِ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ، وَمَاشٍ بَيْنَهُمَا كُلَّمَا قَرُبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ ٱلآخَرِ، وَهُمَا بَعْدُ ضَرَّتَانِ.

---

١. يعني به الحسن البصري.

الشّرْحُ:

هذا الفصل بَيّنٌ في نفسِه لا يَحتاج إلى شَرْح، وذلك لأنّ عَمَل كلّ واحدة من الدارين مُضادٌّ لِعَمل الأُخرىٰ، فعَمَل هذا: الاكتساب، والاضطراب في الرزق، والاهتمام بأمر المعاش، والولد والزوجة، وما ناسَبَ ذلك. وعمل هذه: قَطْعُ العلائق، ورفض الشهوات، والانتصاب للعبادة، وصَرْف الوجه عن كلّ ما يصدّ عن ذِكرِ الله تعالى؛ ومعلومٌ أنّ هذين العَمَلين متضادّان، فلا جَرَم كانت الدّنيا والآخرة ضرّتين لا يجتمعان!



الأصْلُ:

وعن نوف البكّائي ـ وَقِيلَ البَكالِيّ باللّام؛ وَهُوَ الأصَح ـ قَالَ:

رأيت أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة، وقد خرج من فراشه، فنظر إلى النجوم، فقال لي: يَا نَوفُ، أرَاقِدٌ أنْتَ أمْ رامِقٌ؟ فقلت: بل رامِقٌ يا أميرَ المُؤمِنِينَ؛ قال: يَا نَوْفُ، طُوبىٰ لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا، الرَّاغِبِينَ فِي ٱلآخِرَةِ، أُولَـئِكَ قَوْمٌ ٱتَّخَذُوا ٱلْأَرْضَ بِسَاطاً، وَتُرَابَهَا فِرَاشاً، وَمَاءَهَا طِيباً، وَٱلْقُرْآنَ شِعَاراً، وَالدُّعَاءَ دِثَاراً، ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضاً عَلَىٰ مِنْهَاجِ ٱلْمَسِيحِ. يَانَوْفُ، إِنَّ دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ فِي مِثْلِ هٰذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: إِنَّهَا لَسَاعَةٌ لَا يَدْعُو فِيهَا عَبْدٌ إِلَّا ٱسْتُجِيبَ لَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَشَّاراً، أَوْ عَرِيفاً، أَوْ شُرْطِيّاً، أَوْ صَاحِبَ عَرْطَبَةٍ ـ وَهِيَ الطُّنْبُورُ ـ أَوْ صَاحِبَ كَوْبَةٍ، وَهِيَ الطَّبْلُ.

وَقَدْ قِيلَ أيضاً: إنَّ العَرْطَبَةَ الطَّبْلُ، والكَوْبَةَ الطُّنْبُورُ[١].

---

١. العشّار: من يتولّى أخذ أعشار الأموال، وهو المكّاس. العريف: من يتجسس علىٰ أحوال الناس وأسرارهم ⇐

الشّرْحُ :

قال صاحبُ الصّحاح : نَوْفُ البَكاليّ كان صاحبَ عليّ ﷺ . وقال ثعلب : هـو مـنسوبٌ إلى قبيلة تُدعَى بَكالة ، ولم يذكر من أيّ العرب هي ، والظاهر أنّها من اليَمَن .

قوله : أم رامق ، أي أم مستيقِظٌ تَرمُق السماءَ والنجومَ ببَصَرِك .

قوله : قَرَضوا الدّنيا ، أي تَرَكوها وخَلّفوها وراءَ ظهورِهم ، قـال تـعالى : ﴿**وَإِذَا غَـرَبَت تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمالِ**﴾[١] أي تترُكهُم وتَخلفُهم شمالاً ، ويقول الرجل لصاحبه : هل مَررتَ بمكانِ كذا ، يقول : نَعَم قَرَضْته ليلاً ذاتَ اليَمين .



الأصْلُ :

إِنَّ ٱللهَ ٱفْتَرَضَ عَلَيْكُمُ فَرَائِضَ ، فَـلَا تُضَيِّعُوهَا ؛ وَحَدَّ لَكُمْ حُدُوداً ، فَـلَا تَـعْتَدُوهَا ؛ وَنَهَاكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ ، فَـلَا تَنْتَهِكُوهَا ؛ وَسَكَتَ لَكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ وَلَمْ يَدَعْهَا نِسْيَاناً ، فَـلَا تَتَكَلَّفُوهَا[٢] .

الشّرْحُ :

قال الله تعالى : ﴿**لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾[٣] . وجاء في الأثر : أبهِموا ما

⇐ ليكشفها لأميره . الشرطي : الذي يعاون الحاكم في ظلمه وينفّذ أمره . والعَرطَبَة : الطنبورُ بلغة الروم . الكـوبة : الطبل الصغير المخصّر ، غنى بهما صاحب الملاهي .

١ . سورة الكهف ١٧ .

٢ . قوله ﷺ : «وسكت لكم عن أشياء ...» ، هذا ردّ علىٰ المجادلين الذين يكلّفون أنفسهم معرفة ما لم يكـلّفهم الله تعالىٰ به . وأراد بالسكوت أنّه لم يذكر ولم يأمر بالبحث عنه . فلا تتكلّفوها ، أي لا تطلبوا حكـمها وحـقيقتها . معارج النهج للبيهقي ص٨١٣ .

٣ . سورة المائدة ١٠١ .

أبهَم الله. وقال بعضُ الصالحين لبعض الفقهاء: لِمَ تفرض مسائل لَمْ تَقَع وأتعبت فيها فكرَك! حَسْبُك بالمتداوَل بين الناس.

قالوا: هذا مِثلُ قولِهم في باب المَسْح على الخُفَّين: فإنْ مَسَح على خفّ من زُجاج؛ ونحو ذلك من النّوادر الغريبة.



الأصْلُ:

لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لِاسْتِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضَرُّ مِنْهُ.

الشّرْحُ:

مثالُ ذلك إنسان يضيِّع وقتَ صلاةِ الفريضة عليه، وهو مشتغِل بمحاسَبةِ وَكيله ومخافتِه على مالِه، خوفاً أن يكون خانَه في شيء منه، فهو يَحرِص على مناقَشتِه عليه، فتفوته الصّلاة. قال: مَن فَعَلَ مِثلَ هذا فتَحَ الله عليه في أمرِ دُنياه ومالِه ما هو أضرّ عليه ممّا رام أن يَستدرِكَه بإهماله الفريضة.



الأصْلُ:

رُبَّ عَالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ، وَعِلْمُهُ مَعَهُ لَا يَنْفَعُهُ[1].

---

١. ذكر ابن أبي الحديد في شرحه، أن هذا الكلام جزء من خطبة خطبها الإمام في شأن طلحة والزبير لما ساروا

الشّرْحُ :

قد وَقع مِثلُ هذا كثيراً، كما جَرَى لعبد الله بن المقفَّع، وفضلُه مشهور، وحِكمتُه أشهر من أن تذكر.



الأصْلُ :

لَقَدْ عُلِّقَ بِنِيَاطِ هٰذَا ٱلْإِنْسَانِ بَضْعَةٌ هِيَ أَعْجَبُ مَا فِيهِ؛ وَهُوَ ٱلْقَلْبُ. وَ ذٰلِكَ أَنَّ لَهُ مَوَادَّ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَأَضْدَاداً مِنْ خِلَافِهَا؛ فَإِنْ سَنَحَ لَهُ الرَّجَاءُ أَذَلَّهُ الطَّمَعُ، وَإِنْ هَاجَ بِهِ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ ٱلْحِرْصُ، وَإِنْ مَلَكَهُ ٱلْيَأْسُ قَتَلَهُ ٱلْأَسَفُ، وإِنْ عَرَضَ لَهُ ٱلْغَضَبُ ٱشْتَدَّ بِهِ ٱلْغَيْظُ، وَإِنْ أَسْعَدَهُ الرِّضا نَسِيَ التَّحَفُّظَ، وَإِنْ غَالَهُ ٱلْخَوْفُ شَغَلَهُ ٱلْحَذَرُ، وَإِنِ اتَّسَعَ لَهُ ٱلْأَمْنُ ٱسْتَلَبَتْهُ ٱلْغِرَّةُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَهُ ٱلْجَزَعُ، وَإِنْ أَفَادَ مَالاً أَطْغَاهُ ٱلْغِنَىٰ، وَإِنْ عَضَّتْهُ ٱلْفَاقَةُ شَغَلَهُ ٱلْبَلَاءُ، وَإِنْ جَهَدَهُ ٱلْجُوعُ قَعَدَت بِهِ الضَّعَةُ، وَإِنْ أَفْرَطَ بِهِ الشِّبَعُ كَظَّتْهُ ٱلْبِطْنَةُ فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ، وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ مُفْسِدٌ.

الشّرْحُ :

رُوِي: «قَعَد به الضّعف». والنِّياط: عِرْق عُلّق به القلب من الوَتين، فإذا قُطِع ماتَ صاحبُه، ويقال له: النّيط أيضاً. والبَضْعَة بفتح الباء: القِطْعة من اللّحم، والمراد بها هاهنا القلب؛ قال:

↩ من مكّة ومعهما عائشة يريدون البصرة بعد أنْ نكثا بيعتيهما، نقلاً عن أبي مخنف في كتابه (الجمل) ١:٢٣٣. وهنا فسّر ابن أبي الحديد القتل بالقتل الظاهري، فمثّل له بابن المقفّع لما كتب كتاب أمان لعبد الله بن علي، موجّه لابن أخيه المنصور، بأنه إن غدر المنصور بعمّه، فنساؤه طوالق، والناس في حلّ من بيعته، وعبيده أحرار، فاشتدّ ذلك على المنصور فأمر بقتله: ١٨:٢٦٩.

ولهذا العالم الجاهل عدة صور، منها: هو الذي يحفظ ولا يدري، أو يعلم ولا يعمل، أو يروي ولا بصيرة له، أو يعلم ما لا حاجة له إلىٰ علمه، وجهل ما يضرّه جهله، ومنها ما يبعث العلم الزهو والغرور في نفسه، ومنها أن يتخذ العلم جسراً لخدمة مصالحة الذاتية وخداع الناس.

يعتَوِر القلبَ حالاتٌ مختلفاتٌ متضادّات، فبعضُها من الحِكْمة، وبعضُها ـ وهو المضادّ لها ـ منافٍ للحكمة، ولم يذكرْهاﷺ، وليست الأُمورُ الّتي عدّدها شرحاً لِما قدّمه من هذا الكلام الُمجمَل، وإن ظَنّ قومٌ أنه أراد ذلك، ألا تَرَى أنّ الأُمورَ الّتي عدّدها ليس فيها شيءٌ من باب الحِكمة وخلافِها!

فإن قلت: فما مِثالُ الحِكمة وخلافها، وإن لم يذكرﷺ مثاله؟

قلت: كالشجاعة في القَلْب وضِدّها الجُبْن، وكالجُود وضدّه البُخْل، وكالعِفّة وضدّها الفُجُور، ونحو ذلك.

فأمّا الأُمور الّتي عدّدهاﷺ فكلامٌ مستأنَف، إنّما هو بيانُ أنّ كلّ شيء ممّا يتعلّق بالقلب يَلزَمه لازِمٌ آخر نحوُ الرجاء، فإنّ الإنسان إذا اشتدّ رجاؤه أذلّه الطمع، والطّمع يَتْبع الرّجاء، والفَرْق بين الطمع والرّجاء أنّ الرّجاء توقُّع منفَعَة ممّن سبيلُه أن تَصدُر تلك المَنفعَة عنه، والطمع توقُّعُ منفَعةٍ ممّن يُستبعَد وُقوعُ تلك المنفعة منه؛ ثم قال: وإن هاج به الطمع قَتَله الحِرْص، وذلك لأنّ الحرْص يَتْبع الطّمع، إذا لم يَعلَم الطامعُ أنّه طامع، وإنّما يَظُن أنّه راج.

ثم قال: وإن مَلَكه اليأس، قَتَله الأسَف، أكثرُ الناسِ إذا يَئِسوا أسِفوا.

ثم عدّد الأخلاقَ وغيرَها من الأُمور الواردة في الفَصْل إلى آخره، ثمّ خَتَمه بأن قال: «فكلُّ تقصيرٍ به مُضِرّ، وكلّ إفراطٍ له مفسِد»؛ وقد سَبَق كلامُنا في العدَالة، وإنّها الدّرجة الوسطى بينَ طَرَفين هما رَذِيلتان، والعَدالة هي الفضيلة، كالجُود الذي يكتنِفه التّبذير والإمساك، والذّكاء الّذي يَكتنِفه الغبَاوة. والجَرْبزة[1]، والشجاعة الّتي يَكتنِفها الهَوَج والجُبْن، وشَرَحْنا ما قالَه الحُكَماء في ذلك شرحاً كافياً، فلا مَعْنَى لإعادتِه.



الأَصْلُ:

نَحْنُ النُمْرُقَةُ الْوُسطَىٰ، بِهَا يَلْحَقُ التَّالِي، وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ الْغَالِي.

---

١. الجربزة: الخب والخديعة.

الشّرْحُ :

النُّـمرق والنّـمرُقة بالضم فيهما : وِسادةٌ صغيرةٌ، ويجوز النُّـمرِقة بـالكسر فـيهما ؛ ويـقال للطُّنْفسة فوقَ الرّحل نُمْرقة . والمعنى أنّ كلّ فضيلة فإنّها مجنّحة بـطَرَفَين مـعدُودَين مـن الرّذائل كما أوضحناه آنِفا، والمراد أنَّ آل محمد عليه وعليهم السلام هم الأمرُ المتوسّط بين الطّرفين المذمومين، فكلُّ مَن جاوَزَهم فالواجب أن يَرجِع إليهم، وكـلّ مـن قَـصّر عـنهم فالواجبُ أن يَلحَق بهم.

فإن قلت : فلمَ استعار لفظَ النّـمرقة لهذا المعنى ؟

قلت : لمّا كانوا يقولون : قد رَكِب فلانٌ من الأمر مُنكَراً وقد ارتَكَب الرأيَ الفلانيّ، وكانت الطِّنفِسة فوق الرّحل ممّا يُركَب، استعارَ لَفظَ النّـمرقة لما يراه الإنسانُ مَذهَباً يَرجِـع إليـه ويكون كالرّاكب له، والجالِس عـليه، والمـتورِّك فـوقَه . ويـجوز أيـضاً أن تكـون لفـظة «الوُسطَى» يراد بها الفُضْلى ؛ يقال : هذه هي الطـريقةُ الوُسْـطىٰ، والخَـليقةُ الوسـطى، أي الفضلى، ومنه قولُه تعالى : ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾[1]، أي أفـضلهُم، ومـنه : ﴿جَـعَلْنَاكُـمْ أُمَّـةً وَسَطاً﴾[2].



الأصْلُ :

لَا يُقِيمُ أَمْرَ ٱللهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا مَنْ لَا يُصَانِعُ، وَلَا يُضَارِعُ، وَلَا يَتَّبِـعُ ٱلْمَطَامِعَ .

الشّرْحُ :

المُصانَعة : بَذْل الرِّشْوة . وفي المَثَل : مَن صَانَع بالمال، لم يَحتشِم مِن طَلَب الحاجة .

فإن قلت : كان ينبغي أن يقول : «من لا يصانَع» بالفتح .

---

١. سورة القلم ٢٨.

٢. سورة البقرة ١٤٣.

قلتُ: المُفاعَلة تدلّ عَلَى كون الفعل بين الاثنين كالمُضارَبة والمُقاتَلة.

ويضارع: يتعرّض لطَلَب الحاجَة؛ ويجوز أن يكون من الضّراعة وهي الخُضوع، أي يخضعُ لزَيدٍ ليَخضَع زيدٌ له؛ ويجوز أن يكون من المضارَعة بمعنى المشابَهة، أي لا يتشبّه بأئمّة الحقّ أو وُلاة الحَقّ، وليس منهم. وأمّا اتّباع المَطامِع فمعروف.



١٠٨

الأصْلُ:

وقال ﷺ ـ وقد توفي سهل بن حُنَيْفٍ الأنصاري بالكوفة بعد مرجعه معه من صفين، وكان أحب الناس إليه ـ:

لَوْ أَحَبَّنِي جَبَلٌ لَتَهَافَتَ.

قال الرضي ﷺ:

ومعنى ذلك أن المحنة تغلظ عليه، فتسرع المصائب إليه، ولا يفعل ذلك إلّا بالأتقياء الأبرار والمصطفين الأخيار، وهذا مثل قوله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّنَا أَهْلَ ٱلْبَيْتِ فَلْيَسْتَعِدَّ لِلْفَقْرِ جِلْبَاباً»، وقد يؤول ذلك على معنى آخر ليس هذا موضع ذكره.

الشّرْحُ:

قد ثبت أنّ النبيّ ﷺ قال له: «لا يُحبّك إلّا مؤمن؛ ولَا يَبغَضكَ إلّا مُنافق». وقد ثَبَتَ أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ البَلوَى أسرَعُ إلى المؤمن من الماءِ إلى الحدُور». وفي حَديثٍ آخَرَ: «المؤمنُ مُلَقّىً، والكافرُ مُوَقّىً». وفي حديثٍ آخر: «خيرُكم عند الله أعظمُكم مصائبَ في نفسِه ومالِه وولدِه».

وهاتان المقدّمتان يَلزَمهما نتيجة صادقة، وهي أنه ﷺ لو أحبّه جبلٌ لتهافَت ولعلّ هذا

هو مرادُ الرضيّ بقوله: وقد يؤوّل ذلك على معنىً آخرَ ليس هذا موضع ذِكره[١].



الأصْلُ:

لَا مَالَ أَعْوَدُ مِنَ الْعَقْلِ، وَلَا وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ، وَلَا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ، وَلَا كَرَمَ كَالتَّقْوَىٰ، وَلَا قَرِينَ كَحُسْنِ الْخُلْقِ، وَلَا مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ، وَلَا قَائِدَ كَالتَّوْفِيقِ، وَلَا تِجَارَةَ كَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَا زَرْعَ كَالثَّوَابِ، وَلَا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ، وَلَا زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِي الْحَرَامِ، وَلَا عِلْمَ كَالتَّفَكُّرِ، وَلَا عِبَادَةَ كَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ.
وَلَا إِيمَانَ كَالْحَيَاءِ وَالصَّبْرِ، وَلَا حَسَبَ كَالتَّوَاضُعِ، وَلَا شَرَفَ كَالْعِلْمِ، وَلَا عِزَّ كَالْحِلْمِ، وَلَا مُظَاهَرَةَ أَوْثَقُ مِنَ الْمُشَاوَرَةِ.

الشّرْحُ:

قد تقدّم الكلامُ في جميع هذه الحكم.

أما المال، فإنّ العقل أعوَدُ منه؛ لأنّ الأحمق ذا المال طالما ذهب مالُه بحمْقه، فعادَ أحمقَ فقيراً، والعاقل الذي لا مال له طالما اكتسب المال بعقله، وبقي عقلُه عليه.

وأمّا العُجْب، فيوجب المَقْت، ومن مُقِت أُفرد عن المخالطة واستوحِش منه، ولا رَيْب أن التدبير هو أفضلُ العقل؛ لأنّ العيش كله في التدبير.

وأمّا التقوى، فقد قال الله: **﴿إنّ أكرمَكُمْ عنْدَ الله أتْقاكُمْ﴾**[٢].

---

١. ذكر السيد المرتضىٰ في تأويل كلام الإمام ﷺ: (من أحبنا أهل البيت فليتخذ للفقر جلباباً) وجوهاً ثلاثة، والأخير ـ وهو مختاره ـ من أحبنا فليلزم نفسه وليَخْطِمْها وليَقُدْها إلى الطاعاتِ، ويصرفها عما تميل إليه من الشهوات، وليُذلِّلها على الصبر عما كُرِه منها، ومشَقَّةِ ما أُريد منها، كما يفعل ذلك بالبعير الصعب. أمالي المرتضىٰ ١:١٨ المجلس الثاني.

٢. سورة الحجرات ١٣.

وأمّا الأدب، فقالت الحكماء: ما وَرَّثتِ الآباءُ أبناءها كالأدب.

وأمّا التوفيق، فمن لم يكن قائده ضَلّ.

وأمّا العمل الصالح، فإنه أشرفُ التجارات، فقد قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارةٍ تُنْجِيكم مِن عذابٍ أليمٍ﴾[1]. ثم عدّ الأعمال الصالحة.

وأمّا الثواب، فهو الربح الحقيقي، وأمّا ربح الدنيا فشبيهٌ بحلم النائم.

وأمّا الوقوف عند الشُّبُهات، فهو حقيقةُ الوَرَع، ولا رَيْب أنّ من يزْهد في الحرام أفضل ممن يزهد في المباحات، كالمآكل اللذيذة، والملابس الناعمة، وقد وَصَف الله تعالى أرباب التفكّر فقال: ﴿ويتفكّرونَ في خَلْقِ السّموات وَالأرْض﴾[2]. وقال: ﴿أوَلَمْ يَنْظُروا﴾.

ولا ريبَ أن العبادة بأداء الفرائض فوق العبادة بالنوافل، والحياءُ مخّ الإيمان، وكذلك الصبر والتواضُع مَصْيدة الشرف، وذلك هو الحسب، وأشرف الأشياء العلم؛ لأنّه خاصّة الإنسان، وبه يَقَع الفَضْل بينه وبين سائر الحيوان.

والمشورة من الحَزْم فإنّ عقل غيرك تستضيفُه إلى عقلك. ومن كلام بعض الحكماء: إذا استشارَك عدوُّك في الأمر فامحَضْه النصيحة في الرأي، فإنه إنْ عمل برأيك وانتفع نَدِم على إفراطه في مُناوأتك، وأفْضَتْ عداوتُه إلى المودّة، وإن خالَفك واستضرّ عرف قدر أمانتك بنُصْحه، وبَلغْت مُناك في مَكروهه.



١١٠

الأصْلُ:

إذَا ٱسْتَوْلَىٰ الصَّلَاحُ عَلَىٰ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ، ثُمَّ أَسَاءَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ، حَوْبَةٌ فَقَدْ ظَلَمَ! وإِذَا ٱسْتَوْلَىٰ ٱلْفَسَادُ عَلَىٰ الزَّمَانِ وأَهْلِهِ، فَأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ، فَقَدْ غَرَّرَا!

---

١. سورة الصف ١٠.

٢. سورة آل عمران ١٩١.

الشّرْحُ :

يريد أنّه يتعيّن على العاقل سوء الظنّ حيث الزمان فاسد، ولا ينبغي له سوء الظّن حيثُ الزمان صالح، وقد جاء في الخبر المرفوع النهي عن أن يظنّ المسلم بالمسلم ظَنّ السوْء، وذلك محمولٌ على المسلم الذي لم تظهر منه حَوْبة، كما أشار إليه عليٌّ؛ والحوْبة: المعصية. والخبر هو ما رواه جابر قال: نظر رسولُ الله إلى الكعبة فقال: «مرحباً بكِ من بيتٍ! ما أعظمك وأعظم حُرْمَتك! والله إن المؤمن أعظمُ حرمةً منكِ عند الله عزّ وجلّ، لأنّ الله حَرَّم منكِ واحدةً، ومن المؤمن ثلاثة: دمَه وماله وأن يظن به ظنّ السوء».

قال الشاعر:

أسأتُ إذْ أحسنتُ ظنّي بكمْ ... والحزمُ سوءُ الظّنّ بالناسِ

قيل لعالِم: من أسوأُ الناس حالاً؟ قال: من لا يثق بأحدٍ لسوء ظَنّه، ولا يثق به أحد لسُوء فعله.



الأصْلُ :

وقيل له: كيف نجدك يا أَمير المؤمنين؟ فقال:

كَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَفْنَىٰ بِبَقَائِهِ وَيَسْقَمُ بِصِحَّتِهِ وَيُؤْتَىٰ مِنْ مَأْمَنِهِ[١]!

الشّرْحُ :

هذا مِثلُ قَوْلِ عَبَدَة بن الطّبيب:

أرَى بَصري قد رَابَنِي بَعْد صِحّةٍ ... وحَسْبُكَ داءً أن تَصِحّ وَتَسلَمَا

ولن يَلبثَ العَصْرانِ يومٌ وليلةٌ ... إذا طَلَبا أن يُدرِكا ما تيمّما

---

١. كلما طال عمره ـ وهو الحياة ـ تقدّم إلىٰ الفناء، وسبب السقم (المرض) الصحة. يؤتىٰ من مأمنه، أي من حيث لا يحتسب أنّه يموت في الساعة التي مات فيها.

وقال آخَر:

كـانت قَـناتِي لا تَـلينُ لِـغامزٍ	فألانَـها الإصْـباحُ والإمْسـاءُ
ودعوتُ ربّـي بـالسلامةِ جـاهداً	ليُـصِحّني فـإذا السّـلامةُ داءُ



الأصْلُ:

كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إلَيْهِ، وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ ٱلْقَوْلِ فِيهِ! وَمَا ٱبْتَلَىٰ ٱللهُ أَحَداً بِمِثْلِ ٱلْإِمْلَاءِ لَهُ[١].

الشَّرْحُ:

قال رسولُ الله ﷺ لرجلٍ مَدَح رجلاً وقد مَرّ بمجلس رسولِ الله ﷺ فلم يسمع، ولكن قال: «وَيحَك لكدتَ تَضرِب عنقَه، لو سَمِعها لما أفلح».



الأصْلُ:

هَلَكَ فِيَّ رَجُلَانِ: مُحِبٌّ غَالٍ، وَمُبْغِضٌ قَالٍ[٢].

---

١. المستدرج: المأخوذ علىٰ غرّة، واستدرجه الله، أي تابع نعمته عليه وهو مقيم علىٰ عصيانه، إبلاغاً للحجة، وإقامة للمعذرة في أخذه. المفتون: المبتلىٰ. الإملاء: الإمهال، وهو مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْماً﴾ سورة آل عمران ١٧٨.

٢. فسّره الإمام ؑ بقوله في الخطبة ١٢٥: «سيهلك فيّ صنفان: محبّ مفرط يذهب به الحبّ إلىٰ غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلىٰ غير الحق. وخير الناس فيّ حالاً النمط الأوسط فالزموه».

الشّرْحُ :

قد تقدّم القولُ في مِثل هذا، وقد قال رسولُ الله ﷺ : «والله لولا أنّي أُشفِق أن تقولَ طوائفُ من أُمّتي فيكَ ما قالت النصارى في ابنِ مريَم، لقلتُ فيك اليومَ مقالاً لا تمرّ بأحدٍ من الناس إلّا أخَذوا التّرابَ من تحتِ قَدَميك للبَرَكة».

ومع كَونه ﷺ لَم يُقل فيه ذلك المَقال فقد غلَت فيه غُلاةٌ كثيرةُ العَدَد منتشِرة في الدنيا، يعتقِدون فيه ما يَعتقِد النصارى في ابن مريم، وأشنَع من ذلك الاعتقاد.

فأمّا المُبغض القالي فقد رأينا مَنْ يبغضه، ولكن ما رأينا من يَلعَنه ويصرّح بالبراءة منه، ويقال: إنّ في عُمَان وما والاها من صَحارِي وما يَجرِي مَجرَاها قوماً يعتقدون فيه ما كانت الخوارجُ تعتقِده فيه، وأنا أبرأ إلى الله منهما.



الأصْلُ :

إِضَاعَةُ ٱلْفُرْصَةِ غُصَّةٌ.

الشّرْحُ :

فِي المَثَل : انتهِزوا الفُرَص، فإنّها تمرّ مَرّ السّحاب.



الأصْلُ :

مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ ٱلْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا، وَالسُّمُّ النَّاقِعُ فِي جَوْفِهَا؛ يَهْوِي إِلَيْهَا ٱلْغِرُّ ٱلْجَاهِلُ، وَيَحْذَرُهَا ذُو اللُّبِّ ٱلْعَاقِلُ.

الشّرْحُ :

قد تقدّم القولُ في الدنيا مِراراً، وقد أخَذ أبو العَتاهِيَة هذا المعنى فقال:

إنّــما الدهــرُ أرقَــمٌ ليّــنُ المَــ ـــسّ وفي نابِه السِّقامُ العُــقامُ



الأَصْلُ :

وَقَدْ سُئِل عن قريش فقال:

أَمَّا بَنُو مَخْزُوم فَرَيْحَانَةُ قُرَيْش، نُحِبُّ حَدِيثَ رِجَالِهِمْ، وَالنِّكَاحَ فِي نِسَائِهِمْ. وَأَمَّا بَنُو عَبْدِ شَمْس فَأَبْعَدُهَا رَأياً، وَأَمْنَعُهَا لِمَا وَرَاءَ ظُهُورِهَا. وَأَمَّا نَحْنُ فَأَبْذَلُ لِمَا فِي أَيْدِينَا، وَأَسْمَحُ عِنْدَ ٱلْمَوْتِ بِنُفُوسِنَا، وَهُمْ أَكْثَرُ وَأَمْكَرُ وَأَنْكَرُ، وَنَحْنُ أَفْصَحُ وَأَنْصَحُ وَأَصْبَحُ.

الشّرْحُ :

قد تقدّم القولُ في مُفاخَرة هاشم وعبدِ شمس، فأمّا بنو مخزوم فإنّهم بعد هذين البيتين أفخرُ قُرَيش وأعظمُها شرفاً.

ويُمكِن أن يُزاد عليه فيقال: قالتْ مخزوم ما أنصَفَنا من اقتَصَر في ذكْرِنا على أن قال: مخزوم ريحانةُ قُرَيش، نحبّ حديثَ رجالِهم، والنّكاحَ في نسائهم. ولنا في الجاهليّة والإسلام أثَر عظيم، ورجالٌ كثيرة، ورؤساءُ شهيرة، فمِنّا المغيرةُ بنُ عبد الله بن عمْرو بنِ مخزوم، كان سيّدَ قريش في الجاهليّة.

وينبغي أن يقال في الجواب: إنّ أمير المؤمنينعليه السلام لم يقل هذا الكلام احتقاراً لهم، ولا استصغاراً لشأنهم، ولكن أمير المؤمنينعليه السلام كان أكثر همّه يوم المُفاخَرة أن يُفاخر بني عبد شمس لما بينه وبينهم، فلما ذكر مخزوماً بالعرَض قال فيهم ما قال، ولو كان يريد مفاخرتهم لما اقتصر لهم على ما ذكره عنهم، على أنّ أكثر هؤلاء الرجال إسلاميّون بعد عصر

عليّ عليه السلام، وعليّ عليه السلام إنما يذكر من قبله لا من يجيء بعده.

فإن قلت: إذا كان قد قال في بني عبدِ شَمْس إنهم أمنَع لما وراءَ ظهورهم، ثم قال في بني هاشم: إنهم أسمحُ عند الموت بنفوسهم، فقد تناقض الوَصْفان.

قلتُ: لا مُناقضةَ بينهما؛ لأنّه أراد كثرة بني عبدِ شمس، فبالكَثْرة تمنع ما وراءَ ظهورها، وكان بنو هاشم أقلَ عدداً من بني عبدِ شمس، إلّا أن كلّ واحد منهم على انفراده أشجع وأسمح بنفسه عند الموت من كلّ واحد على انفراده من بني عبدِ شمس، فقد بان أنه لا مناقَضة بين القولين.

(١١٧)

الأَصْلُ:

شَتَّانَ مَا بَيْنَ عَمَلَيْنِ؛ عَمَلٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ وَتَبْقَىٰ تَبِعَتُهُ؛ وَعَمَلٍ تَذْهَبُ مَؤُونَتُهُ وَيَبْقَىٰ أَجْرُهُ.

الشّرْحُ:

أخذ هذا المعنى بعضُ الشعراء، فقال:

تفْنَى اللّذاذةُ مِمّن نَال بُغْيَتَهُ ... من الحرَام ويبقى الإثمُ والعارُ
تُبقِي عواقبَ سوءٍ في مَغَبَّتِها ... لا خيرَ في لذّةٍ من بعدِها النّارُ



الأَصْلُ:

وقالَ عليه السلام وقدْ تبع جنازة فسمع رجلاً يَضحك، فقال:

كَأَنَّ ٱلْمَوْتَ فِيهَا عَلَىٰ غَيْرِنَا كُتِبَ، وَكَأَنَّ ٱلْحَقَّ فِيهَا عَلَىٰ غَيْرِنَا وَجَبَ، وَكَأَنَّ الَّذِي

نَرَىٰ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ! نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَاثَهُمْ، وَنَأْكُلُ تُرَاثَهُمْ، كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ ! ثُمَّ قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظٍ وَوَاعِظَةٍ، وَرُمِينَا بِكُلِّ فَادِحٍ وَجَائِحَةٍ. طُوبَىٰ لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ، وَطَابَ كَسْبُهُ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ، وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ، وَأَنْفَقَ ٱلْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ ٱلْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ، وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَىٰ بِدْعَةٍ[١].

قال الرضي رحمه الله: أقولُ: ومِنَ الناس من ينسب هذا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وكذلك الذي قبله.

الشّرْحُ:

الأشهر الأكثَر في الرّواية أنّ هذا الكلام من كلام رسولِ الله صلى الله عليه وآله ومِثل قوله: «كأن الموت فيها على غيرنا كُتِب» قولُ الحسن عليه السلام: «ما رأيت حَقّاً لا باطلَ فيه أشبَه بباطلٍ لا حَقّ فيه من المَوْت». والألفاظ التي بعده واضحة ليس فيها ما يُشْرَح، وقد تقدّم ذِكرُ نظائرها.



الأصْلُ:

غَيْرَةُ ٱلْمَرْأَةِ كُفْرٌ، وَغَيْرَةُ الرَّجُلِ إيمَانٌ.

الشّرْحُ:

المرجع في هذا إلى العَقْل والتماسك، فلمّا كان الرجل أعقَل وأشدّ تماسُكاً كانت غَيْرَته في موضعها، وكانت واجبةً عليه؛ لأنّ النهي عن المنكَر واجب، وفعل الواجبات من الإيمان، وأمّا المرأة فلما كانت أنقصَ عقلاً وأقلَّ صَبْراً كانت غَيْرَتها على الوَهْم الباطل والخيال غير

---

١. سَفْر: أي مسافرون. نُبَوِّئُهُمْ: ننزلهم. أجداثهم: قبورهم. الجائحة: البليّة والتهلكة.

المحقّق، فكانت قبيحةً لوقوعها غير موقعها، وسمّـاهاﷺ كُفْراً لمشارَكَتها الكُفْرَ في القُبْح فأجرى عليها اسمَه.

وأيضاً فإن المرأة قد تؤدّي بها الغيرةُ إلى ما يكون كُفْراً على الحقيقة كالسِّحْر، فقد وَرَد في الحديث المرفوع أنه كُفْر، وقد يُفضى بها الضَّجَر والقَلَق إلى أن تَتسَخّط وتَشْتُم وتتلفّظ بألفاظٍ تكون كُفراً لا محالة.



الأَصْلُ:

لَأَنْسُبَنَّ ٱلْإِسْلَامَ نِسْبَةً لَمْ يَنسُبْهَا أَحَدٌ قَبْلِي: ٱلْإِسْلَامُ هُـوَ التَّسْـلِيمُ، وَالتَّسْـلِيمُ هُـوَ ٱلْيَقِينُ، وَٱلْيَقِينُ هُوَ التَّصْدِيقُ، وَالتَّصْدِيقُ هُوَ ٱلْإِقْرَارُ، وَٱلْإِقْرَارُ هُوَ ٱلْأَدَاءُ، وَٱلْأَدَاءُ هُوَ ٱلْعَمَلُ.

الشّرْحُ:

خلاصةُ هذا الفَصْل تقتضي أنّ الإسلام والإيمان عبارتان عن معبّر واحد، وأنّ العمل داخلٌ في مفهومِ هذه اللفظة، ألا تراه جَعَل كلَّ واحدة من اللَّفَظات قائمةً مقامَ الأُخرىٰ في إفـادة المفهوم، كما تقول: اللّيث هو الأَسَدُ والأسد هو السّبع، والسبع هو أبو الحارث! فلا شُبهةَ أن اللّيث يكون أبا الحارث، أي أنّ الأسماء مترادفة، فإذا كان أوّل اللَّفظَات الإسلام، وآخرها العَمل، دَلّ على أنّ العمل هو الإسلام؛ وهكذا تقول أصحابُنا: إنّ تارك العمل وتارك الواجب لا يسمَّىٰ مسلماً.

فإن قلت: هَبْ أنّ كلامَهﷺ يدلّ على ما قلت، كيف يدلّ على أن الإسلام هو الإيمان؟

قلت: لأنّه إذا دَلّ على أن العمل هو الإسلام وَجَب أن يكون الإيمان هو الإسلام؛ لأنّ كلّ من قال: إنّ العمل داخل في مُسمَّى الإسلام، قال: إنّ الإسلام هو الإيمان، فالقول بأنّ العمل داخلٌ في مسمَّى الإسلام، وليس الإسلام هو الإيمان، قول لم يَقُل به أحد؛ فيكون الإجماع

واقعاً على بُطْلانه.

فإن قلت: إنّ أمير المؤمنين﵇ لم يقل كما تقوله المعتزلة؛ لأنّ المعتزلة تقول: الإسلامُ اسمٌ واقعٌ على العَمَل وغيرِه من الاعتقاد، والنطق باللسان، وأمير المؤمنين﵇ جَعل الإسلامَ هو العمل فقط، فكيف ادّعيتَ أنّ قولَ أميرِ المؤمنين ﵇ يُطابق مذهبهم؟

قلت: لا يجوز أن يريد غيره؛ لأنّ لفظ العَمَل يشمل الاعتقاد، والنطق باللسان، وحركات الأركان بالعبادات، إذ كلُّ ذلك عملٌ وفِعْل، وإن كان بعضه من أفعال القلوب، وبعضه من أفعال الجوارح، ولو لم يُرِد أميرُ المؤمنين﵇ ما شرَحْناه لكان قد قال: الإسلام هو العمل بالأركان خاصة، ولم يعتبر فيه الاعتقاد القلبيّ، ولا النطق اللفظيّ، وذلك مما لا يقوله أحد.



الأصْلُ:

عَجِبْتُ لِلْبَخِيلِ يَسْتَعْجِلُ ٱلْفَقْرَ الذِي مِنْهُ هَرَبَ، وَيَفُوتُهُ ٱلْغِنَىٰ الَّذِي إِيَّاهُ طَلَبَ، فَيَعِيشُ فِي الدُّنْيَا عَيْشَ ٱلْفُقَرَاءِ، وَيُحَاسَبُ فِي ٱلْآخِرَةِ حِسَابَ ٱلْأَغْنِيَاءِ، وَعَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ الَّذِي كَانَ بِالأَمْسِ نُطْفَةً، وَيَكُونُ غَداً جِيفَةً، وَعَجِبْتُ لِمَنْ شَكَّ فِي ٱللهِ وَهُوَ يَرَىٰ خَلْقَ ٱللهِ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ ٱلْمَوْتَ وَهُوَ يَرَىٰ مَنْ يمُوتُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ وَهُوَ يَرَىٰ النَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ، وَعَجِبْتُ لِعَامِرِ دَارِ ٱلْفَنَاءِ وَتَارِكِ دَارِ ٱلْبَقَاءِ.

الشّرْحُ:

قال أعرابيّ: الرِّزق الواسعُ لمن لا يَستمتِع به بمنزلة الطعامِ الموضوع على قبْر. ورأى حكيمٌ رجلاً مُثرياً يأكل خُبْزاً ومِلْحاً، فقال: لِمَ تَفعَل هذا؟ قال: أخافُ الفقرَ، قال: فقد تعجَّلته. فأمّا القول في الكِبْر والتِّيه فقد تقدّم منه ما فيه كفاية[1].

---

١. الفقر ما قصر بك عن درك حاجتك. والبخيل تكون له الحاجة فلا يقضيها ويكون عليه الحق فلا يؤديه؛ فحاله



الأَصْلُ :

مَنْ قَصَّرَ فِي ٱلْعَمَلِ ، ٱبْتُلِيَ بِالْهَمِّ .

الشّرْحُ :

هذا مخصوصٌ بأصحاب اليقين ، والاعتقادِ الصّحيح ، فإنّهم الّذين إذا قَصّروا في العمل ابتُلوا بالهَمّ ، فأمّا غيرُهم من المُسرِفين علىٰ أنفسهم وذوي النّقص في اليَقين والاعتقاد ، فإنّه لا هَمَّ يَعْرُوهم وإن قَصّروا في العمل ، وهذه الكلمة قد جَرّبْناها من أنفسِنا فوَجَدْنا مِصداقَها واضحاً ، وذلك أنّ الواحد منّا إذا أخَلّ بفريضةِ الظّهر مَثَلاً حتّى تغيبَ الشمس وإن كان أخلّ بها لعُذْر وَجَد ثِقْلاً في نفسِه وكَسَلاً وقِلّةَ نَشاط ، وكأنّه مشكولٌ بشِكالٍ أو مقيَّدٌ بقَيْد ، حتّى يقضيَ تلك الفَرِيضة ، فكأنّما أُنشِطَ من عِقال .



الأَصْلُ :

لَا حَاجَةَ للهِ فِيمَنْ لَيْسَ للهِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ نَصِيبٌ .

الشّرْحُ :

قد جاء في الخبر المرفوع : «إذا أحَبَّ اللهُ عبداً ابتلاه في مالِه أو في نفسِه» . وجاء في الحديث المرفوع : «اللّهمّ إنّي أعوذ بك من جَسَدٍ لا يَمرَض ، ومن مالٍ لا يُصاب» .

⇐ حال الفقراء يحتمل ما يحتملون . واستعجاله بالفقر ؛ لعدم انتفاعه بماله حتىٰ كأنه فقير . وقد ذكر ﷺ محل العجب من هؤلاء الأربعة تنفيراً عنهم .

ورَوَى عبدُ الله بنُ أَنَس عنه ﷺ أنّهُ قال: «أيّكم يُحِبّ أن يَصِحَّ فلا يَسقَم»؟ قالوا: كلُّنا يا رسولَ الله، قال: «أتحبّون أن تكونوا كالحُمُر الصائلة؛ ألا تُحِبّون أن تكونوا أصحابَ بَلايَا وأصحابَ كَفّارات! والّذي بَعثَني بالحقّ إنّ الرجل لتكونُ له الدّرجة في الجنّة فلا يَبلُغها بشيء من عَمَلِه فيَبتَلِيه اللهُ ليُبلِّغه الله درجةً لا يَبلُغها بعمَله».

وفي الحديث أيضاً: «ما مِن مُسلِم يَمرَض مرضاً إلّا حَتّ الله به خَطَاياه كما تَحُتّ الشجرة وَرَقَها». وجاء في بعض الآثار: «أشدّ الناس حساباً الصحيحُ الفارغ».

وفي حديث حذيفةَ ﵁: إنّ أقَرَّ يوم لعيني لَيَوْمٌ لا أجد فيه طعاماً، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّ الله ليَتعاهَد عبدَه المؤمنَ بالبلاء كما يَتعاهَد الوَالد ولدَه بالطّعام، وإنّ الله يَحمِي عبدَهُ المؤمنَ كما يَحمِي أحدُكم المريض من الطعام».

جابرُ بنُ عبد الله يَرفعه: «يَوَدّ أهل العافِية يومَ القيامة أنّ لحومَهم كانت تُقرَض بالمَقارِيض لما يَرَوْن من ثواب أهلِ البَلاء».



١٢٤

الأصْلُ:

تَوَقَّوْا ٱلْبَرْدَ فِي أَوَّلِهِ، وَتَلَقَّوْهُ فِي آخِرِهِ؛ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ فِي ٱلْأَبْدَانِ كَفِعْلِهِ فِي ٱلْأَشْجَارِ، أَوَّلُهُ يُحْرِقُ وَآخِرُهُ يُورِقُ.

الشّرْحُ:

هذه مسألةٌ طبيعيّة قد ذَكَرها الحكماء، قالوا: لمّا كان تأثيرُ الخَرِيف في الأبدان، وتوليدُه الأمْراض كالزُّكام والسُّعال وغيرهما أكثرَ من تأثيرِ الرّبيع، مع أنّهما جميعاً فَصْلا اعتدال، وأجابوا بأنّ بَرْد الخريف يَفْجأ الانسانَ وهو معتادٌ لحرّ الصّيف فينكأ فيه، ويسُدّ مَسامَّ دِماغه؛ لأنّ البرد يَكثُف ويَسُدّ المَسَامّ فيكون كمن دَخَل من موضع شديدِ الحرارة إلى خيش بارد.

فأما المُنتقِل من الشّتاء إلى فَصْل الربيع فإنّه لا يكاد بَرْد الربيع يؤْذِيه ذلك الأذى؛ لأنّه قد اعتاد جسمُه بردَ الشتاء، فلا يُصادِف من بَرْد الربيع إلّا ما قد اعتاد ما هو أكثر منه، فلا يَظهَر

لبَرْد الربيع تأثيرٌ في مِزاجِه .



الأصْلُ :

عِظَمُ ٱلْخالِقِ عِنْدَكَ يُصَغِّرُ ٱلْمَخْلُوقَ فِي عَيْنِكَ .

الشّرْحُ :

لا نِسبَة للمخلوق إلى الخالق أصْلاً وخصوصاً البَشَر . وعلى الجملة فالأمرُ أعظَم من كلّ عظيم ، وأجلُّ من كلّ جليل ، ولا طاقةَ للعُقول والأذْهان أن تعبّر عن جلالة ذلك الجناب وعَظَمتِه . بل لو قيل : إنّها لا طاقة لها أن تعبِّر عن جلالِ مَصْنوعاته الأُولَى المتقدِّمة علينا بالرّتبة العقليّة والزمانيّة لكان ذلك القولُ حقّاً وصِدْقاً ، فَمن هو المخلوق لِيقال : إنَّ عِظَمَ الخالِق يصغّره في العين ! ولكنّ كلامَه عليه السلام محمولٌ على مخاطَبة العامّة الّذين تَضيق أفهامُهمْ عمّا ذكرْناه .



الأصْلُ :

وقال عليه السلام ، وقد رجع من صفين ، فأشرف على القبور بظاهر الكوفة :

يَا أَهْلَ الدِّيَارِ ٱلْمُوحِشَةِ ، وَٱلمحَالِّ ٱلْمُقْفِرَةِ ، وَٱلْقُبورِ ٱلْمُظْلِمَةِ ؛ يَا أَهْلَ التُّرْبَةِ ، يَا أَهْلَ ٱلْغُرْبَةِ ، يَا أَهْلَ ٱلْوَحْدَةِ ، يَا أَهْلَ ٱلْوَحْشَةِ ، أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ سَابِقٌ ، وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ لاحِقٌ ، أَمَّا الدُّورُ فَقَدْ سُكِنَتْ ، وَأَمَّا ٱلْأَزْوَاجُ فَقَدْ نُكِحَتْ ، وَأَمَّا ٱلْأَمْوَالُ فَقَدْ قُسِمَتْ ،

هٰذَا خَبَرُ مَا عِنْدَنَا، فَمَا خَبَرُ مَا عِنْدَكُمْ[١]؟

ثم التفت إلى أصحابه فقال:

أَمَا لَوْ أُذِنَ لَهُمْ فِي ٱلْكَـلَامِ، لَأَخْبَرُوكُمْ أَنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ.

الشَّرْحُ:

الفَرَط: المتقدِّمون. وقد جاء في حديث القبور ومخاطبتِها وحديثِ الأموات وما يتعلّق بذلك شيءٌ كثير يَتجاوَز الإحصاء.

وفي وصيّة النبيّ ﷺ أبا ذرّ رضي الله عنه: زُر القبورَ تَذكُرْ بها الآخرة ولا تَزُرها ليلاً، وغَسِّل الموتى يتحرّكْ قلبُك، فإنّ الجسد الخاوِي عِظةٌ بليغة، وصلِّ على الموتى فإن ذلك يُحزِنُك، فإنّ الحَزين في ظِلِّ الله.

وُجِد على قبرٍ مكتوباً:

مُـقيمٌ إلى أن يَـبعثَ اللهُ خَـلْقَهُ ... لقاؤُكَ لا يُـرجَـى وأنت رقـيبُ

تَزِيدُ بِـلىً فـي كـلِّ يـومٍ وليـلةٍ ... وتُنسَى كما تَـبلَى وأنت حـبيبُ

وجاء في الحديث المرفوع: «ما رأَيتُ مَنظَراً إلّا والقبرُ أفظع منه». وفي الحديث أيضاً: «القبر أوّل منزلٍ من منازلِ الآخرة، فمن نجا منه فما بعدَه أيسَر، ومن لم يَنْج منه فما بعدَه شرٌّ منه».



الأَصْلُ:

وقال عليه السلام، وقد سمع رجلاً يذم الدنيا:

أَيُّهَا الذَّامُّ للدُّنْيَا، ٱلْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا، المُنخَدِعُ بِأَبَاطِيلِهَا! أَتَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا ثُمَّ تَذُمُّهَا؟ أَنْتَ

---

١. المحال: جمع محل أي الأماكن. الموحشة: الموجبة للوحشة، ضد الأنس. المقفرة، من أقفر المكان إذا لم يكن فيه ساكن ولا نابت. الفَرَط: المتقدّم. التَبَع: التابع.

ٱلْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا، أَمْ هِيَ ٱلْـمُتَجَرِّمَةُ عَـلَيْكَ ؟ مَـتَىٰ ٱسْـتَهْوَتْكَ، أَمْ مَـتَىٰ غَـرَّتْكَ؟ أَبِمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ ٱلْبِلَىٰ أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَىٰ ؟ كَمْ عَلَّلْتَ بِكَـفَّيْكَ، وَكَمْ مَرَّضْتَ بِيَدَيْكَ ! تَبْتَغِي لَهُمُ الشِّفَاءَ، وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ ٱلْأَطِبَّاءَ، غَدَاةَ لَا يُـغْنِي عَنْهُمْ دَوَاؤُكَ، وَلاَ يُجْدِي عَلَيْهِمْ بُكَاؤُكَ ! لَمْ يَنْفَعْ أَحَدَهُمْ إِشْفَاقُكَ، وَلَمْ تُسْعَفْ فِيهِ بِطِلْبَتِكَ، وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوَّتِكَ ! وَقَـدْ مَـثَّلَتْ لَكَ بِـهِ الدُّنْـيَا نَـفْسَكَ، وَبِـمَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ.

إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا، وَدَارُ غِنىً لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ ٱتَّعَظَ بِهَا. مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ ٱللهِ، وَمُصَلَّىٰ مَلَائِكَةِ ٱللهِ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ ٱللهِ، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ ٱللهِ؛ ٱكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ، وَرَبِحُوا فِيهَا ٱلْـجَنَّةَ. فَـمَنْ ذَا يَذُمُّهَا، وَقَدْ آذَنَتْ بِبَيْنِهَا، وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا، وَنَعَتْ نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا فَمَثَّلَتْ لَهُمْ بِبَلَائِهَا ٱلْبَلَاءَ، وَشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَىٰ السُّرُورِ ! رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ، وَٱبْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ، تـرغِيباً وَتَرْهِيباً، وَتَخْوِيفاً وَتَحْذِيراً. فَذَمَّهَا رِجَالٌ غَدَاةَ النَّدَامَـةِ، وَحَـمِدَهَا آخَـرُونَ يَـوْمَ ٱلْقِيَامَةِ، ذَكَّرَتْهُمُ الدُّنْيَا فَتَذَكَّرُوا، وَحَدَّثَتْهُمْ فَصَدَّقُوا، وَوَعَظَتْهُمْ فَاتَّعَظُوا.

الشّرْحُ :

تجرّمتُ على فلان : ادّعيتُ عليه جُرْماً وذنباً ؛ واستهواه كذا : استزَلّه.

وقولُه عليه السلام : «فمثّلتْ لهم ببلائها البلاء»، أي بـلاءَ الآخـرة وعـذابَ جـهنّم، وشـوّقتْهم بسرورها إلى السرور، أي إلى سُرورِ الآخرة ونعيمِ الجنّة.

وهذا الفصل كلّه لمدح الدنيا، وهو ينبئ عن اقتدارِه عليه السلام على ما يريد من المعاني ؛ لأنّ كلامَه كلَّهُ في ذمّ الدنيا، وهو الآن يَمدَحها وهو صادقٌ في ذاك وفي هذا ؛ وقد جـاء عـن النبي صلى الله عليه وآله كلام يتضمّن مدحَ الدنيا أو قريباً من المَدْح، وهو قولُه صلى الله عليه وآله : «الدّنيا حُلوةٌ خَضِرة، فمن أخَذَها بحقّها بُورِك له فيها».

ومن الكلام المنسوبِ إلى عليّ عليه السلام : «الناسُ أبناءُ الدّنيا، ولا يلامُ المرء على حبِّ أمّه».

أخذَه محمّد بن وَهْب الحِمْيَرِيّ فقال:

ونحن بنُو الدّنيا خُلِقْنا لغيرِها ‏ ‏ ‏ ‏ وما كنتَ منه فهو شيءٌ مُحبَّبُ



الأَصْلُ:

إِنَّ للهِ مَلَكاً يُنَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ: لِدُوا لِلْمَوْتِ، وَاجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ.

الشَّرْحُ:

هذه اللام عند أهل العربية تسمّى لامَ العاقبة، ومِثلُ هذا قوله تعالى: ﴿**فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً**﴾[1]، ليس أنّهم التَقَطوه لهذه العلّة، بل التقطوه فكان عاقبةُ التقاطِهم إيّاه العداوةَ والحُزْن.

وأمّا فَحوَى هذا القول وخلاصتُه فهو التّنبيه على أنّ الدنيا دارُ فَناء وعَطَب، لا دارُ بَقاءٍ وسلامة، وأنّ الولد يَموت، والدُّور تُخرَّب، وما يُجمَع من الأموال يَفنَى.



الأَصْلُ:

الدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍّ، لَا دَارُ مَقَرٍّ، وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ: رَجُلٌ بَاعَ فِيهَا نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا[2]، وَرَجُلٌ ابْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا.

---

١. سورة القصص ٨.

٢. أي باع نفسه لهواه وشهواته فأوبقها، أي أهلكها. وابتاع نفسه، أي اشتراها وخلّصها من أسر الشهوات.

الشّرْحُ :

قال عمرُ بنُ عبد العزيز يوماً لجلَسائه : أخبرُوني مَنْ أحمَقُ الناس ؟ قالوا : رجلٌ باعَ آخرتَه بدُنْياه ؛ فقال : ألا أُنبئكم بأحمق منه ؟ قالوا : بلى ؛ قال : رجلٌ باعَ آخرته بُدنْيَا غيره .

قلتُ : لقائلٍ أن يقول له : ذاك باعَ آخرته بدُنْياه أيضاً ؛ لأنّه لو لم يكن له لذّةٌ في بَيع آخرته بدُنْيا غيره لما باعها ، وإذا كان له في ذلك لذّة فإذَنْ إنما باع آخرته بدُنْياه ؛ لأنّ دُنْياه هي لذّتهُ .



الأصْلُ :

لَا يَكُونُ الصَّدِيقُ صَدِيقاً حَتَّى يَحْفَظَ أَخَاهُ فِي ثَلَاثٍ : فِي نَكْبَتِهِ، وَغَيْبَتِهِ، وَوَفَاتِهِ.

الشّرْحُ :

قد تقدّم لنا كلامٌ في الصّديق والصّداقة ؛ وأمّا النَّكْبة وحفظ الصديق فيها فإنه يقال : في الحُبوسِ مَقابرُ الأحياء ، وشماتةُ الأعداء ، وتجربةُ الأصدِقاء .

وأمّا الغَيْبَة فإنه قد قال الشاعر :

وإذا الفتَى حَسُنتْ مودّتهُ ... في القُرْب ضاعَفَها على البُعْدِ

وأمّا الموت فقد قال الشاعر :

وإنّي لأستحييه والتُّربُ بيننا ... كما كنتُ أستحييه وهو يَرانِي

ومن كلام عليّ عليه السلام : «الصديق من صَدَق في غَيْبَتِه» . قيل لحكيم : مَن أبعد الناس سَفَراً ؟ قال : من سافر في ابتغاءِ الأخِ الصالح .



الأصْلُ :

مَنْ أُعْطِيَ أَرْبعاً لَمْ يُحْرَمْ أَرْبَعاً: مَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ ٱلْإِجَابَةَ، وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ ٱلْقَبُولَ، وَمَنْ أُعْطِيَ ٱلاسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرَمِ ٱلْمَغْفِرَةَ، وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ الزِّيَادَةَ.

قال الرضي ﷺ :

وتصديقُ ذَلِكَ كتَابُ اللهِ تعالى؛ قَالَ في الدّعَاء: **﴿ادعُوني أسْتَجِبْ لَكُمْ﴾**[١].

وقال في الاستغفار: **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾**[٢].

وقال في الشكر: **﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾**[٣].

وقال في التوبة: **﴿إنّما التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلّذِينَ يَعْمَلُونَ السّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُم يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾**[٤].

الشّرْحُ :

في بعض الروايات أنّ ما نسب إلى الرّضيّ ﷺ مِن استنباط هذه المعاني من الكتاب العزيز من متن كلام أمير المؤمنين ﷺ؛ وقد سبق القولُ في كلّ واحدةٍ من هذه الأربع مُستقصىً.



الأصْلُ :

الصَّلَاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ، وَٱلْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ. وَلِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ، وَزَكَاةُ ٱلْبَدَنِ الصِّيَامُ، وَجِهَادُ ٱلْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُّلِ.

---

١. سورة غافر ٦٠. ٢. سورة النساء ١١٠.

٣. سورة ابراهيم ٧. ٤. سورة النساء ١٧.

الشّرْحُ :

قد تقدّم القول في الصّلاة والحجّ والصّيام، فأمّا أنّ جهادَ المرأة حسنُ التبعُّل، فمعناه حسنُ معاشرةِ بَعْلها وحِفظُ ماله وعرضه؛ وإطاعته فيما يأمر به، وترك الغيرة فإنها بابُ الطلاق.

وأوصت امرأةٌ ابنتها وقد أهدتْها إلى بَعْلها، فقالت: كوني له فِراشاً، يكن لكِ مَعاشاً، وكوني له وِطاء، يكن لكِ غِطاءً، وإيّاكِ والاكتئاب إذا كان فَرِحاً، والفَرَح إذا كان كئيباً، ولا يَطّلعَنّ منك على قبيح، ولا يَشُمَّنَّ منكِ إلّا طيّبَ ريح.

وأوصَى الفرافِصة الكلبيّ ابنته نائلة حين أهدَاها إلى عثمانَ، فقال: يا بُنيَّة، إنّك تقدمين على نساءٍ من نساء قريش هنّ أقدَرُ على الطِّيبِ منكِ، ولا تُغلَبين على خَصْلَتين: الكُحْل والماء. تطهَّري حتى يكون ريح جِلْدِك ريح شَنٍّ أصابه مطر، وإيّاك والغَيْرة على بَعْلِك، فإنّها مفتاح الطلاق.



الأصْلُ :

اسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ.

الشّرْحُ :

جاء في الحديث المرفوع: «تاجروا الله بالصّدَقة تربَحُوا». وكان يقال: الصَّدَقَةُ صداقُ الجنّة.

وفي الحديث المرفوع: «ما أحسن عبدٌ الصّدَقة، إلّا أحسنَ الله الخلافة على مُخَلَّفِيه».



الأصْلُ :

ومَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلَفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ.

الشّرْحُ :

هذا حقّ؛ لأنّ من لم يُوقِن بالخَلَف ويتخوّف الفقرَ يَضِنّ بالعطيّة، ويَعلَم أنّه إذا أعطَى ثمّ أعطَى اسْتنفَدَ مالَه، واحتاج إلى الناس لانقطاع مادّته؛ وأمّا من يُوقِن بالخَلَف، فإنّه يَعلَم أنّ الجود شَرَفٌ لصاحِبِه، وأن الجَواد ممدوحٌ عند الناس، فقد وَجَد الداعي إلى السّماح ـ ولا صارفَ له عنه ـ لأنّه يعلَم أنّ مادّته دائمةٌ غيرُ منقطعة، فالصارف الّذي يَخافُه من قدّمنا ذكرَه مفقودٌ في حقّه، فلا جَرَم أنّه يجود بالعطيّة!



الأصْلُ :

تَنْزِلُ ٱلْمَعُونَةُ عَلَىٰ قَدْرِ ٱلْمَؤُونَةِ.

الشّرْحُ :

جاء في الحديث المرفوع: «مَن وَسَّع وُسِّع عليه، وكلَّما كثُر العيال كثُر الرزق».



الأصْلُ :

مَا عَالَ امْرُؤٌ ٱقْتَصَدَ[1].

الشّرْحُ :

ما عال، أي ما افتقَر.

وسَمِع بعضُ الفُضلاء قَولَ الحكماء: التدبيرُ نصفُ العَيش، فقال: بل العيشُ كلُّه.

---

١. أي ما افتقر من ترك الإسراف والتبذير. والاقتصاد: الإنفاق من غير إسراف.



الأَصْلُ :

قِلَّةُ ٱلْعِيَالِ أَحَدُ ٱلْيَسَارَيْنِ.

الشّرْحُ :

اليسار الثاني كثرة المال ؛ يقول : إن قِلّة العيال مع الفَقْر كاليسار الحقيقيّ مع كثرتهم.

ومن أمثال الحُكماء : العيالُ أَرَضَة المال.



الأَصْلُ :

التَّوَدُّدُ نِصْفُ ٱلْعَقْلِ[1].

الشّرْحُ :

دخل حبيب بنُ شَوْذَب على جعفر بن سليمانَ بالبَصْرة ، فقال : نعم المرءُ حَبِيب بن شَوْذَب ! حَسَن التودّد ، وطيب الثناء ، يكرَه الزيارة المتصلة ، والقِعدةَ المنسِيةَ.

وكان يقال : قلَّ مَن تودَّد إلّا صار محبوباً ، والمحبوب مستورُ العيوب.

---

١. المراد بالتودد ، حسن المعاملة لا التملّق والتصنّع.



الأَصْلُ :

وَٱلْهَمُّ نِصْفُ ٱلْهَرَمِ.

الشَّرْحُ :

مِن كلام بعضِ الحُكماء : الهمّ يُشِيب القلب ، ويُعقم العقل ، فلا يتولّد معه رأْي ، ولا تَصدُق معه رَويّة . وقال سُفيان بنُ عيينة : الدنيا كلّها هموم ، وغموم ، فما كان منها سرور فهو رِبح . ومن أمثالهم : الهمّ كافورُ الغُلْمة .



الأَصْلُ :

يَنْزِلُ الصَّبْرُ عَلَىٰ قَدْرِ ٱلْمُصِيبَةِ ، وَمَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلَىٰ فَخِذِهِ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ حَبِطَ أَجْرُهُ[١] .

الشَّرْحُ :

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، كان يقول عند التعزية : عليكم بالصّبر ، فإنّ به يأخذ الحازمُ ، ويعود إليه الجازع .

وقال عمرو بن مَعِد يكرِب :

كم مِنْ أخٍ ليَ صالحٍ   بوّأْتُه بِيَدَيَّ لَحْدَا

---

١ . قوله عليه السلام : من ضرب يده على فخذه فقد أحبط أجره ؛ لأنّ ذلك من شدة الجزع عند المصيبة وهذا يأتي من ترك الرضىٰ بقضاء الله سبحانه ، وذلك يحبط الثواب دون شكّ .

أَلبَسْتُه أكفانَهُ وخُلِقْتَ يومَ خُلِقتُ جَلْدَا

وكان يقال: من حدّث نفسه بالبقاء، ولم يُوَطِّنها على المصائب، فهو عاجزُ الرأي. وكان يقال: كفى باليَأس مُعزّياً، وبانقطاع الطمع زاجراً!



الأَصْلُ:

كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا ٱلْجُوعُ وَالظَّمَأُ، وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ وٱلْعَنَاءُ، حَبَّذَا نَوْمُ ٱلْأَكْيَاسِ وَإِفْطَارُهُمْ[١]!

الشَّرْحُ:

الأكياس هاهنا العلماء العارفون؛ وذلك لأنّ عباداتِهم تقع مطابِقةً لعقائدهم الصحيَّة، فتكون فروعاً راجعةً إلى أصلٍ ثابت، وليس كذلك الجاهلون بالله تعالى؛ لأنهم إذا لم يعرفوه ولم تكن عباداتهم متوجِّهةً إليه فلم تكن مقبولةً، ولذلك فَسَدَتْ عِبادة النصارى واليهود.

وفيهم وردَ قوله تعالى: ﴿**عامِلَةٌ ناصِبَةٌ * تَصلى ناراً حامِيَةً**﴾[٢].



الأَصْلُ:

سُوسُوا إِيمَانَكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ، وَٱدْفَعُوا أَمْوَاجَ ٱلْبَلَاءِ بِالدُّعَاءِ[٣].

---

١. هذا الصائم، هو الذي يسمك عن الطعام والشراب، ولا يمسك عن المعاصي والفواحش، وأراد بالقائم: المصلّي، من صلّىٰ وقلبه غير حاضر، بل مشغول بالدنيا.

٢. سورة الغاشية ٣، ٤.

٣. سوسوا إيمانكم، أي اعملوا بمقتضاه وانتفعوا به. والمعنىٰ لا إيمان يجدي بلا بذل، كما لا بذل يجدي بلا إيمان.

الشَّرْحُ :

قد تقدّمَ الكلامُ في الصّدقة والزّكاة والدّعاء، فلا معنًى لإعادةِ القولِ في ذلك.



الأصْلُ :

ومن كلام لهﷺ لكُمَيْل بن زياد النخعي :

قال كُمَيْل بن زياد: أخذ بيدي أميرالمؤمنين علي بن أبي طالبﷺ فأخرجني إلى الجبّان[1]، فلمّا أصحر تنفس الصّعَداء، ثمّ قال:

يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ، إِنَّ هٰذِهِ ٱلْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ، فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ.

النَّاسُ ثَلاَثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَىٰ سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رِعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ ٱلْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَؤُوا إِلَىٰ رُكْنٍ وَثِيقٍ.

يَا كُمَيْلُ، ٱلْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْمَالِ؛ ٱلْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ ٱلْمَالَ. وَٱلْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، وَٱلْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى ٱلإِنْفَاقِ، وَصَنِيعُ ٱلْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ.

يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ، مَعْرِفَةُ ٱلْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ ٱلإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ ٱلأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ. وَٱلْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَٱلْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ.

يَا كُمَيْلُ بن زِيَادٍ، هَلَكَ خُزَّانُ ٱلأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَٱلْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ؛ أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي ٱلْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ. هَا إِنَّ هٰا هُنَا لَعِلْماً جَمّاً ـ وَأَشَارَ

↔ ومن منع الزكاة فقد عرّض أمواله للتلف.

١. الجبّان والجبّانة: في الأصل ما استوىٰ من الأرض في ارتفاع وخلا من النبت أو الشجر، وهي الصحراء. وأهل الكوفة يسمّون المقابر جبّانة. وأصحر، أي صار في الصحراء.

بِيَدِهِ إلى صدره ـ لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً ! بَلَىٰ أُصِيبُ لَقِناً غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ، مُسْتَعْمِلاً آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا، وَمُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ ٱللهِ عَلَىٰ عِبادِهِ، وَبِحُجَجِهِ عَلَىٰ أَوْلِيَائِهِ، أَوْ مُنْقَاداً لِحَمَلَةِ ٱلْحَقِّ، لَابَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ؛ يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ. أَلَا لَا ذَا وَلَا ذَاكَ! أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّةِ، سَلِسَ ٱلْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ، أَوْ مُغْرَماً بِالْجَمْعِ وَٱلْادِّخَارِ، لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ، أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهاً بِهِمَا ٱلْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ! كَذٰلِكَ يَمُوتُ ٱلْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ.

ٱللَّهُمَّ بَلَىٰ! لَا تَخْلُو ٱلْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ للهِ بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً، وَإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ ٱللهِ وَبَيِّنَاتُهُ.

وَكَمْ ذَا؟ وَأَيْنَ! أُولٰئِكَ وَٱللهِ، ٱلْأَقَلُّونَ عَدَداً، وَٱلْأَعْظَمُونَ عِنْدَ ٱللهِ قَدْراً، يَحْفَظُ ٱللهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ، حَتَّىٰ يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ. هَجَمَ بِهِمُ ٱلْعِلْمُ عَلَىٰ حَقِيقَةِ ٱلْبَصِيرَةِ، وَبَاشَرُوا رُوحَ ٱلْيَقِينِ، وَٱسْتَلَانُوا مَا ٱسْتَوْعَرَهُ ٱلْمُتْرَفُونَ، وَأَنِسُوا بِمَا ٱسْتَوْحَشَ مِنْهُ ٱلْجَاهِلُونَ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ ٱلْأَعْلَىٰ؛ أُولٰئِكَ خُلَفَاءُ ٱللهِ فِي أَرْضِهِ، وَالدُّعَاةُ إِلَىٰ دِينِهِ. آهِ آهِ شَوْقاً إِلَىٰ رُؤْيَتِهِمْ.

ٱنْصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا شِئْتَ.

الشّرْحُ:

الجبّان والجبّانة: الصّحراء. وتنفّس الصُّعَداء، أي تنفّس تنفُّساً ممدوداً طويلاً.

قولُه ﷺ: «ثلاثة» قِسمةٌ صحيحة، وذلك لأنّ البشر باعتبار الأُمور الإلٰهيّة: إمّا عالِم على الحقيقة يَعرِف الله تعالى، وإمّا شارع في ذلك فهو بعد في السّفر إلى الله يطلُبه بالتعلّم والاستفادة من العالم، وإمّا لا ذا ولا ذاك: وهو العامّيّ الساقط الّذي لا يَعبأ اللهُ به. وصَدَقﷺ في أنّهم هَمَج رَعاع أتباعُ كلِّ ناعق، ألا تراهم ينتقلون من التقليد لشخصٍ إلى تقليدِ الآخَر، لأدنى خَيال وأضعفِ وَهْم!

ثمّ شرع عليه السلام في ذِكر العلْم وتفضيلِه على المال، فقال: «العلم يَحرُسك، وأنت تَحرُس المال»، وهذا أحدُ وجوه التّفضيل.

ثمّ ابتدأ فَذَكَر وجهاً ثانياً؛ فقال: المالُ يَنقُص بالإنفاق منه، والعلم لا يَنقُص بالإنفاق بل يَزْكو؛ وذلك لأنّ إفاضةَ العلم على التلامذة تفيد المُعلّمَ زيادةَ استعداد، وتُقرِّر في نفسه تلك العلوم الّتي أفاضها على تلامذته، وتثبّتها وتزيدها رسوخاً.

فأمّا قوله: «وصَنيعُ المال يزولُ بزواله»، فتحته سرّ دقيق حكميّ؛ وذلك لأنّ المال إنّما يَظهر أثرُه ونفعُه في الأُمور الجِسْمانية، والملاذّ الشّهوانيّة، كالنّساء والخيل والأَبْنية والمأكَل والمشرَب والمَلابس ونحو ذلك؛ وهذه الآثار كلُّها تزول بزوال المال أو بزوال رَبِّ المال؛ ألا ترَى أنّه إذا زال المالُ اضطُرّ صاحبُه إلى بَيْع الأبنية والخيل والإماء، ورَفَض تلك العادة من المآكل الشهيّة، والملابس البهيّة! وكذلك إذا زال ربُّ المالِ بالمَوْت، فإنّه تزول آثارُ المالِ عندَه؛ فإنّه لا يَبقى بعد الموت آكِلاً شارباً لابساً، وأمّا آثار العِلم فلا يمكن أن تزولَ أبداً والإنسان في الدّنيا، ولا بعدَ خروجه عن الدّنيا؛ أمّا في الدنيا فلأنّ العالِمَ بالله تعالى لا يَعود جاهلاً به؛ لأنّ انتفَاء العلوم البديهيّة عن الذّهن وما يَلزَمها من اللّوازم بعدَ حصولها مُحال، فإذاً قد صَدَق قولُه عليه السلام في الفَرْق بين المال والعِلم: إنّ صنيع المال يَزولُ بزواله، أي وصنيع العلم لا يَزول، ولا يحتاج إلى أن يقول: «بزَواله»؛ لأنّ تقديرَ الكلام: وصنيع المال يزول؛ لأنّ المالَ يَزول؛ وأمّا بعد خروج الإنسانِ من الدّنيا فإنّ صنيعَ العِلْم لا يزول؛ وذلك لأنّ صنيعَ العِلم في النّفس الناطقة للّذّة العقليّة الدائمة لدوام سببها، وهو حصولُ العِلم في جَوْهر النفس الّذي هو مَعشُوق النّفس مع انتفاء ما يُشغِلها عن التمتّع به، والتلذّذ بمصاحبته؛ والّذي كان يشغِلها عنه في الدّنيا استغراقُها في تدبير البدن، وما تُورِدُه عليها الحواسّ من الأُمور الخارجيّة، ولا ريبَ أنّ العاشق إذا خلا بمَعشوقِه، وانتفَتْ عنه أسبابُ الكَدَر، كان في لذّة عظيمة. فهذا هو سرُّ قولِه: «وصنيع المال يزول بزَواله».

فإن قلت: ما معنى قولِه عليه السلام: «معرفةُ العِلْم دينٌ يُدانُ به»، وهل هذا إلّا بمنزلة قولك: معرفةُ المَعرِفة أو عِلم العِلم! وهذا كلامٌ مضطرِب.

قلت: تقديرُه: معرفةُ فَضْل العلم أو شَرفِ العلم، أو وُجوب العلم دِينٌ يدانُ به، أي المعرفة بذلك من أمرِ الدّين، أي رُكنٌ من أركان الدّين واجبٌ مفروض.

ثمّ شَرَح عليه السلام حالَ العِلْم الّذي ذكر أنّ معرفَة وجُوبه أو شرفه دِينٌ يُدانُ به. فقال: العِلم

يَكسِب الإنسانَ الطّاعة في حَياته، أي مَنْ كان عالماً كان لله تعالى مُطيعاً، كما قال سبحانه: ﴿إنّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾[1]. ثم قال: «وجميل الأُحدوثة بعد وفاتِه»، أي الذّكر الجميل بعد مَوْتِه.

ثم شرع في تفضيل العِلم على المال من وجهٍ آخَر، فقال: «العلمُ حاكِم، والمال محكومٌ عليه»، وذلك لعِلْمك أنّ مَصلحَتَك في إنفاق هذا المال تُنفّقه، ولِعِلمك بأنّ المصلحة في إمساكه تمسّكه، فالعِلم بالمصلحة داعٍ، وبالمَضَرّة صارف؛ وهما الأمْران الحاكمان بالحَرَكات والتصرّفات إقداماً وإحْجاماً، ولا يكون القادر قادراً مختاراً إلّا باعتبارهما؛ وليسا إلّا عبارةً عن العِلم أو ما يجري مَجرَى العِلم من الاعتقاد والظّنّ، فإذَنْ قد بان وظهرَ أن العلم من حيثُ هُوَ علمٌ حاكم، وأنّ المال ليس بحاكم، بل محكوم عليه.

ثم قال ﷺ: «هَلك خُزّان المال وهم أحياء»؛ وذلك لأنّ المالَ المخزون لا فرق بينه وبين الصّخرة المدفونة تحتَ الأرض، فخازِنه هالك لا مَحالَة؛ لأنّه لم يلتذّ بإنفاقه، ولم يَصرِفه في الوجوه الّتي نَدَب اللهُ تعالى إليها، وهذا هو الهلاك المَعْنَويّ، وهو أعظمُ من الهلاك الحِسّيّ.

ثم قال: «والعلماءُ باقون مابقيَ الدهر»، هذا الكلامُ له ظاهر وباطن، فظاهرُه قولُه: «أعيانُهم مفقودة، وأمثالُهم في القلوب موجودة»، أي آثارُهم وما دَوّنوه من العُلوم، فكأنّهم موجودون، وباطنه أنّهم موجودون حقيقةً لا مَجازاً، على قولِ مَن قال ببقاء الأنْفس. وأمثالهم في القلوب: كنايةٌ ولُغز، ومعناه ذواتُهم في حظيرة القُدّوس، والمُشارَكة بينها وبين القلوب ظاهرة؛ لأنّ الأمر العامَّ الّذي يَشمَلُهما هو الشّرف، فكما أنّ تلك أشرَفُ عالَمها، كذا القلبُ أشرَفُ عالمه، فاستُعير لفظُ أحدِهما وعُبِّر به عن الآخر.

قوله ﷺ: «ها إنّ هاهنا لَعِلماً جَمّاً، وأشار بيَدِه إلى صدره»، هذا عندي إشارةٌ إلى العِرْفان والوُصول إلى المقام الأشرَف الّذي لا يصل إليه إلّا الواحد الفَذّ من العالَم ممّن لله تعالى فيه سرّ، وله به اتّصال. ثم قال: «لو أُصبت له حَمَلةً!»، ومن الّذي يُطيق حَمْله! بل مَن الذي يُطِيق فهمَه فضلاً عن حَمِلِه! ثم قال: «بلى أُصيب». ثمّ قسّم [الذين] يصيبهم خمسةَ أقسام:

---

١. سورة فاطر ٢٨.

أحدهم: أهلُ الرّياء والسُّمْعة؛ الذين يُظهِرون الدّين والعلم ومقصودُهم الدّنيا، فيَجعَلون الناموس الدِّيني شَبَكة لاقتناص الدّنيا.

وثانيها: قومٌ من أهل الخير والصّلاح ليسوا بذَوِي بَصيرة في الأُمور الإلٰهيّة الغامضة، فيخاف من إفشاء السرّ إليهم أن تَنقدح في قلوبهم شُبْهة بأدنَى خاطر؛ فإنّ مَقَام المعرفة مَقَامٌ خَطِر صَعْب لا يَثبُت تحتَه إلّا الأفرادُ من الرّجال، الذين أُيِّدوا بالتّوفيق والعصمة.

وثالثها: رجلٌ صاحبُ لَذّات وَطَرب مشتهِر بقضاء الشّهوة، فليس من رجالِ هذا الباب.

ورابعُها: رجلٌ يجمَعُ المال وادّخارِه، لا يُنفِقه في شَهَواته ولا في غيرِ شَهَواته، فحكمُه حكمُ القِسْم الثالث.

ثم قال عليه السلام: «كذلك يَمُوت العلمُ بموتِ حامِليه»، أي إذا مِتُّ ماتَ العلمُ الذي في صدري؛ لأني لم أجد أحداً أدفعُهُ إليه، وأُوَرِّثُه إيّاه، ثم استَدرك فقال: اللّهمّ بلى، لا تخلو الأرضُ من قائم بحجّة لله تعالى، كَيْلا يخلوَ الزمان ممّن هو مهيمِنٌ لله تعالى على عبادِه، ومسيطِرٌ عليهم؛ وهذا يكاد يكونُ تصريحاً بمَذهب الإماميّة، إلّا أنّ أصحابَنا يحملونه علىٰ أنّ المراد به الأبْدال الذين وردتْ الأخبارُ النبويّة عنهم أنّهم في الأرض سائحون، فمنهم من يُعرَف، ومنهم من لا يُعرَف، وإنهم لا يموتون حتّى يودعُوا السرّ، وهو العِرْفان، عند قومٍ آخَرين يقومون مَقامَهم[1].

---

١. هذا الكلام الذي قاله أمير المؤمنين عليه السلام لكميل رضي الله عنه، قد تواتر نقله عن أهل السنّة والشيعة، فمن السنّة، ابن عبد ربّه الأندلسي في العقد الفريد ٢:٦٩، وأبو هلال العسكري في ديوان المعاني ١:٤١، وابن الجوزي في تذكرة الخواص: ص ١٤١، وأبو جعفر الإسكافي في المعيار والموازنة. ومن الشيعة رواه الكليني في الكافي ١:١٧٨ ح٧، والصدوق في كمال الدين: ص ٢٨٩ / ح٢ و ٣٠٢ / ح ١٠، والشيخ المفيد في الإرشاد: ص ١٢٢. وغيرهم.

وأمّا قول الشارح ابن أبي الحديد: (وهذا يكاد يكون تصريحاً بمذهب الإمامية وأصحابنا يحملونه علىٰ أن المراد به الأبدال... الخ).

أقول: إن تأويله أو صرفه النصّ إلىٰ الأبدال ورؤساء الصوفية، أهل الشطح والتخيّلات البعيدة عن معاهد العلم والقرآن والسنّة، فقول بعيد أجراه علىٰ هواه ومذهب أصحابه، فلا يلتفت إليه. ثمّ من هؤلاء الأبدال الذين يتبجح بذكرهم؟ هل هم من الجن أم من الملائكة أم ماذا؟ ﴿إن هي إلا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها

⇔

ثمّ استنزَرَ عَددُهم فقال: «وكم ذا ؟»، أي كم ذا القَبِيل ؟ وكم ذا الفريق ؟ ثم قال: « وأين أولئك ؟» استَبهَم مكانَهم ومحلَّهم . ثم قال: هم الأقلّون عَدداً، الأعْظمون قَدْراً .

ثمّ ذكر أنّ العِلم هجم بهم على حقيقة الأمر ، وانكَشَف لهم المستور المغطّى ، وباشَروا راحَة اليقين وبَرْدَ القَلْب وثَلْج العلم ، واستَلَانوا ما شَقّ على المترَفين من النّاس ، ووعر عليهم نحو التوحّد ورفض الشّهوات وخُشونة العيشة . «وأنسوا بما استَوحَش منه الجاهلون» ، يعني العُزْلَة ومجانَبةَ الناس ، وطول الصّمت ، وملازَمة الخَلْوة ؛ ونحوَ ذلك ممّا هو شِعار القوم . « وصَحِبوا الدّنيا بأرواح أبدانُها معلَّقةٌ بالمَحَلّ الأعلى» ، هذا ممّا يقوله أصحابُ الحِكمة مِن تعلّق النفوس المجرَّدة بمبادئها من العقول المفارقة ، فمن كان أزكَى كان تعلّقُه بها أتَمَّ . ثم قال : « أولئك خُلفاء الله في أرضِه ، والدعاةُ إلى دينه» ، لا شُبهةَ أنّ بالوصول يستحقّ الإنسان أن يسمّى خليفة الله في أرضِه ، وهو المعني بقوله سبحانه للملائكة **﴿إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة﴾**[1] ، وبقوله : **﴿هُوَ الذي جَعَلكُمْ خَلائِفَ الأرْض﴾**[2] .

ثم قال : «آهِ آهِ شوقاً إلىٰ رؤيتهم !» ، هو عليه السلام أحقّ الناس بأنَ تشتاق إلى رؤيتهم ؛ لأنّ الجنسية عِلّة الضمّ ، والشيء يشتاق إلى ما هو من سِنْخِه وسُوسَتِه وطبيعته ، ولما كان هو عليه السلام شيخ العارفين وسيّدَهم ، لا جَرَم اشتاقت نفسه الشريفةُ إلى مُشاهدةِ أبناءِ جنسِه ، وإن كان كلُّ واحد من الناس دونَ طبقته .

ثم قال لِكمَيل : «اِنصرف إذا شئت» ، وهذه الكلمة من محاسِن الآداب ، ومن لطائف

⇔ من سلطان﴾ سورة النجم ٢٣.

ولماذا لم يحمل أخبار الأبدال علىٰ أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله الأئمة الاثني عشر عليهم السلام كما هي القاعدة من حمل المجمل علىٰ المفصّل ، والمشكوك علىٰ المتيقّن ؟ وما يفعل بقوله عليه السلام : «إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً» . فأي بدل من أولئك الأبدال كان ظاهراً مشهوراً ؟ وأيهم كان خائفاً مغموراً ؟ وكيف ، وكلامه عليه السلام يشمل الأنبياء عليهم السلام ! مثل قوله عليه السلام : «لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة» ، ومعلوم أن الأنبياء من القائمين لله بحجّة بلا خلاف . فلابد أن المراد بالحجة هم الأنبياء ، ومن كان بمنزلتهم من أوصيائهم المعصومين ، ولم يكن بعد نبيّنا صلى الله عليه وآله من يكون مثله في عصمته وعلمه ومنزلته ، ومن تقوم به الحجة سوىٰ الأئمة الاثني عشر من أهل بيته عليهم السلام بإجماع الأُمّة . نهج الصباغة في شرح نهج البلاغة للعلّامة التستري ٢: ٥١٦ ـ ٥٢٠ بتصرّف .

١. سورة البقرة ٣٠.

٢. سورة الأنعام ١٦٥.

الكلم؛ لأنّه لم يقتصر على أن قال: «انصرف» كَيلا يكونَ أمراً وحُكْماً بالانصراف لا محالة، فيكون فيه نوعُ عُلوٍّ عليه، فاتْبَع ذلك بقوله: «إذا شئتَ» ليُخرِجه من ذَلّ الحكم وقَهْر الأمر إلى عِزّة المشيئة والاختيار.



الأَصْلُ:

ٱلْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ.

الشّرْحُ:

هذه اللفظة لا نظير لها في الإيجاز والدّلالة على المعنى، وهي من ألفاظِهِ ﷺ المعدودة[١].

وقال الشاعر[٢]:

وكائنْ تَرَى من صامتٍ لك مُعجِبٍ	زيادتُه أو نقْصُه في التكلُّمِ
لسانُ الفَتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه	فلم يَبقَ إلّا صورةُ اللحمِ والدّمِ



الأَصْلُ:

هَلَكَ ٱمْرُؤٌ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ[٣].

---

١. يقول: إنما يظهر عقل المرء وفضله بما يصدر عن لسانه، فكأنه قد خبئ تحت لسانه، فإذا تحرّك انكشف.

٢. ينسبان لزهير، من معلقته: ص ٩٤ بشرح الزوزنيّ.

٣. كل من يدعي ما ليس فيه ولم يعرف قدر نفسه، فمآله الوبال، والهلاك، والخيبة والخسران. وقيل: الهلاك بمعنى النقصان، يقال: هالِك أي ناقص، والمعنى نقص من جهل قدره وشأنه.

الشّرْحُ :

هذه الكلمة من كلماته المعدودة.



الأصْلُ :

وقال عليه السلام لرجل سأله أن يعظه :

لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو ٱلْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَيَرْجِيُّ التَّوْبَةَ بِطُولِ ٱلْأَمَلِ؛ يَقُولُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِ الزَّاهِدِينَ، وَيَعْمَلُ فِيهَا بَعَمَلِ الرَّاغِبِينَ، إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَعْ، وَإِنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ؛ يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ، وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ فِيما بَقِيَ؛ يَنْهَىٰ وَلَا يَنْتَهِي، وَيَأْمُرُ الناسَ بِمَا لَمْ يَأْتِ به.

يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ، وَيُبْغِضُ ٱلْمُذْنِبِينَ وَهُوَ أَحَدُهُمْ؛ يَكْرَهُ ٱلْمَوْتَ لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ، وَيُقِيمُ عَلَىٰ مَايَكْرَهُ ٱلْمَوْتَ لَهُ، إِنْ سَقِمَ ظَلَّ نَادِماً، وَإِنْ صَحَّ أَمِنَ لَاهِياً؛ يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوفِيَ، وَيَقْنَطُ إِذَا ٱبْتُلِيَ؛ إِنْ أَصَابَهُ بَلَاءٌ دَعَا مُضْطَرّاً، وإِنْ نَالَهُ رَخَاءٌ أَعْرَضَ مُغْتَرّاً، تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَىٰ مَا يَظُنُّ، وَلَا يَغْلِبُهَا عَلَىٰ مَا يَسْتَيْقِنُ، يَخَافُ عَلَىٰ غَيْرِهِ بِأَدْنَىٰ مِنْ ذَنْبِهِ، وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ عَمَلِهِ؛ إِنِ ٱسْتَغْنَىٰ بَطِرَ وَفُتِنَ، وَإِنِ ٱفْتَقَرَ قَنِطَ وَوَهَنَ، يُقَصِّرُ إِذَا عَمِلَ، وَيُبَالِغُ إِذَا سَأَلَ؛ إِنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ أَسْلَفَ ٱلْمَعْصِيَةَ، وَسَوَّفَ التَّوْبَةَ، وَإِنْ عَرَتْهُ مِحْنَةٌ ٱنْفَرَجَ عَنْ شَرَائِطِ ٱلْمِلَّةِ.

يَصِفُ ٱلْعِبْرَةَ وَلَا يَعْتَبِرُ، وَيُبَالِغُ فِي ٱلْمَوْعِظَةِ وَلَا يَتَّعِظُ، فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدِلٌّ، وَمِنَ ٱلْعَمَلِ مُقِلٌّ.

يُنَافِسُ فِيما يَفْنَىٰ، وَيُسَامِحُ فِيما يَبْقَىٰ. يَرَىٰ ٱلْغُنْمَ مَغْرَماً، وَٱلْغُرْمَ مَغْنَماً؛ يَخْشَىٰ

ٱلْمَوْتَ، وَلَا يُبَادِرُ ٱلْفَوْتَ؛ يَسْتَعْظِمُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا يَسْتَقِلُّ أَكْثَرَ مِنْهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَسْتَكْثِرُ مِنْ طَاعَتِهِ مَا يَحْقِرُهُ مِنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ، فَهُوَ عَلَىٰ النَّاس طَاعِنٌ، وَلِنَفْسِهِ مُدَاهِنٌ.

اللَّغْوُ مَعَ ٱلْأَغْنِيَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ ٱلْفُقَرَاءِ، يَحْكُمُ عَلَىٰ غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ، وَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهَا لِغَيْرِهِ؛ يُرْشِدُ نَفْسَهُ وَيُغْوِي غَيْرَهُ، فَهُوَ يُطَاعُ وَيَعْصِي، وَيَسْتَوْفِي وَلَا يُوفِي، وَيَخْشَىٰ ٱلْخَلْقَ فِي غَيْرِ رَبِّهِ، وَلَا يَخْشَىٰ رَبَّهُ فِي خَلْقِهِ.

قال الرضي‏رحمه الله :

وَلَو لَمْ يَكُن في هذا الكتابِ إلّا هذا الكلامُ لَكَفى به موعظةً ناجعةً، وحكمةً بالغةً، وبصيرةً لمبصرٍ، وعبرةً لناظرٍ مفكّرٍ.

الشّرْحُ :

كثير من الناس يَرْجون الآخِرَة بغيرِ عَمَل، ويقولون: رحمة الله واسِعة؛ ومنهم من يَظُن أنّ التلفّظ بكلمتَي الشهادة كافٍ في دُخول الجنّة، ومنهم من يسوِّف نفسَه بالتوبة، ويرجِئُ الأوْقات من اليوم إلى غَد، وقد يُخْتَرَم على غِرّة فيفوتُه ما كان أمّله، وأكثرُ هذا الفصل للنّهي عن أن يقول [يكون] الإنسان واعظاً لغيره ما لم يعلمْ هو من نفسِه، كقوله تعالى: ﴿**أتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرّ وَتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ**﴾[1].

فأوّل كلمةٍ قالَها‏عليه السلام في هذا المعنى من هذا الفصل قولُه: «يقول في الدّنيا بقول الزّاهدين، ويَعمَل فيها بعمل الراغبين». ثم وَصَف صاحبَ هذا المذهب وهذه الطريقة فقال: إنّه إنْ أعطِيَ من الدّنيا لم يَشبَع؛ لأنّ الطبيعة البشريّة مجبولةٌ على حُبِّ الازدياد، وإنما يقهرها أهلُ التوفيق وأربابُ العَزْم القويّ. «وإن مُنِع منها لم يَقنَع» بما كان وَصَل إليه قبل المَنْع.

ثم قال: يَعجَز عن شكرِ ما كان أنعَمَ به عليه، ليس يعني العجزَ الحقيقيَّ، بل المراد تَرْك الشّكر، فسمّى ترك الشكر عَجزاً. ويجوز أن يُحمَل على حقيقته، أي أنّ الشكر على ما أُولِي من النّعم لا تَنتهي قُدْرَته إليه، أي نِعَم الله عليه أجلّ وأعظَم من أن يُقام بواجب شكرها.

---

١. سورة البقرة ٤٤.

« ويَبتغِي الزيادَة فيما بَقِي»، هذا راجعٌ إلى النّحو الأوّل. «يَنهَى ولا يَنتهِي، ويأمرُ النـاسَ بما لا يأتي»، هذا كما تقدَّم. «يُحِبّ الصالحين ولا يَعمَل عَملَهم»، إلى قوله: «وهو أحدُهم»، وهو المعنَى الأوّل بعينه. قال: يَكرَه الموتَ لكثرةِ ذُنوبه، ويقيمُ على الذّنوب، وهذا من العجائب أن يَكرَه إنسانٌ شيئاً ثم يُقيمُ عليه، ولكنّه الغرورُ وتسويفُ النّفس بالأمانيّ. ثم قال: « إن سَقِمَ ظَلّ نادماً، وإن صَحَّ أمِن لاهياً»، **﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾**[1] ... الآيات.

قال: «يَعجَب بنفسِه إذا عُوفِي، ويَقنَط إذا ابتُلي»، **﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إذا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا ما ابْتَلَاهُ فَقَدَر عَلَيهِ رِزْقَهُ فَيَقُول رَبِّي أَهَانَنِ﴾**[2]، ومِثل الكلمة الأُخرىٰ: «إن أصابَه بَلاء»، «وإنْ ناله رَخاء». ثم قال: «تغلبه نفسُه على ما يَظُنُّ، ولا يغلبها على ما يَستيقِن»، هذه كلمة جليلةٌ عظيمة، يقول: هو يستيقِن الحِسابَ والثوابَ والعِقابَ، ولا يغلِب نفسَه على مجانبةِ ومتاركةِ ما يُفضِي بـه إلى ذلك الخَطَر العظيم، وتغلبُه نفسه على السّعي إلى ما يَظنّ أن فيه لَذّةً عاجلةً، فواعجباً ممّن يترجّح عندَه جانبُ الظنّ على جانب العلم! وما ذاك إلّا لضعفِ يقينِ الناس وحبّ العاجل.

ثمّ قال: «يخاف على غيره بأدنى من ذَنْبه، ويرجو لنفسِه أكثرَ من عَمَله»، ما يزال يَرَى الواحد منّا كذلك يقول: إنّي لخائف على فلان من الذّنب الفلانيّ وهو مقيمٌ على أفحشَ من ذلك الذنب، ويرجو لنفسِه النّجاة بما لا تقوم أعمالُه الصّالحة بالمصير إلى النّجاة به، نحو أن يكون يصلّي رَكعاتٍ في اللّيل أو يصومَ أياماً يسيرةً في الشّهر، ونحو ذلك.

قال: «إن استغنَى بَطِر وفُتِن، وإن افتقَر قَنِط ووهن»، قنط بالفَتْح ويَقنِط بالكسر، قُنوطاً مثل جَلَس يَجلِس جلوساً، ويجوز قَنَط يَقنُط بالضمّ مثل قَعَد يَقعُد، وفيه لغة ثالثة: قَنِط بالكسر يَقنَط قَنَطاً، مثل تَعِب يَتعَب تَعباً وقَناطةً فهو قَنِط، وبه قرئ: **﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِينَ﴾**[3]، والقُنوط: اليأس. ووهَن الرجلُ يَهِن، أي ضَعُف وهذا المعنى قد تكرّر.

قال: «يقصّر إذا عَمِل، ويُبالغ إذا سُئِل»، هذا مِثْلُ ما مَدَحَ به النبيُّ ﷺ الأنصارَ: « إنّكم لتَكثُرون عند الفَزَع، وتَقِلّون عند الطمع». قال: «إن عَرَضَتْ له شهوةٌ أسلَفَ المعصية،

---

١. سورة العنكبوت ٦٥.

٢. سورة الفجر ١٥، ١٦.

٣. سورة الحجر ٥٥، وهي قراءة الأعمش ويحيى بن وثاب، وانظر تفسير القرطبي ١٠: ٣٦.

وسوّف التوبة، وإن عَرَتْه مِحْنة انفرَج عن شرائط المِلّة»، هذا كما قيل: أمدَحُه نَقْداً ويُثِيبُني نَسِيئةً. وانفرج عن شرائط الملّة. قال أو فعل ما يقتضي الخروجَ عن الدّين؛ وهذا موجودٌ في كثيرٍ من الناس إذا عرتْه المِحَن كفَر أو قال ما يُقارِب الكفرَ من التسخّط والتبرّم والتأفّف. «يَصِف العِبْرة ولا يَعتبِر، ويُبالِغ في الموعظة ولا يتّعظ»، هذا هو المعنى الأوّل. «فهو بالقول مُدِلّ، ومن العمل مُقِلّ»، هذا هو المعنى أيضاً. «ينافِسُ فيما يَفنَى»، أي في شَهَوات الدنيا ولذّاتها. و «يُسامِح فيما يَبقَى»، أي في الثّواب. «يَرى الغُنْم مَغرَماً، والغُرْم مَغنَماً»[1]، هذا هو المعنَى الّذي ذكرْناه آنِفاً. قال: «يَخشَى الموت، ولا يُبادِر الفَوْت»، قد تكرّر هذا المعنى في هذا الفَصْل، وكذلك قولُه: «يَستعظِم من معصيةِ غيرِه ما يستقلّ أكثر منه من نفسِه ...»، وإلى آخر الفصل كلٌّ مكرّرَ المعنى وإن اختلفت الألفاظ، وذلك لاقتدارِه عليه السلام على العِبارة، وسَعةِ مادّة النّطق عندَه.



الأصْلُ:

لِكُلِّ آمْرِئٍ عَاقِبَةٌ حُلْوَةٌ أَوْ مُرَّةٌ.

الشّرْحُ:

هكذا قرأناه ووجَدْناه في كثيرٍ من النُّسَخ، ووجَدْناه في كثير منها: «لكلّ أمرٍ عاقبة»، وهو الأليَق، ومثل هذا المعنى قولُهم في المَثَل: لكلّ سائلٍ قَرار، وقد أخَذَه الطائيّ فقال:

فكانتْ لوعة ثمّ استقرّتْ   كذاكَ لكلّ سائلةٍ قَرارُ[2]

فأمّا الرواية الأُولى وهي: «لكلّ امرئٍ» فنظائرُها في القرآن كثيرة، نحو قوله تعالى:

---

١. الغُنْم: الغنيمة. الغرم: الغرامة. الفوت: فوات الفرصة وانقضاؤها. بادر: أسرع، بادره: عاجله قبل أن يذهب. يرشد: يهدي. يغوي: يضلّ. يستوفي: يأخذ حقّه كاملاً. يوفي: اعطاه إياه تاماً.

٢. ديوانه ٢: ١٥٣.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[1].



الأصْلُ:

الرَّاضِي بِفِعْلِ قَوْمٍ كَالدَّاخِلِ فِيهِ مَعَهُمْ. وَعَلَىٰ كُلِّ دَاخِلٍ فِي بَاطِلٍ إِثْمَانِ: إِثْمُ ٱلْعَمَلِ بِهِ، وَإِثْمُ الرِّضا بِهِ.

الشَّرْحُ:

لا فرقَ بين الرّضا بالفعل وبين المُشارَكة فيه؛ ألا ترى أنّه إذا كان ذلك الفعل قبيحاً استَحَقّ الراضي به الذمّ كما يستحقّه الفاعل له! والرّضا يفسَّر على وجهين: الإرادة وتَرْك الاعتراض، فإن كان الإرادة فلا رَيْب أنّه يَستحِق الذّم؛ لأنّ مُريد القَبِيح فاعلٌ للقبيح، وإن كان ترك الاعتراض مع القدرة على الاعتراض فلا رَيْب أنّه يستحقّ الذمّ أيضاً؛ لأنّ تاركَ النهي عن المنكر مع ارتفاع المَوانِع يستحقّ الذمّ.

فأمّا قولُه ﷺ: «وعلى كلّ داخل في باطلٍ إثمان»، فإن أراد الدّاخل فيه بأن يَفعَله حقيقة، فلا شُبْهة في أنّه يأثم من جهتين: إحداهما من حيثُ إنّه أراد القبيح. والأُخرىٰ من حيث أنه فَعَله.

وإن أراد أنّ الراضيَ بالقبيح فقط يستحقّ إثمين: أحدهما لأنّه رَضِيَ به، والآخَر لأنّه كالفاعل، فليس الأمْر على ذلك؛ لأنّه ليس بفاعلٍ للقبيح حقيقةً ليستحقّ الإثم من جهة الإرادة ومن جهة الفعليّة جميعاً، فوَجَب إذَنْ أن يُحمَل كلامُه ﷺ على الوجه الأوّل.

---

١. سورة هود ١٠٥.

١٤٩

الأصْلُ :

لِكُلِّ مُقْبِلٍ إِدبَارٌ، وَمَا أَدبَرَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ.

الشّرْحُ :

هذا معنىً قد استُعمل كثيراً جدّاً، فمنه المثل:

ما طـارَ طـيرٌ وارتَـفعْ   إلّا كـمـا طـارَ وَقَـعْ

وقول الشاعر:

بقدْر العُـلوّ يكـونُ الهـبوطُ   وإيّـاك والرُّتبَ العـاليَهْ

وقال بعض الحكماء: حركةُ الإقبال بطيئة، وحركة الإدبار سريعة؛ لأنّ المُقبل كالصاعد إلى مِرْقاة، ومِرقاةُ المُدبر كالمَقْذوف به من عَلْو إلى أسْفل.

وقال مطرِّف بنُ الشِّخِّير: لا تنظروا إلى خفضِ عيش الملوك ولينِ رِياشِهم، ولكن انظروا إلى سُرعةِ ظَعْنِهم وسوء مُنقَلَبهم، وإنّ عُمْراً قصيراً يستوجِب به صاحبُه النار لعُمرٌ مشؤومٌ على صاحبه.



الأصْلُ :

لَا يَعْدَمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ وَإِنْ طَالَ بِهِ الزَّمَانُ.

الشّرْحُ :

قد تقدّم كلامُنا في الصّبر. وقالت الحكماء: الصّبرُ ضَرْبان: جسميّ ونفسيّ.

فالجسميّ تحمُّل المَشَاقّ بقدر القوّة البدنيّة، وليس ذلك بفضيلة تامّة.

وأمّا النفسيّ ففيه تتعلّق الفضيلة؛ وهو ضَرْبان: صبرٌ عن مشتهى، ويقال له: عِفّة، وصَبر على تحملِ مكروه أو محبوب. وتختلف أسماؤهم بحسب اختلافِ مَواقِعه، ولكن اللـفظ العُرْفيّ واقع على الصبر الجُسْمانيّ، وعلى ما يكون في نزول المصائب.



الأصْلُ:

مَا آخْتَلَفَتْ دَعْوَتَانِ إِلَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ضَلَالَةً.

الشّرْحُ:

هذا عند أصحابنا مختصٌّ باختلاف الدّعوة في أُصول الدّين، ويَدْخل فـي ذلك الإمـامة؛ لأنّها من أُصول الدين، ولا يجوز أن يَختلِف قولان متضادّان فـي أُصـول الدّيـن فـيكونا صواباً.

ولا يحمل أصحابنا كلامَ أمير المؤمنينعليه السلام على عـمومه؛ لأنّ المـجتهدين فـي فـروع الشريعة وإن اختَلَفوا وتضادّت أقوالهم ليسوا ولا واحد منهم على ضلال[1].



الأصْلُ:

مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِبْتُ، وَلَا ضَلَلْتُ وَلَا ضُلَّ بِي.

---

١. قال ابن ميثم في شرح النهج: الدعوة إمّا إلى حق، أو إلى غيره، وهو الباطل، ولا واسـطة بـينهما وهـذا يـؤيد المنقول عنه، وعن أهل بيتهعليهم السلام: إنّ الحق في جهة، وإنه ليس كلّ مجتهد مصيباً.

الشّرْحُ :

هذه كلمةٌ قد قالها مراراً، إحداهنّ في وقعة النّهروان.

وكُذِبت بالضم أُخبِرْت بخبَر كاذب، أي لم يخبرني رسول الله ﷺ عن المخدَج خبراً كاذباً؛ لأنّ أخبارَه ﷺ كلها صادقة. وضلّ بي بالضمّ نحو ذلك، أي لم يُضلِلني مضلّل عن الصدق والحقّ؛ لأنّه كان يَسْتنِد في أخباره عن الغيوب إلى رسول الله ﷺ وهو منزَّه عن إضلاله وإضلال أحد من المكلفين. فكأنَّه قال ـ لما أخبرهم عن المخدَج[1] وإبطاء ظهورِه لهم ـ: أنا لم أكذِب على رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ لا يكذب فيما أخبرني بوقوعه، فإذاً لابدّ من ظفَركم بالمخدَج فاطلبوه.



١٥٣

الأصْلُ :

لِلظَّالِمِ ٱلْبَادِي غَداً بِكَفِّهِ عَضَّةٌ.

الشّرْحُ :

هذا من قوله تعالى: ﴿ويوم يَعَضُّ الظالمُ عَلَى يَدَيهِ﴾[2]، وإنما قال: « للبادي »؛ لأنّ من انتصر بعد ظُلْمه فلا سبيل عليه. ومن أمثالهم: البادي أظلم.

---

١. المخدَج: ناقص اليد؛ وهو ذو الثدية. وقيل: هو (شيطان الرَّدْهة). ورَوَوْا: أن ذا الثدية لم يُقتل بسيف، ولكنّ الله رماه يوم النهروان بصاعقة وإليها أشار الإمام ﷺ بقوله: « لقد كفيته بصعْقة سُمعت له وَجْبة قلبه » شرح النهج ١٣: ١٨٣. وروىٰ جميع أهل السِّير: أنّ علياً ﷺ لما طحن القوم، طلب ذا الثدية طلباً شديداً، وقلّب القتلىٰ ظهراً لبطن، فلم يقدر عليه، فساءه ذلك، وجعل يقول: والله ما كذبت ولا كُذبْت، اطلبوا الرجل، وإنّه لفي القوم؛ فلم يزل يتطلّبه حتىٰ وجده، وهو رجل مُخْدَج اليد، كأنها ثديٌ في صدره.

وروي أنه ﷺ لما عثروا عليه، جعل علي ﷺ ينادي: « صدق الله وبلّغ رسوله » شرح النهج ٢: ٢٧٥. وروت عائشة عن النبي ﷺ قوله: « يقتله خير أُمتي من بعدي » ص ٢٨٦.

٢. سورة الفرقان ٢٧.

فإن قلت: فإذا لم يكن بادياً لم يكن ظالماً، فأيّ حاجة له إلى الاحتراز بقوله: «البادي»؟
قلتُ: لأنّ العرب تُطلِق على ما يَقَع في مُقابلة الظلم اسم (الظلم) أيضاً كقوله تعالى: ﴿وَجَزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثلُها﴾[1].



الأصْلُ :

الرَّحِيلُ وَشِيكٌ .

الشّرْحُ :

الوشيكُ : السريع ، وأراد بالرحيل هاهنا الرّحيل عن الدنيا وهو الموت .

وقال بعضُ الحكماء : قبل وجود الإنسان عدم لا أوّل له ، وبعدَه عدَم لا آخر له ، وما شبّهت الوجود القليل المتناهي بين العدمين الغير متناهِيَين إلّا ببَرْق يخطَف خَطفة خفيفةً في ظلامٍ مُعتكر ، ثم يخمد ويَعود الظّلام كما كان .



الأصْلُ :

مَنْ أَبْدَىٰ صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ .

---

١. سورة الشورى ٤٠.

الشّرْحُ:

قد تقدّم تفسيرُنا لهذه الكلمة في أوّل الكتاب، ومعناها: من نابَذَ الله وحاربَهُ هلك، يقال لمن خالَف وكاشَف: قد أبْدَى صَفْحَته.



الأصْلُ:

آستَعْصِمُوا بِالذِّمَمِ فِي أَوْتَادِهَا[1].

الشّرْحُ:

أي في مَظانّها وفي مركزها، أي لا تستنِدوا إلى ذمامِ الكافرين والمارِقين، فإنهم ليسوا أهلاً للاستِعصامِ بذِممهم، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤمنٍ إلّا ولا ذِمّة﴾[2]. وقال: ﴿إنهم لا أيمان لهم﴾[3].

وهذه كلمة قالها بعد انقضاء أمرِ الجمل، وحضور قومٍ من الطُّلقاء بين يديه ليُبايعوه، منهم مَرْوانُ بن الحكَم؛ فقال: وماذا أصنع ببَيْعتك؟ ألم تُبايعْني بالأمْس! يعني بعدَ قتل عثمان، ثم أمر بإخراجهم ورفْعِ نفسه عن مبايعة أمثالهم، وتكلم بكلامٍ ذكر فيه ذِمامَ العربية وذمامَ الإسلام، وذكر أنّ من لا دِين له فلا ذِمامَ له.

ثم قال: في أثناء الكلام: «فاستعصِموا بالذمم في أوتارِها»، أي إذا صَدَرَتْ عن ذَوِي الدّين، فمنْ لا دين له لا عَهْدَ له.

---

١. اعتصموا: تحصنوا، والذمم: العهود. والمراد بالأوتاد: أهل الصدق والدين والوفاء.

٢. سورة التوبة ١٠.

٣. سورة التوبة ١٢.



الأصْلُ :

عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لَا تُعْذَرُونَ بِجَهَالَتِهِ.

الشّرْحُ :

يعني نفسَه؛ وهو حقّ على المذهَبين جميعاً، أما نحن فعندنا أنه إمامٌ واجبُ الطاعة بالاختيار، فلا يُعذَر أحدٌ مِن المكلّفين في الجهل بوجوب طاعته، وأمّا على مذهبِ الشّيعة فلأنه إمامٌ واجبُ الطّاعة بالنصّ، فلا يُعْذَر أحدٌ من المكلفين في جَهالة إمامته، وعندهم أنّ معرفة إمامته تَجري مجرى معرفةِ محمد ومَجرى معرفة الباري سبحانه، ويقولون: لا تصحّ لأحد صلاةٌ ولا صَومٌ ولا عبادة إلّا بمعرفة الله والنبيّ والإمام.

وعلى التحقيق، فلا فرق بيننا وبينهم في هذا المعنى؛ لأنّ من جَهل إمامة عليٍّ وأنكرَ صِحتَها ولزومها، فهو عند أصحابنا مخلد في النار، لا ينفعه صوم ولا صلاة؛ لأنّ المعرفة بذلك من الأُصول الكليّة التي هي أركانُ الدين، ولكِنّا لا نُسَمِّي مُنكر إمامته كافراً، بل نسمّيه فاسقاً، وخارجياً، ومارِقاً، ونحو ذلك، والشِّيعة تسميه كافراً، فهذا هو الفرْق بيننا وبينهم، وهو في اللفظ لا في المعنى[1].



الأصْلُ :

مَا شَكَكْتُ فِي ٱلْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ.

---

١. الذي لا يعذر بجهالته أوّلاً هو الله سبحانه ثم الرسول، ثم أوصياؤه الاثنا عشر، قال تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم...﴾ النساء ٥٩.

الشَّرْحُ:

أي منذ أُعلِمْتُه، ويجب أن يُقدَّر هاهنا مفعول محذوف، أي منذ أُرِيته حقّاً، ويجوز أن يَعنِي بالحقّ اللهَ سبحانَه وتعالى، لأنّ الحق من أسمائِه عزّ وجلّ، فيقول: منذ عرفتُ اللهَ لم أشُكَّ فيه، وتكون الرؤية بمعْنَى المَعرِفة، فلا يحتاج إلى تقدير مَفعولٍ آخَر؛ وذلك مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[1]، أي لا تَعرِفونهم، اللهُ يَعرِفهم، والمراد من هذا الكلام ذكرُ نعمةِ الله عليه في أنّه منذ عَرَف الله سبحانَه لم يَشُكَّ فيه، أو منذ عرفَ الحقّ في العَقائد الكلاميّة والأُصوليّة والفِقْهِية لم يشكّ في شيء منها؛ وهذه مَزِيّةٌ له ظاهرة على غيرِه من النّاس، فإنّ أكثرَهم أو كلَّهم يشكّ في الشيء بعد أن عرفَه وتعتَورِه الشُّبَه والوَساوِس ويُرانُ على قَلْبِه وتَختَلِجُه الشياطين عمّا أدّى إليه نظره.

وقد رُوِي أنّ النبيّ ﷺ لمّا بَعَثه إلى اليمين قاضياً ضَرَب على صَدْره وقال: «اللهم اهدِ قلبه، وثَبِّت لسانَه»، فكان يقول: «ما شككْتُ بعدها في قضاءٍ بين اثنين».

ورُوِي أنّ رسول الله ﷺ لمّا قرأ: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[2]، قال: «اللهمّ اجعلها أُذنَ عليٍّ»، وقيل له: «قد أُجيبتْ دعوَتُك».



الأَصْلُ:

وَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ، وَقَدْ هُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ.

---

١. سورة الأنفال ٦٠.

٢. سورة الحاقة ١٢.

الشّرْحُ :

قال الله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودَ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾[١] .

وقال سبحانه : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[٢] .

وقال بعض الصالحين : ألا إنّهما نَجْدا الخَيْر والشرّ ، فجعل نَجْد الشرّ أحبّ إليكم من نَجْد الخير . قلت : النَّجْد : الطّريق .

واعلم أنّ الله تعالى قد نَصَب الأدِلّة ومَكّن المكلّف بما أكمَل له من العقل من الهداية ، فإذا ضلّ فمِنْ قِبَل نفسِه أتى .

وقال بعضُ الحكماء : الّذي لا يَقبَل الحكمةَ هو الّذي ضَلّ عنها ليست هِي الضالّة عنه .



الأصْلُ :

عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَآرْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ .

الشّرْحُ :

الأصل في هذا قولُ الله تعالى : ﴿ادفَعْ بالتي هِيَ أحْسَنُ فإذا الذِي بينَكَ وبينهُ عداوة كأنّه وليٌّ حميم﴾[٣] .

وروى المبرد في «الكامل» عن ابن عائشة ، عن رجل مَن أهل الشام ، قال : دخلتُ المدينة ، فرأيتُ رجلاً راكباً على بغلة لم أر أحسَنَ وَجْهاً ولا ثَوْباً ولا سَمْتا ولا دابةً منه ، فمال قلبي إليه ، فسألت عنه ، فقيل : هذا الحسنُ بنُ الحسن بن عليّ ، فامتلأ قلبي لهُ بغضاً ، وحسدتُ عليّاً أن يكون له ابن مثله ، فصرتُ إليه وقلتُ له : أنت ابن أبي طالب ؟ فقال : أنا

١. سورة فصلت ١٧.

٢. سورة البلد ١٠.

٣. سورة فصلت ٣٤.

ابن ابنه، قلت: فبك وبأبيك! فلمّا انقضى كلامي قال: أحسَبك غريباً؟ قلت: أجَل، قال: فَمِلْ بنا، فإن احتَجْت إلى منزلٍ أنزلناك، أو إلى مالٍ واسَيْناك، أو إلى حاجةٍ عاوَنّاك.

فانصرفْتُ عنه وما على الأرض أحدٌ أحبّ إليّ منه[1].



الأصْلُ:

مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مَوَاضِعَ التُّهَمَةِ فَلَا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ.

الشّرْحُ:

رأى بعضُ الصّحابة رسول الله ﷺ واقفاً في دَرْبٍ من دروب المدينة ومعه امرأةٌ فَسلّم عليه، فردّ عليه، فلما جاوَزَه ناداه فقال: هذه زوْجتي فلانة، قال: يا رسول الله، أوَفيك يُظَنّ! فقال: «إنّ الشيطان يجري مِن ابن آدم مجرَى الدّم». وجاء في الحديث المرفوع: «دَعْ ما يرِيبُك إلى ما لا يريبُك». وقال أيضاً: «لا يكملُ إيمانُ عبدٍ حتى يترُك ما لا بأسَ به».



الأصْلُ:

مَنْ مَلَكَ آستأْثَرَ.

الشّرْحُ:

المعنى أن الأغلب في كلّ ملك يَستأثر على الرعية بالمال والعزّ والجاه.

ونحو هذا المعنى قولهم: من غَلَب سَلَب، ومن عزّ بَزّ.

---

١. الكامل في اللغة والأدب ٢: ٥، ٦.



الأصْلُ :

مَنِ ٱسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ ، وَمَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا.

الشّرْحُ :

قد تقدّم لنا قولٌ كافٍ في المَشُورة مدحاً وذماً.

وكان يقال: الاستشارة إذاعة السرّ، ومخاطرةٌ بالأمر الذي ترومُه بالمشاوَرة، فرُبَّ مستشارٍ أذاعَ عنك ما كان فيه فساد تدبيرك.

وأمّا المادِحون للمشُورة فكثير جدّاً. وقالوا: خاطر مَن استبدّ برأيه. وقالوا: المَشُورة راحةٌ لك، وتَعبٌ على غيرك. وقالوا: مَن أكثر من المَشورة لم يُعدَم عند الصواب مادحاً، وعند الخطأ عاذراً.



الأصْلُ :

مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتِ ٱلْخِيرَةُ بِيَدِهِ.

الشّرْحُ :

من أمثالهم: مَقتل الرَّجُل بين لَحْيَيه. ومِن كلامهم: سِرُّك من دَمِك، فإذا تكلّمت به فقد أرَقْتَه.

وقال بعض الحكماء: مَن أفشى سِرّه كثُر عليه المتآمِرُون.



الأَصْلُ :

اَلْفَقْرُ اَلْمَوْتُ اَلْأَكْبَرُ[١].

الشَّرْحُ :

في الحديث المرفوع: «أشقى الأشقياء مَن جُمِعَ عليه فقرُ الدنيا وعذابِ الآخرة».



الأَصْلُ :

مَنْ قَضَىٰ حَقَّ مَنْ لَا يَقْضِي حَقَّهُ فَقَدْ عَبَّدَهُ.

الشَّرْحُ :

عَبّده بالتشديد، أي اتخذه عَبْداً. يقال عبّده واستَعْبده بمعنى واحد؛ والمعنى بهذا الكلام مَدْحُ مَن لا يُقضى حقّهُ، أي من فعل ذلك بإنسان فقد استعبد ذلك الإنسان، لانه لم يفعلْ معه ذلك مكافأةً له عن حقّ قضاه إيّاه، بل فعل ذلك إنعاماً مبتدأ، فقد استعبده بذلك.

---

١. الموت انقطاع الحياة وزوالُها. والفقر انقطاع مادة الحياة، وانقطاع المادة أشد وأضعف لأنّ الميت مادام ميتاً لا يتألم، وإنّما يتألم مرة واحدة في سكرات موته، والفقير في كل ساعة يتألم، فالفقر هو الموت الأكبر. معارج النهج للبيهقي ص٨٤٦.



الأَصْلُ :

لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ ٱلْخَالِقِ.

الشَّرْحُ :

هذه الكلمةُ قد رويتْ مَرفوعة[1].



الأَصْلُ :

لَا يُعَابُ ٱلْمَرْءُ بِتَأْخِيرِ حَقِّهِ، إِنَّمَا يُعَابُ مَنْ أَخَذَ مَا لَيْسَ لَهُ.

الشَّرْحُ :

لعل هذه الكلمةَ قالها في جواب سائلٍ سأله : لِمَ أخّرت المطالبةَ بحقّك من الإمامة ؟ ولابدّ من إضمار شيء في الكلام على قولنا وقولِ الإماميّة، لأنّا نحن نقول : الأمرُ حَقّه بالأفضليّة، وهم يقولون : إنّه حقّه بالنّصّ، وعلى كِلَا التقديرَين فلابدّ من إضمار شيء في الكلام.

وتقديرُه : لا يُعابُ المرء بتأخير حقّه إذا كان هناك مانعٌ عن طَلَبه، ويستقيم المعنى حينئذٍ على المَذهبَيْن جميعاً ؛ لأنّه إذا كان هناك مانعٌ جاز تقديم غيره عليه، وجاز له أن يؤخّر طلبَ حقّه خوفَ الفتنة[2].

---

١. من عصى الله سبحانه كانت الحجة لله عليه حتىٰ لو أطاع جميع الخلائق، ومن أطاع الله كانت الحجة له عند الله حتى ولو عصىٰ جميع الخلائق بل تكون الطاعة أقوىٰ وللثواب أدعىٰ.

٢. قال الإمام عليه السلام في الرسالة ٢٧ : ما على المسلم أن يكون مظلوماً. وقال أيضاً : إن تلقَ الله مظلوماً خير لك من أن تلقاه ظالماً.



الأصْلُ :

ٱلْإِعْجَابُ يَمْنَعُ مِنَ ٱلازْدِيَاد.

الشَّرْحُ :

إنّما قال عليه السلام : «يمنع من الأزدياد» ؛ لأنّ المُعجَب بنفسه ظانٌّ أنّه قد بَلَغ الغَرَض ، وإنّما يَطلُب الزّيادةَ مَنْ يستشعِر التقصير لا مَن يتخيّل الكمال ؛ وحقيقة العَجَب ظنٌّ الإنسان بنفسِه استحقاقَ منزِلةٍ هو غيرُ مستحِقٍّ لها ؛ ولهذا قال بعضهم لرجل رآه معجَباً بنفسِه : يسرّني أن أكون عندَ الناس مِثلك في نفسِك ، وأنْ أكونَ عندَ نفسي مِثلك عند الناس ، فتمنّى حقيقة ما يقدّره ذلك الرجل ، ثمّ تمنّى أن يكون عارِفاً بعيوب نفسِه ، كما يَعرِف النـاسُ عيوبَ ذلك الرجل المُعجَب بنفسه .

وقال عليه السلام : ثلاثٌ مُهلِكات : شحٌ مُطاع ، وهَوىً متّبَع ، وإعجابُ المرءِ بنفسه .

وأصل الإعجاب من حُبّ الإنسان لنفسِه ، وقد قال صلى الله عليه وآله : «حُبُّك الشيء يُعمِي ويُصِمّ» ، ومن عَمِيَ وصَمَّ تَعذَّر عليه رؤيةُ عُيوبه وسماعُها ، فلذلك وَجَب على الإنسان أن يَجعَل على نفسه عيوناً تُعرِّفه عيوبَه .



الأَصْلُ :

ٱلْأَمْرُ قَرِيبٌ وَٱلْاصْطِحَابُ قَلِيلٌ[1] .

---

١. المراد بالأمر هنا الموت . والمراد بالاصطحاب حياة الإنسان في الدنيا وصحبته لها .

الشّرْحُ :

هذه الكلمةُ تذكُّر بالموت وسرعةِ زَوال الدّنيا.



الأصْلُ :

قَدْ أَضَاءَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ.

الشّرْحُ :

هذا الكلامُ جارٍ مَجرَى المَثَل، ومثله.

* والشمسُ لا تَخفَى عن الأبْصَارِ *

ومِثله :

* إنّ الغَزَالةَ لا تَخفَى عن البَصَرِ *



الأصْلُ :

تَرْكُ الذَّنْبِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِ التوبة.

الشّرْحُ :

هذا حقّ؛ لأنّ ترك الذَّنْب هو الإحجامُ عنه. وهذا سَهلٌ على من يَعرِف أثَر الذّنب على ماذا يكون، وهو أسهَلُ من أن يُواقِع الإنسانُ الذّنب، ثمّ يَطلُب التّوبة. فقد لا يخلص داعيه إليها، ثمّ لو خَلَص فكيف له بحصُوله على شروطها، وهي أن يَندَم على القبيح لأنّه قبيح، لا لخَوْف

العقاب، ولا لِرجاء الثّواب، ثمّ لا يكفيه أن يتوبَ من الزّنا وحدَه، ولا مِنْ شُرب الخمر وحدَه، بل لا تصحّ توبتُه حتّى تكون عامّةً شاملة لكلّ القبائح فيندم عَلى ما قال ويودّ أنّه لم يَفعَل، ويَعزم على أن لا يُعاود معصيةً أصْلاً، وإن نَقَضَ التّوبةَ عادتْ عليه الآثامُ القديمةُ والعقاب المستحق ولا الّذي كان سَقَط بالتّوبة على رأي كثيرٍ من أرباب عِلم الكلام؛ ولا رَيْب أنّ تركَ الذّنب من الابتداء أسْهَلُ من طَلَب توبةٍ هذه صِفَتها.

وهذا الكلام جارٍ مَجرَى المَثَلُ يُضرَب لمن يَشرع في أمرٍ يخاطر فيه، ويرجو أن يتخلّص منه فيما بعدُ بوَجْه من الوجوه.



الأصْلُ:

كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ تَمنَعْ أَكَلَاتٍ.

الشّرْحُ:

أخَذ هذا المعنى بلفظه الحَرِيريُّ فقال في المقامات: رُبَّ أكْلةٍ هاضَت الآكل، ومنَعَتْه مآكل.



الأصْلُ:

النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا.

الشّرْحُ:

هذه الكلمةُ قد تقدّمت وتقدّم منّا ذكرُ نَظائِرها. والعِلّة في أنّ الإنسان عدوّ ما يَجهَله أنّه يخاف من تقريعه بالنَّقْص وبعَدَم العِلْم بذلك الشيء، خصوصاً إذا ضمّه نادٍ أو جَمْعٌ من

الناس فإنّه تتصاغر نفسُه عنده إذا خاضوا فيما لا يَعرِفه ويَنقُص في أعيُن الحاضرين، وكلّ شيء آذاكَ ونَال منكَ فهو عدوُّك.



الأصْلُ :

مَنِ ٱسْتَقْبَلَ وُجُوهَ ٱلْآرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ ٱلْخَطَإِ.

الشّرْحُ :

وقال الشاعر في المَثَل: شَرّ الرأيِ الدَّبَرِيّ.

وخيرُ الرأيِ ما استقبلتَ منه ... وليس بأنْ تَتَتَّبعه اتّباعاً

وليس المراد بهذا الأمر سُرْعة فَضْل الحال لأوّل خاطر، ولأوّل رأي، إنّ ذلك خطأ، وقديماً قيل: دَعْ الرأيَ يغبّ.

وإنّما المنهيّ عنه تضييعُ الفُرْصة في الرأي، ثمّ محاوَلة الاستدراك بعد أن فات وَجْهُ الرأيِ، فذاك هو الرأيُ الدّبريّ.



الأصْلُ :

مَن أَحَدَّ سِنَانَ ٱلْغَضَبِ للهِ قَوِيَ عَلَىٰ قَتْلِ أَشِدَّاءِ ٱلْبَاطِلِ.

الشّرْحُ :

هذا من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر، والكلمة تتضمّن استعارةً تَدُلّ على الفَصاحة؛ والمعنى أنّ من أرهَف عزمَه على إنكار المنكَر وقويَ غضَبُه في ذاتِ الله ولم

يَخَفْ ولم يُراقِب مخلوقاً؛ أعانَه الله على إزالة المُنكَر؛ وإن كان قويّاً صادراً من جهة عزيزة الجانب، وعنها وَقَعت الكنايةُ بأشدّاء الباطل.



الأصْلُ:

إذَا هِبْتَ أَمْراً فَقَعْ فِيهِ، فَإِنَّ شِدَّةَ تَوَقِّيهِ أَعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ[١].

الشّرْحُ:

ما أحسنَ ما قال المتنبّي في هذا المعنى:

وإذا لم يكـن مـن المـوتِ بُـدٌّ ... فـمِن العَـجْز أن تكـونَ جَـبانا

كلّ ما لم يكن مـن الصَّـعْب فـي الأنـ ... ـفُسِ سـهلٌ فـيها إذا هـوَ كـانا

وقال آخر:

لَعمْرُك مـا المكـروهُ إلّا ارتـقابه ... وأعـظم مـمّا حـلّ مـا يُـتوقّعُ



الأصْلُ:

آلَةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ.

الشّرْحُ:

الرئيس محتاجٌ إلى أُمور، منها الجود، ومنها الشجاعة، ومنها وهو الأهمّ سَعَة الصَّدر، فإنه لا تتمّ الرئاسة إلّا بذلك.

---

١. أي إذا تخوّفت من أمرٍ فادخلْ فيه، فإنّ الترد والتهيّب، وألم الخوف منه أشدّ من مصيبة اقتحامه والوقوع فيه.

١٧٩

الأصْلُ :

اُزْجُرِ ٱلْمُسِيءَ بِثَوَابِ ٱلْمُحْسِنِ.

الشّرْحُ :

قد قال ابنُ هانئ المغربيّ في هذا المعنى:

لولا انبعاثُ السَّيفِ وهو مُسلَّطٌ ... في قتلهمْ قتلتْهُمُ النَّعْماءُ

(إذا جازيت المحسن على إحسانه أقلع المسيء عن إساءته طلباً للمكافئة).

قال أبو العتاهية:

إذا جازيتَ بالإحسان قوماً ... زجرتَ المذنبين عن الذّنوبِ

فما لَكَ والتّناوُل من بعيدٍ ... ويمكنك التّناوُل من قريبِ



الأصْلُ :

اُحْصُدِ الشَّرَّ مِنْ صَدْرِ غَيْرِكَ بِقَلْعِهِ مِنْ صَدْرِكَ.

الشّرْحُ :

هذا يفسَّر على وجهين:

أحدهما أنه يريد: لا تُضمر لأخيك سوءاً فإنّك لا تُضمر ذاك إلّا يضمر هو لك سوءاً؛ لأنّ القلوب يشعُر بعضها ببعض، فإذا صفَوْتَ لواحدٍ صفا لك.

والوجه الثاني: أن يريد لا تَعِظِ الناس ولا تَنْهَهم عن منكرٍ إلّا وأنت مُقلِعٌ عنه، فإن الواعظ الذي ليس بزكيٍّ لا ينجَعُ وعْظُه، ولا يؤثِّر نهْيُه.



الأصْلُ:

اللَّجَاجَةُ تَسُلُّ الرَّأْيَ[1].

الشّرْحُ:

هذا مشتقّ من قوله ﷺ: «لا رأي لمن لا يُطاع»؛ وذلك لأنّ عدم الطاعة هو اللّجاجة، وهو خُلُق يتركَّب من خُلقين: أحدهما الكِبْر، والآخر الجهل بعواقب الأُمور، وأكثر ما يعتري الولاة لما يأخذهم من العِزّة بالأثم.



الأصْلُ:

الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ.

الشّرْحُ:

هذا المعنى مطروقٌ جدّاً، وقد سبق لنا فيه قولٌ شافٍ.

وقال الشاعر:

تعفّف وعِشْ حُرّاً ولا تَكُ طامِعاً ... فما قَطّع الأعناق إلّا المَطامِعُ

---

١. اللجاجة: هنا العناد والإصرار.



الأَصْلُ :

ثَمَرَةُ التَّفْرِيطِ النَّدَامَةُ، وَثَمَرَةُ ٱلْحَزْمِ السَّلَامَةُ[١].

الشّرْحُ :

وكان يقال: الحَزْم مَلَكةٌ يُوجِبها كثرةُ التجارب، وأصله قوّة العقل، فإنّ العاقل خائفٌ أبداً، والأحمق لا يخاف، وإن خاف كان قليل الخوف، ومن خاف أمراً توقّاه، فهذا هو الحَزْم.



الأَصْلُ :

مَنْ لَمْ يُنْجِهِ الصَّبْرُ، أَهْلَكَهُ ٱلْجَزَعُ.

الشّرْحُ :

وكان يقالُ: ما أحسن الصّبر لولا أنّ النفقة عليه من العمر! أخذه شاعر فقال:

وَإِنّـي لأدرِي أنَّ فـي الصَّـبْر رَاحَـةً ... ولكنّ إنفاقي على الصبر من عُمْرِي

فإن قلت: أي فائدة في قولهﷺ: «مَنْ لم ينجه الصّبر أهلكه الجزع»؟ وهل هذا إلّا كقول مَنْ قال: «مَنْ لم يجد ما يأكل ضرّه الجوع؟».

قلت: لو كانت الجهة واحدة، لكان الكلام عبثاً، إلّا أن الجهة مختلفة؛ لأنّ معنى كلامهﷺ من لم يخلّصه الصبر من هموم الدّنيا وغُمومها هَلَك مع الله تعالى في الآخرة بما يستبدله من الصبر بالجزع؛ وذلك لأنّه إذا لم يصبر فلا شكّ أنّه يجزع، وكلّ جازع آثم؛

---

١. التفريط: التقصير في العمل. والحزم: اغتنام الفرصة.

والإثم مهلكة، فلما اختلفت الجهة وكانت تارة للدنيا وتارة للآخرة لم يكن الكلام عبثاً بل كان مفيداً.



الأصْلُ:

وَاعَجَبَا أَنْ تَكُونَ ٱلْخِلَافَةُ بِالصَّحَابَةِ، ولا تكون بِالصَّحَابَةِ وَٱلْقَرَابَةِ.

قال الرضي ﵀: وقد روي له ﵇ شعر قريب من هذا المعنى وهو:

فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورَىٰ مَلَكْتَ أُمُورَهُمْ ... فَكَيْفَ بِهٰذَا وَٱلْمُشِيرُونَ غُيَّبُ

وَإِنْ كُنْتَ بِالْقُرْبَىٰ حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ ... فَغَيْرُكَ أَوْلَىٰ بِالنَّبِيِّ وأَقْرَبُ

الشّرْحُ:

حديثه ﵇ في النثر والنظم المذكورين مع أبي بكر وعمر، أمّا النثر فإلى عمر توجيهه؛ لأنّ أبا بكر لما قال لعمر: امدد يدك، قال له عمر: أنت صاحب رسول الله في المواطن كلّها، شدّتها ورخائها، فامدد أنت يدك. فقال علي ﵇: إذا احتججتَ لاستحقاقه الأمر بصحبته إيّاه في المواطن كلّها، فهلا سلّمت الأمر إلى من قد شركه في ذلك، وزاد عليه «بالقرابة»!

وأمّا النظم فموجّه إلى أبي بكر؛ لأنّ أبا بكر حاجّ الأنصارَ في السقيفة، فقال: نحن عِتْرة رسول الله ﷺ وبيضته التي تفقّأت عنه، فلما بويع احتجّ على الناس بالبيعة، وأنها صدرت على أهل الحلّ والعقْد، فقال عليّ ﵇: أمّا احتجاجك على الأنصار بأنك من بيضة رسول الله ﷺ ومن قومه، فغيرك أقرب نسباً منك إليه، وأمّا احتجاجك بالاختيار ورضا الجماعة بك، فقد كان قوم من جملة الصحابة غائبين لم يحضروا العقد فكيف يثبت!



الأصْلُ :

إِنَّمَا ٱلْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ ٱلْمَنَايَا ، وَنَهْبٌ تُبَادِرُهُ ٱلْمَصَائِبُ ؛ وَمَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ ، وَلَا يَنَالُ ٱلْعَبْدُ نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَىٰ ، وَلَا يَسْتَقْبِلُ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا بِفِرَاقِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ ؛ فَنَحْنُ أَعْوَانُ ٱلْمَنُونِ ، وَأَنْفُسُنَا نَصْبُ ٱلْحُتُوفِ ، فَمِنْ أَيْنَ نَرْجُو ٱلْبَقَاءَ ؛ وَهٰذَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَمْ يَرْفَعَا مِنْ شَيْءٍ شَرَفاً ، إِلَّا أَسْرَعَا ٱلْكَرَّةَ فِي هَدْمِ مَا بَنَيَا ، وَتَفْرِيقِ مَا جَمَعَا !

الشّرْحُ :

قد سبق ذرءٌ[1] من هذا الكلام في أثناء خطبته ﷺ ، وقد ذكرنا نحن أشياءَ كثيرةً في الدنيا وتقلّبها بأهلِها .

قوله : «تنتضل» النَّضْل شيء يرمى ، ويروى : «تَبادره» أي تتبادره ، والغرض : الهدَف . والنّهب : المالِ المنهوب غنيمة ، وجمعه نِهاب . وقد سبق تفسير قوله : «لا ينال العبد نعمة إلّا بفراق أُخرىٰ» ، وقلنا : إنّ الّذي حصلت له لذّة الجماع حالَ ما هي حاصلة له ، لابدّ أن يكون مفارقاً لذّة الأكل والشرب ، وكذلك من يأكل ويشرب يكون مفارقاً حال أكلِه وشربه لذّةَ الرّكْض على الخيل في طلب الصّيد ، ونحو ذلك .

قوله : «فنحن أعوان المنون» ؛ لأنّا نأكل ، ونشرب ، ونجامع ، ونركب الخيل ، والإبل ، ونتصرّف في الحاجات والمآرب ؛ والموت إنما يكون بأحد هذه الأسباب ، إمّا من أخلاط تحدثها المآكل والمشارب ، أو من سقطة يسقط الإنسان من دابّة هو راكبها ، أو من ضعف يلحقه من الجماع المفرِط ، أو لمصادمات واصطكاكات تصيبه عند تصرفه في مآربه وحركته وسعيه ، ونحو ذلك ؛ فكأنّا نحن أعنّا الموت على أنفسنا .

قوله : «نصب الحتوف» ، يروى : بالرفع والنصب ، فمن رفع فهو خبر المبتدأ ، ومن نصبه جعله ظرفاً .

---

١ . ذرء : أي طرف . انظر الخطبة ١٤٥ .



الأَصْلُ :

لَا خَيْرَ فِي الصَّمْتِ عَنِ ٱلْحُكْمِ، كَمَا أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي ٱلْقَوْلِ بِالْجَهْلِ.

الشّرْحُ :

كان يقال: ما الإنسان لولا اللسانُ إلّا بهيمةٌ مُهمَلة، أو صورةٌ ممثَّلة.

وكان يقال: اللّسان عضوٌ إنْ مرّنْته مَرَن، وإن تركتَه خَزِن[1].



الأَصْلُ :

يَا بْنَ آدَمَ مَا كَسَبْتَ فَوْقَ قُوتِكَ، فَأَنْتَ فِيهِ خَازِنٌ لِغَيْرِكَ.

الشّرْحُ :

أخَذ هذا المعنى بعضُهم؛ فقال:

ما لي أراكَ الدّهـر تَـجمعُ دائـباً ... ألِبَعْلِ عِرْسِك لا أبا لك تَـجمَعُ!



الأَصْلُ :

إِنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإِقْبَالاً وَإِدبَاراً؛ فَأْتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا، فَإِنَّ ٱلْـقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ.

---

١. خزن: تغير وفسد.

الشّرْحُ :

قد تقدّم القوْل في هذا المعنى.

والعِلّة في كون القلب يَعمَى إذا أُكرِه على ما لا يحبّه، أنّ القلبَ عُضْو من الأعضاء يَتعب ويستريح كما تتعب الجُثّة عند استعمالها وإحمالِها، وتستريح عند تَرْك العَمَل، كما يتعب اللّسان عند الكلام الطّويل، ويستريحُ عند الإمساك، وإذا تَواصَل إكراه القلبِ على أمرٍ لا يحبّه ولا يؤثِرُه تَعِب، لأنّ فِعلَ غير المحبوبِ مُتعِب؛ ألا ترى أنّ جِماعَ غيرِ المحْبوب يُحدِث من الضّعف أضعافَ ما يُحدِثُهُ جِماعُ المَحْبوب؛ والرّكوب إلى مكان غيرِ محبوبٍ مُتعِب ولا يُشتَهى، يُتعِب البَدَن أضعافَ ما يُتعِبه الركوب إلى تلك المسافة إذا كان المكان محبوباً، وإذا أُتعِب القلب وأعْيا، عجَزَ عن إدراك ما نكلّفه إدراكه، لأنّ فعلَه هو الإدراك، وكلّ عضو يَتعَب فإنّه يَعجَز عن فعلِه الخاصّ به، فإذا عجز القلبُ عن فِعلِه الخاصّ به وهو العِلم والإدراك؛ فذاك هو عماه.



الأصْلُ :

وكان ﷺ يقول: مَتَىٰ أَشْفِي غَيْظِي إِذَا غَضِبْتُ! أَحِينَ أَعْجِزُ عَنِ ٱلاِنْتِقَامِ فَيُقَالُ لِي: لَوْ صَبَرْتَ! أَمْ حِينَ أَقْدِرُ، عَلَيْهِ فَيُقَالُ لِي: لَوْ عَفَوْتَ!

الشّرْحُ :

هذا الفصل فصيحٌ لطيفُ المَعْنى؛ قال: لا سبيل لي إلى شفاءِ غَيْظي عند غضبي؛ لأنّي إمّا أن أكون قادراً على الانتقام فيصدّني عن تعجيلِه قولُ القائل: لو غَفرتَ لكان أولى! وإمّا ألّا أكونَ قادراً على الانتقام فيصدّني عنه كوني غيرَ قادرٍ عليه؛ فإذَنْ لا سبيلَ لي إلى الانتقام عند الغضب.

وكان يقال: العقل كالمِرآة المجلوّة يُصْدِئه الغَضَب، كما تَصْدأ المرآة بالخَلّ، فلا يَثبُت فيها صورةُ القُبْح والحُسْن.



الأصْلُ :

وقالﷺ وقد مر بقذر على مزبلة : هٰذَا مَا بَخِلَ بِهِ ٱلْبَاخِلُونَ.

وفي خبر آخر أنه قال : هٰذَا مَا كُنْتُمْ تَتَنَافَسُونَ فِيهِ بِالْأَمْس !

الشّرْحُ :

قد سبق القولُ في مثل هذا، وهذا مثلُ قولهم : لو أفكَر الإنسان فيما يؤول إليه الطعام لعافَتْه نفسُه.

وقد ضَرَب العلماءُ مَثلاً للدنيا ومخالفةِ آخرِها أولها، ومضادّها مَباديها عَواقبها، فقالوا : إنّ شهوات الدنيا في القَلب لذيذةٌ كشَهَوات الأطعِمة في المعدة، وسيَجِد الإنسان عند الموتِ لشهوات الدنيا في قلبه من الكَراهة والنَّتْن والقبْح ما يَجده للأطعمة اللّذيذة إذا طبختها المَعِدة وبلغتْ غايةَ نُضْجها، وكما أن الطعام كلّما كان ألذَّ طَعْماً وأظهر حلاوة، كان رجيعه أقذر وأشدَّ نَتْنا ؛ فكذلك كلُّ شهوة في القلْب أشهى وألذّ وأقوى، فإنّ نتنَها وكراهتها والتأذّي بها عند الموت أشدّ، بل هذه الحال في الدّنيا مُشاهدة، فإن من نُهبتْ دارُه، وأُخذ أهلُه وولدُه ومالُه، تكون مصيبتهُ وألمه وتفجُّعه في الذي فَقَد بمقدار لذّته به، وحبِّه له، وحرصه عليه، فكلُّ ما كان في الوجود أشهى وألذّ، فهو عند الفَقْد أدهى وأمرّ، ولا معنى للموت إلّا فقد ما في الدنيا.



الأصْلُ :

لَمْ يَذْهَبْ مِنْ مَالِكَ مَا وَعَظَكَ[1].

---

١. اذا أحدث فيك ضياعُ المال بصيرةً وحذراً، فما اكتسبته خيرٌ مما ضاع ؛ فكأنه لم يذهب من الأموال ما أثمر الوعظ، وما وفّني ما بقيت ثمراتُه.

الشّرْحُ :

مثلُ هذا قولهم: إن المصائبَ أثمانُ التجارب. وقيل لعالم فقير بعد أن كان غنيّاً: أين مالك؟ قال: تَجَرتُ فيه، فابتعتُ به تجربةَ الناس والوقت، فاستفدْتُ أشرَفَ العِوَضَين.



الأصْلُ :

إِنَّ هٰذِهِ ٱلْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُ ٱلْأَبْدَانُ، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ ٱلْحِكْمَةِ.

الشّرْحُ :

هذا قد تكرّر[1]، وتكرّر منّا ذِكرُ ما قيل في إجماع النّفس والتنفيس عنها من كَرْب الجِدّ برُوح الإحْماض[2] وفسرنا معنى قولِهِ: «فابتغُوا لها طرائف الحكمة» وقلنا: المراد ألّا يَجْعلَ الإنسانُ وقته كلّه مصروفاً إلى الأنظار العقليّة في البراهين الكلاميّة والحِكَميّة، بل ينقلها من ذلك أحياناً إلى النظر في الحِكمة الخُلُقيّة فإنها حِكمة لا تحتاج إلى إتعاب النفس والخاطر.



الأصْلُ :

وقالَ لما سمع قول الخوارج: (لا حكم إلّا لله): كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ.

---

١. تكرر بعينه في الحكمة (٨٩).

٢. الإحماض: التنقل من الجد إلى المزح.

الشّرْحُ :

معنى قوله سبحانه : **﴿إِنِ الحُكْمُ إلّا للهِ﴾**[١] ، أي إذا أراد شيئاً من أفعالِ نفسه فلابدّ من وقوعه ، بخلاف غيره من القادرين بالقدرة فإنه لا يجب حصولُ مرادهم إذا أرادوه ، ألا ترى ما قبْل هذه الكلمة : **﴿يا بَنِيَّ لا تَدْخُلوا من بابٍ واحدٍ وادْخُلوا من أبوابٍ متفرّقةٍ وما أُغنِي عَنْكم من اللهِ مِنْ شَيءٍ إنِ الحُكْمُ إلّا لله﴾** خاف عليهم من الإصابة بالعين إذا دخلوا من بابٍ واحد ، فأمرهم أن يدخلوا من أبوابٍ متفرقة ، ثم قال لهم : **﴿وما أُغنِي عنكم من الله من شيءٍ﴾** ، أي إذا أراد الله بكم سوءاً لم يَدفع عنكم ذلك السُّوءَ ما أشرتُ به عليكم من التفرّق ؛ ثم قال : **﴿إنِ الحُكْمُ إلّا لله﴾** ، أي ليس حيٌّ من الأحياء يَنْفُذُ حكمه لا محالة ومرادُه لما هو من أفعاله إلّا الحيّ القديم وحدَه ، فهذا هو معنى هذه الكلمة ، وضَلّت الخوارج عندها فأنكروا على أمير المؤمنينعليه السلام موافَقَته على التحكيم ؛ وقالوا : كيف يحكم وقد قال الله سبحانه : **﴿إنِ الحُكْمُ إلّا لله﴾** فغَلطوا لموضع اللّفظ المشترك ، وليس هذا الحُكم هو ذلك الحكْم ، فإذَنْ هي كلمةُ حقٍّ يرادُ بها باطل ؛ لأنّها حقٌّ على المفهوم الأوّل ، ويريد بها الخوارجُ نفيَ كلِّ ما يسمّى حكماً إذا صَدر عن غير الله تعالى ، وذلك باطل ؛ لأنّ الله تعالى قد أمضَى حُكم المخلوقين في كثيرٍ من الشرائع .



الأصْلُ :

وقالعليه السلام في صفة ٱلْغوغاء[٢] : هُمُ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱجْتَمَعُوا غَلَبُوا ، وَإِذَا تَفَرَّقُوا لَمْ يُعْرَفُوا .

وقيل : بل قالعليه السلام : هُمُ ٱلّذِينَ إِذَا ٱجْتَمَعُوا ضَرُّوا ، وَإِذَا تَفَرَّقُوا نَفَعُوا .

فقيل : قد عرفنا مضرة اجتماعهم ، فما منفعة افتراقهم؟ فقالعليه السلام :

---

١. سورة يوسف ٦٧.

٢. (الغوغاء) وهم الناس المنحطّون ، والأوباش يجتمعون علىٰ غير ترتيب ، وهم يغلبون علىٰ ما اجتمعوا عليه ، ولكنّهم إذا تفرّقوا لا يعرفهم أحد لانحطاط درجة كل منهم وخمول ذكرهم ، وخفوت صوتهم.

يَرْجِعُ أَصْحَابُ الْمِهَنِ إِلَى مِهَنِهِمْ، فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِمْ، كَرُجُوعِ الْبَنَّاءِ إِلَىٰ بِنَائِهِ، وَالنَّسَّاجِ إِلَىٰ مَنْسَجِهِ، وَالْخَبَّازِ إِلَىٰ مَخْبَزِهِ.

الشّرْحُ:

كان الحسن إذا ذَكَر الغَوْغاء وأهل السّوق قال: قتلة الأنبياء؛ وكان يقال: العامّة كالبحر إذا هاج أهْلَكَ راكبه؛ وقال بعضهم: لا تسبُّوا الغوْغاء فإنهم يُطْفِئون الحريق، ويُنقِذون الغريق، ويسُدّون الْبثوق[١].



الأصْلُ:

وقال عليه السلام وَقَدْ أُتي بجانٍ[٢] ومعه غوغاءُ، فقال:
لَا مَرْحَباً بِوُجُوهٍ لَا تُرَىٰ إِلَّا عِنْدَ كُلِّ سَوْأَةٍ[٣].

الشّرْحُ:

أخذ هذا اللّفظ المستعينُ بالله وقد أُدْخِل عليه ابنُ أبي الشّوارب القاضي ومعه الشّهود ليَشهَدوا عليه أنّه قد خَلَع نفسه من الخلافة وبايَع للمعتزّ بالله، فقال: لا مرحباً بهذه الوجوه الّتي لا تُرَى إلّا يوم سوء.

---

١. البثوق: الشقوق في الأنهار.

٢. الجاني: المذنب.

٣. السوأة: الفاحشة، أو الخلّة، أو الفعلة القبيحة.

١٩٧

الأصْلُ :

إِنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَلَكَيْنِ يَحْفَظَانِهِ، فَإِذَا جَاءَ ٱلْقَدَرُ خَلَّيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَإِنَّ ٱلْأَجَلَ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ.

الشّرْحُ :

قلنا : إنّهُ ذهب كثيرٌ من الحكماء هذا المَذهَب، وإنّ لله تعالى ملائكةً مُوَكَّلَةً تَحفَظُ البَشرَ من التردّي في بئرٍ، ومِن إصابةِ سَهْم معترِض في طريق، ومن رَفْس دابّة، ومن نَهْش حَيّة، أو لَسْع عَقْرب، ونحو ذلك. والشرائع أيضاً قد وردتْ بِمثله وإنّ الأجل جُنّة، أي دِرْع، ولهذا في علم الكلام مخرَج صحيحٌ، وذلك لأنّ أصحَابنا يقولون : إنّ الله تعالى : إذا عَلِم أنّ في بقاء زيدٍ إلى وقت كذا لُطْفاً له أو لغيرِه من المكلّفين صدّ من يهمّ بقَتْله عن قتلِه بألطافٍ يفعَلها تصدّه عنه أو تصرِفه عنه بصارف، أو يَمنَعه عنه بمانع، كي لا يَقطَع ذلك الإنسانُ بقَتْل زيدٍ الألطافَ الّتي يَعلَم اللهُ أنّها مقرِّبة من الطاعة، ومُبعِدة من المَعصِية لزيد أو لغيره؛ فقد بان أنّ الأجل على هذا التقدير جُنّة حَصِينة لزيْد، من حيثُ كان الله تعالى باعتبار ذلك الأجل مانعاً من قتلِه وإبطال حياتِه، ولا جُنّة (وقاية) أحصَنُ من ذلك.



الأصْلُ :

وقال‏ عليه السلام ـ وقد قال له طلحة والزبير: نبايعك على أنّا شركاؤك في هذا الأمر ـ: لَا، وَلٰكِنَّكُمَا شَرِيكَانِ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلْاسْتَعَانَةِ، وَعَوْنَانِ عَلَى ٱلْعَجْزِ وَٱلْأَوَدِ.

الشّرْحُ :

قد ذكرْنا هذا فيما تقدّم[1] حيث شرحْنا بيعة المسلمين لعليّ عليه السلام كيف وقعتْ بعدَ مَقتل عثمانَ، ولقد أحسنَ فيما قال لهما لمّا سألاه أن يُشرِكَاه في الأمْر، فقال: أمّا المُشارَكة في الخلافة فكيف يكون ذلك ؟ وهل يصحُّ أن يدبّر أمرَ الرعيّة إمامان.

وهل يُجْمَع السَّيفَان ويحك في غمْد

وإنما تُشرِكاني في القوّة والاستعانة أي إذا قوِيَ أمرِي وأمرُ الإسلام بي قوِيتما أنتما أيضاً، وإذا عجزتُ عن أمر أو تأوّد عليَّ أمر ـ أي اعوَجَّ ـ كنتما عَوْنين لي ومساعِدَين على إصلاحِهِ. فإن قلت: فما معنى قوله: «والاستعانة».

قلتُ الاستعانة هاهنا الفوزُ والظّفَرُ[2].



الأصْلُ :

أَيُّهَا النَّاسُ، ٱتَّقُوا ٱللهَ الَّذِي إِنْ قُلْتُمْ سَمِعَ، وَإِنْ أَضْمَرْتُمْ عَلِمَ، وَبَادِرُوا ٱلْمَوْتَ الَّذِي إِنْ هَرَبْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَإِنْ أَقَمْتُمْ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ نَسِيتُمُوهُ ذَكَرَكُمْ[3].

الشّرْحُ :

قد تقدّم منّا كلامٌ كثير في ذكر الموت؛ ورأى الحَسَنُ البَصريُّ رجلاً يجود بنفْسه، فقال: إنّ أمْراً هذا آخرُه لجدير أن يُزهَد في أوّله، وإن أمراً هذا أوّله لجدِيرٌ أن يُخَاف مِن آخره.

---

١. تقدّم في شرح الخطبة (٩١)، فراجع ٣٣:٧ـ٤٣ من الأصل.

٢. لأنّ الشركة في الخلافة بدعة في الإسلام، ودعوة للفساد في الأرض ففي «الأحكام السلطانية»: «لا يجوز عقد الإمامة لاثنين»، وفي «أُصول الكافي»: «لا يكون في الارض إمامان إلّا واحد صامت».

٣. بادروا الموت: استعدوا له بالتقوى والعمل الصالح.



الأَصْلُ:

لَا يُزَهِّدَنَّكَ فِي ٱلْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَشْكُرُهُ لَكَ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ ٱلْكَافِرُ، وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلمحْسِنِينَ[1].

الشّرْحُ:

قد أخذتُ أنا هذا المعنَى فقلتُ من جملةِ قصيدةٍ لي حِكْميّة:

لا تُسدِيَنّ إلى ذي الّلؤم مَكرُمةً ... فإنّه سَبَخٌ لا يُنبت الشجَرَا
فإنْ زرَعتَ فمحفوظٌ بمَضْيَعةٍ ... وأكْلُ زَرْعِك شكرُ الغَيْرِ إن كَفَرَا



الأَصْلُ:

كُلُّ وِعَاءٍ يَضِيقُ بِمَا جُعِلَ فِيهِ إِلَّا وِعَاءَ ٱلْعِلْمِ، فَإِنَّهُ يَتَّسِعُ بِهِ.

الشّرْحُ:

هذا الكلام تَحْته سرٌّ عظيم، ورَمْزٌ إلى معنى شريف غامض، ومنه أخذ مُثْبِتو النفس الناطِقَةِ الحجّة على قولهم؛ ومحصولُ ذلك أن القُوَى الجُسمانيّة يُكِلها ويُتعِبُها تَكرارُ أفاعِيلها عليها، كقوّة البصر يُتعِبها تكرار إدْراك المَرْئِيّات، حتّى ربّما أذهَبها وأبطَلَها أصلاً، وكذلك

---

١. المراد بالكافر هنا ناكر المعروف والجميل الذي أُسدي إليه، وبالشاكر من يستحسن الحسن لذاته ولو صدر من عدوّه. والمعنى: إنك إن أردت بالمعروف وجهَ الله سبحانه، فالله يحبُّ المحسنين، وحسبُك محبةُ الله، وإن أردتَ ثناء الشاكرين فإن كفر من أنعمتَ عليه، فقد يشكر نعمتَك غيره، والله لا يضيّعه.

قوّة السمع يُتعبها تكرار الأصْوات عليها، وكذلك غيرها من القُوَى الجُسْمانيّة، ولكنّا وجدْنا القوّة العاقلة بالعكس من ذلك، فإنَّ الإنسان كلّما تكرّرتْ عليه المعقولات ازدادتْ قوّته العقليّة سَعةً وانبساطاً واستعداداً لإدراكِ أُمور أُخرىٰ غير ما أدركتْه من قبلُ، حتّى كانَ تكرارُ المَعْقولات عليها يَشْحذها ويَصْقُلها، فهي إذَنْ مخالِفة في هذا الحكم للقُوى الجُسْمانية، فلَيْست منها لأنّها لو كانت منها لكان حُكْمها حكمَ واحدٍ من أخواتها، وإذا لم تكن جُسْمانيّة فهي مجرَّدة، وهي التي نسميها بالنفس الناطقة.



الأصْلُ:

أَوَّلُ عِوَضِ ٱلْحَلِيمِ مِنْ حِلْمِهِ أَنَّ النَّاسَ أَنْصَارُهُ عَلَىٰ ٱلْجَاهِلِ.

الشّرْحُ:

قد تقدّم من أقوالنا في الحلْم ما في بعضِه كفاية. وفي الحِكَم القديمة: لا تَشِنْ حُسْنَ الظَّفر بقُبْح الانتقام. وكان يقال: اعفُ عمّن أبطأ عن الذّنب، وأسرع إلى النّدم. وقالت الأنصار للنّبيّ ﷺ يومَ فتحِ مكّة: إنّهم فعلوا بك ثمّ فعلوا. يُغْرُونه بقريش؛ فقال: «إنما سمِّيت محمّداً لأُحْمَد».



الأصْلُ:

إنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيماً فَتَحَلَّمْ، فَإِنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إِلَّا أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ.

الشّرْحُ :

التحلُّم: تكلّف الحِلْم، والّذي قاله ﷺ صحيح في مَناهِج الحكمة، وذلك لأنّ من تَشبَّه بقومٍ وتكلّف التخلّق بأخلاقِهم، والتأدّبَ بآدابهم، واستمرّ على ذلك ومَرّن عليه الزمان الطويل، اكتَسَب رياضةً قويّة، ومَلَكة تامّة، وصار ذلك التكلّف كالطَبْع له، وانتقل عن الخُلُق الأوّل، أَلا ترَى أنّ الأعرابيّ الجِلْف الجافي إذا دَخَل المُدُن والقُرَى وخَالطَ أهلَها وطال مُكْثُه فيهم انتقل عن خُلُق الأعراب الّذي نشأ عليه، وتلطَّف طَبْعُه، وصار شبيهاً بساكِنِي المُدُن.



الأَصْلُ :

مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ، وَمَنْ خَافَ أَمِنَ، وَمَنِ ٱعْتَبَرَ أَبْصَرَ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ، وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ.

الشّرْحُ :

قد جاء في الحديث المرفوع: «حاسبوا أنفسَكم قبلَ أن تحاسَبوا».

قولُهُ: «ومن خاف أمن» أي مَن اتقى الله أَمِنَ مِنْ عذابه يوم القيامة.

ثم قال: «ومن اعتبر أبصر»، أي من قاس الأُمور بعضها ببعض واتّعظ بآيات الله وأيامه، أضاءت بصيرته، ومن أضاءت بصيرته فهم، ومن فهم علم.

فإن قلتَ: الفهم هو العلم، فأيّ حاجةٍ له إلى أن يقول: «ومن فهم علم؟».

قلت: الفهم هاهنا هو معرفة المقدّمات، ولابد أن يستعقب معرفة المقدمات معرفة النتيجة، فمعرفة النتيجة هو العلم، فكأنّه قال: من اعتبر تنوّر قلبه بنور الله تعالى، ومَنْ تنوّر قلبه عقل المقدّمات البرهانية، ومن عقل المقدمات البرهانية علم النتيجة الواجبة عنها، وتلك هي الثمرة الشريفة التي في مثلها يتنافس المتنافسون.



الأصْلُ :

وقال ﷺ :

لَتَعْطِفَنَّ الدُّنْيَا عَلَيْنَا بَعْدَ شِمَاسِهَا عَطْفَ الضَّرُوس عَلَىٰ وَلَدِهَا، وتلا عقيب ذلك: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

الشّرْحُ :

الشِّماس: مصدر شَمس الفرسُ إذا منع من ظهره. والضّروس: الناقة السيّئة الخُلق تعضُّ حالبَها، والإماميّة تزعم أن ذلك وعدٌ منه بالإمام الغائب الذي يملك الأرض في آخر الزمان[1]. وأصحابنا يقولون: إنه وعْدٌ بإمام يملك الأرض ويستولي على الممالك، ولا يلزم من ذلك أنه لا بُدّ أن يكون موجوداً، وإن كان غائباً إلى أن يظهر، بل يكفي في صحّة هذا الكلام أن يُخلق في آخر الوقت. وبعض أصحابنا يقول: إنه إشارة إلى ملك السفّاح والمنصور وابني المنصور بعده.

وتقول الزيديّة: إنه لابدّ من أن يملك الأرض فاطميٌّ يتلوه جماعة من الفاطميّين على مذهب زيد، وإن لم يكن أحد منهم الآن موجوداً[2].

---

١. استدل الإمامية بأدلة عقلية ونقلية على إثبات وجود الإمام المنتظر ﷺ. وقد مرّ قوله ﷺ: «لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إمّا ظاهراً أو مشهوراً خائفاً مغموراً».

والمعنىٰ المراد من قوله ﷺ: إن الدنيا تنكّرت لأهل البيت ﷺ، وسيمتحنون بأنواع البلاء، ثمّ يأتي بعد ذلك الفرج والخلاص، ورواج الحق.

٢. كيف يصح أن تكون هذه الكلمات إخبار وبشارة بحكم بني العباس! وماكان ظلم بني العباس أقل وطأة علىٰ أهل البيت ﷺ من ظلم الأمويين وغيرهم. حتىٰ قال شاعرهم:

ياليتَ ظلم بني مروان دام لنا ... وظلم بني العباسِ في النـار



الأَصْلُ :

ٱتَّقُوا ٱللهَ تُقَاةَ مَنْ شَمَّرَ تَجْرِيداً، وَجَدَّ تَشْمِيراً، وَأكمَشَ فِي مَهَلٍ، وَبَادَرَ عَنْ وَجَلٍ، وَنَظَرَ فِي كَرَّةِ ٱلْمَوْئِلِ، وَعَاقِبَةِ ٱلْمَصْدَرِ، وَمَغَبَّةِ ٱلْمَرْجِعِ[١].

الشَّرْحُ :

لو قال «وجرّد تشميراً» لكان قد أتى بنوع مشهور من أنواع البديع؛ لكنّه لم يحفِل بذلك، وجرى على مقتضى طبعه مِن البلاغة الخالية من التكلّف والتصنّع، على أن ذلك قد روي، والمشهور الرواية الأُولى. وأكمش: جدّ وأسرع، ورجل كميش، أي جادّ. وفي مَهَل، أي في مهلة العمر قبل أن يضيق عليه وقتُه بدنوّ الأجَل.



الأَصْلُ :

ٱلْجُودُ حَارِسُ ٱلْأَعْرَاضِ، وَٱلْحِلْمُ فِدَامُ السَّفِيهِ، وَٱلْعَفْوُ زَكَاةُ الظَّفَرِ، وَالسُّلُوُّ عِوَضُكَ مِمَّنْ غَدَرَ، وَٱلْاِسْتِشَارَةُ عَيْنُ ٱلْهِدَايَةِ. وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ بِرَأْيِهِ، وَالصَّبْرُ يُنَاضِلُ ٱلْحِدْثَانَ، وَٱلْجَزَعُ مِنْ أَعْوَانِ الزَّمَانِ، وَأَشْرَفُ ٱلْغِنَىٰ تَرْكُ ٱلْمُنَىٰ. وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ عند هَوَىٰ أَمِيرٍ! وَمِنَ التَّوْفِيقِ حِفْظُ التَّجْرِبَةِ، وَٱلْمَوَدَّةُ قَرَابَةٌ مُسْتَفَادَةٌ. وَلَا تَأْمَنَنَّ مَلُولاً.

---

١. الوجل: الخوف. الموئل: مستقرّ السير والمقرّ الأخير، يريد به ـ هنا ـ ما ينتهي إليه الإنسان من سعادة وشقاء. وكرّته: حملته وإقباله. مغبة: العاقبة وما يناله جزاءً لعمله.

الشّرْحُ :

مثل قوله : «الجود حارس الأعراض»، قولهم : كلّ عيب فالكَرَم يغطِّيه.

والفِدَام : خِرْقة تجعل على فَمِ الإبريق، فشبّه الحلم بها، فإنّه يردّ السفيهَ عن السَّفَه كما يردّ الفدامُ الخمرَ عن خروج القَذَى منها إلى الكأس.

فأمّا «والعَفْو زَكاة الظَّفَر»، فقد تقدّم أنّ لكلّ شيء زَكاة، وزكاة الجاه رِفْدُ الـمُسْتَعِين، وزكاة الظَّفَر العَفْو. وأمّا «السُّلُوّ عوضك ممّن غدر»، فمَعْناه أنّ من غـدرَ بك مـن أحـبّائك وأصدقائك فاسلُ عنه وتناسَه، واذكرْ ما عامَلَك به من الغَدْر، فإنّك تسلو عنه، ويكون مـا استفدتَه من السلوّ عوضاً عن وِصالِه الأوّل.

وقد سبق القولُ في الاستشارة، وأنّ المستغنيَ برأيه مخاطِر، وكذلك القولُ في الصّبر. والمناضَلة : المراماة. وكذلك القولُ في الجزع، وأنّ الإنسان إذا جَزِع عند المصيبة فقد أعان الزمانَ على نفسِه، وأضاف إلى نفسِه مصيبةً أخرىٰ. وسبق أيضاً القولُ في المُنى، وأنّها من بضائع النَّوْكَى[1]. وكذلك القولُ في الهوى، وأنّه يَغلِب الرأي ويأسِره. وكذلك القـولُ فـي التّجربة؛ وقولُهم: مَنْ حارب المجرِّب حلّت به النّدامة، وإنّ من أضاع التجربة فقد أضاع عقلَه ورأيَه. وقد سبق القولُ في المودَّة، وذكرنا قولَهم : الصّديقُ نسيبُ الرُّوح، والأخُ نسيبُ الجسم. وسبق القولُ في المَلال.

وقال العبّاس بنُ الأحنف :

لو كـنتِ عـاتِبةً لسكَّن عَـبْرَتي	أمَلِي رضاكِ وزرتُ غـيرَ مُـراقَبِ
لكنْ مـلِلتِ فـلم يكـن لي حـيلةٌ	صَدُّ المَلُولِ خـلاف صَـدِّ العـاتبِ



الأصْلُ :

عُجْبُ ٱلْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحْدُ حُسَّادِ عَقْلِهِ.

---

١. جمع أنوك؛ وهو الأحمق.

الشّرْحُ :

معنى هذه الكلمة أنّ الحاسد لا يزال مجتهداً في إظهار معايب المحسود وإخفاء محاسنه، فلما كان عُجْب الإنسان بنفسه كاشفاً عن نقص عقله، كان كالحاسد الذي دأبُه إظهارَ عيب المحسود ونقصه. وكان يقال: مَنْ رضيَ عن نفسه كثر الساخط عليه.



الأصْلُ :

أَغْضِ عَلَىٰ ٱلْقَذَىٰ وَٱلْأَلَمِ تَرْضَ أَبَداً.

الشّرْحُ :

نظير هذا قول الشاعر:

وَمَنْ لَمْ يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عن صديقِهِ ... وَعَنْ بَعْضِ ما فيه يمتْ وهو عاتبُ

ومَن يتتبَّعْ جاهداً كلّ عثرة ... يجدها ولا يسلمْ له الدهرَ صاحبُ

وقال الشاعر:

إذا أنْتَ لم تشْرَبْ مراراً على القَذَى ... ظَمِئْتَ وأيّ النَّاس تصفُو مشاربُهْ!

وكان يقال: اغْضِ عن الدّهر وإلّا صرعك.



الأصْلُ :

مَنْ لَانَ عُودُهُ كَثُفَتْ أَغْصَانُهُ.

الشّرْحُ :

تكادُ هذه الكلمة أن تكون إيماء إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْـبَلَدُ الطَّـيِّبُ يَـخْرُجُ نَـبَاتُه بِـإِذْنِ رَبِّهِ﴾[١]؛ ومعنى هذه الكلمة أنّ مَنْ حَسُن خُلقه، ولانت كلمته، كثر محبُّوه وأعوانه وأتباعه.

ونحوه قوله: «مَنْ لانتْ كلمته، وجبتَ محبّته».

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٢]، وأصل هذه الكلمة مطابِقٌ للقواعد الحكميّة، أعني الشجرة ذات الأغصان حقيقة، وذلك لأنّ النبات كالحيوان في القوى النفسانيّة، أعني الغاذيّة والمنمّية، وما يخدم الغاذيّة من القوَى الأربع؛ وهي الجاذبة، والماسكة، والدافعة، والهاضمة؛ فإذا كان اليبَس غالباً على شجَرة كانت أغصانُها أخفَّ، وكان عودها أدقَّ، وإذا كانت الرُّطوبة غالبةً كانت أغصانها أكثر، وعودها أغلَظ؛ وذلك لاقتضاء اليبَس الذبول، واقتضاء الرطوبة الغِلظ والعبالة والضخامة، ألا ترى أنّ الإنسان الّذي غلب اليبَسُ على مزاجه، لا يزال مَهْلُوساً نحيفاً، والذي غلبت الرطوبة عليه لا يزال ضخما عَبْلاً.



٢١١

الأصْلُ :

ٱلْخِلَافُ يَهْدِمُ الرَّأْيَ.

الشّرْحُ :

هذا مثل قولهﷺ في موضع آخر: «لا رأْي لمن لا يُطاع»[٣]. ويُروَى: لا إمرة لمن لا يطاع. وفي أخبار قصير وجَذِيمة: «لو كان يطاع لقصيرٍ أمر». وكان يقال: اللّجاج يَشحَذ الزُّجاج،

---

١. سورة الأعراف ٥٨.

٢. سورة آل عمران ١٥٩.

٣. مرّ هذا القول في آخر الخطبة ٢٧.

ويثير العَجاج.



الأصْلُ:

مَنْ نَالَ آسْتَطَالَ.

الشّرْحُ:

يجوز أن يريد به: مَنْ أثْرَى ونال من الدنيا حظّاً استطال على النّاس.

ويجوز أن يريد به: مَنْ جاد استطال بجوده.

يقال: نالني فلان بكذا أي جادَ به عليّ، ورجل نالٌ، أي جوادٌ ذو نائل، ومثله رجل طانٍ أي ذو طين، ورجل مالٌ أي ذو مال.



الأصْلُ:

فِي تَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ، عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَال.

الشّرْحُ:

معناه لا تُعلَم أخلاق الإنسان إلّا بالتجربة، واختلاف الأحوال عليه.

وقال الشاعر:

لا تَحمَدنّ امرأً حتّى تجرِّبَهُ ولا تذمّنّه إلّا بتجريبِ

وقالوا: التجربة محكّ؛ وقالوا مثلُ الإنسان مثل البطّيخة، ظاهرها مونق، وقد يكون في باطنها العيب والدود، وقد يكون طعمها حامضاً وتفِهاً.



الأصْلُ :

حَسَدُ الصَّدِيقِ مِنْ سُقْمِ ٱلْمَوَدَّةِ.

الشّرْحُ :

إذا حسدك صديقُك على نعمة أُعطيتَها لم تكن صداقته صحيحة، فإنّ الصديق حقّاً من يَجري مَجرَى نفسِك، والإنسان لم يحسدْ نفسه.

وقيل لحكيم: ما الصديق؟ فقال: إنسان، هو أنت إلّا أنه غيرُك.



الأصْلُ :

أَكْثَرُ مَصَارِعِ ٱلْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ ٱلْمَطَامِعِ[1].

الشّرْحُ :

ومنه قولُ الشاعر:

طَمِعتَ بلَيلَى أن تَريعَ وإنّما[2] ... تُقطِّع أعناقَ الرِّجالِ المطَامِعُ

وقال آخَر:

إذا حدّثَتْك النفسُ أنّك قادرٌ ... على ما حوَتْ أيدي الرجالِ فكذِّبِ

١. تحت بروق المطامع معنىً جميل؛ لإن البرق نور سريع خاطف لا ينتفع منه، وكذلك الطمع رجاء فاسد، ووهم لا اعتبار به، ولا نيل معه بالمقصود ومن هنا جاء التشبيه متّسقاً. والطمع يغلق العقل عند الاستيلاء، وهو داء لا دواء له. و «رقٌّ مؤيد» كما في الحكمة ١٨٢.

٢. تريع: ترجع وتعود؛ كذا فسره صاحب اللسان.

وإيّـــاك والأطـــماعَ إنّ وُعُـــودَها رَقـــارِقُ آلٍ أو بَـــوَارِقُ خُـــلّبِ[(١)]



الأصْلُ :

لَيْسَ مِنَ ٱلْعَدْلِ ٱلْقَضَاءُ عَلَىٰ الثِّقَةِ بِالظَّنِّ.

الشّرْحُ :

هذا مِثلُ قولِ أصحاب أُصُول الفقه : لا يجوز نَسْخ القرآن والسنّة المتواترة بخبر الواحد ؛ لأنّ المَظْنون لا يَرفَع المَعلوم. ولفظ الثِّقة هاهنا مرادِفٌ للفظ العِلم، فكأنّه قال : لا يجوز أن يزال ما عُلم بطريق قطعيّةٍ لأمرٍ ظَنيّ[(٢)].



الأصْلُ :

بِئْسَ الزَّادُ إِلَىٰ ٱلْمَعَادِ، ٱلْعُدْوَانُ عَلَىٰ ٱلْعِبَادِ.

الشّرْحُ :

وكان يقال : عَجَباً لمن عُومِل فأُنْصِف ! إذا عامَلَ كيف يَظلِم ؟ وأعجب منه من عُومل فظُلِم إذا عامَل كيف يَظلِم ؟! وكان يقال : العدوّ عدوّان : عَدوٌّ ظلمتَهُ، وعدوٌّ ظَلَمك، فإن اضطرّك الدهرُ إلى أحدهما فاستَعِن بالذي ظَلَمك، فإن الآخر مَوْتُور.

---

١. الرقارق: السراب.

٢. قال الإمام الصادق عليه السلام : لا ينقض اليقين بالشك، ولا يدخل الشك في اليقين، ولا يخلط أحدهما بالآخر. ولكن ينقض الشك باليقين. انظر : وسائل الشيعة للحر العاملي ج١ ب١ من أبواب نواقض الوضوء ح١.



الأصْلُ :

مِنْ أَشْرَفِ أَعْمَالِ ٱلْكَرِيمِ غَفْلَتُهُ عَمَّا يَعْلَمُ[١].

الشّرْحُ :

كان يقال : التغافُل من السُّؤدُد.

وقال أبو تمّام :

ليس الغَبِيّ بسَيِّدٍ في قومِه　　لكنّ سيِّد قومِه المُتغابِي

وكان يقال : بعضُ التغافل فضيلة، وتمام الجود الإمساك عن ذكر المواهب، ومن الكرَم أن تَصفَح عن التّوبيخ، وأن تلتمس ستْر هَتْك الكريم.



الأصْلُ :

مَنْ كَسَاهُ ٱلْحَيَاءُ ثَوْبَهُ، لَمْ يَرَ النَّاسُ عَيْبَهُ.

الشّرْحُ :

وكان يقال : الحياء تمام الكَرَم، والحِلم تمام العقل.

وقال بعضُ الحكماء : الحياء انقباض النّفس عن القبائح، وهو من خصائص الإنسان، لأنّه لا يوجد في الفرَس ولا في الغنم والبقر، ونحو ذلك من أنواع الحيوانات، وهو خُلُقٌ مركّب من جُبْن وعفّة، ولذلك لا يكون المستحي فاسقاً، ولا الفاسقُ مستحياً؛ لتنافي

---

١. المعنىٰ هو تغافله عن معايب الناس والترفّع عن نشرها، والتغافل عن هفواتهم بحقّه فلا يَتتبّعُها.

اجتماع العفّة والفِسْق، وقلّما يكون الشّجاع مستحِياً والمستحي شُجاعاً؛ لتنافِي اجتماعِ الجُبْن والشجاعة.

فأمّا الخجل فحيْرة تَلحَق النّفس لفَرْط الحياء، ويحمد في النّساء والصبيان ويُذَم بالاتفاق في الرّجال. فأمّا القِحَة فمذْمومة بكلّ لسان، إذ هي انْسلاخٌ من الإنسانية، وحقيقتُها لجاجُ النفس في تعاطي القبيح، واشتقاقها من حافِرٍ وَقَاح أي صُلْب. وقالﷺ: «الحياءُ شُعْبة من الإيمان». وقال: «الإيمان عُرْيان، ولباسُه التقوى، وزينته الحياء».



الأصْلُ:

بِكَثْرَةِ الصَّمْتِ تَكُونُ ٱلْـهَيْبَةُ، وَبِالنَّصَفَةِ يَكْثُرُ ٱلْـمُوَاصِلُونَ، وَبالْإِفْضَالِ تَعْظُمُ ٱلْأَقْدَارُ، وَبِالتَّوَاضُعِ تَتِمُّ النِّعْمَةُ، وَبِاحْتِمالِ ٱلْمُؤَنِ يَجِبُ السُّؤْدَدُ، وَبِالسِّيرَةِ ٱلْعَادِلَةِ يُقْهَرُ ٱلْمُنَاوِئُ، وَبِالْحِلْمِ عَنِ السَّفِيهِ تَكْثُرُ ٱلْأَنْصَارُ عَلَيْهِ.

الشّرْحُ:

قال يحيى بن خالد: ما رأيت أحداً قطّ صامتاً إلّا هِبْتُه حتى يتكلّم، فإمّا أن تزداد الهيْبة أو تنقُص. ولا رَيْب أن الإنصاف سببُ انعطاف القلوب إلى المنصف، وأن الإفضال والجود يقتضي عِظَم القَدْر؛ لأنّه إنعام، والمُنعِم مشكور، والتواضع طريقٌ إلى تمام النعمة، ولا سؤدد إلّا باحتمال المُؤَن. والسِّيرة العادلة سببٌ لقَهْر الملِك الذي يُسيِّر بها أعداءَه، ومَنْ حَلُم عن سَفيهٍ وهو قادرٌ على الانتقام منه نَصَره الناس كلُّهم عليه، واتّفقوا كلُّهم على ذَمّ ذلك السفيه وتقبيح فِعْلِه؛ والاستِقْراءُ واختبارُ العادات تَشهَد بجميع ذلك.



الأَصْلُ :

اَلْعَجَبُ لِغَفْلَةِ اَلْحُسَّادِ، عَنْ سَلَامَةِ اَلْأَجْسَادِ !

الشَّرْحُ :

إنما لم يَحسد الحاسد على صحّة الجسد؛ لأنّه صحيحُ الجسد، فقد شارك في الصحّة، وما يُشارك الإنسانُ غيره فيه لا يَحسده عليه، ولهذا أرباب الحَسد إذا مَرِضوا حَسدوا الأصحّاء على الصحّة.

فإن قلت: فلماذا تَعجَّب أميرُ المؤمنينعليه السلام ؟

قلت: لكلامهعليه السلام وَجْه، وهو أن الحسد لمّا تمكن في أربابه، وصار غريزة فيهم، تعجّب كيف لا يتعدّى هذا الخُلُق الذّميم إلى أن يحسد الإنسان غيره على ما يشاركه فيه؛ فإن زيداً إذا أبغض عَمْراً بُغْضاً شديداً وَدّ أن تزول عنه نِعْمته إليه، وإن كان ذا نِعْمة كنِعمتِه، بل ربما كان أقوى وأحسن حالاً. ويجوز أن يريد معنى آخر، وهو تعجُّبه من غَفْلة الحُسّاد؛ على أن الحسد مؤثّر في سلامة أجسادهم، ومقتضٍ سُقمَهُم، وهذا أيضاً واضح.



الأَصْلُ :

الطَّامِعُ فِي وَثَاقِ الذُلِّ[1].

---

١. ونحوه الحكمة ٢١٥، ١٨٢.

الشّرْحُ :

من أمثال البُحْتريّ قوله :

واليأسُ إحدَى الرّاحتَيْن ولن تَرَى تَعِباً كظَنٍّ الخائب المَكْدُودِ

وكان يقال : ما طمِعتْ إلّا وذلّت ـ يَعنُون النّفس . وفي البيت المشهور :

تُقطّع أعناقَ الرّجال المَطامِعُ .

وقالوا : عَزَّ من قَنِع ، وذَلَّ من طَمِع . وقد تقدّم القولُ في الطّمع مراراً .



الأصْلُ :

وقالﷺ وقد سُئل عن الإيمان :

ٱلْإِيمَانُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ ، وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ ، وعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ .

الشّرْحُ :

قد تقدّم قولُنا في هذه المسألة .

وهذا هو مذهبُ أصحابنا المعتزِلة بعَيْنه ؛ لأنّ العمل بالأركان عندنا داخلٌ في مسمّى الإيمان ـ أعنِي فعل الواجبات ، فمن لم يَعمَل لم يسمَّ مؤمناً وإن عَرَف بقلبه وأقَرَّ بلسانه ، وهذا خلاف قول المرجئة من الأشعرية والإمامية[1] والحشوية .

---

١ . وهو قول الامامية دون أدنى شك ، وقد رويت هذه الكلمات عن الامام الرضاﷺ ، عنه صلوات الله عليه كما في عيون الأخبار ١ : ٢٦٦ بعدة طرق ، وفي غيره . والمراد بالمعرفة هنا الاعتقاد الجازم المطابق للواقع سواءٌ كان عن علم أم عن تقليد . فما لم يكن الانسان معتقداً بالقلب لم يكن مؤمناً ولو أقرّ وعمل ، وما لم يقرّ بلسانه ، لم يكن مؤمناً ولو تيقّن بقلبه ، وما لم يقرن ذلك بالعمل المحسوس ، مما ثبت بضرورة الدين كالصلاة والصوم والجهاد والحج والزكاة ... الخ لم يكن مؤمناً ، وإن كان مقرّاً بلسانه ومعتقداً بجنانه . (انظر الحكمة ٣١) .



الأصْلُ :

مَنْ أَصْبَحَ عَلَىٰ الدُّنْيَا حَزِيناً ، فَقَدْ أَصْبَحَ لِقَضَاءِ ٱللهِ سَاخِطاً . وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ ، فَقَدْ أَصْبَحَ يَشْكُو رَبَّهُ . وَمَنْ أَتَىٰ غَنِيّاً فَتَوَاضَعَ لَهُ لِغِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ . وَمَنْ قَرَأَ ٱلْقُرْآنَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ ؛ فَهُوَ مِمَّنْ كَانَ يَتَّخِذُ آيَاتِ ٱللهِ هُزُواً ، وَمَنْ لَهِجَ قَلْبُهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا ٱلْتَاطَ قَلْبُهُ مِنْهَا بِثَلَاثٍ : هَمٌّ لَا يُغِبُّهُ ، وَحِرْصٌ لَا يَتْرُكُهُ ، وَأَمَلٌ لَا يُدْرِكُهُ .

الشّرْحُ :

إذا كان الرّزق بقضاء الله وقَدَره ، فمن حَزِن لفَواتِ شيءٍ منه فقد سَخِط قضاءَ الله وذلك معصية ؛ لأنّ الرّضا بقضاء الله واجب ، وكذلك من شَكا مصيبةً حلّت به ؛ فإنّما يشكو فاعِلَها لاهي ؛ لأنّها لم تنزل به من تِلقاء نفسِها ، وفاعِلُها هو الله ، ومن اشتكى الله فقد عَصَاه ؛ والتواضُع للأغنياء تعظيماً لغِناهم أو رجاءَ شيءٍ ممّا في أيديهم فِسْق . وكان يقال : لا يُحمَد التِّيه إلّا من فقيرٍ على غَنِيّ . فأمّا قولُه ﷺ : «ومن قرأ القرآنَ فماتَ فدخل النار ، فهو ممّن كان يتّخذ آياتِ الله هُزُواً» .

فلِقائل أن يقول : قد يكون مؤمِناً بالقرآن ليس بمتّخِذٍ له هُزُواً ، ويقرؤه ثمّ يدخل النار ؛ لأنّهُ أتى بكَبيرة أُخرىٰ نحوَ القتل والزّنا والفِرار من الزّحف وأمثال ذلك !

والجواب أن معنى كلامه ﷺ هو أنّ من قَرَأ القرآن فمات فدَخَل النار لأجلِ قراءتِهِ القرآن فهم ممّن كان يتّخذ آياتِ الله هُزُواً ، أي يقرؤه هازِئاً به ، ساخراً منه ، مستهيناً بمواعظه وزواجره ، غير معتقِد أنّه من عندِ الله .

فإن قلت : إنما دخل مَن ذكرتَ النارَ ؛ لا لأجل قراءته القرآن ، بل لهُزئه به ، وجحوده إيّاه ، وأنت قلت : معنى كلامه أنّه من دَخل النار لأجل قراءته القرآن فهو ممّن كان يستهزِئُ بالقرآن !

قلت : بل إنّما دخل النار ؛ لأنّه قرأه على صفة الاستهزاء والسُّخْرية ، ألا ترى أنّ الساجد للصّنَم يُعاقَب لسجودِهِ له على جهة العبادة والتعظيم ، وإن كان لولا ما يحدثه مضافاً للسّجود

من أفعال القلوب لما عُوقب.

ويمكن أن يُحمَل كلامُه عليه السلام على تَفسيرٍ آخرَ، فيقال: إنّه عَنَى بقوله: إنّه كما كان ممّن يتّخذ آيات الله هُزُواً: أنّه يعتقد أنّها من عند الله، ولكنّه لا يَعمَل بمُوجبها كما يَفعَله الآنَ كثيرٌ من الناس. قولُهُ عليه السلام: «التاط بقَلْبه» أي لَصِق. ولا يُغِبُّه، أي لا يَأْخُذُه غِبّاً، بل يلازمه دائماً، وصَدَق عليه السلام فإنّ حُبّ الدنيا رأسُ كلّ خطيئة، وحبُّ الدنيا هو المُوجِب للهَمّ والغمّ والحِرْص والأمَل والخَوْف على ما اكتَسَبه أن ينفَد، وللشُّحّ بما حَوَتْ يَدُهُ، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة.



٢٢٥

الأصْلُ:

كَفَىٰ بِالْقَنَاعَةِ مُلْكاً، وَبِحُسْنِ الْخُلُقِ نَعِيماً.

الشّرْحُ:

قد تقدّم القولُ في هذين، وهما القناعة وحُسْن الخُلُق.

وكان يقال: يستحقّ الإنسانيّة مَنْ حَسُن خلقُه، ويكاد السيءُ الخُلُق يُعَدّ من السّباع.

وقال بعضُ الحكماء: حدُّ القناعة هو الرّضا بما دون الكفاية، والزّهد: الاقتصار على الزَّهيد، أي القليل، وهما مُتقارِبان، وفي الأغلب إنما الزهد هو رَفْض الأُمور الدنيويّة مع القُدْرة عليها؛ وأمّا القَناعة فهي إلزام النّفس الصبرَ عن المشتهَيَات الّتي لا يقدر عليها، وكلّ زُهْد حَصَل لا عن قَناعةٍ فهو تزهّد، وليس بزُهد، وكذلك قال بعض الصُّوفيّة: القناعة أوّل الزُّهد، تنبيهاً على أنّ الإنسان يحتاج أوّلاً إلى قدْع نفسه وتخصّصه بالقناعة ليَسهلَ عليه تَعاطِي الزّهد، والقناعة الّتي هي الغنى بالحقيقة، لأنّ الناسَ كلّهم فقراء من وجهين:

أحدهُما: لافتقارِهم إلى الله تعالى كما قال: **﴿يٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ واللهُ هُوَ**

الغَنِيُّ الحَمِيد﴾[١].

والثاني: لكَثْرة حاجاتهم فأغناهم لا مَحَالة أقلّهم حاجة، ومن سدّ مَفاقِره بالمُقتَنَيات فما في انسدادِها مطمَع، وهو كَمَن يَرقَع الخَرْق بالخَرْق، ومن يَسُدّها بالاستغناء عنها بقَدْر وُسْعه والاقتصار على تَناوُل ضروريّاته فهو الغنيّ المقرَّب من الله سبحانه، كما أشار إليه في قصّة طالوتَ: ﴿**إنّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإنَّهُ مِنّي إلّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ**﴾[٢]، قال أصحاب المعاني والباطن: هذا إشارةٌ إلى الدنيا.



الأصْلُ:

وسُئل ﷺ عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٣]، فَقَالَ: هِيَ الْقَنَاعَةُ.

الشّرْحُ:

لا ريبَ أنّ الحياةَ الطّيبة هي حياةُ الغِنَى، وقد بيّنّا أن الغَنِيَّ هو القَنُوع، لأنّه إذا كان الغِنَى عدمُ الحاجة فأغنَى النّاس أقلُّهم حاجةً إلى الناس، ولذلك كان الله تعالى أغْنَى الأغنياء، لأنّه لا حاجةَ به إلى شيء، وعلى هذا دَلّ النبيُّ بقوله ﷺ: «ليس الغِنَى بكَثْرة العَرَض، إنّما الغِنَى غِنَى النّفس».

وقال أصحابُ هذا الشأن: القَناعة من وجهٍ صَبْر، ومِنْ وَجْهٍ جُود، لأنّ الجُودَ ضَرْبان: جودٌ بما في يدك منتَزِعاً، وجودٌ عمّا في يدِ غيرك متورِّعاً، وذلك أشرَفهما.

---

١. سورة فاطر ١٥.

٢. سورة البقرة ٢٤٩.

٣. سورة النحل ٩٧.



الأصْلُ :

شَارِكُوا الَّذِينَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِمُ الرِّزْقُ ، فَإِنَّهُ أَخْلَقُ لِلْغِنَىٰ ، وَأَجْدَرُ بِإِقْبَالِ ٱلْحَظِّ[١].

الشّرْحُ :

قد تقدّم القولُ في الحظّ والبخْتِ.

وكان يقال: الحظّ يُعدِي كما يُعدِي الجرَب، وهذا يُطابق كلمة أمير المؤمنين ﷺ، لأنّ مخالطة المجْدود ليست كمخالَطة غير المجْدود، فإن الأُولى تقتضي الاشتراك في الحظ والسعادة، والثانية تقتضي الاشتراك في الشقاء والحرمان. والقول في الحظ وسيعٌ جداً.

وقال بعضهم: البَخْت على صورةِ رجلٍ أعمى أصمّ أخرس، وبين يديه جواهرُ وحِجارة، وهو يَرمي بكِلتَا يَدَيه.



الأصْلُ :

وقال ﷺ في قولِهِ عزَّ وجَلَّ :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ﴾[٢]: ٱلْعَدْلُ ٱلْإِنْصَافُ، وَٱلْإِحْسَانُ التَّفَضُّلُ.

الشّرْحُ :

هذا تفسيرٌ صحيح اتّفق عليه المفسرون كافّة، وإنما دخل النّدْب تحت الأمر؛ لأنّ له صفةً زائدة على حُسْنه، وليس كالمُباح الذي لا صِفَة له زائدة على حُسْنه.

---

١. هذه نصيحة من الإمامﷺ، وليست أمراً شرعياً، والمعنىٰ، إذا رأيتم شخصاً أقبل عليه الرزق، فاشتركوا معه في عمله، فإنّ هذا يجلب لكم الغنىٰ والحظّ الحسن.

٢. سورة النحل ٩٠.



الأصْلُ :

وقالﷺ: مَنْ يُعْطِ بِالْيَدِ الْقَصِيرَةِ يُعْطَ بِالْيَدِ الطَّوِيلَةِ

قال الرضيﷺ :

ومعنى ذلك أن ما ينفقه المرء من ماله في سبيل الخير والبر – وإن كان يسيراً – فإن الله تعالى يجعل الجزاء عليه عظيماً كثيراً ، واليدان هاهنا ، عبارة عن النعمتين ففرّقﷺ بين نعمة العبد ونعمة الرب تعالى ذكره ، بالقصيرة والطويلة ، فجعل تلك قصيرة وهذه طويلة ، لأنّ نعم الله أبداً تُضَعّف على نعم المخلوقين أضعافاً كثيرة ؛ إذ كانت نعم الله أصل النعم كلها ، فكل نعمة إليها ترجع ، ومنها تُنزع .

الشّرْحُ :

هذا الفَصْل قد شرَحه الرّضيّﷺ ، فأغنى عن التعرّض بشَرْحِه[1] .



الأصْلُ :

وقالﷺ لابْنِهِ الحَسَنِ: لَا تَدْعُوَنَّ إِلَىٰ مُبَارَزَةٍ، وَإِنْ دُعِيتَ إِلَيْهَا فَأَجِبْ ؛ فَإِنَّ الدَّاعِيَ إِلَيْهَا بَاغٍ، وَالْبَاغِيَ مَصْرُوعٌ.

---

١. وقيل: إن المراد باليد القصيرة هنا، عمل الإنسان وجهاده، والتضحية لنصرة الحقّ والعدل، أمّا اليد الطويلة، فهي كناية عن عطاء الله سبحانه الذي وصفه بقوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ سورة هود ١٠٨، أي غير مقطوع. في ظلال نهج البلاغة / مغنيّة ٤٠: ٣٥٥.

الشّرْحُ :

قد ذكَرﷺ الحِكْمة، ثم ذكر العِلّة، وما سَمِعْنا أنهﷺ دعا إلى مُبارَزةٍ قَطّ، وإنما كان يدعَى هو بعينه، أو يدعو من يبارز، فيَخْرُج إليه فيقتله، دعا بنو ربيعة بن عبد شمس بني هاشم إلى البراز يوم بَدْر، فخرجﷺ فقتل الوليد، واشترك هو وحمزةﷺ في قَتْل عُتْبة، ودعا طَلْحة بن أبي طَلْحة إلى البراز يوم أحد، فخرج إليه فقتله، ودعا مَرْحبٌ إلى البراز يوم خَيْبَر فخرج إليه فقتله.

فأما الخَرْجة التي خرَجَها يوم الخَنْدق إلى عمرو بن عبد وُدّ فإنّها أجلّ من أن يقال جليلة، وأعظم من أن يقال عظيمة، وما هي إلّا كما قال شيخنا أبو الهذيل وقد سأله سائلٌ: أيّما أعظم منزلة عند الله، عليٌّ أم أبو بكر ؟ فقال: يابن أخي، والله لمبارزة عليٍّ عَمْراً يوم الخندق تَعْدِل أعمالها المهاجرين والأنصار وطاعتهم كلها وتُرْبِي عليها فضلاً عن أبي بكر وحدَه.

(ثم إنّ ابن أبي الحديد نقل قصة الخندق ومبارزة الإمام عليﷺ لابن ودّ عن مغازي الواقدي وسيرة ابن إسحاق، مفصّلة).



الأصْلُ :

خِيَارُ خِصَالِ النِّسَاءِ شِرَارُ خِصَالِ الرِّجَالِ: الزَّهْوُ وَالْجُبْنُ وَالْبُخْلُ؛ فَإِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ مَزْهُوَّةً لَمْ تُمَكِّنْ مِنْ نَفْسِهَا، وَإِذَا كَانَتْ بَخِيلَةً حَفِظَتْ مَالَهَا وَمَالَ بَعْلِهَا، وَإِذَا كَانَتْ جَبَانَةً فَرِقَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَعْرِضُ لَهَا.

الشّرْحُ :

أخَذ هذا المعنَى الطُّغرائيُّ شاعرُ العَجَم فقال:

الجـودُ والإقْـدامُ فـي فِـتيانِهمْ   والبُـخلُ فـي الفَـتَيات والإشـفاقُ

والطّعنُ فـي الأحـداقِ دأبُ رُمـاتِهِمْ والرامـيات سِـهامَها الأحـداقُ

وتقول: زُهيَ الرجلُ علينا فهو مَزْهُوٌّ، إذا افتخر، وكذلك نُخِيَ فهو مَنْخُوّ، من النَّخْوة، ولا يجوز زَهَا إلّا في لغةٍ ضعيفة[1].

وفَرِقتْ: خافتْ. والفَرَق: الخوف.



الأصْلُ:

وَقِيلَ لَهُ ﷺ: صِفْ لَنَا العَاقِلَ، فَقَالَ ﷺ: هُوَ الَّذِي يَضَعُ الشَّيْءَ مَوَاضِعَهُ.
فَقِيل: فَصِف لَنَا الجاهِلَ، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ.

قال الرضي ﷺ: يعني أن الجاهل هو الذي لا يضع الشيء مواضعه، فكأنّ تَرْكَ صفته صفةٌ له، إذ كان بخلاف وصف العاقل.



الأصْلُ:

وَٱللهِ لَدُنْيَاكُمْ هٰذِهِ أَهْوَنُ فِي عَيْنِي مِنْ عُرَاقِ خِنْزِيرٍ فِي يَدِ مَجْذُومٍ.

الشّرْحُ:

العُراق: جمع عَرْق، وهو العَظْم عليه شيءٌ من اللَّحْم، وهذا من الجُموع النادرة، نحو رَخْل ورُخال وتَوْأم وتُؤام ولا يكون شيء أحقر ولا أبغَضُ إلى الإنسان من عُراق خنزير في يدِ

---

١. والمرأة المزهوّة: المتكبّرة بنفسها المفتخرة علىٰ غيرها.

مَجْذوم، فانهُ لم يَرْضَ بأن يجعلهُ في يدِ مجذوم ـ وهو غايةُ ما يكون مِن التّنْفير ـ حتّى جَعله عُراق خنزير. ولعَمْري لقد صَدَق ـ وما زال صادقاً ـ ومن تأمّل سِيرتَه في حالَتيْ خلوّه من العمل ووِلايته الخلافة عَرَف صحة هذا القول.



٢٣٤

الأصْلُ:

إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا ٱللهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا ٱللهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ ٱلْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا ٱللهَ شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ ٱلْأَحْرَارِ.

الشّرْحُ:

هذا مقامٌ جليلٌ تَتقاصر عنه قُوَى أكثر البَشَرِ، وقد شرَحْناه فيما تقدّم، وقلنا: إنّ العبادة لرجاء الثواب تجارةٌ ومُعاوَضة، وإن العبادة لخوفِ العِقاب لمنزِلَةُ من يَستجدِي لسلطانٍ قاهر يخاف سطوتَه، وهذا معنَى قوله: «عبادةُ العبيد»، أي خَوف السّوط والعصا، وتلك ليس عبادةً نافعة، وهي كمن يَعتذِر إلى إنسان خوفَ أذاه ونِقْمته، لا لأنّ ما يَعتذِر منه قبيح لا ينبغي له فِعْلهُ، فأمّا العبادة لله تعالى شكراً لأنعُمه فهي عبادةٌ نافعة، لأنّ العبادة شكرٌ مخصوص، فإذا أوقَعَها على هذا الوجه فقد أوقَعها الموقعَ الّذي وُضِعتْ عليه.



٢٣٥

الأصْلُ:

ٱلْمَرْأَةُ شَرٌّ كُلُّهَا، وَشَرٌّ مَا فِيهَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهَا.

الشّرْحُ :

حَلَف إنسانٌ عند بعض الحكماء أنه ما دخل بابِي شَرٌّ قطّ ؛ فقال الحكيم : فمِنْ أينَ دخَلَتِ امرأتُك ! وكان يقال : أسباب فِتنة النساء ثلاثة : عينٌ ناظرة ، وصورةٌ مستحسَنةٌ ، وشَهوةٌ قادرة ، فالحكيم من لا يردِّد النظرة حتّى يَعرفَ حقائقَ الصّورة ؛ ولو أنّ رجلاً رأى امرأةً فأعجبتْه ثمّ طَالَبها فامتنعتْ ، هل كان إلّا تارِكَها ! فإن تأبّى عقلُه عليه في مُطالَبتها كتأبِّيها عليه في مُساعَفَتها قَدَع نفسَه عن لذّته قَدْع الغَيُور إيّاه عن حُرْمةِ مُسلِم .



الأصْلُ :

مَنْ أَطَاعَ التَّوَانِيَ ضَيَّعَ الْحُقُوقَ ، وَمَنْ أَطَاعَ الْوَاشِيَ ضَيَّعَ الصَّدِيقَ[١] .

الشّرْحُ :

قد تقدّم الكلامُ في التّواني والعَجْز ، وتقدّم أيضاً الكلامُ في الوِشاية والسِّعاية .



الأصْلُ :

الْحَجَرُ الْغَصْبُ فِي الدَّارِ رَهْنٌ عَلَى خَرَابِهَا .

قال الرضيّ ؒ :

---

١. مؤدّاه : أنّ من أخّر الفعل الذي ينبغي أن يُفعل عن وقته المعيّن بلا عذر فقد ضيّع الحقوق ، واستحقّ الذم . ومن سمع قول الوشاة (النمامين) في صديقه فقد هدم الصداقة . وضيّع الصديق .

وقَد روي ما يُناسِبَ هَذَا الكَلَامَ عن النَبيِّ ﷺ ، ولا عَجَبَ أنْ يَشْتَبِهَ الكَلامَانَ ، فإنّ مُسْتقاهُما من قَلِيبٍ ، وَمفْرَغهُما من ذَنوبٍ .

الشّرْحُ :

الذَّنُوب : الدلو المَلأى ، ولا يقال لها وهيَ فارغةٌ : ذَنُوب ، ومعنى الكلمة أن الدّار المبنيّة بالحجارة المَغْصوبة ولو بحَجَر واحد ، لابدّ أن يتعجّل خرابُها ، وكأنّما ذلك الحجَر رَهْن على حصول التخرّب ، أي كما أنّ الرَّهْن لابدّ أن يُفْتَكّ ، كذلك لابدّ لِما جُعل ذلك الحجرُ رَهْنا عليه أن يَحصُل .



الأَصْلُ :

يَوْمُ ٱلْمَظْلُومِ عَلَىٰ الظَّالِمِ ، أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الظَّالِمِ عَلَىٰ ٱلْمَظْلُومِ .

الشّرْحُ :

قد تقدّم الكلامُ في الظّلم مراراً .

وكان يقال : اذكُر عندَ الظّلم عدلَ الله تعالى فيكَ ، وعند القُدْرة قدرةَ الله تعالى عليك .

وإنّما كان يومُ المظلوم على الظالم أشدَّ من يومه على المظلوم ، لأنّ ذلك اليومَ يومُ الجزَاء الكُلّيّ ، والانتقام الأعظم ، وقُصارَى أمرِ الظالم في الدنيا أن يَقتُل غيرَه فيُمِيته مِيتةً واحدة ، ثمّ لا سبيل له بعد إماتته إلى أن يُدخِل عليه ألماً آخَر ؛ وأمّا يومُ الجَزاء فإنّه يومٌ لا يموت الظالم فيه فيَستريح ، بل عذابُه دائمٌ متجدِّد ، نعوذ بالله من سُخْطِهِ وعِقابه .



الأَصْلُ :

اتَّقِ اللهَ بَعْضَ التُّقَىٰ وَإِنْ قَلَّ ؛ وَاجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سِتْراً وَإِنْ رَقَّ .

الشّرْحُ :

يقال في المَثَل : ما لا يُدْرَك كلُّه لا يُتْرَك كلّه .

فالواجب على من عَسُرتْ عليه التّقوى بأجمعها أن يتقي الله في البعض ، وأن يجعل بينه وبينه سِتْراً وإن كان رَقيقاً . وفي أمثال العامّة : إجعل بينك وبين الله رَوْزنة[1] ، والرَّوْزَنة لفظة صحيحةٌ مُعَرَّبة ، أي لا تَجعل ما بينَك وبينه مَسْدوداً مظلماً بالكليّة .



الأَصْلُ :

إِذَا ازْدَحَمَ الْجَوَابُ ، خَفِيَ الصَّوَابُ .

الشّرْحُ :

هذا نحو أن يورد الإنسانُ إشكالاً في بعض المسائل النَّظَريّة بحضرةِ جماعةٍ من أهل النظر ، فيَتغالب القومُ ويتسابقون إلى الجواب عنه ، كلٌّ منهم يورِد ما خَطرَ له . فلا رَيْب أنّ الصواب يَخفى حينئذٍ ، وهذه الكلمة في الحقيقة أمر للنّاظر البَحّاث أن يتحرّى الإنصاف في بحثه ونظره مع رفيقه ، وألّا يقصد المِراءَ والمغالَبة والقَهرَ .

١. الروزنة : الكوة . وفي المحكم لابن سيده : الخرق في أعلى السقف.



الأصْلُ :

إِنَّ للهِ تعالى فِي كُلِّ نِعْمَةٍ حَقّاً، فَمَنْ أَدَّاهُ زَادَهُ مِنْهَا، وَمَنْ قَصَّرَ فِيهِ خَاطَرَ بِزَوَالِ نِعْمَتِهِ.

الشّرْحُ :

قد تقدّم الكلامُ في هذا المعنى. وجاء في الخبر: مَن أُوتي نعمةً فأدّى حقَّ الله منها بِرَدِّ اللَّهفة، وإجابةِ الدّعوة، وكشْف المظلمة، كان جديراً بدوامها ومَنْ قَصَّر قُصِّرَ به.



الأصْلُ :

إِذَا كَثُرَتِ ٱلْمَقْدُرَةُ قَلَّتِ الشَّهْوَةُ.

الشّرْحُ :

هذا مِثلُ قولهم: كلُّ مقدورٍ عليه مملول، ومثل قول الشاعر:

* وكلُّ كثيرٍ عدوُّ الطّبيعهْ *

ولهذا الحُكْم عِلَّة في العِلْم العقلي، وذلك أنّ النفس عندهم غنيَّة بذاتها، مكتفِيَة بنفسها، غيرُ محتاجة إلى شيء خارج عنها، وإنَما عَرضتْ لها الحاجة والفَقْر إلى ما هو خارج عنها لمقارَنَتها الهَيُولى، وذلك، أن أمْرَ الهيُولى بالضّدّ من أمرِ النّفس في الفَقْر والحاجة، ولمّا كان الإنسانُ مركَّباً من النّفس والهيُولى عرض له الشوقُ إلى تحصيلِ العلوم والقنيات لانتفاعِه بهما، والتذاذِه بحصولهما، فأما العلوم فإنّه يحصِّلها في شبيهٍ بالخزانة له، يَرجِع إليها متى

شاء، ويستخرج منها ما أراد، أعنِي القُوَى النفسانيّة الّتي هي محلّ الصّوَر والمعاني على ما هو مذكور في موضعه. وأمّا القنيات والمحْسوسات فإنّه يروم منها مِثل ما يَرومُ من تلك، وأن يُودِعها خزانةً محسوسةً خارجةً عن ذاته، لكنّه يَغلَط في ذلك من حيث يَستكْثِر منها، إلى أن يتنبّه بالحِكْمة على ما ينبغي أن يقتنيَ منها، فأما من كثرت قِنياته فإنّه يستكثر حاجاتِه بحَسَب كثرة قِنياته، وعلى قدْرها رغّبه إلى الاستكثارِ بكثرة وجوه فَقْره، وقد بُين ذلك في شرائع الأنبياء، وأخلاقِ الحكماء، فأما الشيء الرخيصُ الموجود كثيراً فإنّما يُرغَب عنه، لأنّه معلوم أنه إذا التمسَ وُجد والغالي فإنّما يقدر عليه في الأحيان ويصيبه الواحدُ بعدَ الواحد، وكلّ إنسان يتمنى أن يكون ذلك الواحدُ ليصيبَه وليحصُلَ له ما لا يَحصُل لغيره.



الأصْلُ:

آحْذَرُوا نِفَارَ النِّعَمِ فَمَا كُلُّ شَارِدٍ بِمَرْدُودٍ.

الشّرْحُ:

هذا أمرٌ بالشُّكْر عَلَى النعمة وتركِ المعاصي، فانّ المعاصيَ تُزِيل النِّعَم كما قيل:

إذا كنتَ في نِعمةٍ فارْعَها ... فانّ المَعاصي تُزيل النِّعَمْ

وقال بعضُ السلف: كُفْران النِّعْمة بَوار، وقلّما أقلعتْ نافرةٌ فرجعتْ في نصابها، فاستَدْعِ شارِدَها بالشّكر، واستَدِمْ راهنها بكَرَم الجِوار، ولا تحسب أنّ سُبوغَ ستر الله عليك غير متقلّص عمّا قليل عنك إذا أنتَ لم تَرْجُ للهِ وَقاراً.



الأصْلُ:

آلْكَرَمُ أَعْطَفُ مِنَ الرَّحِمِ[1].

---

١. قال الشيخ محمد عبده: الرحم ـ هنا ـ كناية عن القرابة، والمراد، ينعطف للإحسان بكرمه أكثر مما ينعطف

الشّرْحُ :

مِثلُ هذا المعنى قولُ أبي تمام لابن الجَهْمِ:

إلّا يَكُــنْ نسبٌ يـؤلّفُ بـيننا ... أدبٌ أقـمناه مـقامَ الوَالدِ

أو يَـختلِفْ مـاءُ الوصـالِ فـماؤُنا ... عَـذْب تَـحدَّرَ مـن غـمامٍ واحـدِ



الأصْلُ :

مَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ[1].

الشّرْحُ :

هذا قد تقدّم في وصيّته عليه السلام لولَدِه الحسن.

ومن كلام بعضهم: إنّي لأستحيي أن يأتيَني الرجُلُ يحمَرُّ وجهُه تارةً من الخَجَل أو يصفرّ أُخرىٰ من خوف الرّدّ قد ظَنّ بي الخيرَ وباتَ عليه وغَدَا عليَّ أن أردَّه خائباً.



الأصْلُ :

أَفْضَلُ ٱلْأَعْمَالِ مَا أَكْرَهْتَ نَفْسَكَ عَلَيْهِ.

القريب لقرابته. وهي كلمة من أعلىٰ الكلام.

١. أي حقّق ما ظنّه فيك من الخير.

الشّرْحُ :

لا رَيْبَ أنّ الثّواب على قدر المَشقّة، لأنّه كالعِوَض عنها، كما أنّ العِوَض الحقيقيّ عِوضٌ عن الألم، ولهذا قال ﷺ : «أفضل العبادة أحمَزُها»، أي أشَقّها.



الأصْلُ :

عَرَفْتُ ٱللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ ٱلْعَزَائِمِ، وَحَلِّ ٱلْعُقُودِ، وَنَقْضِ ٱلْهِمَمِ[1].

الشّرْحُ :

هذا أحدُ الطُّرُق إلى معرفة الباري سبحانه، وهو أن يَعزِم الإنسانُ على أمرٍ، ويصمِّمَ رَأيه عليه، ثمّ لا يَلبَثَ أن يُخطِر اللهُ تعالى بباله خاطراً صارِفاً له عن ذلك الفعل، ولم يكنْ في حِسابه، أي لولا أن في الوجود ذاتاً مدبّرة لهذا العالم لما خَطَرت الخواطرُ الّتي لم تكن محتَسبة، وهذا فصلٌ يتضمّن كلاماً دقيقاً يذكره المتكلّمون في الخاطر الّذي يَخطِر عن غيرِ مُوجب لخطُوره؛ فإنه لا يجوز أن يكون الإنسان أخطَرَه بباله؛ وإلّا لكان ترجيحاً من غير مرجّح لجانب الوجود على جانب العدم، فلابدّ أن يكون المخطر له بالبال شيئاً خارجاً عن ذات الإنسان، وذاك هو الشيء المسمّى بصانِع العالم.

وليس هذا الموضع ممّا يحتمِل استقصاءَ القولِ في هذا المبحَث.



الأصْلُ :

مَرَارَةُ الدُّنْيَا حَلَاوَةُ ٱلآخِرَةِ، وَحَلَاوَةُ الدُّنْيَا مَرَارَةُ ٱلآخِرَةِ.

---

١. العزائم: جمع عزيمة، وهي ما يصمّم الإنسان على فعله. فسخها: نقضها، وحلّها. والعقود: جمع عقد بمعنى النيّة.

الشَّرْحُ :

لمّا كانت الدنيا ضدَّ الآخرة، وجَب أن يكون أحكام هذه ضدّ أحكام هذه، كالسّواد يجمَع البصَر والبيَاض يفرق البصر، والحَرارة توجب الخفّة، والبُرودة توجب الثّقل، فإذا كان في الدّنيا أعمالٌ هي مرّة المَذاق على الإنسان قد ورد الشرعُ بإيجابِها فتلك الأفعال تَقتضِي وتوجِب لفاعلها ثواباً حُلْوَ المَذاق في الآخرة. وكذاك بالعكس ما كان من المشتَهيَات الدنياويّة الّتي قد نَهى الشرعُ عنها، تُوجب ـ وإن كانت حُلوة المذاق ـ مَرارة العقوبة في الآخرة.



الأَصْلُ :

فَرَضَ آللهُ آلْإِيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ الشِّرْكِ، وَالصَّلَاةَ تَنْزِيهاً عَنِ آلْكِبْرِ، وَالزَّكَاةَ تَسْبِيباً لِلرِّزْقِ، وَالصِّيَامَ آبْتِلَاءً لإِخْلَاصِ آلْخَلْقِ، وَآلْحَجَّ تَقْوِيَةً لِلدِّينِ، وَآلْجِهَادَ عِزّاً لِلْإِسْلَامِ، وَآلْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَوَامِّ، وَالنَّهْيَ عَنِ آلْمُنْكَرِ رَدْعاً لِلسُّفَهَاءِ، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنْماةً لِلْعَدَدِ، وَآلْقِصَاصَ حَقْناً لِلدِّمَاءِ، وَإِقَامَةَ آلْحُدُودِ إِعْظَاماً لِلْمَحَارِمِ، وَتَرْكَ شُرْبِ آلْخَمْرِ تَحْصِيناً لِلْعَقْلِ، وَمُجَانَبَةَ السَّرِقَةِ إِيجاباً لِلْعِفَّةِ، وَتَرْكَ الزِّنَا تَحْصِيناً لِلنَّسَبِ، وَتَرْكَ اللِّوَاطِ تَكْثِيراً لِلنَّسْلِ، وَالشَّهَادَاتِ آسْتِظْهَاراً عَلَىٰ آلْمجَاحَدَاتِ، وَتَرْكَ آلْكَذِبِ تَشْرِيفاً لِلصِّدْقِ، وَالسَّلَامَ أَمَاناً مِنَ آلْمَخَاوِفِ، وَآلْأَمَانَةَ نِظَاماً لِلْأُمَّةِ، وَالطَّاعَةَ تَعْظِيماً لِلإِمَامَةِ.

الشَّرْحُ :

هذا الفصلُ يتضمّن بيانَ تعليل العبادات إيجاباً وسَلْباً. قال ﷺ : فَرَضَ اللهُ الإيمانَ تَطْهيراً مِن الشِّرْك، وذلك لأنَّ الشِّرْك نجَاسَة حُكْمية لا عينيّة، وأيّ شيء يكون أنجَس من الجَهْل أو

أقبَح، فالإيمان هو تطهيرُ القَلْب من نجاسةِ ذلك الجهل.

وفُرِضت الصّلاة تنزيها من الكِبْر، لأنّ الإنسان يقوم فيها قائماً، والقيام مُنافٍ للتكبُّر وطاردٌ له، ثم يَرفع يديه بالتّكبير وقتَ الإحرام بالصّلاة فيصير على هيئة من يمدّ عنقَه ليوسِّطه السَّيّاف، ثم يستكتف كما يَفعَله العبيد الأذلّاء بين يدَي السادة العظماء، ثمّ يركَع على هيئة من يمدّ عنقَه ليضربَها السيّاف، ثمّ يَسجُد فيضَع أشرَف أعضائه وهو جَبْهته على أدوَنِ المواضع، وهو التراب. ثم تتضمّن الصلاةُ من الخضوع والخشوع والامتناع من الكلام والحركة الموهمة لمن رآها أنَّ صاحبَها خارجٌ عن الصّلاة، وما في غُضونِ الصلاة من الأذكار المتضمّنة الذُّلَّ والتواضع لعظمةِ الله تعالى.

وفُرِضت الزّكاة تسبيباً للرزق، كما قال الله تعالى: **﴿وَما أنْفقْتُمْ من شيءٍ فهو يُخلِفه﴾**[1]، وقال: **﴿مَنْ ذَا الّذِي يُقرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسناً فَيُضَاعِفَه له﴾**[2].

وفُرِضَ الصيامُ ابتلاء لإخلاص الخلْق، قال النبيّ ﷺ حاكياً عن الله تعالى: «الصّومُ لي وأنا أجْزِي به»، وذلكَ لأنّ الصوم أمرٌ لا يطّلع عليه أحد، فلا يقوم به على وجهه إلّا المخلِصون.

وفُرِضَ الحجّ تقوية للدِّين، وذلك لما يحصُل للحاجّ في ضِمنِه من المتاجِر والمكاسِب، قال الله تعالى: **﴿ليَشْهَدُوا مَنافعَ لهم ويَذكُروا اسمَ اللهِ على ما رَزَقهم مِنْ بَهيمةِ الأنعامِ﴾**[3]. وأيضاً فإنّ المشركين كانوا يقولون: لولا أنّ أصحابَ محمّد كثير وأُولُو قوّة لما حجّوا، فإنّ الجيشَ الضعيفَ يعجز عن الحجّ من المكان البعيد.

وفُرِضَ الجهادُ عزّاً للإسلام، وذلك ظاهر، قال الله تعالى: **﴿ولوْلَا دَفْعُ اللهِ النّاسَ بعضَهم ببعض لهُدِّمتْ صَوَامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكر فيها اسمُ اللهِ كثيراً﴾**[4]، وقال سبحانه: **﴿وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوّةٍ ومن رباطِ الخَيل تُرْهِبون به عدوَّ الله وعدوّكُمْ﴾**[5].

---

١. سورة سبأ ٣٩.

٢. سورة الحديد ١١.

٣. سورة الحج ٢٨.

٤. سورة الحج ٤٠.

٥. سورة الأنفال ٦٠.

وفُرِض الأمْر بالمعروف مصلحةً للعوام، لأنّ الأمر بالعدل والإنصاف وردّ الودائع، وأداءِ الأمانات إلى أهلها، وقضاء الديون، والصّدق في القول، وإيجاز الوعد، وغير ذلك من محاسن الأخلاق، مصلحة للبَشَر عظيمة لا محالة. وفُرِض النهيُ عن المنكَر رَدْعاً للسّفهاء، كالنّهي عن الظلم والكَذِب والسَّفَه، وما يَجري مَجرَى ذلك.

وفُرِضت صِلَة الرَّحِم مَنْماةً للعَدَد، قال النبيّ ﷺ: «صلة الرَّحم تَزيد في العمر، وتُنَمّي العَدَد».

وفُرِض القِصاصُ حَقْنا للدِّماء، قال سبحانه: **﴿ولَكُمْ في القِصَاص حَياةٌ يا أُولي الألبابِ﴾**[1].

وفُرِضت إقامة الحدود إعظاماً للمحارم، وذلك لأنّه إذا أُقيمت الحدودُ امتنع كثيرٌ من الناس عن المعاصي التي تجبُ الحدُودُ فيها، وظهر عظم تلك المعاصِي عند العامّة فكانوا إلى تركها أقرب.

وحُرِّم شربُ الخمْر تحصيناً للعقل، قال قوم لحكيم: اشرَبْ اللّيلة معنَا، فقال: أنا لا أشرَب ما يَشْرَب عَقْلي؛ ثم قال ﷺ: «الخمرُ جماعُ الإثم، الخمر أمُّ المعاصي».

وحُرِّمت السَّرِقة إيجاباً للعفّة، وذلك لأنّ العفّة خُلُقٌ شريف، والطمعُ خُلُق دنيءٌ، فحرمت السّرقة ليتمرَّن الناسُ على ذلك الخُلقِ الشريف، ويجانبوا ذلك الخُلُقَ الذميمَ، وأيضاً حُرِّمت لما في تحريمها من تحصين أموال الناس.

وَحرِّم الزنا تحصينا للنَّسَب، فإنّه يُفضِي إلى اختلاط المِياه واشتباهِ الأنساب، وألّا يُنسَب أحدٌ بتقدير ألّا يشرَع النكاح إلى أب، بل يكون نَسبُ الناس إلى أمَّهاتهم، وفي ذلك قلبُ الحقيقة، وعكسُ الواجب، لأنّ الولد مخلوقٌ من ماء الأب، وإنّما الأمّ وعاء وظَرْف.

وحُرِّم اللِّواط تكثيراً للنَّسل، وذلك اللّواط بتقدير استفاضتِه بين الناس والاستغناء به عن النِّساء يُفضِي إلى انقطاعِ النَسل والذّرّية، وذلك خلاف ما يريد الله تعالى من بقاء هذا النوعِ الشّريف الّذي ليس في الأنواع مِثله في الشّرف، لمكان النفس الناطقة الّتي هي نسخةٌ ومِثالٌ للحَضْرة الإلهية، ولذلك سَمَّت الحكماءُ الإنسانَ العالَمَ الصغير.

وحُرِّم الاستمناء باليد وإتيان البهائِم للمعنى الّذي لأجلِه حُرِّم اللِّواط، وهو تقليل النَّسْل؛ ومن مستحسَن الكلمات النبويّة قولُه ﷺ في الاستمناء باليد: «ذلك الوَأد الخَفيّ»، لأنّ الجاهليّة كانت تَئِد البناتِ أي تَقتُلُهنّ خَنْقاً، وقد قدّمنا ذكرَ سبب ذلك، فشبَّه ﷺ إتلاف

---

١. سورة البقرة ١٧٩.

النطفة الّتي هي ولدٌ بالقوّة بإتلاف الولد بالفعل.

وأُوجبتْ الشهاداتُ على الحقوق استظهاراً على المجاحَدات؛ قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «لو أعُطِيَ الناسُ بدعاوِيهم لاسْتَحَلّ قومٌ من قوم دماءَهم وأموالهم».

ووَجَب تركُ الكَذِب تشريفاً للصِّدق، وذلك لأنّ مصلحة العامة إنما تتمّ وتنتظم بالصِّدق، فإنّ الناس يَبنُون أكثرَ أُمورهم في معاملاتهم على الأخبار، فإنّها أعمّ من العِيان والمُشاهَدة، فإذا لم تكن صادقةً وقع الخطأ في التدبيرات، وفَسَدتْ أحوالُ الخَلْق.

وشُرِع رَدُّ السلام أماناً من المخاوِف، لأنّ تفسير قولِ القائل: «سلامٌ عليكم»، أي لا حَرْبَ بيني وبينكم، بل بيني وبينكم السلام، وهو الصلح.

وفُرِضت الإمامة نظاماً للأمّة؛ وذلك لأنّ الخَلْق لا يرتفع الهرْج والعَسْف والظّلم والغَضَب والسّرقة عنهم إلا بوازِعٍ قويٍّ، وليس يَكْفِي في امتناعهم قُبح القبيح، ولا وعيدُ الآخرة، بل لابدّ لهم من سلطان قاهرٍ ينظِّم مصالحهم، فيَردَع ظالمَهم، ويأخذ على أيدي سُفَهائهم.

وفُرِضت الطّاعة تعظيماً للإمامة، وذلك لأنّ أمْرَ الإمامة لا يتم إلّا بطاعة الرّعيّة، وإلّا فلو عَصَت الرعيّة إمامَها لم ينتفعوا بإمامتِه ورئاستِه عليهم.



الأصْلُ:

وكان عليه السلام يقول: أَحْلِفُوا الظَّالِمَ - إِذَا أَرَدْتُمْ يَمِينَهُ - بِأَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ حَوْلِ ٱللهِ وَقُوَّتِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِهَا كَاذِباً عُوجِلَ، وَإِذَا حَلَفَ بِاللهِ الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَمْ يُعَاجَلْ، لِأَنَّهُ قَدْ وَحَّدَ ٱللهَ تَعَالَىٰ[1].

---

١. هذه اليمين يسميها الفقهاء يمين البراءة من الله سبحانه أو من رسوله صلى الله عليه وآله. وهي لا تنعقد ولا تجب بها كفّارة. ويأثم صاحبها وإن كان صادقاً. وقيل تجب بها كفارة ظهار. (شرائع الإسلام للمحقق الحلي). وقال صاحب الجواهر في باب الأيمان: (ولكن قد يستفاد الجواز من قول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: أحلفوا الظالم... الخ. وروي أن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أحلف بيمين البراءة من وشي به عند المنصور. ولكني لم أجد ←



الأصْلُ :

يَابْنَ آدَمَ ، كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ ، وَاعْمَلْ فِي مالِكَ مَا تُؤْثِرُ أَنْ يُعْمَلَ فِيهِ مِنْ بَعْدِكَ .

الشّرْحُ :

لا ريبَ أن الإنسان يُؤثر أن يُخرَج مالُه بعد موته في وجوه البِرّ والصدقات والقُرُبات ليَصِل ثوابُ ذلك إليه ، لكنّه يضِنّ بإخراجه وهو حيٌّ في هذه الوجوه لحبّه العاجلة وخوفِه من الفقر والحاجة إلى الناس في آخِرِ العُمر ، فيقيم وصيّاً يَعمَل ذلك في ماله بعد موته .

وأوصَى أميرُ المؤمنين عليه السلام الإنسانَ أن يَعمَل في ماله وهو حيّ ما يُؤثِر أن يُجعَل فيه وصيّة بعد موته ، وهذه حالة لا يَقدِر عليها إلّا من أخَذَ التوفيقُ بيَدِه .



الأصْلُ :

الْحِدَّةُ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ ، لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَنْدَمُ ؛ فَإِنْ لَمْ يَنْدَمْ فَجُنُونُهُ مُسْتَحْكَمٌ .

⇐ من أفتىٰ بذلك من الفقهاء ، نعم في كتاب الوسائل باب جواز استحلاف الظالم بالبراءة وظاهره الفتوىٰ به. وظاهره يقتضي الترك إلّا في مهدور الدم) .

وقد يراد بالظالم ـ هنا ـ من يجوز قتله لسبب أو لآخر .

وقد أحلف الإمام الصادق عليه السلام ـ بهذه اليمين ـ رجلاً ادعىٰ عليه كذباً وزوراً أمام المنصور ، فما أتمّ الحالف يمينه حتىٰ أصيب بالفالج وجرّ برجله من المجلس ثم مات .

كما أحلف يحيى بن عبد الله بن الحسن ، عبد الله بن مصعب الزبيري أمام الرشيد ، فأصابه الجذام من ساعته ومات بعد ثلاث ، فقبر فانخسف به قبره .

الشّرْحُ :

كان يقال: الحِدّة كُنْية الجهل. وكان يقال: لا يصحّ لحَديدٍ رَأْي، لأنّ الحِدّة تُصْدِئُ العَقْل كما يُصْدِئُ الخَلُّ المِرآة فلا يَرَى صاحبُه فيه صورة حسن فيَفعَله، ولا صُورة قبيح فيجتنِبَه. وكان يقال: أوّل الحِدّة جنون وآخِرها نَدَم. وكان يقال: لا تَحمِلنّك الحِدّة على اقتراف الإثم، فتشفِيَ غيظَك، وتُسقِم دِينَك.



الأصْلُ :

صِحَّةُ ٱلْجَسَدِ، مِنْ قِلَّةِ ٱلْحَسَدِ.

الشّرْحُ :

معناه أنّ القليل الحسَدِ لا يزال مُعَافىً في بدنه، والكثير الحَسد يُمْرِضه ما يجده في نفسه من مَضاضَة المُنافسة، وما يتجرّعه من الغيظ، ومزاجُ البدَن يتْبع أحوالَ النّفس.



الأصْلُ :

وقال ﷺ لِكُمَيْل بن زياد النخعي: يَا كُمَيْلُ، مُرْ أَهْلَكَ أَنْ يَرُوحُوا فِي كَسْبِ ٱلْمَكَارِمِ، وَيُدْلِجُوا فِي حَاجَةِ مَنْ هُوَ نَائِمٌ، فَوَالَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ ٱلْأَصْوَاتَ؛ مَا مِنْ أَحَدٍ أَوْدَعَ قَلْباً سُرُوراً إِلَّا وَخَلَقَ ٱللّٰهُ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ السُّرُورِ لُطْفاً، فَإِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَائِبَةٌ جَرَىٰ إِلَيْهَا كَالْمَاءِ فِي ٱنْحِدَارِهِ، حَتَّىٰ يَطْرُدَهَا عَنْهُ كَمَا تُطْرَدُ

غَرِيبَةَ آلْإِبِلِ[1].

الشّرْحُ:

قال عمرو بنُ العاصِ لمعاوية: ما بقيَ من لذّتك؟ فقال: ما من شيء يُصيبُه الناس من اللّذّة إلّا وقد أصبتُه حتى مَللتُه، فليس شيءٌ عنديَ اليوم ألذَّ من شربةِ ماءٍ بارد في يوم صائف، ونظري إلى بَنِيَّ وبناتي يَدرُجون حولي؛ فما بقيَ من لذّتك أنت؟ فقال: أرضٌ أغرسُها وآكُلُ ثمرتها، لم يبق لي لذّة غير ذلك. فالتفت معاويةُ إلى وَرْدان غلام عَمْرو، فقال: فما بقي من لذّتك يا وُرْيْد؟ فقال: سرورٌ أُدخِله قلوب الإخوان، وصنائعُ أعتقِدُها في أعناق الكرام؛ فقال معاوية لعَمْرو: تَبّاً لمجلسي ومجلسك! لقد غلبني وغلبك هذا العبد، ثم قال: يا وَرْدان، أنا أحقُّ بهذا منك؛ قال: قد أمكنتك فافعَلْ.

فإن قلت: السرور عَرَضٌ، فكيف يَخلُق الله تعالى منه لُطفاً؟

قلت: (مِنْ) هاهنا هي مِثلُ «مِن» في قوله: **﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾**[2]، أي عِوَضاً منكم.



٢٥٥

الأصْلُ:

إِذَا أَمْلَقْتُمْ فَتَاجِرُوا آللهَ بِالصَّدَقَةِ[3].

---

١. يروحوا: من الرواح، وهو السير بعد الظُّهر، ويستعمل في مطلق الذهاب والمضي. المكارم: المحاسن والفضائل. يدلجوا: من الإدلاج، وهو السير في أول الليل. والمعنى: أوصِ أهلك أن يواصلوا أعمال الخير، فرواحهم في الإحسان وإدلاجهم في قضاء الحوائج، وإن نام عنها أربابها. غريبة الإبل: وهي الناقة تدخل مرعىً لغير صاحبها فيطردها منه. وقيل هذه استعارةٌ، والمراد: من أعان أخاه المسلم عند اضطراره، دفع الله عنه البلاءَ عند اضطراره ورزقه من حيث لا يحتسب.

٢. سورة الزخرف ٦٠.

٣. أملقتم: افتقرتم. فتجاروا الله: أي عاملوه كما يتعامل أهل التجارة؛ يخرج أحدهم ماله إلى صاحبه ليربح في عوضه، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيءٍ فهو يخلفه﴾ سورة البقرة ٢٦٨.

الشّرْحُ :

قد تقدّم القولُ في الصّدقة.

وقالت الحكماء: أفضل العِبادات الصَّدَقة لأنّ نفعها يتعدّى، ونفْعُ الصلاة والصّوم لا يتعدّى. وجاء في الأثرأنّ علياً عليه السلام عَمِل ليهوديٍّ في سَقي نَخْلٍ له في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله بمُدٍّ من شَعير، فخبزه قُرصاً، فلمّا همّ أن يُفطر عليه، أتاه سائلٌ يستطعم، فدفعه إليه وبات طاوياً وتاجِراً الله تعالى بتلك الصدقة، فعَدّ الناس هذه الفعلة من أعظم السّخاء، وعدوُّها أيضاً من أعظم العبادة.

وقال بعضُ شعراء الشّيعة يذكر إعادة الشمس عليه وأحسن فيما قال:

جادَ بالقُرْص والطَّوَى مِلءُ جَنْبَيـ ـهِ، وعافَ الطَّعامَ وهو سَغُوبُ
فأعاد القُرْصُ المنيرُ عليه الـ ـقُرْصَ والمُقرِض الكِرامَ كَسوبُ[1].

---

١. وقد نظم ابن أبي الحديد نفسه هذا المعنىٰ في بيت من قصيدته الغراء (فتح مكّة):

إمامُ هدىً بالقرْصِ آثر فاقتضى له القرصُ ردَّ القرصِ أبيض أزهرا

القرص الأوّل قرص الشعير، والقرص الأخير قرص الشمس، وإيثاره بالقرص ـ ليس كما ذكر ابن أبي الحديد في هذه القصّة واضحة التلفيق ـ إنّما كان لنذر نذره عند مرض الحسن والحسين عليهما السلام والقصّة مشهورة، نطقت بها سورة (هل أتىٰ)، وأنها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام. أورده الحسكاني في الشواهد برقم (١٠٥٧) بطريق المرزباني ـ والأحاديث في هذا الموضوع متواترة من الطرفين. [انظر: تفسير الحبري الكوفي ص٥٣٦] وكذلك قضية ردّ الشمس له مرتين، مرة في المدينة ومرة بالعراق.

وقد رويت عن عدة من الصحابة، كالإمام الحسين عليه السلام في كتاب الذرية الطاهرة ٢٨ ب. وجابر الأنصاري، في مناقب الخوارزمي ص٢٣٦، وأبي رافع مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله في مناقب المغازلي ص٩٨. وأسماء بنت عميس، في تاريخ دمشق ١:٢٨٣ ـ ٣٠٦ ط ٢. وغيرهم كثير. كما أفرد لها رسالة كثيرون، كالحافظ ابن مردويه كما في عبقات الأنوار، والحافظ الحسكاني، وذكرها: ابن شهر آشوب في معالم العلماء ١١٧. ومناقب آل أبي طالب ١٤٣، والإرشاد للمفيد ١:٣٤٦ وعيون المعجزات، لحسين بن عبد الوهاب ١٣٦ وغيرهم. وقد ذكرها ابن أبي الحديد كذلك في عينيته العصماء في مدح أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها:

يا من لهُ رُدّت ذكاء ولم يَفُزْ بنظيرها من قبلُ إلاّ يوشعُ

وذكاء اسم من أسماء الشمس. ويوشع هو يوشع بن نون بعثه الله نبيّاً بعد موسىٰ عليه السلام، وقد ردّت إليه الشمس بعد معركته مع الجبارين آخر النهار. [شرح القصائد العلويات السبع، لابن أبي الحديد].



الأصْلُ :

ٱلْوَفَاءُ لِأَهْلِ ٱلْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ ٱللهِ، وَٱلْغَدْرُ بِأَهْلِ ٱلْغَدْرِ وَفَاءٌ عِنْدَ ٱللهِ.

الشّرْحُ :

معناه أنه إذا اعتِيدَ من العدوّ أن يغدِر ولا يفي بأقوالِهِ وأَيْمانه وعهوده، لم يجزْ الوفاء له، ووَجَبَ أن ينقض عهوده ولا يوقَف مع العهد المعقود بيننا وبينه، فإنّ الوفاء لمن هذه حالُه ليس بوفاء عند الله تعالى، بل هو كالغَدْر في قُبْحه، والغدر بمن هذه حاله ليس بقبيح، بل هو في الحسن كالوفاء لمن يَستحِقُّ الوفاء عند الله تعالى.



الأصْلُ :

كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ ٱلْقَوْلِ فِيهِ، وَمَا ٱبْتَلَىٰ ٱللهُ سُبْحَانَهُ أَحَداً بِمِثْلِ ٱلإِمْلَاءِ لَهُ[١].

قال الرَّضي رحمه الله :

وَقَدْ مَضَى هذا الكلامُ فيما تقدَّمَ، إلّا أنَّ فيه هاهنا زيادةً جيدةً مُفِيدةً.

الشّرْحُ :

قد تقدّم الكلامُ في الاستدراج والإملاء[٢].

---

١. تقدم هذا الكلام في الحكمة (١١٢) بالحرف الواحد.

٢. انظر شرح الخطبة (٣١) الجزء ٢: ١٧٠ـ١٧٣، وانظر أيضاً شرح الحكمة (٢٥).

وقال بعضُ الحُكَمَاء: إحذر النِّعم المتواصِلة إليك أن تكون استدراجاً، كما يحذر المحارِب من اتباعِ عدوِّه في الحربِ إذا فرَّ من بين يديه من الكمِين، وكم من عدوٍّ فرَّ مستدرَجاً ثمّ إذ هو عاطِفٌ، وكم من ضارِعٍ في يديك ثمّ إذ هو خاطف.



ومن كلامه عليه السلام المتضمِّن ألفاظاً منَ الغريبِ تحتاجُ إلى تفسير

الأَصْلُ:

قولهُ عليه السلام في حديثه: فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ ضَرَبَ يَعْسُوبُ الدِّينِ بِذَنَبِهِ، فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ كَمَا يَجْتَمِعُ قُزَعُ ٱلْخَرِيفِ.

قال الرضيُّ رحمه الله:

يَعسُوبُ الدِّينِ: السيدُ العظيمُ المالكُ لأمورِ الناسِ يومئذٍ، والقُزَعُ: قِطَعُ الغيمِ الّتِي لا ماءَ فيها.

الشَّرْحُ:

أصاب في اليَعْسوب، فأمّا القُزَع فلا يُشترط فيها أن تكون خاليةً من الماء، بل القُزَع قِطَعٌ من السحاب رقيقة، سواء كان فيها ماء أو لم يكن، الواحدة قَزَعة بالفتح، وإنما غرّه قولُ الشاعر يصف جيشاً بالقِلّة والخفّة.

* كأنّ رعالة قُزَع الجهام *

وهذا الخبر من أخبار المَلاحِم الّتي كان يُخبِر بها عليه السلام، وهو يَذكُر فيه المهديَّ الّذي يُوجَد عند أصحابنا في آخر الزمان[1]. ومعنى قوله: «ضَرَب بذَنَبه» أقام وثبت بعد أضطرابه،

---

١. بل هو موجود، ويظهر في آخر الزمان بعد غيبته وخوفه، ويجتمع اليه المؤمنون سراعاً كاجتماع قُزَع الخريف، فيبسط سلطانه ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. وقد استعار عليه السلام له لفظة اليعسوب، وهو السيد العظيم.

وذلك لأنّ اليَعسوب فَحْل النَّحْل وَسيِّدها، وهو أكثرُ زمانه طائرٌ بجَناحَيه، فإذا ضَرَب بذَنَبه الأرضَ فقد أقام وَتَرَك الطَّيَران والحركة.

فإن قلت: فهذا يُشيد مذهبَ الإماميّة في أنّ المهديّ خائف مستتِر ينتقل في الأرض، وأنّه يظهر آخر الزمان ويثبت ويقيم في دار ملكه.

قلت: لا يبعد على مذهبنا أن يكون الإمام المهديّ الذي يظهر في آخر الزمان مضطرب الأمر، منتشرُ المُلك في أوّل أمرِه لمصلحة يَعلَمها الله تعالى، ثمّ بعد ذلك يثبُت مُلكُه، وتنتظم أمورُه.

وقد وردتْ لَفظةُ اليَعْسوب عن أمير المؤمنين عليه السلام في غير هذا الموضع، قال يومَ الجمل لعبد الرحمن بنِ عتّاب بن أسيد وقد مرّ به قتيلاً: «هذا يَعْسوب قريش»، أي سيِّدُها.



الأصْلُ:

وفي حديثه عليه السلام: هَذَا ٱلْخَطِيبُ ٱلشَّحْشَحُ.

قالَ [الرضي رحمه الله]: يُريدُ الماهرَ بالخطبةِ، الماضيَ فِيها. وكل ماضٍ في كَلامٍ أو سَيْرٍ فَهُوَ شَحْشحٌ، والشَّحْشَحُ في غَيرِ هذا المَوْضع: البَخِيلُ المُمْسِكُ.

الشّرْحُ:

قد جاء الشَّحْشح بمعنى الغَيُور والشحْشَح بمعنى الشُّجاع، والشَّحْشَح بمعنى المواظِب على الشيء الملازِم له، والشَّحْشَح: الحاوِي، ومِثله الشَّحْشحان.

وهذه الكلمة قالها عليٌّ عليه السلام لصَعْصَة بن صُوحان العبديّ رحمه الله، وكَفَى صعصعةُ بها فخراً أن يكون مِثل عليٍّ عليه السلام، يُثنِي عليه بالمهارة وفَصاحة اللّسان؛ وكان صَعصعةُ من أفصَح الناس، ذكَرَ ذلك شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ[1].

---

١. البيان والتبيين ١: ٩٧.



الأصْلُ :

ومنهُ : إنَّ لِلْخُصُومَةِ قُحَماً.

قال : يريد بالقُحَم المهالكَ ، لأنّها تُقحم أصحابَها في المهالكِ والمتالفِ في الأكثرِ ، فَمِن ذلك قُحْمَةُ الأعراب ، وهو أن تصيبَهُمُ السنةُ فَتَتَفَرَّقُ أموالهم فذلك تقحُّمُها فِيهِم . قال : وقيل فيه وجه آخر ، وهو أنَّها تُقْحِمُهُمْ بلادَ الرِّيف ، أي تُحوجُهُمْ إلى دخولِ الحضَرِ عند مُحُولِ البَدْوِ .

الشّرْحُ :

أصلُ هذا البِناء للدُّخول في الأمر على غير رويّة ولا تثبُّت ، قَحَمَ الرجلَ في الأمر بالفتح قُحوماً ، وأقحَم فلانٌ فرسَه البحرَ فانقحَم ، واقتحَمْتُ أيضاً البحرَ دخلتُه مكافحة ، وقَحَم الفرسُ فارِسَه تقحيماً على وجهه ؛ إذا رماه ، وفحلٌ مِقْحَام ، أي يَقتحِم الشَّوْلَ مِن غير إرسالٍ فيها . وهذه الكلمة قالها أميرُ المؤمنين حين وَكَّل عبدَ الله بن جعفرٍ في الخصومة عنه ، وهو شاهد .



الأصْلُ :

ومنهُ : إِذَا بَلَغَ النِّسَاءُ نَصَّ ٱلْحِقَاقِ فَالْعَصَبَةُ أَوْلَىٰ .

قال : ويروى «نصُّ الحقائقِ» ، والنص منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها كالنص في السير ، لأنّه أقصى ما تقدر عليه الدابة ؛ وتقول : نصصت الرجل عن الأمر ، إذا استقصيت مسألته لتستخرج ما عنده فيه ، ونص الحقائق يريد به الإدراك ، لأنّه منتهى الصغر ، والوقت الذي يخرج منه الصغير إلى حد الكبير ، وهو من أفصح الكنايات عن هذا الأمر وأغربها ؛ يقول : فاذا بلغ النساء ذلك فالعصَبة أولى بالمرأة من أُمها ، إذا كانوا محرماً ، مثل الإخوة والأعمام ؛ وبتزويجها إن أرادوا ذلك .

والحقاق : محاقّة الأم للعصَبة في المرأة ، وهو الجدال ، والخصومة ، وقول كل واحد منهما للآخر : أنا أحق منك بهذا ، يقال منه : حاققته حقاقاً ، مثل جادلته جدالاً . قال وقد قيل : إن نص الحقاق بلوغ العقل ، وهو الإدراك ، لأنّهﷺ إنما أراد منتهى الأمر الذي تجب به الحقوق والأحكام .

قال : ومن رواه«نص الحقائق» فإنما أراد جمع حقيقة ، هذا معنى ما ذكره أبوعبيد القاسم بن سلام .

قال : والذي عندي أن المراد بنص الحقاق ها هنا بلوغ المرأة إلى الحد الذي يجوز فيه تزويجها وتصرفها في حقوقها ، تشبيهاً بالحِقاق من الإبل ، وهي جمع حِقّة وحِقّ وهو الذي استكمل ثلاث سنين ودخل في الرابعة ، وعند ذلك يبلغ إلى الحد الذي يُمكنُ فيه من ركوب ظهره ونصه في سيرِهِ ، والحقائق أيضاً : جمع حِقة ؛ فالروايتان جميعاً ترجعان إلى معنى واحد ، وهذا أشبه بطريقة العرب من المعنى المذكور أولاً .

الشّرْحُ :

وأمّا تفسيرُ الرضيّ؇ فهو أشبَه من تفسير أبي عُبَيد ، إلّا أنّه قال في آخِره : والحقائق أيضاً جمعُ حِقّة ، فالروايتان تَرجِعان إلى معنىً واحد. وليس الأمرُ على ما ذُكِر من أنّ الحَقائق جمعُ حِقّة ، ولكنّ الحقائق جمع حِقاق ، والحِقاق جمع حِقّ ، وهو ما كان من الإبل ابنَ ثلاث سنينَ ، وقد دخل في الرابعة ، فاستَحقّ أن يُحمَل عليه ويُنتفع به . فالحقائق إذْن جمع الجَمْع لِحقّ لا لِحِقّة ، ومثل إفال وأفائل . قال : ويُمكِن أن يقال : الحِقاق هاهنا الخصومة ، يقال : ما لَه فيه حِقّ ولا حِقاق أي ولا خصومة ، ويقال لمن يُنازِع في صِغار الأشياء إنّه لبرق الحِقاق ، أي خصومَتُه في الدَّنيء من الأمر ؛ فيكون المعنى إذا بَلَغت المرأةُ الحَدَّ الذي يستطيع الإنسانُ فيه الخصومَة والجدَالَ فَعَصَبتُها أولَى بها من أمّها ؛ والحَدُّ الّذي تَكمُل فيه المرأة والغُلامُ للخُصومة والحكومة والجدالِ والمناظرة هو سِنُّ البُلوغ .



الأَصْلُ :

ومنهُ : إِنَّ ٱلْإِيمَانَ يَبْدُو لُمْظَةً فِي ٱلْقَلْبِ ، كُلَّمَا ٱزْدَادَ ٱلْإِيمَانُ ٱزْدَادَتِ اللُّمْظَةُ .

قال: اللمظة مثل النكتة أو نحوها من البياض. ومنه قيل فرس ألمظ، إذا كان بجحفلته شيء من البياض.

الشّرْحُ:

قال أبو عُبيد: هي لُمْظَة بضم اللام؛ والمحدِّثون يقولون: لَمْظة بالفَتح؛ والمعروفُ من كلام العَرَبِ الضّم. قال: وفي هذا الحديث حُجّةٌ على مَنْ أنكر أن يكون الإيمانُ يزيدُ ويَنقُص، ألا تَرَاه يقول: كُلَّما ازدادَ الإيمانُ ازدادتْ اللُّمْظة.



الأصْلُ:

ومنهُ: إنَّ الرَّجُلَ إذَا كَانَ لَهُ الدَّيْنُ الظَّنُونُ، يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُزَكِّيَهُ لِمَا مَضَىٰ إذَا قَبَضَهُ.

قالَ: الظَّنُونُ: الذي لا يعلم صاحبه أيَقْبِضُهُ من الذي هو عليه أم لا، فكأنه الذي يُظَنُّ به ذلك، فمرة يرجوه ومرة لا يرجوه. وهذا من أفصح الكلام، وكذلك كل أمر تطلبه ولا تدري على أي شيء أنت منه فهو ظَنون.

الشّرْحُ:

قال أبو عُبَيْد: في هذا الحديث من الفِقْه أنّ من كان له دَيْن على النّاس فليس عليه أن يُزَكِّيَه حتّى يَقبِضه، فإذا قَبَضه زَكّاه لما مضى، وإن كان لا يرجوه، قال: وهذا يردّه قولَ من قال: إنّما زَكاتُه على الّذي عليه المال، لأنّه المنتفِع به؛ قال: وكما يُروَى عن إبراهيم. والعَمَل عندنا على قول عليٍّ عليه السلام[1].

١. في نسخة ابن أبي الحديد: أيقضيه والصحيح ما أثبتناه اعتماداً علىٰ نسخ أُخرىٰ.



الأصْلُ :

وَمنهُ : أَنه شيع جيشاً يُغزِيه فقال : آعْزِبُوا عَنِ النِّسَاءِ مَا استطعْتُمْ .

ومعناه : اصدفوا عن ذكر النساء وشغل القلب بهن ، وامتنعوا من المقاربة لهن ، لأنّ ذلك يَفُتّ في عضد الحميّة ، ويقدح في معاقد العزيمة ، ويكسر عن العَدُوّ ، ويلفت عن الإبعاد في الغزو ، فكلّ من امتنع من شيء فقد أَعزَبَ عنه ، والعازب والعزوب : الممتنع من الأكل والشرب .

الشّرْحُ :

التفسير صحيح ، لكنّ قوله : من امتنع من شيء فَقد أعزَب عنه ، ليس بجيّد ؛ والصحيح : فقد عَزَب عَنْه . ثلاثيٌّ .



الأصْلُ :

ومنهُ : كَالْيَاسِرِ ٱلْفَالِجِ يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ .

قالَ : الياسرون هم الّذين يتضاربون بالقداح على الجزور ، والفالج : القاهر والغالب ، يقال : فلج عليهم وفلجهم ، وقال الراجز :

لما رأيت فالجاً قد فلجا

الشّرْحُ :

أوّل الكلام أنّ المرء المسلِم ما لم يغشَ دَناءةً يَخشَع لها إذا ذكرتْ ، ويُغري به لئامَ النّاس ، كالياسِر الفالِج ينتظر أوّل فوزَةٍ من قِداحه ، أو داعيَ الله ، فما عند الله خيرٌ للأبرار ، يقول : هو بين خيرتين : إمّا أن يصيرَ إلى ما يُحِبّ من الدنيا ، فهو بمنزلة صاحب القِدْح المُعَلّى ، وهـو

أوفرُها نصيباً، أو يموت فما عند الله خيرٌ له وأبقى.

وليس يعنِي بقوله: الفالج القامِر الغالبَ كما فسّره الرّضيّ، لأنّ الياسرَ الغالبَ القامِرَ لا ينتظر أوّلَ فوزةٍ من قِداحِهِ، وكيف ينتظر وقد غَلب؟! وأيّ حاجة له إلى الانتظار؟! ولكنّه يَعنِي بالفالج الميمونَ النَّقيبة الّذي له عادةٌ مطّردةٌ أن يَغلِب، وقلّ أن يكون مَقْهوراً.



الأصْلُ:

ومنهُ: كُنَّا إِذَا ٱحْمَرَّ ٱلْبَأْسُ ٱتَّقَيْنَا بِرَسُولِ ٱللهِ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَىٰ ٱلْعَدُوِّ مِنْهُ.

قالَ: معنى ذلك أنه إذا عظم الخوف من العدو، واشتد عضاض الحرب، فزع المسلمون إلى قتال رسول الله بنفسه، فينزل الله تعالى النصر عليهم به، ويأمنون مما كانوا يخافونه بمكانه.

وقوله: «إذا احمرَّ البأسُ» كناية عن اشتداد الأمر، وقد قيل في ذلك أقوال؛ أحسنها أنه شبّه حَمْيَ الحرب بالنار التي تجمع الحرارة والحمرة بفعلها ولونها؛ ومما يقوي ذلك قول رسول الله، وقد رأى مُجْتَلَدَ الناس يوم حنين وهي حرب هوازن: «الآن حَمِيَ الوَطِيسُ»، والوطيس: مستوقد النار، فشبّه رسول الله ما استحرّ من جلاد القوم باحتدام النار وشدة التهابها.

الشّرْحُ:

الجيّد في تفسير هذا اللّفظ أن يقال: البأس الحرْب نفسُها، قال الله تعالى: ﴿**والصابرين في البأساء والضّرّاء وحينَ البأس**﴾[1]؛ وفي الكلام حذفُ مضافٍ تقديرُه إذا احمرَّ موضعُ البأس، وهو الأرْضُ الّتي عليها معرَكة القوم، واحمرارُها لِما يسيل عليها من الدّم.

---

١. سورة البقرة ١٧٧.



الأصْلُ :

وقال ﷺ : لما بلغه إغارة أصحاب معاوية على الأنبار ، فخرج بنفسه ماشياً حتى أتى النَّخَيْلَة ، وأدركهُ الناس ، وقالوا : يا أميرالمؤمنين ، نحن نكفيكهم فقال ﷺ :

وَاللهِ مَا تَكْفُونَنِي أَنْفُسَكُمْ ، فَكَيْفَ تَكْفُونَنِي غَيْرَكُمْ ! إِنْ كَانَتِ الرَّعَايَا قَبْلِي لَتَشْكُو حَيْفَ رُعَاتِهَا ، فإنَّنِي ٱلْيَوْمَ لَأَشْكُو حَيْفَ رَعِيَّتِي ، كَأَنَّنِيَ ٱلْمَقُودُ وَهُمُ ٱلْقَادَةُ ، أَوِ المَوْزُوعُ وَهُمُ ٱلْوَزَعَةُ .

قال : فلما قال هذا القول في كلام طويل قد ذكرنا مختاره في جملة الخطب ، تقدم إليه رجلان من أصحابه ، فقال أحدهما : إنّي لَا أملك إلّا نفسي وأخي ، فمرنا بأمرك يا أمير المؤمنين نُنَفِّذْ ، فقال : وأَيْنَ تَقَعَانِ مِمَّا أُرِيدُ؟!

الشَّرْحُ :

النُّخَيْلة : بظاهر الكُوفة ، ورُوِي «ما تَكْفُوني» بحذف النون . والحيْف : الظلم . والوَزَعة : جمع وازِع ، وهو الدافع الكافّ[1] .

ومعنى قوله : «ما تكفُونني أنفسَكم» ، أي أفعالُكم رديئةٌ قبيحةٌ تحتاجُ إلى جند غيركم أستعين بهمْ على تثقيفِكم وتهذيبكم ، فَمَنْ هذه حاله كيف أُثقِّف به غيرَه ، وأُهذِّب به سواه ؟!

وإن كانت الرعايا : إنْ هاهنا مخفَّفة من الثقيلة ، ولذلك دَخَلت اللام في جوابها .

وقد تقدّم[2] ذكرُنا هذين الرّجلين ، وإن أحدَهما قال : يا أمير المؤمنين ؛ أقول لكَ ما قاله العبْد الصالح : **﴿ربِّ إنِّي لا أملِكُ إلّا نفسي وأخِي﴾**[3] . فشكر لهما وقال : وأين تقعان ممّا أريد ؟!

١ . الوازع : الحاكم . الموزوع : المحكوم .

٢ . تقدّم في شرح الخطبة (٢٧) ، في الأصل ٢ : ٨٠ .

٣ . سورة المائدة ٢٥ .

٢٦٨

الأَصْلُ :

وقيل: إن الحارث بن حَوْط أتىٰ علياًّ عليه السلام، فقال لَهُ: أتراني أظنّ أنّ أصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟

فقال عليه السلام: يَا حَارِثُ، إِنَّكَ نَظَرْتَ تَحْتَكَ، وَلَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ فَحِرْتَ! إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفِ ٱلْحَقَّ فَتَعْرِفَ أهلَهُ، وَلَمْ تَعرِفِ ٱلْبَاطِلَ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاهُ[١].

فقال الحارث: فإني أعتزل مع سعد بن مالك[٢] وعبد الله بن عمر.

فقال عليه السلام: إِنَّ سَعداً وَعَبْدَ ٱللهِ بْنَ عُمَرَ لَمْ يَنْصُرَا ٱلْحَقَّ، وَلَمْ يَخْذُلَا ٱلْبَاطِلَ.

الشّرْحُ :

اللّفظة الّتي وردتْ قبلُ[٣] أحسَنُ من هذه اللفظة، وهي أولئك قومٌ خَذَلوا الحقَّ ولم ينصرُوا الباطل، وتلك كانت حالُهم، فإنّهم خذلوا عليّاً ولم يَنصُروا مُعاوِيَة ولا أصحابَ الجَمَل. ولما كان سعدٌ وعبدُ الله لم يَقُوما خَطِيبَين في النّاس يُعلّمانهم باطلَ معاويةَ وأصحاب الجمل، ولم يَكشِفا اللّبْس والشُّبْهة الداخلَة على الناس في حَرْب هذين الفَريقين، ولم يُوضّحا وجوبَ طاعة عليٍّ عليه السلام فيردَّ الناسَ عن اتّباع صاحبِ الجَمَل وأهل الشام، صدق عليهما

---

١. حرت: من (حار) أي تحير. «نظرتَ تحتك»، أي إنّك قاصر لا تنظر إلّا موطئ قدميك، وهذه شبهة دخلت علىٰ الحارث لبساطته، فهو قد نظر إلىٰ طلحة والزبير من خلال صحبتهما للنبيﷺ، ونظر الىٰ عائشة من خلال حرمة رسول اللهﷺ، فاعتقد أن الحق معهم. والحال أن الحق لا يعرف بالرجال ولا بالألقاب والأنساب، وإنما يؤخذ من معدنه ومصدره من كتاب الله وسنة رسولهﷺ، ومتىٰ عرفت الحق من مصدره قست به المحقين والمبطلين. في ظلال نهج البلاغة / مغنية ٤:٤٧٦.

٢. عنىٰ به سعد بن أبي وقّاص، وسعد هذا قد سكن البادية بعد مقتل عثمان، وأمّا عبد الله بن عمر فإنه التجأ إلىٰ أخته حفصة أم المؤمنين. وهما قد بايعا الإمامعليه السلام ولكنهما لم ينصراه، ولم يخذلا الباطل المتمثل بأصحاب الجمل وصفين، ولذا استحقا الملامة والذمّ.

٣. الحكمة برقم (١٣)، وفي ١٨: ١١٥ من الأصل.

أنّهما لم يَخذُلا الباطلَ.

والحارث بن حَوط بالحاء المهملة. ويقال: إن الموجود في خَطّ الرضيّ «ابن خَوط» بالخاء المعجمة المضمومة.



الأصْلُ:

صَاحِبُ السُّلْطَانِ كَرَاكِبِ الْأَسَدِ يُغْبَطُ بِمَوْقِعِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِهِ.

الشّرْحُ:

قد جاء في صُحْبة السّلطان أمثال حِكَميّة مستحسَنةٌ تُناسِب هذا المعنى، أو تَجرِي مَجْراه في شَرْح حالِ السلطان، نحو قولِهم: صاحب السُّلْطان كراكبِ الأسَد يَهابُه النـاس، وهـو لمرْكُوبه أهْيَب. وكان يقال: ينبغى لمن صَحِب السلطانَ أن يستعدّ للعُذْرِ عن ذَنْبٍ لم يَجْنِه، وأن يكون آنَسَ ما يكونُ به، أوحشَ ما يكونُ منه.



الأصْلُ:

أَحْسِنُوا فِي عَقِبِ غَيْرِكُمْ تُحْفَظُوا فِي عَقِبِكُمْ.

الشّرْحُ:

أكثر ما في هذه الدنيا يقع على سبيل القَرْض والمكافأة، فقد رأيْنا عِياناً مَنْ ظَلم الناس فظُلِم عقبُه ووَلدُه، ورأينا من قَتَلَ الناس فقُتِل عَقِبه وولدهُ، ورأينا من أخْرَب دُوراً فأُخرِبتْ دارُه،

ورأينا من أحسَن إلى أعقاب أهل النعم فأحسَنَ الله إلى عَقِبه وولدِه.



الأصْلُ :

إِنَّ كَلَامَ ٱلْحُكَمَاءِ إِذَا كَانَ صَوَاباً كَانَ دَوَاءً، وَإِذَا كَانَ خَطَأً كَانَ دَاءً.

الشّرْحُ :

كلّ كلام يقلّد المتكلّم به لحسن عقيدةِ الناس فيه نحو كلام الحُكماء وكلام الفُضلاء والعُلماء من الناس إذا كان صواباً كان دواءً وإذا كان خطأً كان داءً، لأنّ الناس يَحذُون حَذْوَ المتكلّم به، ويقلّدونه فيما يتضمّنه ذلك الكلامُ من الآداب والأوامر والنَّواهي، فإذا كان حقّاً أفلحوا، وحَصَل لهم الثّواب واتّباع الحقّ، [وكان] كالدَّواء المُبرِئ للسّقَم، وإذا كان ذلك الكلامُ خطأً واتّبعوه خسِروا ولم يُفلِحوا، فكان بمنزلة الداء والمَرَض.



الأصْلُ :

وقالَ ﷺ حِينَ سأَله رجل أَن يعرِّفَه ما الإِيمانُ، فقال:

إِذَا كَانَ ٱلْغَدُ فَأْتِنِي حَتَّىٰ أُخْبِرَكَ عَلَىٰ أَسْمَاعِ النَّاس، فإِنْ نَسِيتَ مَقَالَتِي حَفِظَهَا عَلَيْك غَيْرُكَ، فَإِنَّ ٱلْكَـلَامَ كَالشَّارِدَةِ يثقفها هٰذَا وَيُخْطِؤُها هٰذَا.

قال: وقد ذكرنا ما أجابه به ﷺ فيما تقدم من هذا الباب، وهو قوله: «الإيمان على أربع شعب»[1].

١. الذي تقدّم في الحكمة، (٣١) ١٨:١٤٢ من الأصل، أنّ «الإيمان علىٰ أربع دعائم».

الشّرْحُ :

يقول : إذا كان غَدٌ فأْتِني فتكون «كان» هاهنا تامّة ، أي إذا حَدَث ووُجِد . ويثقفها : يَجدها ، ثَقِفتُ كذا (بالكسر) ، أي وجدته وصادفته . والشاردة : الضّالة .



الأصْلُ :

يَابْنَ آدَمَ ، لَا تَحْمِلْ هَمَّ يَوْمِكَ الَّذِي لَمْ يَأْتِكَ عَلَىٰ يَوْمِكَ الَّذِي قَدْ أَتَاكَ ، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ مِنْ عُمُرِكَ يَأْتِ اللهُ فِيهِ بِرِزْقِكَ .

الشّرْحُ :

قد تقدَّم هذا الفصلُ بتمامه . واعلَمْ أنّ كلّ ما ادّخَرْتَه ممّا هو فاضل عن قُوتك فإنما أنت فيه خازنٌ لغَيْرك .

وخلاصةُ هذا الفصل النهْيُ عن الحِرْص على الدّنيا والاهتمام لها ، وإعلامُ الناس أن الله تعالى قد قَسم الرّزقَ لكل حَيٍّ مِن خلقِه ، فلو لم يتكلّف الإنسانُ فيه لأتاه رِزْقه من حيث لا يحتسِب .



الأصْلُ :

أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا ، عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا ، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا ، عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا .

الشّرْحُ :

الهوْن ـ بالفتح ـ: التأنّي . والبَغِيض: المبغض .

وخلاصةُ هذه الكلمة : النّهْي عن الإسراف في المودّة والبِغْضة ؛ فربّما انقلب من تَودّ فصار عدوّا ، وربّما انقلب مَنْ تُعادِيه فصار صَدِيقاً .



الأَصْلُ :

النَّاسُ فِي الدُّنْيَا عَامِلَانِ :

عَامِلٌ عَمِلَ فِي الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا ، قَدْ شَغَلَتْهُ دُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ ، يَخْشَىٰ عَلَىٰ مَنْ يُخَلِّفُ الْفَقْرَ ، وَيَأْمَنُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، فَيُفْنِي عُمُرَهُ فِي مَنْفَعَةِ غَيْرِهِ .

وَعَامِلٌ عَمِلَ فِي الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا ، فَجَاءَهُ الَّذِي لَهُ مِنَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ عَمَلٍ ، فَأَحْرَزَ الْحَظَّيْنِ مَعاً ، وَمَلَكَ الدَّارَيْنِ جَمِيعاً ، فَأَصْبَحَ وَجِيهاً عِنْدَ اللهِ ؛ لَا يَسْأَلُ اللهَ حَاجَةً فَيَمْنَعُهُ .

الشّرْحُ :

معنى قوله : «ويأمنُه على نَفْسِه» ، أي ولا يبالي أن يكون هو فقيراً ، لأنّه يعيش عَيشَ الفقراء وإن كان ذا مالٍ ، لكنّه يدّخر المَال لوَلده فيُفنِي عمرَه في منفعة غيره .

فأما العاملُ في الدّنيا لما بعدَها فهمْ أصحابُ العبادة ، يأتيهم رزقُهم بغير اكتساب ولا كَدٍّ ، وقد حصلتْ لهم الآخرةُ ، فقد حَصَل لهم الحظّان جميعاً .



الأصْلُ :

وروي أنّهُ ذُكِر عندَ عُمر بن الخطاب في أيامه حَلْيُ الكعبةِ وكثرتُه ، فقال قومٌ : لو أخذتَهُ فجهَّزتَ به جيوشَ المسلمين ، كان أعظمَ للأجرِ ، وما تصنعُ الكعبةُ بالحَلْي ! فهمّ عمر بذلك ، وسأل عنه أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال :

إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله ، وَالْأَمْوَالُ أَرْبَعَةٌ ، أَمْوَالُ الْمُسْلِمِينَ فَقَسَّمَهَا بَيْنَ الْوَرَثَةِ فِي الْفَرَائِضِ ، وَالْفَيْءُ فَقَسَّمَهُ عَلَىٰ مُسْتَحِقِّيهِ ، وَالْخُمُسُ فَوَضَعَهُ اللهُ حَيْثُ وَضَعَهُ ، وَالصَّدَقَاتُ فَجَعَلَهَا اللهُ حَيْثُ جَعَلَهَا ، وَكَانَ حَلْيُ الْكَعْبَةِ فِيهَا يَوْمَئِذٍ ، فَتَرَكَهُ اللهُ عَلَىٰ حَالِهِ ، وَلَمْ يَتْرُكْهُ نِسْيَاناً ، وَلَمْ يَخْفَ عَنْهُ مَكَاناً ، فَأَقِرَّهُ حَيْثُ أَقَرَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ .

فقال له عمر : لولاك لافتضحنا . وترك الحلي بحاله[1] .

الشّرْحُ :

هذا استدلال صحيح ، ويمكن أن يورد على وجهين :

أحدهما أن يقال : أصلُ الأشياء الحظْر والتحريم كما هو مَذهَب كثيرٍ من أصحابنا البغداديّين ؛ فلا يجوز التصرّف في شيء من الأموال والمنافع إلّا بإذن شرعيّ ؛ ولم يوجَد إذن شَرْعي في حَلْي الكَعْبة ، فبقينا فيه على حُكْم الأصل .

والوجه الثاني أن يقال : حَلْي الكعبة مال مختصّ بالكعبة ؛ هو جَارٍ مَجرى سُتور الكعْبة ، ومَجرَى باب الكَعْبة ، فكما لا يجوز التصرّف في ستُور الكعبة وبابها إلّا بنصّ فكذلك حَلْي الكعبة ، والجامع بينهما الاختصاص الجاعلُ كلَّ واحد من ذلك كالجزء من الكعبة ، فعَلَى هذا الوجه يَنبغِي أن يكون الاستدلالُ .

---

١ . خلاصة دليل الإمام عليه السلام ، بأن مصدر الحلال والحرام ، هو كتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وآله ، وسنة النبي هي قوله أو فعله أو تقريره . وحلي الكعبة وزينتها كانت علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بمرأى منه وبمسمع ، لم يتصرّف به ، أو ينهىٰ عنه ، فوجب إبقاؤه علىٰ ما كان .

ويجب أن يُحمل كلامُ أميرِ المؤمنين عليه، وألّا يُحمَل على ظاهره.



الأصْلُ :

وروي أنَّه رُفِعَ إليه رجلان سرقا من مال الله، أحدُهُما عَبْدٌ من مال الله، والآخر من عُرْضِ الناسِ، فقال: أَمَّا هٰذَا فَهُوَ مِنْ مَالِ ٱللهِ فَلَا حَدَّ عَلَيْهِ، مَالُ ٱللهِ أَكَلَ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَأَمَّا ٱلآخَرُ فَعَلَيْهِ ٱلْحَدُّ الشَّدِيدُ. فقطع يده[1].

الشّرْحُ :

هذا مَذهَب الشّيعة أنّ عبد المَغنَم إذا سَرَق من المَغنَم لم يُقطَع، فأمّا العبدُ الغريبُ إذا سَرَق من المَغنَم فإنّه يُقطَع إذا كان ما سَرَقه زائد عمّا يَستحِقّه من الغنيمة بمقدار الناصب الّذي يجب فيه القَطْع، وهو رُبْع دينار.

فأمّا الفقهاء فإنّهم لا يُوجِبون القَطْع على مَنْ سَرَق من مال الغنيمة قبل قِسْمَتها، سواءٌ كان ما سَرَقه أكثر من حَقِّه أو لم يكن.



الأصْلُ :

لَوْ قَدِ ٱسْتَوَتْ قَدَمَايَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَدَاحِضِ لَغَيَّرْتُ أَشْيَاءَ[2].

---

١. (عبد من مال الله) : أي غير مملوك لأحد من الناس، بل هو جزء من بيت مال المسلمين. و (عبد من عُرض الناس) : أي ملك لأحد الناس. والأول لا يحد، والآخر يحدّ بالشروط التي ذكرها الفقهاء.

٢. المداحض : المزالق، يريد الفتن التي أثارها الناكثون والقاسطون والمارقون. والمعنىٰ لو استقامت الأُمور للإمام كما ينبغي لقلب الأوضاع الفاسدة، وغير التقاليد الممقوتة.

الشّرْحُ :

لسنا نَشُكّ أنّه كان يَذهب في الأحكام الشرعيّة والقضايا إلىٰ أشياءَ يُخالِف فيها أقوالَ الصّحابة، وإنّما كان يَمنَعه من تغيُّر أحكام مَن تَقدَّمه اشتغالُه بحَرب البُغاة والخَوارج، وإلى ذلك يشيرُ بالمَداحض الّتي كان يؤمِّل استواءَ قدمَيْه منها.



الأَصْلُ :

ٱعْلَمُوا عِلْماً يَقِيناً أَنَّ ٱللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِلْعَبْدِ - وَإِنْ عَظُمَتْ حِيلَتُهُ، وَٱشْتَدَّتْ طِلْبَتُهُ، وَقَوِيَتْ مَكِيْدَتُهُ - أَكْثَرَ مِمَّا سُمِّيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ وَلَمْ يَحُلْ بَيْنَ ٱلْعَبْدِ فِي ضَعْفِهِ وَقِلَّةِ حِيلَتِهِ، وَبَيْنَ أَنْ يَبْلُغَ مَا سُمِّيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ. وَٱلْعَارِفُ لِهٰذَا، ٱلْعَامِلُ بِهِ، أَعْظَمُ النَّاس رَاحَةً فِي مَنْفَعَةٍ، وَالتَّارِكُ لَهُ، الشَّاكُّ فِيهِ أَعْظَمُ النَّاس شُغُلاً فِي مَضَرَّةٍ.

وَرُبَّ مُنْعَم عَلَيْهِ مُسْتَدْرَجٌ بِالنُّعْمَىٰ، وَرُبَّ مُبْتَلىً مَصْنُوعٌ لَهُ بِالْبَلْوَىٰ. فَزِدْ أَيُّهَا المستمع فِي شُكْرِكَ، وَقَصِّرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وَقِفْ عِنْدَ مُنْتَهَىٰ رِزْقِكَ[1].

الشّرْحُ :

قال بعضُ الحكماء: وجدتُ أطْوَل الناس غمّا الحَسود، وأهنأهم عيْشا القَنُوع، وأصبَرَهم على الأَذى الحريص، وأخفضهم عَيْشاً أرفَضُهم للدنيا، وأعظمَهم ندامةً العالمُ المفرّط. وقيل لبعض الحكماء: ما الغِنَى ؟ قال: قلّةُ تمَنِّيك، ورِضاكَ بما يَكْفيك. ولذلك قيل: العيشُ ساعات تمرّ، وخُطوب تَكُرّ. وجاء في الخبر المرفوع: «أجْملوا في الطلب، فإنه ليست لعبدٍ

١. الذكر الحكيم: القرآن. والمراد منه: ليس للإنسان من الكرامة عند الله فوق ما نصّ عليه القرآن ولن يحول الله بين أحد وبين ما عُين في القرآن وإن اشتد طلب الأول، وضعف حال الثاني. المستدرج: الذي يمدّ الله له بالنعمة ويمهله فلا يأخذه بالمعصية. المبتلىٰ: الممتحن. مصنوع له: معتنىً به.

إلّا ما كُتِب له، ولن يَخرُج عبدٌ من الدّنيا حتى يأتيَه ما كُتِب له في الدنيا وهي راغمة».



الأصْلُ:

لَاتَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلًا، وَيَقِينَكُمْ شَكّاً، إِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا، وَإِذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا.

الشّرْحُ:

هذا نهيٌ للعلماء عن تَرْك العمل؛ يقول: لا تجعلوا عِلمَكم كالجهل، فإنّ الجاهل قد يقول: جَهِلتُ فلم أعمَل، وأنتم فلا عُذْر لكم، لأنّكم قد عَلِمتم وانكشفَ لكم سِرُّ الأمر، فوَجَب عليكم أن تَعملوا، ولا تجعَلوا عِلمَكم جَهْلاً، فإنّ مَنْ عَلِم المنفعة في أمرٍ ولا حائل بينه وبينه ثم لم يأتِه كان سفيهاً.



الأصْلُ:

الطَّمَعُ مُورِدٌ غَيْرُ مُصْدِرٍ، وَضَامِنٌ غَيْرُ وَفِيٍّ، وَرُبَّمَا شَرِقَ شَارِبُ ٱلْمَاءِ قَبْلَ رِيِّهِ، وَكُلَّمَا عَظُمَ قَدْرُ الشَّيْءِ ٱلْمُتَنَافَس فِيهِ عَظُمَتِ الرَّزِيَّةُ لِفَقْدِهِ، وَٱلْأَمَانِيُّ تُعْمِي أَعْيُنَ ٱلْبَصَائِرِ، وَٱلْحَظُّ يَأْتِي مَنْ لَا يَأْتِيهِ[1].

---

١. ورد الماء: ذهب إليه، وصدر عنه: عاد ورجع. والطامع يركض لاهثاً وراء أطماعه فيهلك ولا يعود. شرِقَ أي غصّ. الحظُّ: التوفيق من الله سبحانه. ولا يأتي من يأتي إلّا بعناية الله تعالى.

الشّرْحُ :

قوله : «وربّما شَرِق شاربُ الماء قبلَ ريِّه»، كلامٌ فصيح، وهو مَثَلٌ لمن يُختَرم بَغتةً أو تَطرُقه الحوادثُ والخُطوب وهو في تلْهِيَةٍ مِنْ عيشه. ومثل الكلمة الأُخرىٰ قولهم : على قدْر العَطِيّة تكون الرّزيّة. والقولُ في الأماني قد أوسَعْنا القول فيه مِن قبل، وكذلك في الحظوظ.



الأَصْلُ :

اَللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ تُحَسِّنَ فِي لَامِعَةِ الْعُيُونِ عَلَانِيَتِي، وَتُقَبِّحَ فِيمَا أُبْطِنُ لَكَ سَرِيرَتِي، مُحَافِظاً عَلَىٰ رِياءِ النَّاس مِنْ نَفْسِي بِجَمِيعِ مَا أَنْتَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ مِنِّي، فَأُبْدِيَ لِلنَّاس حُسْنَ ظَاهِرِي، وَأُفْضِيَ إِلَيْكَ بِسُوءِ عَمَلِي، تَقَرُّباً إِلَىٰ عِبَادِكَ وَتَبَاعُداً مِنْ مَرْضَاتِكَ.

الشّرْحُ :

قد تقدّم القولُ في الرِّياء، وأن يُظهِر الإنسانُ من العبادة والفِعل الجميل ما يُبطن غيره، ويقصد بذلك السُّمعة والصِّيت لا وجه الله تعالى.

وقد جاء في الخبر المرفوع: «أخوَفُ ما أخافُ على أُمّتي الرِّياء والشّهوة الخفيّة»[1].

قال المفسِّرون: والرِّياء من الشّهوة الخفيّة، لأنّه شَهوة الصِّيت والجاه بين الناس بأنه مَتِين الدِّين، مُواظِب على نوافِل العِبادات، وهذه هي الشّهوة الخفيّة، أي ليست كشهوة الطعام والنّكاح وغيرِهما من المَلاذّ الحسيّة. وفي الخبر المرفوع أيضاً:

١. المروي عندنا عن الإمام موسىٰ بن جعفر، عن آبائه ﷺ، مرفوعاً: «إنّ أخوف ما أخاف علىٰ أُمّتي من بعدي هذه المكاسب المحرّمة والشهوة الخفيّة والرِّبا». (بحار الأنوار ٧٣:١٥٨ و١٠٣:٥٤ ح٢٦ باب ٤ من كتاب العقود والإيقاعات).

«إنّ اليَسير من الرِّياء شِرْكٌ، وإن الله يُحبّ الأتقياءَ الأخفياءَ الّذين هم في بُيوتهم إذا غابوا لم يُفتقدوا، وإذا حَضَروا لم يُعرَفوا، قلوبهم مَصابيحُ الهدى، ينجون من كلّ غَبراءَ مُظلِمة»[1].



الأصْلُ:

وقال عليه السلام:

لَا وَالَّذِي أَمْسَيْنَا مِنْهُ فِي غُبَّرِ لَيْلَةٍ دَهْمَاءَ، تَكْشِرُ عَنْ يَوْمٍ أَغَرَّ، مَا كَانَ كَذَا وَكَذَا.

الشّرْحُ:

قد رُوِي: «تفترّ عن يومٍ أغرّ». والغُبّر: البقايا، وكذلك الإغبار. وكَشَر أي بَسَم، وأصلُه الكَشْف. وهذا الكلام إمّا أن يكون قالَه على جهة التفاؤل، أو أن يكون إخباراً بغَيْب؛ والأوّل أوجَه.



الأصْلُ:

قَلِيلٌ تَدُومُ عَلَيْهِ، أَرْجَىٰ مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ.

---

١. الحديث أخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين من طريقين في ١:٤٤ ح٤، ٤:٣٦٤ ح٧٩٣٣.

الشّرْحُ :

لا ريبَ أنّ من أراد حِفْظَ كتاب من الكُتُب العلميّة فحَفِظ منه قليلاً قليلاً، ودام على ذلك، فإنّ ذلك أنفعُ له وأرجَى لِفَلاحه من أن يَحفَظ كثيراً، ولا يَدُوم عليه لمَلالِه إيّاه وضَجَره منه، والتجربة تَشهَد بذلك. والقول في غير الحفظ كالقول في الحفظ، نحو الزيادة القليلة، ونحو العطاء اليسير الدائم غير المنقطع الذي هو خيرٌ من الكثير المنقطع ونحو ذلك.



الأَصْلُ :

إِذَا أَضَرَّتِ النَّوَافِلُ بالْفَرَائِض فارْفُضُوهَا.

الشّرْحُ :

ولا ريبَ أنّ مَنْ استغرَق الوقتَ بالنّوافل حتّى آنَ أوقاتِ الفرائض لم يفعل الفرائضَ فيها، وشَغَلها بالعبادة النَّفْليّة، فقد أخطأ؛ والواجب أنْ يَرفُض النافلةَ حيث يتضيّق وقتُ الفريضة، لا خلافَ بين المسلمين في ذلك، ويَصلُح أن يكون هذا مَثَلاً ظاهرُه ما ذكرْنا، وباطنُه أمرٌ آخَر[١].



الأَصْلُ :

مَنْ تَذَكَّرَ بُعْدَ السَّفَرِ ٱسْتَعَدَّ.

---

١ تقدّم مثلها في الحكمة ٣٩.

الشّرْحُ :

هذا مِثل قولهم في المَثَل : الليلُ طويل ، وأنتَ مُقمِر ؛ وقال أصحابُ المعاني : مَثَل الدنيا كرَكْبٍ في فَلاة وَرَدوا ماءً طيّباً ، فمنهم من شَرِب من ذلك الماء شُرْباً يسيراً ، ثمّ فكر في بُعد المسافة الّتي يَقصِدونها ، وأنّهُ ليس بعد ذلك الماء ماءٌ آخَر ، فتزوّد منه ماءً أوصَلَه إلى مَقصِده ، ومنهم من شَرِب من ذلك الماءِ شُرْباً عظيماً ولَها عن التزوّد والاستعداد ، وظَنّ أنّ ما شَرِب كافٍ له ومُغْنٍ عن ادّخار شيء آخَر ، فقطع به ، وأخْلَفَه ظَنُّه ، فعَطِش في تلك الفَلاة ومات[١] .



الأصْلُ :

لَيْسَتِ الرُّؤيَةُ مَعَ ٱلإبْصَارِ ، فَقَدْ تَكْذِبُ ٱلْعُيُونُ أَهْلَهَا ، وَلَا يَغُشُّ ٱلْعَقْلُ مَنِ ٱسْتَنْصَحَهُ .

الشّرْحُ :

هذا مِثلُ قولِه تعالى : ﴿**فَإنَّها لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الّتي فِي الصُّدُور**﴾[٢] ، أي ليس العَمَى عَمَى العين ، بل عَمَى القَلْب .

كذلك قولُ أمير المؤمنين ، ليست الرؤية مع العُيون ، وإنما الرؤية الحقيقيّة مع العُقول . وقد ذهب أكابر الحكماء إلى أن اليقينيات هي المعقولات لا المحسوسات . قالوا : لأنّ حكم الحسّ في مظنة الغلط فأمّا العقل لا يقع فيه غلط أصْلاً .

---

١ . لا سفر أبعد من سفر الآخرة ، ولا موقف أصعب من الوقوف للحساب ، ولا زاد أفضل من التقوىٰ والعمل الصالح .

٢ . سورة الحج ٤٦ .



الأَصْلُ :

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلْمَوْعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ ٱلْغِرَّةِ[١].

الشَّرْحُ :

قد تقدّم ذِكرُ الدّنيا وغُرورها، وأنّها بشَهَواتها ولذّاتِها حِجابٌ بين العبد وبين المَوْعظة، لأنّ الإنسانَ يَغترّ بِالعاجِلة، ويتوهّم دَوامَ ما هو فيه، وإذا خَطَر بباله الموتُ والفَناء وَعَد نفسَه رحمةَ الله تعالى وعفوَه، والإخلاد إلى عفوِ الله تعالى والاتّكال على المغفرة مع الإقامة على المعصية، غرورٌ لا محالةَ، والحازم مَن عمل لما بعد الموت، ولم يُمنِّ نفسه الأماني التي لا حقيقة لها.



الأَصْلُ :

جَاهِلُكُمْ مُزْدَادٌ، وَعَالِمُكُمْ مُسَوِّفٌ.

الشَّرْحُ :

هذا قريب ممّا سلف: يقول: إنّ الجاهل من الناس مُزْداد من جَهْلِه، مُصِرٌّ على خطيئته، مسوِّف من توهُّماته وعقيدته الباطلة بالعَفْو عن ذَنْبه، وليس الأمر كما توهّمه. **﴿ليسَ بأمانيِّكُمْ ولا أمانيِّ أهلِ الكتاب من يَعمَل سوءاً يُجْزَ به ولا يَجِدْ له من دُون الله وليّاً ولا نصيراً﴾**[٢].

---

١. الغِرَّة: الغفلة.

٢. سورة النساء ١٢٣.



الأصْلُ :

قَطَعَ ٱلْعِلْمُ عُذْرَ ٱلْمُتَعَلِّلِينَ .

الشّرْحُ :

يقول : قَطَع العِلْم عُذرَ الَّذِين يُعلِّلون أنفسَهم بالباطل، ويقولون : إنّ الربّ كَريم رحيم، فلا حاجة لنا إلى إتعاب أنفسنا بالعبادة . وهذا هو التّعليل بالباطل، فإن الله تعالى وإن كان كريماً رحيماً عفوّاً غفوراً، إلّا أنه صادقُ القول، وقد توعّد العُصاةَ وقال : **﴿وإنّ الفُجّار لفي جحيم * يصلَونها يوم الدِّينِ * وما همْ عنها بغائبينَ﴾**[1]، وقال : **﴿لا تختصِموا لديَّ وقد قدّمتُ إليكم بالوعيدِ * ما يُبَدَّلُ القولُ لديَ وما أنا بظلّام للعبيدِ﴾**[2]، ويكفي في رحمته وعفوِه، وكرمه أن يغفر للتائب أو لمن ثوابُه أكثَر ممّا يستحقّه من العِقاب، فالقَول بالوعيد معلوم بأدِلّة السّمع المتظاهِرة المتناصِرة الّتي قد أطنَب أصحابُنا في تَعْدادها وإيضاحِها، وإذا كان الشيءُ معلوماً فقد قَطَع العلمُ به عذرَ أصحاب التعلّل والتمنّي، وَوجَب العملُ بالمعلوم ورفض ما يُخالِفه .



الأصْلُ :

كُلُّ مُعَاجَلٍ يَسْأَلُ ٱلْإِنْظَارَ، وَكُلُّ مُؤَجَّلٍ يَتَعَلَّلُ بِالتَّسْوِيفِ .

---

١. سورة الانفطار ١٤ ـ ١٦.

٢. سورة ق ٢٨ و ٢٩.

الشّرْحُ :

قال الله سبحانه : ﴿حتّى إذا جاء أحدَهم الموتُ قال ربّ ارجعون * لعلّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ كَلّا إنّها كلمةٌ هو قائلُها ومن ورائهمْ بَرزخٌ إلى يوم يُبعَثون﴾[١] .

فهذا هو سؤال الإنظار لمن عُوجِل ، فأمّا من أُجِّل فإنه يعلِّل نفسَهُ بالتسويف ، ويقول : سوفَ أتوبُ ، سَوْف أُقلِع عمّا أنا عليه . فأكثرُهم يُختَرم من غير أن يَبلُغ هذا الأمل ، وتأتيه المنيّة وهو على أقبَح حال وأسوئها . ومنهم من تشمَله السّعادة فيتوب قبل الموت ، وأولئك الذين خُتِمت أعمالُهم بخاتِمة الخير ، وهم في العالَم كالشَّعرة البيضاءِ في الثّور الأسوَد .



الأصْلُ :

مَا قَالَ النَّاسُ لِشَيْءٍ : طُوبَىٰ لَهُ ! إِلَّا وَقَدْ خَبَأَ لَهُ الدَّهْرُ يَوْمَ سَوْءٍ[٢] .

الشّرْحُ :

قد تقدّم هذا المعنى ، وذكَرْنا فيه نُكَتاً جيّدة حميدة .



الأصْلُ :

وقالَ ﷺ وقد سُئِلَ عن القَدَرِ : طَرِيقٌ مُظْلِمٌ فَـلَا تَسْلُكُوهُ .

---

١ . سورة المؤمنين ٩٩ ، ١٠٠ .

٢ . طوبىٰ : سعادة وخير وهناء ، وطوبى له : هنيئاً له . خبأ : أخفى .

ثم سُئلَ ثانياً فقال: بَحْرٌ عَمِيقٌ فَلَا تَلِجُوهُ؛ ثم سُئِلَ ثالثاً فقالَ سِرُّ ٱللهِ فَـلَا تَتَكَلَّفُوهُ[1].

الشّرْحُ:

قد جاء في الخبر المرفوع: «القَدَرُ سِرّ الله فـي الأرض»، ورُوِي: «سـر الله فـي عـباده»، والمرادُ نهيُ المستضعفين عن الخوْض في إرادة الكائنات، وفي خلق أعمال العـباد، فـإنّه ربّما أفضى بهم القول بالجبْر، لما في ذلك من الغُموض، وذلك أنّ العـامّيَّ إذا سَـمِع قـولَ القائل: كيف يجوز أن يَقَع في عالَمِه ما يكرَهه؟ وكيف يجوز أن تَغلِب إرادة المخْلوق إرادةَ الخالق؟

ويقول أيضاً: إذا عَلِم في القدم أنّ زيداً يَكْفُر، فكيف لزيدٍ أن لا يَكْفُر؟ وهل يُمكن أن يقع خلافُ ما عَلِمه الله تعالى في القِدَم؟ اشتبه عليه الأمر، وصار شُبهةً في نفسِه، وقوِيَ في ظنّه مذهبُ المجبِّرة، فَنهَىﷺ هؤلاء عن الخوْض في هذا النّحو من البَحْث، ولم ينْه غيرَهم من ذوي العقول الكاملة، والرياضة القويّة، والملكة التامّة، ومن له قدرةٌ علىٰ حَلِّ الشُّبَه، والتفصّي عن المشكلاتِ.



الأصْلُ:

إِذَا أَرْذَلَ ٱللهُ عَبْداً حَظَرَ عَلَيْهِ ٱلْعِلْمَ.

الشّرْحُ:

أرذَلَه: جعله رَذْلاً، وكان يقال: مِنْ علامةِ بُغض اللهِ تعالى للعبد أن يُبغِّض إليه العِلْم.

---

١. قد حمل بعضهم كلام الإمامﷺ علىٰ النهي عن الخوض في خصوصيات حكمة الله في قضائه وأقواله وأفعاله، وإنما المطلوب من العبد أن يعلم أن لله في كل قضاء وكلّ قول وكلّ فعل حكمة، ومصلحة خـفيت أو ظـهرت خصوصيتها.

٢٩٥

الأصْلُ :

وقال عليه السلام : كَانَ لِي فِيما مَضَىٰ أَخٌ فِي ٱللهِ ، وَكَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ . وَكَانَ خَارِجاً مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ ، فَلَا يَتَشَهَّى مَا لَا يَجِدُ ، وَلَا يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ ، وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتاً ، فَإِنْ قَالَ بَذَّ ٱلْقَائِلِينَ ، وَنَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ ، وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعَفاً ! فَإِنْ جَاءَ ٱلْجِدُّ فَهُوَ لَيْثُ عَادٍ ، وَصِلُّ وَادٍ ، لَا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَ قَاضِياً ، وَكَانَ لَا يَلُومُ أَحَداً عَلَىٰ مَا يَجِدُ ٱلْعُذْرَ فِي مِثْلِهِ حَتَّىٰ يَسْمَعَ ٱعْتِذَارَهُ ، وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجَعاً إِلَّا عِنْدَ بُرْئِهِ ، وَكَانَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ وَلَا يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ ، وَكَانَ إِذَا غُلِبَ عَلَىٰ ٱلْكَلَامِ لَمْ يُغْلَبْ عَلَىٰ السُّكُوتِ ، وَكَانَ عَلَىٰ اَنْ يَسْمَعَ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَىٰ أَنْ يَتَكَلَّمَ ، وَكَانَ إِذَا بَدَهَهُ أَمْرَانِ يَنْظُرُ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلَىٰ ٱلْهَوَىٰ فَخَالَفَهُ ، فَعَلَيْكُمْ بِهٰذِهِ ٱلْخَلَائِقِ فَالْزَمُوهَا ، وَتَنَافَسُوا فِيهَا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوهَا فَاعْلَمُوا أَنَّ أَخْذَ ٱلْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ ٱلْكَثِيرِ[١] .

الشَّرْحُ :

قد اختَلَف الناسُ في المعنيّ بهذا الكلام ، ومَن هو هذا الأخُ المشار إليه؟ فقال قوم : هوَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، واستبْعَده قومٌ لقوله : «وكان ضعيفاً مستضعفاً» ، فإن النبي صلى الله عليه وآله لا يقال في صفاته مثل هذه الكلمة .

وقال قومٌ : هو أبو ذَرٍّ الغِفارِيّ واستبعَدَه قومٌ لقوله : فإن جاء الجدّ فهو لَيث عادٍ ، وصِلُّ واد ، فإن أبا ذَرٍّ لم يكن من الموصوفين بالشّجاعة ، والمعروفين بالبَسالة .

وقال قومٌ : هو المقدادُ بن عَمْرو المعروفُ بالمقداد بن الأسوَد ، وكان من شِيعة عليٍّ عليه السلام المخلِصين ، وكان شُجاعاً مُجاهِداً حسنَ الطريق ، وقد ورد في فضلِه حديث صحيح

---

١ . بذّهم : سبقهم وغلبهم . نقع الغليل : أزال العطش . الليث : الأسد الصِلّ : الحية .

مرفوع[١].

وقال قومٌ: إنه ليس بإشارةٍ إلى أخ مُعيّن، ولكنه كلامٌ خارجٌ مخرج المثل، وعادةُ العرب جارية بمثل ذلك، مِثل قولهم في الشّعر: فقلت لصاحبي، وياصاحبي، وهذا عندي أقوى الوجوه.

فأما قولُهﷺ: «كان لا يَتَشهَّى ما لا يَجد»، فإنّه قد نهى أن يتشهى الإنسانُ ما لا يَجِد؛ وقالوا: إنّه دليلٌ على سُقوط المرُوءة.



الأصْلُ:

لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ ٱللهُ، عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ، لَكَانَ يَجِبُ أَلَّا يُعْصَىٰ شُكْراً لِنِعَمِهِ.

الشّرْحُ:

قالت المعتزِلة: إنَّا لو قَدَّرْنا أنّ الوَعِيد السَّمْعيّ لم يرد لما أخَلّ ذلك بكون الواجب واجباً في العقل، نحو العدل والصّدق، والعلم، وردّ الوديعة، هذا في جانب الإثبات، وأمّا في جانب السَّلْب فيَجِب في العَقْل أن لا يَظلِم، وألّا يَكذِب، وألّا يَجهَل، وألّا يَخُون الأمانة، ثمّ اختَلَفُوا فيما بينهم، فقالت معتزلة بغدادَ: ليس الثوابُ واجباً على الله تعالى بالعَقْل؛ لأنّ الواجباتِ إنّما تَجِب على المكلَّف، لأنّ أداءَها كالشُّكر لله تعالىٰ، وشكر المُنعِم واجب، لأنّه

---

١. المقداد معدود من السبعة الذين أظهروا الإسلام، وهو محبوب الحقّ تبارك وتعالىٰ، وأحد النجباء الأربعة عشر من وزراء رسول اللهﷺ ورفقائه، وسمّاه النبيّﷺ أوّاباً، كما أخرجه أبو عمر في الاستيعاب. والصحيح المرفوع بحقّ هذا الصحابي العظيم هو قولهﷺ: «إنّ الله أمرني بحبّ أربعة، وأخبرني أنّه يحبّهم: عليّ؛ والمقداد؛ وأبوذرّ؛ وسلمان».

أُنظر: مستدرك الحاكم على الصحيحين: ح ٥٤٨٤ و٥٤٨٧، سنن الترمذي: ح ٣٧١٨، الاستيعاب: القسم الرابع ص ١٤٨١ و ١٤٨٢، الإصابة: رقم ٨١٨٣.

شكْرَ منعِم، فلم يَبقَ وجهٌ يَقتضِي وجوبَ الثّواب على الله سبحانه، وهذا قريبٌ من قولِ أميرِ المؤمنين عليه السلام.

وقال البَصْريّون: بل الثواب واجبٌ على الله تعالى عَقْلاً، كما يجب عليه العِوَض عن إيلام الحيّ؛ لأنّ التكليف إلزامٌ بما فيه مَضَرّة، كما أنّ الإيلامَ إنزالُ مَضَرّة، والإلزام كالإنْزال[١].



الأصْلُ:

وقال عليه السلام للأشعث بن قيس وقد عزّاه عن ابن له:

يَا أَشْعَثُ، إِنْ تَحْزَنْ عَلَىٰ ٱبْنِكَ فَقَدِ ٱسْتَحَقَّتْ ذٰلِكَ مِنْكَ الرَّحِمُ، وَإِنْ تَصْبِرْ فَفِي ٱللهِ مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ خَلَفٌ. يَا أَشْعَثُ، إِنْ صَبَرْتَ جَرَىٰ عَلَيْكَ ٱلْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَىٰ عَلَيْكَ ٱلْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ. يَا أَشْعَثُ، ٱبْنُكَ سَرَّكَ، وَهُوَ بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ، وَحَزَنَكَ، وَهُوَ ثَوَابٌ وَرَحْمَةٌ[٢].

الشّرْحُ:

قد رُوِي هذا الكلام عنه عليه السلام على وجوهٍ مختلِفة وروايات متنوِّعة، هذا الوجهُ أحدُهما[٣].

---

١. يَستقلّ العقل بوجوب حق الطاعة لله (عز وجل) المولىٰ الحقيقي في كل ما ينكشف له من تكاليف حتىٰ بالظن والاحتمال فضلاً عن القطع، ما لم يرخص هو سبحانه في عدم التحفّظ: شكراً علىٰ إنعامه، ودفعاً للضرر عن النفس بعصيانه. فكيف وقد توعد من عصى، وحكم العقل بمولويته وطاعته. لكونه هو المنعم الحقيقي بنعمة الوجود وغيرها من النعم التي لا تحصىٰ فيجب شكره بطاعته. ولكونه مالكاً حقيقياً لنا وللوجود بخلقه إيانا وخلقه للوجود فيجب علىٰ المملوك إطاعة المالك.

٢. خلف: عوض. مأجور: مثاب. جزعت: حزنت حزناً شديداً مأزور: مأثوم. فتنة: امتحان واختبار. سرّك: أكسبك سروراً. وحزَنك: أكسبك الحزن وذلك عند الموت.

٣. ويأتي في الموعظة (٤٢١) وجه آخر في تعزيته.

وأخَذَ أبو العتاهية ألفاظَهﷺ فقال لمن يعزّيه عن وَلَد:

ولابدّ مِن جَرَيان القَضاءِ　　　إمّـا مُـثاباً وإمّـا أثِـيماً



الأصْلُ :

وقالﷺ عندَ وقوفِهِ على قبر رسول اللهﷺ ساعة دُفِنَ رَسُولُ اللهِﷺ :

إنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلَّا عَنْكَ ، وَإِنَّ ٱلْجَزَعَ لَقَبِيحٌ إِلَّا عَلَيْكَ ، وَإِنَّ ٱلْمُصَابَ بِكَ لَجَلِيلٌ ، وَإِنَّهُ بَعْدَكَ لَقَلِيلٌ .

الشّرْحُ :

قد أخذَتْ هذا المعنى الشُّعراءُ؛ فقال بعضهم :

أمسَتْ بـجَفْني للـدُّموع كُـلُومُ　　　حَزناً عـليك وفـي الخُـدود رُسـومُ

والصبرُ يُحمَد فـي المَـواطِـن كـلّها　　　إلّا عـليكَ فـإنّه مـذمومُ

ومن الشِّعر المنسوب إلى عليٍّﷺ ـ ويقال : إنه قاله يومَ ماتَ رسولُ اللهﷺ ـ :

كـنتَ السّـوادَ لنـاظِري　　　فـبَكى عـليك النّـاظرُ

مـن شـاءَ بـعدَك فـليَمُتْ　　　فـعليكَ كـنتُ أحـاذِرُ



الأصْلُ :

لَا تَصْحَبِ ٱلْمَائِقَ فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ فِعْلَهُ ، وَيَوَدُّ أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُ .

الشّرْحُ :

المائق : الشديدُ الحُمْق ، والمُوق : شدّة الحُمْق ، وإنما يزين لك فعله لأنّه يعتقد فعلَه صواباً بحُمْقه فيزيّنه لك كما يزيّن العاقلُ لصاحبه فِعلَه لاعْتقاد كونه صواباً ، ولكن هذا صوابٌ في نَفْس الأمر ، وذلك صوابٌ في اعتقاد المائق ، لا في نفس الأمر ؛ وأمّا كونه يودّ أن تكون مِثله معناه أنّه لحبّه لك ، وصُحْبتِه إيّاك ، يَودّ أن تكون مِثله ؛ لأنّ كل أحدٍ يوَدّ أن يكون صديقُه مِثل نفسِه ، في أخلاقه وأفعالِه ، إذ كل أحد يَعتقِد صوابَ أفعاله ، وطهارَة أخلاقه ، ولا يَشعر بعيبِ نفسِه لأنّه يَهوَى نفسَه ، فعيبُ نفسه مطويٌّ مَسْتور عن نفسه ، كما تخفىٰ عن العاشق عُيوبُ المعشوق .



الأصْلُ :

وقالعليه‌السلام وقد سُئل عن مسافة ما بين المشرق والمغرب ، فقال : مَسِيرَةُ يَوْمٍ لِلشَّمْس .

الشّرْحُ :

هكذا تقول العَرَب : بينهما مَسيرة يوم ، بالهاء ، ولا يقولون : مسيرُ يوم ؛ لأنّ المسيرَ المَصْدَر ، والمَسِيرة الاسم .

وهذا الجوابُ تسمّيه الحكماء جواباً إقناعيّاً ؛ لأنّ السائل أراد أن يذكر له كميّة المسافة مُفصّلة ، وأجابه بغيره ، وهو جواب صحيح لا رَيب فيه ، لكنّه غير شافٍ لغليلِ السائل ، وتحته غرَضٌ صحيح وذلك لأنّه سأله بحضور العامّة تحت المنبر فلو قال له : بينهما ألفُ فرسخ مثلاً ، لكان للسائل أن يطالبه بالدلالة علىٰ ذلك ، فعدل إلىٰ جواب صحيح ، إجماليّ أسكت السائل به ، وقَنع به السامعون أيضاً وَاستحسَنوه ، وهذا من نتائج حِكمتِهعليه‌السلام .



الأَصْلُ :

أَصْدِقَاؤُكَ ثَلَاثَةٌ، وَأَعْداؤُكَ ثَلَاثَةٌ؛ فَأَصْدِقَاؤُكَ : صَدِيقُكَ، وَصَدِيقُ صَدِيقِكَ، وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ. وَأَعْدَاؤُكَ: عَدُوُّكَ ، وَعَدُوُّ صَدِيقِكَ، وَصَدِيقُ عَدُوِّكَ.

الشّرْحُ :

قد تقدّم القولُ في هذا المعنى. والأصل في هذا أنّ صديقَك جارٍ مجرَى نفسك، فاحكم عليه بما تحكُم به على نفسك، وعدوّك ضدّك، فاحكُمْ عليه بما تحكُم به على الضّدّ. فكما أنّ من عاداك عدوّ لك، وكذلك مَنْ عادى صديقَك عدُوّ لك، وكذلك من صَادَق صديقَك فكأنّما صادَق نفسَك، فكان صديقاً لك أيضاً، وأمّا عدوُّ عدوِّك فضدّ ضدّك؛ وضِدُّ ضِدِّك ملائمٌ لك، لأنّك أنتَ ضِدٌّ لذلك الضدّ. فقد اشتركتُما في ضِدّيّة ذلك الشخص، فكنتما متناسِبَين، وأمّا مَنْ صَادقَ عدوَّك فقد ماثلَ ضِدَّك، فكان ضِدّاً لك أيضاً.



الأَصْلُ :

وقال عليه السلام لرجل رآه يسعىٰ على عدوٍّ له، بما فيه إِضرار بنفسه: إِنَّمَا أَنْتَ كَالطَّاعِنِ نَفْسَهُ لِيَقْتُلَ رِدْفَهُ.

الشّرْحُ :

هذا يختلف باختلاف حالِ السّاعي، فإنّه إن كان يضرّ نفسَه أوّلاً ثمّ يضرّ عدوَّه تَبَعاً لإضرارِه بنفسِه، كان ـ كما قال أمير المؤمنين عليه السلام ـ كالطاعنِ نفسَه ليقتلَ رِدْفه؛ والرِّدفُ: الرجلُ الذي تَرْتدِفه خَلْفَك على فرَس أو ناقةٍ أو غيرهما، وفاعل ذلك يكون أسْفه الخلق وأقلَّهم عقلاً،

لأنّه يبدأ بقتل نفسه وإن كان يضرّ عدوّه أولاً، يحصل في ضمن إضراره بعدوّه إضراره بنفسه، فليس يكون مثالُ أمير المؤمنينﷺ منطبقاً على ذلك، ولكن يكون كقولي في غزلٍ من قصيدةٍ لي:

إن تَرْمِ قلبي تُصْمِ نفسَك إنّـه لكَ موطنٌ تأوِي إليه ومَنزِلُ



الأصْلُ:

مَا أَكْثَرَ ٱلْعِبَرَ وَأَقَلَّ ٱلاعْتِبَارَ!

الشّرْحُ:

ما أوجز هذه الكلمة وما أعظم فائدتها! ولا ريب أنّ العبَر كثيرة جدّاً، بل كلّ شيء في الوجود ففيه عِبْرةٌ، ولا ريب أن المعتبِرين بها قليلون، وأنّ الناس قد غلب عليهم الجهل والهوى، وأرداهم حبُّ الدنيا، وأسكرهم خَمرُها؛ وإنّ اليقين في الأصل ضعيف عندهم، ولولا ضعفه لكانتْ أحوالهم غيرَ هذه الأحوال.



الأصْلُ:

مَنْ بَالَغَ فِي ٱلْخُصُومَةِ أَثِمَ، وَمَنْ قَصَّرَ فِيهَا ظُلِمَ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِيَ ٱللهَ مَنْ خَاصَمَ.

الشّرْحُ :

هذا مثل قوله ﷺ في موضع آخر: «الغالب بالشرّ مغلوب»[١].

وكان يقال: ما تسابّ اثنان إلّا غلبَ ألأمُهما. وقد نهى العلماء عن الجدل والخصومة في الكلام والفقه؛ وقالوا: إنهما مظنّة المباهاة وطلب الرئاسة والغلبة، والمجادل يكره أن يقهرَه خصمُه؛ فلا يستطيع أن يتّقي الله. وهذا هو كلام أمير المؤمنين ﷺ بعينه.

وأمّا الخصومة في غير العلم، كمنازعة الناس بعضِهم بعضاً في أُمورهم الدنياوية، فقد جاء في ذمّها والنهي عنها شيء كثير.



الأصْلُ :

مَا أَهَمَّنِي ذَنْبٌ أُمْهِلْتُ بَعْدَهُ حَتَّىٰ أُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ وَأَسْأَلَ ٱللهَ ٱلْعَافِيَةَ.

الشّرْحُ :

هذا فتحٌ لباب التوبة وتطريق إلى طريقها، وتعليم للنهضة إليها والاهتمام بها، ومعنى الكلام أنّ الذَّنب الذي لا يعاجَل الإنسانُ عقيبَه بالموت ينبغي للإنسان ألّا يهتم به، أي لا ينقطع رجاؤه عن العفو وتأميله الغفران، وذلك بأن يقوم إلى الصلاة عاجلاً، ويستغفر الله، ويندم ويعزم على ترك المعاودة، ويسأل الله العافية من الذنوب والعصمة من المعاصي، والعون على الطاعة، فإنه إذا فعل ذلك بنيّة صحيحة واستوفى شرائط التوبة سقط عنه عقابُ ذلك الذنب. وفي هذا الكلام تحذيرٌ عظيم من مواقعة الذنوب؛ لأنّه إذا كان هذا هو محصول الكلام، فكأنّه قد قال: الحذَرَ الحذَرَ من الموت المفاجئ قبل التوبة.

---

١. عيون الحكم والمواعظ / الليثي الواسطي: ص٤٤، غرر الحكم: ص١٠٨٥. ويأتي في الحكمة رقم (٣٢٣).



الأصْلُ :

وسُئل عليه السلام : كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم ؟ فقال : كَمَا يَرْزُقُهُمْ عَلَىٰ كَثْرَتِهِمْ . فَقيل : كيف يحاسبهم ولا يرونه ؟ فقال : كَمَا يَرْزُقُهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُ .

الشّرْحُ :

هذا جواب صحيح ؛ لأنّه تعالى لا يرزقهم على الترتيب ، أعني واحداً بعد واحد ، وإنما يرزقهم جميعَهم دفعةً واحدة ، وكذلك تكون محاسبتهم يوم القيامة .

والجواب الثاني صحيح أيضاً ؛ لأنّه إذا صحّ أن يرزقنا ولا نرى الرّازق ، صحّ أن يحاسبَنا ولا نرى المحاسب .



الأصْلُ :

رَسُولُكَ تَرْجُمَانُ عَقْلِكَ ، وَكِتَابُكَ أَبْلَغُ مَا يَنْطِقُ عَنْكَ .

الشّرْحُ :

قالوا في المَثَل : الرّسول على قدر المرسِل . وقيل أيضاً : رسولُك أنتَ ، إلّا أنّه إنسانٌ آخَر .



الأصْلُ :

مَا ٱلْمُبْتَلَىٰ الَّذِي قَدِ ٱشْتَدَّ بِهِ ٱلْبَلَاءُ ، بِأَحْوَجَ إِلَىٰ الدُّعَاءِ مِنَ المُعافَىٰ الَّذي لا يَأْمَنُ ٱلْبَلَاءَ .

الشّرْحُ :

هذا ترغيب في الدعاء، والذي قالهﷺ حقّ؛ لأنّ المعافى في الصورة مبتلىً في المعنى، وما دام الإنسان في قيْد هذه الحياة الدنيا فهو من أهل البلاء على الحقيقة، ثم لا يأمن البلاء الحسّيّ، فوجب أن يتضرّع إلى الله تعالى أنّه ينقذه من بلاء الدنيا المعنويّ، ومن بلائها الحسيّ في كلّ حال، ولا ريب أن الأدعية مؤثرة، وأنّ لها أوقات إجابة، ولم يختلف الملّيون والحكماء في ذلك.



الأصْلُ :

النَّاسُ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا، وَلَا يُلَامُ الرَّجُلُ عَلَىٰ حُبِّ أُمِّهِ.

الشّرْحُ :

قد قالﷺ موضع آخر: «الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم»[1].

وقال الشاعر:

ونحنُ بَنِي الدُّنيا غُذِينَا بدَرِّها ... وما كنتَ منه فهو شيء محبَّبُ



الأصْلُ :

إِنَّ ٱلْمِسْكِينَ رَسُولُ ٱللهِ، فَمَنْ مَنَعَهُ فَقَدْ مَنَعَ ٱللهَ، وَمَنْ أَعْطَاهُ فَقَدْ أَعْطَى ٱللهَ[2].

---

١. خصائص الأئمة / الشريف الرضي: ص١١٥، عيون الحكم والمواعظ / الليثي: ص٦٦.

٢. المسكين: هنا صاحب الحاجة مهما كان نوعها، والمراد برسول الله هنا أمره تعالىٰ وطلبه. والمعنى: أن من يأته صاحب حاجة يقدر علىٰ قضائها وردها ولم يقضها فقد ردّ أمر الله وعصاه. في ظلال نهج البلاغة ٤: ٣٩٩.

الشّرْحُ :

هذا حضٌّ على الصدقة، وقد تقدّم لنا قولٌ مقنع فيها[١].

وفي الحديث المرفوع: «اتّقوا النّار ولو بشِقِّ تَمْرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة».

وقالﷺ: «لو صَدَق السّائل لما أفلح مَنْ ردّه».



الأصْلُ :

مَا زَنَىٰ غَيُورٌ قَطُّ.

الشّرْحُ :

قد جاء في الأثر: مَنْ زنى زُنيَ به ولو في عَقِب عقِبه. وهذا قد جُرّب فوجد حقّاً، وقلّ مَنْ ترى مِقداماً على الزّنا إلّا والقول في حرَمه وأهلِه وذوي مَحارمه كثير فاشٍ.

والكلمة التي قالهاﷺ حقّ، لأنّ مَنْ اعتاد الزنا حتى صار دُرْبته وعادتَه وألفَتْه نفسه، لابدّ أن يهون عليه حتى يظنّه مباحاً، أو كالمباح، لأنّ مَنْ تدرّب بشيء ومَرَن عليه زال قبحه من نفسِه، وإذا زال قبحُ الزنا من نفسه لم يعظم عليه ما يقال في أهله، وإذا لم يعظم عليه ما يقال في أهله، فقد سقطت غَيْرتُه.



الأصْلُ :

كَفَىٰ بِالْأَجَلِ حَارِساً!

---

١. راجع الجزء ١٠: ٢٠٨ من الأصل.

الشّرْحُ :

قد تقدّم القول في هذا المعنى . وكان ﷺ يقول : «إن عَلَيّ من الله جُنّة حصينة ، فإذا جاء يَوْمِي أسلمتْني ؛ فحينئذٍ لا يَطيش السَّهْم ، ولا يبرأ الكَلْم» . والقول في الأجل وكونه حارساً شُعْبة من شُعَب القول في القضاء والقَدَر ، وله موضع هو أملَكُ به .



الأصْلُ :

يَنَامُ الرَّجُلُ عَلَىٰ الثُّكْلِ ، وَلَا يَنَامُ عَلَىٰ ٱلْحَرَبِ[1] .

قال السيّدُ : ومعنى ذلك أنه يصبر على قتل الأولاد ، ولا يصبر على سلب الأموال .

الشّرْحُ :

كان يقال : المال عِدْل النّفس . وفي الأثر : أنّ مَنْ قُتِل من دون ماله فهو شهيد .



الأصْلُ :

مَوَدَّةُ ٱلآبَاءِ قَرَابَةٌ بَيْنَ ٱلأَبْنَاءِ ، وَٱلْقَرَابَةُ أَحْوَجُ إِلَىٰ ٱلْمَوَدَّةِ مِنَ ٱلْمَوَدَّةِ إِلَىٰ ٱلْقَرَابَةِ .

الشّرْحُ :

كان يقال : الحبّ يُتوارث ، والبُغْض يُتَوارث .

---

١. الثكل : فقد الأولاد . والحَرَب (بفتح الراء) : سلب الأموال ، والأول بقضاء الله وقدره والصبر عليه عقل وإيمان ؛ والثاني ظلم واعتداء والسكوت عنه ذل وهوان .

وقال الشاعر:

أبقَى الضَّغَائِنَ آباءٌ لنا سلفُوا ... فلن تبِيدَ وللآباء أبناءُ

ولا خير في القرابة من دون مودّة، والقربىٰ محتاجة إلى المودّة، والمودّة مستغنية عن القرابة.



الأصْلُ:

ٱتَّقُوا ظُنُونَ ٱلْمُؤمِنِينَ، فَإِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ جَعَلَ ٱلْحَقَّ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ[١].

الشّرْحُ:

كان يقال: ظَنُّ المؤمن كَهانة. وهو أثرٌ جاء عن بعض السلف.

قال أوْس بن حجر:

الألمعيُّ الذي يَظُنّ بك الظن ... كأنْ قد رأى وقد سَمِعا



الأصْلُ:

لَا يَصْدُقُ إيمَانُ عَبْدٍ، حَتَّىٰ يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ ٱللهِ سُبحانه أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ[٢].

---

١. الظن هنا الفراسة. وهو ظن مصيب.

٢. المراد به أن تكون ثقته بما عند الله من ثواب وفضل، أشد من ثقته بما في يده.

الشّرْحُ :

هذا كلام في التوكّل، وقد سبق القول فيه .

وقال بعض العلماء : لا يشغلَك المضمونُ لك من الرّزق عن المفروض عليك من العَمل، فتضيّع أمرَ آخرتك، ولا تنال من الدنيا إلا ما كَتَب الله لك .



الأصْلُ :

وقال لأنسِ بنِ مالكٍ، وقد كان بَعَثَه إلى طلحةَ والزبير لمـا جـاءا إلى البـصرة يذكّرهُما شيئاً مما سمعه من رسول الله في معناهما ، فَلَوَى عن ذلك فرجع إليه، فقال : إِنِّي أُنْسِيتُ ذٰلِكَ ٱلْأَمْرَ . فَقال :

إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَضَرَبَكَ ٱللهُ بِهَا بَيْضَاءَ لَامِعَةً لَا تُوَارِيهَا ٱلْعِمَامَةُ .

قال : يعني البرص ، فأصاب أنساً هذا الداء فيما بعد في وجهه ، فكان لا يُرى إلّا مُتَبرقِعاً .

الشّرْحُ :

المشهور أنّ علياً ناشد الناس الله في الرّحبة بالكوفة، فقال : أنشـدكم الله رجـلاً سـمع رسول الله يقول لي وهو منصرف من حَجّة الوداع : «من كنتُ مولاه فعليّ مولاه، اللهـمّ وَالِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه» ! فقام رجال فشهدوا بذلك، فقال لأنس بن مالك : لقـد حضرتَها، فما بالُك ! فقال : يا أميرَ المؤمنين كبرتْ سنّي، وصار ما أنساه أكثر مما أذكره ؛ فقال له : «إن كنت كاذباً فضربك الله بها بيضاء لا تواريها العِمامة»، فما مات حـتى أصـابه البرص . فأما ماذكره الرضيّ من أنّه بعث أنسا إلى طلحة والزبير فغيرُ معروف .

وقد ذكر ابنُ قتيبة حديث البرص، والدعوة التي دعا بها أمير المؤمنين على أنس ابن مالك في كتاب (المعارف) في باب البُرْص من أعيان الرجال، وابن قتيبة غير متّهم في حقّ

عليّ ﷺ، على المشهور من انحرافِه عنه[١].



الأصْلُ :

إِنَّ لِلْقُلُوبِ إِقْبَالاً وَإِدباراً ؛ فَإِذَا أَقْبَلَتْ فَاحْمِلُوهَا عَلَىٰ النَّوَافِلِ ، وَإِذَا أَدبَرَتْ فَاقْتَصِرُوا بِهَا عَلَىٰ ٱلْفَرَائِض .

الشّرْحُ :

لا ريبَ أنّ القلوب تملّ كما تملّ الأبدان ؛ وتُقبِل تارةً على العِلم وعلى العَمَل ، وتُدبِر تارةً عنهما .

قال عليّ ﷺ : فإذا رأيتموها مقبلة أي قد نشِطتْ وارتاحت للعمل فاحملوها على النّوافل ؛ ليس يعني اقتصروا بها على النافلة ، بل أدّوا الفريضة وتنفّلوا بعد ذلك . وإذا رأيتموها قد ملّت العمل وسئمتْ فاقتصروا بها على الفرائض ، فإنه لا انتفاع بعمل لا يَحضُر القلبُ فيه .



الأصْلُ :

فِي ٱلْقُرْآنِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ .

---

١. انظر : فضائل الخمسة من الصحاح الستة ، الفصل ٣٨ ، ١٥٢ من المقصد الثاني .

الشّرْحُ :

هذا حقّ؛ لأنّ في أخبار القرون الماضية، وفيه أخبار كثيرة عن أُمور مستقبلة، وفيه أخبار كثيرة شرعيّة؛ فالأقسام الثلاثة كلُّها موجودة فيه.



الأصْلُ :

رُدُّوا ٱلْحَجَرَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ، فَإِنَّ الشَّرَّ لَا يَدْفَعُهُ إِلَّا الشَّرُّ[1].

الشّرْحُ :

هذا مثل قولهم في المثل: إن الحديد بالحديد يُفلَح.



الأصْلُ :

وقال ﷺ لكاتبه عبيدالله بن أَبي رافع[2]:

---

١. رَدّ الحجر: كناية عن مقابلة الشرّ بالدفع علىٰ فاعله ليرتدع عنه. والمعنى: اقضوا علىٰ الشر بالشر. قال تعالىٰ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الأنفال ٣٩. ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ الشورىٰ ٤١.

٢. عبيد الله بن أبي رافع، من أصحاب علي ﷺ وكاتبه ومسانده، له كتاب قضايا أمير المؤمنين ﷺ كان من خيار الشيعة، شهد مع الامام ﷺ حروبه، وهو صاحب بيت ماله. أعلام نهج البلاغة، محمد هادي الأميني. وأبوه مولىٰ رسول الله ﷺ فاعتقه، وقال: إنّ لكلّ نبيٍّ أميناً، وأبو رافع أميني، ولزم الإمام بعد النبي ﷺ، وكان صاحب بيت ماله بالكوفة أيضاً.

أَلِقْ دَوَاتَكَ، وَأَطِلْ جِلْفَةَ قَلَمِكَ، وَفَرِّجْ بَيْنَ السُّطُورِ، وَقَرْمِطْ بَيْنَ ٱلْحُرُوفِ؛ فَإِنَّ ذٰلِكَ أَجْدَرُ بِصَبَاحَةِ ٱلْخَطِّ.

الشّرْحُ:

لاقَ الحِبرُ بالكاغَد يليق، أي التصق، ولِقْتُه أنا يتعدّى ولا يتعدّى، وهذه دواة مليقة: أي قد أُصلح مدادُها، وجاء ألق الدّواة إلاقةً فهي مُلِيقة، وهي لغة قليلة وعليها وردتْ كلمة أميرِ المؤمنين عليه السلام. ويقال للمرأة إذا لم تحظ عند زوجها: ما عاقَتْ عند زوجها ولا لاقَتْ، أي ما التصقت بقلبه.

وتقول: هي جِلْفة القلم بالكسر، وأصل الجَلف القَشْر، جلفتُ الطّين من رأس الدنّ، والجِلْفة هيئة فتحَة القلم التي يستمدّ بها المداد، كما تقول: هو حَسن الرِّكْبة والجِلسة ونحو ذلك من الهيئات. وتقول: قد قرمط فلان خطوَه إذا مشى مشياً فيه ضِيق وتقَارُب؛ وكذلك القول في تضييق الحروف. فأما التفريج بين السطور فيُكسِب الخطَّ بهاءً ووضوحاً.



الأصْلُ:

أَنا يَعْسُوبُ ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَٱلْمَالُ يَعْسُوبُ ٱلْفُجَّارِ.

وقالَ: معنى ذلك أن المؤمنين يتبعونني، والفجار يتبعون المال؛ كما تتبع النحل يعسوبها، وهو رئيسها.

الشّرْحُ:

هذه كلمةٌ قالها رسولُ الله صلى الله عليه وآله بلفظين مختلفين[1]، تارةً: «أنت يعسوب الدِّين» وتارة:

١. الاستيعاب لابن عبد ربه ٦٥٧:٢ ط ١ حيدر آباد ١٣٣٦. أسد الغابة لابن الأثير ٢٨٧:٥ ط ١ مصر ١٢٨٥.

«أنت يعسوب المؤمنين»، والكلّ راجع إلى معنىً واحد، كأنه جعله رئيس المؤمنين وسيِّدَهم، أو جعل الدِّين يتبعه، ويقفُو أثرَه؛ حيث سلك كما يتبع النحلُ اليعسوبَ.

وهذا نحو قوله: «وأدِرِ الحقَّ معه كيف دارَ».



الأصْلُ:

وقالَ لبعض اليهود حينَ قالَ لهُ: ما دَفَنتُمْ نبيَّكُمْ حتىٰ اختلفتُمْ فيه! فقال له:

إِنَّمَا ٱخْتَلَفْنَا عَنْهُ لَا فِيهِ، وَلٰكِنَّكُمْ مَا جَفَّتْ أَرْجُلُكُمْ مِنَ ٱلْبَحْرِ حَتَّىٰ قُلْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1].

الشّرْحُ:

ما أحسن قوله: «اختلفنا عنه لا فيه»، وذلك لأنّ الاختلاف لم يكن في التوحيد والنبوّة؛ بل في فرُوع خارجة عن ذلك، نحو الإمامة والميراث، والخلاف في الزكاة هل هي واجبة أم لا؛ واليهود لم يختلفوا كذلك، بل في التوحيد الذي هو الأصل.

قال المفسرون: مرُّوا على قوم يعبدون أصناماً لهم على هيئة البقَر؛ فسألوا موسى أن يجعلَ لهم إلهاً كواحد منها، بعد مشاهدتهم الآيات والأعلام، وخلاصِهم من رقّ العبوديّة، وعبورهم البحر، ومشاهدةِ غَرَق فرعون؛ وهذه غاية الجهل.

وقد رُوي حديث اليهوديّ على وجه آخر؛ قيل: قال يهوديٌّ لعليّ عليه السلام: اختلفتم بعد نبيِّكم ولم يجفّ ماؤه ـ يعني غسله صلى الله عليه وآله ـ فقال عليه السلام: وأنتم قلتم: اجعلْ لنا إلهاً كما لهم آلهة ولما يجفّ ماؤكم.

---

١. سورة الأعراف: ١٣٨.



الأصْلُ :

وقيل له ﷺ : بِأَيِّ شَيْءٍ غَلَبْتَ الأَقران ؟ قال:
مَا لَقِيتُ أحَداً إِلَّا أَعَانَنِي عَلَىٰ نَفْسِهِ .

قال الرضي رحمهُ اللهُ تعالى : يومئُ بذلك إلى تمكُّنِ هَيبتِهِ في القلوب .

الشَّرْحُ :

قالت الحكماء : الوهم مؤثِّر ، وهذا حقّ ، لأنّ المريض إذا تقرّر في وهمه أن مرضه قاتل له ربّما هلك بالوَهم ، وكذلك مَنْ تلسبُه الحيّة ؛ ويقع في خياله أنها قاتلته ؛ فإنه لا يكاد يسلم منها ، فكذلك الذين بارزوا عليّاً ﷺ من الأقران ؛ لما كان قد طار صيتُه ، واجتمعت الكلمة أنه ما بارزه أحد إلّا كان المقتول ، غلب الوهم عليهم ، فقصرت أنفسهم عن مقاومته ، وانخذلت أيديهم وجوارحهم عن مناهضته ؛ وكان هو في الغاية القصوىٰ من الشّجاعة والإقدام ، فيقتحم عليهم ويقتلهم .



الأصْلُ :

وقال ﷺ لابنِهِ محمّدِ بن الحنفيَّةِ : يَابُنَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ آلْفَقْرَ ؛ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْهُ ، فَإِنَّ آلْفَقْرَ مَنْقَصَةٌ لِلدِّينِ ، مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ ، دَاعِيَةٌ لِلْمَقْت .

الشَّرْحُ :

هذا موضع قد اختلف الناس فيه كثيراً ، ففضّل قومٌ الغنى ، وفضّل قومٌ الفقر .
فقال أصحاب الغنى : قد وصف الله تعالى المال ، فسمّاه خيراً ، فقال : **﴿إِنِّي أحببْتُ حُبَّ**

الخَيْرِ عن ذِكْرِ رَبِّي﴾[١].

وقال أصحاب الفقر: الغِنَى سبب الطُّغيان، قال الله تعالى: **﴿كَلّا إنَّ الإنْسانَ لَيَطْغَى * أنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾**[٢].

[ثمّ إنّ ابن أبي الحديد أورد أقوالاً حكميّة في الغنى والفقر، لكنه لم يبيّن الوجه الحقيقي الذي يبتني عليه كلام أمير المؤمنينعليه السلام. والتحقيق أن يقال: إن الفقر ممقوت يحمل معه الكفر والذل والغربة والنقيصة، وكان رسول اللهصلى الله عليه وآله يستعيذ منه، ولذا يأمر الامامعليه السلام ولده أن يلتجئ إلى الله لدفعه، وذكر له ثلاث معايب مهمة وأساسية، هي منقصة للدين فإذا اشتدّ الفقر صعب على الإنسان أن يؤدي حقوق الله سبحانه، وربما يحمل على الخيانة أو الكذب... الخ.

والفقر أيضاً مدهشة للعقل؛ لان الفقير يعجز عن استجماع قواه العقلية بصورة جيدة، والثالثة الفقر داعية لمقت الناس واحتقارهم وإهانتهم للفقير. وقد تقدّم قولهعليه السلام في الحكمة ١٦٥: «الفقر الموت الأكبر»].



٣٢٦

الأصْلُ:

وقال لِسَائل سأَله عن مسألة:

سَلْ تَفَقُّهاً وَلَا تَسْأَلْ تَعَنُّتاً؛ فَإِنَّ ٱلْجَاهِلَ ٱلْمُتَعَلِّمَ شَبِيهٌ بِالْعَالِمِ، وَإِنَّ ٱلْعَالِمَ ٱلْمُتَعَنِّتَ شَبِيهٌ بِالْجَاهِلِ[٣].

الشّرْحُ:

قد ورد نهيٌ كثير عن السؤال على طريق الإعنات.

وقال أمير المؤمنينعليه السلام في كلام له: «منْ حَقّ العالم ألّا تكثر عليه بالسؤال، ولا تُعنِته في الجواب، ولا تضع له غامضات المسائل، ولا تلحّ عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض،

---

١. سورة ص ٣٢.

٢. سورة العلق ٦، ٧.

٣. تفقهاً: تعلّماً. تعنتاً: طلباً للغلبة وإظهار الخطأ.

ولا تُفْشِ له سرّاً، ولا تغتابنّ عنده أحداً، ولا تنقلنّ إليه حديثاً، ولا تطلبنّ عثرته، وإن زلّ قبلْتَ معذرتَه، وعليك أن توقّره وتُعظّمه لله مادام حافظاً أمر الله، ولا تجلس أمامه، وإذا كانت له حاجة فاسبق أصحابك إلى خدمته».



الأصْلُ:

وقال عليه السلام لعبدِالله بن العبّاسِ رضي الله عنه وقد أَشارَ إليهِ في شيءٍ لم يوافق رأيَهُ:
لَكَ أَنْ تُشِيرَ عَلَيَّ وَأَرَىٰ، فَإِذَا عَصَيْتُكَ فَأَطِعْنِي.

الشّرْحُ:

الإمام أفضل من الرعيّة رأياً وتدبيراً. فالواجب على مَنْ يشير عليه بأمرٍ فلا يقبله أن يطيعَ ويسلّم ويعلم أن الإمام قد عَرَف من المصلحة ما لم يعرف[1].



الأصْلُ:

وروي أنه عليه السلام لما ورد الكوفة قادماً من صفّين مر بالشّاميين[2]، فسمع بكاء النساء على قتلى صفّين، وخرج إليه حرب بن شُرَحْبِيل الشّامي؛ وكان من وجوه قومه،

---

١. أصل هذه الكلمات، أنّ المغيرة بن شعبة كان قد أشار على الإمام عليه السلام بإبقاء معاوية على ولاية الشام، حتى يستتب الأمر، فلم يقبل عليه السلام منه، ثمّ جاء ابن عباس فصدّق رأي المغيرة وأصرّ على الإمام عليه السلام ليقبل ذلك، فقال عليه السلام له ما قال له. رواه الطبري ٤ / ٤٤١ سنة ٣٥.

٢. في نسخ أُخرىٰ: مرّ بالشّباميين، وهو حي من أحياء اليمن.

فقال له: أَيَغْلِبُكُمْ نِسَاؤُكُمْ عَلَىٰ مَا أَسْمَعُ! أَلَا تَنْهَوْنَهُنَّ عَنْ هٰذَا الرَّنِينِ!

(وأقبل حرب يمشي معه وهو‌ﷺ راكب، فقال له): ٱرْجِعْ، فَإِنَّ مَشْيَ مِثْلِكَ مَعَ مِثْلِي فِتْنَةٌ لِلْوَالِي، وَمَذَلَّةٌ لِلْمُؤْمِنِ.

الشّرْحُ:

الرّنين: الصوت، وإنما جعله فتنة للوالي لما يتداخله من العُجْب بنفسه والزَّهْو، ولا ريب أيضاً في أنّه مذلّة للمؤمن، فإنّ الرّجل الماشي إلى ركاب الفارس أذلّ الناس.



الأصْلُ:

وقال‌ﷺ وقد مر بقتلى الخوارج يوم النَّهْرَوَان: بُؤْساً لَكُمْ، لَقَدْ ضَرَّكُمْ مَنْ غَرَّكُمْ.

فقيل له: مَنْ غَرَّهُمْ يَا أَمِيرَ المؤمنين؟

فقال:

الشَّيْطَانُ ٱلْمُضِلُّ، وَٱلنَّفْسُ ٱلْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، غَرَّتْهُمْ بالْأَمَانِيِّ، وَفَسَحَتْ لَهُمْ فِي الْمَعَاصِي، وَوَعَدَتْهُمُ ٱلإِظْهَارَ؛ فَاقْتَحَمَتْ بِهِمُ النَّارَ.

الشّرْحُ:

يقَالُ: بؤسَى لزيد وبؤساً ـ بالتنوين ـ لزيد، فبؤسى نظيره نُعمَى. وبؤساً نظيره نعمةً، ينتصب على المصدر.

وهذا الكلام ردّ على المجبِّرة، وتصريح بأن النفس الأمّارة بالسوء هي الفاعلة.

والإظهار: مصدر، أظهرته على زيد، أي جعلته ظاهراً عليه غالباً له، أي وعدتهم الانتصار والظفر.



الأصْلُ :

اتَّقُوا مَعَاصِيَ اللهِ فِي الْخَلَوَاتِ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الْحَاكِمُ.

الشّرْحُ :

إذا كان الشاهد هو الحاكم استغنَى عمّن يشهد عنده؛ فالإنسان إذن جديرٌ أن يتّقي الله حقّ تُقَاته؛ لأنّه تعالى الحاكم فيه وهو الشاهد عليه.



الأصْلُ :

وقال عليه السلام لما بلغه قتل محمد بن أبي بكر[1] رضي الله عنه:
إِنَّ حُزْنَنَا عَلَيْهِ عَلَىٰ قَدْرِ سُرُورِهِمْ بِهِ، إِلَّا أَنَّهُمْ نَقَصُوا بَغِيضاً، وَنَقَصْنَا حَبِيباً.

الشّرْحُ :

قد تقدّم ذكر مقتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنه.

وقال عليه السلام: إن حزننا به في العِظَم على قدر فَرَحِهم به؛ ولكنْ وَقع التفاوت بيننا وبينهم من وجه آخر؛ وهو أنّا نقصنا حبيباً إلينا، وأمّا هم فنقصوا بغيضاً إليهم.

فإن قلت: كيف نقصوا، ومعلوم أن أهل الشام ما نقصوا بقتل محمّد شيئاً؛ لأنّه ليس في عددهم!

قلت: لمّا كان أهل الشام يعدُّون في كل وقت أعداءهم وبغضاءهم من أهل العراق،

---

١. انظر الخطبة ٣٥.

وصار ذلك العدد معلوماً عندهم محصور الكميّة، نقصوا بقتل محمد من ذلك العدد واحداً، فإنّ النقص ليس من عدد أصحابهم، بل من عدد أعدائهم الذين كانوا يتربّصون بهم الدوائر، ويتمنَّوْن لهم الخُطوب والأحداث، كأنّه يقول: استراحوا من واحدٍ من جملة جماعةٍ كانوا ينتظرون موتهم.



الأَصْلُ:

وقال‌ﷺ: اَلْعُمْرُ الَّذِي أَعْذَرَ ٱللهُ فِيهِ إِلَىٰ ٱبْنِ آدَمَ سِتُّونَ سَنَةً.

الشَّرْحُ:

أعذَرَ الله فيه؛ أي سَوَّغ لابن آدم أن يَعتذر، يعني أنّ ما قبل الستّين هي أيّام الصِّبا والشبيبة والكُهولة، وقد يُمكن أن يُعذر الإنسانُ فيه على اتّباع هَوَى النفس لغَلَبة الشّهوة، وشَرَه الحَداثة، فإذا تَجاوَز الستّين دخَل في سِنّ الشَّيْخُوخة، وذهبتْ عنه غُلَواء شِرَّتِه، فلا عُذرَ له في الجهل.



الأَصْلُ:

مَا ظَفِرَ مَنْ ظَفِرَ ٱلْإِثْمُ بِهِ، وَٱلْغَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ[1].

---

١. والمراد، إذا كانت الوسيلة لظفرك بخصمك ركوب إثم، واقتراف معصية، فإنك لم تظفر حيث ظفرت بك المعصية فألقت بك إلى النار (عن محمد عبده)، وأمّا قوله‌ﷺ: «الغالب بالشرّ مغلوب» أي فمن غلب غيره بالشرّ والمعصية، فهو مغلوب لا غالب. إذاً لا يجتمع الظفر والإثم، ولا الغلبة والشرّ.

الشَّرْحُ :

قد قال عليه السلام نحوَ هذا، وذكَرْناه في هذا الكتابِ: «مَنْ قَصَّر في الخصومة ظَلَم، ومَنْ بالَغ فيها أَثِم»[١].



الأَصْلُ :

إِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ ٱلْأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ ٱلْفُقَرَاءِ؛ فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌ، وَٱللهُ تَعَالَىٰ سَائِلُهُمْ عَنْ ذٰلِكَ.

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ في الصَّدَقة وفضلِها وما جاء فيها[٢].

وقد ورد في الأخبار الصّحيحة أنّ أبا ذرّ قال: انتهيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو جالس في ظِلّ الكعبة، فلمّا رآني قال: هم الأخْسَرون وربِّ الكعبة! فقلت: مَنْ هم؟ قال: هم الأكثرون أموالاً، إلّا مَن قال هكذا وهكذا من بين يديه ومِن خلفِه وعن يمينه وعن شماله، وقليلٌ ما هُم، ما مِن صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدّي زكاتَها إلّا جاءت يوم القيامة أعظمَ ما كانت وأسمَنَه، تَنطَحُه بقرُونها، وتطأُه بأظلافها، كلّما نَفِدَتْ أُخراها عادَتْ عليه أولاها حتّى يقضيَ الله بين الناس..



الأَصْلُ :

ٱلاِسْتِغْنَاءُ عَنِ ٱلْعُذْرِ، أَعَزُّ مِنَ ٱلصِّدْقِ بِهِ.

---

١. مرّ هذا في الحكمة (٣٠٤) مع تقديم وتأخير.

٢. راجع الجزء ١٠:٢٠٨ من الأصل.

الشّرْحُ :

رُوِيَ : «خيرٌ مِن الصِّدق»، والمعنى : لا تَفْعل شيئاً تعتذِر عنه وإن كنت صادقاً في العُذْر، فألّا تفعلْ خيرٌ لك وأعزُّ لك من أن تفعَل ثمَّ تعتذر وإن كنتَ صادقاً.



الأصْلُ :

أَقَلُّ مَا يَلْزَمُكُمْ للهِ سُبْحانَهُ أَلَّا تَسْتَعِينُوا بِنِعَمِهِ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ.

الشّرْحُ :

لا شُبْهةَ أنّ من القبيح الفاحشِ أن يُنعِم المَلِك على بعضِ رَعِيّته بمالٍ وعبيدٍ وسلاحٍ، فيَجعلَ ذلك المالَ مادّةً لِعصيانه والخروج عليه، ثمّ يُحارِبه بأولئك العبيد، وبذلك السلاحٍ بعينه.



الأصْلُ :

إِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الطَّاعَةَ غَنِيمَةَ ٱلأَكْيَاس عِنْدَ تَفْرِيطِ ٱلْعَجَزَةِ.

الشّرْحُ :

الأكياس : العُقَلاء أُولُو الألباب. قالﷺ : جعلَ اللهُ طاعتَه غنيمةَ هؤلاء، إذا فَرّط فيها العَجَزة المَخْذولون من النّاس، كصَيْدٍ استذفَ[1] لرَجُلين : أحدُهما جَلْد والآخَر عاجز، فقَعَد عنه

---

١. استذفَ : تهيأ.

العاجز لعَجْزه وحِرْمانه، واقتَنَصه الجَلْد لشَهامتِه وقوّة جدّه.



الأصْلُ:

السُّلْطَانُ وَزَعَةُ ٱللهِ فِي أَرْضِهِ.

الشّرْحُ:

الوازِعُ عن الشيء: الكافُّ عنه، والمانعُ منه، والجمع وَزَعة، مِثل قاتِل وقَتَلة. وقد قيل هذا المَعنَى كثيراً، قالوا: لابدّ للنّاس مِن وَزَعة. وقيل: ما يَزَع الله عن الدّين بالسّلطان أكثَرُ ممّا يَزَع عنه بالقرآن.



الأصْلُ:

وقال عليه السلام في صفة المؤمن:

بِشْرُهُ فِي وَجْهِهِ، وَحُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ. أَوْسَعُ شَيْءٍ صَدْراً، وَأَذَلُّ شَيْءٍ نَفْساً. يَكْرَهُ الرِّفْعَةَ، وَيَشْنَأُ السُّمْعَةَ. طَوِيلٌ غَمُّهُ، بَعِيدٌ هَمُّهُ، كَثِيرٌ صَمْتُهُ، مَشْغولٌ وَقْتُهُ، شَكُورٌ صَبُورٌ، مَغْمُورٌ بِفِكْرَتِهِ، ضَنِينٌ بِخَلَّتِهِ، سَهْلُ ٱلْخَلِيقَةِ، لَيِّنُ ٱلْعَرِيكَةِ، نَفْسُهُ أَصْلَبُ مِنَ الصَّلْدِ، وَهُوَ أَذَلُّ مِنَ ٱلْعَبْدِ.

الشّرْحُ:

هذه صفاتُ العارِفين؛ وقد تقدّم كثيرٌ من القول في ذلك.

وكان يقال: البِشْر عُنْوان النّجاح، والأمْر الذي يختصّ به العارفُ أن يكونَ بِشْرُه في

وَجْهه وهو حزين وحُزْنُه في قلبه، وإلّا فالبِشْر قد يوجَد في كثيرٍ من الناس.
ثمّ ذكر أنّه أوسَعُ الناس صَدْراً، وأذلّهم نَفْساً، وأنه يَكرَه الرّفعة والصّيت.
وطُولُ الغَمّ وبُعد الهمّ من صِفاتهم، وكذلك كَثرةُ الصّمت وشَغْل الوَقْت بالذّكر والعِبادة، وكذلك الشّكر والصّبر والاستغراق في الفِكْر وتدبُّر آياتِ الله تعالى في خَلْقه، والضَنّ بالخلّة وقلّة المخالطَة والتوفّر على العُزْلة وحُسْن الخُلُق ولين الجانب، وأن يكون قَوِيّ النفس جدّاً، مع ذُلّ لِلناس وتَواضُع بينهم؛ وهذه الأُمور كلُّها قد أتى عليها الشّرح فيما تقدّم.



الأصْلُ:

الغِنَى الأكبَرُ اليَأْسُ عَمَّا فِي أيْدِي النَّاسِ.

الشّرْحُ:

هذه الكلمة قد رُوِيتْ مرفوعةً، وقد تقدّم القولُ في الطّمع وذَمّه، واليأسِ ومَدْحِه.
وفي الحديث المرفوع: «إزْهَدْ في النّاس يُحبّك الله، وازْهَدْ فيما في أيدِي الناسِ يُحبّك الناس».



الأصْلُ:

ٱلْمَسْؤُولُ حُرٌّ حَتَّىٰ يَعِدَ.

الشّرْحُ:

قد سَبَق القولُ في الوَعد والمَطْل. ونحن نذكر هاهنا نُكَتاً أُخرىٰ: في الحديث المرفوع: «مَن وَعَد وَعْداً فكأنما عَهِد عَهْداً». وكان يقال: الوعدُ دَيْن الكِرام، والمَطْل دَيْن اللّئام.



الأصْلُ :

لَوْ رَأَىٰ ٱلْعَبْدُ ٱلْأَجَلَ وَمَصِيرَهُ، لَأَبْغَضَ ٱلْأَمَلَ وَغُرُورَهُ.

الشَّرْحُ :

وكان يقال: واعجباً لصاحِبِ الأمَل الطَّويل! وربما يكون كَفَنُه في يد النَّسّاج وهو لا يَعلم.



الأصْلُ :

لِكُلِّ آمْرِئٍ فِي مَالِهِ شَرِيكَانِ: ٱلْوَارِثُ وَٱلْحَوَادِثُ.

الشَّرْحُ :

أخَذَه الرَّضيُّ فقال:

خُذْ من تُراثِك ما استطعتَ فإنما ... شُرَكاؤك الأيامُ والورّاثُ

لم يقضِ حَقَّ المالِ إلّا مَعشَرٌ ... نظروا الزمانَ يعيثُ فيه، فعاثُوا

وقد قال ﷺ في موضعٍ آخَر: «بَشِّرْ مالَ البخيل بحادثٍ أو وارث».



الأصْلُ :

الدَّاعِي بَلَا عَمَلٍ، كَالرَّامِي بِلَا وَتَرٍ.

الشّرْحُ :

مَنْ خَلا من العَمَل فقد أخَلّ بالواجبات، ومن أخَلّ بالواجبات فقد فَسَق، والله تعالى لا يَقبل دُعَاءَ الفاسق. وشَبّهه ﷺ بالرّامي بلا وَتر، فإن سهمَه لا يَنفذ.



الأصْلُ :

ٱلْعِلْمُ عِلْمَانِ: مَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ، وَلَا يَنْفَعُ ٱلْمَسْمُوعُ، إِذَا لَمْ يَكُنِ ٱلْمَطْبُوعُ.

الشّرْحُ :

هذه قاعدةٌ كليّة مذكورةٌ في الكتب الحكميّة، إنّ العلومَ منها ما هو غَرِيزيّ، ومنها ما هو تَكْليفي؛ ثمّ كلُّ واحدٍ من القِسْمين يَختلِف بالأشدّ والأضعف.

وقال ﷺ : ليس يَنفَع المسموعُ، إذا لم يكن المطبوع، يقول: إذا لم يكن هناك أحوالُ استعدادٍ لم ينفَع الدَّرْس والتّكرار، وقد شاهدْنا مِثلَ هذا في حَقّ أشخاصٍ كثيرةٍ اشتَغَلوا بالعِلم الدّهرَ الأطولَ؛ فلم ينجَعْ معهم العِلاج، وفارَقوا الدّنيا وهم على الغَرِيزة الأُولى في السّاذجيّة وعَدَم الفَهْم.



الأصْلُ :

صَوَابُ الرّأيِ بِالدُّوَلِ يُقْبِلُ بِإِقْبَالِهَا، وَيُدْبِرُ بِإِدْبَارِهَا[١].

---

١. المراد بالدول هنا الأيام. وإقبال الدولة: كناية عن سلامتها وعلوّها، كأنّها مقبلة على صاحبها تطلبه للأخذ بزمامها وإن لم يطلبها، وعلو الدولة يعطي العقل مكنة الفكر، ويفتح له باب الرشاد، وإدبارها يوقع العقل في الحيرة والارتباك، فيذهب عنه صائب الرأي. عن شرح محمد عبده.

الشّرْحُ :

اجتَمَع بنو برْمَك عند يحيى بن خالد في آخِر دَوْلتهم وهم يومئذٍ عشرة، فأدارُوا بينهم الرأيَ في أمرٍ فلم يصلحُ لهم، فقال يحيى: إنا لله! ذهبتْ واللهِ دولَتُنا! كنّا في إقبالنا يُبرِم الواحدُ منّا عَشْرة آراء مُشكلة في وقت واحد، واليومَ نحنُ عَشرة في أمرٍ غيرِ مُشكل، ولا يَصِحّ لنا فيه رَأي! اللهَ نسأَل حُسنَ الخاتمة.



الأَصْلُ :

الْعَفَافُ زِينَةُ ٱلْفَقْرِ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ ٱلْغِنَىٰ.

الشّرْحُ :

قد سَبَق القولُ في أنّ الأَجْمَل بالفقير أن يكون عفيفاً، وألّا يكون جَشِعاً حَرِيصاً، ولا جاداً في الطّلب مُتهالِكاً، وأنّه ينبغي أنه إذا افتقر أن يتيه على الوَقْت وأبناءِ الوقْت، فإنّ التِّيه في مِثل ذلك المَقام لا بأسَ به، ليَبعُد جدّاً عن مَظِنّة الحِرْص وَالطَّمع.

وقد سبق أيضاً القولُ في الشّكر عند النعمة ووجوبه، وأنّه سبب لاسْتَدامَتِها، وأن الإخلالَ به داعيةٌ إلى زَوالها وانتقالِها.



الأَصْلُ :

يَوْمُ ٱلْعَدْلِ عَلَىٰ الظَّالِمِ، أَشَدُّ مِنْ يَومِ ٱلْجَوْرِ عَلَىٰ ٱلْمَظْلُومِ[1].

---

١. تقدّم مثله في الحكمة ٢٣٨.

الشّرْحُ :

شيئان مُؤلمان : أحدُهما يُنقضى سريعاً ، والآخر يَدُوم أبداً ؛ فَلا جَرم ، كان اليومُ المذكور على الظّالم ؛ أشدّ من يَوْم الجور على المظلوم !



الأصْلُ :

الأَقَاوِيلُ مَحْفُوظَةٌ ، وَٱلسَّرَائِرُ مَبْلُوَّةٌ وَ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ ، وَالنَّاسُ مَنْقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إِلَّا مَنْ عَصَمَ ٱللهُ ؛ سَائِلُهُمْ مُتَعَنِّتٌ ، وَمُجِيبُهُمْ مُتَكَلِّفٌ ، يَكَادُ أَفْضَلُهُمْ رَأياً يَرُدُّهُ عَنْ فَضْلِ رَأْيِهِ الرِّضا وَالسُّخْطُ ، وَيَكَادُ أَصْلَبُهُمْ عُوداً تَنْكَؤُهُ اللَّحْظَةُ ، وَتَسْتَحِيلُهُ ٱلْكَلِمَةُ ٱلْوَاحِدَةُ.

الشّرْحُ :

السرائر هاهنا ما أُسِرَّ في القلوب من النيّات والعقائد وغيرِها ، وما يَخفى من أعمال الجوارح أيضاً . وبلاؤُها : تعرُّفُها وتصفُّحُها ، والتمييز بين ما طابَ منها وما خَبُثَ .

ذكَر عليه السلام الناسَ فقال : قد عَمّهم النّقص إلّا المعْصومين . ثم قال : سائلُهم يَسأَلُ تَعنُّتاً ، والسّؤال على هذا الوجه مَذْموم ، ومجيبُهم متكلِّف للجَواب ، وأفضلُهم رأياً يكاد رِضاهُ تارةً وسُخْطه أُخرىٰ يَرُدُّهُ عن فضل رأيه ، أي يتبِعون الهوى . ويكاد أصلبُهم عوداً ، أي أشَدّهم احتمالاً .

تنكَؤه اللّحظة ، نكأتُ القَرْحَة إذا صَدَمْتَهَا بشيء فتَقشرَها . «وتَستحيله الكلمةُ الواحدة» ، أي تحيله وتغيِّره عن مُقتضى طبعِه ؛ يَصِفهم بسرعة التقلّب والتلوّن ، وأنّهم مُطِيعون دواعِيَ الشّهوةِ والغَضَب . واستَفعَل بمعنى «فَعَل» قد جاء كثيراً استَغْلَظ العسل ، أي غَلظُ .



الأصْلُ :

قالَ : مَعَاشِرَ النَّاس ، ٱتَّقُوا ٱللهَ ؛ فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ مَا لَا يَبْلُغُهُ ، وَبَانٍ مَا لَا يَسْكُنُهُ ، وَجَامِعِ مَا سَوْفَ يَتْرُكُهُ ، وَلَعَلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ جَمَعهُ ، وَمِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ ؛ أَصَابَهُ حَرَاماً ، وَٱحْتَمَلَ بِهِ آثاماً ، فَبَاءَ بِوِزْرِهِ ، وَقَدِمَ عَلَىٰ رَبِّهِ ، آسِفاً لَاهِفاً ، قَدْ ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَٱلآخِرَةَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[1] .

الشّرْحُ :

قد تقدّم شرحُ هذه المعاني والكلامُ عليها ، أمّا الآمال الّتي لا تُبلَغ ، فأكثَر من أن تُحصَى ، بل لا نهايةَ لها . وما أحسنَ قولَ القائل :

واحسرتَا مَاتَ حَظِّي من وصالِكُمُ ... وللحظُوظِ كما للنّاس آجالُ
إنْ متّ شَوْقاً ولم أبلُغْ مَدَى أملِي ... كم تحتَ هذِي القبورِ الخرْس آمالُ !

وأمّا بناء ما لا يُسْكَن ، فنحو ذلك .

وأمّا جامعُ ما سَوفَ يَتْرُكه ، فأكثرُ الناس ، [يترك كلّ شيء فالمهنأ لغيره والعبء علىٰ ظهره] .



الأصْلُ :

مِنَ ٱلْعِصْمَةِ تَعَذُّرُ ٱلْمَعَاصِي .

---

١ . سورة الحج ١١ . انظر : الخطبة ١٠٣ ، ١٠٨ ، والحكمة ١٨٦ .

الشّرْحُ :

قد وردتْ هذه الكلمة على صِيغ مختلفة : «من العِصْمة ألّا تقدر» . وأيضاً : «من العِصْمة ألّا تجد» . وقد رُوِيتْ مرفوعةً أيضاً .

وليس المرادُ بالعِصْمة هاهنا العِصْمة الَّتي ذكرها المتكلّمون ؛ لأنّ العصمة عند المتكلمين من شرطها القُدْرة ، وحقيقتها راجعة إلى لُطْفٍ يمنَع القادِرَ على المَعْصية عنده من المعصية ، وإنّما المراد أنّ غيرَ القادِر في اندفاع العقوبة عنه كالقادِر الذي لا يفعَل . [فهما شريكان في عدم الخطيئة ، لكن الثاني له ثواب الطاعة دون الأوّل] .



الأصْلُ :

مَاءُ وَجْهِكَ جَامِدٌ يُقْطِرُهُ السُّؤالُ ، فَانْظُرْ عِنْدَ مَنْ تُقْطِرُهُ .

الشّرْحُ :

هذا حَسَن ، وقد أخَذَه شاعرٌ فقال :

إذا أظمأتكَ أكُفُّ اللِّئامِ ... كفَتْك القَناعةُ شِبْعاً وريّا

فكنْ رَجُلاً رِجْلُه في الثَّرى ... وهامَةُ هِمّته في الثُّريّا

فإنّ إراقةَ ماءِ الحياةِ ... دونَ إراقةِ ماءِ المحيّا

[المقصود بماء الوجه هنا الكرامة . أي احفظ كرامتك بالترفّع عن السؤال وطلب المعونة إلّا من الله سبحانه . وإذا احوجتك الضرورة فمن ذوي المروءات والنجدة] .



الأصْلُ :

الثَّنَاءُ بِأَكْثَرَ مِنَ ٱلاسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ ، وَالتَّقْصِيرُ عَنِ ٱلاِسْتِحْقَاقِ عِيٌّ أَوْ حَسَدٌ .

الشّرْحُ :

وينبغي أن يكون قوله ﷺ محمولاً على الثّناء في وجهِ الإنسان ؛ لأنّه هو الموصوف بالمَلق إذا أفرطَ . فأمّا من يُثنِي بظَهْر الغَيْب فلا يُوصَف ثناؤه بالملَق ؛ سواءٌ كان مُقتصِدا أو مسرِفاً . وقوله ﷺ : «والتقصير عن الاستحقاق عيٌّ أو حَسَد» لا مزيدَ عليه في الحُسنِ ؛ لأنّه إذا قَصّر به عن استِحقاقه كان المانع إمّا من جانب المُثني فقط من غير تعلّق له بالمثنى عليه ، أو مع تعلُّق به ؛ فالأوّل هو العِيّ والحَصر ، والثاني هو الحسد والمنافسة .



الأصْلُ :

أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا آسْتَهَانَ بِها صَاحِبُها[1] .

الشّرْحُ :

قد ذكرْنا هذا فيما تقدّم وذكرنا العِلّة فيه ، وهي أنّ فاعَل ذلك الذّنْب قد جمَع بين فعْل الذّنب وفِعْل ذَنْب آخرَ ، وهو الاستهانة بما لا يُستهان به ، لأنّ المَعاصِي لا هين فيها ، والصغير منها كَبير ، والحقيرُ منها عظيم ، وذلك لجلالةِ شأن المعْصيِّ سبحانَه . فأمّا من يذنِب ويَستعظم ما أتاه ، فحاله أخفّ من حالِ الأوّل ، لأنّه يكاد يكون نادماً .



الأصْلُ :

مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ آشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ ، وَمَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ ٱللهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَىٰ

---

١ . يأتي بنفس المضمون في الحكمة (٤٨٥).

مَا فَاتَهُ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ ٱلْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ، وَمَنْ كَابَدَ ٱلْأُمُورَ عَطِبَ، وَمَنِ ٱقْتَحَمَ اللُّجَجَ غَرِقَ، وَمَنْ دَخَلَ مَدَاخِلَ السُّوءِ ٱتُّهِمَ. وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطَؤُهُ، وَمَنْ كَثُرَ خَطَؤُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ. وَمَنْ نَظَرَ فِي عُيُوبِ غَيْرِهِ، فَأَنْكَرَهَا، ثُمَّ رَضِيَهَا لِنَفْسِهِ، فَذٰلِكَ ٱلْأَحْمَقُ بِعَيْنِهِ. وَٱلْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ. وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْيَسِيرِ. وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ.

الشّرْحُ:

كلُّ هذه الفصول قد تقدّم الكلامُ فيها، وهي عَشَرة:

أوّلها: من نَظَر في عَيْب نفسِه اشتَغل عن عيبِ غيرِه؛ كان يقال: أصلِح نفسَك أوّلاً، ثمّ أصلِح غيرَك.

وثانيها: من رضَي برِزق الله لم يَحزَن على مافاته؛ كان يقال: الحُزْن على المَنافع الدنيويّة سُمٌّ تِرْياقُه الرِّضَا بالقَضاء.

وثالثها: من سَلَّ سيفَ البَغْي قُتِل به؛ كان يقال: الباغي مَصْروع وإن كثُرَ جنودُه.

ورابعُها: مَنْ كابَدَ الأمورَ عَطِب، ومن اقْتَحَم اللُّجَجَ غَرِق؛ مِثل هذا قولُ القائل:

مَن حارَبَ الأيّـامَ أصبَحَ رُمْـحُه ... قِـصَداً وأصـبحَ سـيفُه مَـفْلولَا

وخامسُها: من دخل مَداخِلَ السّوء اتُّهِم؛ هذا مِثْل قولِهم: من عَرَّض نفسَه للشُّبُهات فلا يلُومَنّ مَن أساءَ به الظَّنّ.

وسادسُها: مَن كَثُر كلامُه ... إلى قوله: دَخَل النار؛ قد تقدّم القولُ في المَنطِق الزائد وما فيه من المحذور؛ وكان يقال: قَلَّما سَلِم مِكْثار، أو أَمِن مِنْ عِثار.

وسابعُها: مَن نَظَر في عُيوب غيرِه فأنكَرَها ثمّ رضِيَها لنفسِه فذاك هو الأحمقُ بـعَيْنه؛ كان يقال: أجهَلُ الناسِ من يَرضَى لنفسِه بما يَسخَطُه مِن غيرِه.

وثامنها: القَناعة مالٌ لا يَنفَد؛ قد سَبَق القولُ في هذا، وسيأتي أيضاً.

وتاسعُها: من ذَكَر الموتَ رضيَ من الدّنيا باليسير؛ كان يقال: إذا أحببتَ ألّا تحسُد أحَداً فأكْثِر ذكرَ الموت، واعلمْ أنّك ومَن تَحسُده عن قليل مِن عَديد الهَلْكَى.

وعاشِرُها: من عَلِم أنّ كلامَه مِن عَمله قلَّ كلامُه إلّا فيما يَعنيه؛ لا رَيْبَ أنّ الكلامَ عَملٌ من الأعمال، وفِعلٌ من الأفعال، فكما يُستهجَن من الإنسان ألّا يزال يُحرِّك يدَه وإن كان عابثاً، كذلك يُستهجَن ألّا يزال يُحرِّك لسانَه فيما هو عَبَث، أو يَجري مَجرَى العَبَث.



الأصْلُ:

لِلظَّالِمِ مِنَ الرِّجَالِ ثَـلَاثُ عَلَامَاتٍ:
يَظْلِمُ مَنْ فَوْقَهُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَمَنْ دُونَهُ بِالْغَلَبَةِ، وَيُظَاهِرُ ٱلْقَوْمَ الظَّلَمَةَ.

الشّرْحُ:

يُمكِن أن يفسَّر هذا الكلامُ على وجهين.

أحدُهما: أنّ كلَّ من وُجِدَت فيه إحدىٰ هذه الثلاث فهوَ ظالم، إمّا أن يكون قد وجبتْ عليه طاعةُ مَن فوقَه فعصاه، فهو بعصيانه ظالم له، لأنّه قد وضعه في غير موضعه، والظُّلم في أصل اللّغة؛ هو هذا المعنى، فكذلك من عَصَى مَن فوقَه فقد زَحزَحه عن مَقامه إذا لم يُطِعه. وإمّا أن يكون قد قهر مَن دُونَه وغلبَه. وإمّا أن يكون قد ظاهَر الظَّلَمة.

والوجه الثاني: أنّ كلّ ظالم فلابدّ من اجتماع هذه العلامات الثلاثِ فيه؛ وهذا هو الأظهر.



الأصْلُ:

عِنْدَ تَنَاهِي الشِّدَّةِ تَكُونُ ٱلْفَرْجَةُ، وَعِنْدَ تَضَايُقِ حَلَقِ ٱلْبَلَاءِ يَكُونُ الرَّخَاءُ.

الشّرْحُ :

كان يقال: إذا اشتدّ المَضِيق، اتّسعَتْ الطريق، وكان يقال: توقّعوا الفَرَج عند ارتتاجِ المخرَج. وفي الأثر: تَضايَقِي تَنْفرجِي، سَيَجعل الله بعدَ العُسر يُسْراً. والفَرْجة بفتح الفاء: التفصّي من الهمّ. فأمّا الفُرْجة بالضّم، ففُرْجة الحائط وما أشبَهَه.



الأصْلُ :

وقال ﷺ لبعض أصحابه: لَا تَجْعَلَنَّ أَكْثَرَ شُغُلِكَ بِأَهْلِكَ وَوَلَدِكَ، فَإِنْ يَكُنْ أَهْلُكَ وَوَلَدُكَ أَوْلِيَاءَ ٱللهِ، فَإِنَّ ٱللهَ لَا يُضِيعُ أَوْلِيَاءَهُ، وَإِنْ يَكُونُوا أَعْدَاءَ ٱللهِ، فَمَا هَمُّكَ وَشُغْلُكَ بِأَعْدَاءِ ٱللهِ!

الشّرْحُ :

قد تقدّم القولُ نحوَ هذا المعنى، وهو أمر بالتّفْويض والتوكُّل على الله تعالى فيمن يَخلُفه الإنسانُ مِن وَلده وأهله، فإن الله تعالى أعلم بالمصلحة، وأرأف بالإنسان من أبيه وأُمِّه؛ ثم إن كان الوَلَد في عِلم الله تعالى وليّاً من أولياء الله سبحانه، فإنّ الله تعالى لا يضيّعه، قال سبحانه: ﴿**ومن يتوكّل على الله فهو حَسْبُه**﴾[1]. وكلُّ وليٍّ لله فهو متوكِّل عليه لا محالَة، وإن كان عدوّاً لله لم يَجُز الاهتمامُ له والاعتناء بأمره؛ لأنّ أعداءَ الله تجب مُقاطعتهم، ويَحرُم تولِّيهم، فعلى كلِّ حال لا ينبغي للإنسان أن يَحفِل بأهله وولدِه بعد موتِه. واعلم أن هذا كلامُ العارفين الصّدّيقين، لا كلامُ أهل هذه الطبقات التي نعرِفها، فإن هذه الطبقات تقصُر أقدامُهم عن الوصول إلى هذا المقام.

---

١. سورة الطلاق ٣.



الأصْلُ :

أَكْبَرُ ٱلْعَيْبِ أَنْ تَعِيبَ مَا فِيكَ مِثْلُهُ .

الشّرْحُ :

قد تقدَّم هذا المعنى مِراراً .

وقال الشاعر :

إذا أنت عِبْتَ الأمر ثم أتيتَه   فأنت ومَن تُزرِي عليه سَواءُ



الأصْلُ :

وهنأَ بحضرتهِ رجلٌ رجلاً آخر بغلام وُلِدَ له فقال لهُ : لِيَهْنِئْكَ ٱلْفَارِسُ ! فقال ﷺ : لَا تَقُلْ ذٰلِكَ ، وَلٰكِنْ قُلْ : شَكَرْتَ ٱلْوَاهِبَ ، وَبُورِكَ لَكَ فِي ٱلْمَوْهُوبِ ، وَبَلَغَ أَشُدَّهُ ، وَرُزِقْتَ بِرَّهُ[١] .

الشّرْحُ :

هذه كلمة كانت من شِعار الجاهلية ، فنُهِيَ عنها كما نُهِيَ عن تحيّة الجاهلية : (أبيتَ اللّعن) ، وجُعِل عِوَضَها (سلامٌ عليكم) .

---

١. بلغ أشدّه : صار رجلاً . ورزقت برّهُ : أي طاعته وحسن معاملته .



الأصْلُ :

وبنىٰ رجل من عماله بناءً فخماً ، فقالﷺ :
أَطْلَعَتِ ٱلْوَرِقُ رُؤُوسَهَا ! إِنَّ ٱلْبِنَاءَ يَصِفُ لَكَ ٱلْغِنَىٰ[1] .



الأصْلُ :

وقيل لهﷺ : لو سُدَّ على رجلٍ بَابُ بَيْتٍ ، وتُرِكَ فيه ، من أَين كـان يـأتيه رِزْقُـهُ ؟ فقالﷺ : مِنْ حَيْثُ يَأتِيهِ أَجَلُهُ .

الشّرْحُ :

ليس يعنيﷺ أنّ كلّ من يُسَدُّ عليه بابُ بيت ؛ فإنه لا بدّ أن يـرزقه الله تـعالى ، لأنّ العـيان والمُشاهَدة تقتضي خلاف ذلك ؛ وما رأيْنا من سُدّ عليه بابُ بيت مدّةً طويلة فعاش.

فإذاً معنى كلامهﷺ أنّ الله تعالى إذا علم فيمن يُجعل في دارٍ ويُسَدُّ عليه بابُها أنَّ في بقاءِ حياتِه لُطْفاً لبَعْض المكلّفين ، فإنه يجب على الله تعالى أن يُديم حياته ، كما يشاء سبحانه ؛ إمّا بغذاء يقيم به مادة حياته ، أو يديمُ حياتَه بغير سبب ، وهذا هو الوجْه الذي منه يأتيه أجَلُه أيضاً ؛ لأنّ إماتَةَ الله المكلَّف أمرٌ تابعٌ للمصلحة ، فإذا كان الموت تابعاً للمصلحة ، فقد أتى الإنسانَ رِزقه ـ يعني حياته ـ من حيث يأتيه أجله . وانتظَمَ الكلام.

---

١. فخماً : عظيماً ضخماً . الوَرِق : الفضة أو الدراهم . وأطلعت رؤوسها ، كناية عن الظـهور . وإن البـناء يـصف لك الغنىٰ : أي يدل عليه .



الأصْلُ :

وَعَزَّىٰ قوماً عن ميت مات لهم فقال ﷺ :

إِنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ لَيْسَ لَكُمْ بَدَأَ ، وَلاَ إِلَيْكُمُ ٱنْتَهَىٰ ، وَقَدْ كَانَ صَاحِبُكُمْ هٰذَا يُسَافِرُ ؟ فَقَالُوا : نَعَم ، قَالَ : فَعُدُّوهُ فِي بَعْضِ سَفَرَاتِهِ ، فَإِنْ قَدِمَ عَلَيْكُمْ وَإِلَّا قَدِمْتُمْ عَلَيْهِ[1] .



الأصْلُ :

أَيُّهَا النَّاسُ ، لِيَرَكُمُ ٱللهُ مِنَ النِّعْمَةِ وَجِلِينَ ، كَمَا يَرَاكُمْ مِنَ النِّقْمَةِ فَرِقِينَ ! إِنَّهُ مَنْ وُسِّعَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ ، فَلَمْ يَرَ ذٰلِكَ ٱسْتِدْرَاجاً ، فَقَدْ أَمِنَ مَخُوفاً ، وَمَنْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ ، فَلَمْ يَرَ ذٰلِكَ ٱخْتِبَاراً ، فَقَدْ ضَيَّعَ مَأْمُولاً[2] .

الشَّرْحُ :

قد تقدَّم القول في استدراج المترَف الغَنيّ ، واختبار الفقير الشّقيّ ، وأنه يجب على الإنسان وإن كان مشمولاً بالنّعمة أن يكون وَجِلاً ، كما يَجب عليه إذا كان فقيراً أن يكون شَكوراً صَبوراً .

---

١ . المراد بالأمر هنا : الموت . والمعنىٰ : ليس الموت بالشيء الغريب الجديد ، فقد كان قبلكم ، ويبقىٰ بعدكم ، فإن لم يعد هذا الميت فأنتم عليه قادمون لا محالة . في ظلال نهج البلاغة ٤ : ٤٢٣ .

٢ . وجلين : خائفين . فرقين : فزعين . المأمول : هنا الأجر والثواب .



الأصْلُ :

يَا أَسْرَىٰ الرَّغْبَةِ ، أَقْصِرُوا ، فَإِنَّ ٱلْمُعَرِّجَ عَلَىٰ الدُّنْيَا لَا يَرُوعُهُ مِنْهَا إِلَّا صَرِيفُ أَنْيَابِ ٱلْحِدْثَانِ. أَيُّهَا النَّاسُ ، تَوَلَّوا مِنْ أَنْفُسِكُمْ تَأْدِيبَهَا ، وَٱعْدِلُوا بِهَا عَنْ ضَرَاوَةِ عَادَاتِهَا[١] .

الشّرْحُ :

ضرَى يضرِي ضِرايةً مِثل رمى يرمي رِماية ، أيّ جرَى وسالَ ، ذكره ابنُ الأعرابيّ ، وعليه ينبغي أن يُحمَل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام ؛ أي اعدِلُوا بها عن عاداتها الجارية ، مِن باب إضافة الصّفة إلى الموصوف . وقوله : «يا أسرَى الرغبة» كلمةٌ فصيحةٌ . وكذلك قوله : «لا يَرُوعُه منها إلاّ صَرِيفُ أنْياب الحِدْثان» ، وذلك لأنّ الفهْدَ إذا وَثب والذِّئبَ إذا حَمل يَصرِف نابُه ، ويقولون لكلّ خَطْب وداهية جاءت ! تصرِفُ نابها . والصَّرِيف : صوتُ الأسنان إمّا عند رِعْدةٍ أو عند شِدَّة الغَضَب والحَنَق ، والحِرْص على الانْتقام ، أو نحو ذلك .

وقد تقدّم الكلامُ في الدّنيا والرغبةِ فيها ، وغَدْرِها وحوادِثها ، ووجوب العُدُول عنها ، وكسر عادِية عاداتِ السّوء المكتسبة فيها .



الأصْلُ :

لَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سَوءاً وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي ٱلْخَيْرِ مُحْتَمَلاً .

---

١. أسْرَىٰ : جمع أسير . والرّغبة : الطمع . أقصروا : كفّوا . المعرّج : المائل إليها ، أو المعوّل عليها . يروعه : يفزعه . الحدثان : المصائب والخطوب . الضّراية : اللهج بالشيء والولوع به .

الشّرْحُ :

قال الشاعر:

إذا ما أتتْ مـن صـاحِبٍ لك زَلّـةٌ فكـنْ أنت مُـحْتالاً لزَلّـته عُـذرَاً



الأصْلُ :

إذَا كَانَتْ لَكَ إلَىٰ آللهِ سُبْحَانَهُ حَاجَةٌ فَابْدَأْ بِمَسْأَلَةِ الصَّلَاةِ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ، ثُمَّ سَلْ حَاجَتَكَ؛ فَإنَّ آللهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حَاجَتَيْنِ، فَيَقْضِيَ إحْدَاهُمَا وَيَمْنَعَ آلْأُخْرَىٰ.

الشّرْحُ :

هذا الكلام على حَسَب الظّاهر الذي يَتعَارفُه الناس بينَهم، وهو ﷺ يسـلُك هـذا المسـلَك كثيراً، ويُخاطِب الناسَ على قَدْر عُقولهم، وأمّا باطنُ الأمر فإنّ الله تعالى لا يُـصلّي عـلى النبيّ ﷺ لأجل دُعائِنا إيّاه أن يصلّيَ عليه، لأنّ معنى قولنا: اللهمّ صلّ على مـحمد، أي أكرِمْه، وارفَعْ درجَتَه، والله سبحانه قد قضَى له بالإكرام التامّ ورِفعَةِ الدّرجة من دُون دعائِنا، وإنّما تَعبّدنا نحن بأن نُصَلّي عليه لأنّ لنا ثواباً في ذلك، لا لأنّ إكرامَ الله تعالى له أمرٌ يَستعقبُه ويستتِبُعه دعاؤنا[1]. وأيضاً فأيُّ غَضاضةٍ على الكريم إذا سُئِل حاجتَين فَقَضى إحداهـما

---

١. إن ابن أبي الحديد جعل صلاة المؤمنين علىٰ النبي ﷺ عبثاً وبلا فائدة، وحصر فائدتها بحصول الثواب لهم.

أقول: إن صلاته تعالىٰ عليه ﷺ انعطاف عليه بالرحمة انعطافاً مطلقاً، وصـلاة المـلائكة انـعطافاً عـليه بالتزكية والاستغفار، وهي من المؤمنين الدعاء بالرحمة (تفسير الميزان)، وصحيح ما ذكـره مـن الله سـبحانه قضىٰ للنبي ﷺ بالإكرام التام ورفعة الدرجة دون دعائنا. لكن فوق كل إكرام إكرامٌ وكل درجةٍ درجة. وصلاتنا سبب من أسباب الإكرام التام له. يقول الإمام زين العابدين ﷺ في دعائه: «فارفعه بسلامنا إلىٰ حيث قدّرت في سابق علمك أن تبلّغه إيّاه، وبصلاتنا عليه ...».

وصحيح كذلك أن صلاتنا عليه تتضمن الشكر له ﷺ لفضله علينا بالهداية، وكذلك لنزداد إثـرة لدىٰ الله

⟺

دونَ الأُخرى، إنْ كان عليه في ذلك غَضاضةٌ فعليه في رَدّ الحاجة الواحدة غَضاضةٌ أيضاً.



الأصْلُ:

مَنْ ضَنَّ بِعِرْضِهِ فَلْيَدَعِ ٱلْمِرَاءَ.

الشّرْحُ:

قد تقدَّم من القولِ في المِراء مافيه كفاية، وحدُّ المِراءِ الجِدالُ المتّصِل لا يُقصَد به الحقّ.

وكان يقال: ما ضَلّ قومٌ بعدَ إذْ هدَاهم اللهُ تعالى إلّا بالمراء والإصرارِ في الجِدال على نُصْرة الباطل.



الأصْلُ:

مِنَ ٱلْخُرْقِ ٱلْمُعَاجَلَةُ قَبْلَ الإمْكَانِ، وَٱلْأَنَاةُ بَعْدَ ٱلْفُرْصَةِ.

الشّرْحُ:

قد تقدّم القولُ في هذين المَعْنَيَيْن.

ومن كلامِ ابنِ المعتزّ: إهمالُ الفُرْصة حتّى تَفوتَ عجز، والعَجَلَة قبل التمكُّن خرْق.

⇐ عزوجل وكرامة عليه. والله تعالىٰ أمر المؤمنين بالصلاة عليه في كتابه الكريم، كما استفاضت الروايات من طرق الشيعة والسنة، أن طريق صلاة المؤمنين هي أنْ يسألوا الله أن يصلّي عليه وآله، والله أكرم من أن يسأل حاجتين، فيقضي إحداهما ويمنع الأُخرىٰ.

وقد جَعَل أميرُ المؤمنين عليه السلام كِلْتا الحالتين خُرْقاً؛ وهو صَحِيح؛ لأنّ الخُرْق الحُمقُ، وقلّة العقل، وكلتا الحالتين دليلٌ على الحُمق والنَّقْص.



الأصْلُ:

لَا تَسْأَلْ عَمَّا لَمْ يَكُنْ، فَفِي الَّذِي قَدْ كَانَ لَكَ شُغُلٌ.

الشّرْحُ:

من هذا الباب قولُ أبي الطَّيِّب في سَيْف الدولة:

لَيسَ المـدائـحُ تَستوفِي مَـناقِبَهُ ... فَمَنْ كُلَيبٌ وأهـلُ الأعْـصُر الأُوَلِ!

خُذْ ما تَـرَاه ودَعْ شـيئاً سـمعتَ بـه ... في طلعةِ البدرِ ما يُغنيكَ عن زُحَـلِ

[ديوانه ٣: ٨١]

[والمعنى: لا تتمنَّ من الأُمور بعيدها فكفاك من قريبها ما يشغلك].



الأصْلُ:

اَلْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ، وَالاعْتِبَارُ مُنْذِرٌ نَاصِحٌ، وَكَفَى أَدَباً لِنَفْسِكَ تَجَنُّبُكَ مَا كَرِهْتَهُ لِغَيْرِكَ[١].

---

١. الفكر: العقل السليم. الاعتبار: الاتعاظ بما يحصل من حوادث الدهر.

الشّرْحُ :

قد تقدّم القولُ في نحو هذا. وفي المَثَل: كَفَى بالاعتبار منذراً، وكفى بالشّيب زاجراً، وكفى بالموتِ واعِظاً، وقد سَبَق القولُ في وُجوب تَجنُّب الإنسانِ ما يَكرَهه من غيره.

وقال بعضُ الحكماء: إذا أحببتَ أخلاقَ امرئٍ فكُنْه، وإن أبغَضْتَها فلا تكُنْه.



الأصْلُ :

ٱلْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ، وَٱلْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَ وَإِلَّا ٱرْتَحَلَ عَنْهُ.

الشّرْحُ :

لا خيرَ في عِلمٍ بلا عَمَل، والعِلْم بغير العَمَل حُجَّةٌ على صاحبه، وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام يُشعِر بأنّه لا عالِمَ إلّا وهو عامِل، ومُرادُه بالعلم هاهنا العِرْفان؛ ولا رَيْبَ أن العارف لابدّ أن يكون عاملاً.

ثم استأنف فقال: العِلمُ يهتف بالعَمَل أي يُنادِيه، وهذه اللّفظة استعارة.

قال: فإن أجابَه وإلّا ارتحل، أي إن كان الإنسانُ عالماً بالأمور الدّينيّة ثمّ لم يَعمَل بها سَلَبه الله تعالى عِلْمَه، ولم يَمُتْ إلّا وهو معدود في زُمْرة الجاهلين، ويُمكِن أن يفسَّر على أنّه أراد بقوله: ارتَحَل ارتحلَتْ ثَمَرتُه ونتيجتُه، وهي الثّواب، فإنّ الله تعالى لا يُثِيب المكلَّف على عِلمِه بالشّرائع إذا لم يَعمَل بها، لأنّ إخلالَه بالعَمَل يُحبِط ما يستحِقّه مِن ثواب العِلم لو قَدّرنا أنّه استحَقّ على العِلم ثواباً، وأتى به على الشّرائط الّتي معها يستحقّ الثواب.



٣٧٣

الأصْلُ:

أَيُّهَا النَّاسُ، مَتَاعُ الدُّنْيَا حُطَامٌ مُوبِئٌ، فَتَجَنَّبُوا مَرْعَاهُ قُلْعَتُهَا أَحْظَىٰ مِنْ طُمَأْنِينَتِهَا، وَبُلْغَتُهَا أَزْكَىٰ مِنْ ثَرْوَتِهَا. حُكِمَ عَلَىٰ مُكْثِرِيها بِالْفَاقَةِ، وَأُعِينَ مَنْ غَنِيَ عَنْهَا بِالرَّاحَةِ، مَنْ رَاقَهُ زِبْرِجُهَا أَعْقَبَتْ نَاظِرَيْهِ كَمَهاً، وَمَنِ ٱسْتَشْعَرَ الشَّغَفَ بِهَا مَلأَتْ ضَمِيرَهُ أَشْجَاناً، لَهُنَّ رَقْصٌ عَلَىٰ سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ، هَمٌّ يَشْغَلُهُ، وَغَمٌّ يَحْزُنُهُ، كَذٰلِكَ حَتَّىٰ يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ فَيُلْقَىٰ بِالْفَضَاءِ، مُنْقَطِعاً أَبْهَرَاهُ، هَيِّناً عَلَىٰ ٱللهِ فَنَاؤُهُ، وَعَلَىٰ ٱلْإِخْوَانِ إِلْقَاؤُهُ.

وَإِنَّمَا يَنْظُرُ ٱلْمُؤْمِنُ إِلَىٰ الدُّنْيَا بِعَيْنِ ٱلاعْتِبَارِ، وَيَقْتَاتُ مِنْهَا بِبَطْنِ ٱلاضْطِرَارِ، وَيَسْمَعُ فِيهَا بِأُذُنِ ٱلْمَقْتِ وَٱلْإِبْغَاضِ، إِنْ قِيلَ أَثْرَىٰ قِيلَ أَكْدَىٰ! وَإِنْ فُرِحَ لَهُ بِالْبَقَاءِ حُزِنَ لَهُ بِالْفَنَاءِ! هٰذَا وَلَمْ يَأْتِهِمْ يَوْمٌ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ.

الشَّرْحُ:

مَتاعُ الدنيا: أموالها وقُنْيَاتُها. والحُطام: ما تكسَّر من الحشيش واليَبَس، وشَبَّه متاع الدنيا بذلك لحقَارته. ومُوبِئ: مُحدث للوباء، وهو المَرَض العامّ. ومَرْعاة: بقعةٌ تُرعى، كقولك: مَأسَدة، فيها الأسد، ومُحياة، فيها الحيّات. وقلْعتها بسكون اللام، خيرٌ من طمأنينتها، أي كون الإنسان فيها منزعجاً متهيّئاً. للرّحيل عنها خيرٌ له من أن يكون ساكناً إليها، مطمئناً بالمُقام فيها. والبُلْغة: ما يتبلَّغ به. والثّروة: اليسار والغِنَى، وإنما حُكِم علىٰ مُكثريها بالفاقة والفقْر؛ لأنّهم لا ينتهون إلىٰ حَدٍّ من الثروة والمال إلّا وجدّوا واجتهدوا، وحَرَصوا في طلب الزّيادة عليه، فهمْ في كلّ أحوالهم فقراءُ إلىٰ تحصيل المال، كما أنّ من لا مال له أصلاً يَجدّ ويجتهد في تحصيل المال، بل ربما كان جدُّهم وحِرْصُهم على ذلك أعظَم من كَدْح الفقير وحرصه، ورُوي: «وأُعين من غَنِيَ عنها»، ومن رواه: «أَغْنَى»، أي أغْنَى اللهُ، من غَنِي عنها وزَهِد فيها بالراحة وخلوّ البال وعدم الهمّ والغمّ. والزِّبْرِج: الزّينة، وراقه: أعجَبَه. والكَمَه:

العمى الشديد، وقيل: هو أن يولد أعمى. والأشْجان: الأحْزان. والرّقَصُ بفتح القاف: الاضطراب والغلَيَان والحرَكة. والكظَم بفتح الظاء: مجرى النَّفَس. والأبْهران: عِرْقان متّصلان بالقلب؛ ويقال للميّت: قد انقطَع أبهرَاه.

قوله: «وإنما ينظُر المؤمن»، إخْبارٌ في الصورة، وأمْرٌ في المعنى، أي لينظر المؤمن إلى الدنيا بعين الاعتبار، ولْيأكُل منها ببطن الاضطرار، أي قَدْر الضرورة، لا احتكار أو استكثار، ولْيَسْمع حديثَها بأُذُن المَقْت والبُغْض، أي ليتّخذها عدُوّاً قد صاحَبَه في طريق، فلْيأخذ حِذْرَه منه جُهْده وطاقته، ولْيَسْمَع كلامه وحديثه لا استماع مُصْغ ومحِبّ وامِق، بل استماع مُبغِض محترز مِن غائلتِهِ. ثم عاد إلى وصفِ الدنيا وطالبها فقال: إنْ قيل أثْرَى قيل: أكْدَى، وفاعِلُ «أثْرَى» هو الضّمير العائد إلى مَن استشعر الشَّغَف بها. يقول: بينا يقال: أثرَى، قيل: افتقر، لأنّ هذه صِفة الدنيا في تقلبها بأهلها، وإن فرح له بالحياة ودوامِها، قيل: مات وعَدِم، هذا ولم يأتهم يومَ القيامة يومٌ هم فيه مُبْلِسون، أبلس الرجلُ يُبلِسُ إبْلاساً أي قَنِط ويئس، واللّفظ من لَفظات الكتاب العزيز.



الأصْلُ:

إنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ وَضَعَ الثَّوَابَ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، وَٱلْعِقَابَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ، ذِيَادَةً لِعِبَادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ، وَحِيَاشَةً لَهُمْ إلَىٰ جَنَّتِهِ.

الشّرْحُ:

ذِيادة، أي دَفْعاً ذُدْتُه عن كذا، أي دَفعته ورددته. وحياشةً مصدر حُشْتُ الصّيد بضم الحاء، أَحوشُه، إذا جئته من حواليه لتَصرِفه إلى الحِبالة، وكذلك أحشْتُ الصيد وأحْوَشْتُه، وقد احتوش القومُ الصيد إذا نفّره بعضهم إلى بعض.

وهذا هو مذهب أصحابنا، إن الله تعالى لما كلّف العباد التكاليف الشاقّة، وقد كان يمكنه

أن يجعلها غير شاقّة عليهم بأن يزيد في قَدْرهم، وجب أن يكون في مقابلة تلك التكاليف ثواب؛ لأنّ إلزام المشاق كإنزال المَشاقّ. فكما يتضمن ذلك عوض، وجب أن يتضمّن هذا ثواباً، ولابد أن يكون في مقابلة فعل القبيح عِقاب، وإلّا كان سبحانه ممكّنا الإنسان من القبيح، مغرياً له بفعله، إذ الطبع البشري يهوى العاجل، ولا يَحفِل بالذمّ، ولا يكون القبيح قبيحاً حينئذٍ في العقل، فلابدّ من العقاب ليقع الانزجار.



الأصْلُ:

يَأْتِي عَلَىٰ النَّاس زَمَانٌ لَا يَبْقَىٰ فِيهِمْ مِنَ ٱلْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ، وَمِنَ ٱلْإِسْلَامِ إِلَّا ٱسْمُهُ، وَمَسَاجِدُهُمْ يَوْمَئِذٍ عَامِرَةٌ مِنَ ٱلْبِنَاءِ، خَرَابٌ مِنَ ٱلْهُدَىٰ، سُكَّانُهَا وَعُمَّارُهَا شَرُّ أَهْلِ ٱلْأَرْض، مِنْهُمْ تَخْرُجُ ٱلْفِتْنَةُ، وَإِلَيْهِمْ تَأْوِي ٱلْخَطِيئَةُ؛ يَرُدُّونَ مَنْ شَذَّ عَنْهَا فِيهَا، وَيَسُوقُونَ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا إِلَيْهَا. يَقُولُ ٱللهُ سُبْحَانَهُ: فَبِي حَلَفْتُ لَأَبْعَثَنَّ عَلَىٰ أُولٰئِكَ فِتْنَةً أترُكُ ٱلْحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانَ. وَقَدْ فَعَلَ، وَنَحْنُ نَسْتَقِيلُ ٱللهَ عَثْرَةَ ٱلْغَفْلَةِ.

الشّرْحُ:

هذه صفةُ حالِ أهلِ الضّلال والفِسق والرِّياء من هذه الأُمّة، ألا تراه يقول: سُكّانها وعُمّارها، يعني سكّان المساجد، وعمّار المساجد شرّ أهل الأرض؛ لأنهم أهل ضلالة كمن يَسكن المساجد الآن ممّن يعتقد التجسم والتشبيه والصّورة والنّزول والصعود والأعضاء والجوارح، ومن يقول بالقَدَر يُضِيف فعل الكُفْر والجهل والقبيح إلى الله تعالى. فكل هؤلاء أهل فتنة، يردُّون من خرج منها إليها، ويسوقون من لم يدخل فيها إليها أيضاً.

ثم قال حاكياً عن الله تعالى: إنه حلف بنفسه ليبعثنّ على أولئك فتنةً، يعني استئصالاً وسيفاً حاصداً يترك الحليمَ أي العاقل اللّبيب فيها حيران لا يعلم كيف وجهُ خَلاصه.

ثم قال عليه السلام: وقد فعل. وينبغي أن يكون قد قال هذا الكلام في أيام خلافته، لأنّها كانت

أيام السيف المسلط على أهل الضلال من المسلمين، وكذلك ما بعثه الله تعالى على بني أُميّة وأتباعهم من سيوف بني هاشم بعد انتقالهﷺ.



الأصْلُ:

ورُوي أنّهﷺ قَلَّما اعتَدلَ به المنبرُ إلّا قال أمامَ خطبتِهِ:

أَيُّهَا النَّاسُ، ٱتَّقُوا ٱللهَ، فَمَا خُلِقَ ٱمْرُؤٌ عَبَثاً فَيَلْهُوَ، وَلَا تُرِكَ سُدىً فَيَلْغُوَ وَمَا دُنْيَاهُ الَّتِي تَحَسَّنَتْ لَهُ بِخَلَفٍ مِنَ ٱلآخِرَةِ الَّتِي قَبَّحَها سُوءُ النَّظَرِ عِنْدَهُ، وَمَا ٱلْمَغْرُورُ الَّذِي ظَفِرَ مِنَ الدُّنْيَا بأَعْلَىٰ هِمَّتِهِ كَالْآخَرِ الَّذِي ظَفِرَ مِنَ ٱلْآخِرَةِ بِأَدْنَىٰ سُهْمَتِهِ[١].

الشّرْحُ:

قال تعالى: ﴿أفَحَسِبْتُمْ أنّما خَلَقْناكُم عَبثاً وأنّكم إلينا لا تُرجَعون﴾[٢].

ومن الكلمات النبويّة: إنّ المرء لم يُترَك سُدىً، ولم يُخلق عَبَثاً.

وقال أمير المؤمنينﷺ: إنّ مَن ظَفِر من الدنيا بأعلى وأعظم أمنيّة ليس كآخَرَ ظَفِر من الآخرة بأدْوَن درجات أهلِ الثواب، لا مناسبة ولا قياسَ بين نعيم الدنيا والآخرة.

وفي قولهﷺ: «الّتي قبحها سوء المنظَر عندَه» تصريحٌ بمذهب أصحابنا أهلِ العدل رحمهم الله، وهو أنّ الإنسان هو الذي أضلّ نفسَه لسوء نظرِه، ولو كان الله تعالى هو الذي أضلّه لما قال: قبّحها سوء النظر عنده.

---

١. لها: تلهىٰ بلذاته، واللهو: اللعب. اللغو: ما لا فائدة فيه. خَلَفٌ: ما يخلف الشيء ويأتي بعده. ظفر: فاز. السُّهمة ـ بالضم ـ: النصيب. وأدنىٰ حظّ الآخرة أفضل من أعلاه في الدنيا.

٢. سورة المؤمنين ١١٥.



الأصْلُ :

لَا شَرَفَ أَعْلَىٰ مِنَ ٱلْإِسْلَامِ ، وَلَا عِزَّ أَعَزُّ مِنَ التَّقْوَىٰ ، وَلَا مَعْقِلَ أَحْسَنُ مِنَ ٱلْوَرَعِ ، وَلَا شَفِيعَ أَنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ ، وَلَا كَنْزَ أَغْنَىٰ مِنَ ٱلْقَنَاعَةِ ، وَلَا مَالَ أَذْهَبُ لِلْفَاقَةِ مِنَ الرِّضَىٰ بِالْقُوتِ . وَمَنِ ٱقْتَصَرَ عَلَىٰ بُلْغَةِ ٱلْكَفَافِ فَقَدِ ٱنْتَظَمَ الرَّاحَةَ ، وَتَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ . وَالرَّغْبَةُ مِفْتَاحُ النَّصَبِ ، وَمَطِيَّةُ التَّعَبِ ، وَٱلْحِرْصُ وَٱلْكِبْرُ وَٱلْحَسَدُ دَوَاعٍ إِلَىٰ التَّقَحُّمِ فِي الذُّنُوبِ ، وَالشَّرُّ جَامِعٌ لِمَسَاوِي ٱلْعُيُوبِ[١] .

الشَّرْحُ :

كلّ هذه المعاني قد سبق القولُ فيها مراراً شتّى ؛ نأتي كلّ مرّة بما لم نأت به فيما تقدّم ، وإنّما يكرّرها أميرُ المؤمنين عليه السلام لإقامة الحجّة على المكلّفين ، كما يكرّر اللهُ سبحانه في القرآن المواعظَ والزواجر .



الأصْلُ :

وقال عليه السلام : لجابر بن عبد الله الأنصاريّ :

يَا جَابِرُ ، قِوَامُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِأَرْبَعَةٍ : عَالِمٍ يَسْتَعْمِلُ عِلْمَهُ ، وَجَاهِلٍ لَا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَتَعَلَّمَ ، وَجَوَادٍ لَا يَبْخَلُ بِمَعْرُوفِهِ ، وَفَقِيرٍ لَا يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ ؛ فَإِذَا ضَيَّعَ ٱلْعَالِمُ عِلْمَهُ ٱسْتَنْكَفَ ٱلْجَاهِلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ ، وَإِذَا بَخِلَ ٱلْغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ ٱلْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ .

---

١. المعقل : الملجأ . الفاقة : الحاجة . البلغة : ما يتبلّغ به الإنسان ، أي يكفيه الكفاف قدر الحاجة . انتظم الراحة : ظفر بالراحة . الخفض : السعة . الرغبة : الطمع . النصب : التعب . التقحم : الدخول بقوة .

يَا جَابِرُ، مَنْ كَثُرَتْ نِعَمةُ آللهِ عَلَيْهِ، كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاس إلَيْهِ، فَمَنْ قَامَ بِمَا يَجِبُ لله فِيهَا عَرَّضَ نِعمَةَ اللهِ لِدَوَامِهَا، وَمَنْ ضَيَّعَ مَا يَجِبُ لِلهِ فِيها عَرَّضَ نِعْمَتَهُ لِزَوَالِها.

الشّرْحُ:

قد تقدّم القولُ في هذه المعاني. والحاصل أنّه رَبط اثنتين من أربعة إحداهما بالأخرى، وكذلك جعل في الاثنتين الآخرتين، فقال: إنّ قوام الدِّين والدنيا بأربعة: عالم يستعمل علمَه، يعني يَعمَل ولا يقتصِر على أن يعلم فقط ولا يَعمَل، وجاهل لا يستنكِف أن يتَعلّم، وأضرُّ ما على الجهلاء الاستنكاف من التعلّم؛ فإنهم يستمرّون على الجهالة إلى الموت، والثالث جَواد لا يَبخل بالمعروف، والرابع فقير لا يبيع آخرته بدنياه، أي لا يَسرق، ولا يَقطع الطّريق، أو يكتسب الرزق من حيث لا يحبّه الله، كالقِمار، والمواخير، والمزاجر، والمآصر، ونحوها.

ثم قال: فالثانية مرتبطة بالأولى إذا لم يستعمل العالم علمَه استنكف الجاهلُ من التّعلم، وذلك لأنّ الجاهل إذا رأىٰ العالم يعصي ويجاهِر الله بالفسق زهِد في التعلّم؛ وقال: لماذا تعلُّمُ العلم إذا كانتْ ثمرته الفسق والمعصية.

ثم قال: والرابعة مرتبطة بالثالثة، إذا بخل الغَنيّ بمعروفه، باع الفقيرُ آخرته بدنياه، وذلك لأنّه إذا عدم الفقير المواساة مع حاجته إلى القُوت دعتْه الضّرورة إلى الدخول في الحرام، والاكتساب من حيث لا يحسنُ، ويَنبغي أن يكون عوض لفظة جواد لفظة غنيّ ليطابق أوّل الكلام آخره، إلّا أنّ الرواية هكذا وردتْ، وجواد لا يبخل بمعروفِه، وفي ضمير اللّفظ كون ذلك الجواد غنيّاً لأنّه قد جعل له معروفاً والمعروف لا يكون إلّا عن ظهر غِنىً؛ وباقي الفصل قد سبق شرحُ أمثاله.



الأصْلُ:

وروى ابن جرير الطبري في تاريخه، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى الفقيه - وكان ممن خرج لقتال الحجاج مع ابن الأشعث - أنه قال فيما كان يحضّ به الناس على الجهاد: إني سمعت علياً رفع الله درجته في الصالحين، وأثابه ثواب الشهداء وَالصدّيقين، يقول يوم لقينا أهل الشام:



الأصْلُ :

لَا شَرَفَ أَعْلَىٰ مِنَ ٱلْإِسْلَامِ، وَلَا عِزَّ أَعَزُّ مِنَ التَّقْوَىٰ، وَلَا مَعْقِلَ أَحْسَنُ مِنَ ٱلْوَرَعِ، وَلَا شَفِيعَ أَنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَا كَنْزَ أَغْنَىٰ مِنَ ٱلْقَنَاعَةِ، وَلَا مَالَ أَذْهَبُ لِلْفَاقَةِ مِنَ الرِّضَىٰ بِالْقُوتِ. وَمَنِ ٱقْتَصَرَ عَلَىٰ بُلْغَةِ ٱلْكَفَافِ فَقَدِ ٱنْتَظَمَ الرَّاحَةَ، وَتَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ. وَالرَّغْبَةُ مِفْتَاحُ النَّصَبِ، وَمَطِيَّةُ التَّعَبِ، وَٱلْحِرْصُ وَٱلْكِبْرُ وَٱلْحَسَدُ دَوَاعٍ إِلَىٰ التَّقَحُّمِ فِي الذُّنُوبِ، وَالشَّرُّ جَامِعٌ لِمَسَاوِي ٱلْعُيُوبِ(١).

الشّرْحُ :

كلّ هذه المعاني قد سبق القولُ فيها مراراً شتّى؛ نأتي كلّ مرّة بما لم نأت به فيما تقدّم، وإنّما يكرّرها أميرُ المؤمنين عليه السلام لإقامة الحجّة على المكلّفين، كما يكرّر اللهُ سبحانه في القرآن المواعظَ والزواجر.



الأصْلُ :

وقال عليه السلام: لجابر بن عبد الله الأَنصاريّ:

يَا جَابِرُ، قِوَامُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِأَرْبَعَةٍ: عَالِمٍ يَسْتَعْمِلُ عِلْمَهُ، وَجَاهِلٍ لَا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَجَوَادٍ لَا يَبْخَلُ بِمَعْرُوفِهِ، وَفَقِيرٍ لَا يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ؛ فَإِذَا ضَيَّعَ ٱلْعَالِمُ عِلْمَهُ ٱسْتَنْكَفَ ٱلْجَاهِلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَإِذا بَخِلَ ٱلْغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ ٱلْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ.

---

١. المعقل: الملجأ. الفاقة: الحاجة. البلغة: ما يتبلّغ به الإنسان، أي يكفيه الكفاف قدر الحاجة. انتظم الراحة: ظفر بالراحة. الخفض: السعة. الرغبة: الطمع. النصب: التعب. التقحم: الدخول بقوة.

يَا جَابِرُ، مَنْ كَثُرَتْ نِعَمةُ آللهِ عَلَيْهِ، كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاس إِلَيْهِ، فَمَنْ قَامَ بِمَا يَجِبُ لله فِيهَا عَرَّضَ نِعمَةَ اللهِ لِدَوَامِهَا، وَمَنْ ضَيَّعَ مَا يَجِبُ لِلهِ فِيها عَرَّضَ نِعْمَتَهُ لِزَوَالِها.

الشّرْحُ:

قد تقدّم القولُ في هذه المعاني. والحاصل أنّه رَبط اثنتين من أربعة إحداهما بالأخرى، وكذلك جعل في الاثنتين الآخرتين، فقال: إنّ قوام الدِّين والدنيا بأربعة: عالم يستعمل علمَه، يعني يَعمَل ولا يقتصِر على أن يعلم فقط ولا يَعمَل، وجاهل لا يستنكِف أن يتعلّم، وأضرُّ ما على الجهلاء الاستنكاف من التعلّم؛ فإنهم يستمرّون على الجهالة إلى الموت، والثالث جَواد لا يَبخل بالمعروف، والرابع فقير لا يبيع آخرته بدنياه، أي لا يَسرق، ولا يقطع الطّريق، أو يكتسب الرزق من حيث لا يحبّه الله، كالقِمار، والمواخير، والمزاجر، والمآصر، ونحوها.

ثم قال: فالثانية مرتبطة بالأولى إذا لم يستعمل العالم علمَه استنكف الجاهلُ من التّعلم، وذلك لأنّ الجاهل إذا رأىٰ العالم يعصي ويجاهِر الله بالفسق زهِد في التعلّم؛ وقال: لماذا تعلُّمُ العلم إذا كانتْ ثمرته الفسق والمعصية.

ثم قال: والرابعة مرتبطة بالثالثة، إذا بخل الغَنيّ بمعروفه، باع الفقيرُ آخرته بدنياه، وذلك لأنّه إذا عدم الفقير المواساة مع حاجته إلى القُوت دعتْه الضّرورة إلى الدخول في الحرام، والاكتساب من حيث لا يحسنُ، ويَنبغي أن يكون عوض لفظة جواد لفظة غنيّ ليطابق أوّل الكلام آخره، إلّا أنّ الرواية هكذا وردتْ، وجواد لا يبخل بمعروفِه، وفي ضمير اللّفظ كون ذلك الجواد غنيّاً لأنّه قد جعل له معروفاً والمعروف لا يكون إلّا عن ظهر غِنيٍّ؛ وباقي الفصل قد سبق شرحُ أمثاله.



الأصْلُ:

وروى ابن جرير الطبري في تاريخه، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى الفقيه – وكان ممن خرج لقتال الحجاج مع ابن الأشعث – أنه قال فيما كان يحضّ به الناس على الجهاد: إني سمعت علياً رفع الله درجته في الصالحين، وأثابه ثواب الشهداء وَالصدّيقين، يقول يوم لقينا أهل الشام:

أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ، إِنَّهُ مَنْ رَأَى عُدْوَاناً يُعْمَلُ بِهِ، وَمُنْكَراً يُدْعَىٰ إِلَيْهِ، فَأَنْكَرَهُ بِقَلْبِهِ فَقَدْ سَلِمَ وَبَرِئَ؛ وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِلِسَانِهِ فَقَدْ أُجِرَ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِهِ؛ وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِالسَّيْفِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ ٱللهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَكَلِمَةُ الظَّالِمِينَ هِيَ السُّفْلَىٰ، فَذٰلِكَ الَّذِي أَصَابَ سَبِيلَ ٱلْهُدَىٰ، وَقَامَ عَلَىٰ الطَّرِيقِ، وَنُوِّرَ فِي قَلْبِهِ ٱلْيَقِينُ[١].

الشّرْحُ:

وقد ذكرْنا فيما تقدّم، وسنذكر فيما بعدُ من هذا المعنى ما يجب. وكان النهيُ عن المنكَر معروفاً في العرب في جاهليّتها؛ كان في قريش حِلْف الفُضول. تحالفتْ قبائلُ منها على أن يَردَعُوا الظالم، ويَنصُروا المظلوم، ويردّوا عليه حقَّه ما بلَّ بحرٌ صوفة، وقد ذكرنا فيما تقدّم.



الأَصْلُ:

وقال عليه السلام في كلام آخر له يجري هذا المجرى:

فَمِنْهُمُ ٱلْمُنْكِرُ لِلْمُنْكَرِ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ، فَذٰلِكَ ٱلْمُسْتَكْمِلُ لِخِصَالِ ٱلْخَيْرِ؛ وَمِنْهُمُ ٱلْمُنْكِرُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ، فَذٰلِكَ مُتَمَسِّكٌ بِخَصْلَتَيْنِ مِنْ خِصَالِ ٱلْخَيْرِ، وَمُضَيِّعٌ خَصْلَةً؛ وَمِنْهُمُ ٱلْمُنْكِرُ بِقَلْبِهِ، وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ، فَذٰلِكَ الَّذِي ضَيَّعَ أَشْرَفَ ٱلْخَصْلَتَيْنِ مِنَ الثَّلَاثِ، وَتَمَسَّكَ بِوَاحِدَةٍ؛ وَمِنْهُمْ تَارِكٌ لِإِنْكَارِ ٱلْمُنْكَرِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَيَدِهِ، فَذٰلِكَ مَيِّتُ ٱلْأَحْيَاءِ؛ وَمَا أَعْمَالُ ٱلْبِرِّ كُلُّهَا وَٱلْجِهَادُ فِي سَبِيلِ ٱللهِ عِنْدَ ٱلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ إِلَّا كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ، وَإِنَّ ٱلْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ

---

١. العدوان: الظلم. أنكر المنكر: عابه ونهىٰ عنه. برئ، أي برئ من الإثم وسلم من العقاب إن كان عاجزاً. أُجِر: أُثيب. أصاب: أدرك.

عَنِ ٱلْمُنْكَرِ لَا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ إمَامٍ جَائِرٍ.

الشّرْحُ:

قد سبق قولُنا في الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر، وهو أحد الأُصول الخمسة عند أصحابنا. ولجّة الماء: أعظَمُه. وبحرٌ لُجِّيّ: ذو ماء عظيم. والنَّفْثَة: الفَعلة الواحدة، من نَفَثْت الماء من فمي، أي قذَفته بِقوّة.

قال عليه السلام: لا يعتقدنّ أحدٌ أنّه إنْ أمرَ ظالماً بمعروف، أو نهى ظالماً عن منكَر، أنّ ذلك يكون سبباً لقتل ذلك الظالم المأمور أو المنهيّ إيّاه، أو يكون سبباً لقطع رزقه من جهته، فإنّ الله تعالى قدّر الأجل، وقضى الرّزق، ولا سبيلَ لأحد أن يَقطَع على أحد عمرَه أو رزقَه.

وهذا الكلام ينبغي أن يُحمَل على أنّه حثّ وحضّ وتحريض على النّهي عن المنكر والأمر بالمعروف، ولا يُحمَل على ظاهرِه؛ لأنّ الإنسان لا يجوز أن يُلْقِيَ بنفسِه إلى التَّهلُكة، معتمِداً علىٰ أنّ الأجل مقدَّر، وأن الرّزق مقسوم، وأنّ الإنسان مَتى غلب على ظَنّه أنّ الظالم يقتله ويقيم على ذلك المنكر، ويضيف إليه منكراً آخَر لم يَجُزْ له الإنكار.

فأمّا كلمة العدل عند الإمام الجائر فنحو ما رُوِيَ أنّ زيدَ بن أرقَم رأى عبيد الله بن زياد ـ ويقال: بل يزيد بن معاوية ـ يَضرِب بقضيبٍ في يده ثَنايَا الحُسين عليه السلام حيث حمِل إليه رأسُه، فقال له: إيهاً! ارْفَع يدَك؛ فطالَما رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقبّلها!

فأمّا قولُه عليه السلام: «ومنهم المنكِر بلسانِه وقلبِه، والتارِكُ بيَدِه، فذلك متمسِّك بخصْلتين من خصال الخير، ومضيّع خَصْلة»، فإنّه يَعنِي به من يَعجِز عن الإنكار باليد لمانع، لأنّه لم يُخرِج هذا الكلامَ مخرج الذمّ، ولو كان لم يَعنِ العاجز لَوَجبَ أن يخرج الكلام مَخرَج الذمّ، لأنّه ليس بمعذور في أن يُنكِر بقلبه ولسانه إذا أخلّ بالإنكار باليد مع القدرة على ذلك، وارتفاع الموانع. وأمّا قوله: «ضيّع أشرف الخصلتين» فاللّام زائدة، وأصلُه «ضيّع أشرَفَ خَصْلتين من الثّلاث»، لأنّه لا وجهَ لتعريف المعهود هاهنا في الخَصْلتين، بل تعريف الثّلاث باللّام أولَى؛ ويجوزَ حذفُها من الثّلاث، ولكن إثباتَها أحسَن، كما تقول: قلتُ أشرفَ رجلين من الرّجال الثلاثة. وأمّا قوله: «فذلك ميّت الأحياء»، فهو نهاية ما يكون من الذمّ.



الأَصْلُ :

وروى أبو جُحَيْفَةَ قال: سَمعتُ أَميرَ المؤْمنينَ ﷺ يقولُ:
أَوَّلُ مَا تُغْلَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْجِهَادِ ٱلْجِهَادُ بِأَيْدِيكُمْ، ثُمَّ بِأَلْسِنَتِكُمْ، ثُمَّ بِقُلُوبِكُمْ؛ فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ بِقَلْبِهِ مَعْرُوفاً وَلَمْ يُنْكِرْ مُنْكَراً، قُلِبَ فَجُعِلَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ، وَأَسْفَلُهُ أَعْلَاهُ.

الشَّرْحُ :.

إنّما قال ذلك لأنّ الإنكار بالقَلْب آخِرُ المراتب؛ وهو الّذي لابدّ منه على كلّ حـال، فأمّـا الإنكار باللّسان وباليد فقد يكون منهما بُدٌّ، وعنهما عُذْر، فمن تَرَك النهيَ عن المنكَر بقلبه، والأمرَ بالمعروف بقلبه، فقد سَخِط اللهُ عليه لعصيانه، فصار كـالممسوخ الّـذي يَـجعَل الله تعالى أعلاه أسفَله، وأسفَله أعلاه تشويهاً لِخلقته.



الأَصْلُ :

إِنَّ ٱلْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ، وَإِنَّ ٱلْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ[1].

الشَّرْحُ :

تقول: مرُؤَ الطّعام بالضّم، يَمرُؤ مَراءة فهو مَرِيءٌ على «فَعِيل» مثل خفيف وثقيل، وقد جاء مَرِيء الطّعام بالكَسر، كما قالوا فَقِه الرجُل وفَقُه. ووَبئ البلد بالكسر يَوْبَأ وبَاءَة فهو وَبيءٌ على «فعيل» أيضاً، ويجوز فهو وَبِئٌ على «فَعِل» مثل حَذِر وأشِر.

---

١. مَرؤَ الطعام: أي صار هنيئاً حميد العاقبة. الوبيء: الوخيم العاقبة.

يقول عليه السلام : الحقّ وإن كان ثقيلاً إلّا أن عاقبته محمودة ، ومَغَبّته صالحة ، والباطلُ وإن كان خفيفاً إلّا أنّ عاقبته مذمومة ، ومَغَبّته غير صالحة ، فلا يحملنّ أحدَكم حلاوةُ عاجلِ الباطل علىٰ فعله ، فلا خَير في لذّة قليلة عاجلة ، يتعقّبها مضارٌ عظيمةٌ آجلة ، ولا يَصرِفنّ أحدَكم عن الحق ثِقلُه فإنّه سيَحمَد عُقبَى ذلك ، كما يَحمَد شاربُ الدّواء المُرّ شُرْبه فيما بعدُ إذا وَجَد لذّةَ العافية .



الأَصْلُ :

لَا تَأْمَنَنَّ عَلَىٰ خَيْرِ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ عَذَابَ ٱللهِ ، لِقَوْلِهِ سبحانه وتَعَالَىٰ : ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ وَلَا تَيْأَسَنَّ لِشَرِّ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ تَعَالَىٰ ، ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾[1] .

الشّرْحُ :

هذا كلامٌ ينبغي أن يُحمَل علىٰ أنّه أراد عليه السلام النّهيَ عن القطع علىٰ مغيب أحدٍ من النّاس ، وأنّه لا يجوز لأحد أن يقول : فلان قد نجا ، ووجبتْ له الجنّة ، ولا فلان قد هَلَك ووجبتْ له النار ، وهذا القول حقّ ، لأنّ الأعمال الصالحة لا يُحكَم لصاحبها بالجنّة إلّا بسلامة العاقبة ، وكذلك الأعمال السيّئة لا يُحكَم لصاحبها بالنّار إلّا إنْ مات عليها .



الأَصْلُ :

ٱلْبُخْلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِئِ ٱلْعُيُوبِ ، وَهُوَ زِمَامٌ يُقَادُ بِهِ إِلَىٰ كُلِّ سُوءٍ .

---

١ . سورة يوسف ٨٧.



الأَصْلُ :

وروى أبو جُحَيْفَةَ قال: سَمعتُ أَميرَ المؤْمنينَ ﷺ يقولُ:

أَوَّلُ مَا تُغْلَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْجِهَادِ ٱلْجِهَادُ بِأَيْدِيكُمْ، ثُمَّ بِأَلْسِنَتِكُمْ، ثُمَّ بِقُلُوبِكُمْ؛ فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ بِقَلْبِهِ مَعْرُوفاً وَلَمْ يُنْكِرْ مُنْكَراً، قُلِبَ فَجُعِلَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ، وَأَسْفَلُهُ أَعْلَاهُ.

الشَّرْحُ :.

إنّما قال ذلك لأنّ الإنكار بالقَلْب آخِرُ المراتب؛ وهو الّذي لابدّ منه على كلّ حال. فأمّا الإنكار باللّسان وباليد فقد يكون منهما بُدٌّ، وعنهما عُذْر. فمن تَرَك النهيَ عن المنكَر بقلبه، والأمرَ بالمعروف بقلبه، فقد سَخِط اللهُ عليه لعصيانه، فصار كالممسوخ الّذي يَجعَل الله تعالى أعلاه أسفَله، وأسفَله أعلاه تشويهاً لِخلقته.



الأَصْلُ :

إِنَّ ٱلْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ، وَإِنَّ ٱلْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ[1].

الشَّرْحُ :

تقول: مرُؤَ الطّعام بالضّم، يَمرُؤ مَراءة فهو مَرِيءٌ على «فَعِيل» مثل خفيف وثقيل، وقد جاء مَرِيء الطّعام بالكَسر، كما قالوا فَقِه الرجُل وفقُه. ووَبئ البلد بالكسر يَوْبَأ ووَبَاءَة فهو وَبيءٌ على «فعيل» أيضاً، ويجوز فهو وَبِئٌ على «فَعِل» مثل حَذِر وأَشِر.

١. مَرؤَ الطعام: أي صار هنيئاً حميد العاقبة. الوبيء: الوخيم العاقبة.

يقول ﷺ: الحقّ وإن كان ثقيلاً إلّا أن عاقبته محمودة، ومَغَبّته صالحة، والباطلُ وإن كان خفيفاً إلّا أنّ عاقبته مذمومة، ومَغَبّته غير صالحة، فلا يحملنّ أحدَكم حلاوةُ عاجلِ الباطل علىٰ فعله، فلا خَير في لذّة قليلة عاجلة، يتعقّبها مضارٌّ عظيمةٌ آجلة، ولا يَصرِفنّ أحدَكم عن الحق ثِقلُه فإنّه سيَحمَد عُقبَى ذلك، كما يَحمَد شاربُ الدّواء المُرّ شُرْبه فيما بعدُ إذا وَجَد لذّةَ العافية.



الأصْلُ:

لَا تَأْمَنَنَّ عَلَىٰ خَيْرِ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ عَذَابَ ٱللهِ، لِقَوْلِهِ سبحانه وتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ وَلَا تَيْأَسَنَّ لِشَرِّ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ تَعَالَىٰ، ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾[1].

الشّرْحُ:

هذا كلامٌ ينبغي أن يُحمَل علىٰ أنّه أرادﷺ النّهيَ عن القطع علىٰ مغيب أحدٍ من النّاس، وأنّه لا يجوز لأحد أن يقول: فلان قد نجا، ووجبتْ له الجنّة، ولا فلان قد هَلَك ووجبتْ له النار، وهذا القول حقّ، لأنّ الأعمال الصالحة لا يُحكَم لصاحبها بالجنّة إلّا بسلامة العاقبة، وكذلك الأعمال السيّئة لا يُحكَم لصاحبها بالنّار إلّا إنْ مات عليها.



الأصْلُ:

ٱلْبُخْلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِئِ ٱلْعُيُوبِ، وَهُوَ زِمَامٌ يُقَادُ بِهِ إِلَىٰ كُلِّ سُوءٍ.

---

١. سورة يوسف ٨٧.

الشّرْحُ :

قد تقدّم القول في البخل والشّحّ. ونحن نذكر هاهنا زيادات أُخرىٰ. قالﷺ : « لا يجتمع شحّ وإيمانٌ في قلب أبداً » ، فأمّا الجود فإنّه محمود علىٰ جميع ألسنة العالم، ولهذا قيل : كفى بالجود مدحاً أنّ اسمَه مطلَقاً لا يقع إلّا في حَمْد، وكَفَى بالبخل ذمّاً أن اسمه مطلقاً لا يقع [إلّا] في ذم.



الأصْلُ :

يَابْنَ آدَم، الرِّزْقُ رِزْقَانِ : رِزْقٌ تَطْلُبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ. فَلَا تَحْمِلْ هَمَّ سَنَتِكَ عَلَىٰ هَمِّ يَوْمِكَ، كَفَاكَ كُلُّ يَوْمٍ مَا فِيهِ؛ فَإِنْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ فَإِنَّ آللهَ تَعَالَىٰ سَيُؤْتِيكَ فِي كُلِّ غَدٍ جَدِيدٍ مَا قَسَمَ لَكَ، وَإِنْ لَمْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ فَمَا تَصْنَعُ بِالْهَمِّ فِيما لَيْسَ لَكَ؟ وَلَنْ يَسْبِقَكَ إِلَىٰ رِزْقِكَ طَالِبٌ، وَلَنْ يَغْلِبَكَ عَلَيْهِ غَالِبٌ، وَلَنْ يُبْطِئَ عَنْكَ مَا قَدْ قُدِّرَ لَكَ.

قال [الرضيّ] : وقدْ مَضَى هذا الكلامُ فيما تقدَّمَ مِنْ هذا البابِ، إلّا أنّه ها هنا أوضحُ وأشرحُ، فلذلكَ كرّرناه على القاعدةِ المقرّرةِ في أوّلِ هذَا الكتابِ.



الأصْلُ :

رُبَّ مُسْتَقْبِلٍ يَوْماً لَيْسَ بِمُسْتَدْبِرِهِ، وَمَغْبُوطٍ فِي أَوَّلِ لَيْلِهِ، قَامَتْ بَوَاكِيهِ فِي آخِرِهِ[1].

---

١. المغبوط : المنظور إلىٰ نعمته. فقد يكون المرء كذلك في أوّل اللّيل فيموت في آخره فتقوم بواكيه، جمع باكية.

الشّرْحُ :

مثلُ هذا قولُ الشاعر:

يـا راقـدَ اللـيل مسـروراً بأوَّله إنَّ الحوادث قد يَطرُقن أسـحارا

ومِثلُه:

لا يَغُرّنك عِشـاءٌ سـاكـنٌ قد يُوافي بالمَنيّات السَّحَرْ



الأصْلُ :

ٱلْكَـلَامُ فِي وَثَاقِكَ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ ؛ فَإِذَا تَكَلَّمْتَ بِهِ صِرْتَ فِي وَثَاقِهِ، فَاخْزُنْ لِسَانَكَ كَمَا تَخْزُنُ ذَهَبَكَ وَوَرِقَكَ ؛ فَرُبَّ كَلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً[1].

الشّرْحُ :

قد تقدم القولُ في مدح الصّمت وذمِّ الكلام الكثير. وكان يقال: لا خير في الحياة إلّا لصَمُوت واعٍ، أو ناطق مُحسِن. وقيل لحذيفة: قد أطلتَ سجن لسانِك! فقال: لأنّه غيرُ مأمون إذا أُطلِق.



الأصْلُ :

لَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ، بَلْ لَاتَقُلْ كُلَّ مَا تَعْلَمُ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبحانَه قد فَرَضَ عَلَىٰ جَوَارِحِكَ

---

١. الوَثاق: ما يشدّ به ويربط. الوَرِق: الفضّة. والمعنىٰ: أنك تملك كلامك قبل أن يصدر منك، وليس لأحد حق عليك؛ فإذا تكلّمتَ به صرتَ في وثاقه ومملوكاً له. وربما صدَرتْ منكَ كلمةٌ سلبتْ منك نعمتكَ ورزقكَ، وربما جرّت عليك المصائب.

كُلُّهَا فَرَائِضَ يَحْتَجُّ بِهَا عَلَيْكَ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ.

الشّرْحُ:

هذا نهيٌ عن الكذب، وأن تقول ما لا تأمَن من كونه كَذِباً، فإنّ الأمرين كِليْهما قبيحان عقْلاً عند أصحابنا.



الأصْلُ:

آحْذَرْ أَنْ يَرَاكَ آللهُ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ؛ وَيَفْقِدَكَ عِنْدَ طَاعَتِهِ، فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ؛ وَإِذَا قَوِيتَ فَاقْوَ عَلَىٰ طَاعَةِ آللهِ، وَإِذَا ضَعُفْتَ فَاضْعُفْ عَنْ مَعْصِيَةِ آللهِ.

الشّرْحُ:

مَن علم يقيناً أنّ الله تعالى يراه عند معصيته، كان أجْدَرَ الناس أن يجتنبَها؛ كما إذا علمْنا يقيناً أنَّ الملك يرى الواحد منّا وهو يراود جاريتَه عن نفسها، أو يحادث ولده ليفجُر به، ولكنّ اليقين في البَشَرِ ضعيفٌ جدّاً. أو أنّهم أحمقُ الحيوان وأجهَلُه وبحقٍّ أقول: إنهم إن اعتقدوا ذلك اعتقاداً لا يخالطه الشكّ، ثم واقعوا المعصية، وعندهم عقيدة أُخرىٰ ثابتة أنّ العقاب لاحِقٌ بمن عصى، فإن الإبلَ والبقرَ أقربُ إلى الرَّشاد منهم.

وأقول: إنّ الذي جرّأ الناسَ على المعصية الطمعُ في المغفرة، والعفو العامّ وقولهم: الحلم والكرم والصّفح من أخلاق ذوي النّباهة والفَضْل من الناسِ، فكيف لا يكون من الباري سبحانه عفوٌ عن الذّنوب!



الأصْلُ:

الرُّكُونُ إِلَى الدُّنْيَا مَعَ مَا تُعَايِنُ مِنْهَا جَهْلٌ، وَالتَّقْصِيرُ فِي حُسْنِ آلْعَمَلِ إِذَا وَثِقْتَ

بِالثَّوَابِ عَلَيْهِ غَبْنٌ، وَالطُّمَأْنِينَةُ إِلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ قَبْلَ ٱلْاخْتِبَارِ لَهُ عَجْزٌ.

الشّرْحُ :

قد تقدّم الكلام في الدّنيا وحُمق من يَركَن إليها مع معاينة غدرِها، وقـلّة وفـائها ونـقضها عهودَها، وقتلِها عُشّاقها. ولا ريبَ أنّ الغَبْن وأعظمُ الغَبْن هو التّقصير في الطاعة مع يـقين الثواب عليها، وأمّا الطمأنينة إلى مَنْ لم يعرف ولم يختبرْ فإنها عجز ـ كما قال ـ يَـعني عجزاً في العقل والرأي، فإن الوثوق مع التجربة فيه ما فيه، فكيف قبل التجربة!



الأصْلُ :

مِنْ هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَىٰ ٱللهِ أَنَّهُ لَا يُعْصَىٰ إِلَّا فِيهَا، وَلَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِتَرْكِهَا.

الشّرْحُ :

هذا الكلام نسبَه الغَزاليّ في كتاب (إحياء علوم الدين) إلى أبي الدَّرداء، والصحيح أنّه من كلام عليٍّ ، ذكَرَه شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ في غير موضع من كُتُبه، وهو أعرَف بكلام الرجال. وقد تقدّم من كلامنا في حال الدنيا وهَوانِها على الله واغترارِ الناس بها وغـدْرِها بهم، وذَمِّ العقلاء لها، وتحذير منها مافيه كفاية. يقال: إنّ في بعض كتب الله القديمة: الدّنيا غنيمة الأكياس، وغفلة الجُهّال، لم يَعْرِفوها حتّى خرجوا منها، فسألوا الرَّجعة فلم يَرجِعوا.



الأصْلُ :

مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ.

وفي رِوَايةٍ أُخْرَى: مَنْ فاتَهُ حَسَبُ نَفْسِهِ، لَمْ يَنفَعْهُ حَسَبُ آبائِهِ.

الشّرْحُ:

قد تقدّم مِثلُ هذا، وقد ذكرنا ما عندنَا فيه، وقال الشاعر:

لئن فخرتَ بآباءٍ ذَوِي حَسَبٍ ... لقد صدقتَ ولكنْ بئس ما وَلَدُوا

وكان يقال: أجهَل الناس من افتخر بالعظام البالية، وتبجّح بالقرون الماضية، واتّكل على الأيام الخالية. وكان يقال: من طريف الأُمور حَيٌّ يتّكل على ميّت.



الأصْلُ:

مَنْ طَلَبَ شَيْئاً نالَهُ أوْ بَعْضَهُ.

الشّرْحُ:

هذا مِثلُ قولهم: مَنْ طلبَ وَجَدّ وجَد.



الأصْلُ:

مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ، وَمَا شَرٌّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ، وَكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الْجَنَّةِ مَحْقُورٌ، وَكُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ[1].

---

١. كلّ ما يؤدي إلى الجنّة ورحمة الله فهو خير، وكلّ ما يؤدي إلى النار وغضب الجبار فهو شرّ.

الشّرْحُ :

موضع «بعده النار» رَفْعٌ ؛ لأنّه صفة «خير» الذي بعد «ما»، وخير يرفع لأنّه اسمُ ما، وموضع الجار والمجرور نَصْب لأنّه خبر ما، والباء زائدةٌ، مِثلها في قولك: ما أنت بزيد، كما تزاد في خبر ليس، والتقدير ما خيرٌ تتعقبه النار بخير، كما تقول: ما لذّة تتلوها نغصة بلَذّة.



الأصْلُ :

أَلَا وإِنَّ مِنَ ٱلْبَلَاءِ ٱلْفَاقَةَ، وَأَشَدُّ مِنَ ٱلْفَاقَةِ مَرَضُ ٱلْبَدَنِ، وَأَشَدُّ مِنْ مَرَض ٱلْبَدَنِ مَرَضُ ٱلْقَلْبِ، أَلَا وَإِنَّ مِنَ النِّعَم سَعَةَ المالِ، وأفْضَلُ مِنْ سَعَةِ المالِ صِحَّةُ البَدَنِ، وَأفْضَلُ من صِحَّةِ ٱلْبَدَنِ تَقْوَىٰ ٱلْقَلْبِ.

الشّرْحُ :

تقدّم الكلام في الفاقة والغنى. فأما المرض والعافية ففي الحديث المرفوع: «إليك انتهت الأمانيّ يا صاحبَ العافية». فأمّا مَرَض القَلْب وصحّته فالمراد به التّقوى وضدّها.



الأصْلُ :

لِلْمُؤْمِنِ ثَلَاثُ سَاعَات: فَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَرُمُّ مَعَايشَهُ، وَسَاعَةٌ يُخَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا فِيما يَحِلُّ وَيَجْمُلُ. وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاخِصاً إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: مَرَمَّةٍ لِمَعَاش، أَوْ خُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ.

الشَّرْحُ :

تقدير الكلام: يَنبغي أن يكون زمانُ العاقل مقسوماً ثلاثةَ أقسام. ويرُمّ معاشَه: يُصلِحه. وشاخصاً: راحلاً. وخطوَة في معاد، يعني في عَمل المَعاد، وهو العبادة والطّاعة.



الأَصْلُ :

إِزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُبَصِّرْكَ آللهُ عَوْرَاتِهَا، وَلَا تَغْفُلْ فَلَسْتَ بِمَغْفُولٍ عَنْكَ.

الشَّرْحُ :

أمَرَه بالزُّهد في الدنيا، وجعل جزاءَ الشَّرط تبصيرَ الله تعالى له عَوْراتِ الدُّنيا، وهذا حقّ؛ لأنّ الرّاغب في الدُّنيا عاشقٌ لها، والعاشق لا يَرَى عيبَ معشوقِه. فإذا زَهِد فيها فقد سَخِطها، وإذا سخطها أبصَر عيوبَها مُشاهدةً لا رواية. ثمّ نهاه عن الغفلة، وقال له: إنّك غيرُ مغفول عنك، فَلا تغفَل أنتَ عن نفسك، فإنّ أحقّ الناس وأولاهم ألّا يَغفل عن نفسه من ليس بمغفولٍ عنه؛ ومن عليه رقيب شَهيدٌ يناقِشه على الفَتِيل والنَّقِير[١].



الأَصْلُ :

تَكَلَّمُوا تُعْرَفُوا، فَإِنَّ آلْمَرْءَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ[٢].

---

١. الفتيل: ما يكون في شق النواة، والنقير: النقرة التي في ظاهر النواة.

٢. الظاهر المراد أن من كان من أهل الفضل والمعرفة، ووثق من نفسه العلم والسداد في المقال، فليتكلم بما آتاه الله من العلم والمعرفة. وليس المراد مطلق التكلّم فقط. وقد تقدّم في الحكمة ١٤٥ «المرء مخبوءٌ تحت لسانه».

الشّرْحُ :

هذه إحدى كلماته ﷺ الّتي لا قيمةَ لها، ولا يقدّر قَدرُها؛ والمعنى قد تَداوَله الناسُ قال:

وكائنْ تَرى مِن صامتٍ لك معجِبٍ ... زيادتُه أو نقصه في التّكلّمِ
لسانُ الفَتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ ... فلم يَبقَ إلّا صورةُ اللّحمِ والدّمِ



الأَصْلُ :

نِعْمَ الطِّيبُ آلْمِسْكُ، خَفِيفٌ مَحْمِلُهُ، عَطِرٌ رِيحُهُ.

الشّرْحُ :

كان النبيّ ﷺ كثيرَ التطيّب بالمِسك وبغيره من أصناف الطِّيب. وجاء في الخبر الصّحيح عنه: «حُبِّب إليّ من دنياكم ثلاث: الطِّيب، والنّساء، وقُرّة عيني في الصّلاة».



الأَصْلُ :

ضَعْ فَخْرَكَ، وَآحْطُطْ كِبْرَكَ، وَآذْكُرْ قَبْرَكَ.

الشّرْحُ :

قد تقدّم القولُ في العجبْ والكبر والفخر.

في الحديث المرفوع: «إنّ الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهليّة وفخرها بالآباء، الناسُ لآدم، وآدمُ من تراب. مؤمن تقيّ، وفاجرٌ شقيّ، لينتهين أقوام يتفاخرون برجال إنّما هم

فحم من فحم جهنّم أو ليكونن أهوَنَ على الله من جُعَلات تدفع النَّتنْ بأنفها».

ومن وصيّته ﷺ إلى عليّ ﷺ: «لا فقر أشدّ من الجهل، ولا وحشة أفحش من العُجْب».

قيل لحكيم: ما الشيء الذي لا يَحسُن أن يقال وإن كان حقاً؟ فقال: الفخر.



الأصْلُ:

خُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَتَاكَ، وَتَوَلَّ عَمَّا تَوَلَّىٰ عَنْكَ؛ فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ.

الشَّرْحُ:

كان يقال: اجعل الدّنيا كغَرِيم السّوء حَصِّل منه ما يَرضَخ لك به، ولا تأس على ما دَفَعك عنه؛ ثمّ قال ﷺ: فإن لم تفعل فأَجمِلْ في الطّلب، وهي من الألفاظ النبويّة: «لن تموتَ نفسٌ حتّى تَستكمِل رِزقَها، فأجمِلوا في الطّلب».



الأصْلُ:

رُبَّ قَوْلٍ أَنْفَذُ مِنْ صَوْلٍ[1].

---

١. الصول والصولة: السطوة والحَملَة. والمعنىٰ: ربَّ قول أشد نكاية من الصول. وقيل له معنيان: أحدهما: ربّ قول يقوله الإنسان، يكون ضرره أشدّ من صولة عدوٍّ يصول عليه.

والثاني: ربّ قولٍ سمعته من صاحبك من قذف أو هجرٍ، يكون أشدّ من صول عدوٍّ يصول عليك. معارج النهج للبيهقي ٨٧٩.

الشّرْحُ :

قد قيل هذا المعنى كثيراً، فمنه قولُهم :

* والقولُ يَنفذُ ما لَا تنفُذُ الإِبَرُ *



الأصْلُ :

كُلُّ مُقْتَصَرٍ عَلَيْهِ كَافٍ.

الشّرْحُ :

هذا من باب القناعة، وإنّ من اقتصر على شيء وقنعتْ به نفسُه فقد كفاه، وقام مقامَ الفضول التي يرغَب فيها المُترَفون.



الأصْلُ :

آلْمَنِيَّةُ وَلَا الدَّنِيَّةُ، وَالتَّقَلُّلُ وَلَا التَّوَسُّلُ[1].

الشّرْحُ :

قال الشاعر :

لَمَصُّ الثِّماد وخَرْطُ القَتادِ وشربُ الأُجاج أوان الظَّمَى

١. المنيّة : الموت الدنية : العار. التقلل : الاكتفاء بالقليل، يرضىٰ به الشريف ولا يرضىٰ بالتوسل إلىٰ الناس.

على المرء أهوَن من أن يُرَى ذليلاً لخلْق إذا أَعدَما
وخيرٌ لعينيك من مَنظَرٍ إلى ما بأيدي اللّئام العَمَى

قلتُ: لحاه الله، هلّا قال: بأيدي الرّجال!



الأصْلُ:

مَنْ لَمْ يُعْطَ قَاعِداً، لَمْ يُعْطَ قَائِماً[١].

الشّرْحُ:

مرادُه أن الرزق قد قَسَمه الله تعالى، فمن لم يرزقه قاعداً لم يجب عليه القيام والحركة.



الأصْلُ:

الدَّهْرُ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ، وَيَوْمٌ عَلَيْكَ؛ فَإِذَا كَانَ لَكَ فَلَا تَبْطَرْ، وَإِذَا كَانَ عَلَيْكَ فاصْبِرْ!.

الشّرْحُ:

قد تقدّم القولُ في ذمّ البَطر ومدحِ الصّبر، ويُحمَل ذمّ البَطَر هاهنا على محملين. أحدهما البَطَر بمعنى الأَشَر، وشدّة المرح، بطِر الرجُل بالكسر يَبطَر، وقد أبطَره المال، وقالوا: بطر فلانٌ معيشتَه، كما قالوا: رَشِد فلانٌ أمرَه. والثاني البَطَر بمعنىٰ الحيرة والدَّهش، أي إذا كان

---

١. أراد بالقعود الطلب والسعي برفق، وبالقيام الطلب والسعي بإلحاح وتعسّف. والمعنىٰ إرشاد إلىٰ الرفق في السعي والطلب، لأنّ من لم يدرك رزقه بهذا الأسلوب، فسوف لن يرزق بأسلوب الإلحاح.

الوقت لك فلا تقطعن زمانك بالحيرة والدهش عن شكرِ الله ومكافأةِ النّعمة بالطاعة والعبادة. والمحمَل الأوّل أوضَح.



الأصْلُ:

إِنَّ لِلْوَلَدِ عَلَىٰ ٱلْوَالِدِ حَقّاً، وَإِنَّ لِلْوَالِدِ عَلَىٰ ٱلْوَلَدِ حَقّاً، فَحَقُّ ٱلْوَالِدِ عَلَىٰ ٱلْوَلَدِ أَنْ يُطِيعَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي مَعْصِيَةِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ، وَحَقُّ ٱلْوَلَدِ عَلَىٰ ٱلْوَالِدِ أَنْ يُحَسِّنَ ٱسْمَهُ، وَيُحْسِّنَ أَدَبَهُ ، وَيُعَلِّمَهُ ٱلْقُرْآنَ.

الشّرْحُ:

أمّا صدرُ الكلام فمن قول الله سبحانه: ﴿أن ٱشكرْ لي ولوالدَيك إليَّ المصير * وإن جَاهَدَاكَ عَلَى أنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾[1].

وأمّا تعليم الوالد الولدَ القرآن والأدبَ فمأمور به، وكذلك القول في تسميته باسم حسن.



الأصْلُ:

ٱلْعَيْنُ حَقٌّ، وَالرُّقَىٰ حَقٌّ، وَالسِّحْرُ حَقٌّ، وَٱلْفَأْلُ حَق، وَالطِّيَرَةُ لَيْسَتْ بِحَقٍّ، وَٱلْعَدْوَىٰ لَيْسَتْ بِحَقٍّ، والطِّيبُ نُشْرَةٌ، وَٱلْعَسَلُ نُشْرَة، وَالرُّكُوبُ نُشْرَةٌ، وَالنَّظَرُ إِلَىٰ ٱلْخُضْرَةِ نُشْرَةٌ.

---

١. سورة لقمان ١٤، ١٥.

الشّرْحُ:

ويروى: «والغسل نُشرة» بالغين المعجمة، أي التّطهير بالماء.

فأمّا لفظ أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «نَشْرة»، فإنّ النّشرة في اللغة كالعُوذَة والرُّقْية، قالوا: نَشّرْت فلاناً تَنْشيراً، أي رَقَيْتُه وعوّذتُه. وقال الكلابيّ: إذا نشر المَنْفوع فكأنّما أُنشِط من عِقال، أي يذهب عنه ما به سَريعاً.

وقد عدّ أميرُ المؤمنين عليه السلام أموراً أربعةً ذكر منها النشرة، ولم يكن عليه السلام ليقول ذلك إلّا عن تَوْقيف من رسولِ الله صلى الله عليه وآله.



الأصْلُ:

وقال عليه السلام: مُقَارَبَةُ النَّاس فِي أَخْلَاقِهِمْ أَمْنٌ مِنْ غَوَائِلِهِمْ[1].

الشّرْحُ:

إلى هذا نَظَر المتنبّي في قوله:

وخَلّةٍ في جليسٍ أتّقيه بها ... كَيْما يَرى أنّنا مِثْلان في الوَهَنِ

وكِلْمةٍ في طَريق خِفْتُ أعْرِبُها ... فيُهتَدَى لي فلم أقدِرْ على اللّحَنِ



الأصْلُ:

وقال عليه السلام: لبعض مخاطبيه، وقد تكلّم بكلمةٍ يُستصغَرُ مثلُهُ عن قول مِثلها:

---

١. الغوائل: جمع الغائلة، أي الشر. المنافرة في الأخلاق والمباعدة فيها مجلبة للعداوات، ومن عاداه الناس وقع في غوائلهم، فالمقاربة لهم في أخلاقهم تحفظ المودّة. لكن لا تجوز المصانعة على الباطل، بل موافقتهم على ما يجيزه الشرع ولا يأباه العقل.

لَقَدْ طِرْتَ شَكِيراً، وَهَدَرْتَ سَقْباً.

قال [الرضيّ] : الشَّكِيرُ هاهنا : أوّلُ ما ينبُتُ من ريشِ الطائرِ ، قَبلَ أنْ يَـقْوى ويَستحْصِفَ ، والسَّقْبُ : الصغيرُ من الإبلِ ، ولا يَهدرُ إلّا بعدَ أنْ يستفحِلَ .

الشّرْحُ :

هذا مِثلُ قولهم : قد زَبَّبَ قبل أن يُحصرم ، ومن أمثال العامّة : يقرأ بالشّواذّ ، وما حفِظ بعدُ جزءَ المفصَّل .



الأصْلُ :

وقال عليه السلام : مَنْ أَوْمَأَ إِلَىٰ مُتَفَاوِتٍ خَذَلَتْهُ ٱلْحِيَلُ[1] .

الشّرْحُ :

قيل في تفسيرِه : من ٱستدلّ بالمتشابه من القرآن في التّوحيد والعَدْل انكشفتْ حيلتُه ، فإنّ علماءَ التّوحيد قد أوضحوا تأويلَ ذلك .

وقيل : مَن بَنَى عقيدةً له مخصوصةً على أمرين مختلفين : حقٍّ وباطل ، كان مُبطلاً .

وقيل : من أومَأَ بطمَعه وأمَله إلى فائتٍ قد مَضى وانقضى لن تَنفعَه حِيلة ، أي لا يُتبِعنّ أحدُكم أمَله ما قد فاتَه ، وهذا ضعيفٌ ؛ لأنّ المُتفاوت في اللّغة غيرُ الفائت[2] .

---

١. أومأ : أشار ، والمراد طلب وأراد.

٢. المتفاوت : المتباعد أو المتناقض ، أي مَن طلب تحصيل المتباعدات وضمّ بعضها إلىٰ بعض خذلته الحيل فيما يريد فلم ينجح فيه. أو من حاول التأليف بين المتناقضات كالجمع بين رضوان الله ومعصيته ، وبين الإعتداء علىٰ الآخرين والفوز بحبهم وثقتهم ؛ فقد حاول المحال. في ظلال نهج البلاغة / مغنية ٤: ٤٥٠.



الأصْلُ:

قالعليه السلام: وَقَدْ سُئِلَ عن معنى قولهم «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ»: إنَّا لَا نَمْلِكُ مَعَ اللهِ شَيْئاً، وَلَا نَمْلِكُ إِلَّا مَا مَلَّكَنَا؛ فَمَتَىٰ مَلَّكَنا مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنَّا كَلَّفَنا، وَمَتَىٰ أَخَذَهُ مِنَّا وَضَعَ تَكْلِيفَهُ عَنَّا.

الشّرْحُ:

مَعنَى هذا الكلام أنّهعليه السلام جعل الحولَ عبارةً عن المِلْكية والتصرّف، وجعل القوّة عبارةً عن التكليف، كأنّه يقول: لا تَملُّك ولا تَصرُّف إلّا بالله، ولا تكليف لأمرٍ من الأُمور إلّا بالله؛ فنحن لا نَملِك مع الله شيئاً، أي لا نستقلّ بأن نَملِك شيئاً؛ لأنّه لولا إقدارُه إيّانا وخلقته لنا أحياءً لم نكن مالِكين ولا متصرِّفين. فإذا ملّكَنا شيئاً هو أملك به ـ أي أقدرُ عليه منّا ـ صرْنا مالكين له كالمال مثلاً حقيقة، وكالعَقْل والجوارح والأعضاء مَجازاً، وحينئذٍ يكون مكلِّفا لنا أمراً يتعلّق بما ملّكَنا إيّاه، نحو أن يكلّفنا الزّكاة عند تمليكنا المال، ويكلّفنا النَّظَر عند تمليكنا العَقْل، ويكلّفنا الجِهادَ والصّلاة والحجّ وغيرَ ذلك عند تمليكِنا الأعضاء والجوارح. ومتى أخذ منّا المالَ وَضَع عنا تكليفَ الزّكاة، ومتى أخَذَ العَقْل سَقَط تكليفُ النّظَر، ومتى أخذَ الأعضاء والجوارح سَقَط تكليف الجِهاد وما يَجري مجراه.

هذا هو تفسيرُ قولهعليه السلام؛ فأمّا غيرُه فقد فسّره بشيء آخر. قال أبو عبد الله جعفرُ بنُ محمدعليه السلام: فلا حَوْلَ على الطاعة ولا قوّةَ على تَرْك المعاصي إلّا بالله؛ وقال قوم ـ وهم المجبرة ـ: لا فعل من الأفعال إلّا وهو صادِرٌ مِن الله. وليس في اللّفظ ما يدلّ على ما ادّعَوْا؛ والأوْلىٰ في تفسير هذه اللفظة أن تُحمَل على ظاهِرها، وذلك أنّ الحَوْل هو القوّة، والقوّة هي الحَوْل كلاهما مُترادِفان؛ ولا ريبَ أنّ القدرة من الله تعالى، فهو الّذي أقدَر المؤمنَ علىٰ الإيمان، والكافرَ على الكفر.



الأصْلُ :

وقال‌ﷺ لِعَمّار بِن ياسِر‌ﷺ وقد سَمِعهُ يراجعُ المغيرةَ بنَ شُعبة كلاماً :
دَعْهُ يَا عَمَّارُ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ مِنَ الدِّينِ إِلَّا مَا قَارَبَهُ مِنَ الدُّنْيَا ، وَعَلَىٰ عَمْدٍ لَبَّسَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، لِيَجْعَلَ الشُّبُهَاتِ عَاذِراً لِسَقَطَاتِهِ[1] .

الشّرْحُ :

أصحابُنا غيرُ متَّفقين على السكوت على المغيرة ، بل أكثر البغداديّين يفسّقونه ، ويقولون فيه ما يقال في الفاسق . وكان إسلامُ المغيرة من غير اعتقاد صحيح ، ولا إنابة ونيّة جميلة ، كان قد صَحب قوماً في بعض الطُّرق ، فاستغفَلهم وهم نيام ، فقتلهم وأخذ أموالهم وهرب خوفاً أن يُلحَق فيُقتل ، أو يؤخذ ما فاز به من أموالهم ؛ فقَدم المدينة فأظهر الإسلام ، وكان رسول الله ﷺ لا يردّ على أحدٍ إسلامَه . وكانت خاتمته ما قد تواتر الخبر به ؛ من لعن عليٍّ‌ﷺ على المنابر إلى أن مات على هذا الفعل ، وكان المتوسط من عمره الفِسْق والفُجور وإعطاء البَطْن والفَرْج سؤالهما ، وممالأة الفاسِقين ، وصرْف الوقت إلى غير طاعة الله . كيف نتولّاه ! وأيّ عُذْر لنا في الإمساك عنه ، وألّا نكشف للناس فِسْقَه!

فأمّا عمار بن ياسر‌ﷺ حليف بني مخزوم ، أسلم هو وأخوه وأبوهما وسميّة أُمهما . وكان إسلامُهم قديماً في أوّل الاسلام ، فعذّبوا في الله عذاباً عظيماً . قتل عمار وهو ابن ثلاثٍ وتسعين سنةً [في صفّين بين يدي إمامه علي‌ﷺ] ، والخبر المرفوع مشهور في حقّه : «تقتلك الفئة الباغية» . وقال‌ﷺ في عمار : «مُلئ إيماناً إلىٰ مشاشه» . وفضائله كثيرة .

---

١ . قوله‌ﷺ : «إنه لم يأخذ من الدين...» ، أراد أنه لا يعمل من الدين إلّا بما يستلزم دُنْياً ويقرب منها . سقطاته : زلاته .

وقوله‌ﷺ : «وعلىٰ عمد لبّس علىٰ نفسه ..» ، أراد أنّه أوقع نفسه في الشبهة عامداً لتكون الشبهة عذراً له في زلّاته .



الأصْلُ :

وقالَ عليه السلام : مَا أَحْسَنَ تَوَاضُعَ ٱلْأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَباً لِمَا عِنْدَ ٱللهِ ! وأَحْسَنُ مِنْهُ تِيهُ ٱلْفُقَرَاءِ عَلَىٰ ٱلْأَغْنِيَاءِ ٱتِّكَالاً عَلَىٰ ٱللهِ سُبْحَانَهُ[1] .

الشّرْحُ :

قد تقدّم شرح مِثل هذه الكلمة مراراً .



الأصْلُ :

قالَ عليه السلام : مَا ٱسْتَوْدَعَ ٱللهُ ٱمْرَأً عَقْلاً إِلَّا لِيَسْتَنْقِذَهُ بِهِ يَوْماً مَا .

الشّرْحُ :

لابدّ أن يكون للباري تعالى في إبداع العَقْل قلبَ زيد مَثلاً غَرَض ، ولا غَرَض إلّا أن يستدلّ به على ما فيه نجاتُه وخلاصُه ، وذلك هو التّكليف ، فإنْ قصّر في النظر وجَهِل وأخطأ الصّواب فلابدّ أن يُنقذه عقلُه مِن وَرْطة مِن وَرَطات الدنيا ، وليس يخلو أحدٌ عن ذلك أصلاً ؛ لأنّ كلّ عاقل لابدّ أن يتخلّص من مَضرّةٍ سبيلُها أن تُنَال بإعمال فِكرتِه وعقله في الخلاص منها ؛ فالحاصل أنّ العقل إمّا أن ينقذ الإنقاذ الدّيني ، وهو الفلاح والنّجاح على الحقيقة ، أو يُنقذ من بعضِ مَهالِك الدّنيا وآفاتها ، وعلى كلّ حال فقد صَحّ قولُ أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد رُويتْ هذه الكلمة مرفوعةً ، ورُويتْ : «إلّا استنقذَهُ به يوماً مّا» .

---

١ . التيه : الزهو والتكبّر . إن تيه الفقراء علىٰ الأغنياء ينطوي علىٰ التوكل علىٰ الله والإباء ، والرضا والقناعة بما يسّر ، وأمّا تواضع الأغنياء للفقراء فهو حسن لا شك في ذلك إلّا أنّ زهو الفقراء علىٰ الأغنياء أفضل وأكمل .

٤١٦

الأصْلُ :

وقال ﷺ : مَنْ صَارَعَ ٱلْحَقَّ صَرَعَهُ.

الشّرْحُ :

هذا مِثْلُ قوله في موضعٍ آخر : «مَنْ أبدى صفحته للحقّ هلك»[1].



الأصْلُ :

وقال ﷺ : ٱلْقَلْبُ مُصْحَفُ ٱلْبَصَرِ.

الشّرْحُ :

هذا مِثْلُ قولِ الشاعر :

تخبّرني العينان ما القلبُ كاتمُ ... وما جنّ بالبَغْضاء والنَّظَر الشَّزْرِ

يقول ﷺ : كما أنّ الإنسان إذا نظر في المصحَف قرأ ما فيه ، كذلك إذا أبصر الإنسانُ صاحبَه فإنه يَرَى قلبه بوساطة رؤية وجهه ، ثم يعلم ما في قلبه من حُبٍّ وبُغْض وغيرهما ، كما يعلم برؤية الخطّ الذي في المُصحف ما يدلّ الخطّ عليه .

وقال الشاعر :

إنّ العيونَ لَتُبدِي في تَقلُّبها ... ما في الضَّمائر من وُدٍّ ومِنْ حَنَقِ

---

١. أُنظر الخطبة (١٦) ، والحكمة (١٥٥).



الأصْلُ :

وقال عليه السلام : التُّقَىٰ رَئِيسُ ٱلْأَخْلَاقِ.

الشَّرْحُ :

يعني رئيس الأخلاق الدينيّة، لأنّ الأخلاق الحميدةَ كالجود والشجَاعة والحلم والعفّة وغير ذلك، لو قَدَّرْنا انتفاءَ التكاليف العقلية والشرعيّة، لم يكن التُّقى رئيساً لها، وإنما رئاسة التُّقى لها مع ثُبوت التكليف، لا سيّما الشرعيّ. والتّقى في الشّرع هو الوَرَع والخوْفُ من الله، وإذا حصل حَصَلت الطاعات كلّها. وانتفت القبائح كلّها؛ فصار الإنسان معصوماً، وتلك طبقة عالية، وهي أشرف من جميع الطّبقات التي يُمدح بها الإنسان.



الأصْلُ :

وقال عليه السلام : لَا تَجْعَلَنَّ ذَرَبَ لِسَانِكَ عَلَىٰ مَنْ أَنْطَقَكَ، وَبَلَاغَةَ قَوْلِكَ عَلَىٰ مَنْ سَدَّدَكَ.

الشَّرْحُ :

يقول: لا شُبهةَ أنّ الله تعالى هو الّذي أنطَقك، وسدّد لفظَك، وعلّمك البيان كما قال سبحانه: **﴿خَلَقَ الإنسَانَ * عَلَّمَه البيان﴾**[1] فقبيحٌ أن يَجعَل الإنسانُ ذَرَب لسانِه وفصاحةَ منطِقه على من أنطقَه وأقدرَه على العبادة، وقبيحٌ أن يَجعَل الإنسانُ بلاغة قوله على من سدّد قولَه، وجعَلَه بليغاً حسَنَ التعبير عن المعاني الّتي في نفسه، وهذا كمن يُنعِم على إنسانٍ بسيفٍ فإنّه

---

١. سورة الرحمن ٣، ٤.

يَقبُح منه أن يَقتُله بذلك السّيف ظُلماً قبحاً زائداً علىٰ ما لو قَتَله بغير ذلك السيف.



الأصْلُ:

وقال ﷺ: كَفَاكَ أَدَباً لِنَفْسِكَ ٱجْتِنَابُ مَا تَكْرَهُهُ مِنْ غَيْرِكَ.

الشّرْحُ:

قال ﷺ هذا اللّفظ أو نحوَهُ مراراً، وقد تكلّمنا نحنُ عليه، وذكرْنا نظائرَ له كثيرة نَثْراً ونَظْماً.

وكَتَب بعضُ الكُتّاب إلى بعض الملوك في حالٍ اقتضَتْ ذلك:

ما عَلَى ذا افترَقْنا بِشَبْذَانَ إذْ كُنّا   ولا هكذا عَهِدْنا الإخاءَ

تَضرب الناسَ بالمهنَّدة البِـ   ـيضِ على غدرِهم وتَنسَى الوَفاءَ



الأصْلُ:

وقال ﷺ يعزّي قوما: مَنْ صَبَرَ صَبْرَ ٱلْأَحْرَارِ، وَإِلَّا سَلَا سُلُوَّ ٱلْأَغْمَارِ[1].

وفي خَبرٍ آخرَ أنّه ﷺ قال للأشْعثِ بن قيسٍ مُعزّياً عن ابنٍ لهُ:

إِنْ صَبَرْتَ صَبْرَ ٱلْأَكَارِمِ، وَإِلَّا سَلَوْتَ سُلُوَّ ٱلْبَهَائِمِ[2].

---

١. سلا: نسي. الأغمار: جمع غُمْر، وهو الجاهل.

٢. مرّ في الموعظة (٢٩٧) وجه آخر أكثر تفصيلاً.

الشَّرْحُ :

أخذ هذا المعنى أبو تمّام بل حكاه فقال :

وقال عليٌّ فـي التّـعازي لأشـعثٍ وخافَ عليه بعضَ تلك المآثِـم[١]

أتــصبرُ للـبَلوى عَـزاءً وحِسْـبةً فـتؤجَر أم تسـلو سُـلُوَّ البـهائم!



الأَصْلُ :

وقال عليه السلام في صِفة الدُّنيا : الدُّنيا تَغُرُّ وَتَضُرُّ، وَتَمُرُّ؛ إِنَّ ٱللهَ سُبحانَهُ لَمْ يَرْضَهَا ثَوَاباً لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَا عِقَاباً لِأَعْدَائِهِ[٢].

الشَّرْحُ :

قد تقدّم لنا كلام طويل في ذمّ الدنيا .

ومن الكلام المستحسَن قولُه : «تَغُرُّ وتَضُرّ وتَمُرّ» والكلمة الثانيةُ أحسن وأجمل .



الأَصْلُ :

وَإِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا كَرَكْبٍ ، بَيْنَا هُمْ حَلُّوا إِذْ صَاحَ بِهِمْ سَائِقُهُمْ فَارْتَحَلُوا.

---

١. ديوانه ٣: ٢٥٨، ٢٥٩.

٢. أراد أنّها تغرّ الدنيا بزينتها، وتضر لما فيها من مصائب ومحن، وتمرّ بفراقها، من المرارة.

الشّرْحُ:

رُوِي: «بينًا هُم حُلُول»، وبينا هي (بَيْن) نفسُها، ووزنـها «فَـعْلى»، أُشبِعت فـتحةُ النـون فصارت ألفاً.

وممّا جاءَ في وصف الدّنيا ممّا يناسب كلامَ أمير المؤمنين قولُ أبي العَتَاهية:

إنّ داراً نـحن فـيها لدارٌ	ليس فـيها لمـقيم قَـرارُ
كم وكمْ قد حـلَّها مـن أنـاسٍ	ذَهبَ اللّـيلُ بـهمْ والنّـهارُ
فـهُمُ الرَّكْب أصـابوا مَـناخاً	فاستراحوا سـاعةً ثـم سـاروا
وكـذا الدّنـيا عـلى مـا رَأيْـنا	يَذهَب الناسُ وتـخلُو الدّيـارُ



الأصْلُ:

وقال عليه السلام لابنِه الحسن عليه السلام:

يا بُنَيَّ، لَا تُخَلِّفَنَّ وَرَاءَكَ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّكَ تُخَلِّفُهُ لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ: إِمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فِيهِ بِطَاعَةِ ٱللهِ فَسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ، وَإِمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ ٱللهِ فَشَقِيَ بِمَا جَمَعْتَ لَهُ؛ فَكُنْتَ عَوْناً لَهُ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ؛ وَلَيْسَ أَحَدُ هٰذَيْنِ حَقِيقاً أَنْ تُؤْثِرَهُ عَلَىٰ نَفْسِكَ.

ويروى هذا الكلام على وجه آخر، وهو:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الَّذِي فِي يَدَيكَ مِنَ الدُّنْيَا قَدْ كَانَ لَهُ أَهْلٌ قَبْلَكَ، وَهُوَ صَائِرٌ إِلَىٰ أَهْلٍ بَعْدَكَ، وَإِنَّمَا أَنْتَ جَامِعٌ لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ عَمِلَ فِيمَا جَمَعْتَهُ بِطَاعَةِ ٱللهِ فَسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ، أَوْ رَجُلٌ عَمِلَ فِيهَ بِمَعْصِيَةِ ٱللهِ، فَشَقِيَ بِمَا جَمَعْتَ لَهُ؛ وَلَيْسَ أَحَدُ هٰذَيْنِ أَهْلاً أَنْ تُؤْثِرَهُ عَلَىٰ نَفْسِكَ، وَلَا أَنْ تَحْمِلَ لَهُ عَلَىٰ ظَهْرِكَ، فَارْجُ لِمَنْ مَضَىٰ رَحْمَةَ ٱللهِ، وَلِمَنْ بَقِيَ رِزْقَ ٱللهِ.

الشّرْحُ :

رُوِي : «فإنّكَ لا تُخلِّفه إلّا لأحدِ رجلين» ، وهذا الفصل نَهيٌ عن الادّخار ، وقد سَبَق لنا فيه كلامٌ مُقنع .

وخلاصةُ هذا الفَصْلِ أنّك إنْ خلّفت مالاً ؛ فإمّا أن تخلّفه لمن يَعمل فيه بطاعة الله ، أو لِمن يَعمَل فيه بمعصيته ، فالأوّل ، يَسعَد بما شَقيتَ به أنتَ ، والثاني ، يكون مُعاناً منك على المَعْصية بما تركتَه له من المال ، وكلا الأمرينِ مذموم ، وإنّما قال له : «فارْجُ لمن مضى رحمةَ الله ، ولمن بَقيَ رزقَ الله» ، لأنّه قال في أوّل الكلام : «قد كان لهذا المال أهلٌ قبلَك ، وهو صائرٌ إلى أهلٍ بَعدك» .



الأصْلُ :

وقالَ ﷺ (لقائلٍ قالَ بحضرَتهِ : أَسْتَغْفِرُ ٱللهَ) : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ! أَتَدْرِي مَا ٱلْاسْتِغْفَارُ ؟ ٱلِاسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ ٱلْعِلِّيِّينَ ، وَهُوَ ٱسْمٌ وَاقِعٌ عَلَىٰ سِتَّةِ مَعَانٍ : أَوَّلُهَا النَّدَمُ عَلَىٰ مَا مَضَىٰ ، وَالثَّانِي ٱلْعَزْمُ عَلَىٰ تَرْكِ ٱلْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَداً ، وَالثَّالِثُ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَىٰ ٱلْمخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّىٰ تَلْقَىٰ ٱللهَ عزَّ وجَلَّ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ ، وَالرَّابِعُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَىٰ كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا ، وَٱلْخَامِسُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَىٰ اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَىٰ السُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالْأَحْزَانِ حَتَّىٰ تُلْصِقَ ٱلْجِلْدَ بِالْعَظْمِ ، وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ ، وَالسَّادِسُ أَنْ تُذِيقَ ٱلْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلَاوَةَ ٱلْمَعْصِيَةِ ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ تَقُولُ : «أَسْتَغْفِرُ ٱللهَ» .

الشّرْحُ :

قد رُوِي : «إنَّ الاستغفارَ درجةُ العلّيين» ، فيكون على تقدير حَذْف مضاف ، أي أنّ دَرَجة الاستغفار درجة العِلّيّين ، وعلى الرواية الأُولى يكون على تقدير حَذْف مضاف أي أن

لصاحب الاستغفار دَرَجة العليّين. وهو هاهنا جمعٌ على «فِعِّيل» كضِلِّيل وخِمّير، تقول: هذا رجلٌ عليٌّ؛ أي كثيرُ العلوّ، ومنه العلّية للغُرْفة على إحدى اللّغتين.

قوله: «نَبَت على السُّحْت»، أي على الحرام؛ يقال: سُحْت بالتسكين، وسُحُت بالضمّ، وأسحَت الرجُل في تجارتِه؛ أي اكتسَب السُّحْت.

أما ماهيّة التوبة فهي النّدم والعَزْم، لأنّ التوبة هي الإنابة والرّجوع، وليس يمكن أن يرجع الإنسانُ عمّا فعله إلّا بالنّدم عليه، والعزم على تَرْك معاودته، وما يتوب الإنسان منه؛ إمّا أن يكون فعلاً قبيحاً، وإمّا أن يكون إخلالاً بواجب. فالتوبة من الفعل القبيح هي أن يَندَم عليه، ويَعزِم ألّا يعود إلىٰ مِثله، وعَزمُه على ذلك هو كراهيته لفِعله. والتوبةُ من الإخلال بالواجب هي أن يَندَم على إخلاله بالواجب ويَعزم على أداء الواجب فيما بعد.

قال أصحابُنا: وللتوبة شروط أُخَرُ تَختلِف بحَسَب اختلاف المعاصي، وذلك أنّ ما يتوب منه المكلّف؛ إمّا أن يكون فيه لآدميّ حَقٌّ أو لا حقَّ فيه لآدميّ، فما ليس للآدميّ فيه حقّ فنحو تَرْك الصّلاة، فإنّه لا يجب فيه إلّا النّدم والعَزْم على ما قدّمنا، وما لآدميٍّ فيه حقٌّ على ضربين: أحدُهما أن يكون جنايةً عليه في نفسِه أو أعضائِه أو مالِه أو دِينِه، والآخَر ألّا يكون جِنايةً عليه في شيء من ذلك، فما كان جنايةً عليه في نفسِه أو أعضائِه أو مالِه، فالواجبُ فيه النَّدَم والعَزْم، وأن يَشرَع في تَسليم بدل ما أَتْلَف، فإن لم يتمكّن من ذلك لِفقرٍ أو غيره عَزَم على ذلك إذا تمكّن منه، فإنْ مات قبلَ التمكّن لم يكن من أهل العِقاب، وإن جَنَى عليه في دينه بأن يكون قد أضلَّه بشُبْهة ٱستزَلّه بها؛ فالواجبُ عليه مع النّدم العَزْم والاجتهاد في حَلِّ شبهتِه من نفسِه، فإن لم يتمكّن من الاجتماع به عزم على ذلك إذا تمكّن، فإنْ ماتَ قبلَ التمكّن، أو تمكّن منه واجتَهَد في حلّ الشبهة فلم تَنحَلَّ من نفس ذلك الضالّ، فلا عقابَ عليه؛ لأنّه قد ٱستَفْرَغ جهدَه؛ فإن كانت المعصية غيرَ جناية نحو أن يَغتَابه أو يَسمَع غيبتَه فإنّه يَلزَمه النّدم والعَزْم، ولا يلزَمه أن يستحلَّه أو يعتذرَ إليه، لأنّه ليس يلزمه أرْشٌ لمن ٱغتَابه فيستحلّه، ليَسقُط عنه الأرْشُ، ولا غَمَّه فيزيل غمّه بالاعتذار، وفي ذكر الغِيبَة له ليستحِلَّه فيزيل غمّه منها إدخالُ غمٍّ عليه، فلم يَجُزْ ذلك. فإن كان قد أسمَع المغتابَ غيبَته فذلك جِنايةٌ عليه؛ لأنّه قد أوصَل إليه مَضَرّة الغمّ، فيَلزَمه إزالة ذلك بالاعتذار.



الأصْلُ :

وقال عليه السلام : ٱلْحِلْمُ عَشِيرَةٌ[١] .

الشّرْحُ :

كان يقال : الحلم جنودٌ مجنَّدة لا أرزاقَ لها .

وكان يقال : مَن غَرَس شجرة الحِلْم، اجتَنى ثَمرَة السِّلْم .



الأصْلُ :

وقال عليه السلام : مِسْكِينٌ ٱبْنُ آدَمَ ! مَكْتُومُ ٱلْأَجَلِ ، مَكْنُونُ ٱلْعِلَلِ ، مَحْفُوظُ ٱلْعَمَلِ . تُؤْلِمُهُ ٱلْبَقَّةُ ، وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ ، وَتُنْتِنُهُ ٱلْعَرْقَةُ .

الشّرْحُ :

قد تقدَّم هاهنا خبر المبتدأ عليه، والتقدير : «ٱبنُ آدم مِسكين» ، ثمّ بيّن مَسْكَنَتَه من أين هي؟ فقال : إنّها من سِتّة أوجُه : أجلُه مكتوم لا يَدري مَتَى يُختَرَم، وعِلَلُه باطنة لا يَدرِي بها حتّى تَهيجَ عليه، وعَملُه محفوظ ؛ **﴿مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾**[٢] ، وقَرْص البَقّة يؤلمُه، والشَّرْقة بالماء تَقتُله . وإذا عَرِق أنتنْته العَرْقة الواحدة وغيّرتْ رِيحَه ؛ فمن هو على هذه الصِّفات فهو مسكين لا محالَة، لا ينبغي أن يأمَن ولا أن يَفْخَر[٣] .

---

١. أي إن الحلم يجمع لك من الأنصار والأعوان ما يجتمع لك بالعشيرة .

٢. سورة الكهف ٤٩ .

٣. ونحو هذه الحكمة ، ما جاء في الحكمة ٢٨١ .



الأصْلُ:

ويُروى أنه ﷺ كان جالساً في أصحابه، فمرت بهم امـرأة جـميلة، فـرمقها القـوم بأبصارهم، فقال ﷺ:

إِنَّ أَبْصَارَ هٰذِهِ ٱلْفُحُولِ طَوَامِحُ، وَإِنَّ ذٰلِكَ سَبَبُ هَبَابِهَا؛ فَإِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ ٱمْرَأَةٍ تُعْجِبُهُ فَلْيُلَامِسْ أَهْلَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ ٱمْرَأَةٌ كَامْرَأَتِهِ.

فقال رجل من الخوارج: قاتله الله كافراً مـا أفـقهه! قـالَ: فـوثب القـوم لِـيقتلوه، فقال ﷺ: رُوَيْداً إِنَّمَا هُوَ سَبٌّ بِسَبٍّ، أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ.

الشّرْحُ:

تقول: هَبَّ الفَحْل والتَّيْسَ يهِبّ بالكَسْر هَبيباً أو هباباً؛ إذا هَاجَ للضِّراب أو للسِّفاد. والهباب أيضاً: صَوتٌ. والتَّيْسُ إذا هبّ فهو مِهْباب؛ وقد هَبْهبتُه، أي دعـوتُه ليَـنزُوَ فـتهبهب؛ أي تَزعْزَع.

وسَأَلني صديقُنا عليُّ بن البِطْريق عن هذه القِصّة فقال: ما بالُه عَفَا عن الخارجي وقـد طَعَن فيه بالكفر، وأنكَر على الأشعث قوله: «هذه عليكَ لا لَك»، فقال: ما يُدْريك عليكَ لعنةُ الله ما عليّ ممّا لي! حائك ابن حائك، منافق ابن كافر! وما وَاجَهَه به الخارجيّ أفظَع مـمّا واجَهَه الأشعث! فقلتُ: لا أدري.

قال: لأنّ كلّ صاحب فضيلة يعظُم عليه أن يُطعَن في فضيلته تلك، ويُدَّعَى عليه أنّه فيها ناقص، وكان عليٌّ ﷺ بيت العلم، فلمّا طعن فيه الأشعث طعن بأنّك لا تَدْري ما عليك ممّا لك. فشَقّ ذلك عليه، وامتَعَض منه، وَجَبَهه ولعَنَه؛ وأمّا الخارجي فلم يَطعَن في عِلمه، بل أثبتَه له، واعتَرَف به، وتعجّب منه، فقال: «قاتَلَه الله كافراً ما أفقَهَه!». فاغتَفَر له لفظةَ «كافر» بما اعترف له به من علوّ طَبَقته في الفِقْه، ولم يَخْشُن عليه خُشونته على الأشعث، وكان قد مَرَنَ على سَماع قول الخوارج: أنت كافر، وقد كفرتَ، يَعنُون التّحكيم، فلم يَـحفِل بـتلك اللّفظة ونَهى أصحابَه عن قتلِه محافظة ورعايةً له على ما مَدَحه به.



الأصْلُ :

وقال عليه السلام : كَفَاكَ مِنْ عَقْلِكَ ، مَا أَوْضَحَ لَكَ سُبُلَ غَيِّكَ مِنْ رُشْدِكَ .

الشّرْحُ :

يقول عليه السلام : كَفَى الإنسان من عِقْله ما يَفرِقُ به بين الغيّ والرّشاد ، وبين الحقّ من العقائد والباطل ، فإنّه بذلك يتمّ تكليفُه ، ولا حاجةَ في التّكليف ، والفَرْق بين الغَيّ والرُّشْد إلى زيادة على ذلك نحو التّجارب الّتي تُفيده الحَزْم التامّ ، ومعرفة أحوالِ الدّنيا وَأهلِها ، وأيضا لا حاجةَ له إلى أن يكون عندَه من الفِطْنَة الثّاقبة والذّكاء التّام ما يَستنبِطُ به دقائقَ الكلام في الحِكْمة والهَنْدسة والعلوم الغامِضَة ، فإنّ ذلك كلّه فَضْل مستغنىً عنه ، فإنْ حُصِّل للإنسان فقد كمُل ، وإن لم يُحصَّل للإنسان فقد كفَاه في تكليفه ونجاتِه من مَعاطِب العِصْيان ما يَفرِق به بين الغَيّ والرَّشاد ، وهو حصول العلوم البديهيّة في القَلْب ، وما جَرَى مَجراها من علوم العادات ، وما يذكره أصحابُنا في باب التكليف .



الأصْلُ :

وقال عليه السلام : اَفْعَلُوا اَلْخَيْرَ ، وَلَا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئاً ، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ ، وَقَلِيلَهُ كَثِيرٌ ، وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : إِنَّ أَحَداً أَوْلَى بِفِعْلِ اَلْخَيْرِ مِنِّي ، فَيَكُونَ وَاَللهِ كَذٰلِكَ .

الشّرْحُ :

القليلُ من الخير خيرٌ مِنْ عَدَم الخيرِ أصلاً .

قال عليه السلام : لا يقولَنّ أحدُكم إنّ فلاناً أَولَى بِفعْل الخَيْر منّي ؛ فيكون والله كذلك ، مثاله قوم

مُوسِرون في محلّة واحدة، قَصَد واحداً منهم سائلٌ فرَدّه، وقال له: اذهبْ إلى فلان، فهو أولَى بأن يتصدّق عليك منّي، فإنّ هذه الكلمة تقال دائماً. نَهَى ﷺ عن قولِها وقال: فيكونَ والله كذلك، أي أنّ الله تعالى يوفّق ذلك الشخصَ الّذي أُحيلَ ذلك السائلُ عليه، ويُيسّر الصّدَقة عليه، ويُقوّي دواعيَه إليها، فيَفعَلها فتكون كلمة ذلك الإنسان الأوّل قد صادفتْ قَدَراً وقضاءً، ووَقَع الأمر بمُوجَبِها.



الأصْلُ :

إنَّ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَهْلاً، فَمَهْمَا تَرَكْتُمُوهُ مِنْهُمَا كَفَاكُمُوهُ أَهْلُهُ.

الشّرْحُ :

يقول ﷺ: إنْ عَنَّ لك بابٌ من أبواب الخير وتركتَه، فسوف يَكفيكَه بعضُ الناس ممّن جَعَله الله تعالى أهلاً للخير وإسداءِ المعروفِ إلى الناس، وإنْ عنّ لك بابٌ من أبواب الشرّ فتركْته، فسوفَ يَكفيكَه بعضُ الناس ممّن جعلتْهم أنفسُهم وسوءُ اختيارِهم أهلاً للشرّ وأَذَىً الناس؛ فاخترْ لنفسك أيّما أحبّ إليك، أن تَحظَى بالمَحمَدة والثواب، وتَفعل ما إن تركتَه فَعَلَه غيرُك وحَظِيَ بحَمْده وثوابِه، أو أن تَترُكَه، وأيّما أحبّ إليك، أن تَشقَى بالذّم عاجلاً، والعقابِ آجلاً، وتفعل ما إن تركتَه كَفاكَه غيرُك، وبلغتَ غرضك منه على يدِ غيرِك، أو أن تفعله، ولا ريبَ أنّ العاقلَ يختارُ فعلَ الخير وترك الشّر إذا أَفْكَر حقّ الفِكْر فيما قد أَوضحْناه.



الأصْلُ :

وقال ﷺ: مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ، أَصْلَحَ ٱللّٰهُ عَلَانِيَتَهُ، وَمَنْ عَمِلَ لِدِينِهِ، كَفَاهُ ٱللّٰهُ أَمْرَ

دُنْيَاهُ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱللهِ، أَحْسَنَ ٱللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاس.

الشّرْحُ:

لا ريبَ أنّ الأعمال الظاهرة تبعٌ للأعمال الباطنة. فمَن صلَح باطنُه صَلَح ظاهرُه وبالعكس، وذلك لأنّ القلبَ أميرٌ مسلَّطٌ على الجوارح، والرعيّة تَتْبَع أميرَها ولا ريبَ أنّ من عَمِل لدينهِ كفاهُ الله أمرَ دُنياه، وقد شَهِد بذلك الكتابُ العَزيزُ في قوله سبحانه: ﴿**ومَن يتّقِ اللهَ يَجعلْ له مَخرَجاً * ويَرْزُقْه من حيث لا يحتسِب**﴾[1].

ولهذا أيضاً عِلّة ظاهرة؛ وذاك أنّ من عَمِل لله سبحانه وللدّين فإنه لا يخفى حالُه في أكثر الأمر عن الناس، ولا شبهة أنّ الناس إذا حَسُنتْ عقيدتُهم في إنسان وعَلِموا مَتانَة دينه بَوّبوا له إلى الدّنيا أبواباً لا يَحتاجُ أن يتكلّفها، ولا يَتعَب فيها، فيأتيه رزقُه من غيرِ كُلْفةٍ ولا كَدٍّ؛ ولا ريبَ أنّ من أحسَن فيما بينَه وبين الله أحسَنَ الله ما بينَه وبين الناس، وذلك لأنّ القلوبَ بالضّرورة تَميلُ إليه وتحبّه، وذلك لأنّه إذا كان مُحسِنا بينَه وبين الناس عَفَّ عن أموالِ الناس ودِمائِهم وأعراضِهم، وتَرَك الدخولَ فيما لا يَعنِيه، ولا شبهةَ أنّ من كان بهذه الصّفة فإنّه يحسن ما بَينَه وبين الناس.



الأصْلُ:

وقال عليه السلام: ٱلْحِلْمُ غِطَاءٌ سَاتِرٌ، وَٱلْعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِعٌ، فَاسْتُرْ خَلَلَ خُـلُقِكَ بِحِلْمِكَ، وَقَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ.

الشّرْحُ:

لمّا جعل الله الحِلْم غِطاءً، والعَقل حُساماً، أمرَه أن يَستُر خَلَل خُلُقه بذلك الغِطاء وأن يُقاتِل هَواهُ بذلك الحُسام، وقد سبق القولُ في الحلم والعَقْل.

---

١. سورة الطلاق ٢، ٣.



الأصْلُ :

وقال ﷺ : إنَّ للهِ عِبَاداً يَخْتَصُّهُمُ ٱللهُ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ ٱلْعِبَادِ، فَيُقِرُّهَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا؛ فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ، ثُمَّ حَوَّلَهَا إِلَىٰ غَيْرِهِمْ.

الشّرْحُ :

قد ذكرْنا هذا المعنى فيما تقدّم، وقد قالت الشعراءُ فيه فأكثَروا.

وأشدّ تصريحاً بالمعنى قول الشاعر:

لم يُعطِك اللهُ ما أَعطاكَ من نِعم ... إلّا لتُوسِع من يَرْجوكَ إحسانَا

فإنْ مَنَعت فأَخلِقْ أن تُصادِفها ... تطير عنكَ زرافاتٍ ووِحْدانَا



الأصْلُ :

وقال ﷺ : لَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَثِقَ بِخَصْلَتَيْنِ: ٱلْعَافِيَةِ وَٱلْغِنَىٰ، بَيْنَا تَرَاهُ مُعَافىً إذْ سَقِمَ وَبَيْنَا تَرَاهُ غَنِيّاً إذِ ٱفْتَقَرَ.

الشّرْحُ :

قد تقدَّم القولُ في هذا المعنى.

وبينما المرءُ في الأحياءِ مُغْتَبِطٌ ... إذ صارَ في اللّحْدِ تَسْفِيهِ الأعاصيرُ

آخر:

يَغُرُّ الفَتى مَرُّ الليالي سَليمةً ... وهُنّ بِه عمّا قليلٍ عَواثِرُ

وقال آخَر:

وَرُبَّ غَـنيٍّ عَـظيم الثّراءِ ... أمسَى مُقِلّاً عَديماً فَقيرَا

وكم باتَ مِنْ مُترَفٍ في القُصور ... فعُوِّض في الصّبح عنها القُبورَا



الأَصْلُ:

وقالعليه السلام: مَنْ شَكَا ٱلْحَاجَةَ إِلَىٰ مُؤْمِنٍ فَكَأَنَّهُ شَكَاهَا إِلَىٰ ٱللهِ، وَمَنْ شَكَاهَا إِلَىٰ كَافِرٍ، فَكَأَنَّمَا شَكَا ٱللهَ.

الشّرْحُ:

كلامُ أميرِ المؤمنينعليه السلام يدلُّ على أنه لا يَكرَه شَكوَى الحالِ إلى المؤمن، ويَكرَهها إلى غير المؤمن، وهذا مذهبٌ دِينيٌّ غيرُ المذهب العُرْفيّ.

وأكثر مذاهِبه ومقاصدهعليه السلام في كلامه يَنْحو فيها نحوَ الدِّين والوَرَع والإسلام وكأنّه يَجعَل الشكوى إلى المؤمن كالشكوى إلى الخالق سبحانه، لأنّه لا يشكو إلى المؤمن إلّا وقد خَلَتْ شكْواه من التسخُّط والتأفّف، ولا يشكُو إلى الكافر إلّا وقد شابَ شَكْواه بالاستزادة والتَّضجُّر، فافترقَتْ الحالُ في الموضعين.

فأمّا المذهب المشهورُ في العُرْف والعادة فاستهْجانُ الشّكوى على الإطلاق؛ لأنّها دليلٌ على ضَعْف النّفس وخذْلانها، وقلّة الصّبر على حوادث الدّهر، وذلك عندَهم غيرُ محمود.



الأَصْلُ:

وقالعليه السلام في بعض الأَعيَاد: وإِنَّمَا هُوَ عِيدٌ لِمَنْ قَبلَ ٱللهُ صِيَامَهُ، وَشَكَرَ قِيَامَهُ، وَكُلُّ

يَوْمٍ لَا تَعْصِي آللهَ فِيهِ فَهُوَ عِيدٌ.

الشّرْحُ:

المعنَى ظاهرٌ، وقد نَقَله بعضُ المحدّثين إلى الغزَل فقال:

قالوا أتَى العِيدُ قلتُ أهلاً　　إنْ جاءَ بالوَصْل فهوَ عِيدُ
مَنْ ظَفِرتْ بالمُنى يداهُ　　فكلّ أيامِه سُعودُ



الأصْلُ:

وقال ﷺ: إِنَّ أَعْظَمَ آلْحَسَرَاتِ يَوْمَ آلْقِيَامَةِ حَسْرَةُ رَجُلٍ كَسَبَ مَالاً فِي غَيْرِ طَاعَةِ آللهِ، فَوَرِثَهُ رَجُلٌ فَأَنْفَقَهُ فِي طَاعَةِ آللهِ سُبْحَانَهُ، فَدَخَلَ بِهِ آلْجَنَّةَ، وَدَخَلَ آلْأَوَّلُ بِهِ النَّارَ[1].



الأصْلُ:

وقال ﷺ: إِنَّ أَخْسَرَ النَّاس صَفْقَةً، وَأَخْيَبَهُمْ سَعْياً، رَجُلٌ أَخْلَقَ بَدَنَهُ فِي طَلَبِ مَالِهِ، وَلَمْ تُسَاعِدْهُ آلْمَقَادِيرُ عَلَىٰ إِرَادَتِهِ، فَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا بِحَسْرَتِهِ، وَقَدِمَ عَلَىٰ آلآخِرَةِ بِتَبِعَتِهِ.

١. إنما كانت عليه أعظم الحسرات لعدم انتفاعه بماله، وعذابه في الآخرة ومشاهدته لانتفاع غيره به. مصباح السالكين / ابن ميثم: ص ٦٧٦.

الشّرْحُ :

هذه صورةُ أكثر الناس، وذلك لأنّ أكثرهُم يَكُدّ بدنَه ونفسَه في بلوغِ الآمال الدّنيويّة، والقليل منهم من تساعِده المقاديرُ على إرادته، وإن ساعدَتْه على شيء منها بقِيَ في نفسه ما لا يَبْلغه، كما قيل:

نَروحُ ونَغدُو لحاجاتنا وحاجَةُ من عاش لا تَنْقضِي

تَموتُ مع المرءِ حاجاتُه وتَبْقَى له حاجَةٌ ما بقِي

فأكثرُهم إذَنْ يَخرُج من الدنيا بحَسْرته، ويُقدِم على الآخرة بتَبِعته، لأنّ تلك الآمال التي كانت الحركة والسعيُ فيها ليستْ متعلقةً بأمور الدّين والآخرة، لا جَرَم أنها تبعات وعُقوبات، ونسأل الله عَفوَه.



الأصْلُ :

وقال ﷺ: الرِّزْقُ رِزْقَانِ: طَالِبٌ وَمَطْلُوبٌ، فَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا طَلَبَهُ ٱلْمَوْتُ حَتَّىٰ يُخْرِجَهُ عَنْهَا، وَمَنْ طَلَبَ ٱلآخِرَةَ طَلَبَتْهُ الدُّنْيَا حَتَّىٰ يَسْتَوْفِيَ مِنْهَا رِزْقَهُ.

الشّرْحُ :

هذا تحريضٌ على طلب الآخِرة، ووَعْد لمن طَلَبها بأنه سيُكفى طلب الدنيا، وإنّ الدنيا ستَطلبُه حتى يستوفيَ رزقَه منها.

وقد قيل: مَثَل الدّنيا مَثل ظِلّك، كلّما طلبتَه بَعُد عنك، فإن أدبَرْتَ عنه تَبِعَك[1].

---

١. في الحكمة ٣٨٥: «الرزق رزقان...».

٤٤١

الأصْلُ:

وقالﷺ: إنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللهِ هُمُ ٱلَّذِينَ نَظَرُوا إِلَىٰ بَاطِنِ الدُّنْيَا إِذَا نَظَرَ النَّاسُ إِلَىٰ ظَاهِرِهَا، وَٱشْتَغَلُوا بِآجِلِهَا إِذَا ٱشْتَغَلَ النَّاسُ بِعَاجِلِهَا، فَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا أَحَسُّوا أَنْ يُمِيتَهُمْ، وَتَرَكُوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أَنَّهُ سَيَتْرُكُهُمْ، وَرَأَوْا ٱسْتِكْثَارَ غَيْرِهِمْ مِنْهَا ٱسْتِقْلَالاً، وَدَرْكَهُمْ لَهَا فَوَاتاً، أَعْدَاءٌ لِمَا سَالَمَ النَّاسُ، وَسَلْمٌ لِمَنْ عَادَىٰ النَّاسُ! بِهِمْ عُلِمَ ٱلْكِتَابُ، وَبِهِ عُلِمُوا، وَبِهِمْ قَامَ كِتَابُ اللهِ تَعَالىٰ، وَبِهِ قَامُوا، لَا يَرَوْنَ مَرْجُوّاً فَوْقَ مَا يَرْجُونَ، وَلَا مَخُوفاً فَوْقَ مَا يَخَافُونَ.

الشّرْحُ:

هذا يَصلُح أن تَجعله الإماميّة شرح حال الأئمّة المعصومين على مذهبهم، لقَولِه: فوقَ ما يَرْجون، بهم عُلِم الكتاب، وبه عُلموا؛ وأمّا نحن فنجعله شرح حالِ العلماء العارفين[1] وهم أولياءُ الله الذين ذكرهمﷺ لما نظر الناسُ إلى ظاهر الدنيا وزُخْرُفها من المناكح والملابس والشَّهَوات الحِسّية، نظروا هُمْ إلى باطن الدنيا، فاشتغلوا بالعلوم والمعارف والعبادة والزهد في المَلاذّ الجُسْمانيّة، فأَمَاتُوا من شَهَواتِهم وقُواهم المذمومة كقوّة الغَضب وقوّة الحسد ما خافوا أن يُميتَهم، وتَركُوا من الدنيا اقتناءَ الأموال لعلمهم أنها ستترُكهم، وأنه لا يمكن دوامُ الصُّحْبة معها، فكان استِكثارُ الناس من تلك الصفات استقلالاً عندهم، وبلوغ الناس

---

١. أقول: هذه الأوصاف التي ذكرها الإمامﷺ لا تنطبق إلّا علىٰ أئمة أهل البيت المعصومينﷺ، فلولاهم لما عُلم تفسير الآيات وتأويل المتشابهات. (وبه عُلموا) لدلالة آيات الكتاب الكريم علىٰ فضلهم وشرفهم وعلو رتبتهم ومنزلتهم، كآيات المودة والتطهير، والولاية والمباهلة، والشاهد، وغيرها. ولا شك أن أئمتناﷺ هم العلماء العارفون وهم أولياء الله الذين ذكرهمﷺ دون غيرهم.

ولو أراد أن يعمم الكلام ليشمل العلماء الربانيين، فلا بأس به فيكون المراد أنه علم فضلهم بالآيات الكريمة الدالة علىٰ فضل العلماء.

لها قَوْتاً أيضاً عندهم، فهم خَصْم لِما سالَمه الناسُ مِن الشهوات، وسِلْم لِما عاداه الناس من العُلوم والعبادات، وبهم عُلم الكتاب. لأنّه لولاهم لما عُرِف تأويل الآيات المتشابهات، ولأَخَذَها الناسُ على ظواهرها فضلّوا وبالكتاب عُلموا، لأنّ الكتابَ دلّ عليهم، ونبّه الناس على مواضعهم، نحو قوله: ﴿إنما يَخشَى اللهَ من عبادِه العلماءُ﴾. وقوله: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يَعلمون﴾[1]. وقوله: ﴿ومَن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أُوتيَ خيراً كثيراً﴾[2].

ونحو ذلك من الآيات التي تنادي عليهم، وتَخطُب بفَضْلهم، وبهم قام الكتاب؛ لأنهم قرّروا البَراهين على صِدْقه وصحة وروده من الله تعالى على لسان جبريل‍ﷺ ولولاهم لم يَقُم على ذلك دَلالة للعوامّ، وبالكتاب قاموا، أي باتباع أوامر الكتاب وآدابه قاموا، لأنّه لولا تأدُّبهم بآداب القرآن، وامتثالهم أوامرَه؛ لما أغنى عنهم عِلمُهم شيئاً، بل كان وَبالُه عليهم، ثم قال: إنّهم لا يَرَوْن مَرْجُوّاً فوق ما يَرْجون، ولا مَخُوفاً فوق ما يخافون، وكيف لا يكونون كذلك ومَرْجُوُّهم مجاوَرة الله تعالى في حظائر قُدْسه، وهل فوق هذا مَرْجُوّ لراجٍ! ومخوفهم سخط الله عليهم وإبعادُهم عن جَنابه، وهل فوق هذا مخوفٌ لخائف!



الأصْلُ:

وقال‍ﷺ: آذْكُرُوا آنْقِطَاعَ اللَّذَّاتِ، وَبَقَاءَ التَّبِعَاتِ.

الشّرْحُ:

قد تقدّم القولُ في نحو هذا مراراً؛ وقال الشاعر:

تفنى اللّـذاذةُ ممن نـال بُـغْيَتَهُ ... من الحرام، ويَبقَى الإثمُ والعـارُ
تبقى عواقب سُـوءٍ فـي مَـغبّتها ... لا خير في لذّة من بـعدها النّـارُ

---

١. سورة الزمر ٩.

٢. سورة البقرة ٢٦٩.

وراوَدَ رجل امرأة عن نفسها، فقالت له: إن امرأً يبيع جنّةً عرضُها السماوات والأرض بمقدار إصبَعين لجاهلٌ بالمساحَة؛ فاستحيا ورَجَع.



الأصْلُ:

وقال: أُخْبُرْ تَقْلَهْ.

قال الرضي: ومن الناس من يروي هذا لرسول الله. ومما يقوّي أنّه من كلام أمير المؤمنين ما حكاه ثَعلب قال: حدّثنا ابنُ الأعرابيّ، قال: قال المأمون: لولا أن علياً قال: «أُخْبُرْ تَقْلَهْ» لقلت أنا: إقْلَهْ تَخْبُرْ.

الشّرْحُ:

المعنى اختَبِر الناسَ وَجرِّبهم تُبغِضهم، فإن التجربةَ تكشف لك عن مَساويهم وسوءِ أخلاقهم، فَضربَ مَثلاً لمن يُظَنّ به الخيرُ وليس هناك. فأمّا قول المأمون: لولا أنّ علياً قاله لقُلتُ: اقْلَهْ تَخْبُر، فليسَ المراد حقيقة القِلَى، وهو البُغْض بل المراد الهَجْر والقطيعة، يقول: قاطِعْ أخاك مجرّباً له هل يَبقَى على عَهدِك أم يَنقُضه ويحوّله عنك.

ومن المعنى الأوّل قولُ أبي العَلاء:

جرّبتُ دهرِي وأهلِيه فما تَركتْ ... ليَ التجاربُ في وُدٍّ امرئٍ غَرَضَا[1]



الأصْلُ:

وقال: مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَفْتَحَ عَلَىٰ عَبْدٍ بَابَ الدُّعَاءِ، وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ ٱلْإِجَابَةِ، وَلَا لِيَفْتَحَ

---

١. سقط الزند: ص ٦٥٦.

عَلَيْهِ بَابَ التَّوْبَةِ، وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ ٱلْمَغْفِرَةِ.

الشّرْحُ:

قد تقدّم القولُ في الشّكر واقتضائِه الزيادة؛ واقتضاء الدّعاء الإجابةَ؛ والتّوبة المغفرة، على وجهِ الاستقصاء في الجَميع.



الأصْلُ:

وقال: أَوْلَىٰ النَّاس بِٱلْكَرَمِ مَنْ عَرَّقَتْ فِيهِ ٱلْكِرَامُ.

الشّرْحُ:

أعرَقت وعَرَّقت في هذا المَوْضع بمعنىً، أي ضربتْ عروقُه في الكَرَم، أي له سَلَف وآباءٌ كرامٌ. وقال المبرّد: أنشدني أبو محلّم السعديّ:

إنّـــا سَأَلْـنا قَـومَنا فـخيارُهم ... من كان أفضلُهم أبوهُ الأفـضَلُ

أعطَى الّذي أعطَى أبـوه قـبلَه ... وتَـبخّلتْ أبـناءُ مـن يَـتَبخّلُ

وقال البُحتريّ:

وأرى النّـــجابَة لا يكـون تـمامُها ... لنَـــجيبِ قـومٍ ليسَ بـابن نـجيبِ



الأصْلُ:

وسُئل: أَيُّما أَفضل، العدل، أَو الجود ؟ فقال:

اَلْعَدْلُ يَضَعُ اَلْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا، وَاَلْجُودُ يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا، وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ، وَاَلْجُودُ عَارِضٌ خَاصٌّ. فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا.

الشّرْحُ:

هذا كلامٌ شريفٌ جليلُ القَدْر؛ فضَّل العَدْل بأمرين:

أحدُهما: أنّ العدل وضعُ الأمُور مواضعَها، وهكذا العَدالة في الاصطلاح الحُكْميّ، لأنها المَرْتَبة المتوسّطة بين طَرَفي الإفراط والتّفريط، والجُود يُخرِج الأمر عن موضعِه، والمراد بالجُود هاهنا هو الجود العُرْفيّ، وهو بَذْل المُقتَنَيات للغير، لا الجود الحقيقيّ؛ لأنّ الجُود الحقيقيّ ليس يُخرِج الأمر عن جهتِه، نحو جود البارِي تعالى.

والوجه الثاني: أنّ العدل سائسٌ عامّ في جميع الأُمور الدّينيّة والدنْيويّة، وبه نظام العالَم وقِوام الوجود؛ وأمّا الجود فأمرٌ عارِضٌ خاصّ، ليس عموم نفعه كعموم نفع العَدْل.



الأصْلُ:

وقال: النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا.

الشّرْحُ:

هذه من ألفاظه الشّريفة الّتي لا نظيرَ لها، وقد تقدّم ذكرها[1] وذكرُ ما يُناسبها. وكان يقال: مَن جَهِل شيئاً عاداه.

وقال الشاعر:

جهلتَ أمراً فأبديْتَ النَّكيرَ له ... والجاهلُون لأهْلِ العلم أعداءُ

---

١. انظر: الحكمة ١٧٤.



الأصْلُ :

وقال ﷺ : الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ ٱلْقُرْآنِ؛ قَالَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ : ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[١]، وَمَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَىٰ ٱلْمَاضِي وَلَمْ يَفْرَحْ بِالآتِي، فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بِطَرَفَيْهِ.

الشّرْحُ :

قد تقدّم القولُ في هذين المعنَيَين بما فيه كفاية[٢].



الأصْلُ :

وقال ﷺ : ٱلْوِلَايَاتُ مَضَامِيرُ[٣] الرِّجَالِ.

الشّرْحُ :

أي تُعرَف الرجالُ بها كما تُعرَف الخيل بالمضمار، وهو المَوضع أو المُدّة الّتي تُضمَّر فيها الخيل، فمِن الوُلاة مَن يَظهَر منه أخلاقٌ حميدة، ومنهم من يظهَر منه أخلاقٌ ذميمة.

---

١. سورة الحديد ٢٣.

٢. لم يَأْسَ: لم يحزن علىٰ ما نفذ به القضاء.

٣. مضمار: جمع مضامير، وهو المكان والمدة التي تُضمرُ فيها الخيل للسباق. يقول: تُعرف الرجال بالولايات، وبعد تولي الرئاسة، وتظهر فيها طباعهم المخبوءة، كما تعرف أحوال الخيل في المضمار، ويتبين فيها السابق من اللاحق.

وقال الشاعر:

سكراتٌ خمسٌ إذا مُنِيَ المر ... ءُ بها صارَ عُرضةً للزّمانِ
سَكْرةُ المَالِ والحداثة والعِشْ ... ـقِ وسكرُ الشّراب والسّلطانِ

٤٥٠

الأصْلُ:

وقال عليه السلام: مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ[1]!

الشَّرْحُ:

هذه الكلمةُ قد سبقتْ، وتكلّمنا عليها[2]، وما أحسنَ قولَ المَعرّي:

ما قَضَى الحاجاتِ إلّا شِمِلٌّ ... نومُه فوقَ فِراشٍ من نمالْ[3]

٤٥١

الأصْلُ:

وقال عليه السلام: لَيْسَ بَلَدٌ بِأَحَقَّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ؛ خَيْرُ الْبِلَادِ مَا حَمَلَكَ.

الشَّرْحُ:

هذا المعنى قد قيل كثيراً، ومن ذلك قولُ الشاعر:

لا يَصْدِفنّكَ عن أمرٍ تُحاوِلُهُ ... فِراقُ أهلٍ وأحبابٍ وجيرانِ

---

١. أي قد يعزم الإنسان على أمر، فإذا نام وجد انحلالاً في عزيمته، فيغلبه النوم على عزيمته، فتذهب هباءً.

٢. انظر: الخطبة ٢١٥.

٣. الشمل: السريع.

تلقَى بكلِّ ديارٍ ما حللتَ بها أهلاً بأهلٍ وأوطاناً بأوطانِ



الأصْلُ :

وقالﷺ وقد جاءه نعي آلأشترﷺ : مَالِكٌ ، وَمَا مَالِكٌ ! وَآللهِ لَوْ كَانَ جَبَلاً لَكَانَ فِنْداً ، أَوْ كَانَ حَجَراً لَكَانَ صَلْداً ، لَا يَرْتَقِيهِ آلْحَافِرُ ، وَلَا يُوفِي عَلَيْهِ الطَّائِرُ .

وقال الرضي رَحِمهُ اللهُ تعالى : والفند : المنفرد من الجبال .

الشّرْحُ :

يقال : إنّ الرّضيّ خَتم كتاب نَهْج البلاغة بهذا الفصل ، وكُتبتْ به نُسَخٌ متعدِّدة ثمّ زاد عليه إلى أن وَفى الزِّيادات التي نذكرها فيما بعد .

وقد تقدّم ذكرُ الأشتر ، وإنما قال : لو كان جَبَلاً لكان فِنْداً ، لأنّ الفندِ قطعةُ الجَبل طُولاً ، وليس الفِنْد القِطعةَ من الجبل كيفما كانت ، ولذلك قال : لا يرتقيه الحافر ، لأنّ القطعة المأخوذة من الجَبَل طُولاً في دِقّة لا سبيل للحافر إلى صعودِها ، ولو أُخِذت عَرْضاً لأمكَنَ صُعُودها .

ثم وَصَف تلك القطعَة بالعلوّ العظيم ، فقال : ولا يوفي عليه الطائر ، أي لا يصعد عليه ، يقال : أوفى فلانٌ على الجبَل : أشرَف .



الأصْلُ :

وقالﷺ : قَلِيلٌ مَدُومٌ عَلَيْهِ ، خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ .

الشّرْحُ :

هذا كلامٌ يُخاطِب به أهل العبادات والصلاة، قال: قليلٌ من النوافل يدومُ المرءُ عليه خيرٌ له من كثير منها يمَلّه ويترُكه.

والجيّد النادر في هذا قولُ رسول الله ﷺ: إنّ هذا الدِّين متين، فأوْغِلْ فيه برِفق، فإنّ المنبتَّ لا أرضاً قَطَع ولا ظَهْراً أبْقى.



الأصْلُ :

وقال عليه السلام: إذَا كَانَ في رَجُلٍ خَلَّةٌ رَائِعَةٌ فَانْتَظِرُوا مِنْهُ أَخَوَاتِهَا.

الشّرْحُ :

مثال ذلك إنسان مَستور الحال عنا رأيْناه وقد صدرتْ عنه حركةٌ تَروعُك وتُعجبك؛ إمّا لحُسنها أو لقُبْحها، مثل أن يتصدّق بشيء له وَقْع ومقدار مِن مالِه، أو ينكر منكراً عجز غيرُه عن إنكاره، أو يَسرِق أو يَزني، فينبغي أن يُنتظر ويُترقّب منه أخَوات ما وَقَع منه؛ وذلك لأنّ العقل والطبيعة الّتي فيه المحرّكة له إلى فعل تلك الحركة، لابدّ أن تحرّكه إلى فِعْل ما يُناسِبها، لأنّه ما دعته إلى فعل تلك الحركة لخصوصيّة تلك الحركة، بل لما فيها من المعنى المقتضي وقوعها وهذا يتعدّى إلىٰ غيرها ممّا يجانسها.



الأصْلُ :

وقال عليه السلام لغالب بن صعصعة أبي الفرزدق في كلام دار بينهما:

مَا فَعَلَتْ إِبِلُكَ ٱلْكثِيرَةُ ؟ قَالَ: ذَعْذَعَتْهَا ٱلْحُقُوقُ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤمِنِينَ. فَقالﷺ: ذٰلِكَ أَحْمَدُ سُبُلِهَا.

الشّرْحُ:

ذعذَعَتْها بالذال المعجمة مكرّرة: فرّقتْها، ذَعْذَعْتُه فتَذعذَع، وذَعْذَعةُ السرّ: إذاعتُه. والذَّعاذِع: الفِرَق المتفرِّقة، الواحدةَ ذعذَعة، وربما قالوا: تفرّقوا ذَعاذِع.

دخل غالبُ بنُ صعصعةَ بن ناجية بن عقال المُجاشِعيّ على أمير المؤمنينﷺ أيّام خلافته، وغالبٌ شيخٌ كبير، ومعه ابنُه همّام الفَرَزْدق وهو غلام يومئذٍ، فقال له أمير المؤمنينﷺ: مَن الشيخ ؟ قال: أنا غالبُ بنُ صعصعة؛ قال: ذو الإبل الكثيرة ؟ قال: نعم، قال: ما فعلت إبلُك ؟ قال: ذعذعتْها الحقُوق، وأذهبتْها الحَمالات والنوائب؛ قال: ذاك أحمد سُبُلِها؛ مَن هذا الغلامُ مَعَك ؟ قال: هذا ابني، قال: ما اسمُه ؟ قال همّام؛ وقد روّيتُه الشِّعرَ يا أميرَ المؤمنين وكلامَ العَرَب، ويوشِك أن يكون شاعراً مُجيداً؛ فقال: لو أقرأتَه القرآنَ فهو خيرٌ له؛ فكان الفرزدقُ بعدُ يَروي هذا الحديثَ ويقول: ما زالتْ كلمتُه في نفسي حتّى قيّد نفسَه بقَيْد، وآلى ألّا يَفُكّه حتّى يَحفَظ القرآنَ، فما فكّه حتّى حَفِظه.



٤٥٦

الأصْلُ:

وقالﷺ: مَنِ ٱتَّجَرَ بِغَيْرِ فِقْهٍ فَقَدِ ٱرْتَطَمَ فِي الرِّبَا.

الشّرْحُ:

يقول: تَجَر فلانٌ واتّجر فهو تاجر، والجمع تَجْر، مِثل صاحِب وصَحْب، والتِّجارة والتَّجْر بمعنىً واحد؛ إذا أخذْتَهما مصدَرَيْن لـ«تَجَر»، وأَرض مَتْجَرةٌ يُتّجر فيها.

وارتطم فلانٌ في الوَحْل والأمر إذا ارْتَبَك فيه ولم يَقدِر على الخروج منه، وإنّما قالﷺ

ذلك لأنّ مسائلَ الرِّبا مُشتَبِهة بمسائل البَيْع، ولا يَفْرِق بينهما إلّا الفقيه حتّى إنّ العُظماءَ من الفقهاء قد اشتَبَه عليهم الأمرُ فيها فاختلفوا فيها أشدَّ اختلاف.



الأصْلُ:

وقال عليه السلام: مَنْ عَظَّمَ صِغَارَ ٱلْمَصَائِبِ؛ ٱبْتَلَاهُ ٱللهُ بِكِبَارِهَا.

الشّرْحُ:

إنّما كان كذلك لأنّه يشكو الله ويَتسخَّط قضاءه، ويَجْحد النّعمة في التّخفيف عنهُ، ويدّعي فيما ليس بمجحِف بِهِ من حوادث الدهر أنّهُ مجحف ويتألمُ بين الناس؛ لذلك أكثَر ممّا تقتضيه نَكْبَتُه، ومَن فعَلَ ذلك استَوْجَب السُّخْطَ من الله تعالى، وابتُلِيَ بالكثير من النَّكبة، وإنما الواجب على من وقع في أمر يَشُق عليه، ويتألّم منه ويَنال من نفسه، أو من مالِه نَيْلاً ما، أن يَحمَد الله تعالى على ذلك، ويقول: لعلّه قد دَفَع بهذا عنّي ما هو أعظَم منه، ولئن كان قد ذهب من مالي جزءٌ فلقد بقَي أجزاءٌ كثيرة.



الأصْلُ:

وقال عليه السلام: مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، هَانَتْ عَلَيْهِ شَهَوَتُهُ.

الشّرْحُ:

قد تقدّم مِثلُ هذا المعنى مِراراً، ومن الكلام المشهور بين العامّة: قبّح الله ٱمرأً تَغْلِب شَهْوَته على نَخْوَته.

والجيّد النادر في هذا قولُ الشاعر:

فــإنّك إنْ أعـطَيْتَ بـطنَك سُـؤلَه　　　وفرْجَك نالاَ مُنتهَى الذَّمِّ أجمعَا[1]



الأصْلُ:

وقال عليه السلام: مَا مَزَحَ آمْرُؤٌ مَزْحَةً إِلَّا مَجَّ مِنْ عَقْلِهِ مَجَّةً[2].

الشّرْحُ:

قد تقدَّم القولُ في المزاحِ. وكان يقال: خيرُ المزاحِ لا يُنال، وشرّه لا يُستقَالُ. وقيل: إنّما سُمِّيَ المِزاحُ مِزاحاً؛ لأنّه أُزِيح عن الحقّ.



الأصْلُ:

وقال عليه السلام: زُهْدُكَ فِي رَاغِبٍ فِيكَ نُقْصَانُ حَظٍّ، وَرَغْبَتُكَ فِي زَاهِدٍ فِيكَ ذُلُّ نَفْس.

الشّرْحُ:

أي نقصانُ حظٍّ لك، وذلك لأنّه ليس مِن حقّ مَن رَغِب فيك أن تَزهَد فيه؛ لأنّ الإحسان لا يُكافأ بالإساءة، وللقصد حُرْمة، وللآمل ذِمام، ومن طَلَب مودّتك فقد قَصَدك، وأمّلك،

١. لحاتم الطائي، ديوانه: ص ١١٤.

٢. المزْح والمُزاح: المضاحكة بفعل أو قول. ومجّ الماء من فيه: رماه، ويقال: هذا كلام تمجّه الأسماع أي تستكرهه. والمزاح الحرام هو ما يؤدي إلى الحرام. وأمّا المزاح في حدود الشرع جائز.

فلا يجوزُ رفضُه واطّراحُهُ والزّهدُ فيه، وإذا زَهدت فيه فذلك لنُقصانِ حَظّك لا لنُقْصان حَظّه، فأمّا رَغبَتُك في زاهدٍ فيك فمذَلّة؛ لأنّك تطرح نفسَك لمن لا يعبأ بك، وهذا ذُلٌّ وصَغار.



الأصْلُ:

وقال عليه السلام: مَا زَالَ الزُّبَيْرُ رَجُلاً مِنَّا أَهْلَ ٱلْبَيْتِ حَتَّىٰ نَشَأَ ٱبْنُهُ ٱلْمَشْؤُومُ عَبْدُٱللهِ.

الشّرْحُ:

ذكر هذا الكلامَ أبو عُمَر بنُ عبد البرّ في كتاب (الاستيعاب) عن أميرِ المؤمنين عليه السلام في عبدِ الله ابن الزبير، إلّا أنّه لم يَذكُر لفظة المشؤوم.

يُكنى عبدُ الله بن الزبير أبا بكر. وشَهِد عبدُ الله الجَمَل مع أبيه وخالتِه. فيه خلال لا يَصلُح معها للخلافة، فإنّه كان بخيلاً ضَيّق العَطَن سيّء الخُلُق حَسُوداً، كثيرَ الخلاف، وبُويع له بالخلافة سنةَ أربع وستّين في قول أبي مَعشر. كان يُطعِم جندَه تمراً، ويأمُرهم بالحرْب، فإذا فَرّوا مِن وَقع السّيوف لامَهم وقال لهم: أكَلتم تَمْري، وعَصيْتم أمري.

جَمَع عبدُ الله بنُ الزبير محمدَ بن الحنفية وعبدَ الله بن عباس في سبعةِ عشر رجلاً من بني هاشم، منهم الحسن بنُ الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وحصَرَهم في شِعْب بمكة يُعرَف بشعب عارِم، وقال: لا تمضي الجمعةُ حتىٰ تُبايعوا إليّ أو أضرب أعناقَكم، أو أُحرّقكم.

قطع عبد الله بن الزبير في الخطبة ذكرَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله جُمعاً كثيرة، فاستعظم الناس ذلك، فقال: إني لا أرغب عن ذكره، ولكنّ له أُهيل سوء إذا ذكرتُه أتلعوا أعناقَهم، فأنا أُحِبّ أن أكْبِتهم.

﴿٤٦٢﴾

الأَصْلُ:

وقالعليه السلام: مَا لِابْنِ آدَمَ وَالْفَخْرِ! أَوَّلُهُ نُطْفَةٌ، وَآخِرُهُ جِيفَةٌ. لَا يَرْزُقُ نَفْسَهُ، وَلَا يَدْفَعُ حَتْفَهُ.

الشَّرْحُ:

قد تقدّم كلامُنا في الفَخْر، وذكَرْنا الشّعرَ الّذي أُخِذَ من هذا الكلام، وهو قولُ القائل:

ما بالُ مَن أوّلُه نُطفةٌ ... وجيفةٌ آخِرُه يفخَرُ

يُصبِح ما يَملِك تقديمَ ما ... يَرجُو ولا تأخيرَ ما يَحذَرُ!

وإذا كان لابدّ من الفَخْر فلْيفْخَر الإنسانُ بعلْمه وبشَرِيف خُلُقه، وإذا أعجَبَك من الدّنيا شيءٌ فاذكرْ فناءَك وبقاءَه، أو بقاءَك وفناءَه، أو فناءَكما جميعاً.



الأَصْلُ:

الْغِنَىٰ وَالْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَىٰ اللهِ.

الشَّرْحُ:

أي لا يُعَدّ الغنيّ غنيّاً في الحقيقة إلّا من حَصَل له ثوابُ الآخرة الّذي لا يَنقطع أبداً ولا يعدّ الفقير فقيراً إلّا مَنْ لم يَحصُل له ذلك، فإنّه لا يزال شقيّاً معذَّباً، وذاك هو الفَقْر بالحقيقة.

فأمّا غِنَى الدنيا وفَقْرُها فأمران عَرَضيّان، زوالهما سريع، وانقضاؤهما وَشِيك. وإطلاق هاتَيْن اللّفظتين على مُسمّاهما الدّنيويّ على سبيلِ المجاز عند أربابِ الطريقة، أعنِي العارِفين.



الأصْلُ :

وسُئل عن أشعر الشعراء، فقال ﷺ: إِنَّ ٱلْقَوْمَ لَمْ يَجْرُوا فِي حَلْبَةٍ تُعْرَفُ ٱلْغَايَةُ عِنْدَ قَصَبَتِهَا، فَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ فَالْمَلِكُ الضِّلِّيلُ[1].

قال: يُرِيدُ اُمْرَأَ القَيْسَ.

الشّرْحُ :

فأما قولُ أمير المؤمنين ﷺ «المَلك الضّلّيل» فإنما سُمّي امرُؤ القيس ضِلّيلاً لما يُعلن به في شِعره من الفِسْق، والضِّلّيل: الكثيرُ الضلال، كالشِّرّيب، والخِمّير والسِّكير، والفِسّيق، للكثير الشُرْب وادّمان الخَمر والسُكر والفِسْق.



الأصْلُ :

وقال ﷺ: أَلَا حُرٌّ يَدَعُ هٰذِهِ اللُّمَاظَةَ لِأَهْلِهَا! إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا ٱلْجَنَّةَ، فَلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا.

الشّرْحُ :

اللُّماظة بفَتْح اللّام: ما تَبقّى في الفم من الطّعام ولَمَظ الرجل يَلمُظ بالضمّ لَمْظاً، إذا تتبّع بلسانِه بقيّة الطعام في فمه وأخرَج لسانه فمسَح به شفَتيه، وكذلك التّلمُّظ [والمراد بها هنا الدنيا].

---

١. جرىٰ الفرس: ركض وعدا. الحَلْبة: القطعة من الخيل تجتمع للسباق. القصبة: الغاية التي تنصب آخر السباق.

وقال: «ألا حُرٌّ»، مبتدأ، وخبرُه مَحْذوف أي في الوجود. ثم قال: إنه ليس لأنفسِكم ثمنٌ إلّا الجنة، فلا تبيعوها إلّا بها، من الناس من يبيعُ نفسه بالدراهم والدّنانير، ومن الناس من يبيع نفسه بأحقر الأشياء وأهونها، ويتبع هواهُ فيَهلك، وهؤلاء في الحقيقة أحمقُ الناس، إلّا أنه قَدْ رين على القُلوب، فغطّتها الذنوب، وأظلمت الأنفسُ بالجهْل وسوء العادة، وطال الأمد أيضاً علىٰ القلوب فَقَسَتْ، ولو أفكر الإنسانُ حَقّ الفِكْر لما باع نفسه إلّا بالجنّة لا غير.



الأَصْلُ:

وقال عليه السلام: مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا.

الشّرْحُ:

تقول: نَهِم فلانٌ بكذَا فهو مَنْهوم، أي مُولع به، وهذِه الكلمة مَرْويّة عن النّبيّ صلى الله عليه وآله: «مَنْهومان لا يَشبَعان: منهومٌ بالمالِ، ومنهومٌ بالعلْم». والنَّهَم بالفَتْح: إفراطُ الشَّهْوة في الطّعام، تقول منه: نَهِمْتُ إلى الطّعام بكسرِ الهاء أنْهَم فأنَا نَهِم.

فأمّا طالبُ العِلْم العاشِقُ له، فإنّه لا يَشبَع منه أبداً، وكلّما استَكثَر منه زادَ عِشْقهُ له، وتَهَالُكه عليه.



الأَصْلُ:

وقال عليه السلام: علامَةُ ٱلْإِيمَانُ أَنْ تُؤثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ، عَلَىٰ ٱلْكَذِبِ حَيْثُ يَنْفَعُكَ،

وَأن لا يَكُونَ فِي حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَنْ عِلْمِكَ، وَأَنْ تَتَّقِيَ ٱللهَ فِي حَدِيثِ غَيْرِكَ.

الشّرْحُ:

قد أخَذ المعنَى الأوّل القائلُ:

عــليكَ بـالصِّدْق ولَـو أنّـه   أحْرَقَك الصِّدْقُ بنارِ الوَعِـيدْ

ويَنبغِي أن يكونَ هذا الحُكْم مقيّداً لا مطلقاً، لأنّه إذا أضرّ الصِّدْق ضَرَراً عظيماً يؤدِّي إلى تَلَف النَّفْس أوْ إلى قَطْع بعضِ الأعضاء لم يَجُزْ فِعلُه صَريحاً، ووجَبتْ المعَاريضُ حينئذٍ.

قال‌عليه السلام: «وأن لا يكونَ في حديثِك فَضْل عن علمِك»، مَتَى زاد مَنطِق الرجل على عِلْمِه فقد لَغَا وظَهَر نقصُه، والفاضلُ من كان عِلمُه أكثرَ من مَنطِقه. قوله: «وأن تَتّقي الله في حديثِ غيرك»، أي في نَقْلِه وروايتِه فَترْوِيه كما سَمِعْتَه من غير تحريف.



الأصْلُ:

وقال‌عليه السلام: يَغْلِبُ ٱلْمِقْدَارُ عَلَىٰ التَّقْدِيرِ، حَتَّىٰ تَكُونَ ٱلآفَةُ فِي التَّدْبِيرِ.

قال: وقد مضى هذا المعنى فيما تقدم برواية تخالف هذه الألفاظ[1].

الشّرْحُ:

قد تقدَّم هذا المعنى، وهو كثيرٌ جداً، ومن جيّده قول الشاعر:

لعَـمْرُك مـا لامَ ابـنُ أخـطبَ نـفْسَه   ولكـنه مـن يَـخْذُل الله يـخذلِ

لجاهدَ حتى تَـبلُغَ النـفس عُـذْرَها   وقَـلْقَل يـبغي العِـزَّ كـلَّ مُـقَلْقَلِ

١. يريد الشريف الرضي بهذا الحكمة ١٧ «تذلّ الأُمور للمقادير حتىٰ يكون الحتف في التدبير».



الأَصْلُ :

وقال عليه السلام : اَلْحِلْمُ وَٱلأَنَاةُ تَوْأَمَانِ يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ[١] .

الشّرْحُ :

قد تقدّم هذا المعنى وشرحه مراراً. وكان يقال: الأنـاة حِـصْن السـلامة، والعَـجلة مـفتاحُ الندامة. وكان يقال: التأنّي مع الخَيْبة، خيرٌ من التهوُّر مع النّجاح.



الأَصْلُ :

وقال عليه السلام : اَلْغِيبَةُ جُهْدُ ٱلْعَاجِزِ[٢] .

الشّرْحُ :

وقيل للأحنف: مَنْ أشرَف الناس؟ قال: من إذا حَضَر هابُوه، وإذا غاب اغتابوه.



الأَصْلُ :

وقال عليه السلام : رُبَّ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ ٱلْقَوْلِ فِيهِ.

---

١. الحِلْم: إمساك النفس عن هيجان الغضب. الأناة: عدم العجلة والتروي في الشيء. التوأمان: المولودان في بطن واحد.

٢. الغيبة: ذكرك أخاك المؤمن بما يكره وهو غائب، وهي سلاح العاجز ينتقم به من عدوّه، وهي جهده: أي غاية ما يمكنه.

الشّرْحُ :

طالَما فُتِن الناسُ بثناءِ النّاس عليهم ، فيقصِّر العالِم في اكتساب العِلم اتّكالاً على ثَناءِ النّاس عليه ، ويقصِّر العابدُ في العِبادة اتّكالاً على ثَناءِ الناسِ عليه ، ويقول كلّ واحد منهما : إنّما أردتُ ما اشتَهَرْتُ به ، للصِّيت ، وقد حَصَل ، فلِمَاذا أتكلّف الزّيادة ، وأُعاني التّعب ! وأيضاً فإنّ ثَنَاء النّاس على الإنسان يَقتضي اعتراء العُجْب له ، وإعجاب المرءِ بنَفْسه مُهلِك .

قال ابن أبي الحديد : واعلمْ أنّ الرّضيّ قَطَع كتابَ نَهج البلاغة على هذا الفَصْل ، وهكذا وجدتُ النُّسخة بخَطّه وقال : (هذا حين انتهاء الغاية بنا إلى قَطْع المُنتزَع من كلام أمير المؤمنين : حامِدين لله سبحانَه على ما مَنَّ به من توفيقِنا لضمّ ما انتشَرَ من أطرافه وتقريب ما بَعُد من أقطاره ، مقرِّرين العزَم كما شرطْنا أوّلاً على تفضيل أوراقٍ من البياض في آخِر كلّ باب من الأبواب ، لتكون لاقتناص الشارِد ، واستِلْحاقِ الوارد ، وما عَساه أن يَظهرَ لنا بعد الغمُوض ، ويقع إلينا بعد الشّذوذ ، وما توفيقُنا إلّا بالله ، عليه توكّلنا ، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيل ، نعمَ المولَى ونعمَ النّصير) .

ثم وجَدْنا نسخاً كثيرةً فيها زيادات بعد هذا الكلام ؛ قيل : إنها وُجِدَتْ في نسخةٍ كتبتْ في حَيَاةِ الرَّضيّ وقُرِئت عليه فأمضاها ، وأَذِن في إلحاقِها بالكِتاب ونحن نذكرها .



الأصْلُ :

وقال : الدُّنْيَا خُلِقَتْ لِغَيْرِهَا ، وَلَمْ تُخْلَقْ لِنَفْسِهَا .

الشّرْحُ :

قال أبو العلاء المَعَرّيّ ـ مع ما كان يُرمَى به ـ في هذا المعنى ما يُطابِق إرادةَ أمير المؤمنين بلَفْظه هذا :

خُلِقَ الناسُ للبَقاءِ فضَلّتْ أمّـةٌ يـحسَبونَهم للـنَّفادِ

إنّما يُنقَلون من دارِ أعـما لِ إلى دارِ شِقْوةٍ أو رَشادِ



الأصْلُ :

وقال عليه السلام : إنَّ لِبَنِي أُمَيَّةَ مِرْوَداً يَجْرُونَ فِيهِ ، وَلَوْ قَدِ آخْتَلَفُوا فِيما بَيْنَهُمْ ثُمَّ كَادَتْهُمُ الضِّبَاعُ لَغَلَبَتْهُمْ .

قال الرضيّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : وهذا من أفصح الكلامِ وأغربِه . والمِرْوَدُ هاهنا مِفْعَل من الإِرْوَاد ، وهو الإمهال والإنظَارُ ، فكأنه عليه السلام شبّه المهلة التي هم فيها بالمِضْمارِ الذي يجْرُون فيه إلى الغاية ، فإذا بلغوا منقَطَعها انتقض نظامُهُم بعدها .

الشّرْحُ :

هذا إخبارٌ عن غَيْب صريح ، لأنَّ بني أُميّة لم يزل مُلكُهم منتظِماً لمّا لم يكن بينهم اختلاف ، وإنّما كانت حروبُهم مع غيرهم كحَرْب معاويةَ في صِفِّين ، وحرب يزيد أهلَ المدينة ، وابن الزبير بمكّة ، وحرب مروانَ الضحّاك ، وحَرْب عبد الملك ابنَ الأشعث وابنَ الزبير ، وحرب يزيد ابنه بني المهلّب ، وحرب هشام زيدَ بن علي ، فلمّا ولي الوليد بن يزيد وخرج عليه ابنُ عمّه يزيد بن الوليد وقتَلَه ، اختلفتْ بنو أُميّة فيما بينهما ، وجاء الوعدُ ـ وصَدَق من وعد به ـ فإنّه منذ قتل الوليد دَعت دعاةُ بني العبّاس بخُراسان ، وأقْبَلَ مروانُ بنُ محمّد من الجزيرة يَطلُب الخلافة ، فخلع إبراهيم بن الوليد ، وقَتَل قوماً من بني أُميّة ، واضطرَب أمرُ الملك وانتَشَر ، وأقبَلت الدولةُ الهاشميّة ونَمَتْ ، وزال مُلْك بني أُميّة ، وكان زَوال مُلْكهم على يد أبي مُسلِم ، وكان في بدايته أضعفَ خَلْق الله وأعظمَهم فَقْراً ومَسكَنة ، وفي ذلك تَصديقُ قوله عليه السلام : «ثمّ لو كادَتْهم الضِّباع لغَلَبَتهم» .



الأصْلُ :

وقالعليه السلام في مدحِ الأنصارِ: هُمْ وَٱللهِ رَبَّوُا ٱلْإِسْلَامَ كَمَا يُرَبَّىٰ ٱلْفِلْوُ مَعَ غَنَائِهِمْ بِأَيْدِيهِمُ السِّبَاطِ، وَأَلْسِنَتِهِمُ السِّلَاطِ[1].

الشّرْحُ :

ويُروَى: «بأيديهم البِساط»، أي الباسِطة، والأُولى جَمْع سَبْط يَعنِي السَّماح، وقد يقال للحاذق بالطَّعن: إنّه لسَبْط اليَدَين، يريدُ الثّقافة. وألسنتهم السِّلاط، يعني الفَصيحة.

وقد تقدّم القولُ في مَدْح الأنصار، ولو لم يكن إلّا قولُ رسولِ اللهصلى الله عليه وآله فيهم: «إنّكم لتَكثرُون عند الفَزَع، وتَقِلّون عند الطَّمَع»، لكان فخراً لهم. وهذا عظيمٌ جدّاً وفوق العَظِيم، ولا ريبَ أنّهم الّذين أيّد اللهُ بهم الدّين، وأظهَرَ بهم الإسلام بعد خَفائِه. ولولاهم لَعَجز المهاجرون عن حَرْب قريش والعرب، وعن حِمايةِ رَسولِ اللهصلى الله عليه وآله ولولا مَدينتهم لم يكن للإسلام ظَهْر يَلْجؤون [إليه]، ويكفِيهم فَخْراً يوم حَمْراء الأسد، يوم خرجَ بهم رسولُ اللهصلى الله عليه وآله إلى قريش بعد ٱنْكسار أصحابِه، وقتلِ مَن قُتل منهم، وخرجوا نحوَ القوم والجراحُ فيهم فاشية، ودماؤهم تَسيل، وإنّهم مع ذلك كالأُسْد الغِراث تَتواثَب على فَرائِسها، وكم لهم من يوم أغرّ محجَّل! وقالت الأنصار: لولا عليّ بنُ أبي طالبعليه السلام في المهاجِرين لأَبَيْنا لأنْفُسناً أن يُذكَر المهاجرون مَعنا، أو أن يُقرَنوا بنا، ولكنْ رُبَّ واحدٍ كألف؛ بل كألُوف.



الأصْلُ :

وقالعليه السلام: ٱلْعَيْنُ وِكَاءُ السَّهِ.

---

١. ربّوا الإسلام: من التربية والإنماء، والمراد أنهم أقاموا على تقوية الدين ونصرته ودعمه. الفلو: المهر إذا بلغ سنة.

قال الرضي (رَحمةُ اللهُ تعالى) : وهذه من الاستعارات العجيبة ، كأنه يشبه السَّتَهَ بالوعاء ، والعين بالوكاء ، فإذا أطلق الوكاء لم ينضبط الوعاء . وهذا القول في الأشهر الأظهر من كلام النبيﷺ ، وقد رواه قوم لأمير المؤمنينؑ ؛ وذكر ذلك المبرد في كتاب (المقتضب) في باب اللفظ بالحروف .

قالَ الرَّضيّ : وقد تكلمنا على هذه الاستعارة في كتابنا الموسوم (بمجازات الآثار النبوية) .

الشّرْحُ :

المعروف أنّ هذا من كلام رسول اللهﷺ ، ذكَرَه المحدِّثون في كُتبِهم وأصحابُ غريب الحديث في تصانيفهم، وأهلُ الأدب في تفسير هذه اللّفظة في مجموعاتهم اللّغوية ، ولعل المبرِّد اشتبَه عليه فنَسَبه إلى أمير المؤمنينؑ ، والرواية بلَفْظ التثنية : «العَيْنان وِكاءُ السَّتَهِ» ، والسَّتَهُ : الاسْتُ .

وقد جاء في تمامِ الخَبَر في بعض الرّوايات : «فإذا نامت العَيْنان استَطلَق الوِكاء» ، والوكاء : رِباطُ القِرْبة ، فجعل العَيْنين وِكاء ـ والمُرَادُ اليَقَظة ـ للسَّتَه كالوِكاء للقِرْبة ، ومنه الحديث في اللُّقَطة : «احْفَظ عِفاصَها ووِكاءها ، وعرّفها سنةً ، فإن جاء صاحِبُها وإلّا فشأنَك بها» ، والعِفاص : السِّداد ، والوكاء : السّداد ، وهذه من الكِنايات اللطيفة .



٤٧٦

الأصْلُ :

وقالؑ في كلامٍ لَه : وَوَلِيَهُمْ وَالٍ فأَقَامَ وَٱسْتَقَامَ ، حَتَّىٰ ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ .

الشّرْحُ :

الجِران : مقدَّم العُنُق ، وهذا الوالي هو عمرُ بنُ الخَطّاب[١] .

---

١. قال محمد عبده: يريد بالوالي هنا : النبيﷺ . ووليهم : أي تولّى أُمورهم وسياسة الشريعة فيهم. انتهى.

وهذا الكلامُ من خطْبةٍ خَطبها في أيّام خلافته طويلةٍ ؛ يذكر فيها قُرْبه من النبيﷺ واختصاصه له ، وإفضاءَه بأسراره إليه ، حتى قال فيها : «فاختار المسلمون بعده بآرائهم رجلاً منهم ، فقارَبَ وسَدّد حَسَب استطاعته على ضَعْفٍ وَحدّ كانا فيه ، وليهم بعده وَالٍ ، فأقامَ واستقامَ حتى ضَرَب الدِّين بِجرانِه ، على عَسْف وعَجْرَفيّة كانا فيه ، ثمَّ اختلفوا ثالثاً لم يكن يملك من أمر نفسه شيئاً ، غَلَب عليه أهلُه فقادوه إلى أهوائهم كما تقود الوليدةُ البعير المخْطوم ، فلم يزل الأمرُ بينه وبين الناس يَبعُد تارة ويقرُب أُخرىٰ حتى نزَوْا عليه فقتَلوه ، ثم جاءوا بي مَدَبَّ الدَّبا يريدون بَيْعتي» . وتمام الخطبة معروف ، فليطلب من الكُتُب الموضوعة لهذا الفنّ .



الأَصْلُ :

وقالﷺ : يَأْتِي عَلَىٰ النَّاس زَمَانٌ عَضُوضٌ ، يَعَضُّ ٱلْمُوسِرُ فِيهِ عَلَىٰ مَا فِي يَدَيْهِ ، وَلَمْ يُؤْمَرْ بِذٰلِكَ ، قَالَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ ﴿وَلَا تَنْسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ ؛ يَنْهَدُ فِيهِ ٱلْأَشْرَارُ ، وَيُسْتَذَلُ ٱلْأَخْيَارُ ، وَيُبَايِعُ ٱلْمُضْطَرُّونَ ، وَقَدْ نَهَىٰ رَسُولُ ٱللهِﷺ عَنْ بَيْعِ ٱلْمُضْطَرِّينَ .

الشّرْحُ :

زمانٌ عَضُوض ؛ أي كلِب على النّاس ، كأنه يَعَضّهم ، وفُعول للمبالَغة ، كالنَّقور والعَقوق ، ويجوز أن يكون من قولهم : بئرٌ عَضُوض ، أي بعيدةُ القَعْر ضَيّقة ، وما كانت البئر عَضُوضاً ، فأعضّت ، كقَوْلهم : ما كانت جَرُوراً فأجرّت ، وهي كالعَضوض . وعَضّ فلانٌ على ما في يده ، أي بَخِل وأمسك .

⟵ وقولهﷺ : «فأقام واستقام» ، أي لم يكن عمر مثل عثمان لم يملك أمر نفسه ، وكان عمر بالضدّ ، كان مستبداً . وقولهﷺ : «علىٰ عسف وعجرفية كانا فيه » : كقولهﷺ في الشقشقية : «حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخش مسّها ويكثر العثار فيها ...» نهج الصباغة للتستري ٩ : ٥٠٩ .

وينْهد فيه الأشرار، ينهضون إلى الولايات والرِّياسات، وترتفع أقدارُهم في الدنيا. ويُستَذَلّ فيه أهْل الخيْر والدِّين، ويكون فيه بَيْعٌ على وجه الاضطرار والإلجاء؛ كمن يبيعُ ضَيْعَته؛ وهو ذليل ضعيف، مِن ربِّ ضَيْعةٍ مجاورة لها ذي ثَرْوة وعِزّ وجاه فيلجِئه بمَنْعه الماء واستذلاله الأكرةَ والوكيل إلى أن يبيعها عليه؛ وذلك منهيٌّ عنه، لأنّه حرامٌ مَحْض.



٤٧٨

الأصْلُ:

وقال ﷺ: يَهْلِكُ فِيَّ رَجُلاَنِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ، وَبَاهِتٌ مُفْتَرٍ.

قال الرضي ؒ: وهذا مثل قوله ﷺ: «هَلَكَ فِيّ اثْنانِ: مُحِبٌّ غَالٍ، وَمُبْغِضٌ قَالٍ».

الشّرْحُ:

قد تقدّم شرحُ مِثلِ هذا الكلام؛ وخلاصةُ هذا القول: أنّ الهالك فيه المُفْرِط والمفرِّط. أما المُفرِط فالغُلاة، ومن قال بتكفير أعيان الصّحابة ونفاقِهم أو فِسْقهم، وأمّا المُفرِّط فمن استنقص به ﷺ أو أبغَضَه أو حارَبَه أو أضمَر له غِلّاً؛ ولهذا كان أصحابُنا أصحابَ النّجاة والخلاص والفَوْز في هذه المسألة؛ لأنّهم سَلَكوا طريقةً مقتصدة. قالوا: هو أفضل الخَلْق في الآخرة، وأعلاهُم منزلةً في الجنّة، وأفضل الخَلق في الدّنيا، وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب، وكلّ من عاداه أو حاربه أو أبغَضَه فإنه عدوٌّ لله سبحانه وخالدٌ في النّار مع الكفّار والمنافقين، إلّا أن يكون ممن قد ثبتتْ توبتُه، ومات على تولِّيه وحُبِّه.

فأما الأفاضلُ مِن المهاجرين والأنصار الذين وَلُوا الإمامَة قبله فلو أنّه أنكر إمامتَهم وغضب عليهم، وسخط فعلهم، فضلاً عن أن يُشهِر عليهم السيف، أو يدعو إلى نفسه، لقُلْنا: إنهم من الهالكين، كما لو غضب عليهم رسول الله ﷺ، لأنّه قد ثبت أنّ رسول الله ﷺ قال له: «حربُك حَرْبي، وسَلْمك سَلْمي»، وأنه قال: «اللهم والِ مَن ولاه، وعاد من عاداه»، وقال له: «لا يُحبُّك إلّا مُؤمن، وَلا يبغضك إلّا مُنافِق»، ولكنا رأيناه رضيَ إمامَتَهم وبايعهم وصلّى

خلفهم وأنكحهم وأكل من فيئهم، فلم يكن لنا أن نتعدّى فعله، ولا نتجاوز ما اشتهر عنه؛ ألا ترى أنه لما برئ من معاوية برئنا منه، ولمّا لَعَنه لعنّاه، ولمّا حَكم بضلال أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصّحابة كعَمْرو بن العاص وعبد الله ابنه وغيرهما حكمنا أيضاً بضلالهم!

والحاصل أنا لم نَجْعل بينه وبين النبي ﷺ إلّا رتبة النبوّة، وأعطيناه كلّ ما عدا ذلك من الفَضْل المشترك بينه وبينه، ولم نَطعَن في أكابر الصحابة الذين لم يصحّ عندنا أنه طعن فيهم، وعاملْناهم بما عامَلَهم عليه السلام به[1].

---

١. قال العلّامة التستري في معرض ردّه علىٰ ابن أبي الحديد ما ملخّصه:

قال: قلت: كلامه كله خلط وخبط، فهو عليه السلام انما قال بهلاك محبه الغال القائل بألوهيته، من أين زاد عليه: (من قال بتكفير صحابة تقدموا عليه عليه السلام).

وأمّا قوله: (ولو أنه انكر امامتهم لقلنا أنهم من الهالكين) فمن المضحك، فالإنكار أحمر أو أخضر، وله قرن أو ذنب، وكيف لم ينكر وقد ملأت إنكاراته يوم السقيفة، ويوم الشورى ما بين السماوات والأرض، وهذا كتابه إلى معاوية في جواب كتابه: «وقلت أني كنت أُقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أُبايع، ولعمر الله لقد أرادت أن تذم فمدحت، وأن تفضح فافتضحت، وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوماً »؟ [نهج البلاغة / ضمن كتاب ٢٨].

وألم يأمر عمر يوم الشورى بقتل من خالف دستوره في تمهيده انتقال الأمر إلىٰ عثمان؟ وكيف يعقل تقدم جمع جهّال ذوي بدع ومناكير على مثله عليه السلام الّذي كان شريكاً للنبيّ ﷺ في كل كمال وفضيلة سوى أصل النبوة؟ ألم يقل النبيّ للناس: «من كنت أولى به فعلي أولى به» ؟ [حديث الغدير المتواتر / انظر ابن عساكر ٢ : ٤]، فهل كان ذلك منه لفظ بلا معنى؟

وكلام هذا الرجل هنا نظير كلام عابدي الأصنام: إنّ الله تعالى خالق السماوات والأرض وما بينهما، ومن ذلك فالأصنام آلهة مثله وشركاؤه، قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخّر الشمس والقمر ليقولن الله فأنّى يؤفكون﴾.

ألم يكفِ الرجل في إنكاره عليه السلام أمر شيخيه إغضاؤه عن حقه يوم الشورىٰ لما طلبوا منه العمل بسنتهما [الطبري ٣: ٣٠١]، وكذلك يوم حدوث الخوارج وبيعة أصحابه عليه السلام له ثانية، فذلك يكفي إتمام حجة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؟

ألم يكفه شكاياته عليه السلام طول أيامه في إمرة الثلاثة وفي إمرته؟ ألم يكفه شكايات سيدة نساء العالمين وتكفيرها لهم صريحاً في كلماتها؟ وموتها كمداً مما عاملوها! ودفن أمير المؤمنين لها سراً! وقد كان عليه السلام يقول: «ظُلمت عدد المدر والوبر»! [الجمل، للمفيد ٩٢].



الأصْلُ :

وسُئل عن التوحيد والعدل ؛ فقال : التَّوْحِيدُ أَلَّا تَتَوَهَّمَهُ ، وَٱلْعَدْلُ أَلَّا تَتَّهِمَهُ .

الشّرْحُ :

معنى قوله : «ألّا تتوهّمه» ، أي ألّا تتوهّمهُ جِسْماً أو صورةً أو في جهةٍ مخصوصة ، أو مالئاً لكلِّ الجهات كما ذَهَبَ إليه قومٌ ، أو نُوراً من الأنوار ، أو قوّة ساريةً في جميع العَالم ، كما قالَه قومٌ ، أو مِنْ جنس الأعْرَاض الّتي تَحُلُّ المَحالّ أو تَحُل المَحَلّ ، وليس بعَرَض كما قاله النّصارى وغُلاة الشِّيعة ، أو تحلّه المعاني والأعراض ، فمتى تُوُهّم على شيء مِنْ هذا فقد خُولف التوحيد .

وأمّا الركن الثاني فهو ألّا تتّهمه ، أي لا تتّهمه في أنه أجْبَرك على القبيح ، ويعاقبك عليه ،

↔ وأمّا قوله : (لو أنكر عليهم كما أنكر على معاوية لتبرأنا منهم) فغلط ومغالطة ، فالفرق بين يوم السقيفة ويوم معاوية كثير ، فيوم معاوية كان كما قال عليه السلام لو لم يكن أنكر وشهر السيف كان كفراً واضمحلالاً للإسلام [الاستيعاب ابن عبد البر ٣ : ٥٣] ، كما أنّ يوم السقيفة لو كان خرج لاضمحلّ أصل الإسلام لحدوث عهدهم بالكفر ، وهو عليه السلام كان كالنبي صلى الله عليه وآله يتحمل كل مشقة في سبيل الإسلام بعده كما معه ، والثلاثة كانوا لا يبالون أن يبدل الإسلام بالكفر ، فاغتنموا عداوة قريش المؤلفة الّذين حاربوا النبيّ صلى الله عليه وآله وكان وترهم على يده عليه السلام أن ينالوا بها الرئاسة والإمرة ، ولم يكن لهم أثر في الإسلام إلّا الفرار في الغزوات .

كما أن قوله : (بأنه عليه السلام صلى خلفهم وأنكحهم وأكل من فيئهم ، فرضي بإمامتهم) غلط ، فالتقية تجوز اظهار الكفر ، مع أن صلاته عليه السلام خلفهم كانت لا عن اقتداء ، فقالت عترته عليهم السلام : انه بعد صلاة جمعته خلفهم كان يضيف إليها ركعتين ، وأمّا إنكاحهم فكان الرجل ذا سلطان فأجبره كما لا يخفى على من راجع سيرهم ، وكفاهم بذلك طعناً وشناعة . [الكافي ، للكليني ٣ : ٣٧٤ ح٦] .

وفي كتاب معاوية إلى محمّد بن أبي بكر : (فهمّا به الهموم وأرادا به العظيم) . [المسعودي / مروج الذهب ٣ : ١٢] .

وأمّا أكله من فيئهم فإنما كان لأنّ حكم الله ـ كما بيّنه عترته عليهم السلام ـ أن الجهاد إذا لم يكن من قبل الإمام فكل ما غنموه له عليه السلام ، والكتاب والسنة يحكمان بثبوت الخمس له ، فمنعوه الخمس كما أخذوا فدك منه غصباً وأجروه في الخمس كرجل منهم ، فلِمَ لا يأخذ جزءاً من جزءٍ من حقه؟

حاشَاه من ذلك! ولا تتّهمه في أنّه مَكّن الكَذّابين من المعجزات، فأضَلّ بهم الناس، ولا تتهمه في أنّه كلّفك ما لا تُطِيقه، وغير ذلك.



الأَصْلُ :

وقال عليه السلام في دُعاءٍ اسْتَسْقَى بِهِ : اللَّهُمَّ ٱسْقِنَا ذُلُلَ السَّحَابِ دُونَ صِعَابِهَا.

قال الرضي رحمه الله :

وهذا من الكلام العجيب الفصاحة. وذلك أنه عليه السلام شبّه السُّحُبَ ذوات الرعود والبوارق والرياح والصواعق، بالإبل الصعاب التي تقمص برحالها، وتَتَوقَّص بركبانها، وشبّه السَّحاب الخالية من تلك الزوابع بالإبل الذلل التي تُحتلب طيّعة، وتُقتعد مُسمحة.

الشّرْحُ :

قد كَفَانا الرضيُّ رحمه الله بَشرْحه هذه الكلمةَ مَؤُونَة الخَوْض في تفسيرها.



الأَصْلُ :

وقيل له عليه السلام : لو غَيّرتَ شيبَكَ يا أميرَ المؤمنين! فقال عليه السلام : ٱلْخِضَابُ زِينَةٌ، وَنَحْنُ قَوْمٌ فِي مُصِيبَةٍ برسول ٱلله صلى الله عليه وآله.



الأَصْلُ :

وقال ﷺ : مَا الْمُجَاهِدُ الشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ ٱللهِ بِأَعْظَمَ أَجْراً مِمَّنْ قَدَرَ فَعَفَّ[1] ؛ لَكَادَ ٱلْعَفِيفُ أَنْ يَكُونَ مَلَكاً مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ.

الشّرْحُ :

قد تقدّم القولُ في العِفّة، وهي ضُرُوب: عِفّة اليد، وعِفّة اللسان، وعِفّة الفَرْج، وهي العُظْمَى، وقد جاء في الحديث المرفوع: «مَن عَشِق فكَتَم وعَفّ وصَبَر فماتَ ماتَ شهيداً ودخَل الجنّة».

وفي حكمةِ سليمانَ بن داود: إن الغالبَ لِهوَاه أشدّ من الّذي يَفتَح المدينة وحدَه.



الأَصْلُ :

وقال ﷺ : ٱلْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ.

قال: وقد روىٰ بعضهم هذا الكلام لرسول الله ﷺ .

الشّرْحُ :

قد تَقدَّم القولُ في هذا المعنى[2]، وقد تكرّرتْ هذه اللّفظة بذاتِها في كلامِه ﷺ .

---

١. العفة: هي ضبط النفس عن الملاذ الحيوانيّة.

٢. تقدم مثله في الحكمة ٥٥.



الأصْلُ:

وقال عليه السلام لزياد بن أبيه وقد استخلَفَه لعبد الله بن العبّاس على فارس وأَعمالِها، في كلام طويل كان بينهما، نهاه فيه عن تقدُّم الخراج:
آسْتَعْمِلِ آلْعَدْلَ، وَآحْذَرِ آلْعَسْفَ وآلْحَيْفَ، فَإِنَّ آلْعَسْفَ يَعُودُ بِالْجَلَاءِ، وَآلْحَيْفَ يَدْعُو إِلَىٰ السَّيْفِ[1].

الشّرْحُ:

قد سَبَق الكلامُ في العَدْل والجَوْر.

وكانت عادة أهلِ فارس في أيّام عثمانَ أن يَطلُب الوالي منهم خرَاجَ أملاكِهم قبل بَيْع الِّثمار على وَجْه الاسْتِسْلاف، أو لأنّهم كانوا يظنّون أن أوّل السنّة القَمَريّة هو مُبتدَأ وجُوبِ الخرَاج حَمْلاً للخَراج التابع لسَنَة الشّمس على الحُقوق الهلاليّة التابعة لسَنَة القَمَر، كأُجْرةِ العَقار، وجَوالِي أهلِ الذِّمّة، فكان ذلك يُجْحِف بالنّاس ويدعو إلى عَسْفِهم وحَيْفِهم.



الأصْلُ:

وقال عليه السلام:
أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا آسْتَخَفَّ بِهَا صَاحِبُها[2].

---

١. العسف: الشدّة في غير حقّ. الحيف: الميل عن العدل إلىٰ الظلم. وهو ينزع بالمظلومين إلىٰ القتال لإنقاذ أنفسهم. الجلاء: التفرّق والتشتّت.

٢. مرّ مثله في الحكمة (٣٥٤) بلفظ: ما استهان بدل ما استخفّ.

الشَّرْحُ :

عُظْمُ المصيبةِ على حَسَب نِعْمة العاصي، ولهذا كان لَطْم الولد وجهَ الوَالدِ كبيراً ليس كلَطمةِ وجه غيرِ الوَالد.

ولمّا كان الباري تعالى أعظَمَ المُنعِمين، بل لا نِعمةً إلّا وهي في الحَقيقةِ مِن نِعَمه، ومنسوبة إليه، كانت مخالفَتَه ومعصِيَته عظيمة جدّاً، فلا ينبغي لأحدٍ أن يعصِيَه في أمرٍ وإن كان قليلاً في ظَنّه، ثم يستقلّه ويستهين به، ويُظهِر الاستخفافَ وقلّة الاحتفال بمواقَعته، فإنّه يكون قد جَمَع إلى المعصية معصيةً أُخرىٰ، وهي الاستخفاف بقَدْر تلك المعصية الّتي لو أمعَن النَّظَر لَعلم أنّها عظيمة، ينبغي له لو كان رشيداً أن يَبكِيَ عليها الدَّم فَضْلاً عن الدَّمْع، فلهذا قالعليه السلام: «أشدّ الذنوب ما استَخَفَّ بها صاحِبها».



الأَصْلُ :

وقالعليه السلام : مَا أَخَذَ ٱللهُ عَلَىٰ أَهْلِ ٱلْجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّىٰ أَخَذَ عَلَىٰ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ أَنْ يُعَلِّمُوا.

الشَّرْحُ :

تعليمُ العِلْم فرضُ كفايةٍ، وفي الخَبَرِ المرفوعِ «من عَلِم عِلْماً وكَتَمَهُ ألجَمَهُ اللهُ يومَ القيامة بِلجامٍ من نار».



الأَصْلُ :

وقالعليه السلام: شَرُّ ٱلْإِخْوَانِ مَنْ تُكُلِّفَ لَهُ.

الشّرْحُ :

إنما كان كذلك لأنّ الإخاء الصادق بينهما يوجب الانبساط، وترك التكلف، فإذا احتيج إلى التكلّف له فقد دلّ ذلك على أن ليس هناك إخاء صادق، ومن ليس بأخ صادق فهو من شرّ الإخوان.



الأصْلُ :

وقال عليه السلام : إِذَا ٱحْتَشَمَ ٱلْمُؤْمِنُ أَخَاهُ فَقَدْ فَارَقَهُ.

الشّرْحُ :

ليس يعني أن الاحتشام علة الفرقة، بل هو دلالة وأمارة على الفرقة؛ لأنّه لو لم يَحْدُث عنه ما يقتضي الاحتشام لا نبسط على عادته الأُولى، فالانقباض أمارة المباينة.

* * *

هذا آخر ما دَوّنه الرَّضيّ أبو الحسن رحمه الله من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في (**نهج البلاغةِ**)، قد أتينا على شرحِه بمعونةِ اللهِ تعالى.

* * *

ولله المنّة والشكر على توفيقه، وهو حسبنا ونعم الوكيل فقد وقع الفراغ من هذا المختصر في ١ ذي الحجة سنة ١٣٢٣ هـ أسأله تعالى بكرمه ولطفه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وختم ابن أبي الحديد (رحمه الله) شارح نهج البلاغة كتابه بقوله وصلى الله على سيّدنا ونبيّنا محمد وآله الأطهار الأبرار وسلّم تسليماً كثيراً...

وأنا أستغفرُ الله العظيم من كلِّ ذنب يُبعدُ من رحمته، ومن كل خاطرٍ يدعو إلى الخروج عن طاعته؛ وأستشفعُ إليه بمن أنصبتُ جسدي، وأسهرتُ عيني، وأعملت فكري، واستغرقتُ طائفةً من عمري، في شرح كلامه، والتَّقرُّبِ إلى الله بتعظيم منزلته ومقامه، أن يعتق رقبتي من النّار، وألّا يبتليني في الدّنيا ببلاء تعجز عنه قوّتي، وتضعف عنه طاقتي،

وأن يصون وجهي عن المخلوقين، ويكفَّ عنّي عادية الظالمين، إنه سميعٌ مجيبٌ، وحسبنا اللهُ وحده وصلواته علىٰ سيدنا محمّدٍ النبيِّ وآله وسلامه.

تمّ بحمد الله تعالىٰ نهج البلاغة بشرح ابن أبي الحديد.

وأنا العبد المفتقر إلىٰ رحمة الله ورضوانه عبد الهادي بن السيد مجبل الحسيني الشريفي أحمد الله الذي أكرمني بإتمام هذا التهذيب المستخلص من شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة، وما أوردت فيه من نكات مهمة في الهوامش دفاعاً عن الحقيقة وتحقيق نصوصه بقدر وسعي وطاقتي.

أرجو أن يسد هذا الأثر الخالد فراغاً كبيراً في المكتبة الإسلامية، ويعين المطالع الكريم علىٰ الوصول إلىٰ مقاصد أمير البيان عليه السلام.

أسأل الباري عزوجل أن يغفر لي ولوالدي وأهل بيتي، وأن يمنّ بقوته علىٰ ضعفي، وبغناه علىٰ فقري ويكفني المهمّ من أمر دنياي وآخرتي، ويقبل تقربي إليه بهذه البضاعة المزجاة ويجعلها جوازي إلىٰ شفاعة سيد الوصيّين عليه السلام إنه سميع مجيب. والصلاة وأتمّ التسليم علىٰ سادة الخلق محمد وآله الطاهرين الأوصياء المرضيين.

وقع الفراغ منه في ٢٣ ربيع الثاني ١٤٢٥، المصادف ١٢ حزيران ٢٠٠٤، والله ولي التوفيق والتسديد، والحمد لله ربّ العالمين.

الفهارس



فهرس الآيات الكريمة

الفاتحة

البقرة

آل عمران

النساء

المائدة

الأنعام

الأعراف

الأنفال

التوبة

يونس

هود

يوسف

الرعد

إبراهيم

يونس

هود

يوسف

الرعد

إبراهيم

الحِجر

النحل

الإسراء

الكهف

مريم

طه

الأنبياء

الحجّ

المؤمنون

النور

الفرقان

الشعراء

النمل

القصص

العنكبوت

سبأ

فاطر

يسٓ

الصافّات

صٓ

الزمر

غافر

الدخان

الجاثية

الأحقاف

محمّد

﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾	٣١	١ / ٤٢٧
﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَايَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم﴾	٣٨	١ / ٦٩١

الفتح

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾	٦	٢ / ٣٢٣
﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا﴾	٨	٢ / ٣٢٧
﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾	١٠	١ / ٩٥؛ ٢ / ١٢٦
﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾	١٢	١ / ٤٤٧

الحجرات

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾	٣	٢ / ٨٨
﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا﴾	٦	١ / ٤٦٦، ٤٩٩
﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾	٩	١ / ٥٨٤
﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَـٰكُمْ﴾	١٣	١ / ٤٠١؛ ٢ / ٤٤٣
﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾	١٥	١ / ٥٩٤
﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّاتَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم﴾	١٧	١ / ٥٢٩

قٓ

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾	٧	١ / ٦١٦، ٦٢٨
﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾	١٦	١ / ٣٣٦
﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾	٢٧	١ / ٦٣٠
﴿لَاتَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾	٢٨	٢ / ٥٦٩
﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾	٢٩	٢ / ٥٦٩

الدخان

الجاثية

الأحقاف

محمّد

الذاريات

الطور

النجم

القمر

الرحمن

الواقعة

الحشر

الممتحنة

الصفّ

الجمعة

الطلاق

التحريم

الملك

القلم

الحاقّة

المعارج

نوح

الجنّ

المزّمّل

المدّثّر

القيامة

النبأ

النازعات

التكوير

الانفطار

المطفّفين

الفجر

البلد

الضحى

الشرح

العلق

القدر

البيّنة

الزلزلة

العاديات

القارعة

التكاثر

الهمزة

الإخلاص

الفلق

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام

فهرس البلدان والأماكن



فهرس الجماعات والقبائل

فهرس الكتب

محتويات الكتاب

باب الخطب والأوامر

باب الكتب والرسائل

باب الحكم والمواعظ

حكمه عليه السلام ومواعظه ويدخل في ذلك المختار من أجوبة مسائله وكلامه القصير في سائر أغراضه.



